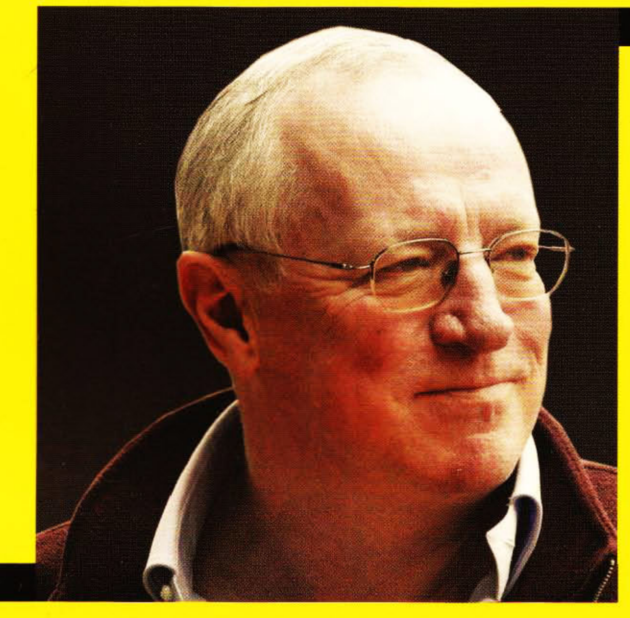
زمن المحارب

روبرت فيسك



موضوعات أقلقت العالم ولأول مرة شيء من خصوصيات فيسك

- كتابات مختارة -



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



زمن المحارب



روبرت فيسك

زمن المحارب

موضوعات أقلقت العالم وللمرة الأولى

شيء من خصوصيات فيسك

كتابات مختارة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر
شارع جان دارك ـ بناية الوهاد
ص. ب.: ٨٣٧٥ ـ بيروت لبنان
تلفون: ٣٥٠٧٢٢ ـ ٧٥٠٨٧٢ ـ ٣٤٤٢٣٦ ١ ٩٦١+
تلفون + فاكس: ٣٤١٩٠٧ ـ ٣٤٢٠٠٥ ـ ٣٥٣٠٠٠ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٠
ISBN: 978-9953-88-583-4

Originally Published in the English Language
by HarperCollins Publishers Ltd. under the title:
AGE OF THE WARRIOR
© Robert Fisk 2008

مراجعة: حبيب يونس
تدقيق: فؤاد زعيتر

الإخراج الفني: فدوى قطيش
الغلاف: داني عوّاد

المحتويات

الشكر ١١

المقدمة ١٥

الفصل الأول: عاصفة نارية تلوح في الأفق ٢١

نادوا بالخراب وأطلقوا كلاب الحرب ٢٣

مغازلة العدو ٣٥

شكرًا لك، سيد كلينتون، كلامك الودي ٤١

استعدوا للجزء الثاني من الحرب تحت ذريعة الحضارة ٤٦

قمة اليأس ٥٠

الأكاذيب التي يرويها القادة عندما يريدون أن يعلنوا الحرب ٥٥

غير مرحّب بكم ٥٩

خافوا كثيرًا: سيناريوهات بوش تستعد لاتخاذ إجراءاتها ٦٣

يمكن رجالنا أن يرفسوهم قليلًا... .... ٦٧

هواء الشرق ٧٢

الفصل الثاني: النشر وتلقي الذم، أم الاستمرار في السكوت؟ ٧٧

دعوني أستنكر الإبادة الجماعية من قفص الاتهام ٧٩

هذا كلام فارغ، سيدي السفير ٨٣

ضحية الإبادة الجماعية الأرمنية الـ ١٠٠١ ٥٠٠ ١ .... ٨٧

نشر الكتاب خلسة. . . وفي هدوء ٨٩

تعارض المصالح ٩٣

شجاعة، دموع وأحلام محطمة ٩٧
أحدهم ينكر الإبادة الجماعية في البيت الأبيض ١٠١
الفصل الثالث: كلمات، كلمات، كلمات... .... ١٠٥
الكاتب يشنّ حربًا على الصحافة الصفراء ١٠٧
كان من المفترض أن نصغي إلى بن لادن ١١٩
مرض الرطانة ١٢٥
الأكاديميون السامّون وكلامهم الفارغ على الاستبعاد ١٢٩
الكلمات الرقيقة... الأسئلة الصعبة ١٣٣
القلم والتيليكس والهاتف والبريد الإلكتروني الكريه ١٣٧
فن الكتابة المنسيّ ١٤١
صدقوا، أو لا تصدقوا ١٤٥
القتل هو القتل هو القتل... .... ١٤٩
آه، ماري المسكينة ١٥٣
وضع حرج جدًّا ١٥٨
«أبو هنري»: قدرات الدبلوماسيين ١٦٢
عبرة من المحرقة ١٦٦
الفصل الرابع: صورة العالم في عين السينما ١٧١
تصفيق من المسلمين في بيروت ١٧٣
عينا صلاح الدين ١٧٧
تحدِّيَّ ستيفن سبيلبيرغ ١٨١
دافنتشي التافه ١٨٥
حُجبت الحقيقة عنا جميعًا ١٨٩
عندما يعجز الفن عن التوافق والحياة ١٩٣
نصيب الشرطي غير سعيد ١٧٩
اصطحبوا امرأة جميلة إلى السينما ٢٠١
نهر عبر الزمن ٢٠٥

الفصل الخامس: الأزمة الكبرى منذ الأزمة الكبرى الأخيرة ٢١١
عادة طمس الموتى الطويلة والجديرة بالاحترام ٢١٣
أمور مخادعة، شريرة ٢١٨
أمل الشرق الأوسط: أزمة أوروبا! ٢٢٢
شاعر يهرب في حصن أوروبا ٢٢٦
الفصل السادس: عندما كنت طفلًا... فهمتُ كطفل ٢٣١
إحدى عملات الفارذنغ اللعينة الأخرى التي تخصّ آرثر ٢٣٣
وكيل الربان الأول إدوارد فيسك ٢٣٧
«هيا، ساتون!» ٢٤١
ليالي الحرب الباردة ٢٤٥
«هذا الحديث كلّه عن القطارات المميزة...» ٢٤٩
الخوف من الطيران ٢٥٣
الفصل السابع: الانتداب القديم ٢٥٧
لعنة الله على هذه الديموقراطية ٢٥٩
صنابير مطليّة بالذهب ٢٦٢
الرجل الذي لن يعتذر أبدًا ٢٦٦
السيدة في المقعد ك١ .... ٢٦٩
لا تذكر الحرب مهما فعلت ٢٧٢
أفضل مُدافع في العالم عن سيادة لبنان ٢٧٦
نظارات ألفونس بشير ٢٨٠
القطة التي تناولت أسلاك الصاروخ على الفطور ٢٨٣
الجلاد الذي عاش قرب المسرح ٢٨٦
معبد الحقيقة ٢٩٠
كلنا رفعت ٢٩٤
وزارة الخوف ٢٩٨
لقد كتبنا جميعًا وصايانا ٣٠٢

«واجب حتى الموت» والأمم المتحدة ٣٠٥
الفصل الثامن: طائفة القسوة ٣٠٩
زمن المحارب ٣١١
ولّت موضة التعذيب، وأتت موضة الإساءة ٣١٥
الحقيقة الحقيقة ٣١٩
صليبيو «المنطقة الخضراء» ٣٢٣
جنة في الجحيم ٣٢٧
يصبح بوش متنبئًا وقت نومه ٣٣١
ما هي مدرسة هيرش الصحافية إذًا؟ ٣٣٣
وتكبر الأكاذيب كلما ازداد الوضع سوءًا ٣٣٦
أرسلوا المزيد من الشهداء ٣٤٠
البساط السحري ٣٤٤
يجب أن يستمر الاستعراض ٣٤٨
«لقد قتله العدو» لكن الأمور على ما يرام في العراق ٣٥٢
الفصل التاسع: لقد فقدنا إيماننا، لكنهم لم يفقدوه ٣٥٧
الله والشيطان ٣٥٩
طفولية الحضارات ٣٦٣
انظروا في المرآة ٣٦٦
تحطيم التاريخ ٣٧٠
والآن اسمهم «ذوو البشرة السمراء» ٣٧٥
مسألة «الإيمان» ٣٧٩
كراهية على خريطة ٣٨٢
إذا قصفتم مدننا فسنقصف مدنكم ٣٨٦
أكاذيب العنصريين ٣٨٩
علم الأحلام ٣٩٢

الفصل العاشر: أمر منيع ٣٩٧
ما الذي كان الرومان سيظنّونه في شأن العراق ٣٩٩
للذكرى ٤٠٣
إقرأوا لورنس العرب ٤٠٧
نظرة مختلسة إلى حقبة الفاشيّة ٤١١
مَن يبكي الآن أموات معركة واترلو؟ ٤١٦
شاهدون على الإبادة الجَماعية: حكاية غامضة من سويسرا ٤٢٠
يمكنكم الطلب من جندي ما حرق قرية... .... ٤٢٥
أيجب على الصحافيين أن يشهدوا في المحاكمات ضدّ
جرائم الحرب؟ ٤٢٨
أين هم عظماء اليوم؟ ٤٣٣
الفصل الحادي عشر: أميركا، أميركا ٤٣٧
خطاب حرّ ٤٣٩
نتيجة متعادلة! ٤٤٤
الخوف والاشمئزاز يسيطران على الحرم الأميركي ٤٤٨
كيف جعلني مسلمو أميركا الوسطى أشعر بأمان أكبر ٤٥٢
هل يتمكن الشباب والشابات العاملون في وسائل الإعلام،
من اللحاق بشعبهم؟ ٤٥٦
البرازيل وأميركا وركائز الحكمة السبع ٤٦٠
من القاهرة إلى فالدوستا ٤٦٤
محاولة الدخول إلى أميركا ٤٦٨
الفصل الثاني عشر: أسئلة لا أجوبة لها ٤٧٣
أهي مشكلة الطقس؟ أم هي الحرب؟ ٤٧٥
اخشوا التغيّر الحاصل في المناخ، وليس أعداءنا ٤٧٩
مَن هو الذي ابتكر الواقع؟ ٤٨٣
رسالة من السيدة إيرفين ٤٨٨

مَن قتل بنازير؟ ٤٩٢
قضية جانير ويلز الغريبة ٤٩٦
الفصل الثالث عشر: العدو الأخير ٥٠١
في الكولوسيوم حيث تحوّلت الأفكار موتًا ٥٠٤
أبطال موتى وذكريات حيّة ٥٠٨
السفينة التي ترقد منبسطة في قعر البحر ٥١٢
شكرًا بروس ٥١٧
هؤلاء الذين سبقونا ٥٢١
الوداع، آن - كارين ٥٢٥
أخبروا أندريا أن كريس لم يعانِ ٥٣٠
شارع بيتان، إرسال المرأة إلى أوشفيتز ٥٣٧
أنا ابنة إيرين نِميروفسكي ٥٤١

الشكر

إلى الذين أسهموا في إعداد هذا الكتاب. شكر إلى أنس العبده رئيس حركة العدالة والتطور في سوريا؛ وتانر أكسام عالم تاريخ تركي الجنسية؛ وتيسير علوني من فضائية «الجزيرة»؛ وتيري أندرسون، الرئيس السابق لمكتب الصحافة المشتركة في بيروت، والرهين الذي طال بقاؤه في لبنان؛ والمحارب القديم الفيتنامي جورج و. أبينزلير؛ وليلى العريان، إبنة السجين الفلسطيني سامي العريان؛ والمرحومة آن - كارين آرفيسن، الدبلوماسية النروجية؛ وبيتر بالاكيان، عالم التاريخ الأرمني؛ والدكتورة منى البرادعي من جامعة القاهرة، قسم السياسة؛ وأنطوان بشير من بيروت؛ ومحسن بلال، وزير الإعلام السابق في سورية؛ وآندريا بيستريش، لأنها أذنت لي بأن أقتبس من رسالتها إليّ عن وفاة حبيبها كريتسيان كلينرت؛ وويلي براون، العمدة السابق في سان فرانسيسكو؛ وفانسان براون من الجنسية الأيرلندية؛ وبات وأليس كاري من إيرلندا؛ وتوني كليفتون، موظف سابق في صحيفة «نيوزويك»؛ ودنيز إيبستن، ابنة إيرين نِميروفسكي؛ ونورمان فينكلشتين من جامعة دي بول في شيكاغو؛ والمرحومين والديّ ويليام وبيجي فيسك؛ وكريستيان فرنسيس، سائق من أنفة، شمال لبنان؛ وجيم هارلند من بليث، نورثامبرلند؛ وسيمور هيرش من صحيفة «نيو يوركر»؛ وماريون إرفاين، شقيقة بيل كادمن الذي قُتِل أثناء رحلة «بان آم» **١٠٣** فوق لوكربي؛ وآدريون جالمز من صحيفة «لو فيغارو»؛ ووليد ونورا جنبلاط من

لبنان؛ والدكتور أنطوني لونستين من جامعة ميلبورن؛ وغسان مسعود، ممثل سوري؛ وساميا ملكي من بيروت؛ وبيتر ميتكالف لمعرفته الوطيدة بـ ت. إ. لورنس؛ والقبطان رمزي نجار، موظف سابق في طيران الشرق الأوسط - الخطوط الجوية اللبنانية؛ والأرشيف الوطني البريطاني في كيو لأن القائمين عليه أذنوا لي بالاقتباس من مستندات مكتب الاستعمار عن مفتي القدس في بيروت؛ والدكتور مايكل نول من جامعة ولاية فالدوست في جورجيا، الولايات المتحدة الأميركية؛ ونيلوفر بازيرا، معدّ أفلام وصحافي؛ والمرحوم ميستيسلاف روستروبوفيش؛ وميشال سانتورو، موظف سابق في قناة «راي ٢» الإيطالية؛ الدكتور دايفيد شوتر، من جامعة لانكستر سابقًا، قسم العلوم الكلاسيكية؛ وإيريك ستاكهاوس، لأنه اصطحبني إلى مقبرة تايتانيك في هاليفاكس؛ ونوفا سكوتيا وميلاني ستوروسشاك، من هاربر كولينز سابقًا، تورونتو؛ وبيروز تاسلاكيان من جامعة ماكغيل، مونتريال؛ وستيفان ويليامز، لأنه ترجم تذكارية دين سويفت؛ ومحمد ضيا، لاجئ أفغاني سابق. كذلك أخصّ بالشكر موسوعة «بريتانيكا» لأنها أذنت لي بإعادة صياغة مقال ت. إ. لورنس للعام ١٩٢٩: «حرب العصابات».

وأخيرًا، أهدي شكري الدائم إلى المحرّر في صحيفة «ذي إندبندنت»، سيمون كيلنر، لأنه سمح لي بأن أكون المراسل في منطقة الشرق الأوسط، وأن أجمع الكتب في الوقت ذاته (ثم أنه كبّدني حضور محاضرات العالم كافة، حتى عندما يتصل عميله من بيروت أو ساو باولو أو لوس أنجلس!). وأشكر صحيفة «ذي إندبندنت» لأنها أذنت لي بأن أقتبس من مقالاتي؛ ولويس هاسنز، المحرر في «فورث إيستايت»؛ وستيف كوكس، «القارئ» الأشد صرامة في مجال النشر. وأخيرًا وليس آخرًا، أشكر آدريان هاميلتون، محرر الملحق في صحيفة «ذي إندبندنت» الذي لم يشكُ قط في شأن أي مقال قدمته إليه، ولجهده القيّم في مساعدتي على جمع كتاباتي خلال السنوات الخمس الأخيرة.

اخترت أن أجعل المقالات في هذا الكتاب «محورًا»، أزوّدَها حسًّا من

الترابط يمكن أن يختفي في سياق التقيّد بالتسلسل الزمني الدقيق. وقد حذفت البعض منها تجنبًا للتكرار، في حين صحّح الكثير من الأخطاء، التي تتغلغل في الصحافة لا محال. إلا أن الآراء والتوقعات، الصحيحة والخاطئة منها، ويا للأسف، بقيت على حالها وفق نسختها الأصلية. وبالطبع سيُلقى اللوم علي وحدي في شأن الحذف والخطأ.



المقدمة

يمكن العراق أن يحدّد هوية عالمنا اليوم، حتى بالنسبة إلى الذين يبعدون مسافة آلاف الأميال عن حدوده. بديهيٌّ أن تنذرنا الخسائر الهائلة التي ولّدتها الحرب، من حيث موت المواطنين ومقتلهم، وأغلبهم من الجنسية العراقية بالطبع، والأكاذيب التي تذرّع بها جنود الاجتياح من بلدنا عام ٢٠٠٣، بالنزاعات التي سنواجهها في الأيام المقبلة: أسلحة الدمار الشامل؛ نشاطات القاعدة والجرائم ضد الإنسانية المجسّدة بكارثة ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. تعرّضنا للاحتيال. وعلى رغم ذلك، أعتقد أحيانًا أننا أردنا أن نتعرّض للاحتيال، وأن نتبع رؤساءنا في اتجاه المجازر، وأن نتسابق نحو القمة مع حماسة المفجّر المنتحر واليائس. أيقظنا حدسنا بأمور كان من الجليّ أن تُدفن في هايستينغز، أو واترلو، أو أنتيتيام، أو برلين، أو حتى دا نانج. وأتساءل: هل نحتاج إلى الحرب؟ هل نحتاج إلى الحروب حاجَتنا إلى الهواء والحب والأولاد والسلام؟

هذا ليس كتاب حرب بالمعنى التقليدي. تجدون الشرق الأوسط مبعثرًا وممزقًا جثثًا في محطتين تاريخيّتين عايشتهما: حرب لبنان، وتدخل الغرب في المنطقة في القرن السابق. غمرني ألم أثناء صياغتي هذا الكتاب، لما يحمل في طياته من عذابات. وسيتبعه جزء ثانٍ يأخذ القارئ إلى طريق الضياع الذي سبق أن خطت الرمال حدودها عبر جنوننا في العراق وأفغانستان وفلسطين ولبنان وإيران، وسطوة العالم الإسلامي.

نُشر أغلب مقالات هذا الكتاب في صحيفة «ذي إندبندنت»، في السنوات الخمس المنصرمة. لذا، جاء اختيارها تعبيرًا عن غضبي أكثر منه عما تنطوي عليه من وحشية ودموية، مؤثرًا الأسلوب الساخر وهي في رأيي، تسجّل أفكار مراسل أجنبي وسط الحرب، وزاوية من عقل الصحافي التي عادة لا تُسجَّل. وتعبّر عن الحاجة الأسبوعية إلى كتابة ما هو صحيح في ظل أيامنا التي تمضي، والحاجة إلى التعبير عن غضبنا وعن الأوقات الأفضل والأكثر ودًا في حياة عشناها - من دون مجاملة - وتم استغلالها وتبديدها خلال مشاهدة الجنون الإنساني في مستوى هائل، لا يمكن ردعه.

الغضب مخلوق وحشي. وعلى الصحافيين أن يتجنبوا هذا الكابوس الحيواني لمراقبة هذا الوحش بـ «موضوعية». وأعتقد أن غياب «الانحياز» المتوقع من الصحافي، أسوأ مرض أصاب الصحافة والإعلام المرئي الغربيين. وبالتالي، أصبح نقيضَ الشعور الشخصي، وعذرًا لتجنّب الحقيقة: تسجيل غضب الفلسطيني الذي سلبه أرضه المستوطنون الإسرائيليون، مع الإشارة دومًا إلى «المتطلبات الأمنية» إسرائيل وما يسمى «حربها على الإرهاب»؛ وإذا اتهمت أميركا بـ «الإرهاب»، سمّينا ذلك استغلالًا؛ وإذا اغتالت إسرائيل فلسطينيًا، قلنا إنها اصطادت هدفًا؛ وما إذا بكى الأرمن محرقة ١,٥٠٠,٠٠٠ شخص منهم سنة ١٩١٥، نذكر القراء بإنكار تركيا الإبادة الجماعية الواقعية والموثّقة؛ فإذا أصبح العراق جحيمًا على الأرض، لا ننسى التذكير بشناعة صدّام، وإذا كان حليفنا دكتاتورًا، سميناه «الرجل القوي»، وإذا كان عدوّنا، سميناه «المستبد»، أو جزءًا من «محور الشر»، وفوق كل شيء، نستخدام مصطلح «الإرهابي». الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب: على مدار الأسبوع.

هذا هو نوع الغضب الذي يُسمح للصحافي باستخدامه؛ غضب الاستقامة والخوف. هذه هي لغة رؤسائنا: بوش وبلير وبراون وكينكل وساركوزي، وبالطبع، مبارك، والملك حسين والملوك والأمراء العرب والمشرّفين، وكل من

يشترك في حرب «الخير» على «الشر»، بمن فيهم معمر القذافي في ليبيا. بالنسبة إلى الصحافيين، لا يتعلّق الأمر بالعدالة التي يطالب بها شعوب الشرق الأوسط جميعًا، بتلافي الحقيقة. إسألوا «كيف» و«من»، وليس «لماذا». أنسبوا كل شيء إلى المسؤولين: «المسؤولين الأميركيين»، «مسؤولي الاستخبارات»، «المصادر الرسمية»، رجال الشرطة المجهولين، أو ضباط الجيش. وفوق ذلك كله، أظهروا الاحترام: الاحترام للصلاحية، للحكومة، للسلطة. وإذا استغلّت تلك الهيئات المسؤولة عن حمايتنا هذه السلطة، فذكّروا القرّاء والمستمعين والمشاهدين بهذا الزمن الخطير الراهن، زمن الإرهاب: أي أن علينا أن نعيش في عصر المحارب، الذي يكرّس عمله وخبرته ورسالته ووجوده في سبيل تدمير أعدائنا.

بصفة كوني مراسلًا في الشرق الأوسط لصحيفة «ذي ندبندنت» اللندنية، أعيش حياة مثيرة، ولكن خطيرة. سافرت إلى العراق وأفغانستان وسوريا وفلسطين وإسرائيل. عشت في لبنان. غطيت اثنتين وثلاثين سنة في منطقة الشرق الأوسط، منها أحد عشر عامًا من أهم الحروب وحالات التمرّد التي لا تُحصى، والكثير من المجازر - المذابح الدموية. وصحيفة «ذي إندبندنت» تشجّعني على تسجيل الأحداث كما هي عليه، لا وفق الصيغ المبتذلة والمتوعّدة الصادرة عن «مصنع الفكر» و«الخبراء»، بل ما تمليه عليّ معتقداتي وأفكاري كمراسل. كل سبت، يأذن لي المحرر المسؤول عني، سيمون كيلنر، بأن أسبح - كصحافي في الجنة - في العمود في أي اتجاه في المسبح المخصّص لي؛ أن أعاين أي وحش؛ أن أزور مقبرتي؛ أن أتكلم مع أي مجرم أو صديق؛ أن أنظر في أي مستند؛ أن أكتب عن أي امبراطورية؛ أن أكتب عن تاريخ عائلتي الإنكليزية العادية، إذ كان والدي جنديًا في الحرب العالمية الأولى، وكان والده وكيل الربان الأول في سفينة كاتي سارك. ويمكنني أن أعبّر عما يجول في خاطري.

إنه لامتياز وثقة - خصوصًا، في بلد كبريطانيا، حيث تلطّخ نظام الديموقراطية في شكل سيئ (تحديدًا من رئيس الوزراء السابق توني بلير).

وحيث أدت الصحافة دور المعارضة البرلمانية - ولكن في رأيي، يجب استخدامه بعزم وغضب وسخرية، وأيضًا بنعومة، وأحيانًا بيأس. وبالتالي، يعكس هذا الكتاب حياتي كصحافي، خصوصًا خلال السنوات الخمس المنصرمة. وأعتقد أنه يعرض الحاجة إلى مواجهة الغش والظلم في عالم، باتت فيه الموافقة تلقائية، والرفض، حتى لو كان معتدلًا، أضحى مدمّرًا. لا أنتمي إلى هذه المعركة. يحاول البعض من زملائي أن يحذوا حذوي: اتهام رؤسائنا بالكذب، وانتقاد أكاذيبهم واحتيالهم الظاهر، ومواجهتهم في شكل قاس، بسبب ما ألحقوا بالأرض من أضرار. لا أدري هل التاريخ متكامل، ولكن من الضروري أن نُظهر تكاملًا تجاه التاريخ الذي نخلقه اليوم في الكارثة الجهنمية في الشرق الأوسط.

بدا أحيانًا للقراء أن صبري نفد. اشتكى كثر في شأن كتاباتي، فقوّموا استخدامي تعبير «بلير لورد كوت العمارة»، على أنه تكرار أو طفولي. وأرسل أحد قراء صحيفة «ذي إندبندنت» شكوى إلى المحرر سيمون كيلنر، في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧، قائلًا إن على فيسك:

«أن يعير مصطلحاته انتباهًا أكبر. وأود أن أبدي اعتراضًا تافهًا على تعرضه لرئيس وزرائنا الحالي فيستمتع بتسميته «لورد كوت العمارة». لن يفهم القرّاء جميعًا قصده، بعكسي... كانت الحرب الكبرى بمثابة كارثة جسيمة، والأسوأ زحف سجناء الحرب في اتجاه تركيا. بالطبع، اطّلع فيسك على هذا الموضوع».

اطّلعتُ بالطبع على هذا الموضوع. تعد كوت العمارة الخسارة البريطانية الكبرى على يد جيش مسلم - الأتراك العثمانيين - خلال الحرب العالمية الأولى: سقوط مُخز في السلطة الامبريالية، بعدما جنّد الجنرال شارل تونزهاند ١٣,٠٠٠ جندي للزحف في اتجاه ضفاف نهر دجلة، في محاولة فاشلة للوصول إلى بغداد. وتجسّدت الكارثة العسكرية الشاملة في الحصار الذي واجهه

تونزهاند في كوت، حيث شاهد جنوده المقيّدين يستعدون للموت في تركيا. يبدو لي أن هذه الكارثة تترجم تكبّر توني بلير الذي استخدمه لقيادة بلاده نحو الحرب، والمصيبة التي غرق فيها الجيش ليجد نفسه في العراق. لذا، فإن بلير يبقى، في أغلب الوقت في هذه المقالات(*)، «بلير لورد كوت العمارة». ويجب أن يستعين صاحب العمود أحيانًا في كتاباته، بتأثيرات الرسام الكاريكاتوري.

عادة، تكتب الكتب نفسها بنفسها. وبعد قراءة الإثباتات، أصبح من الواضح أن عمل الصحافي خلال السنوات الخمس الأخيرة، ركّز أكثر فأكثر على النفاق في قلب السلطة السياسية والعسكرية والصحافة المستخدمة للاحتيال علينا، ولإقناعنا بالتقيد بسياسات تناقض مصالحنا الوطنية والأخلاقية. بالطبع، يُعدّ استخدام سلطة الإرهاب بهدف تخويفنا، أكثر من أي «إرهابي»، إحدى الخصائص الأكثر تخويفًا وهلاكًا في زمننا الحاضر.

دم العراقيين يتدفق عبر الصفحات هذه، لكن «زمن المحارب» ليس قصة عن مجزرة لم يُكشف عنها، أو غضب صحافي متواصلاً. إني أنظر في استخدام الكلمات واستغلالها؛ في تأثير السينما والروايات في زمننا؛ في الحاجة إلى خلق جمال حتى وسط الحرب. ستتعرّفون إلى أستاذي السابق في اللغة اللاتينية والرجال المهمين في المدرسة الإنكليزية، وستزورون مقبرة ركاب «تايتانيك» الهائلة في كندا، وستقرأون مراسم القتال في أقدم كنيسة في ويلينغتون، في نيوزيلندا، وستجلسون قرب ميستيسلاف روستروبوفيش، أفضل عازف فيولونسيل في زمنه، وهو يسافر إلى بيروت مغتاظًا من الحرب، و«زوجته» - الآلة

(*) في سخرية غير عادية، كانت العمارة المدينة الأولى التي تركها الجنود البريطانيون للمتمرّدين. بموجب «اتفاق غير رسمي» للعام ٢٠٠٦، سُمح للقوات البريطانية بإجراء دورية واحدة بعد الظهر في المدينة، في مقابل تسليم السلطة إلى قادة القبائل المسلّحين. وبالتالي، استطاع البريطانيون الادّعاء أنهم لم ينسحبوا، في حين سلّموا مسؤولياتهم كافة إلى آلاف المقيمين: وهو حل من إعداد بلير.

الموسيقية الأعزّ إلى قلبه - مربوطة إلى جانبه في المقعد «ك ١». وستلتقون من جديد والدي الجندي، بيل، الذي رفض في شجاعة، إعدام رفيق السلاح أثناء الحرب العالمية الأولى، وهو رفيق من الجنسية الأسترالية وقف أمام الزمرة المكلّفة تنفيذ حكم الإعدام رميًا بالرصاص، ولكن يبدو الآن أنه توفي حاملًا سرًّا غير عادي إلى القبر.

يبدو أني تعمّدت المزج في اختياري جمع هذه المقالات. ولكن في هذه الحال، وجدتُ معنًى في هذا الجمع. تعمّدت إبقاء بعض التكرار للحفاظ على تكامل المقالات، كما نُشرت أصلًا. إلا أن حياة الصحافي - على رغم أنها متخصصة - تدور على موضوع محدد. في هذه الحال، تركزت مقالاتي الدورية مرة أخرى على معاني السياسة والحرب والحاجة إلى الكشف عن المعاناة الهائلة غير الضرورية التي نكبّدها لأخينا الإنسان. وكالعادة، تطبع أنامل الموت صفحاتي حتى النهاية، إلى أن تنذرنا دينيز إبستين بـ«تآكل الذاكرة». ودينيز إبستين، هي الابنة الحية للكاتبة الرائعة إيرين نِميروفسكي، وهي يهودية، تحمل الجنسية الفرنسية، وقد قتلت في أوشفيتز. إن هذا التآكل، وهذا الرفض المتعمّد في مشاهدة القسوة والتعرّف إليها، سيعيداننا إلى الجحيم.

بيروت

شباط/فبراير، ٢٠٠٨

الفصل الأول

عاصفة نارية تلوح في الأفق

إن الحرب عبارة عن مفارقة بالنسبة إلى الصحافيين. يُذهل ملايين الأشخاص في العالم بحجم العنف الذي تولّده الحرب - بدءًا من عصر شكسبير، وصولًا إلى هوليوود - وتراودهم الهواجس حيال الدراما التي تملأها والقرار الوحشي السهل الذي ينجم عنها: الانتصار أم الخسارة. وقد كانت الحرب مصدر وحي لرجال الدولة الغربيين - ليس الذين شهدوا صراعًا ما، أو شاركوا فيه، ولا الذين يرتكزون على خبرتهم التي اكتسبوها من الأفلام أو التلفاز - وبالتالي، كثيرًا ما يستشهدون بالدين، أو «الخير والشر»، بهدف تبرير وحشيتهم. لو فهم شكسبير أن النزاع الإنساني ليس إلا وحشية، لأوحى تاريخ القرن الأخير في منطقة الشرق الأوسط - الذي أدى من دون شك إلى اعتداءات ١١ أيلول/ سبتمبر، والهجوم على أفغانستان، والمزيد من التخطيط الطموح لإخضاع العراق - قدرة رجال السياسة والصحافيين لدينا على تجاوز هذا التردد. في الواقع، يبدو كأن مواطني الشرق الأوسط - ليس القادة منهم - يستوعبون حقيقة الأمر أكثر من الذين يصنعون التاريخ، وهي لسخرية مريبة بما «أننا» نلقي اللوم «عليهم»، ونحمّلهم مسؤولية العنف الذي يهددنا جميعًا اليوم.



نادوا بالخراب وأطلقوا كلاب الحرب

مسكين باردولف، ذاك الجندي العادي، مجند المشاة التعس الحظ، عسكري أجينكورت الذي نجا في مسرحية هنري الرابع لينتهي به الأمر معلقًا على المشنقة بعد نجاته من الموت خلال اختراق تحصينات هارفلور. وتأتي نهايته في «هنري الخامس» - بكل معنى الكلمة - عندما يسرق كنيسة فرنسية. يجب إعدامه شنقًا، «لتعدّيه على الآخرين». فيقول صديقه بيستول لفلولين بأسى: «إن باردولف... جندي قوي القلب ويجب إعدامه».

«يا لها من ميتة لعينة

دعوا المشانق تفتح أفواهها للكلاب، وأطلقوا الرجال أحرارًا

ولا تشنقوهم

لكن إكسيتر أعطى حكم الموت

لذا تكلّم، وسيسمع الدوق صوتك

ولا تترك وريد باردولف يقطع

تكلّم يا قائد من أجل حياته».

كم من إعدام عسكري مماثل سُجّل في الأعوام الثلاثين الأخيرة من تاريخ الشرق الأوسط؟ بسبب السرقة، والقتل، والهرب، والخيانة، والابتعاد عن النظام. يناشد القائد فلولين الملك هنري شخصيًا، دفاعًا عن فعلة باردولف الشنيعة. ومن دون حماسة شديدة، علينا الاعتراف بهذا.

. . . لا أظن أن الدوق خسر رجلًا قط، ما عدا واحدًا قد يُعدم لسرقته

كنيسة، واسمه باردولف. لعلك تعرف الرجل يا مولاي: وجهه مملوء بالثآليل والتقرحات، وشعره ثائر كالنار.

لكن جلالة الملك هنري الذي كان صديق باردولف عندما كان أميرًا يعاقر الخمر في صباه (وهذا تمهيد لسلوك الأمير هاري لاحقًا)، لن يقبل هذا الكلام:

> هكذا سنقطع دابر المعتدين. لقد أعلنّا أمرنا جليًا ألّا تُنهَب القرى خلال مسيرنا في ديارهم، وألّا يؤخذ شيء منهم من دون أن يُدفع ثمنه، فلا يُغتصب عرض الفرنسيين، أو يشتم أحد منهم.

في فرنسا، أعدم أيزنهاور الجنود الأميركيين الذين ارتكبوا عمليات اغتصاب بعد إنزال النورماندي. وكان جنود الشرطة السرية النازية يعدمون الهاربين من الخدمة أثناء سقوط برلين حتى.

ولا تفوتني اللحظة في مسرحية شكسبير، عندما يسأل الملك الفرنسي هل جيش هنري «قد عبر نهر سوم» من دون أن أحبس فيها أنفاسي. تُرى، هل شهد الكاتب عام ١٥٩٩ ومضة من تجليّات عصر النهضة؟ لكنني ما زلت غير مقتنع بأن شكسبير أدى الخدمة العسكرية في جيش [الملكة] إليزابيث. يسأل بيستول سجينًا فرنسيًا متكورًا على نفسه ولا يتحدث الإنكليزية «ما الذي تقوله؟». «تعال يا غلام، وسل هذا العبد بالفرنسية ما اسمه». لقد سمعت جملة مماثلة تمامًا لهذه في بغداد البعيدة كل البعد عن إنكلترا - القرن السادس عشر، عندما واجه جندي مارينز أميركي جنديًا عراقيًا متظاهرًا عام ٢٠٠٣، فصاح بالعراقي «اخرس يا ابن السافلة». ثم التفت إلى مترجمه قائلًا: «ما الذي يقوله بحق الجحيم». في حصار هارفلور، يتمنى جندي فتي أن يكون بعيدًا من المعركة: «ليتني كنت في خمارة في لندن! لبعت اسمي في مقابل كأس خمر وبعض من الأمان». ويثير تجوال هنري المتنكر في أرجاء مخيّمه عشية معركة أجينكورت، تأملات عن الحرب تمتاز فعلًا بحداثتها.

ويشير الجندي بايتس أن الملك لو أتى وحده إلى أجينكورت، لنال الجزية بأمان «ونجا مساكين كثر بأرواحهم».

ويناقش جندي قَلِق آخر، اسمه ويليامز، في مسألة هل غايات الإنكليز مشكوك في أمرها «... فالملك نفسه سيواجه حسابًا عسيرًا، عندما تُبعث هذه الأرجل والأيدي والرؤوس التي قُطعت في المعارك لتجتمع في يوم الحساب صارخة كلها «لقد متنا في هذا المكان». منهم من يقسم بالرب، ومنهم من ينادي الطبيب، ومنهم من يصرخ لأطفاله وزوجته، أو يصرخ بالديون المستحقة عليه، أو ينادي أبناء تركهم طريا العود...».

هذا السجل الدموي قد يكون مألوفًا لأي جندي محارب، لكن من الممكن أن يكون شكسبير قد سمع هذه القصص من المحاربين الإنكليز في القرن السادس عشر. لقد رأيت هذه الرؤوس والأرجل والأذرع المقطوعة في معارك الشرق الأوسط، في جنوب العراق عام ١٩٩١، حين كانت جثث الجنود العراقيين والنساء والأطفال اللاجئين ممزقة ومطروحة في أنحاء الصحراء، وقد نهشت أطرافها الكلاب النهمة. وتحدثت إلى الجنود الصرب الذين حاربوا المسلمين البوسنيين في معركة السيطرة على جبهة بيهاك. فعانى أولئك الرجال نقص الماء في شدة، فاضطروا إلى شرب بولهم.

وفي صورة مشابهة، يتأمل القيصر أغسطس، المنتقد اللاذع في عمل شكسبير، شجاعة أنطونيو قبل تعرفه بكليوباترا:

«وعندما هزمتك

مودينا مرة

... لحقتك المجاعة

وتصديت لها...

بصبر يعجز عنه البرابرة

فشربت بول الخيول والمياه الآسنة

التي تأنف منها الوحوش»

لكن شعر ويلفرد أوين عن «أسى الحروب»، له قوة أشد إلحاحًا، كوصفه الجندي المصاب بقنابل الغاز وروحه الذي يخرج مع سعاله، والدم الذي يفور «من رئته التي أفسدها العفن». حقًا، كان الموت حاضرًا في حياة كل رجل وامرأة في العصر التيودوري، مع الطاعون الذي سبب أحيانًا إغلاق مسرح ذا غلوب، والضحايا من الأطفال القتلى، والمقابر التي فاضت بالجثث... هذه كلها وحّدت البشرية عند اقتراب الموت. بفهمك الموت، تفهم الحرب التي تهدف، في جوهرها، إلى القضاء على الوجود البشري أكثر مما تسعى إلى النصر أو الهزيمة. وتبقى مناجاة هاملت جمجمة يوريك - على رغم عرضها المستمر - تأمّلًا وجدانيًا مفزعًا للموت:

«إن أمعائي لَتضطرب منها. ها هما شفتان لا أدري كم مرة قبلتهما. أين الآن هزلك ومزاحك وأغانيك؟ أين مرحك الذي جعل الحضور يهدر فرحًا؟ ألا توجد نكتة منها لتسخر من ابتسامتك، وقد هوى فكك هكذا؟»

وهنا، تأمّلات عمر الخيام جمجمة ملك في طوس - قرب مدينة مشهد الإيرانية اليوم - التي كُتبت قبل ٤٠٠ سنة من وصف شكسبير هاملت واقفًا في باحة كنيسة ألسينور:

«رأيت طيرًا على أسوار طوس

تمسك بمخالبها رأس قيقوس

«العار، العار»، صاحت بذاك الرأس تقول

أين منك صوت النواقيس وقرع الطبول».

إن السرعة التي ضرب بها المرض في القرون الماضية، كانت فتاكة فعلًا.

وقد عرفت بنفسي كم يأتي الموت العنيف مسرعًا. فقد هاجمني جمع من الأفغان في قرية عند الحدود الباكستانية عام ٢٠٠١ - قتلت عائلاتهم للتو غارة أميركية من طائرات «بي ٥٢» في قندهار - وراح حشد متعاظم من الشبان يرمون الحجارة على رأسي، مهشمين نظارتي التي انغرست في وجهي، ومسببين جروحًا عميقة جعلتني أشم رائحة دمي. لوهلة، لمحت انعكاسًا لصورتي على هيكل باص مصقول رُكن جانبًا. كنت مضرَّجًا بالدماء القرمزية، واصطبغ وجهي باللون الأحمر الفاقع الذي راح ينساب على قميصي ويتسرّب إلى حقيبتي وسروالي وحذائي. كنت مدمّى من رأسي حتى أخمص قدمي. وتذكّرت جليًا، في تلك اللحظة بالذات - أظنها محاولة لاواعية مني لإعطاء معنى لاشمئزازي من نفسي - هذيان الليدي مكبث المجنونة، وهي تتأمل الطعنات في جسد الملك دنكان: «... من كان ليظن أن العجوز حوى هذه الدماء كلها؟».

من المؤكد أن شكسبير شهد الألم والمعاناة اليوميين في لندن. فالإعدامات كانت تُجرى علنًا، ولم تسجَّل خفية على الهواتف الخلوية. ولكن، من يتأمل إعدام صدام - عندما أظهر ذلك العجوز نبلًا بينما كان جلاده الشيعي يقول له «إلى جهنم» - لا بد من أن يتذكر «ذلك الخائن الوغد»، حاكم كودور المحكوم عليه في مسرحية ماكبث، الذي قال عنه مالكوم «... لم يكن في حياته ما يليق به مثل موته؟» حقًا. لقد كان جواب صدام الأخير لجلاده - «إلى جهنم العراق؟» - جوابًا شكسبيريًا بامتياز.

كم يطاردنا ظل صدام المرعب في قراءتنا المعاصرة لشكسبير. «اشنقوا من يتحدثون عن الخوف!». لا ريب في أن صدى هذه الكلمات تردد عبر أروقة قصور صدام الكثيرة، حيث أضحى «التحدث عن الشرف» فحسب، هو العادة منذ زمن بعيد. ومع تزايد الضحايا خلال حرب السنوات الثماني الطويلة مع إيران، ربما فكّر زعيم بعثي كما فكّر ماكبث في أنه «غارق في الدماء، لكنني عاجز عن التراجع، فهو يضنيني بمقدار المضي قدمًا». لقد حاول الزعيم العراقي أن يستلهم من ملحمة غلغامش في محاولاته الأدبية الفاشلة، في رواية

صبيانية ألّفها كاتب عراقي قتله صدام فيما بعد إذا صحت أقوال دايفيد داموش. لعل أودن أفضل من وصف طبيعة الوحش:

«كان يسعى خلف كمال من نوع فريد

وكان ما نظمه من شعر يسهل فهمه

لقد علم حماقة البشر كما يعلم راحة يده

واهتم بالجيوش والجحافل».

في عصر يُفترض بنا تصديق «الحرب على الإرهاب» فيه، يمكننا أن نبحث في مسودات شكسبير عن أسامة بن لادن وجورج بوش بحماسة مرتكب المجازر نفسه الذي يتمحّص النصوص الإسلامية والمسيحية بحثًا عن أعذار لممارسته التطهير العرقي. بالفعل، فإن سحق الحثيين والكنعانيين واليبوسيين، لا يختلف كثيرًا عن سحق البوسنيين والراونديين والعرب والإسرائيليين المعاصرين كذلك. وليس صعبًا أن نجد توازيًا بين كارثة بوش في أفغانستان والعراق - مع رغبته الواضحة في محو هذه الهزائم بمغامرة عسكرية جديدة في إيران - ونصيحة هنري الرابع وهو على فراش الموت لابنه هنري الخامس مستقبلًا:

«... لهذا يا هاري، يا ولدي

اتخذ سبيلًا لك شغل العقول الطائشة

بحروب الخارج. فما إن تُنجز هذه الأمور

حتى تجدها قد أزالت ذكرى ما مضى قبلها من أيام...».

ينعكس خراب العراق وفوضاه عقب غزونا غير الشرعي عام **٢٠٠٣**، في الكثير من مسرحيات شكسبير، إذ يمكن المرء أن ينتقل بيسر من الكتابات التراجيدية إلى التاريخية، ليقرأ الحرب الأهلية المعاصرة في بغداد. مثلًا، إليكم الوالد الذي اكتشف أنه قتل ولده في مسرحية هنري الرابع، الجزء الثالث:

«آه، اشفق يا رب على هذا الزمن البائس

ما هذه المكائد والهزائم والمجازر

ما الخطايا النكراء الغريبة

التي ينجبها هذا الصراع المميت كل يوم».

إن خيانتنا الشيعة والأكراد في العراق عام ١٩٩١ - عندما شجعناهم على الثورة في وجه صدام، ثم سمحنا لجزار بغداد بقتلهم - تمكن مقارنتها بصرخات الحرية الأصيلة التي صاح بها أولئك الناس الهالكون قبل أيام من خيانتهم. «... نحن نلوّح بأسلحتنا الدامية فوق رؤوسنا»، كما صرخ بروتوس بعد ثوان من اغتيال يوليوس قيصر «لنصرخ كلنا بالسلام والحرية والكرامة».

لقدد غيرت خبرتي في الحرب مشاعري حيال الكثير من شخصيات شكسبير. فلم تعد تجذبني الشخصيات الصالحة في مسرحياته، بل ازداد بالنسبة إليّ تصنّعها وخبثها مع مرور الزمن. ويبدو هنري الخامس جزارًا أكثر من ذي قبل. وهو يسأل، «أيها الرسول، هل أُحصي الموتى؟».

«تُبلغني هذه الورقة بمقتل عشرة آلاف فرنسي

سقطوا في ساحات الوغى

هناك مات النبلاء ذوو الرايات

وعددهم مئة وستة وعشرون. زد إليهم

الفرسان والمرافقين والشجعان.

يصبحوا ثمانية آلاف وأربعمئة».

إن هنري «يُحصي القتلى». وعندما يقدّم الرسول لائحة أخرى - بالقتلى الإنكليز هذه المرة - يقرأ هنري أسماء: إدوارد دوق يورك، وإيرل سافولك، وسير ريتشارد كيكلي ومرافقه دايفي غام:

«لا يوجد غيرهم من النبلاء. ولم يسقط سوى
خمسمئة وعشرين. آه، يا ربي، هذا صنيع يدك هنا...
هل سمعتم بخسارة بهذه العظمة وهذا الصغر
بين فريق وآخر؟».

هذه بالضبط حرب الخليج في جزئها الأول، عندما كان الجنرال نورمان شوارزكوف يتباهى بأرقام الضحايا المتباينة، بينما زعم بالطبع أنه «لا يمارس مهنة إحصاء القتلى»، في حين طلب الجنرال بيتر دي لا بيلييه من البريطانيين الاحتفال بالنصر بقرع أجراس الكنائس.

لا يزال في وسعنا الاستفادة من شكسبير، لتذكير أنفسنا بعالم مضى أكثر أمانًا (إن وُجد)، وتأكيد بقائنا أحياء في النهاية. لم تكن مصادفة أن أوليفييه صوّر مسرحية هنري الخامس خلال الحرب العالمية الثانية. إن وعد اللقيط الأخير في الملك جون بسيط بما فيه الكفاية:

«لتأتِ إلينا الجيوش من أصقاع العالم كلها
وسوف نزلزلها. ولن نكون نادمين
إن كانت إنكلترا صادقة في طريق اليقين».

لكن «المؤمنين» الحقيقيين - أمثال أسامة وبوش - يقبعون خارج المسرحيات التاريخية. يصرخ الملك لير المجنون - الذي خانته ابنتاه، كما شعر بن لادن خيانة العائلة المالكة السعودية عندما رفضت عرضه تحرير الكويت من الاحتلال العراقي من دون أي مساعدة أميركية عسكرية - ويقول: «سأفعل أمورًا لا أعلم ما هي الآن، لكنها سترعب الأرض برمتها».

كُتبت مسرحية لير بُعيد مؤامرة البارود، وهو مخطط «إرهابي» كان ليؤدي إلى نتائج شبيهة بأحداث ١١ أيلول/سبتمبر. وبصورة مماثلة، يملك بروسبيرو التقي في «ذا تمبست» قسوة بن لادن وشعوره التفوق الأخلاقي، وعنصرية بوش

المستترة. وعندما يرسل أرييل لتخريب سفينة الملك ألونسو المغتصب على جزيرته، يعود الجنّي الأثيري بأخبار نجاحه الذي يوازي بضخامته انهيار برج التجارة العالمي، على رغم أنه أنقذ حيوات الضحايا لاحقًا:

«كان متنها خرابًا، وألقيت في كل حجرة
شعلة باهرة. فحينًا انقسمت
وأحرقت أماكن عدة
وشعرت كلُّ نفس
بحمّى الجنون، فجرّبت يائسة انعدام حيلتها.
وقفز الجميع ما عدا البحارة
إلى الموج الثائر تاركين السفينة
التي أشعلتُها بالنار
وكان فرديناند ابن الملك منتصبًا شعره كعشب البحار،
أول من قفز صارخًا:
«لقد فرغت جهنم
فجميع شياطينها ها هنا».

في السنة نفسها تقريبًا، كان جون دون يستخدم صورًا مرعبة بالقدر نفسه عن «السفينة المشتعلة»، حيث «وحده الغرق كان النجاة من اللهيب. فقفز بضعة رجال إليه...». وتصبح قسوة بروسبيرو تجاه كاليبان أشد رهبة كلما قرأتها، فمسرحية «ذا تمبست» واحدة من بين أربع مسرحيات لشكسبير، يُظهر فيها المسلمين، ولأن كاليبان نفسه عربي من أم جزائرية.

يخبرنا بروسبيرو عن «سيكوراكس الساحرة الملعونة». «إن ضروب شرورها وشعوذتها أفظع مما سمعه بشر، حتى نُفيت من الجزائر كما تعلم». «وقد جلبت

هذه الشمطاء الزرقاء العينين طفلًا إلى هنا... إنه وحش منمّش ابن هرمة، ليس له خلق البشر السويّ».

كاليبان هو «الإرهابي» على الجزيرة، وقد رباه بروسبيرو بحسن نية في بادئ الأمر، ثم حكم عليه بالعبودية بعدما حاول اغتصاب ابنته. إنه عبد المستعمرات الذي ينقلب على ثمرة الحضارة وقد قُدّمت إليه.

«لقد علّمتني لغتك وانتفاعي منها

أنني تعلمت كيف ألعن.

فليحلّ عليك الطاعون

لأنك لقّنتني لغتك!».

لكن على كاليبان «إطاعة» بروسبيرو، لأن «فنّه ذو قوة مهولة». لعل بروسبيرو لا يملك «أف ١٨» أو مدمرة حصون، لكن كاليبان يؤدي دورًا مألوفًا لدى الغرب، ويتحالف مع الأشرار عارضًا خدماته على ترينكولو - «سأرشدك إلى خير الينابيع، وسأقطف لك الثمر. وأصطاد الأسماك...» - خالقًا الرابط بين الشر والإرهاب، الذي حاول بوش عبثًا إيجاده بين القاعدة وصدام. كاليبان حيوان لا يستحق الشفقة، وليس له «خلق البشر» السوي. قارنوا هذا بالكلام الوارد في مقالة في جريدة «يو أس توداي»، يناقش فيها ضابط أميركي سابق، اسمه رالف بيترز، ضرورة انسحاب واشنطن من العراق لأن شعبه لم يعد يستحق تضحياتنا كغربيين، مشيرًا إلى «عجز العالم العربي الكلي عن التطور في أي مجال من مجالات الجهود البشرية المنظمة»(*). ينتصر بروسبيرو بالطبع، وينجو كاليبان ليتذلل أمام أسياده المستعمرين: «ما أجمل سيدي! لكني أخشى أن يعاقبني... سأكون حكيمًا من الآن وأبحث عن النعمة...». لقد رُبحت حرب الإرهاب!

عاش شكسبير في عصر شكّلت الأمبراطورية العثمانية الإسلامية - في أوج

(*) «يو أس توداي»، ٣ تشرين الثاني/نوفمبر، ٢٠٠٦.

عظمتها - خطرًا وجوديًا وفعليًا على الأوروبيين. ومسرحياته التاريخية مملوءة بهذه المخاوف، على رغم أنها أيضًا نتيجة الحملة الإعلامية لمصلحة إليزابيث والملك جايمس في ما بعد. في «هنري الرابع» ينطلق الملك إلى الحرب الصليبية:

«وصولًا إلى ضريح المسيح

سنحشد منذ الآن جيشًا من الإنكليز الأشداء

أقوياء العود مذ كانوا في الأرحام

لنطرد أولئك الوثنيين من الحقول المقدسة

التي سارت عليها قدماه المباركتان».

إن الخطابة ليست حكرًا على أحد. قارنوا خطاب هنري الخامس قبل معركة أجينكورت، بمقدّمة صدام لـ«أم المعارك»، إذ يصف الجانب «العربي» بطهارة كطهارة بروسبيرو. ها هو صدام يقول: «على هذا الجانب من الصراع، تقف شعوب وقادة وحكام صدقوا، وإلى الجانب الآخر الذين سرقوا حقوق الله، الطغاة الذين أنكرهم الله بعدما أنكروا الشرف والحق والشهامة، وضلوا عن سبيل الله... فتلبّسهم الشيطان من رأسهم حتى أخمص أقدامهم».

ويتبنى تامبرلين في مسرحية «مارلو»، مشاعر مماثلة. تامبرلين هو الفاتح المسلم النموذجي، و«غضب الله» الذي وجد في نفسه شجاعة جعلته ملكًا، وركب خيله منتصرًا عبر بيرسيبوليس.

لكن مسرحية «عطيل» تظل أوضح تصوير لمخاوفنا من الشرق الأوسط، وأكثرها تراجيدية. إن عطيل مسلم يعمل في خدمة مدينة البندقية - الجارة القريبة من الامبراطورية العثمانية - وقد أرسل إلى قبرص لمحاربة الأسطول التركي. إنه جندي مرتزق تلوث كراهيته لنفسه المسرحية، وتودي بحياته في النهاية. ويتعرض لإساءة إياغو وروديريغو بسبب عرقه. إنه يحيا في عالم أضحت رؤوس الرجال

أقصر من هاماتهم، وهو فيه أسود البشرة - معظم العرب ليسوا سودًا، إلا أن أوليفييه تقيد بهذه الفكرة في شدة - وقبل أن ينتحر عطيل، يقارن طعنته ديدمونة بفعلة «هندي حقير»:

«... رمى لؤلؤة

تساوي قبيلته كلها. عن صاحب عينين منكسرتين

... يبكي دموعًا بعدد أشجار العرب

.... سجّلوا هذا

واذكروا أنني في حلب ذات مرة

عندما ضرب التركيّ المعمّم الوضيع

ابنَ البندقية، وتحدّى الدولة،

أمسكتُ ذاك الكلب المختون من خناقه

وسحقتُه هكذا».

وأخشى أن يكون هذا هو الخنجر الذي نشعر الآن في قلوبنا جميعًا.

«ذي إندبندنت»، ٣٠ آذار/مارس، ٢٠٠٧

مغازلة العدو

بعد الحرب العالمية الثانية، كانت فلسطين تنهار. فجر مناحيم بيغن المقارّ البريطانية في فندق الملك داود في القدس، وأعدم البريطانيون بدورهم الإرهابيين اليهود، بينما نفذ اليهود حكم الإعدام أيضًا بجنديين عسكريين بريطانيين مخطوفين. صمّم [حينذاك] العرب على تدمير دولة إسرائيل اليهودية المستقبلية. وكان الانتداب الامبريالي القديم على أبواب حرب أهلية. عليكم أن تطلّعوا على ملف الاستعمار الرقم ٥٣٧/٢٦٤٣ كي تفهموا لماذا استخفّ البريطانيون، في لحظة صراع كهذه، بفكرة التفاوض مع رجل دين عربي حاولوا أن يصوّروه كمجرم حرب منذ سنتين فقط.

بالطبع، كان مفتي القدس الحاج أمين الحسيني، يتناقش مع هتلر في برلين عام ١٩٤١، إذ كان يحث «الرايخ» الألماني على تجنب مغادرة اليهود الأوروبيين إلى فلسطين. وبعد سنتين، قدم المساعدة لتمويل الجيش المسلم «أس أس» في سارايفو استعدادًا للمواجهة في الجبهة الروسية. بعد ذلك، وفي العام ١٩٤٤، ادعاءً بجهل المحرقة اليهودية، أخطر وزير الخارجية الألمانية ريبنتروب، أن في حال سيتم «إخراج» اليهود من ألمانيا، «من الأفضل إرسالهم إلى بلاد أخرى، حيث يمكن أن يجدوا أنفسهم تحت المراقبة الفاعلة (كذا)، على سبيل المثال: بولندا...».

عندما حاول الفرنسيون الاستيلاء على ألمانيا عام ١٩٤٥، قبضوا على المفتي الحسيني، لكنهم سمحوا له بالهرب إلى مصر. عام ١٩٤٧، ظهر في لبنان بصفته قائدًا للفلسطينيين العرب، وصوتًا مدويًا ومتنفّذًا، قادرًا على تهدئة مواطن عربي في حال مواجهة مع بريطانيا أيام حكمها الأخيرة في فلسطين، أو إثارته. لا عجب لمَ لمْ يصدر ملف مكتب الاستعمار القديم هذا أثناء مدة

الحكم، لثلاثين عامًا، بل حوفظ على سريته طوال نصف قرن. كشف محتوى هذا الملف، على نحو مدهش، علماء التاريخ عند إصداره الشهر السابق. لم يكشف هذا الملف الاتصالات السرية بين مفتي القدس والدبلوماسيين البريطانيين في القاهرة وحسب، بل أيضًا اليأس الامبريالي في فلسطين، وفي شكل دراماتيكي، الغضب من «انتقام» اليهود من العرب المدنيين، ما شكّل، في نظر المفوض الأعلى البريطاني، «إساءة إلى الحضارة». إن النقمة والغضب يملآن هذا الملف، وكذلك الخسارة.

بتاريخ ١٥ كانون الثاني/يناير ١٩٤٧، أرسل الجنرال ألان كونينغهام مذكرة مطلقة السرية إلى أمين السر للاستعمار البريطاني آرثر كريش جونز عن تفاصيل مخيفة عن الحرب الأهلية في فلسطين. كتب «إن الوضع اليوم يتدهور»، في سلسلة من الثأر والانتقام بين اليهود والعرب، حيث تُسجَّل خسارة عدد من الأبرياء، وهي في حال تصاعد... كنت أفكر في الحلول التي يمكن اتخاذها بهدف تخفيف وطأة هذا الوضع الخطير. وفي ما يتعلق بالعرب، من دون شك، أي كلمة صادرة عن المفتي في الوقت المناسب، قد تكون الفرصة الوحيدة في جعلهم يتروّون إلى أن نغادر.

وصل الحاج أمين إلى لبنان الذي لم يمض الكثير على نيله الاستقلال، أوائل العام ١٩٤٧، وسرعان ما اكتشفت سلطات الانتداب البريطاني في بيروت الحرية التي منحها. لم يفاجئ ظهور مفتي القدس رئيس الوزراء اللبناني رياض الصلح(*)، إلا أن اللبنانيين أصرّوا على أن يحضر «عضو من رجال الأمن» في استمرار مع الحاج أمين، حرصًا على «مراقبة اللبنانيين نشاطاته وتقييدها»، كي «لا يحاول أن يفتعل أي نشاطات ضد المصالح البريطانية». وكان الدبلوماسيون في بيروت على علم، ولكن سبق للمكتب البريطاني في الشرق الأوسط في القاهرة أن اتصل بالشخص الذي صنفته بريطانيا وقادة القوات الحليفة، «مجرم حرب».

(*) رئيس الوزراء الأول في لبنان بعد نيل الاستقلال؛ اغتيل سنة ١٩٥١.

بتاريخ ٢٩ أيلول/سبتمبر، أرسل عميلنا في القاهرة مذكرة سرية إلى مكتب الشؤون الخارجية، مرفقًا تقرير المقابلة التي أجراها مع المفتي «مصدر غير مشكوك فيه». يُفترض أن هذه المذكرات المطبوعة في شكل حذر، صادرة عن موظف في الاستخبارات البريطانية. وهي تصف رجلًا اكتشف أن العرب الفلسطينيين واجهوا كارثة. رفض المفتي النظر في تجزئة فلسطين ولايات يهودية وعربية. وجاء في التقرير: «لم يكن يتفاوض مع الصهاينة على خلاف في حق الملكية». «كانت فلسطين، بما في ذلك يافا والنقب، للعرب، ولم يتعرّف إلى حق أي شخص «يعرض» ما لهم أصلًا كشرط للموافقة على التجزئة. «بدا الأمر كسارق يضع شروطًا يعيد على أساسها ممتلكات مسروقة». وأضاف الحاج أمين: «لن يرضى الصهاينة أي نوع من التجزئة... إنّ ما يحصلون عليه ليس إلا نقطة انطلاق للمطالبة بالمزيد».

يثور مفتي القدس الذي دعم العرب ضد الحكم البريطاني في الثلاثينات، وقد طلب اللجوء إلى العراق في وقت لاحق بعد انقلاب مناصر للألمان؛ ثم عبّر في مقابلته بكلمات لا بدّ من أنها أذهلت البريطانيين. ونصح الحاج أمين: «ضعوا أنفسكم مكان العرب. تذكروا سنة ١٩٤٠: هل فكرتم في منح الألمان جزءًا من بريطانيا شرط أن يتركوا لكم البقية؟ بالطبع لا، ولن تفعلوا ذلك». كان الردّ «لا، قطعًا لا» على اقتراح التجزئة أو فلسطين الفدرالية. يملك اليهود حقوق العرب نفسها في أمة فلسطينية، «إلا أن العرب لن يرضوا أي تنازل للصهاينة عن سلطة أو امتياز سياسي يجعلهم فوق... حكومة دولة فلسطين».

أعلن الحاج أمين عدم وجود سبب يمنع تعاون العرب والبريطانيين. ولكن، يجب ألّا ينخدع البريطانيون بفكرة أن القائد العربي سيُضعف القضية الفلسطينية... كان العداء الفلسطيني العربي للبريطانيين سياسيًا بحتًا: فقد كرهوا السياسة التي أوجدوها... الأمة الصهيونية. لو لم تدعم بريطانيا مطالب الصهاينة في فلسطين ورفضت التجزئة، «لكانت كسبت الصداقة العربية على الفور».

ولكن إذا استمر البريطانيون في الدعم، «فلن يأملوا التعاون العربي. إذ سيتكاتف العرب، عندها، ويعملون على تدميرهم».

كذلك، تحدّث المفتي عن المستقبل، مستعينًا بكلمات ذات تأثير تاريخي ساخر. «لم يخشَ شتيرن أو إيرغون أو الهاغانا. قد يخسر العرب في البداية. قد يتكبدون الكثير من الخسائر، إلا أنهم سينتصرون في النهاية». «سينتهي المطاف بسقوط» الصهاينة. ولم يخشَ النتيجة ما لم تتدخل بريطانيا أو أميركا بالطبع... «حيث سيحارب العرب عند ذاك، وسيتحول العالم العربي مكانًا عدوانياً إلى الأبد». وعندما اقترح زائره البريطاني إمكان موافقة العرب على جزء من فلسطين بدلًا من خسارتها كاملة، أجاب الحاج أمين: «من نحن؟ أقلية من المغتربين. لا شيء. إلا أننا لن نستسلم أو نتخلى عن مبادئنا في مقابل أي رشوة».

هل يجب على البريطانيين التكلم مع الحاج أمين مباشرة؟ في حين استمر القتال في فلسطين، أبلّغ الوفد البريطاني في بيروت إلى مكتب الشؤون الخارجية بتاريخ ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر، أن الحاج أمين «لا يعدّنا عدو العرب العام الأول بعد الآن». ولكن «إذا اتخذت الأمم المتحدة قرارًا لا يصبّ في مصلحة العرب، فسيتعرّض المفتي السابق (كذا) على الأرجح للضغط من مناصريه المتطرفين... وقد يُعدّ الاتصال بالمسؤولين البريطانيين، حتى في شكل غير رسمي، صمام أمان». وتضيف المذكرة البريطانية، المصنّفة تحت فئة «السرية»، إن على رغم أن «ماضي الحاج أمين المشكوك فيه يجعل إمكان التواصل معه، حتى شكل غير رسمي، غير مستحب»، لا يمكن الإنكار «أنه يتحلّى بامتياز ملحوظ وتأثير كبير، ومن الممكن أن يؤدي دورًا في حكومة فلسطين المستقبلية». «تعلّم» المفتي «درسًا من التحالف مع الجهة الخطأ في الحرب الأخيرة»، و«قد يستفيد من ميوله ضد الشيوعيين».

سبق لرياض الصلح، رئيس الوزراء اللبناني، أن عرض تحديد لقاء بين

المفتي الحسيني ودبلوماسي بريطاني كان موجودًا في بيروت، اسمه إيفانس، لتناول كوب من الشاي. أما أيفانس، «فلم يُبدِ التزامًا» حيال الفكرة. «لكن، أظن أن من الجيد أن يلتقيه أحد الموظفين لديّ من حين إلى آخر»، على ما ذكر رئيس الوفد. وعلى البريطانيين الآن بذل كل تأثير «في سرعة وبمقادير كبيرة» تجنبًا لتصادم كامل مع العرب الفلسطينيين. فالاجتماع مع المفتي «كفرد، لا يعني أن حكومة جلالته تخلت عن مبادئها، أو غضّت النظر عن ماضي المفتي المضلّل (كذا)... لو أنه غيّر نيته فعلًا، لمنحته الاتصالات المعتدلة والصادقة مع البريطانيين فرصة لإثبات ذلك. أما إذا لم يتغير، فسرعان ما سنكشف عن البقع تحت الحنّة التي يضعها».

مباشرة بعد هذه الرسالة الفصيحة، ذيَّل الدبلوماسي البريطاني، بخط يده، الملاحظات المهلكة بزيارة الملحق العسكري الأميركي المساعد في لبنان، للمفتي. وبحلول أواسط كانون الأول/ديسمبر، كان الجنرال كونينغهام يطالب من بيت لحم بالضغط على الحاج أمين «بهدف نصح العرب المحليين بالعدول عن أي أعمال عنف أخرى... ما دمنا هنا». لكن المفوض الأعلى أشار إلى أن «من الواضح أننا لا يمكننا الاقتراب من العرب من دون اتخاذ أي إجراءات في الوقت نفسه ضد اليهود. نحن بالطبع نبذل ما في وسعنا لجعل اليهود يلاحظون مدى جنون أعمالهم التي من شأنها أن تزيد الوضع سوءًا في المستقبل، ما سيُلحق المصائب بدولتهم». وتبين أن ادعاءات اليهود، عن اتخاذ «مجموعات متضاربة الرأي» إجراءاتهم غير صحيحة. و«من الواضح أنهم أنزلوا ضحايا أكثر لدى العرب، وليس العكس. في الواقع، استهدفت الاعتداءات (اليهودية) باصات أو مراكز مدنية». وختم كونينغهام في لحظة غضب، «أننا لم نهرب قط من اتهامات اليهود الصاخبة والمجنونة، بأننا شعب ميّال إلى الانتقام الوحشي. واليوم، اخترعوا (اليهود) حالات انتقام لم تخطر في بال أي جندي هنا للإساءة إلى الحضارة».

أُخطر مكتب الشؤون الخارجية بحجة كونينغهام في شأن المناقشات مع

المفتي. وفي غضون أيام، طُلب من الوفد في بيروت عدم الاتصال بالحاج أمين. لطالما طالب رؤساء الوزراء البريطانيون بمحاكمته على ما سموها «جرائم الحرب» التي ارتكبها. وكان حليفنا الملك عبد الله في الأردن - جدّ المرحوم الملك حسين - يكره المفتي. رحل البريطانيون من فلسطين بعار، تاركين العرب واليهود في حال حرب في الميدان. وغادر ثلاثة أرباع مليون فلسطيني، أو طُردوا من أرضهم. لم يربح العرب في النهاية كما توقع الحاج أمين، ولم ينته المطاف بدولة إسرائيل في كارثة كما اقترح كونينغهام. هاجم المتحدث الرسمي باسم إسرائيل المفتي في استمرار لتغزّله بالنازيين، وطلب «شيطنة» الفلسطينيين باسمه. لكن، بحسب حديثه، تبين أنه قومي عربي وليس اشتراكيًا وطنيًا. يُذكر أن كاتب سيرته حاكم عسكري إسرائيلي سابق في الضفة الغربية المحتلة(*).

توفي المفتي في بيروت سنة ١٩٧٤، مُهمَلًا ومنسيًا جدًّا حتى في لبنان. وكان ياسر عرفات بين الأشخاص الذين نعوه في دفنه.

«ذي إندبندنت»، ٢٠ شباط/فبراير ١٩٩٩

(*) زفي إلبيلج، مفتي القدس: الحاج أمين الحسيني، مؤسس الحركة الفلسطينية الوطنية (لندن، فرانك كاس، ١٩٩٣).

شكرًا لك، سيد كلينتون، كلامك الودي

في آب/أغسطس ١٩٩٨، بعد بصمات على السفارتين الأميركيتين في نيروبي ودار السلام، وفي ذروة فضيحة علاقته بالمتدربة المقيمة مونيكا لوينسكي، أطلق الرئيس بيل كلينتون قذائف موجهة على السودان وعلى قاعدة في أفغانستان، حيث كان من المفترض أن يوجد أسامة بن لادن. في الخرطوم، أصابت القذائف مصنعًا ادعى الأميركيون أنه يصنّع مكونات كيميائية للحرب، وأعلنوا في ما بعد أنه كان يصنّع أدوية لمصلحة الشعب المحروم في السودان. وقد استهدفت الغارة عددًا من مناصري «القاعدة، بمن في ذلك مواطنون بريطانيون وفي أفغانستان. لكن بن لادن لم يكن موجودًا.

ثمة الكثير من الأسباب وراء كره العالم العربي الحكومة الأميركية، منها خيانتها مبادئ عملية السلام، ودعمها غير المشروط إسرائيل، وحماستها للعقوبات التي يذهب ضحيتها آلاف العراقيين المدنيين، وحضورها المستمر في المملكة العربية السعودية. إلا أن السبب الذي يغيظ العالم العربي هو عادة الإدارة بالإفصاح عن مدى حبها للعرب.

قبل كل ضربة جوية، يُطمئن الرئيس ضحاياه المستقبلية إلى إعجابه بها. أبلغ رونالد ريغان المواطنين الليبيين أن أميركا تصنّفهم أصدقاء لها، ثم أطلق صواريخه على طرابلس وبنغازي. وراوغ جورج بوش في حديثه عن تاريخ العراق منذ ولادة الحضارة، وصداقة أميركا للعراقيين المدنيين، قبل تفجير كل مدينة في العراق. وهذا الأسبوع، فور انطلاق قذائفه من البوارج الحربية في البحر الأحمر والخليج العربي، ها هو بيل كلينتون، يبلّغ سكان منطقة الشرق الأوسط، أن الإسلام هو إحدى أعظم الديانات في العالم.

كما أبلغني البقّال أمس - راسمًا على وجهه ابتسامة عوجاء كالخبر الذي نقله إلي - «لهو أمر جيد أن يخبرني السيد كلينتون عن ديانتي. من الجيد أن يعرف المرء أن الديانة لا تبيح القتل. شكرًا لك، سيد كلينتون». لم يكن البقال مهذبًا. دوّى تذكير كلينتون من البيت الأبيض، بأن ليس ثمة ديانة تبيح مقتل رجال ونساء وأطفال أبرياء، في منطقة الشرق الأوسط، كما لو كان تناصرًا وإهانة في الوقت نفسه. هذا التذكير الذي صدر عن رجل متورّط في فضيحة علاقة غرامية، سمّاه «الرجل البذيء» مواطن مصري تحدثت إليه عبر الهاتف أمس، على رغم أن العرب لم يستوعبوا تعقيدات مغامرات السيد كلينتون مع الآنسة لوينسكي (لحسن الحظ، لا توجد ترجمة معتمدة للمصطلح «أورال سيكس» (العلاقة الجنسية الفموية) باللغة العربية).

لكن المقصد الذي فُهم أمس في المنطقة على الفور، هو سهولة اختيار الأميركيين من جديد عدوًا من دون الكشف عن ذنبه، جاعلين بالتالي الصحافيين والمعلّقين الإعلاميين يهتفون لهم. قال لي أحد الفلسطينيين ظهر هذا اليوم: «سئمت من الاستخدام المتكرر لمصطلح «الإرهاب»، فنقلتُ إلى الإذاعة الفرنسية». كان على حق. ارتكزت التقارير الصادرة عن أميركا على دقة «الإثبات المقنع» - «المقنع» إلى حد أننا لم نُمنح أي فكرة عن ماهيته - الذي يربط أسامة بن لادن بالمتفجرات الوحشية التي استهدفت كينيا وتنزانيا. اضطررت إلى أن أقاطع أمس المقابلات المباشرة عبر الراديو بهدف الإشارة إلى اعتماد الصحافيين في لندن وواشنطن مطالب الحكومة الأميركية من دون شك.

في نظر الأميركيين، بدأ ينطبق قول «ذَهَب مع الريح» على الحبكات التي من المفترض أن يكون لبن لادن يد فيها. أُبلغنا أن بن لادن لم يكن السبب وراء تفجيرات السفارتين الأميركيتين وحسب، بل ووراء تفجير الجنود الأميركيين في مدينة الظهران السعودية، وأعمال العنف ضد الحكومة في مصر، وتفجير المركز التجاري العالمي في نيويورك سنة ١٩٩٣... والآن - انتظارًا - محاولة

اغتيال البابا. هل من الممكن تصور هذا الأمر؟ إن تفسير المراسلين الصحافيين هذا الواقع يعكس حال الصحافة وارتياب الأميركيين.

يُعدّ استخدام مصطلح «إرهابي»، جزءًا من المشكلة. فالعرب الذين يقتلون شخصًا بريئًا، هم دومًا «إرهابيون»، أما القتلة الإسرائيليون الذين يذبحون رئيس الوزراء في بلدهم، إسحق رابين، فهم «متطرفون». مصطلح «الإرهابي» يتجنّب كل المعاني. وللسؤالين «مَن» و«كيف»، أهمية كبيرة. أما بالنسبة إلى السؤال «لماذا»، فيفضّل الغرب أن يتجنّبه. لم يستفد أي قائد أو دبلوماسي أميركي قط أمس من بيان صحافي، أو مؤتمر صحافي، أو مقابلة، لإبداء أسباب كره أعداء أميركا لها. لماذا يكره بن لادن الولايات المتحدة الأميركية؟ لماذا - ليس مَن، وكيف فحسب - بل لماذا يقترف أحدهم هذه الأعمال الفظيعة في أفريقيا؟

من الواضح أن أحدهم فجّر السفارتين الأميركيتين في نيروبي ودار السلام. من الممكن أن يكونوا مفجرين انتحاريين، لكنهم علموا بالطبع أنهم يستهدفون أشخاصًا أبرياء. إن أعمالهم شريرة، إلا أنهم ليسوا أغبياء، كما نعتهم أحد الدبلوماسيين الأميركيين. وسواء أكان لِبن لادن يد في الموضوع أم لا، فثمة سبب وراء هذه الأعمال الشنيعة. وبالطبع، يكمن هذا السبب في السياسة الأميركية - أو غياب السياسة - تجاه الشرق الأوسط. «كيف يمكن أميركا حماية سفاراتها؟»، طرحت عليّ هذا السؤال الأسبوع الماضي إذاعة أميركية. وعندما اقترحت أن تتّبع سياسات أكثر عدلًا في المنطقة، اتُّهمت بتجنب الرد على سؤال عن «الإرهاب».

ما يلفت في جذور رد فعل العرب تجاه الاعتداءات على السودان وأفغانستان، أن توقيته يتوافق وأدنى مستوى من التقارير الأميركية، عندما بلغ حس الخيانة لدى العرب قمته: وجود أميركا في شكل مستمر في المملكة العربية السعودية؛ رفضها الضغط على إسرائيل لوقف مواصلة بناء المستعمرات

اليهودية في الأراضي العربية بما يخرق اتفاق أوسلو؛ اتفاق الضربة العسكرية الوشيكة لمتابعة فرض العقوبات التي يبدو أنها تغربل الشعب العراقي المدني. يُعدّ الغضب العربي على هذه الكارثة سببًا لتفجيرات السفارتين الأميركيتين. وفوق ذلك كله، يشبه الاستماع إلى محاضرة السيد كلينتون، ثم استقبال تفجيراته، تلقي ضربة على أسنانكم من رجل سبق أن طعنكم في ظهركم.

وسواء أكان لِبن لادن يد في الأمر أم لا، ثمة شبهة على العرب بتنظيم تفجيرات السفارتين من قبل العرب، أو على الأقل اشتراكهم فيها. صحيح، كرهان عادل ومخيف، يجب إيجاد المجرمين ومحاكمتهم، ولكن لا تعكس الهجمات الصاروخية هذا الأمر، كما يعلم السيد كلينتون جيدًا. فالتكلّم على «المؤامرة الإرهابية الدولية» الضخمة، يوازي اقتناع العرب الراسخ بـ «المؤامرة الصهيونية الدولية» غرابة. فبِن لادن محمي في أفغانستان من طالبان، التي تتلقى المال وتتسلّح من المملكة العربية السعودية، وتستوحي منها. ومن المتوقع أن تكون السعودية صديقًا مقرّبًا لأميركا في الخليج، وحليفًا قويًا إلى حد أن الجنود الأميركيين ما زالوا هناك (بالطبع، يتذمّر بن لادن من ذلك). فهل يُعقل أن يدعم الشعب النافذ في المملكة العربية السعودية، الدولة الأصولية وغير الديموقراطية، بن لادن ويشاطره رغبته في إعلان «الجهاد» على أميركا؟ واضح أن على أميركا أن تطرح هذا السؤال.

ظل بن لادن بنفسه مهووسًا أشهرًا عدة بمجزرة المدنيين اللبنانيين على أيدي الإسرائيليين في قاعدة الأمم المتحدة في قانا، جنوب لبنان في نيسان/ أبريل سنة ١٩٩٦. وتساءل: لمَ لَمْ يَدِنِ كلينتون هذا «العمل الإرهابي» (في الواقع، سمّاه بيل كلينتون بـ «المأساة»، كما لو كان نوعًا من المأساة الطبيعية، بينما سمّاه الإسرائيليون «خطأ»، إلا أن الأمم المتحدة استنتجت العكس). أراد أن يعرف بن لادن، لمَ لمْ يُحاكَم المجرمون؟ من الغريب الآن مقارنة أقوال بن لادن بأقوال بيل كلينتون قبل ثمانٍ وأربعين ساعة. كلاهما يتقن اللغة ذاتها. وها هي لغتهما تزداد وحشية. قال كلينتون: «إن الولايات المتحدة الأميركية تريد

السلام، لا الصراع». يبدو أنه يجد القليل من السلام في منطقة الشرق الأوسط لما بقي له من الرئاسة.

«ذي إندبندنت»، **٢٢ آب/أغسطس ١٩٩٨**

استعدوا للجزء الثاني من الحرب

تحت ذريعة الحضارة

لزم الأمر مساعدة زميلي الصحافي الإيرلندي القديم، فينسنت براون، ليدلّني إلى النقاط المهمة. قرأت آلاف التقارير الصحافية عن «نتائج» حرب أفغانستان، مع ألم في الرأس يوازي أفغانستان حدة، لأجد نفسي مخدّرًا بالأكاذيب. وأخيرًا، تحررت النساء الأفغانيات. كانت «قواتنا» الموكلة الحفاظ على السلام، في طريقها إلى هناك. دُمرت طالبان. سقطت المتظاهرات في باكستان ضد أميركا: سنتخطى هذه المناوشات مع بعض الأفغان التي واجهناها قبل بضعة أسابيع. بدأت «القاعدة» «تنكشف» من كهوفها ومخابئها. أما أسامة بن لادن، فلم يُقبض عليه، أو لم يمت حتى. ولكن، حصلت أميركا على شريط فيديو، لم يفهمه أي مواطن عربي عرفته، من شأنه أن «يُثبت» أن هذا «الوحش» خطط للجرائم ضد الإنسانية في نيويورك وواشنطن.

لذا، استعنتُ بفينسنت، الذي يتنفس كمحرّك بخاري عندما يكون في حال غضب، للإشارة إلى المستندات في وكالة «جيما»، إحدى وكالات الأنباء المفضلة لدي في دبلين. سألني: «ماذا يحدث بحق الله، بوب؟ هل اطّلعتَ على عناوين الهراء هذا؟»، ساحبًا مجلة «نيوزويك» عن الرف. العنوان: «بعد الشر». سألني فينسنت: «ما هذا الكلام التوراتي الفارغ؟». بدا وجه أسامة بن لادن المرسوم والمصوّر على غلاف المجلة، صورة معتمة وشرّانية، من الدوائر «الدانتية» الجهنمية. عندما احتلّ ستالين برلين، أعلن دخول جنوده «مخبأ الوحش الفاشي». ولكن، لا علاقة للحرب العالمية الثانية بهذا الموضوع.

لذا، فلنَصُغ «قصة حتى تاريخه». بعدما حطم المهاجمون العرب أربع

طائرات مخطوفة في المركز التجاري العالمي والبنتاغون وبنسلفانيا - هذه الجريمة ضد الإنسانية التي أودت بحياة ٤٠٠٠ بريء - أعلن الرئيس بوش حملة عنيفة في سبيل «العدالة» المطلقة - التي انحدرت في ما بعد إلى «الحرية» المطلقة - وفجّر أفغانستان [واحتلها]، مستعينًا بالقاتلين المحترفين والمجرمين المخزيين في التحالف الشمالي بهدف تدمير القتلة المحترفين والمجرمين المخزيين في طالبان. فجّر الأميركيون حصن كهف بن لادن، وقتلوا مئات الأفغان والمحاربين العرب، ناهيك بالسجناء الذين أعدمهم، بعد قمع ثورة سجن مزار شريف، التحالف الإنكليزي - الأميركي - الشمالي.

عُدّ شريط الفيديو لِبن لادن دليلًا قاطعًا إلى تورطه، في نظر الصحافة الدولية، في شكل كبير، إذ تعمّد المسلمون تجاهله. كذلك، ساعدت صياغة هذا الشريط على حجب حقيقة اختفاء «السيد الشرير»، وإخفاء وقائع أخرى أيضًا. وبحسب إحصاءات معدّة من مدرسين في جامعة نيو هامشاير، قد ننسى أن الهجمات الأميركية هذه أسفرت عن قتلى أفغان أبرياء أكثر بكثير من القتلى الغربيين ومن الجنسيات الأخرى الذين ذهبوا ضحية الخاطفين، نتيجة حادث مركز التجارة العالمي(*). وقد ننسى أيضًا هرب الملا محمد عمر، قائد طالبان الغامض. يمكننا أن نغضّ النظر عن أن أغلب النساء الأفغانيات استمررن في لباس البرقع، باستثناء بعض المجموعات النسائية الشجاعة. وبالطبع، يمكننا أن نغفل تفوّق قاتلي التحالف الشمالي الكثيف، الممثل في الحكومة الجديدة في كابول الداعمة لأميركا والمناصرة للغرب، وأن نصفّق لدى وصول خمسين راميًا بحريًا ملكيًا إلى أفغانستان، نهاية هذا الأسبوع، دعمًا لقوات «السلام»، تحت القيادة البريطانية، المؤلفة فقط من آلاف الرجال فقط الذين يحتاجون إلى إذن حكومة كابول للتحرك في المدينة، والذين يوازون ثلث الجيش البريطاني الذي

(*) مارك و. هيرولد، «ملف عن الضحايا المدنية في المتفجرات الهوائية الأميركية في أفغانستان»، «حساب شامل» (المعدّل في آذار/مارس ٢٠٠٢). http://www.curcor.org/stories/civiliandeaths.htm)

دُمّر في كابول سنة ١٨٤٢. تظن قوات «السلام» أنها ستدافع عن وفود المساعدة الإنسانية من السارقين والمشاكسين في طالبان، بينما يجب عليها أن تقاوم مافيا التحالف الشمالي ومروّجي المخدرات وقادة الحرب وحرب العصابات الوحشية المبرمجة، كي يدمرها مناصرو بن لادن. وفي هذه الحال، حرصت طالبان على الحفاظ على سلامة الطرقات والقرى في أفغانستان للأفغانيين والأجانب، على حد سواء. وبات في استطاعتكم اليوم أن تعبروا في صعوبة من كابول إلى جلال أباد.

على الأرجح، ستلقي وكالة الاستخبارات المركزية («السي. آي. آيه»)، اللوم علينا في شأن عصابات التحالف في حربها في أفغانستان. ومن إحدى القصص التي لم يتم الكشف عنها في خضمّ هذا الصراع، حجم المبالغ الهائلة التي مُنحت لقادة الميليشيا لإقناعهم بالقتال لمصلحة أميركا. وعندما بدّل أعضاء من طالبان موقفهم في مقابل دفعة من التحالف بقيمة ٢٥٠,٠٠٠ دولار أميركي، ثم هاجموا أسيادهم، استفضنا جميعنا في الحديث عن خيانتهم. لم يتساءل أي منا كيف رمى التحالف ربع مليون دولار في طالبان وسط قتال ناري، بينما لم يكن يملك ما يكفي من المال لشراء الرصاص قبل بضعة أسابيع. كذلك لم نتساءل عن مصدر غنى قادة قبيلة الباشتون في مقاطعة قندهار، وقد ظهرت تجلياته من خلال السيارات الجديدة الرباعية الدفع، ومئات الدولارات التي يدفعونها لكل فرد من مسلحيهم. لم أفاجأ عندما قرأت عن قائد الحرب الصومالي الذي يعرض اليوم خدمات التأجير النقدية لأميركا للدورة الثانية من حربها.

لحسن حظنا، ستبقى ضحايا «بي ٥٢» الأميركية، مجهولية الهوية في قبورها المحفورة حديثًا. حتى قبل نهاية الحرب، قُضي على حوالى ٣,٥٠٠ شخص منهم في حرب الحضارات، من دون مسلّحي الملا عمر وبن لادن. ويمكن حذف بعض إشارات الغضب في سرعة من السجلات: تلك الوفود المغتاظة لمقتل عائلاتها التي أهانتني منذ أسبوعين، على سبيل المثال.

من الواضح أن من الخطأ الملاحظة أنني لم أقابل أي مسلم، أو، بالطبع، الكثيرين من الغربيين - من الجنسيات الباكستانية والأفغانية والبريطانية والفرنسية والأميركية - الذين لا يصدقون هذا الهراء. فلنتذكر أن حكومة كابول الجديدة ملتزمة دعم الإسلام والديموقراطية والتعددية والعدالة الاجتماعية، مثل جورج بوش، لمصلحة الخير والقضاء على الشر. امضوا في اتجاه السنة المقبلة، ولا تقلقوا على بن لادن، فقد يظهر في الوقت المناسب ليشارك في الجزء الثاني من الحرب في سبيل الحضارة.

«ذي إندبندنت»، ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠١

مع حلول خريف ٢٠٠٧، حارب متمردو طالبان آلاف الجنود الغربيين لإخراجهم من قندهار. سيطرت «حكومة» حميد قرضاي الأفغانية على أكثر بقليل من وزاراتها في كابول، بينما هاجم بعض الانتحاريين، مستعينين بالأسلوب العراقي، قوات قرضاي الحكومية وجيوش حلفائه الغربيين.

قمة اليأس

منذ بضعة أيام، ناشد صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله في المملكة العربية السعودية(*) «ضمير» الشعب الأميركي مساعدة الفلسطينيين. تقدّم أمير قطر خطوة نحو الإذلال الذاتي، قائلًا إن العرب - واعتذر لاستخدام المصطلح - «توسّلوا» الولايات المتحدة الأميركية استخدام نفوذها والضغط على إسرائيل. في الواقع، يدلّ التلفظ بهذا النوع من المصطلحات إلى قمة يأس العرب: التوسّل؟ الضمير؟ قد تستمر واشنطن في رفض طلب أرييل شارون قطع العلاقات كافة مع ياسر عرفات، إلا أن الرئيس بوش نسي «رؤيته» منذ زمن بعيد لدولة فلسطينية؛ هذه الرؤية التي أوجدها عندما كان في حاجة إلى موافقة العرب في شأن الحرب على أفغانستان، والتي سرعان ما تبخرت عندما حقّق مبتغاه. ويكمن دور عرفات اليوم في حفظ وظيفته: حماية إسرائيل من شعبه.

يختال عرفات في مكتبه في رام الله، محاطًا بالدبابات الإسرائيلية، مستعيدًا جرأته البطولية أثناء الحصار التي فرضته إسرائيل على بيروت الغربية سنة ١٩٨٢، ولكن من الصعب الاستخفاف بالعار الذي يملأ قلوب كثر من الفلسطينيين تجاهه. أصرّ عرفات في مناسبة عيد الميلاد الفائت، على أنه سيمشي نحو بيت لحم لحضور قداس منتصف الليل. ولكن، عندما رفضت إسرائيل منحه الإذن، بالكاد ظهر على الشاشة الفلسطينية، مدعيًا أن رفض إسرائيل هو «جريمة»، وعمل «إرهابي». لماذا سألت الصحيفة اليومية «القدس العربي»: لمَ لا يوجد أي تفسير لتصرّف عرفات «الغريب والغامض»؟ لمَ لمْ

(*) اليوم هو الملك عبد الله عاهل المملكة العربية السعودية.

يغادر رام الله برفقة رجال الدين (الكهنة) المسيحيين الذين حضروا لأغراض الدعم، إلى أن أوقفه الجنود الإسرائيليون أمام كاميرات التلفاز؟ كلما تحدث عن إرهاب إسرائيل، صرفنا النظر عن سجله من الفساد والمحسوبية والوحشية.

في تلك الأثناء، سارعت إسرائيل إلى ابتداع الأساطير. في نيويورك: يعلن شيمون بيريز حضور عناصر حرس الثورة الإيرانيين في لبنان ووصول ٨,٠٠٠ قذيفة صاروخية بعيدة المدى إلى «حزب الله»؛ مضت خمس عشرة سنة على عدم وجود أي جندي رديف في لبنان، ثم أن القذائف «الجديدة» غير موجودة(*). وقد نُشر هذا الهراء في الولايات المتحدة الأميركية من دون أدنى محاولة للتحقق من الوقائع. أما الكذبة الكبيرة الأخيرة، فصدرت عن شارون(**). قال إنه ندم على عدم «تصفية» عرفات أثناء حصار بيروت سنة ١٩٨٢، لكن ذلك حدث بموجب اتفاق. هذا كلام فارغ. في ظل الحصار، قصفت الطائرات الإسرائيلية خمس مرات المباني حيث كان عرفات مختبئًا، بحسب شارون، ولاحقًا وزير الدفاع الإسرائيلي، في مناسبتين، مدمّرة بذلك شققًا كاملة من المباني - إضافة طبعًا إلى المدنيين فيها - بعد مضي دقائق على مغادرة عرفات. ومرة أخرى، نشرت الصحف الأميركية القصة الخاطئة من وجهة نظر شارون.

بالطبع، انضم المشاركون كافة في صراع الشرق الأوسط اليوم إلى لعبة خيبة الأمل الذاتية، وهي محاولة فاضحة وكاذبة لتجنب أي معاينة للمسائل الدقيقة التي تنبض وراء هذه المأساة. تريد المملكة العربية السعودية أن تستعين بـ «ضمير» أميركا، ليس بسبب غضبها حيال أزمة عرفات، بل لأن خمسة

(*) بحلول العام ٢٠٠٦، أصبح ابتكار الأساطير حقيقة: كان لـ«حزب الله» أكثر من ٨,٠٠٠ صاروخ حديث في لبنان.

(**) عانى رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون سكتة دماغية بتاريخ ٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦، وكان ما زال تحت رحمة الأجهزة الطبية في شباط/فبراير ٢٠٠٨.

أشخاص من الخاطفين في حادث ١١ أيلول/سبتمبر على ما تبين كانوا من حملة الجنسية السعودية. يُعدّ سعي شارون إلى الانضمام إلى «الحرب على الإرهاب»، محاولة فاضحة ضمانًا للدعم الأميركي في سحق الانتفاضة الفلسطينية، وللحفاظ على الاستعمار الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية، تتجسّد «الحرب على الإرهاب» باختراع الأعداء الإيرانيين الوهميين في لبنان، على سبيل المثال، إضافة إلى بعض الأعداء الفعليين في الضفة الغربية وغزة.

وفي شكل مشابه، يُعدّ ادعاء السيد بوش الرسوليّ، أنه يقاتل «الشر»، وأن «القاعدة» المعادية لأميركا تكره أميركا لأنها «ضد الديموقراطية»، كلامًا فارغًا، إذ يتجسّد «الشر» راهنًا وظاهريًا في دولة - أمة متكاملة. يجهل معظم أعداء أميركا المسلمون معنى الديموقراطية - كما لم يتمتعوا بها قط- ولأعمالهم، الشريرة بالطبع، حوافز. فالسيد بوش - وبالطبع وزير خارجيته كولن باول - على علم بالرابط الجوهري بين جرائم ١١ أيلول/سبتمبر ضد الإنسانية، والشرق الأوسط. وعلى رغم ذلك كله، كان المجرمون جميعهم عربًا: يتقنون اللغة العربية كتابة وقراءة، ويتحدرون من المملكة العربية السعودية ومصر ولبنان. هذا ما سُمح لنا بالنظر فيه في هذا الشأن.

ولكن، عندما يتخذ أي شخص الخطوة العقلانية التالية، وينظر إلى العالم العربي، نكون قد دخلنا أراضي ممنوعة؛ إذ سينجم عن أي تحليل لوضع الشرق الأوسط الراهن، الظلم والعنف والموت، أي كثيرًا ما ينتهي الأمر نتيجة سياسات الولايات المتحدة الأميركية وحلفائها الإقليميين (العرب بمقدار الإسرائيليين)، سواء أكان في شكل مباشر أم غير مباشر. في هذه المرحلة، بوجوب أن تتوقف المناقشات كافة. ينعكس تدخّل أميركا في المنطقة من خلال دعمها غير المشروط لإسرائيل، ورضوخها للاستعمار اليهودي للأراضي العربية، والعقوبات المفروضة على العراق والتي أودت بحياة عشرات الآلاف من الأطفال. وبما أن التدخّل الأميركي هذا في المنطقة وغياب الديموقراطية التي يدّعي بوش أنها عرضة للهجوم، يقترحان احتمال ربط أعمال أميركا بالغيظ

والغضب اللذين ولّدا الجرائم الكثيفة في ١١ أيلول/سبتمبر، فيعني هذا أننا نوجد في أرض شديدة الخطورة بالطبع.

تتماشى، في شكل غريب، الأنظمة العربية مع هذا كله؛ ليس الشعب العربي الذي يعلم جيدًا بخفايا الأعمال المروّعة في ١١ أيلول/سبتمبر، بل يجب على القيادة أن تتظاهر بالجهل. فهي تدعم «الحرب على الإرهاب»، وتطلب - تتوسّل من أميركا أن تميّز بين «الإرهاب» و«المقاومة الوطنية». ويتعمّد السعوديون التغاضي عن مشاركة مواطنيهم، بينما يسترسلون جهرًا في «المؤامرة اليهودية» على المملكة العربية السعودية. ويقول عرفات إنه يدعم «الحرب على الإرهاب»، ثم - يجب ألا نخدع أنفسنا - يسمح لمعاونيه بمحاولة تنفيذ عملية تمرير السلاح على متن سفينة «كارين أ»(*)، في حين يعجز شارون بالكامل عن حماية شعبه من الانتحاريين الفلسطينيين، ويركّز على إظهار الانتفاضة على أنها «إرهاب عالمي» بدلًا من إظهار حسها الوطني. وعلى رغم كل شيء، إذا كانت المسألة مسألة مواطنة، فهي أيضًا تدور على الاحتلال الإسرائيلي، الذي لا يُسمح لنا بمناقشته تمامًا مثل السياسة الأميركية في المنطقة.

في نهاية الشهر المقبل (آذار/مارس)، سيعقد الرؤساء والملوك العرب قمة في بيروت، حيث سيصدرون إعلانات صارخة لدعم الفلسطينيين ولدعم الحرب على «الإرهاب»، في شكل يوازي تقريبًا أهمية الدعم الأول. لا يمكنهم أن ينتقدوا السياسة الأميركية، على رغم شناعتها، إنهم، في معظمهم، يعتمدون عليها. لذلك، سيناشدون «ضمير» أميركا مرة أخرى. وسيفعلون مثلما فعل أمير قطر منذ بضعة أيام: سيتوسّلون، ولن يحصلوا على شيء.

«ذي إندبندنت»، ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٢

(*) «كارين أ»، سفينة تتسع لـ٤٠٠٠ طن، أوقفها الأسطول البحري الإسرائيلي بتاريخ ٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٢. ادّعت إسرائيل أنها كانت تحمّل ٥٠ طنًّا من السلاح لسلطة عرفات الفلسطينية في غزة.

أثناء القمة العربية التي عُقدت في بيروت خلال آذار/مارس ٢٠٠٢، عرضت المملكة العربية السعودية على إسرائيل أن تعترف بها الدول العربية، بما في ذلك إقامة اتفاقات السلام والتسويات في شأنه في مقابل انسحابها من الأراضي العربية المحتلة منذ حرب ١٩٦٧؛ أي ما يمكن أن يحتمل «حلًا عادلًا» لمشكلة اللاجئين الفلسطينيين، واعترافًا بدولة فلسطينية مستقلة ذات سيادة في الضفة الغربية وغزة. إلا أن إسرائيل رفضت هذا الاقتراح. ولم تُبدِ واشنطن أي اهتمام به.

الأكاذيب التي يرويها القادة

عندما يريدون أن يعلنوا الحرب

بعد نتائج اعتداءات أيلول/سبتمبر على أميركا، حاولت إسرائيل أن تُدرج حرب الاحتلال المستمرّة التي تشنّها على فلسطينيي ياسر عرفات في السياق نفسه. وأشار الدبلوماسيون الإسرائيليون إلى عرفات - المتحول من «إرهابي من الدرجة الأولى» إلى «رجل دولة من الدرجة الأولى» بموجب اتفاق أوسلو - على أنه «بن لادن الخاص بهم» على أمل أن تنظر أميركا إلى النزاع الإسرائيلي مع العرب المستعمَرين كجزء من الصراع نفسه مع «الإرهاب» الذي ظنّ جورج دبليو بوش أنه يخوض الحرب عليه.

كم من الوقت بعدُ يمكن أريبل شارون أن يطيل ادعاءه أنه يخوض «الحرب على الإرهاب»؟ كم من الوقت بعدُ، يجب أن نصدّق هذا الكلام الفارغ؟ وكم من الوقت ستحافظ أميركا على هدوئها الجبان في وجه الصراع الوحشي الذي يكاد يغطّي على الجرائم ضد الإنسانية خلال اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر؟ الإرهاب، الإرهاب، الإرهاب. يُعدي هذا المصطلح كل خطاب إسرائيلي، وكل خطاب أميركي، وكل مقالة صحافية، تقريبًا، كعلامة الترقيم. متى سيعترف أحدهم بالحقيقة: بأن الإسرائيليين والفلسطينيين مشتركون في حرب استعمارية قذرة، ستطبع العار والذل على تاريخ كل منهم؟

استمعوا إلى ما يقوله شارون خلال الساعات الأربع والعشرين هذه. «إن عرفات عدوّ. نظّم «استراتيجية إرهابية و«شكّل» تحالف إرهاب». هذا ما نطق به الرئيس بوش بالضبط عن أسامة بن لادن. ولكن، ماذا يعني ذلك بحق الله؟ هل يبعث عرفات فعلًا المتفجرين الانتحاريين، مختارًا الهدف، وعدد المتفجرات؟

في هذه الحال، بالطبع يكون شارون قد أرسل فرقة القتل وراء القائد الفلسطيني منذ أشهر عدة. وفوق ذلك كله، نجح قاتلو شارون في اغتيال عشرات المسلحين الفلسطينيين، بمن في ذلك بعض النساء والأطفال الذين اعترضوا السبيل.

تكمن المشكلة الفعلية في عرفات، في أنه يتقاسم الكثير من النقاط المشتركة مع شارون: عجوز، قاس، ساخر. وتوصّل الرجلان إلى كره أحدهما الآخر. يعتقد شارون أن في الإمكان قمع الفلسطينيين بالقوة العسكرية. لم يفهم أن العالم تعلّم درسًا من الحصار الذي فرضه هو نفسه على بيروت سنة **١٩٨٢**: لم يعد الخوف يتملّك العرب. عندما يتخلّص شعب ما من الخوف، لا يمكن حقنه من جديد به. وعندما يتفشّى المتفجرون الانتحاريون، لا يمكن ربح الحرب. وعرفات يعلم ذلك. فبالطبع هو لا يرسل المفجرين الانتحاريين لينفّذوا مهامهم في المطاعم والسوبر ماركت، لكنه يعلم أنه يقضي على صدقية شارون مع كل تفجير، ويثبت خداع وعوده بالحفاظ على الأمن (للإسرائيليين). يعلم عرفات جيدًا أن هؤلاء المفجرين يخدمون مصالحه، بغض النظر عن إدانته لهم علنًا.

لكنه يعتقد، أيضًا، على غرار شارون، أنه يستطيع تدمير أعدائه بالنار. يظن أن الإسرائيليين قد يخافون وينسحبون من الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية. في النهاية، قد يضطر الإسرائيليون إلى التخلي عن احتلالهم، ولكن لن يهرب يهود إسرائيل، أو لن يستسلموا لحرب استنزاف من دون نهاية. حتى إذا لم يبقَ شارون في الحكم - وهذه رغبة كثر من الإسرائيليين - فلن يتفاوض رئيس الوزراء الجديد خوفًا من المفجرين الانتحاريين. وبالتالي، يغدو الكلام البلاغي أكثر ثورة. تصف حماس أعداءها الإسرائيليين بـ «أبناء الخنازير والقردة»، بينما يشبّه القادة الإسرائيليون أعداءهم بـ «الأفاعي» و«التماسيح» و«الحيوانات» و«الصراصير». اليوم، بحسب الصحيفة اليومية الإسرائيلية «معاريف»، لدينا

مسؤول إسرائيلي ينصح لرجاله بدراسة التكتيكات النازية المعتمدة خلال الحرب العالمية الثانية: «إذا كان عملنا يكمن في الاستيلاء على مخيّم يغصّ باللاجئين، أو السيطرة على قصبة نابلس، وإذا ائتمن مسؤول إسرائيلي على هذا العمل بهدف التنفيذ من دون شكليات من الجهتين، فيجب قبل كل شيء تحليل النزاعات السابقة وجمع العبر منها، حتى تحليل استراتيجيات الجيش الألماني خلال غيتو وارسو، ولو بدا ذلك غريباً».

الاعتذار؟ ماذا يعني ذلك بحق الله؟ هل يشير إلى الأرقام المطبوعة من الإسرائيليين، على أيدي السجناء الفلسطينيين وجبين كل واحد منهم أوائل هذا الشهر؟ هل يعني أن الجندي الإسرائيلي اليوم بات ينظر إلى الفلسطينيين على أنهم دون مستوى البشر؛ الأمر الذي شهدناه من خلال نظرة النازيين إلى اليهود المعتقلين واليائسين في غيتو وارسو سنة ١٩٤٤؟

وعلى رغم ذلك، صمتت واشنطن. والصمت في القانون يعني الموافقة. هل يجب أن نفاجأ، فوق ذلك كله، بأن أميركا تضع القواعد اليوم وهي تمضي قدمًا. يمكن دعوة السجناء «المقاتلين غير القانونيين» وإحضارهم إلى خليج غوانتانامو مكمومي الأفواه لمحاكمتهم في شبه سرية. أُعلنت حرب أفغانستان انتصارًا؛ إلا أنها تفجرت فجأة من جديد. وقيل لنا اليوم إننا سنواجه «جبهات» أخرى في أفغانستان أي هجومًا متفجرًا يشنه «الإرهابيون». وكذلك أعلنت واشنطن أن وكالات أجهزة استخباراتها - التي لم تكشف كارثة ١١ أيلول/ سبتمبر - لديها إثبات (لم يُفصح عنه بالطبع) على أن عرفات لديه «تحالف جديد» مع إيران، ما يحضر لضم الفلسطينيين إلى «محور الشر».

لا يوجد أحد لتحدّي هذه المسألة؟ منذ أسبوع، أعلن مدير وكالة الاستخبارات المركزية جورج تينيت، أن للعراق علاقات تجمعه بالقاعدة، مضيفًا أن «اتصالات وروابط» تأسست. وهذا ما تشير إليه العناوين. ويسترسل تينيت قائلًا إن التنافر المتبادل بين القاعدة والعراق من جهة، وأميركا والمملكة

العربية السعودية من جهة أخرى، «يستدعي إمكان التعاون التكتيكي بينهما». «يستدعي؟ إمكان؟»، هل هذا هو الإثبات الذي يقدمه السيد تينيت؟

لكن الجميع اليوم يستغل «الحرب على الإرهاب». عندما تأخذ الشرطة المقدونية أسلحة سبعة أشخاص عرب، يعلنون أنهم يشاركون في «الحرب على الإرهاب». وعندما يغتال الروس الشيشان، فهم يواصلون «الحرب على الإرهاب» حتى النهاية. وعندما تطلق إسرائيل النار على مقرّ عرفات الرئاسي [المقاطعة] (في رام الله)، تعلن أنها تشارك في «الحرب على الإرهاب». هل يجب أن نخضع لامتصاص أميركا الذاتي الخطير مع جرائم ١١ أيلول/ سبتمبر؟ هل يجب تشويه الحرب بين الفلسطينيين والإسرائيليين بهذا الشكل المخادع؟

«ذي إندبندنت»، **٣٠ آذار/ مارس ٢٠٠٢**

استقال جورج تينيت من منصبه مديرًا لوكالة الاستخبارات المركزية بتاريخ ٣ حزيران/ يونيو ٢٠٠٤، ليحلّ محلّه المحلل في الشؤون السوفياتية السابق روبرت غيتس [أصبح وزير الدفاع لاحقًا أواخر عهد بوش، وبداية عهد باراك أوباما] الذي انضم إلى وكالة الاستخبارات حين كان تلميذًا في جامعة إنديانا.

غير مرحَّب بكم

توجّه الرئيس جورج دبليو. بوش إلى «البوندستاغ» (البرلمان) الألماني بتاريخ ٢٣ أيار/مايو ٢٠٠٢.

أصبح أسامة بن لادن اليوم بمثابة هتلر. وصدام حسين صار أيضًا هتلر. وجورج بوش يحارب النازيين. إذا أردنا أن نستمع إلى هذا الهراء، في وقت كان جيش مناحيم بيغن الإسرائيلي يحاصر بيروت ويقتل آلاف المدنيين، فبناءً عليه، كان هو يتخيّل نفسه أنه يحارب «هتلر» - عرفات المثير للشفقة - تمامًا مثلما كان الرئيس ريغان يهاجم هتلر في برلين. إلا أنه لأمر رائع أن نقوم بذلك، نحن الأوروبيين، في «البوندستاغ» يوم الخميس، في هدوء في أغلب الأوقات. هل يجب أن نعيش إلى الأبد في ظل حرب تم خوضها والانتصار فيها قبل أن يولد معظمنا؟ هل يجب أن نتعايش إلى الأبد مع نسخة مصغّرة حية من رجال السياسة الذين يؤدون دور تشرشل (ثاتشر، وبالطبع بلير) أو روزفلت؟ يذكّرنا بوش بصدّام للمرة الألف قائلًا «إنه ديكتاتور سمّم شعبه بالغاز»، حاذفًا دومًا أن الأكراد الذين سمّمهم صدام بالغاز في شكل وحشي، كانوا يحاربون إلى جانب إيران، وأن الولايات المتحدة الأميركية، في تلك الأثناء، ساندت صدام نفسه.

لكن لهذه المسألة جانبًا أكثر جدّية. يتمنى السيد بوش أن يحشر الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، بخيار اعتماد سياسة تهديد جديدة مع إيران. يريد من الروس أن يضغطوا على «محور الشر». هذه الجملة الطفولية التي ما زال يُلقيها أمام الحشود. بالطبع، يبدو كلام بوش البلاغي، يومًا بعد يوم، مثل شريط الفيديو المجنون لِبن لادن. وما زال يكذب في شأن حوافز الجرائم ضد الإنسانية في ١١ أيلول/سبتمبر. وعلى رغم ذلك، أصرّ في «البوندستاغ» من

جديد، على أن أعداء الغرب يكرهون «العدالة والديموقراطية» على رغم أن أعداء أميركا المسلمين، في معظمهم، يجهلون معنى الديموقراطية.

في الولايات المتحدة الأميركية، كانت إدارة بوش مشغولة بإرهاب الأميركيين. سيشهدون اعتداءات نووية ومتفجرات في شقق ضمن طبقات كثيرة؛ في جسر بروكلين، رجال مسلّحون بأحزمة متفجرة والمزيد من الانتحاريين داخل الطائرات؛ مع ملاحظة طريقة تصوير الحرب الفلسطينية القاسية على الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية ودمغها بـ «الحرب الأميركية على الإرهاب» الأكثر غرابة على الإطلاق. إذا اطلعتم على خطابات الرئيس بوش ونائبه ديك شيني ومستشارة الأمن القومي الساخرة كوندوليزا رايس خلال الأيام الثلاثة المنصرمة، فستلاحظون أنها تحمل تهديدات للأميركيين تضاهي تهديدات بن لادن. فلنتكلم على النقطة الأهم. فإن الإثبات المتصاعد أن السياسات الإسرائيلية هي السياسات الأميركية في الشرق الأوسط - أو في شكل دقيق، العكس - ينعكس فعلاً اليوم في البيانات الصادرة عن الكونغرس والتي يبثها التلفزيون الأميركي. أولًا، يعلن رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأميركي أن حزب الله - قوات حرب العصابات اللبنانية التي أخرجت الجيش الإسرائيلي ذا المعنويات الضعيفة من لبنان عام ٢٠٠٠ - «يخطط لاعتداءات على أميركا».

يصرّ الصحافيون الأميركيون على اقتباس «المصادر»، ولكن لم يتوافر بالطبع أي منها لهذا الكلام الفارغ المتكرر اليوم إلى حد الإزعاج في وسائل الإعلام الأميركية. ثم يوجد «قانون محاسبة سورية» الذي أدخله في مجلس الشيوخ الأميركي أصدقاء إسرائيل بتاريخ ١٨ نيسان/أبريل، ما يشمل الخداع الذي سمعناه سابقًا من وزير الخارجية الإسرائيلية، شيمون بيريز، ومفاده أن عناصر حرس الثورة الإيرانيين «يتصرفون في حرية» على الحدود الجنوبية في لبنان. وأكرّر: لا وجود لأي عنصر من حراس الثورة الإيرانيين في لبنان - ناهيك بجنوب البلد بالطبع - منذ خمس عشرة سنة، فلماذا تكرار هذه الكذبة؟

تخضع إيران للتهديد، ولبنان يخضع للتهديد، وسورية بدورها أيضًا - وقد زادت وزارة الخارجية درجة حال «الإرهاب» لديها - كذلك الأمر بالنسبة إلى العراق. لكن أرييل شارون، في نظر السيد بوش، «رجل مسالم»: أرييل شارون، رئيس الوزراء الإسرائيلي المسؤول الوحيد، بحسب الإسرائيليين أنفسهم، المسؤول عن مقتل ١,٧٠٠ فلسطيني في مجزرتي صبرا وشاتيلا في بيروت سنة ١٩٨٢. ماذا بعد؟ الكثير، ويا للأسف. إن الشعور المناهض لأميركا في الشرق الأوسط واضح، ورؤساء التحرير في الصحف العربية بعيدون كل البعد من التعبير عن الرأي العام العربي. في دمشق، اشتهرت ماجدة طباع بصفة كونها أول امرأة تطرد القنصل الأميركي روبرتو باورز من مطعم زوجها في وسط المدينة بتاريخ ٧ نيسان/أبريل، قائلة: توجهتُ إليه وقلت له، «سيد روبرتو، قل لجورج بوش إنه غير مرحب بكم جميعًا هنا. لذا، يرجى المغادرة». [حدث هذا، بينما] بدأ العالم العربي يقاطع السلع الأميركية جديًّا.

إلى متى تمدح أميركا الرئيس الباكستاني مشرّف على دعمه في «الحرب على الإرهاب»، لكنها تلزم الصمت عندما يعدّ «استفتاءً شعبيًّا» ليحافظ على مكانته في السلطة؟ تذكروا أن أعداء أميركا يكرهونها بسبب «ديموقراطيتها». هل يشعر الجنرال مشرّف دقة الموضوع؟ لا أمل في ذلك. أظن أن الأهم يكمن في أهمية باكستان في «الحرب على الإرهاب» الشهيرة، أو «الحرب في سبيل الحضارة»، كما عُرفت أساسًا. إذا دخلت باكستان والهند الحرب، أراهن على أن أميركا ستدعم باكستان اللاديموقراطية في مواجهة الهند الديموقراطية.

الآن، حان وقت التفكير. كتب عبد الرحمن الراشد في الصحيفة اليومية الدولية العربية «الشرق الأوسط»، أن إذا أقدم أحد على ذكر أن العرب يخططون لقتل مئات الأميركيين في أميركا قبل ١١ أيلول/سبتمبر، لن يصدق أحدٌ ذلك، مضيفًا «سنقوم ذلك على أنه محاولة للتحرّش بالشعب الأميركي في مواجهة العرب والمسلمين». بالضبط. لكن العرب ارتكبوا الجرائم ضد الإنسانية في ١١ أيلول/سبتمبر. ويخشى كثر من العرب المخططات التالية الصادرة عن

المنظمة نفسها. في هذا الوقت، ينفذ السيد بوش مبتغى أعدائه: افتعال الحروب على العرب والمسلمين؛ ومدح أعدائه وشيطنة بلادهم؛ وتفجير العراق وتجويعه؛ ودعم إسرائيل في شكل غير مشروط؛ والحفاظ على دعمه لديكتاتوريي الشرق الأوسط.

أصبحتُ أستيقظ اليوم كل صباح قرب البحر المتوسط في بيروت مع إنذار بشرّ مستطير. ثمة عاصفة نارية تهب في الأفق. ونحن نغفل، في سعادة، عن وصولها. بالطبع، نحن نفتعلها.

«ذي إندبندنت»، ٢٥ أيار/مايو ٢٠٠٢

خافوا كثيرًا: سيناريوهات بوش تستعد لاتخاذ إجراءاتها

لطالما استهوتني الملاحم المعروضة على الشاشات الكبيرة. منذ ذلك الوقت، اصطحبني والدي لمشاهدة فيلم «كو فاديس»، الذي ينتهي بتوجّه قائد المئة روبرت تايلور نحو إعدامه وعروسه بين ذراعيه. ومنذ ذلك الحين، انجذبت إلى أعماق عالم الأفلام. لم يكن والدي يميّز بين الأفلام المهمة وتلك التي من الدرجة الثانية؛ ونجح في أن يحشر هرقل بين بن هور وسبارتاكوس. ولكن أودى بي تشويق عدم التصديق الذي يملأ السينما، إلى مشاهدة التايتانيك وبيرل هاربور وغلادييتر. وعلى رغم شناعة هذه الأفلام، هي حقًّا رائعة.

وأهم ما في الأمر، كما كان يخبرني والدي، أن نتذكر أن السينما لا تقلّد الواقع في الحقيقة. إذ لم يمشِ قادة المئة الذين اعتنقوا المسيحية أخيرًا بهذا الاستهتار نحو موتهم؛ ولم ينتصر الحب على متن سفينة التايتانيك. كذلك، لم يتصرف المحاربون الطيارون بهذا الشكل البطولي، ولم يمت الأباطرة الرومان الأشرار في ريعان شبابهم. منذ فيلم غرين بيريتس لجون واين، كذبت علينا أفلام الحرب، شأن الحياة والموت. وبعد الجرائم ضد الإنسانية في نيويورك وواشنطن في أيلول/سبتمبر الماضي، كان من المحتّم، على ما أعتقد، أن يلجأ البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية إلى هوليوود للاستنجاد بأفكارها. نعم، في الواقع، ذهب محترفو الأفلام إلى واشنطن ملتمسين تعاون أمراء الظلام المحليين. ولكن، بدأت أشعر بالقلق عندما ظهر نائب الرئيس ديك شيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد في العرض الأول لفيلم بلاك هوك داون. وعلى رغم ذلك، إذا كانت إدارة بوش متحمسّة إلى هذه الدرجة للحرب، من الأفضل أن

تحلّ الاختلافات بين هوليوود والواقع. لكن النتيجة ليست سوى نسخة سينمائية عن الواقع، وعمل خيالي من شأنه أن يبرّر مشهد «الحرب من دون نهاية». انطلقت جميعًا، بالطبع، من الكلام الفارغ على «الحملات» و«الحرب على الإرهاب» و«الحرب على الشر»، والمصطلحات الشهيرة اليوم: «يكرهوننا لأننا ديموقراطيون»، و«محور الشر»، والتعبير الأحدث «مركز الشر». كان الوضع مضحكًا جدًّا، لو لم يصدر هذا الهراء عن شركة «راند». ومن المفترض أن يُقصد بهذه العبارة المملكة العربية السعودية، ولكن على الأرجح يُقصد منها كل من إيران أو العراق أو سورية، أو أي مكان غربَ بيكوس. وبهذا الهراء، زُوِّر التاريخ. حتى الفيلم، التي تدور أحداثه على جريمة ما، يحتاج إلى حافز وراء هذه الجريمة. ولكن بعد حادث ١١ أيلول/سبتمبر، لن تسمح سيناريوهات بوش بمناقشة أي حافز. كان من المسموح الكشف عن هوية المجرمين وديانتهم: كانوا عربًا ومسلمين. ولكن حين يقترح أي منا استكشاف بيئة هؤلاء العرب - منطقة يملأها الظلم والقمع والاحتلال وقتل الأطفال نتيجة للحصار التي تفرضه الأمم المتحدة - يتهموننا بالافتراء.

وفي حين ازداد أعداء بوش الإقليميون عددًا ليشملوا ليس القاعدة وحسب، بل والعراق وإيران ومن يحالفهما، بدأت تُحاك صيغ من الروايات. على سبيل المثال، ظهر دونالد رامسفيلد خلال حزيران/يونيو الماضي ليتحفنا بقصص عن إيران. من المهم الملاحظة أن وكذلك رواية هذه الأكاذيب ممكنة في العالم العربي وكذلك في الغرب. أخبرنا رامسفيلد في مؤتمر صحافي عقده في قطر، أن «الإيرانيين مشتركون في نشاطات إرهابية، من خلال «نقلهم» عناصر عبر دمشق وصولًا إلى سهل البقاع (في لبنان). فهم أخفوا «القاعدة» وسهّلوا تحركاتها من أفغانستان إلى إيران». ومعنى ذلك أن رجال «القاعدة» وصلوا إلى لبنان بمساعدة إيران وسورية. إلا أننا نعلم أن إيران بعيدة كل البعد من «نقل» رجال القاعدة إلى سورية، بل كانت تشحنهم إلى المملكة العربية السعودية ليُسجَنوا، وربّما ليُقتلوا. ونعلم جيدًا أن سورية اعتقلت مسؤولًا مهمًّا في

القاعدة. ومنذ ذلك الحين، أقرّت أميركا بهذا كله. وباستثناء الرجال اللبنانيين العشرة المختبئين في المخيمات الفلسطينية (في لبنان) - والذين قد لا تكون لهم صلة بـ«القاعدة» - ليس في لبنان أحد يؤيّد أسامة بن لادن(*).

كان من الضروري أن يشارك «حزب الله» في الحرب. حققت «واشنطن بوست» الأثر المطلوب الشهر الفائت: «تتعاون منظمة «حزب الله» في لبنان، إحدى أخطر «المجموعات الإرهابية» في العالم، في شكل متصاعد مع «القاعدة» في تجهيز اللوجستيات والتدريب لعمليات إرهابية، بحسب مسؤولي استخبارات ومختصّين في شؤون الإرهاب في أميركا وأوروبا». ولقي هذا الكلام الفارغ تأييدًا من ستيفن سيمون، الذي عمل في السابق مع مجلس الأمن القومي الأميركي، معلنًا وجود «تقارب في الأهداف». ثمة عنصر تم تأسيسه جيدًا في «روح العصر» اليوم. لكن ذلك في بساطة - بغض النظر عن روح العصر - غير صحيح. صنّفت «واشنطن بوست» الفلسطينيين في خانة أعداء أميركا - بحسب المصادر: «والمختصين في شؤون الإرهاب» - من خلال لفت قرّائها في أيار/مايو إلى «أن عدد الانتحاريين المهاجمين إسرائيل في فصل الربيع هذا زاد خوف المختصين في شؤون الإرهاب إلى حد تصدير هذا التكتيك إلى الولايات المتحدة الأميركية».

كذلك، استُعين بمحور مشابه لتصنيف صدام حسين بين حلفاء «القاعدة». في آذار/مارس، صرّح جورج تينيت مدير وكالة الاستخبارات المركزية، أن بغداد أقامت «اتصالات مع القاعدة»، إلا أنه خفّف من جرأة هذا البيان، مضيفًا «أن كره «الطرفين» المتبادل للولايات المتحدة الأميركية والعائلة المالكة

(*) بعد خمس سنوات، قد يوجد مؤيدون لأسامة بن لادن: شنّت مجموعة «فتح الإسلام»، من وحي القاعدة، هجومًا بتاريخ ٢٠ أيار/مايو ٢٠٠٧ انطلاقًا من مخيّم اللاجئين الفلسطينيين في نهر البارد، شمال لبنان، على الجيش اللبناني. وقد استغرقت القوات الحكومة اللبنانية ثلاثة أشهر لسحق هؤلاء المجرمين، وبينهم رجال من السعودية واليمن وسورية. وأسفرت هذه الحرب عن ٣٠٠ قتيل، بينهم ١٥٨ جنديًا لبنانيًا. وتوفي كذلك أربعون مدنيًّا أثناء هذه الحرب.

السعودية، يطرح إمكان التعاون بينهما». لاحظوا الفرق هنا بين تعبيرَي: «أقامت اتصالات» و«إمكان». في الضفة الغربية، تحدّث رامسفيلد أيضًا عن المناطق «المعروفة بالمحتلة»، تقيدًا بالعمود الغاضب بقلم ويليام سافير في «نيويورك تايمز» خلال آذار/مارس، إذ حذّرنا من ضرورة عدم الإشارة إلى الأراضي المحتلة بصفة المحتلة، كاتبًا: «إن تسمية الأراضي بـ «المحتلة» تكشف عن تحيّز ضد «حق» إسرائيل في الحدود التي كان من المفترض أن يشار إليها بـ «الآمنة والقابلة للدفاع عنها». واليوم، تقول لنا مستشارة الأمن القومي للرئيس بوش، كوندوليزا رايس، إن «عرفات شخص فشل في القيادة عندما سنحت له الفرصة. فإيهود باراك منحه فرصة للقيادة. وعلامَ حصلا في المقابل؟ باشر عرفات الانتفاضة الثانية، رافضًا يد الصداقة التي امتدت إليه».

صحيح أن معرفة «الآنسة رايس» بالشرق الأوسط تضعف مع الوقت، إلا أن هذا التزوير الفارغ يُنسَب الآن إلى «الخط» الذي تتبعه واشنطن. ستلاحظون عدم ذكر فكرة أن عرفات كان من المفترض به أن يتولى «القيادة» من خلال الخضوع لسيادة إسرائيل في القدس كلها؛ عدم ذكر «حق العودة» لأي مخلوق لاجئ؛ عدم ذكر المستعمرات المشيّدة في شكل غير قانوني خارج القدس الشرقية؛ عدم ذكر المنطقة العازلة [جدار الفصل العنصري] بمسافة عشرة أميال حول «فلسطين»؛ عدم ذكر نسبة الـ ٤٥٪ من نسبة الـ ٢٢٪ من فلسطين التي تخضع للمفاوضات في شأن منحها للفلسطينيين.

ليس من الصعب فهم الأحداث. ليس تنظيم «القاعدة» هو «العدو» وحسب، بل أيضاً العراق وسورية ولبنان وفلسطين والمملكة العربية السعودية. سيناريوهات بوش تصوغ العالم العربي. نستعد لملحمة ستُعرض على الشاشة الكبيرة: مهرجان بدعم من خيال هوليوود ومجموعة من الأكاذيب. حبذا لو كان والدي هنا ليذكّرهم بأن السينما لا تقلّد الواقع، وبأن الأفلام تكذب في شأن الحياة والموت.

«ذي إندبندنت»، ١٧ آب/أغسطس ٢٠٠٢

يمكن رجالنا أن يرفسوهم قليلًا...

أظن أني بدأت أفهم. تخرق كوريا الشمالية اتفاقاتها النووية مع الولايات المتحدة الأميركية، وتطرد مفتشي الأمم المتحدة، وتستعد لتصنيع قنبلة نووية كل سنة، بينما يعلن الرئيس بوش أنها «مسألة دبلوماسية». يسلّم العراق ١٢,٠٠٠ صفحة من حساباته في صناعة أسلحته، ويسمح لمفتشي الأمم المتحدة بالتجوّل في البلد - بينما لم يجدوا أي ذرّة من المواد الكيميائية الخطيرة في ٢٣٠ غارة - ويعلن الرئيس بوش أن العراق يهدّد أميركا، وأنه ما زال مسلّحًا، وقد يتم القضاء عليه. فهذه هي حال الأمور.

يسألني عدد من القرّاء عبر رسائلهم الفصيحة: كيف ينجو من الأمر؟ بالفعل، كيف يمكن أن ينجو توني بلير من أعماله؟ منذ وقت قصير في مجلس العموم (النواب)، كان عزيزنا رئيس الوزراء يعلن وهو مستريح في لفظ الكلمتين، «تشغيل» مصانع تصنيع أسلحة الدمار الشامل الخاصة بصدام حسين و«استخدامها» اليوم، وذلك بنغمة صوت المدرّس المعتادة التي تُستخدم خصوصاً مع التلاميذ الطائشين أو الضعفاء في الصف. لكن القائد العزيز في بيونغ يانغ يملك مصانع في حال تشغيل (استراحة) واستخدام (استراحة) اليوم. إلا أن توني بلير يلزم الصمت حيال هذا الأمر.

لماذا نتحمل هذه المسألة؟ لماذا يتحمل الأميركيون هذه المسألة؟ منذ بضعة أيام، لاحظنا تلميحات طفيفة مفادها أن وسائل الإعلام الأميركية بدأت تطرح بعض الأسئلة، في شكل جبان، وهي كما نعلم المساند الأكبر لحملات الأكاذيب التي يشنها البيت الأبيض، والأكثر لومًا. وبعد أشهر من قيام «ذي إندبندنت» بلفت قرّائها إلى زيارات دونالد رامسفيلد الشخصية والحميمة لصدام في بغداد، في شأن استخدام العراق الغازات السامّة على إيران سنة ١٩٨٣،

قرّرت «واشنطن بوست» أخيرًا أن تُطلع قرّاءها على جزء صغير من الحقيقة. لجأ الصحافي مايكل دوبس إلى مصطلحات المراوغة («تختلف الآراء بين اختصاصيي الشرق الأوسط... هل في استطاعة واشنطن أن تبذل جهدًا أكبر لإيقاف تدفق التكنولوجيا إلى بغداد لصناعة أسلحة الدمار الشامل»)، لكن الهدف الأساس هو أننا خلقنا الوحش، وشارك السيد رامسفيلد في ذلك.

ولكن، لم تجرؤ أي صحيفة أميركية - أو بريطانية - على أن تحقق في علاقة أخرى، توازيها خطورة، تفرضها الإدارة الأميركية في منأى عنا مع النظام المدعوم عسكريًا في الجزائر. منذ عشر سنوات حتى الآن، تُخاض أكثر الحروب قذارة في العالم في هذا البلد، حيث من المفترض أنها تدور بين «المتطرفين الإسلاميين» و«قوى الأمن»، وقد وقع ضحيتها ٢٠٠ ٠٠٠ شخص، أغلبهم من المدنيين. ولكن تبين، على مرّ السنوات الخمس الأخيرة، وجود دلائل متزايدة تثبت تورّط بعض عناصر قوى الأمن في بعض المجازر الدموية هذه، بما في ذلك ذبح الأطفال. ونشرت «إندبندنت» تقارير مفصّلة عن التعذيب الذي تمارسه الشرطة الجزائرية وعمليات الإعدام الخارجة عن القانون المنفّذة على النساء والرجال، على حد سواء. وعلى رغم ذلك، تقرّبت أميركا من النظام الجزائري كجزء من «حربها على الإرهاب» البغيضة. فهي تساعد على إعادة تسليح الجيش الجزائري واعدة بالمزيد من الدعم. وأعلن ويليام بيرنز، مساعد وزير الخارجية الأميركية في الشرق الأوسط، أن على واشنطن «أن تتعلم الكثير من الجزائر في شأن أساليب محاربة الإرهاب».

هو على حق. يمكن قوى الأمن الجزائرية أن تعلّم الأميركيين كيف تجعل السجين أو السجينة يصدق أنه سيموت خنقًا. تكمن الوسيلة في إغلاق فم الضحية المقيدة برقعة مبللة بسائل تنظيف إلى أن يموت السجين، على مهل، خنقًا. ويمكن الموظفين الأميركيين أن يجدوا اختصاصيًّا في تقنية التعذيب هذه في قبو مخفر شرطة شاتونوف في مدينة الجزائر المركزية، فضلًا عن وسيلة اقتلاع الأظافر ووصل الأسلاك بالأعضاء التناسلية لدى كل من الرجال

والنساء(*). وما زلت أتذكر وصف الشاهد العيان لحال اغتصاب امرأة كبيرة في السن في مخفر الشرطة، حيث خرجت، ملطخة بالدماء، وهي تدعو السجناء إلى المقاومة.

الذين شهدوا تلك الفضائح هم، في معظمهم، موظفون جزائريون في الشرطة، لجأوا إلى لندن. ولكن ضمن الباقون أن السيد بيرنز على حق في أن ثمة الكثير لتتعلمه أميركا من الجزائريين. فسبق، على سبيل المثال، الترحيب الحارّ برئيس موظفي الجيش الجزائري في مقارّ قيادة حلف شمال الأطلسي في نابولي. ولا تسألوني لمَ لمْ تنشر الصحف هذا الخبر. إن الأميركيين يتعلمون. كشف مسؤول في الأمن القومي التابع لوكالة الاستخبارات المركزية الشهر السابق عندما سُئل عن السجناء: «يمكن رجالنا أن يرفسوهم قليلًا نتيجة لارتفاع نسبة الأدرينالين بعد انتهاء آثار الكارثة». كذلك أعلن مسؤول آخر في «الأمن القومي» الأميركي، أن «التحكم في الألم لدى المرضى المصابين لأمر ذاتي جدًّا». ولكن، فلنكن عادلين، أدرك الأميركيون على الأرجح أن نقطة الضعف هذه من الجزائريين، ومن المحتمل أن يكونوا ورثوها من طالبان.

في هذا الوقت، يصبح وصف المسلمين داخل الولايات المتحدة الأميركية، عبثيًا أكثر فأكثر. في تاريخ ١٧ تشرين الثاني/نوفمبر، حضر آلاف الأشخاص من إيران والعراق وسورية وليبيا وأفغانستان والبحرين وأريتريا ولبنان والمغرب وعُمان وقطر والصومال وتونس واليمن والإمارات، إلى المكاتب الفدرالية لأخذ بصماتهم. وكشفت «نيويورك تايمز» - الصحيفة الأميركية الأكثر جبنًا في تغطية مرحلة ما بعد قصة ٩/١١ - (فقط في الفقرة ٥ من تقريرها بالطبع)، أن «خلال الأسبوع السابق، أوقف مسؤولون في الوكالة، مئات الرجال واحتجزوهم لأخذ بصماتهم. وفي بعض الحالات، كانوا يملكون

(*) اتّبع الأميركيون في ما بعد - واستخدموا - تقنيات التعذيب بالخنق، «حافة المياه»، التي يكاد السجين (المسلم العربي، في شكل عام)، يغرق خلالها قبل أن «ينقذه» مطاردوه من الموت.

تأشيرات دراسة أو عمل منتهية الصلاحية. وفي حالات أخرى، عجز بعض الرجال عن تقديم المستندات المناسبة عن طلب الهجرة». في لوس أنجلس، لم يعد رجال الشرطة يملكون الأصفاد البلاستيك التي تكفي رجال كثر احتجزوهم وثمة كثر من الأميركيين الأصليين بين ألف رجل موقوف من دون محاكمة أو تُهَم بعد حادث ١١ أيلول/سبتمبر.

بالطبع، يجهل الكثيرون من الأميركيين معنى الرمز البارد لـ «قانون باتريوت الأميركي». لا يُقصد بـ «باتريوت» عبارة الوطنية، بل «أميركا المتحدة والداعمة بتوفير الأدوات المناسبة والمطلوبة لإيقاف الأعمال الإرهابية ومقاطعتها». «برنامج التوعية الشاملة» الذي كلّف أميركا ٢٠٠ مليون دولار، سيتيح للحكومة الأميركية مراقبة نشاطات البريد الالكتروني والإنترنت الخاصة بمواطنيها، إضافة إلى جمع المعطيات عن تحركات الأميركيين. وعلى رغم أن الصحافة لم تخبرنا بهذا الأمر، تزعج الحكومة الأميركية اليوم الحكومات الأوروبية في شأن محتويات ملفات مواطنيها. ومن أحدث المطالب - المنافية للعقل بحد أقصى - الطلب الأميركي الولوج إلى سجلات كومبيوتر الخطوط الجوية الوطنية الفرنسية، «إير فرانس»، لتتمكن من «الاستعلام» عن مئات الركاب. ويفوق هذا الأمر طموحات صدام والقائد العزيز كيم.

باتت القواعد الجديدة تتلمّس طريقها نحو العالم الأكاديمي. على سبيل المثال، جامعة بوردو الصغيرة الودية في إنديانا، حيث ألقيتُ محاضرة منذ بضعة أسابيع، تؤسس اليوم، بفضل الأموال الفدرالية، «معهدًا للحفاظ على أمن الوطن». وسيتضمن «خبراؤها» الثمانية عشر مسؤولين تنفيذيين من بوينغ وهيوليت - باكارد ووزارة الدفاع الأميركية، ومسؤولين من وزارة الخارجية الأميركية، بهدف تنظيم «برامج أبحاث» عن «مناطق المهام الدقيقة». وأتساءل ما هي هذه المناطق؟ بالطبع، لا ترتبط بالظلم في الشرق الأوسط، أو الصراع العربي - الإسرائيلي، أو وجود آلاف الجنود الأميركيين في الأراضي المسلمة. وفوق ذلك كله، فإن ريتشارد بيرل أحد مستشاري جورج بوش المناصرين للإسرائيليين

والأكثر خبثًا، هو من أعلن العام الماضي أن «من الضروري أن نُخرج الإرهاب من سياق الكلام».

في تلك الأثناء - ووفق هذا الأساس بالضبط - نشقّ طريقنا في شنّ الحرب على دولة العراق التي تملك النفط، بينما نتجنب الحرب في كوريا التي لا تملكه. وينجو قادتنا بفعلتهم. وبذلك، نهدّد الأبرياء، ونعذّب سجناءنا، و«نتعلّم» من الرجال الذين يجب أن يكونوا في قفص الاتهام في ما يتعلق بجرائم الحرب. وهكذا، نتذكر بالفعل الرجال والنساء الذين قُتلوا بوحشية في الجرائم ضد الإنسانية في حادث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

«ذي إندبندنت»، ٤ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣

هواء الشرق

أجلس في منزل خرساني قديم في ضواحي عمّان هذا الأسبوع، وأنا أتناول قطعًا من لحم الضأن والرزّ المسلوق المنقوع بالزبدة (السَّمْن). وقد جلس حولي رجال معان، أكثر المدن الأردنية الإسلامية تشددًا وتمردًا، الكبار في السن، الملتحون والمرتدون العباءات وهم يغرسون أيديهم في اللحم والرزّ المنقوع، داعين إياي إلى تناول المزيد من هذه الوليمة، إلى أن اضطررت إلى أن أشير إلى أننا، نحن البريطانيين، أكلنا الكثير من الشرق الأوسط على مر السنوات المئة الأخيرة إلى أن أُتخمنا. كان الرجال يهمسون الصلوات في شكل مكثف إلى أن ردّ رجل مسن: «إن الأميركيين يأكلوننا اليوم».

وعبر الباب المفتوح، حيث نزل المطر على الحجارة المرصوفة، هبّ هواء حاد من الشرق، من الصحارى الأردنية والعراقية. صدّق الجميع في المنطقة أن الرئيس بوش كان يريد نفط العراق. بالطبع، جميع العرب الذين قابلتهم خلال الأشهر الستة المنصرمة هذه، يعتقدون أن هذا - وحده - هو السبب وراء حماسة بوش لاجتياح العراق. ويشاطرهم الرأي الكثيرون من الإسرائيليين. وأنا أيضًا أؤيدهم. عندما يصبح نظام الحكم أميركيًّا في بغداد، ستتمكن شركات النفط لدينا من الوصول إلى ١١٢ مليار برميل من النفط. وبواسطة احتياطات غير معتمدة، يمكننا بالتالي أن نسيطر على ربع مجموع احتياطي العالم. ونتساءل أليست الحرب المقبلة بسبب النفط؟

أعلنت إدارة الطاقة الأميركية بداية هذا الشهر، بحلول العام ٢٠٢٥، إن استيرادات النفط الأميركية ستبلغ ٧٠٪ من الطلب المحلي الأميركي (بلغت هذه النسبة ٥٥ في المئة منذ سنتين). كذلك أعلن مايكل رينر من معهد «وورلد واتش» هذا الأسبوع في شكل مؤسف، أن احتياطي النفط الأميركي يستنفد في

شكل متزايد، كما هي حال الحقول الأخرى غير أوبيك. وسنضطر إلى أن نورّد الأحجام المستقبلية الهائلة من منطقة الخليج». لا عجب إذًا، لماذا ترتكز سياسة بوش في شأن الطاقة على زيادة استهلاك النفط. فمنطقة الشرق الأوسط تضم ٧٠٪ من احتياطي النفط المعتمد في العالم. ونتساءل أليست الحرب المقبلة ليست بسبب النفط؟

اطلعوا على الإحصاءات التي أعدها جيرمي ريفكن في هيدروجين إكونومي عن معدل احتياطي إنتاج النفط: عدد السنوات التي سيبقى فيها احتياطي النفط بمعدلات الإنتاج الراهن. ففي الولايات المتحدة، حيث أنتج أكثر من ٦٠٪ من النفط القابل للاستعادة، يبلغ المعدل ١٠ سنوات فقط، كذلك هي الحال في النروج. في كندا، ٨,٠١. في إيران، ٥٣,١. في المملكة العربية السعودية، ٥٥,١. في الإمارات العربية المتحدة، ٧٥,١. في الكويت، ١١٧,١. أما في العراق، فـ ١:٥٢٦. ونتساءل أليست الحرب المقبلة بسبب النفط؟

حتى إذا لم تُظهر مصافحة يد دونالد رامسفيلد الحارة ليد صدام حسين سنة ١٩٨٣، مدى اهتمام «المعلّم» الحاضر اليوم في البنتاغون بحقوق الإنسان أو الجرائم ضد الإنسانية، يأتي تحليل جوست هيتلرمان ليكشف عمّا كان يحدث فعلًا في البنتاغون أواخر الثمانينات. يُعِدّ هيتلرمان راهنًا كتابًا عن أميركا والعراق، لذا، تعمّق في كمية من الوثائق الحكومية الأميركية غير المصنّفة بالسرية، ليكتشف أن البنتاغون، بعدما سمم صدام ٦٨٠٠ عراقي كردي في حلبجة (ما يوازي ضعفي عدد قتلى المركز التجاري العالمي في حادث ١١ أيلول/ سبتمبر)، راح يدافع عن صدام من خلال إلقاء اللوم على إيران جزئيًّا في شأن هذه الوحشية. ويثبت مستند جديد غير مصنّف بالسرية، صادر عن وزارة الخارجية الأميركية، أن هذه الفكرة من صنع البنتاغون - الذي لطالما دعم صدام - مشيرًا إلى أن الدبلوماسيين الأميركيين تلقّوا تعليمات تقضي باتهام إيران أكثر فأكثر من دون مناقشة التفاصيل. بالطبع من دون تفاصيل، لأنّ هذه القصة ليست إلا كذبة. تذكروا أن هذا الأمر حدث بعد خمس سنوات من

توجيهات القرار ١١٤ الصادر عن مجلس الأمن القومي الأميركي سنة ١٩٨٣، سنة قام رامسفيلد بزيارته الودية لبغداد. وآلت هذه التوجيهات إلى فرض عواقب رسمية بقيمة مليارات الدولارات على شكل ضمانات قروض واعتمادات أخرى لبغداد. ونتساءل أليست الحرب المقبلة بسبب النفط؟

بالعودة إلى ١٩٩٧، إلى سنوات إدارة كلينتون، ابتكر رامسفيلد وديك تشيني ورجال الجناح اليميني الآخرون - الأكثر تورّطًا في أعمال النفط - مشروع القرن الأميركي الجديد: جماعة ضغط تطالب بـ «تغيير نظام الحكم» في العراق. طالبوا بإطاحة صدام عن الحكم برسالة موجّهة إلى الرئيس كلينتون سنة ١٩٩٨، عبد نيوت غينغريتش، المتحدث الرسمي في البيت الأبيض في ذلك الوقت، كتبوا «من الضروري أن نؤسس لحضور عسكري أميركي قوي في المنطقة، ونحافظ عليه ونستعدّ لاستخدام هذه القوة لحماية مصالحنا الأساسية في الخليج. وإذا لزم الأمر المساعدة على إزالة صدام من الحكم». وبين الموقّعين على رسالة أو اثنتين، رامسفيلد وبول ولفوفيتز، نائب رامسفيلد في البنتاغون اليوم، وجون بولتون، وكيل الوزارة لمراقبة الأسلحة اليوم، وريتشارد أرميتاج، وكيل وزارة خارجية كولين باول الذي ناشد أميركا السنة الماضية أخذ «ثأرها» من حزب الله اللبناني. وبين الموقعين أيضًا، ريتشارد بيرل، مساعد وزير الدفاع السابق ورئيس إدارة مجلس علوم الدفاع اليوم، وزلماي خليل زاد، المستشار السابق في شركة يونوكال لصناعة الغاز الذي أصبح المبعوث الأميركي الخاص إلى أفغانستان - حي حاولت يونوكال عقد اتفاق مع طالبان بشأن تمديد خط أنابيب عبر أفغانستان -؛ وقد عُيّن اليوم، بسحر ساحر، المسؤول الخاص التابع لبوش في شأن العراق.

وتضمنت لائحة الموقعين أيضاً صديقنا القديم إليوت أبرامز، أحد المسؤولين الأميركيين المناصرين لإسرائيل، وأكثرهم دعمًا لشارون، وقد حوكم على تورّطه في فضيحة إيران - كونترا. فأبرامز هو من قارن رئيس الوزراء الإسرائيلي أرييل شارون بوينستون تشرشل. وبالتالي، اخترع هذه الحرب -

حرب القتال التي تخدم «المصالح الأساسية» (أي النفط) في الخليج - منذ خمس سنوات رجال من، مثل تشيني وخليل زاد، رجلي النفط، لخدمة أغراضهم وبصماتهم المقلمة.

في الواقع، ينتابني ألم في قلبي عند سماعي بالغوص في الحرب العالمية الثانية مجددًا بهدف تبرير ساحة معركة أخرى. لم يمضِ الكثير من الوقت عندما سُرّ بوش بتشبيهه بتشرشل الذي واجه تهدئة فرقة عدم شنّ الحرب على العراق. في الواقع، ينبثق من استراتيجية بوش الكاملة الممتزجة بنظام الحكم الكوري الشنيع والمستوحى من أسلوب ستالين، أسوأ نوع من سياسة التهدئة التي اعتمدها تشمبرلين. نظام الحكم الكوري هذا الذي يذكّرنا بالمحادثات «الممتازة» التي يصرّ الدبلوماسيون الأميركيون على أنهم يجرونها مع قائد كوريا العزيز، الذي من المؤكد أنه يملك أسلحة دمار شامل. على رغم أن صدام وبوش يستحقان أحدهما الآخر، إلا أن صدّام ليس هتلر. ومن المؤكد أن بوش ليس تشرشل. لكنهم يخبروننا اليوم أن المعاينين الأميركيين وجدوا الإثبات الأساس لشنّ الحرب: أحد عشر رأسًا كيميائيًا فارغًا منذ أكثر من عشرين سنة.

دخل العالم الحرب منذ ثمان وثمانين سنة بسبب اغتيال أرشيدوق ساراييفو. ودخل العالم الحرب منذ ثلاث وستين سنة بسبب اجتياح دكتاتور نازي بولندا. ولكن بسبب أحد عشر رأسًا كيميائيًا فارغًا؟ زوّدوني النفط في أي وقت. حتى أن الرجال المسنين المجتمعين حول وليمة من اللحم والرز، يشاطرونني الرأي.

«ذي إندبندنت»، ١٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٣

الفصل الثاني

النشر وتلقي الذم، أم الاستمرار في السكوت؟

تُعدّ الإبادة الجماعية الأرمنية سنة ١٩١٥، إحدى الكوارث الأكثر شناعة التي واجهت الإنسانية في القرن العشرين؛ هذه الجريمة التنظيمية التي أودت بحياة مليون ونصف مليون مسيحي أرمني على أيدي الأتراك العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى. لكن الحلفاء الغربيين، الذين أقرّوا بتلك الجرائم حينذاك، يسمحون لتركيا المعاصرة بإنكار هذه المحرقة. ونظرًا إلى الخطر والعيب اللذين يملآننا، نرفض أن نَدين الأتراك العثمانيين في شأن ما ثبُت أنه أساس اختبار تدمير هتلر لليهود الأوروبيين خلال الحرب العالمية الثانية. لم أكن أعلم عندما بدأت بالبحث عن الإبادة الجماعية الأرمنية، أن كتاباتي ستصطدم برفض تركيا الإقرار بالتاريخ.

دعوني أستنكر الإبادة الجماعية من قفص الاتهام

كان هذا الأسبوع سيئًا بالنسبة إلى الذين ينكرون مسألة المحرقة. وأقصد بذلك هؤلاء الذين يتعمّدون الكذب حيال الإبادة الجماعية التي أصابت المسيحيين الأرمن سنة ١٩١٥ على أيدي الأتراك العثمانيين. يوم الخميس، اعتمد مجلس النواب الأدنى في فرنسا بيانًا يقضي بعَدّ إنكار الإبادة الجماعية التي تعرّض لها الأركم جريمة. في غضون ساعة، فاز أورهان باموك، أحد كتّاب تركيا الأكثر شهرة، بجائزة نوبل عن قسم الأدب، ولم يمض الكثير من الوقت على تبرئة المحكمة له من تهمة التشهير بـ «الوطنية التركية»، نتيجة إعلانه، لصحيفة سويسرية، أن لا أحد في تركيا يجرؤ على ذكر المجازر الأرمنية، الأمر الذي من المحتمل أنه أراح أرواحًا ترقد في المقابر الجماعية في أسفل صحارى سورية وتربة تركيا الجنوبية.

وفي حين تستمر تركيا في الثرثرة عن براءتها، يستمر علماء التاريخ الأرمن، مثل فاهاكن دادريان، في نبش دلائل جديدة (جديرة بالإبراز بما أنها كانت الممهد المباشر لمحرقة اليهود التي كان بعض مهندسيها النازيين في تركيا سنة ١٩١٥) على المحرقة المتعمّدة بحماسة لا مثيل لها. وتتجسّد براءة تركيا هنا، في قتل مئات آلاف الرجال الأرمن في شكل منظم، واغتصاب عصاباتها النساء، ما يُفترض أن يكون نتيجة «الحرب الأهلية» المحزنة.

قُتل بعض الضحايا الأرمن بالخناجر والسيوف والمطارق والفؤوس، توفيرًا للأسلحة. ونفّذ الكثير من عمليات الإغراق في البحر الأسود ونهر الفرات، أغلبها طاول نساء وأطفالاً، وكان عددهم هائلًا إلى حد أن الجثث سدّت مجرى نهر الفرات الذي غيّر مساره مسافة نصف ميل. لكن دادريان، الذي يتقن اللغة التركية بطلاقة، قراءةً وكتابة، اكتشف الآن أن مئات آلاف الأرمن أُحرقوا

أحياءً في المتابن. وقدم شهادة خطية تحت القسم إلى المحكمة العسكرية التركية لكن الرأي العام التركي بالكاد اقتنع بأن جرائم تركية كبيرة وقعت خلال الحرب العالمية الأولى؛ واستند دادريان إلى تقرير أعدّه الجنرال محمد وهيب باشا، قائد الجيش التركي الثالث. شهد أنه عندما زار قرية شوريغ الأرمنية (وتعني بالعربية «القليل من المياه»)، رأى أن المنازل رصفت بالهياكل العظمية المحروقة، رصفًا محكمًا، إلى أنها كانت ثابتة. وكتب الجنرال وهيب: «في تاريخ الإسلام كله، من المستحيل الوقوع على مثل هذه الوحشية».

لم تُخفَ المحرقة الأرمنية، التي «لا تُذكر» اليوم في تركيا، عن الشعب سنة ١٩١٨. شهد ملايين الأتراك المسلمين ترحيل كثر من الأرمن قبل ثلاث سنوات، حين حاول البعض أن يحمي جيرانه وأصدقاءه الأرمن، معرّضين حياة عائلاتهم المسلمين للخطر. وبتاريخ ١٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٨، صرّح أحمد رضا الرئيس المنتخب في مجلس الشيوخ التركي والداعم السابق للقادة الشبّان الأتراك الذين ارتكبوا تلك الإبادة الجماعية في خطابه الافتتاحي: «فلنعترف بالأمر، نحن الأتراك قتلنا الأرمن في شكل وحشي («فاهشيان» باللغة التركية)». كذلك فصّل دادريان كيف رصد وزير الداخلية طلعت باشا مجموعتين متشابهتين من الأوامر، متأثرتين بالأسلوب النازي. قضت المجموعة الأولى بمساعدة المرحّلين الأرمن من خلال تزويدهم الخبز والزيتون والحماية، بينما قضت التعليمات الأخرى بحث المسؤولين الأتراك على «متابعة مهمتهم» فور ابتعاد المرحّلين بما فيه الكفاية من التجمعات السكانية، كي لا يشهد الكثيرون على الجريمة. ووفق شهادة السناتور رشيد عكيف باشا بتاريخ ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨: «كانت «المهمة أن نهاجم الوفود ونذبح الناس... يُخجلني هذا الأمر، كمسلم وكرجل دولة عثماني. لوّث سمعة الامبراطورية العثمانية، هؤلاء المجرمون...».

إنه أمر يفوق الطبيعة أن يتحدث الأتراك الرفيعو الشأن عن تلك الحقائق سنة ١٩١٨، وأن يقرّوا بالكامل في برلمانهم بالإبادة الجماعية التي أنزلوها

بالأرمن، وأن يقرأوا المقالات في الصحف التركية عن الجرائم الكبرى المرتكبة في حق الشعب المسيحي. والأغرب اليوم، إنكار خلفائهم تلك الوقائع، وعدّوها مجرّد رواية، مع حرصهم على محاكمة أي شخص يجرؤ في اسطنبول اليوم على أن يقرّ بما أقرّ به رجال ١٩١٨، بموجب القانون الشهير ٣٠١، الرقم «التشهير» بالأتراك.

لا أدري هل يجب محاكمة منكري المحرقة - من المجموعات المعادية للأرمن أو الساميين - لما تبجّحوا به. دايفيد إيرفينغ «شهيد» غير مرغوب فيه ذهب ضحية حرية التعبير، ولست متأكدًا هل يُعدُّ مفيدًا حكم المحكمة الفرنسية الذي صدر بتغريم برنارد لويس مبلغ قيمته فرنك واحد لإنكاره الإبادة الجماعية الأرمنية، في مقالة له مؤرخة في تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٣ في صحيفة «لوموند» غير أنه سوّق لأعمال عالم تاريخ مسنّ كانت تتراجع مع تقادم الزمن.

لكنه أمر مُرضٍ، إعلان كل من الرئيس الفرنسي جاك شيراك ووزير الداخلية نيكولا ساركوزي، ضرورة اعتراف تركيا بالإبادة الجماعية التي أسفرت عن قتلى شرطًا للانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. صحيح، ففرنسا تضم جالية أرمنية قوية يقدر عددها بنصف مليون نسمة. وفي شكل نموذجي، لم نرَ هذه الشجاعة لدى بلير لورد كوت العمارة، أو الاتحاد الأوروبي نفسه، الذي ما زال يعلّق بجبن وطفولية، مدعيًا أن الموقف الفرنسي الجديد، إذا صوت عليه مجلس الشيوخ في باريس، سيمنع الحوار» الضروري للمصالحة بين تركيا وأرمينيا المعاصرة. وأتساءل ما هو المعنى الضمني لذلك؟ لا مزيد من التطرّق إلى المحرقة اليهودية خوفًا من إعاقة «المصالحة» بين ألمانيا ويهود أوروبا؟

ولكن، الأسبوع الماضي، فُتحت في شكل مفاجئ هذه المقابر الأرمنية الهائلة أمام عيني. سينشر المحررون الأتراك الشهر المقبل كتابي: «الحرب الكبرى في تحت ذريعة الحضارة»، باللغة التركية، كاملًا، بفصله الطويل عن الإبادة الأرمنية، «المحرقة الأولى». وتلقيت الخميس رسالة من أعضاء مجموعة

كتب «أجورا» في اسطنبول، مشيرة إلى ما قاله محاميهم، «أعتقد أنهم سيُحاكمون بموجب القانون ٣٠١» - الذي يمنع التشهير بتركيا، والذي حاول المحافظون استخدامه ضد باموك -، إلا أنني، كأجنبي، «سأكون صعب المنال». ولكن يمكنني أن أطلب من القضاء التركي المثول أمامه في أي محاكمة، إذا رغبتُ في ذلك شخصيًا، أشك في أن يصل منكرو المحرقة الأتراك إلينا؛ ولكن إذا استطاعوا ذلك، فسيشرّفني أن أقف في قفص الاتهام مع الناشرين الأتراك لاستنكار إبادة جماعية دانها حتى مصطفى كمال أتاتورك مؤسس دولة تركيا المعاصرة نفسه.

«ذي إندبندنت»، ١٤ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦

هذا كلام فارغ، سيدي السفير

تلقّيت منذ بضعة أيام رسالة من السفير التركي إلى محكمة ساينت جايمس: إحدى الرسائل الخطية التي تُرعب الإنسان. «تدّعي حدوث «إبادة جماعية» أرمنية في شرق الأناضول سنة ١٩١٥»، وأضاف «سعادة» السيد أكين ألبتونا: «أظن أنك أسأت فهم تلك الأحداث...».

آه، بالطبع أسأت الفهم. أسأت فهم فكرة قتل مئات آلاف الأرمن في شكل وحشي، وعن إصرار وتصميم مسبقين، على أيدي معلّميهم العثمانيين الأتراك سنة ١٩١٥؛ وأسأت فهم فكرة قتل الرجال بالرصاص والخناجر، في حين اغتُصبت نساؤهم وانتُزعت أحشاؤهن وأُحرقن ومُتن جوعًا، وذُبح أطفالهن. قابلت بعض الناجين - الكاذبين من الرجال والنساء، إذ ستصدّق بريطانيا السفير التركي - أنها ورأيت صور الضحايا التي التقطها مصوّر ألماني شجاع، آرمن ويغنر، وأعتقد اليوم أنها تم التخلّص منها. كذلك تم التخلّص من تلك الأرشيفات التي تخصّ دبلوماسيين أدانوا في شجاعة الجرائم التي ارتُكبت في حق الشعب المسيحي التركي تنفيذًا للأوامر الصادرة عن مواطنين شكّلوا عصابات، وحكموا الحكومة العثمانية سنة ١٩١٥.

ما كان سيكون رد فعلنا يا ترى، لو كتب السفير الألماني رسالة بالمحتوى ذاته؟ «تدّعي حدوث «إبادة يهودية» في شرق أوروبا بين ١٩٣٩ و١٩٤٥... أعتقد أنك أسأت فهم الأحداث...». بالطبع، فور نشر هذه الرسالة، سيُدين السفير الألماني مكتب الشؤون الخارجية، وسيسحب رجلنا من برلين لإجراء الاستشارات، وسيتحاور الاتحاد الأوروبي على توقيع العقوبات على ألمانيا؛ وبالطبع، سيظهر بلير الجبان في هذه المناسبة.

لكن هذا لا يُقلق السيد ألبتونا. فبلاده لا تنتمي إلى الاتحاد الأوروبي - هي ترغب في ذلك فقط - وإدارة بلير الجبانة هي التي حاولت لأشهر عدة منع مشاركة الأرمن في يوم ذكرى المحرقة البريطانية. ووسط هذا الاحتيال، ثمة نور يشعّ من بعيد، فرسالة السيد ألبتونا تعبّر في غرابة عن آراء الكثيرين من المواطنين الأتراك. ويشرّفني أن أقابل البعض منهم، المقتنعين بضرورة إطلاع بلدهم على الشر الأعظم الذي ارتُكب في حق الأرمن. وأتساءل: لماذا، حقًا لماذا ينشغل السيد ألبتونا وزملاؤه بهذا الهراء؟

في لبنان، على سبيل المثال، أرسلت السفارة التركية «بلاغًا رسميًا» إلى صحيفة «لوريان لو جور» الفرنسية المحلية، مشيرةً إلى «ما يُسمّى الإبادة الجماعية الأرمنية»، ومتسائلة لماذا ترفض دولة أرمينيا المعاصرة دعوة تركيا إلى دراسة مشتركة للتاريخ، بهدف «معاينة أحداث» ١٩١٥. في الواقع، لن يقبل الرئيس الأرميني روبرت كوتشاريان، هذه الدعوة للسبب نفسه الذي يقف خلف التساؤل: لمَ سيرفض المجتمع اليهودي في العالم الرد على دعوة مماثلة أطلقها الرئيس الإيراني لمعاينة المحرقة اليهودية، إذ تم ارتكاب جريمة دولية لا مثيل لها، ومجرّد الشكّ في هذا الموضوع سيُعدّ إهانة للملايين من الضحايا الذين قتلوا.

لكن تركيا تبتكر استئنافها في شكل فنّي. في بيروت، يتذكر الشعب الكارثة التي حلت بالحلفاء في غاليبولي سنة ١٩١٥، عندما خسر جنود من بريطانيا وفرنسا وأستراليا ونيوزلندا عددًا مماثلًا من الضحايا على يد الجيش التركي. بلغ عدد الضحايا في الدردنيل، بمن فيها ذلك الجنود الأتراك، ربع مليون. وتشير السفارة التركية في بيروت في حق، إلى أن أمم غاليبولي المحاربة حوّلت تلك العداءات محاولات صلح وصداقة واحترام متبادل. وهي محاولة جيدة. إلا أن إزهاق الأرواح في غاليبولي لم يتضمن التخطيط لقتل مئات آلاف النساء والرجال من بريطانيا وفرنسا وأستراليا ونيوزلندا وتركيا.

لكن، فلنتكلم الآن على الوجه المشرق. مجموعة من «**الأتراك الصالحين**» يتحدّون كذب حكومتهم في شأن الإبادة الجماعية سنة ١٩١٥: يعتقد **أحمد** إنسيل وباسكين أوران وهاليل بيركتاي وهرانت ديك(*) وراجيب **زاراكولو** وغيرهم، أن «مسار الديموقراطية» في تركيا «سيقطّعها إربًا إربًا في **الظلام**»، ويطلبون مساعدة الأرمن في ذلك. وعلى رغم ذلك، هم يشيرون فحسب إلى «كارثة» و«مجزرة» و«نزاع» طاولت الأرمن سنة **١٩١٥**. الدكتورة فاطمة جوسيك من جامعة ميشيغان، بين الأكاديميين الأتراك الأكثر شجاعة الذين يحاربون بهدف مواجهة إرهاب الامبراطورية العثمانية على الأرمن. إلا أنها ترفض، هي أيضًا، استخدام مصطلح الإبادة الجماعية - على رغم أنها تقرّ فعلاً بهذا الجرم - بما أنه تم «تسييسه»، وبالتالي فهو يعوق الأبحاث.

أتعاطف قليلًا مع هذه الحجة. لماذا يجب تصعيب مهمة الأتراك الصادقين، بينما يتمسّك الرجال والنساء الجيدون بقوة المواطنة التركية؟ لكنّ المشكلة تكمن في مطالبة جماعة أخرى، سيئة السمعة، بهذا النوع من الإلغاء. ويقول لي السيد ألبتونا - بمكر هائل - إن الأرمن «فشلوا في تقديم الأدلة القاطعة لدعم ادعاءاتهم الإبادة الجماعية»، مضيفًا «إن للإبادة الجماعية، كما تعلم جيدًا، معنى قانونيًا محددًا» في اتفاق الأمم المتحدة سنة **١٩٤٨**. لكن السيد ألبتونا يعلم جيدًا، على رغم أنه لا يقرّ بذلك بالطبع، بأن تحديدًا لمصطلح الإبادة الجماعية وضعه رافاييل ليمكين، اليهودي الأصل، مشيرًا إلى المذابح الجماعية الهائلة التي ارتُكبت في حق الأرمن.

وفي تلك الأثناء، تُفتح أرشيفات دبلوماسية جديدة في الغرب، تكشف في صفحاتها رائحة الموت، موت الأرمن. وأقتبس هنا، على سبيل المثال، من كتابات الدبلوماسي الدنماركي في تركيا أثناء الحرب العالمية الأولى، التي اكتشفت حديثًا. كتب كارل ويندل في ٣ تموز/يوليو ١٩١٥، «يسعى الأتراك إلى

(*) تكشف لكم الصفحات المقبلة مصير هرانت ديك.

القضاء على الشعب الأرمني في شكل عنيف، كما تمليه عليهم نياتهم السيئة». طُلب من أسقف كاربوت مغادرة حلب خلال ثمان وأربعين ساعة «وعُلم في ما بعد، أن هذا الأسقف ورجال الدين المرافقين له قتلوا بين ديار بكر وأورفة، في مكان حيث عانت ١٧٠٠ عائلة أرمنية المصير نفسه... وفي أنقرة، قُتل ٦٠٠٠ رجل في الشارع. حتى هنا في القسطنطينية (اسطنبول)، يتعرّض الأرمن للخطف والشحن إلى آسيا...».

ثمة الكثير بعد، الكثير الكثير. وعلى رغم ذلك، يذكر السيد ألبتونا في رسالته إليّ: «في الواقع، لم يشمل الترحيل الأرمن الذين يعيشون خارج أرمينيا الشرقية بما في ذلك اسطنبول...». ثمة من يكذب هنا. هل هو المرحوم السيد وانديل من كوبنهاغن؟ أم السفير التركي لمحكمة ساينت جايمس؟

«ذي إندبندنت»، ٢٠ أيار/مايو ٢٠٠٦

ضحية الإبادة الجماعية الأرمنية الـ ١٥٠٠ ٠٠١

أصبح هرانت دينك بالأمس، ضحية الإبادة الجماعية الأرمنية الرقم ١ ٥٠٠ ٠٠١. صحافي مثقّف وكريم وأكاديمي: محرر في الصحيفة التركية الأرمنية الأسبوعية «آخوس». حاول أن يخلق حوارًا بين الأمّتين بهدف التوصل إلى رواية مشتركة للمحرقة الأولى في القرن العشرين. ودفع الثمن: رصاصتين في رأسه وأخريين في جسمه على يد مجرم في أحد شوارع اسطنبول بعد ظهر أمس. لم يكن هذا بمثابة ضربة مخيفة للمجتمع الأرمني الناجي في تركيا وحسب، بل هو أيضًا إبطال مدمّر لأمل تركيا في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. اقتراحٌ حالمٌ سبق أن اهتزت صدقيته نتيجة لقطع البلد العلاقات مع قبرص، ورفضه الإقرار بحقيقة الإبادة الجماعية: القتل المتعمّد لعرق كامل من الشعب المسيحي على يد الحكومة العثمانية التركية سنة ١٩١٥. كان وينستون تشرشل أول من سماها بالمحرقة؛ ولكن، لتاريخه، ما زالت السلطات التركية تنكر هذا التحديد وتتجاهل المستندات التي نبشها علماء التاريخ الأتراك بأنفسهم لإثبات محاولة الحكومة ارتكاب الإبادة الجماعية.

قُتل الصحافي الذي يبلغ من العمر ٥٣ سنة، وهو أب لولدين، على باب مقرّ صحيفته. منذ سنة تقريبًا، اتُّهم بـ «العداء للوطنية التركية» بموجب القانون التركي ٣٠١ المشهور. وأنكر هذه التهمة إصرار، حتى بعدما حكمت عليه المحكمة في اسطنبول بالسجن ستة أشهر. طلب الاتحاد الأوروبي إلغاء هذا القانون الذي حاولت الدولة بموجبه سجن الكاتب الحائز جائزة نوبل أورهان باموك. وأثناء المحاكمة، ظهر دينك على التلفاز التركي والدموع في عينيه، وقال: «أعيش مع الأتراك في هذا البلد وعلاقتي متينة معهم. لا أعتقد أن في إمكاني العيش في هذا البلد، وأنا أهينهم».

إنه أمر يدعو إلى السخرية في شكل مدهش اتهام دينك، في إحدى مقالاته، زملاءه الأرمن الذين يسمحون لأنفسهم بتنمية عدائهم تجاه الأتراك بسبب الإبادة الجماعية إلى حد أنها «تؤثر في دمهم في شكل سام»؛ أساءت المحكمة فهم المقالة، مدّعية أنه يشير إلى الدم التركي المسمّم. أخبر دينك مراسلي صحيفة «أخبار» في العام ٢٠٠٥، أن قضيته نشأت عن سؤال طُرح عليه أثناء أيام المدرسة الابتدائية، عمّا هو شعوره، وعندما اضطر إلى الإدلاء بالقَسَم التركي التقليدي: «أنا تركي، أنا بريء، أنا مجتهد في عملي». في دفاعه، يقول: «قلت إنني مواطن تركي لكنني أرمني، وعلى رغم أني صادق ومجتهد في عملي، إلا أنني لست تركيًا بل أرمني». كان يكره جملة من النشيد الوطني التركي تشير إلى «عرقي البطولي». لم يكن يحبّ أن يُنشدها، مبررًا: «لأنني أرفض استخدام كلمة «عرق» المرتبطة بالعنصرية».

كذلك اتُّهم باموك في وقت أبكر، بالتحدث عن الإبادة الجماعية التي حدثت سنة ١٩١٥ إلى مجلة سويسرية. يعلن الناشرون الأتراك الرائدون وجود جو افتعالي في تركيا حيال الكتّاب الذين يرغبون في إعلان حقيقة الإبادة الجماعية، عندما «طُهِّرت» مناطق واسعة من أرمينيا التركية من شعبها المسيحي.

ذي إندبندنت»، ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

نشر الكتاب خلسة... وفي هدوء

استعدوا لأن تُذهلوا لقراءة اقتباس من رسالة موجهة إليّ من الناشرين في اسطنبول، الذين خافوا أن ينشروا النسخة التركية من كتابي «الحرب الكبرى في تحت ذريعة الحضارة»، بسبب الفصل الذي يحمل عنوان «المحرقة» الذي يُظهر الإبادة الجماعية الأرمنية. وترددتُ، إضافة إلى أن هذا مجرّد فصل عن الشرق الأوسط في كتابي - إلا أن مخاوف أصدقائي الأتراك ظهرت حتى قبل مقتل الصحافي الأرمني التركي هرانت دينك في شكل وحشي خارج مكتبه في اسطنبول في كانون الثاني/يناير. وعندما تقرأون التالي، من رسالتهم إلى الناشرين في لندن، هاربر كولينز، تذكَّروا أن هذه الرسالة صادرة عن مواطن في بلد يرغب في الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي. وبما أنني لا أتقن اللغة التركية، لا يسعني أن أنتقد الهفوات التي ظهرت في رسالة السيد عثمان من حين إلى آخر، والتي من دونها، لكانت لغته الإنكليزية ممتازة.

«نود أن نشير إلى أن الوضع الاقتصادي في تركيا حيال مسائل متعددة، مثل مشاكلات الأرمن والأكراد ومسألة قبرص والاتحاد الأوروبي، لا يتحسن؛ على العكس، فهو يزداد سوءًا نتيجة تفاعل القضية الوطنية في شكل متصاعد، وبلغ ذروته مع واقعة الكاتب أورهان باموك الحائز جائزة نوبل، والخلافات السياسية مع الاتحاد الأوروبي. وعلى الأرجح يستمر تأثير هذا الجو السياسي حتى الانتخابات الرئيسة المقبلة في شهر نيسان/أبريل ٢٠٠٧... لذا، نود أن تتم النشر بالسر، أي أننا لن نقوم بأي حملات صحافية لكتاب السيد فيسك. لذا، نطلب من السيد فيسك أن يُظهر لنا دعمه في حال رفع أي اتهام... على هذا الكتاب. نتمنى أن يستطيع السيد فيسك وهاربر كولينز فهم تحفظاتنا».

أستطيع أن أفهم. ها هو ناشر في بلد يتفاوض على دخول عضوية الاتحاد

الأوروبي، حيث تشكّل مسائل التاريخ الأرمني والأكراد وقبرص (غير المذكورة في كتابي) - حتى اقتراح تركيا الانضمام إلى الاتحاد الأوروبي - سببًا لنشر كتابي خلسة، وفي هدوء. في ما يتعلق بتاريخ بيع كتاب ما، أتساءل: هل حاول أحد الناشرين تجنّب نشر كتابه؟ يمكنني أن أعطيكم مثالًا على ذلك. عندما نُشر كتاب تانير أكام الرائع «أعمال مخزية: الإبادة الجماعية الأرمنية وموضوع مسؤولية الأتراك» باللغة التركية، كان لعالم التاريخ التركي رد الفعل نفسه تقريبًا: نُشر كتابه «في هدوء» في تركيا، وفي دون مراجعة واحدة للكتاب. وأذكر هنا أن هذا الكتاب استعان بمستندات الدولة العثمانية التركية وبيانات عن تركيا المعاصرة، للإثبات أن الإبادة الجماعية عمل تاريخي مرعب.

في الواقع، أتفهّم قليلًا وضع الناشرين الأتراك. إن جبنهم فحسب ما يملأني غضبًا وغيظًا. لكني أعيش في بيروت ولا في اسطنبول. وبعد الجريمة الشنيعة التي تعرّض لها هرانت دينك، لا يسعني أن ألقي المحاضرات على زملائي في تركيا لمواجهة العنصرية التي أودت بحياة دينك، بينما أتناول قهوتي صباحًا على كورنيش بيروت، من الممكن أن يُهان السيد عثمان في العاصمة السابقة للامبراطورية العثمانية. لكن ثمة مشكلة: يريد الناشرون الأتراك أن ينشروا كتابي، كما لو يدور حول البورنوغرافيا غير القانونية، وعلى رغم ذلك يريدونني أن أقف معهم في قفص الاتهام، إذا رفع المحامون اليمينيون اتهامات بموجب القانون ٣٠١!

أفهم، من رسالتهم، أنهم لا يريدون أن يُجبَروا على اختيار أي جانب سياسي في خضمّ «التصادم الفارغ بين الوطنيين والعقلانيين المحدثين»، إلا أني أخشى أن تكون جذور المشكلة أعمق من ذلك. تعكس الصور المهددة لرجال الشرطة الأتراك الواقفين فخورين قرب مكان اغتيال دينك المزعوم بعد توقيفه، الوضعَ الذي نواجهه هنا. وعلى رغم ذلك، لن يلزم الصمت الصحافيون لدينا في الغرب، عن أعمال الامبراطورية العثمانية الشنيعة سنة ١٩١٥. على سبيل المثال، عندما أرسلت «رويترز» خاريث جونز مراسلًا، إلى

مدينة طرابزون التركية، حيث يعيش الرجل الذي من المفترض أنه قتل دينك، اقتبسَ حاكم المدينة عندما قال إن مقتل دينك مرتبط بـ «مشكلات اجتماعية تتعلق بالتمدّن السريع». ومن الممكن إلقاء اللوم على «ثقافة القتل بالرصاص القوية، وطابع الشعب السريع الغضب».

أتساءل لمَ لمْ تربط «رويترز» مسألة طرابزون بالأرمن في شكل مباشر وأكثر عنفًا. فسنة ١٩١٥، جمعت السلطات التركية في هذه المدينة آلاف الأرمن، نساءً وأطفالًا، في قوارب نحو البحر الأسود حيث «رُموا ليغرقوا». وتتوافر التفاصيل في مستند أصلي نبَشَه أكسام من زمن العثمانيين. قد يرغب علماء التاريخ في أن يعلموا أن الرجل المسؤول عن قوارب القتل هذه، اسمه نيازي أفندي. لا شك في أنه كان يتحلّى بطبع سريع الغضب.

وعلى رغم ذلك، ما زالوا ينكرون الأمر. كتبت الصحافة الموحدة هذا الأسبوع قصة من أنقرة، حيث تولى مراسلها سيلكان هاكاوجلو، تكرار الرواية نفسها عن وجود «خلاف حاد» بين أرمينيا وتركيا حيال مذبحة ١٩١٥ إذ «تنكر تركيا في قوة أن جرائم القتل هذه كانت إبادة جماعية». متى تستعيد الصحافة الموحدة وعيها، وتحذف هذا الهراء الجبان من تقاريرها؟ هل تذكر الصحافة الموحدة في مراجعها، عندما تتحدث عن مقتل ٦ ملايين يهودي أوروبي في شكل فعلي وشنيع، أن رافضي المحرقة اليمينيين «ينكرون في قوة » الإبادة الجماعية؟

لكن التاريخ الفعلي سينتصر. في تشرين الأول/أكتوبر الماضي، بحسب تقارير صحافية محلية، وبينما كان قرويو كورو، شرق تركيا، يحفرون قبرًا لأحد أقاربهم، وجدوا كهفًا يحتوي جماجم وعظامًا لأربعين شخصًا تقريبًا: بالتأكيد بقايا الأرمن الـ ١٥٠ من مدينة أوغوز الذين قُتلوا في كورو في تاريخ ١٤ حزيران/يونيو ١٩١٥. حضر عناصر الدرك الأتراك لمعاينة الكهف السنة الماضية. شمّعوا المكان، وأمروا القرويين بعدم الإفصاح عما رأوه. لكن ثمة

المئات من مواطني كورو في تركيا، وسرعان ما ستظهر عظامهم أيضًا لتطاردنا جميعًا. ولن ينفعنا نشر الكتب «في هدوء».

«ذي إندبندنت»، ١٧ آذار/مارس ٢٠٠٧

«تعارض المصالح»

أكره الإنترنت. إنه غير مسؤول، وأحيانًا يكون شبكة حقد. ولا وقت لدي للمعلومات التي تستمر في الظهور على الشاشة. لكن ثمة قصة عن صحيفتين جبانتين، من شأنها أن تفسّر لماذا يستمر الناس في البحث عن طريق برنامج «غوغل»، بدلًا من تقليب الصفحات.

أُولاهما «لوس أنجلس تايمز». العام الماضي، طُلب من المراسل مارك أراكس تولّي قصة روتينية عن الإبادة الجماعية الأرمنية. وركّز تقريره على الانقسامات داخل المجتمع اليهودي المحلي حيال تسمية الإبادة الجماعية بالإبادة الجماعية. اعتمدت الحكومة الإسرائيلية ورئيسها الجديد الحائز جائزة نوبل شيمون بيريز - الذي جلّ ما يشغله هو الحفاظ على علاقات وطيدة مع تركيا المعاصرة - نسخة الأحداث الكاذبة التي اعتمدتها اسطنبول. لكن الكثيرين من اليهود، داخل إسرائيل وخارجها، أصروا في شجاعة على أن ما حدث يشكل إبادة جماعية، هي التي مهدت للمحرقة النازية لـ ٦ ملايين يهودي.

ولكن استبعد تقرير أراكس تنفيذًا لأوامر المدير المسؤول دوغلاس فرانتز، لأن الصحافي «عبّر عن رأيه في المسألة» في هذا التقرير، ما أظهر «تعارضًا في المصالح». من المفترض بالقرّاء أنهم أدركوا أن أراكس أرمني أميركي. ويبدو أن خطيئته ترقى إلى العام ٢٠٠٥، حين كتب، هو وخمسة كتّاب آخرون، مذكرة رسمية إلى محرّري «أل أيه تايمز» بهدف تذكيرهم بأن قواعد أسلوب الصحف قصدت تسمية الإبادة الجماعية الأرمنية على هذا النحو، وليس «الإبادة الجماعية المزعومة».

لكن فرانتز وصف المذكرة القديمة بأنها «عريضة»، ويبدو أنه اتّهم أراكس بتنفيذ العمل بالتعاون مع محرر أرمني أيضًا، من واشنطن.

أوكل أمر هذه القصة من جديد إلى مراسل واشنطن ريتش سايمون، الذي ركّز على محاولة تركيا إعاقة الكونغرس عن الاعتراف بالمذبحة الأرمنية. ونشرت هذه القصة تحت عنوان «ما زال قرار الإبادة الجماعية غير مؤكد نهائيًا. تحفّظ المسؤولون التنفيذيون في صحيفة «أل أيه تايمز» عن الموضوع، رافضين إجراء المقابلات، لكن فرانتز أقرّ على موقع الكتروني (بالطبع)، أنه «أوقف» قصة أراكس نتيجة للمخاوف التي تجسّدت بقيام الصحافي بـ «التعبير عن رأيه الشخصي في موضوع عام علنًا...». يا للهول!

تشكّل الحقيقة خطرًا على صحيفة «أل أيه تايمز». وفضلًا عن ذلك، يبدو أن المحرر المنتدب فرانتز، عمل في السابق في صحيفة «نيويورك تايمز»، مشيرًا إلى المذابح الأرمنية بالإبادة الجماعية «المزعومة». وتبين أنه انضم إلى «أل أيه تايمز» كونه مراسلها في اسطنبول. ومنذ ذلك الحين، غادر أراكس «أل أيه تايمز» بعد تسوية تُرجمت برفع دعوى ضد الصحيفة بتهمة التشهير والتمييز. أطرى أصحا العمل على فعله، بعدما غادر فرانتز الصحيفة لينضم إلى «وول ستريت جورنال» مراسلًا لها في الشرق الأوسط، بالبع عرفتم أين - في اسطنبول.

ولكن، فلنتوجه الآن إلى شمال الحدود، إلى «تورونتو غلوب أند مايل» التي كلفت كاتبة العمود جان وونغ، مهمة التحقيق في الجريمة التي حدثت في جامعة في مونتريال في أيلول/ سبتمبر الماضي. وونغ صحافية غير محبوبة كثيرًا؛ هي كندية من الجيل الثالث. انتقلت إلى الصين أثناء «الثورة الثقافية» الماويّة، بينما (بحسب تصريحها) «وَشَيْتُ بالأعداء وعملت جاهدة كي أصبح مواطنة ماو صغيرة صالحة». وكتبت في وقت لاحق سلسلة «لانش ويذ» (تناول الغداء مع) في «ذو غلوب»، حيث كانت تبدي تعاطفًا مع الضيوف، لتدفعهم إلى البوح

بالمعلومات. وأبلغت إلى صحيفة جمعية أن «عندما يرتاح الضيف، يخف حذره. إنها حيلة، ولكن شرعية». يا للقرف!

لكن ائتمان وونغ على جريمة القتل في جامعة مونتريال داوسن أمر جدّي. قارنت القاتل بجزائري مسلم قتل أربع عشرة امرأة في جامعة أخرى في مونتريال سنة ١٩٨٣ من جهة، وبمهاجر روسي قتل أربعة زملاء له في الجامعة في مونتريال سنة ١٩٩٢ من جهة أخرى. وكتبت، «في القضايا الثلاث، لم يكن المجرم «بور لان» أي فرانكفوني «بحت» باللغة المحكية. إنه لأمر بغيض التحدث عن أصل الأعراق أينما كان؛ ولكن ليس في كيبيك». أمر صحيح على نحو مؤلم، ويا للأسف. لا يستخدم الباريسيون الذين يتكلمون اللغة الفرنسية الفعلية، مثل هذه العبارة بعكس مواطني مونتريال؛ تُترجم «بور لان» حرفيًا بـ «صوف صافٍ»، لكنها تعني «حقيقيًا». إلا أن وونغ ضربت على الوتر الحساس «المتعدد الثقافات» في كندا. اشتكى رئيس الوزراء ستفان هاربر من هذا الأمر، قائلًا: «هذه لامسؤولية فاضحة»؛ عبارة صادرة عن رجل يستمر في اعتماد سياسة إرسال الجنود الكنديين، بحماسة، في مهمات انتحارية إلى أفغانستان.

نشرت الصحيفة الفرنسية الكندية «لو دوفوار» صورًا كرتونية عن وونغ بعينين صينيتين منحدرتين في شكل مبالغ فيه؛ هل تستطيعون أن تتخيلوا كيف يمكن صحيفة تُسمى «الواجب» أن تبيع نسخة واحدة للناس؟ بالطبع، إن صحيفة «لو دوفوار» ليست «بور لان». واستهدف بريد الحقد الموضوع في شكل أوضح؛ تضمن البعض القدح. وعند ذاك، هرعت «غلوب أند مايل» لتحمي نفسها. كتب المحرر المسؤول في الصحيفة إدوارد غرينسبون، عمودًا جبانًا فادّعى أن كان من الضروري «حذف الفقرات المهينة» من قصة وونغ. وتابع بكبرياء «انندم على السماح بنشر هذه المصطلحات في مقالة صحافية (كذا)». حدث عطل ما في ما يسمّيه في شكل مضحك «مراقبة نوعية التحرير».

في الواقع، أعلم اليوم القليل عن «مراقبة النوعية» التي تعتمدها صحيفة

«غلوب». علمت حديثًا أنها أعادت طبع مقال لي من صحيفة «ذي إندبندنت» عن الإبادة الجماعية الأرمنية، لكنها أجرت بعض التعديلات، فأحلّت عبارة «المأساة» محل عبارة «الإبادة الجماعية». وقد وعد مكتتبو «ذي إندبندنت» بعدم إجراء أي تعديل على تقاريرنا. لكن عندما اتصل أعضاء من نقابتنا بـ«غلوب»، اكتشفوا أن الصحيفة الكندية سرقت المقال في بساطة. وبالتالي، فُرض عليها دفع غرامة. ولكن، بالنسبة إلى الرقابة التي فُرضت على عبارة «الإبادة الجماعية»، شرحت مسؤولة تنفيذية لـ«ذي إندبندنت» إلى أن من غير الممكن اتخاذ أي إجراء، بما أن المحرر المسؤول «غادر «غلوب أند مايل» منذ ذلك الحين».

تتكرر القصة نفسها، أليس كذلك؟ الرقابة ثم التذمّر، ثم الحذف والهرب. لا عجب في أن متصفحي المواقع الإلكترونية منتصرون.

«ذي إندبندنت»، ٢١ تموز/يوليو ٢٠٠٧

أثار هذا العمود عاصفة من الرسائل من الكوبيكيين (الفرنسيين الكنديين)، فاتهموني بنعتهم بالعنصريين، وبسوء فهم وضع الأقلية، وبالتشهير بصحيفتهم الفرنسية «لو دوفوار» (التي مدحتُ تغطيتها في الشرق الأوسط في مقالات سابقة)، وبانتقاد لغتهم «الفرنسية» الخاطئة. يبدو أن فكرة هدف «تعارض المصالح»، التي كانت من المفترض أن تدين جبن الصحف الإنكليزية، ضاعت في السياق.

شجاعة، دموع وأحلام محطَّمة

لا يوجد أمر أكثر حزنًا - ومثير للشفقة، وشجاع في الوقت نفسه - من شعب يتوق إلى العودة إلى أرض لطالما أنكرته. البولنديون إلى بريست ليتوفسك، الألمان إلى سيليسيا، الفلسطينيون إلى جزء من فلسطين التي تُعرف اليوم بإسرائيل. عندما يدّعي شعب أنه استقرّ من جديد في أرض أجداده، يصبح العالم مغشيَّ العينين، على ما فعل الإسرائيليون على سبيل المثال بـ«كنسهم» ٧٥٠ ٠٠٠ عربي كانوا يملكون الحقوق الشرعية كاملة في أراضيهم. ولكن، هل توجد أمة أكثر حرمانًا من تلك التي ترى، كل يوم، رمز أرضها الشامخ في يدي أمة أخرى؟

لن تستعيد أرمينيا جبل أرارات، وليست أرمينيا هنا «الدولة الرديفة» التي أسسها السوفيات سنة ١٩٧٠ بعد الإبادة الجماعية؛ ثم أن وجودها في غرب العاصمة، يريفان، ذكرى دائمة، مؤسفة وبغيضة، بالأخطاء التي لم يتم تصحيحها، وبالكوارث التي لم يتم الاعتراف بها، وبالأحلام التي لن تتحقق. شاهدتُ أرارات طوال الأسبوع الماضي: محجوبًا بالغيوم صباحًا، ومغمورًا بالضباب الأزرق عصرًا، متجهّمًا، وقامعًا، وملهمًا، ورائعًا، وسخيفًا نوعًا ما - لأن من المستحيل استخدام الحرية التي تشجّعها لانتزاعه من جديد من الأتراك - وقادرًا على الايحاء بالقصيدة الأكثر فخرًا، وبأبشع صنوف التجارة

ثمة مصنع كونياك في أرارات في يريفان تأسس منذ وقت طويل، ومحل هدايا في أرارات يتضمن، في معظمه، أمورًا بالية من الفن المحلي البغيض، وعددًا من الطرز المتنوعة للكنائس الأرمنية، إضافة إلى فندق «ماريوت أرارات»، وهو أعلى مستوى من «أرمينيا تو هوتيل»، حيث أقمت منذ خمس

عشرة سنة: وهو عبارة عن سكن سياحي داخلي للسوفيات سابقًا، ومن بين ممتلكاته الرئيسية مصارعة جيوش الصراصير التي تستمر الليل بطوله بين الجصّ وورق الجدران قرب وسادتي.

خلال حكم ستالين في الثلاثينات، بنى المهندس أليكسندر تامانيان ما يشبه قوس نصر فاشيًا من جهة واحدة من ريبابليك سكوير، حيث يغطّي الثلج مرتفعات أرارات، ما يذكّر الأرمن دومًا بجبلهم، جبل الدموع. لكن فردانية متحدّري ديكران الكبير، التي امتدت امبراطوريته من قزوين إلى بيروت، قاومت حتى قمع ستالين. ألّف ييغيش شارينتس، أحد الشعراء المفضّلين في البلد، قصيدة أصبحت اليوم مشهورة عنوانها «الرسالة». وهو زير نساء شهير يبدو أنه لجأ إلى خدمات الكرملين. من المحتمل أن يؤدي مدحه «العم جو» إلى إفساد الأمور. وتضمنت القصيدة التالي: «سطع ضوء جديد على العالم/من أتى بهذه الشمس؟/ إن أشعة الشمس هذه وحدها/ستخلد لقرون عدة». . . وما إلى ذلك.

مثّل جبل أرارات البعيد، رمزًا شجاعًا ومفقودًا الأمل منه، ومهلكًا بقدر ما هو مؤثر. «اختفى» شارينتس على يد أن كيه في دي سنة **١٩٣٧** عندما كُشفت مزحة تلميذ شارينتس، وحدث ذلك بعد، أنكره تامانيان، المنشغل الآن في بناء بيت الأوبرا الستاليني الجديد في يريفان. ثم وقع تامانيان عن سطح بيت الأوبرا الذي لم يكتمل. وحتى اليوم، يُطرح عن الأرمن والعرب الذين يرغبون في تصديق «المؤامرة» الأسئلة الواضحة: هل رمى المهندس نفسه ندمًا؟ أم دفعه أحدهم؟

تعيش المؤامرات في البلد الذي تمتّع فقط بسنتين من الاستقلال بعد الإبادة الجماعية، وصولًا إلى «حريته» سنة **١٩٩١** بعد انهيار الاتحاد السوفياتي. يسمح رئيس وزراء البلد الممل الذي أعيد انتخابه سيرج سارغزيان، بالمعارضة «الحيادية»، ولا بالجدال السياسي الفعلي حيث يحمل الخصوم الجديون أحزابهم وصحفهم على الإقفال. وأعلم الصحافة المحلية أخيرًا أن «الاقتصاد

أهمّ من الديموقراطية». وأعتقد أن ليس ما يدعو إلى المفاجأة عندما يُقال إن الرئيس الأول الفاسد، تير بتروزان، في أرمينيا الحرة، يعدّ مؤامرة للعودة. حاول سارغزيان أن يطرد من أرمينيا إذاعة أرمينيا الحرة، وهي محطة أوروبية حرة، على رغم أني أعتقد أن هذا ليس بالضرورة تعبيرًا غير ديموقراطي.

ولكن، بعدما أجرى فارتان ماكاريان مقابلة معي هذا الأسبوع على قناة أرمنية، أواجه صعوبة في أن أتقبّل ما اقترحه فارتان، عندما تحدث عن خوف الناشرين الأتراك من نشر كتابي في الشرق الأوسط، قائلًا إن ذلك الأمر عكس «غياب الديموقراطية» في تركيا. وسألت حينذاك، ماذا عن صحافة أرمينيا المطواعة؟ ولماذا، حتى يومنا هذا، تحتجّ أرمينيا على المحرقة الأولى في القرن العشرين بدرجة أقلّ من ملايين الأرمن المشتتين في الولايات المتحدة الأميركية وكندا وفرنسا وبريطانيا، وحتى من الأكاديميين الأتراك في تركيا نفسها؟ وانكبّ الطاقم في التلفاز على الضحك من وراء الشاشات. فمن المفترض أن يقوم ضيوف التلفزيون الأرمني بالردّ على الأسئلة لا بطرحها. فليحيَ الاتحاد السوفياتي.

ولكن، من الضروري تسليم الأمر إلى يريفان. الجميع يذهب في عطلة في آب/أغسطس، في الوقت نفسه. صحيح. كل محرر وصحافي ومراجع وكاتب عمود وطابع... يجمعون أغراضهم توجهًا إلى بحيرة سيفان أو قره باخ، لما لا يزال تُطلق عليه تسمية «الراحة»، تيمنًا بالأسلوب السوفياتي. أعلنت صحيفة «مارجين» هذا الأسبوع: «نتمنى أن يتمتّع قرّاؤنا بأوقات طيبة من الراحة، ونلتقي في ١٧ آب/أغسطس». هكذا في بساطة. لا يمكن أي شاعر أن يموت، أو أي جندي أن يُقتل، أو أي وزير أن يتكلم، أو أي رجل أن يُسجن، مخافة أن يختفي موته أو كلماته أو سجنه من التاريخ المكتوب. أشجّع إدارة «ذي إندبندنت» على النظر في هذه الفكرة؛ حبذا لو اتّبعنا هذا النظام أثناء عهد طوني بلير... ولكن، لا شكّ في أن خادمًا مدنيًا سيبعث إليه برسالة إلكترونية، بأنه كان «الوقت المناسب» لإعلان الأخبار السيئة.

في كل الأحوال، إن الصورة المظلمة للشاعر - الشهيد شارينتس تزيّن اليوم ورقة الألف درهم الأردنية، وما زال قوس تامانيان الهائل يسيطر على ريبابليك سكوير. لكن الاتحاد السوفياتي المنازع بنى مباني بطبقات عالية وراء القوس. وهكذا، «اختفى» أرارات اليوم، مثل شارينتس؛ تحجبه جدران الأبنية الرمادية التي شُيّدت بعد عهد ستالين، في مشهد يتكدس الذل كطبقات الغيوم، فيجعل الآمال في العودة مستحيلة. ومن الأفضل شرب كونياك أرارات في فندق ماريوت أرارات، حيث يمكن رؤية سفينة نوح على الأقل.

«الإندبندنت»، ٤ آب/أغسطس ٢٠٠٧

أحدهم ينكر الإبادة الجماعية في البيت الأبيض

غريب كيف يتداعى الجبابرة! الرئيس جورج دبليو بوش، ملك «الحروب الصليبية» الذي قد يشهر سيفه في وجه قوات الظلام والشر، هو الذي قال: «إما نحن وإما هم»، مدعيًا أنه قد يشنّ صراعًا أبديًا على «الإرهاب في العالم» بالنيابة عنا. في الواقع، اتّضح أنه جبان. قامت مجموعة من الشعب التركي وحملة علاقات عامة متنوعة بقيمة مليون دولار بالنيابة عن منكري المحرقة التركية، بتحويل الأسد حملًا. وليس حملًا حتى، إذ ترمز طبيعة الحيوان هذا إلى البراءة، بل حوّلوه فأرًا منزليًّا، مخلوقًا صغير الحجم، يمكن الخلط بينه وبين الجرذ من بعيد. هل أبالغ؟ لا أظن ذلك.

جميعنا على علم بـ «القصة حتى تاريخه». يمكن الرجوع إلى الصور والتقارير الدبلوماسية والمستندات العثمانية الأصلية وواقع كامل للمحاكمة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى، ووينستن تشرشل ولويد جورج وتقرير كبير من مكتب الشؤون الخارجية عامي ١٩١٥ و١٩١٦، كإثبات على صحة هذه القصة، إلى حدِّ أنهم ينتجون فيلمًا، مشهدًا سينمائيًا مقتبسًا من الأرشيف الفعلي التقطه مصوّر عسكري غربي أثناء الحرب العالمية الأولى، وذلك بهدف إظهار المحرقة الأولى في القرن العشرين التي يبدو أنها حقيقة، كما لا يزال يدّعي الناجون الأرمن القلة المثيرون للشفقة؛ ويُذكر أن المحرقة الأولى هذه ارتكبت أمام المسؤولين الألمان الذين أتقنوا في ما بعد هذا الأسلوب أثناء إبادة ٦ ملايين يهودي.

ولكن، يمنعنا الأتراك من الاعتراف بذلك. فهم ابتزّوا السلطات الغربية، بما في ذلك حكومتنا الغربية وحتى الولايات المتحدة الأميركية اليوم، لتتملّق لإنكارهم المخزي. ويشمل هذا الإنكار الكذبة التي تتجسد في مقتل الأرمن

أثناء «الحرب الأهلية»، وبأنهم تعاونوا مع الروس أعداء تركيا، وتم قتل القليل من أعداد الأرمن المزعومة، والفتك بالمسلمين الأتراك قدر الأرمن (وسنسأم من تكرار هذه الأكاذيب لأن وكالات الأخبار كافة والحكومة تردّدها خوفًا من إغضاب أنقرة). واليوم، لقيت هذه الأكاذيب دعم الرئيس بوش والكونغرس الأميركي. شهدنا، لمدة وجيزة، لحظة تاريخية لبوش وهو يعتزّ بنفسه بعدما صوّتت لجنة الشؤون الخارجية في البيت الأبيض لتدين المذبحة الرهيبة التي طاولت الأرمن الهائلة ولتصفها بأنها إبادة جماعية. واجتمع الناجون الأرمن الأميركيون القدماء في البيت الأبيض للاستماع إلى هذا الجدال. ولكن فور مباشرة جنرالات الأتراك المتشددين بتهديد بوش، علمتُ أنه سيستسلم.

استمعوا أولًا إلى الجنرال ياسار بويوكانيت، رئيس القوات المسلحة في تركيا، في مقابلة مع صحيفة «ميليت». تذمّر قائلًا إن القرار الصادر عن المجلس كان «حزينًا» نظرًا إلى «العلاقات المتينة» التي حافظت عليها تركيا مع شركائها في منظمة حلف شمال الأطلسي (ناتو). ولو اتخذ مجلس النواب بكامله هذا القرار، «لما كانت علاقاتنا العسكرية مع أميركا كما كانت عليه سابقًا... في هذا السياق، أميركا جنَت على نفسها».

والآن، استمعوا إلى السيد بوش وهو يجذب انتباه أتباع الأتراك. «نأسف جميعنا لمعاناة الشعب الأرمني... لكن هذا القرار ليس الحل المناسب لجرائم القتل التاريخية الهائلة. فتنفيذ هذا القرار سيضرّ بعلاقاتنا مع حليف أساس في منظمة حلف شمالي الأطلسي (ناتو) وفي الحرب العالمية على الإرهاب». أعجبتني العبارة الأخيرة: «الحرب العالمية على الإرهاب». لم يعانِ أحد - باستثناء اليهود الأوروبيين - «الإرهاب» بقدر ما عاناه الشعب الأرمني المسالم في تركيا سنة ١٩١٥. ولكن، يجب أن تكتسب منظمة حلف شمال الأطلسي (ناتو) أهمية أكبر من أهمية تكامل التاريخ. قد تثبت منظمة حلف شمال الأطلسي يومًا أهميتها الكبيرة، إلى حَدّ أن أمثال بوش في هذا العالم سيراوغون في مسألة محرقة اليهود بهدف استرضاء ألمانيا العسكرية المنشّطة، مصدر اقناع المتسولين.

ومن الذين يجب أن يخجلوا من أنفسهم، هؤلاء الذين يدّعون أنهم ينتصرون في حرب العراق، من بينهم الجنرال دايفيد بترايوس المضلّل في شكل متزايد القائد الأميركي في العراق، والسفير الأميركي المخدوع إلى حد كبير، راين كروكر؛ هذان الشخصان اللذان حذّرا من أن الاعتراف بالإبادة الجماعية الأرمنية «سيضرّ بجهود الحرب في العراق». وتأكدوا أن ثمة صفقات بأموال هائلة وراء رواية إنكار المحرقة المقرفة هذه. إن روبرت ل. ليفينغستن، وهو نائب سابق عن ولاية ليزيانا مؤيد للحزب الجمهوري، جمع مبلغًا قيمته ١٢ مليون دولار من الأتراك لشركته، مجموعة ليفينغستن، في مقابل نجاح محاولتين سابقتين لعكس قضية العدالة الأخلاقية والتستّر على القرارات الصادرة عن الكونغرس في شأن الإبادة الجماعية. فرافق المسؤولين الأتراك شخصيًا إلى كابيتول هيل لتهديد رجال الكونغرس في أميركا. فهموا المقصد: إذا استمروا في هذا القرار، فستمتنع تركيا ولوج أميركا إلى القاعدة الجوية، إينجيرليك، حيث يمرّ أكثر من ٧٠ في المئة من الذخائر والتجهيزات الأميركية التي تجتاز تركيا متجهة إلى العراق. في الواقع، هذا يُسمى ابتزازًا، وهذا هو السبب الذي أجبر بوش على الاستسلام. كذلك أظهر وزير الدفاع روبرت غايتس، جبنًا أكبر، على رغم أنه لم يكترث لتفاصيل التاريخ. وصرّح أن بترايوس وكروكر «يعتقدان في وضوح أن الولوج إلى المطارات والطرق، وما إلى ذلك في تركيا، سيتعرّض للخطر في حال تنفيذ هذا القرار...».

ما أرهب هذه السخرية التي لفظها غايتس. إذ «في الطرق وما إلى ذلك»، مشى مئات آلاف الأرمن في مسالك موتهم سنة ١٩١٥. دُفع كثر منهم أمام سكة القطار لقتلهم. أحد خطوط السكك الحديدية التي وطئوها يؤدي إلى شرق أضنة، وهو نقطة تجمّع كبيرة للمسيحيين الذين قُتلوا في غرب أرمينيا. والمحطة الأولى على الخط كانت إينجيرليك، إينجيرليك نفسها التي تضم اليوم القاعدة الجوية الضخمة التي يخاف بوش أن يخسرها. لو لم تحدث الإبادة الجماعية التي يرفض بوش الاعتراف بها، وفق ادعاءات الأتراك، لكان الأميركيون اليوم

يطلبون الإذن من الأرمن لاستخدام إينجرليك. ما زالت ثمة ناجية أرمنية عجوز، في ساسيكس، إذا رغب أحدكم في مقابلتها، من هذه المنطقة، ما زالت تذكر عناصر الدرك العثمانيين الأتراك يشعلون النار بمجموعة من الأطفال الأرمن الأحياء في طريق قرب أضنة. هذه هي «الطرق وما إلى ذلك» نفسها التي تُقلق السيد غايتس الجبان إلى هذا الحد.

ولكن، لا تقلقوا. إذا زرعت تركيا الخوف في نفس بوش، فهو ما زال مستعدًا لزعزعة قفص الفرس الأقوياء جميعًا. ونبّهنا إلى ضرورة اهتمام العالم بمنع إيران من اكتساب المعرفة لصناعة الأسلحة النووية إذا كنا «مهتمين بمنع الحرب العالمية الثالثة». يا له من كلام فارغ. ليس لدى بوش ما يكفي من الشجاعة للاعتراف بالحقيقة عن الحرب العالمية الأولى. من يتصوّر أن قائد العالم الغربي، الذي سيحمينا من «الإرهاب في العالم»، تبيّن أنه دايفيد إيرفينغ البيت الأبيض؟

«ذي إندبندنت»، ١٠ تشرين الأول/نوفمبر ٢٠٠٧

الفصل الثالث

كلمات، كلمات، كلمات...

إن سوء استخدام اللغة والتلاعب بها - لغة الدعاية السخيفة الخاصة بالصحافيين والسياسيين وحتى الأكاديميين - يزدادان، أكثر فأكثر، وترتفع خطورتهما. وليس فحسب الصيغ المبتذلة التي تعلّمنا استخدامها عندما تكون مراسلين مبتدئين، ولا اللغة السخيفة المعتمدة من رجال الدولة الكاذبين، ولا لغة الأنثروبولوجيين المتحفّظة، ولا الرسالة «الصحيحة» سياسيًّا، المتّبعة من الإعلانيين والمسؤولين التنفيذيين لدى الشركات والدبلوماسيين. في الشرق الأوسط، يمكن كلماتنا المراوغة أن تكون مدمّرة، وخصوصًا عندما يُقصد بها تحديد «الرجال الجيدين» مقارنة بـ «الرجال السيئين» في شكل ماكر، وتشويه إنسانية عرق شعب ما على حساب شعب آخر. سبق لصحافتنا أن انحازت إلى طرف ما من دون الرجوع إلى كلماتنا الخفية التي «تثير» أحكامنا السابقة. وانزلاق الأساس للكتّاب ورجال الفكر الفرنسيين على حرب الشرق الأوسط سنة ١٩٦٧، دليل كاف إلى ذلك. ومن المحتمل أننا اليوم نختير «اللغة» بدلًا من أن نصغي إليها. على مرّ السنوات، تعمّقتُ أكثر في دراسة بلبلة الأكاذيب هذه التي نصوغها، والكتّاب المثيرين للشفقة القلائل، الذين يؤمنون بـ «حقيقة اللغة»، مثل فيكتور كليمبيرير.



الكاتب يشنّ حربًا على الصحافة الصفراء

كنت في السابعة عشرة عندما وصلت للمرة الأولى إلى نيوكاسل في تاين. كانت مدينة تجتاحها المباني الثقيلة السود التي ترقى إلى القرن التاسع عشر، وكناية عن شبكة عنكبوتية من الجسور الحديد والقاطرات البخاري النارية والهواء الكثيف مع دخان الفحم والضباب الأحمر الصادر عن مصانع الفولاذ في كونسيت. بذل محرّر قسم الأخبار في صحيفة «إيفنينغ كرونيكل» جون براونلي، ما في وسعه ليرفّه عني. «ستكون في مكتبنا في بليث، بوب، مدينة فحم صغيرة صاخبة على الساحل تنبض بالحياة والكثير من الأخبار». كان براونلي يعتمد نمط وكيل العقارات. وكانت بليث ميناء للفحّامات أكل عليها الزمن وشرب مغمورة بوسخ المناجم المهلكة وآلاف حرائق الفحم. وكان ركام الجفاء يبرق باللون الأحمر مساءً، وأحواض بناء السفن تُحتضر مفلسة؛ و«برك» التقيؤ تتوزع على أرصفة الشوارع خارج بليث وتاين، وعشرات النوادي والحانات صباح كل أحد. حتى في فصل الصيف، كان يغمر المدينة نوع من العفن الفطري من بحر الشمال، وتغلف الرطوبة الممزوجة بدخان الفحم سكان تلك المنطقة.

افتقدت وطني، وبدأت أشعر الوحدة. كنتُ أحصل على راتب ١٧,٥٠ جنيه استرليني في الأسبوع، وأدفع ثلث هذا المبلغ للسيدة هاميلتون، المالكة في شارع ميدلتون ٨٢، حيث كنت أنام في غرفة يبلغ طولها ٧ أقدام وعرضها ٥ أقدام مع موقد غاز صغير جدًا. عندما عدتُ يومًا إلى الغرفة، سمعت الموظف المسؤول عن موقد الغاز يسأل المالكة عن سبب نقص المال من العدّاد. اضطررت إلى أن أفسّر أني لا أملك ما يكفي من المال للتدفئة. لذا، أمضيت الأمسية ظَهرًا لظَهر أمام النار في مكتب كرونيكل القديم والبالي في شارع

سيفورث، ثم عدت أدراجي مشيًا عبر الدخان في منتصف الليل، مختبئًا تحت بطانيتي من البرد. كنت أقرأ كتبًا تاريخية عصر كل أحد، ملتفًا بمعطف ثقيل، جالسًا في حديقة شاطئ فيكتوري، مكسوّة بالعشب، قرب الميناء.

ولكن، كان ثمة الكثير من القصص. كنت أتقاسم الغرفة مع نائب رئيس ميناء بليث، الملقّب بالقبطان فورتشون العظيم، الذي حان وقت مجده عندما أحضرت العاصفة أسطول صيد سمك بولنديًا إلى الميناء أثناء الحرب الباردة. وبقيت، وراوحت مكانها، عندما قام القبطان فورتشون بتحميل قارب الترولة وطلب إقلاعه على الفور، ضربه القبطان البولندي على وجهه بسمكة ضخمة ومسنّنة. حذّرتُ القرّاء من أن الزوارق الخشب ذات الطراز الفيكتوري، من حيث تفرغ قطارات الشحن الفحم في الفحامات، مهددة بالانهيار. تمايلت بعمق قدم في الماء في أسفل تاين لمشاهدة فريقين من عمال المناجم يشقّان طريقهما ليصل أحدهما إلى الآخر في المرحلة الأولى، ما كان سيصبح أول أوتوستراد في أسفل النهر في نيوكاسل. قمت بفهرسة النفقات الفائضة الهائلة المبذرة على محطة الطاقة الجديدة الفريدة من نوعها في بليث. وعمدت إلى تسجيل التعليمات الكلاسيكية لكاتب مدينة بليث وأنا استخدم اقتباسات من الميثولوجيا لمواجهة المعترضين على تمديد الأوتوستراد. وكان يردّد الغولدن الفليس. وعندما فشل المجلس، تم «تأجيل» خططه بالطبع.

غطّيت الدعاوى في المحاكم. كان البعض منها مثيرًا للشفقة. أمّ ممرّضة قي قسم للذكور في موربيث، توفي ابنها بعدما شنق نفسه خلف باب الغرفة في المستشفى. انتظرَت خارجًا في المحكمة بينما فسّر لها المسؤولون في هدوء كيف وقف ابنها على مجموعة كتب، والشرك حول رقبته كي «يثير الغدد التناسلية». وقعت الكتب ورُفع الولد ومات خنقًا على الباب. وهناك المراهق الذي أوقف لأنه سرق جهاز تحميص الخبز من منزل أجداده الذين أرادوه مسجونًا. واتّضح «جرمه» بأنه لوطيّ - وأذكر أن عبارة «علاقته برجل في شكل

غير لائق» كانت الصيغة المبتذلة التي اعتمدناها، نحن الصحافة - وأُعيد سجنه في سرعة. وعندما خرج، تحرّش بأكبر رجل شرطة مسؤول في بليث.

ولجأنا إلى الصيغ المبتذلة، دومًا الصيغ المبتذلة، عندما كانت الشرطة تبحث عن سائق كرّار فرّار، فهي إما «وسّعت شبكتها»، وإما «ضيّقت بحثها»، وإما «سرّعت مهمتها». لطالما كان مديرو الشركات «رؤساء»، والعلماء «خبراء علميين»، والمسؤولون «قادة»، والسفن التي اجتازت العواصف «مترهّلة» في الميناء في شكل محتّم. وكانت حالات الانتحار مأسوية، والعروس جميلة دومًا، وأعضاء المجلس الغاضبون «يقفزون غيظًا»، والقرويون المتظاهرون «ينزلون إلى الشوارع» دائمًا، والذين اكتشفوا الجثث «مرتعبين» أو «مربكين». وتنطبق هذه الحال الأخيرة على رجال بنائين كانوا يبنون طريقًا فرعيًا جديدًا في بليث، وحيث استخرجوا عشرات الجثث - متألقة جميعًا - ظنًا منهم أنهم اكتشفوا جريمة قتل هائلة إلى أن علموا أنهم كانوا يحفرون في مقبرة. ولا حاجة إلى القول إن مرشحي انتخابات توري لطالما وجهوا «ضربة» إلى النائب عن حزب العمل الحاكم إيدي بليث.

في الواقع، هم علّمونا أن نكتب بهذا الشكل. كانت ثمة مدرسة صحافية كاملة في نيوكاسل، اسمها ثومسون نيوزسبايبر، أُمرتُ وزملائي المراسلين «المبتدئين» من مكاتب كرونيكل في مقاطعة أخرى، بالحضور إليها مرة في الأسبوع، الأمر الذي كان يثير اشمئزاز المراسل المسؤول عني في بليث، جيم هارلند، شبيه شون كونري، وهو مملوء بحنان لا يوصف، ويشتعل بركان غضب، في نظر مراسلين أغبياء. قال لي هارلند يومًا: «تتعلمون الصحافة أثناء عملكم وليس عبر الاستماع إلى مجموعة من التافهين». ولكن بالطبع، كنت أحضر كل صباح يوم خميس إلى نيوكاسل بباص من بليث، مؤلّف من طبقتين يرقى إلى زمن ما قبل الحرب؛ وفي الداخل، يغمر الباص ضباب خانق من دخان السجائر الزرق اللون. ثم كنت أتناول ساندويتشًا من البيض في مقهى

ملقّب على نحو ملائم بـ «رامبلينغ تام»، وبعد ذلك أتحمّل ساعات من النصائح القانونية المختزلة والصيغ المبتذلة.

قيل لنا إن في الإمكان إخبار أفضل القصص بـ٤٠٠ كلمة. الأفكار كافة في الفقرة الأولى، وعدد من الجمل المشوّقة، والوقت نفسه لجميع الأطراف في خلاف ما و«تطوّر مفاجئ في الأحداث» في شكل جيد. لا وجود للغضب أو الشوق أو اقتراح ما هو صحيح أو خطأ. تذكرت جو فرايداي في دراغنيت: كان يصرخ بالجمهور: «الوقائع فحسب سيدتي، الوقائع فحسب». كانوا يملون علينا «عناوين قصص». كتابة المقدمة للتالي: جندي متقاعد، سبق أن انضم يومًا إلى عمليات الإنزال في النورماندي، يلقي اللوم على المجلس المحلي عن اختفاء زوجته بعدما رأت شبحًا في منزلها حيث كانت تستضيف المجلس. الجواب: جندي مربك متقاعد، في اليوم الفصل، يتهجّم على المسؤولين في المجلس مساء أمس بعدما طاردت «الأشباح» زوجته المرتعبة في منزل المجلس». استُبعد كل من خرج عن نطاق هذه الزاوية، من تناول الخبر بطريقة ذكية أو إيحائية. قد يكون الجندي مصدومًا بالقذائف، أو زوجته مريضة نفسيًا، أو الأشباح حقيقية. قرر مدرّبو مدرسة ثومسون في سرعة أن الصحافي سايمون ونشستر لن ينجح. كان يتميز بخيال واسع وتفكير شاسع وتعليق عميق في مقاربته. بالطبع، أصبح سايمون أحد أفضل المراسلين في صحيفة «غارديان» في بلفاست. كان من المفترض أن نكتب قصصًا «يفهمها» القرّاء في سهولة. علّمونا أن القرّاء هم على عجلة من أمرهم، ومرهقون، وفي أغلب الأحيان، غير معلّمين جيدًا. بعدما تحدثت طويلًا مع عمال المناجم وأحواض بناء السفن الذين يعملون بدوام جزئي، ورجال الإطفاء والشرطة وصاحبات الأراضي، لم ألاحظ أن قرّاءنا هم بهذه الدرجة من الغباء. فكّرت في أنهم سيرغبون في أمور غير صيغنا المبتذلة. ولكن، ليس بحسب أساتذتنا في الصحافة. كان علينا أن نستخدم المصطلحات «الأساسية»، من مثل التهجّم، أصحاب العمل، الأشباح، المسؤولين، مرتعبين.

نعم، كان من الضروري أن نخضع لـ«التدريب». مازلت أذكر قهقهة المسؤول الرئيس عن الطباعة في «ستوب بريس» في المكتب في بليث، بعدما قرأ تقريري عن تدشين زوجة رئيس مجلس توليد الكهرباء المركزي، حوض بناء سفن محليًّا. كتبت في تقريري: «كسرت السيدة سميث زجاجة الشامبانيا على هيكل السفينة، وهتف العمال حين انزلقت هي على مزلق السفينة»، وبعد ذلك، مرشح انتخابات توري الذي «ابتسم وهو يتحدث عن هواياته المتعددة والمتنوعة» أثناء المقابلة التي أجريتها معه. انهار هارلند. وصرخ: «أنت رجل بريء في حق الله، بوب. ماذا في رأيك سيستفيد قراؤنا من «الهوايات المتعددة والمتنوعة»؟

لكنني تذكرت أيضًا ما لم تذكره كرونيكل. حُذفت من القصة إشارتي إلى الأم المفجوعة خارج قسم محقق الوفيات. ولم تُنشر قصة السمكة الخاصة بالقبطان فورتشون، إذ كانت الصحيفة في حاجة إلى أن تقتبس من قبطان قارب الترولة البولندي حفاظًا على «توازن» القصة. تبع التقرير الذي كتبته عن حال زوارق بليث، اعتذار رسمي إلى المجلس الوطني للفحم، مفاده أن الرصيف البحري الخشب يتوافق ومعايير السلامة. اعتذار نشرته «كرونيكل» من دون الرجوع إلي. ارتسمت على وجهي ابتسامة خبيثة بعد بضعة أسابيع عندما هزّ مكتب بليث خشب متناثر وبخار متفجر، نتيجة اصطدام محرّك صهريج - بدعامات المنجم الرديئة القديمة، وتوقف في شكل خطير على حافة الرصيف ولحسن الحظ لم يتأذّ السائق. غطينا الموضوع من دون الإشارة إلى قصتي السابقة، أو الاعتذار الذّليل الذي قمنا به قبل بضعة أسابيع.

لست ضد صحيفة «كرون». عندما عرضت علي جامعة ليفربول مكانًا لقراءة اللغة الإنكليزية، قبِل المحررون بفرح استقالتي، وتمنوا لي النجاح في دراساتي. وبعدما قرّرت ليفربول في شكل لا يُنسى أنها لا يسعها أن تمنحني هذا المكان الذي وعدتني به، إذا لم أكن حائزًا درجة جامعية في الرياضيات، عرض علي جون براونلي بكل سرور وظيفتي السابقة. ولكن عندما عرضت علي جامعة لانكستر فعلًا مكانًا مخصصًا للطالب غير المتخرج بعد، أذن لي براونلي

بالذهاب متمنيًا لي النجاح. وبعد ذلك، كتب لي مرجعًا هائلًا في «صانداي إكسبرس» أذهل المحرر الغضوب الراحل جون جونور. تجاهل هارلند رغبتي في البقاء في الصحيفة. قال لي ابن معدّن الفحم بوقاحة: «لا تكن سخيفًا بحق الله. اذهب، بوب، وأنهِ دراساتك واحصل على إجازة».

وهذا ما حدث خلال أشهر، كنت بدأت بدراسة اللغة وقراءة نعوم تشومسكي، والاطلاع على الدمار الاجتماعي الذي ولدته الثورة الصناعية في شمال إنكلترا، بالطبع في المنطقة نفسها حيث كنت مراسلًا مبتدئًا، بفضل محاضرات دايفيد كرايغ في اللغة الإنكليزية عن ديكنز. وفجأة أصبح للمناجم المترهلة والبطالة المتزايدة وأحواض السفن الرديئة، وحتى خشب زوارق بليث الفاسد، معنى. ولكن، كان من الضروري أن أرتاد الجامعة لفهم هذا المعنى. الصحافة تدور على التاريخ، ولكن ليس في صحيفة «كرون».

في النهاية، هذه الفكرة بأن اللغة والتاريخ يصوغان حياتنا، ذكّرتني هذا الشهر بشمال شرقي إنكلترا. كانت لدي شكوك في أن اللغة التي أُجبرنا على كتابتها، بصفتنا صحافيين متدرّبين، على مرّ هذه السنوات، سجنتنا نوعًا ما. علّمونا بأن نقولب العالم وأنفسنا بصيغ مبتذلة. ومن شأن ذلك أن يحدد حياتنا، ويدمّر غضبنا ومخيّلتنا، ويجعلنا أوفياء لذاتنا الأفضل، ولحكوماتنا، وللسلطة. ولسبب من الأسباب، تملّكني الاعتقاد أن اللوم على فشلنا كصحافيين في نقل أخبار الشرق الأوسط بأي شغف معنوي أو نقمة، يكمن في الطريقة التي تدرّبنا، نحن الصحافيين، على اتّباعها.

عندما عدتُ، كانت بليث تشهد أمطارًا باردة وثقيلة. كان الميناء مظلمًا وفارغًا، يملأه الوحل، لم تعد أحواض السفن موجودة. أقفلت المناجم كلها، ما خلا منجمًا واحدًا على الساحل. أما محطة الطاقة التي تلمع في الضباب على الضفة الأخرى من النهر، فأوقفت. في آخر شارع ميدلتون، أخبرني وكيل الصحف أن بليث ما زالت تُحتضر وهو يقف في محله، حيث النوافذ المدرّأة

وبقع الرطوبة تغطي السقف، مضيفًا أن «أربعة عشر في المئة من نسبة البطالة، وثلاثة وأربعين في المئة من حالات الوفاة، نتيجة للمخدرات على مرّ أربع سنوات. لا مستقبل». اشتريت صحيفة «كرونيكل». اختفت الزوارق الخشبية. وكذلك حال السكة الحديد. أما حديقة الشاطئ حيث كنت أقرأ، فما زالت موجودة، حيث حجر الدرابزون المكسور، المتداعي في الرمال.

قرعت الباب الرقم ٨٢. توفيت المالكة، السيد هاميلتون، منذ زمن بعيد. سمح لي الزوجان اللذان يعيشان هناك اليوم بصعود السلالم، والانعطاف يمينًا في الأعلى وفتح حفرة الغرفة الصغيرة حيث كنت أنام منذ أربعين سنة. هذه الغرفة التي يبلغ طولها سبعة أقدام وعرضها خمسة أقدام. هذه هي المقاييس الصحيحة. رُكبت رفوف في الغرفة، وتم طلاؤها حديثًا وتجهيزها بنظام تسخين مركزي، واعتُمدت تخبئة أنبوب الغاز داخل الجدار. وتحتوي اليوم الغرفة التي تناولت فيها فطور اللحم المقدّد، حيث كانت السيدة هاميلتون تزودنا الطعام كاملًا، موقدًا كبيرًا من الرخام عجزت عن تذكره. كان المالكان الجديدان في الغرفة الرقم ٨٢ من قرّاء «ذي إندبندنت»، وهما من أعلنا ذلك أولًا، ورأيت الإثبات على طاولة غرفة الجلوس. لم يشتريا قط صحيفة «كرونيكل». وأتساءل: هل من رسالة محددة خلف ذلك؟

في السيارة، كانت الأمطار تتلاشى على حجاب الريح، تبدو الشوارع الرمادية القديمة نفسها صورة مشوهة عبر الزجاج. فتحت صحيفة «كرونيكل» لأكتشف أن الأمور ما زالت على حالها. وكل ما يلي مشتقّ من مسألة واحدة فحسب: «يقول أصحاب العمل الذين يترأسون إدارة بيع كاميل الليرد المضروبة، إن تعويضًا بالأضرار بقيمة مليونين من العمال السابقين سينقذ المناقصة». المصطلحات [حرفيًا] الرئيسية محصورة في: أصحاب العمل؛ المضروبة؛ ينقذ؛ المناقصة. «سيتوجه ثنائي من المحلّفين إلى فرنسا لمسابقة الدورة الأكثر إرهاقًا في العالم». المصطلحات الرئيسة: «المحلفين». «إرهاقًا». «أم لثلاثة أطفال أغوت جليسة أطفال مراهقة في جلسة جنسية قذرة مع رجل غريب تعرّفت إليه

عبر الإنترنت، وفشلت محاولاتها في مغادرة السجن في وقت مبكر». أغوت. قذرة. محاولات. دين أعضاء البرلمان لأنهم سافروا في رحلات خارجية لمجرّد المتعة بدلًا من تمضية العطلة في المنطِقة الشمالية الشرقية بهدف المساعدة على تحسين قطاع السياحة الركيك في المنطقة». على رغم أنني شعرت الشفقة تجاه أعضاء البرلمان هؤلاء وأنا أشاهد هذا المناخ الرمادي خارج سيارتي، إلا أنني فهمت المقصد: سافروا، الرحلات لمجرد المتعة. الركيك. «إن الشرطة التي تطارد قاتل سارة كاميرون وسّعت شبكتها إلى الخارج». نعم، مضى أربعون عامًا وأنا أكتب هذا الكلام التافه: ما زالت الشرطة «توسّع شبكتها»، مع القليل من الشك، و«تضيّق بحثها» قريبًا، أو «تسرّع» في مطاردتها قاتل سارة كاميرون. وانتظرت وارث صحيفة «بليث نيوز» القديمة الأسبوعية لتخبرني «تأجيل الخطط لبناء عقار سكني في حرج في بليث فالي»؛ أصبحت اليوم هذه الصحيفة صحيفة حرة بالعنوان الخالد «نيوز بوست ليدر».

توجهت بالسيارة صوب محكمة الجنح القديمة وغايتسهاد، ذهابًا وإيابًا فوق جسور تاين، حيث تصوّرت يومًا حين كنت أرتدي معطفًا واكتشفت أن «رامبلينغ تام» أصبح جزءًا من محطة باصات تحت الأرض، وقد تم «إنعاش» ركام الجفاء في شكل ملحوظ، وأن الدخان اختفى. نعم، اختفى هذا الدخان الهائل والمشحّم والمبلل الذي كنت أتنشّقه ليل نهار، حتى في الحمام البارد. على الأرجح أن للفحم والغاز من دون دخان فوائد عدة؛ أو، كما ظننت بل دون شك، على الأرجح وأن ما من شيء سيبقى للحرق.

عندما توجهت إلى فوق، كان جيم هارلند يستلقي على جداره الأمامي؛ مربّلًا، ملغّدًا، وعيناه حادّتان كالفحم، وما زالت ملامح شون كونري واضحة عليه مع لسانه بالطبع. ودمدم: «أنت الرجل الذي فاتته القصة في ميناء بليث يوم عطلته». أشرقت الشمس. كان أعدّ العمل الخيري السنوي في المدينة واليوم، بسحر ساحر، كان يوم العمل الخيري. كانت هناك سيارة إطفاء ولعبة البولينغ وعرض غناء ورقص لفريق من النسوة البدينات في لباس قديم للجيش

الأميركي، وما زلت أحلّل القصد من ذلك، إضافة إلى جلسة لعبة رمي الكرة في الحوض (التي خسرها فيسك). فضلًا عن ذلك، آباء قساة بوجوه شاحبة وابتسامات حزينة، وعلى أكتافهم حياة كدح قاسية. وأخبرني هارلند أن بليث أصبحت مهجعًا ضخمًا لنيوكاسل. إنها لخسارة أن يهدموا السكة الحديد، لكني أتفهّم جيدًا مسألة النوم.

هارلند رجل كبير. كنا نسمّيه «جيم هارلند الكبير». وفي ما بعد، عمل في «ذي ميرور» ثم قناة «بي بي سي». واصطحبني إلى نادي الفدرالية حيث كانت مقادير الباينت من الجعة تتحرّك مثل الزئبق حول غرفةٍ، ظلَّ فيها عمال المناجم وأحواض بناء السفن السابقون يربحون في لكل أنواع ألعاب البينغو. لم أرَ قط هذا الحجم الهائل العلامات بقيمة ٥ جنيهات، كانت الحياة جيدة بالنسبة إلى هارلند وزوجته روزماري، ثم عدنا إلى منزله، قريبًا من «غرفتي» القديمة، لتناول الغداء. وقال لي: «كان عدد الكلمات بالنسبة إلينا مشكلة في الصحافة. عندما كنت في السادسة عشرة من عمري، تعلّمت أن على المرء أن يقتصد في عدد الكلمات. لم يكن في وسعنا أن نقول «السيدة س. التي تبلغ **٢٣** من العمر»، بل كنت أكتب «السيدة س. البالغة **٢٣** عامًا». ولكن لو قلنا ما نفكّر فيه، لاتهمونا بالتحيّز. كان يمكننا أن نقول «هذا ما رأيته»، وليس «هذا ما شعرت أني رأيته». كان الصحافيون الذين درّبونا صحافيين فعليين، وعلّمونا ما يعلمونه، بالطريقة التي تعلّموا بها».

كانت روزماري تعدّ الغداء في المطبخ، حينما أطلعني هارلند في بطء على معلومات أكثر عن بليث. في رأيه، أن مارغريت ثاتشير وآرثور سكارجيل هما من عرّضا المدينة لأكبر حجم من الأضرار. لكنه علم جيدًا أني لم أكن أعرف ذلك عندما عملت هنا. تحسّن كاتب المدينة الذي كان بمثابة مدرّس كلاسيكي، وعاش قرب غرفتي وتوفي منذ زمن طويل. أما بالنسبة إلى الرئيس في قسم الشرطة، الذي تحرّش به الرجل اللوطي في المحكمة، اللوطي الذي توفي أيضًا منذ زمن طويل، فتعود أن يدق باب المالكين في ساعات الصباح المبكرة

ليشرب كأسًا، وهو يجبرهم على أن يفتحوا أنديتهم الليلية السادسة صباحًا في خدمة رجال الشرطة المحليين الذين انتهت خدمتهم للتو. قال لي هارلند: «لا، لم نكتب ذلك. أطعمنا هؤلاء الأشخاص. ساعدونا. كان رجال الشرطة الذين يرغبون في شرب كأس ما في الصباح الباكر، يزوّدوننا معلومات. اضطررنا إلى أن نتكلم مع الجميع: كاتب المدينة، الشرطة، رجال الإطفاء... وكان ثمة سوء معاملة الأطفال. عدد منها هنا. أمر رهيب. لكن المسؤولين في الخدمات الاجتماعية رفضوا أن يتحدثوا إلينا بحجة أن معلوماتهم سرية ولا يحق لنا أن نحصل على ما اكتسبوه من وقائع. وهكذا، انتشر سوء معاملة الأطفال. اكتشفت حقيقة الوضع فقط عندما سمعت لاعب كريكيت أعرفه يتحدث عن بناته، حين علمت أنه أمر شائع. لكننا نحترم «سرية» الخدمات الاجتماعية. وفي المحكمة، كانت تقاريرنا على هذا النحو: «التصرّف في شكل غير لائق مع قاصر». هذه هي الكلمات التي استخدمناها».

سألت عن منطقة الشرق الأوسط. هل ظنّ هارلند أن «التدريب الذي خضعنا له» على الأرجح هو السبب وراء فشلنا، نحن الصحافيين، عندما لم نواجه خلافات الحكومة المحلية أو محققي الوفيات في المحاكم، بل كارثة تاريخية عظمى؟ وأجاب: «لم أغطِّ قط مأساة عظمى مثل مأساة الشرق الأوسط. يمكنني أن أرى المشكلة، نعم. كيف تجعل الصحافة هنا تمتد إلى الصحافة في تلك المنطقة؟». تطرّق إلى الموضوع في دقة.

يكثر في الشرق الأوسط عدد الصحافيين، كل منهم بخبرته المحلية في المراسلة و«تدريبه»، ومدارس الصحافة التي ارتادها، ويُذكر أن النسخة الأميركية تفوق البريطانية منها سخافة، إذ تستخدم الصيغ المبتذلة والصفات الركيكة لحجب الحقيقة. شاهدوا التلفاز هذا المساء، واقرأوا التقارير الصحافية غدًا؛ نسمع عن «حلقة الإرهاب»، من دون الانحياز إلى أي طرف، أو عن «حالات الاصطدام» (حيث تبقى هويتا الضحية والقاتل مجهولتين)، أو عن «مخاوف مسؤولي الأمن الإسرائيليين». وانتبهوا إلى ربط عبارة «الأمن» بـ «إسرائيل»

دائمًا. وكيف نجحت عبارة «المسؤولين» في أن تنتقل من بليث إلى فلسطين. وكما يقوم المسؤول في الشرطة في بليث بتزويدنا معلومات، كذلك الإسرائيلي، والفلسطيني إلى حدّ أقل بكثير، يزودنا إياها. لا أحد يريد أن يعرقل الأمور، ليكون مثيرًا للجدل. لمَ نكتب تقريرًا عن زوارق بليث إذا كنا سنشهد إنكارًا من مجلس الفحم؟ لماذا نكتب عن طبيعة قتل الإسرائيليين الوحشية للأطفال الذين يرمون الحجارة إذا كنا سنحصل على رسائل غاضبة إلى المحرر؟.

من الأفضل أن نلتزم الصيغ المبتذلة. عن أن «الإرهابيين» العرب يهددون إسرائيل. ويحذّر «مسؤولو الأمن» في إسرائيل عرفات. وطرحنا السؤال نفسه عندما طرحته إسرائيل: هل يمكن عرفات أن «يسيطر» على شعبه؟ وعلى رغم ذلك، عندما قتلت مجموعة من المستعمرين اليهود فلسطينيين مدنيين وطفلًا، لم نسأل هل يمكن شارون أن يسيطر على شعبه. وبما أن الفلسطينيين لم يطرحوا هذا السؤال، لم نطرحه. لزمنا الصمت حينذاك. استمعت إلى الأخبار التي تُذاع عبر الراديو خلال خمسة أيام في الشرق الشمالي وأثناء رحلتي البعيدة عودة إلى لندن. قَتل إسرائيليين انتحاري فلسطيني في بنيامينا. وقام الإسرائيليون بـ «ردّ الصاع» للفلسطينيين فقتلوا أربع مجموعات مسلحة في عملية قتل «مستهدفة». كان المصطلح «مستهدفة» إسرائيليًا. في عبارة أخرى، فرقة قتل. لكن هذا يختلف عما صرّحته قناة الـ «بي بي سي». عندما قتل المستعمرون الفلسطينيين الثلاثة، بمن في ذلك الطفل، قيل إن عناصر الشرطة الإسرائيلية «ضيّقوا نطاق البحث» عن القاتلين.

لا نطرح أبدًا السؤال: لماذا، بل. فقط: ماذا. كتبنا تقريرًا عن إقفال المناجم في بليث. لكن سبق أن تساءلنا عن السبب وراء ضرورة تدمير المناجم. شاهدنا بليث وهي تتدمّر. كتبنا تقريرًا عن اندثارها. وعندما كنت مراسلًا مبتدئًا، شاهدنا لحظاتها الأخيرة بصفتها مدينة الفحم والسفن، إلا أننا لم نحدث أي خدش في قشرة السخام الأسود على جدار نيوكاسل، ولم نسأل لماذا سمح رئيس الوزراء البريطاني بدفن مركز الثورة الصناعية. وافق هارلند على وجود

ثقافة سلطة «القبول» في تلك الأثناء. لم نتحدّ الشرطة أو المجلس أو الخدمات الاجتماعية. قد لا يكونون أصدقاءنا، لكننا احتجنا إليهم. احترمناهم، على نحو غريب. فهم كانوا «المسؤولين»، «الرؤساء». واليوم، نادرًا ما نتحدى الحكومات الودية. يمكننا (ويجب علينا) أن نهاجم دكتاتورية عرفات الفاسدة في فلسطين. ولكن يجب الحفاظ على «توازن» الاعتداءات الإسرائيلية بواسطة الاقتباسات عن «مسؤولي الأمن» الإسرائيليين. أصبح الموجز المسرّ الصادر عن كاتب المجلس أو المسؤول في الشرطة الموجز المسرّ نفسه الصادر عن مكتب الشؤون الخارجية. انظروا كيف جاء ردنّا على موجزات كوسوفو أثناء حرب منظمة خاضها حلف شمال الأطلسي (ناتو). كيف قبلنا. كيف قلّدنا المصطلحات.

يسرّني وجود صحيفة «كرون». أفادني ذلك، كما أفادني جيم هارلند الكبير. جعلني أفهم الحاجة إلى الدقة. وقال لي يومًا: «قل ما ترغب فيه لاحقًا، لكن بحق الله، افهم المقصد في شكل صحيح». لكن بعد المناقشات التي أجريتها معه هذا الشهر، تراكم في رأسي الكثير من المسائل. ماذا قال لي تحديدًا قبل تناول الغداء؟ «لو قلنا ما نفكر فيه، لاتهمونا بالتحيّز». ولا شك في أننا سنعثر يومًا على هؤلاء الصحافيين الذين قبلوا بإهمال موجزات منظمة تحالف شمال الأطلسي (ناتو)، وردّ إسرائيل على قيام فلسطين بـ «الكشف عن» الحقيقة. مثل القصبة المعفّنة، ورجال الشرطة غير الشرفاء، وسوء معاملة الأطفال الفاسدة في بليث، سيستعد جميعهم يومًا ليطلعونا على ما عرفوه فعلًا، ولكن سيكون قد فات الأوان قليلًا على إحداث أي تغيير.

«ذي إندبندنت»، ٤ آب/أغسطس ٢٠٠١

كان من المفترض أن نصغي إلى بن لادن

أنتمي إلى جيل الطلاب الذين لم يتخرجوا بعدُ، والذين يصبّون كل تركيزهم على علم اللغة. لم يمض على جامعة لانكاستر إلا ستان من العمر: صف سنة ١٩٦٧، إذا لم أكن مخطئًا، وكانت إبداعية بقدر ما هي غريبة بعض الشيء. كانت «الغرف» في الواجهة البحرية من موركامب، والمحاضرات في كنيسة محوّلة، والدروس الخصوصية في مصنع حرير قديم. لكن الكتب التي درسناها دائمًا، تضمنت زيليغ هاريس المملّ ونعوم تشومسكي الرائع فيشكل ملحوظ.

كان مشهورًا في تلك الأيام أكثر من اليوم، وهو من علّمني «العنصر الأمامي». ومصطلح «الأمامي» عبارة عن وضع الكلمات في ترتيب معيّن، بحيث تحصل على معنى جديد، أو تعمّد استثناء كلمة ما قد نتوقعها. في الجملة «الرجل الكبير السيئ»، نركّز على حقارة الرجل. ولكن في الجملة «الرجل السيئ الكبير»، نفكّر في الحجم. وضع مصطلح «كبير» في «الأمامية». إن علماء اللغة الفعليين لن يدعموا التحديد أعلاه، إلا أني أخشى أن يحرف الصحافيون الكلام ليوضّحوا المعنى. يبدو أن الأمر مشابه بالنسبة إلى الرؤساء، لأنني أجريت تحليلًا لغويًا في شأن خطاب جورج دبليو بوش الذي وجّهه بفخر كبير إلى الأميركيين بتاريخ ٢٨ حزيران/يونيو، وحصلت على نتائج غريبة. أولًا، بالطبع، استخدامه المصطلحين «الإرهاب» و«الرعب» ثلاثًا وثلاثين مرة. ومن اللافت أكثر استخدامه فئات الإرهابيين الهائلة. إذا قسّمنا خطابه ثمانية أجزاء، يظهر مصطلح «الإرهابيين» أو «الإرهاب»، ثماني مرات في الجزء الأول، وثماني مرات في الجزء الثاني، وثلاث مرات في الجزء الثالث، وتسع مرات في الجزء الرابع، ومرتين في الجزء الخامس، وغيابه من

الجزء السادس، وثلاث مرات في الجزء السابع، وغيابه أيضًا في الجزء الثامن.

في الأعمدة التي خلت من عبارة «الرعب»، نجد عددًا من الصيغ المبتذلة المختلفة: التحدي، دستور جيد (الدستور العراقي، بالطبع)، فرصة التصويت، مجتمع حرّ، بعض الحقائق (ولن أهينكم بإخباركم من أين اختلست هذه العبارة)، الدفاع عن حريتنا، رفع الراية، نقاط أساسية هائلة في قصة الحرية، الانتصار (إحدى الكلمات المفضلة لدى تشرشل)، لا مكانة أعلى. وإذا لجأنا إلى أسلوب تشومسكي، يبدأ خطاب بوش بتخويف الحضور إلى حد الموت بالإرهاب، وينتهي في شكل عنفواني من خلال اصطحابهم إلى ثقة وطنية بانتصار بلدهم المستقبلي. في الواقع، هذا ليس بخطاب. هذا أشبه بسيناريو فيلم، ونص سينمائي: فالرجال الأشرار هم شريرون بالفعل، لكنهم سينالون عقابهم بانتصار الرجال الصالحين.

كانت العناصر الأخرى في خطاب بوش غير صادقة في شكل مثير للشفقة بالطبع. يتخطّى بوش الحدود عندما يدّعي أن «الإرهابيين» يريدون أن «يطيحوا بالحكومات»، فيما الرجال الذين يفعلون ذلك حقيقة، في أفغانستان والعراق، هم، «إحمّ، إحمّ، الأميركيون». تتعدّد مراجع طبيعة «العدو» الشريرة: الطغيان، القمع، التخلّف، والترتيب القديم والنسخة الجديدة والغريبة لكذبة ١١ أيلول/ سبتمبر العراقية. وبدلًا من تحالف صدام غير الموجود مع «القاعدة»، لدينا اليوم ادّعاء بوش، ومفاده أن «الإرهابيين العراقيين الذين يقتلون الأبرياء، رجالًا ونساءً، وأطفالًا في شوارع بغداد، يتبعون أيديولوجية الإجرام نفسها التي أودت بحياة المواطنين في بلدنا» في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. والمفارقة، يبدو أن نظام حكم صدام لم يعد معنيًا بهذه الاعتداءات؛ إذ، اليومهم متمرّدو ما بعد حكم صدام الذين يشكلون جزءًا من العصابة نفسها.

غريب ألا يعير البيت الأبيض، الذي يصوغ نصوصًا سينمائية، اهتمامًا بما

قاله أسامة بن لادن. كل مرة يتكلم بن لادن، لا يكلّف أحد خاطره بأن يصغي إلى خطابه. فالأسئلة التي تُطرح هي: «هل كان هو؟ هل هو على قيد الحياة؟ أين هو؟»، ولكن لا يُطرح أبدًا السؤال: «ماذا قال؟». وهذا أمر شديد الخطورة. قال لي يومًا أسامة بن لادن، الذي يكره صدام شخصيًا، إنه اتصل بأتباعه، وطلب منهم القتال إلى جانب قوى عراقية، بما في ذلك «الاشتراكيون» البعثيون العراقيون التابعون لصدام. وحدث ذلك حين امتزج جيش عصابات الحرب المستقبلية في العراق مع المفجرين الانتحاريين فيه، في رسالة قد تحدث الانفجار الذي سيلتهم الغرب في العراق. ولم ننتبه إلى ذلك. راوغ «الاختصاصيون» الأميركيون في التحدث هل بن لادن على قيد الحياة، وليس ما قاله. ولمرة واحدة فقط، فهم بوش المقصد، ولكن بعد فوات الأوان. كما يُقال دومًا، من الضروري قراءة النص.

وثمة جورج تينيت، مدير وكالة الاستخبارات المركزية، الذي يشبه إيرنست بورغناين، والذي كان يجلس خلف كولين باول في الأمم المتحدة بينما كان وزير الخارجية الأميركي يتفوّه بتلك الأكاذيب عن أسلحة الدمار الشامل في شباط/فبراير ٢٠٠٣. وتبين اليوم أن جورج غاضب إلى حد كبير من البيت الأبيض، مصرّحًا أنه لم يشِر إلى إثبات قاطع عن أسلحة الدمار الشامل. وقصد بذلك قدرة الحكومة الأميركية على إقناع الشعب الأميركي بشنّ الحرب وفقًا لهذه الأكاذيب. بعبارة أخرى، لم يكن يكذب على الرئيس الأميركي. كان يكذب على الشعب الأميركي فحسب.

صُدمتُ بهذا الخبر الشهر الماضي عندما لفتتني إحدى أكاذيب طوني بلير في صحيفتي المحلية في بيروت. صيغت هذه الكذبة تحت عنوان: «الإصلاحات السعودية تخسر الزخم»؛ وهي بالطبع إحدى القصص غير العادية وغير الضرورية في الصحافة العربية. وحيث تم اقتباس رئيس الوزراء العزيز في بلدنا، معبرًا عن غضبه الشديد إثر منع لجنة المراجعة له من ترحيل مواطنين جزائريين لأن حكومتهما اتّبعت «نظامًا سياسيًا مختلفًا». والعنصر «الأمامي»، بالطبع، هو

المصطلح «مختلف». هنا تكمن الكذبة، لأن اللجنة رفضت عودة هذين الرجلين إلى بلدهما، ليس بسبب النظام السياسي «المختلف» المعتمد في الجزائر، كما يعلم بلير جيدًا، بل لأن «النظام» الجزائري يسمح بتعذيب سجنائه.

استجوبتُ بنفسي رجالًا ونساءً في الشرطة الجزائرية أُفسدوا من خلال مشاهدتهم الإرهاب: قالت لي امرأة شرطية إنها أصبحت تحبّ مشاهدة أفلام الرعب لأنها تذكّرها بالتعذيب البغيض الذي أُجبرت على مشاهدته في مخفر شاتونوف في مدينة الجزائر، حيث تضخّ الماء في لشروج السجينات إلى أن يمتن. ما زلت أذكر الرسالة الخبيثة والاستغلالية التي أرسلها السفير الجزائري في لندن إلى «ذي إندبندنت» ساخرًا من السيدة خروي التي كسرت رجلها أثناء التعذيب. وصرّح هذا الرجل أنها كانت «إرهابية». هذا هو النظام السياسي «المختلف» الذي أشار إليه بلير. وفي المناسبة، لم تخرج سيدة خروي من السجن، فقد قتلها معذبوها.

يعلم بلير أن عناصر قوات الأمن في الجزائر يغتصبون النساء إلى أن يمتن. لذا، كيف يجرؤ على الكذب في شأن النظام السياسي «المختلف» الذي يسمح للموظفين في الشرطة بأن يُقْدموا على اغتصاب النسوة؟ تعودنا، نحن الأوروبيين اليوم، أن نكذب في شأن هذه المسألة. فلنأخذ الحكومة البلجيكية على سبيل المثال، فهي رحلت بواصرية بن عثمان إلى الجزائر في ١٥ تموز/يوليو ١٩٩٦ على أساس أنه لن يكون في خطر إذا أعيد إلى بلده. وقد توفي وهو تحت عهدة الشرطة في مستغانم. نظام سياسي «مختلف» بالطبع!

وأمامي الآن خطاب «الوداع» البغيض الذي تفوّه به بلير في سيدجفيلد، متوجهًا من خلاله إلى الشعب البريطاني. إعطاء الأولوية للبلد لا يعني «القيام بما هو صحيح، وفقًا للاعتقاد العام التقليدي» (عنصر تشومسكي الأمامي: التقليدي)، أو «الاتفاق المعتمد» (عنصر تشومسكي الأمامي: المعتمد)، بل يعني «ما تعتقده صحيحًا بحق» (عنصر تشومسكي الأمامي: بحق). أراد «بلير

لورد كوت العمارة»، أن يتضامن «جنبًا إلى جنب» مع أقدم حليف لبريطانيا، معتقدًا أنه الولايات المتحدة الأميركية (في الواقع، هو البرتغال، لكن لا أهمية لذلك). قال لنا: «فعلت ذلك عن اقتناع». العنصر الأمامي: اقتناع. هل يشاطرني أحدهم شعور النفور حيال هذا الأمر؟ «قد تكون السياسة فن الممكن (العنصر الأمامي: قد)، ولكن، امنحوا هذا الممكن فرصة، أقلّه في الحياة». ماذا يعني ذلك؟ هل يعتمد بلير القداسة تحت شعار الغاية تبرر الوسيلة؟ «أقسم إني فعلت ما ظننته صحيحًا». عذرًا؟ هل هذه هي رسالة بلير إلى عائلات مئات الجنود الذين قُتلوا، وعائلات آلاف العراقيين الذين سقطوا؟ يقول لنا هذا الرجل إنه لـ «شرف» «خدمة» بريطانيا. يا للوقاحة.

نعم، يجب أن أقر بإيرلندا الشمالية. حبّذا لو التزم بلير هذا المقدار من الإنجازات. حبّذا لو قبل أن ينتهي دوره عند إنهاء ٨٠٠ سنة من الصراع الإنكليزي - الإيرلندي. ولكن لا. أراد أن يكون مخلّصنا، وسمح لجورج بوش بأن يقوم بهذه الأمور، كما قد يراها أوليفر كروموِيل أمرًا عاديًا: التعذيب. الإرهاب. الاغتصاب.

كان والدي يسمّي الأشخاص أمثال بلير بـ «تويرب» (التافه)، وأعتقد أن هذا المصطلح يعني حشرة الأذن الحامل. لكن بلير ليس بحشرة أذن. أخشى إلى حد كبير، أنه رجل صغير شرير. وأتذكر تصريح كرومويل إلى البرلمان سنة ١٦٥٣، والذي كرّره، بهذه الحكمة، ليو آميري إلى تشمبرلين سنة ١٩٤٠: «أطلت البقاء هنا نسبة إلى أي عمل خير كنت تقوم به. اذهب، أقول، لنرتاح منك. بحق الله، اذهب».

«ذي إندبندنت«، ٢ تموز/يوليو ٢٠٠٥، و١٩ أيار/مايو ٢٠٠٧

بعد مرور عقد من الزمن على تولّيه السلطة، استقال طوني بلير من منصبه كرئيس للوزراء في بريطانيا في ٢٧ حزيران/يونيو ٢٠٠٧، ليصبح مبعوث «السلام» إلى الشرق الأوسط. سخرية لم يضيّعها العرب الذين ألقوا اللوم على

كلّ من بلير وجورج دبليو بوش في شأن كارثة اجتياح العراق سنة ٢٠٠٣، ومعاناة المسلمين الرهيبة منذ أن بدأ صدام حسين الحرب التي دعمها الغرب ثماني سنوات ضد إيران سنة ١٩٨٠.

مرض الرطانة

تلقيت يومًا دعوة إلى إلقاء محاضرة في «جامعة الامتياز». نسيت موقع الأكاديمية تحديدًا، أظن أنه في الأردن، لكنني أتذكر في وضوح أن موضوع المحاضرة المقترح كان غامضًا بالنسبة إليّ بمقدار ما سيكون بالنسبة إلى الحضور من دون شك. رفضت الدعوة. واستلمت هذا الأسبوع دعوة أخرى؛ هذه المرة للانضمام إلى «ممارسي الأخلاقيات» بهدف «المشاركة في الممارسات المرتكزة على الإثباتات في شأن التعامل مع الممارسات الأخلاقية» حول العالم. ماذا يعني هذا بحق الله؟

خسر مصطلح «الامتياز» قيمته منذ زمن بعيد بسبب العالم المشترك. إذ لطالما كان مصطلحه المفضّل «النوعية والامتياز»، وترافقه دومًا العبارة «بيان المهمة». هذه المطالبة بالأهمية الذاتية التي طمح إليها روبين كوك، عندما كان وزير خارجية (تم التخلص منه سريعًا عندما قرر بيع طائرات من إندونيسيا)، ولاحقًا كل شركة تصدير وصحيفة مبتدئة في العالم.

ثمة أمر يدعو إلى الاشمئزاز في ما يتعلق بهذا المعجم: لغة فوقية وحشية حيث يمكن «اللاعبين الأساسيين» «التفاعل» بعضهم مع بعض، أو «التأثير» في المجتمع، أو «استنباط» أعمالهم، أو «تقليل» عدد موظفيهم. يحتاجون إلى «الخلفية» و«إدخال المعلومات». يفكرون «خارج النطاق»، أو «يدفعون المحتوى». لديهم «مكان عمل» لا مكتب. يحتاجون إلى «مكان شخصي». هم في حاجة إلى أن يبقوا بمفردهم، وأحيانًا يحتاجون إلى «الوقت والمكان». يتكاثر الطلب على هذا المكان عندما تنهار الحياة الزوجية. تخلق هذه الأكاذيب وهذه التشويهات شعورًا مغيظًا. يعني «التقليل» من عدد الموظفين، طردهم.

و«الاستنباط» يشير إلى إيجاد غيرهم لتنفيذ أعمالهم الوسخة. وتعني «الخلفية» «الجواب». وإدخال المعلومات» يدل إلى النصائح». أوليس «التفكير خارج النطاق»، يعني أن يكون المرء «خياليًّا»؟

أن يكون المرء «لاعبًا رئيسًا»، يعني أن يكون نوعًا من التبجيل الذاتي. ولهذا السبب، أرفض أن أكون «متحدثًا أساسيًّا»، وخصوصًا إذا عنى ذلك المشاركة في «ورشة عمل». في نظري، تعني ورشة العمل ما تعنيه. في أيام المدرسة، كانت تمثل محل النجارة، حيث حاول أجيال من الأساتذة أن يعلّموا فيسك، من دون جدوى، أن يبني كرسيًّا، أو طاولة من خشب لن تنهار حين يفرغ من العمل فيها. واليوم، تعني ورشة العمل - ويجب ألا نقول هذا - مجموعة من الأكاديميين المملّين الذين يثرثرون عن لغة الأنثروبولوجيا السرية، أو يتكلمون على «الحساسية الثقافية»، أو «المسائل الأساسية»، أو «المجازات». على الأرجح، هؤلاء هم من اخترعوا كلام الأمم المتحدة على الإنسانية. ومن هذا الكلام، أفضّل ذلك الموجّه إلى أي لاجئ يائس مستعد (في مقابل القليل) لأن يُقنع زملاءه الضحايا بالتقيّد برغبات الأمم المتحدة في التخلي عن خيمهم والعودة إلى منازلهم الخطيرة التي أتلفتها الحرب. وتشير الأمم المتحدة إلى هؤلاء المستشارين المشؤومين بـ «الناشطين الاجتماعيين».

إن هذه اللغة عبارة عن مرض التقطه أحد وزراء العمل الجديد في بلدنا على قناة «بي بي سي»، الأسبوع الماضي، عندما تكلم على «نتائج البيئة الثانوية». على الأرجح أنه قصد بذلك «المناخ». وفي شكل مشابه، حذّر مهندس أعرفه، أحد عملائه من تأثير «بيئة الملوحة الهائلة» في منزل مبنيّ إلى جانب البحر. إذا بدت هذه النصيحة غامضة، نكون قد كوّنا آراء «متضاربة»، أو، في شكل أسوأ، «متوترة» في شأنها. وأتساءل: من اخترع الفعل المتعدّي الخاطئ؟ في شمال العراق سنة ١٩٩١، طلبت مني عاملة اجتماعية من «لجنة الإنقاذ الدولية»، أن أغادر الغرفة الوحيدة المتوافرة في مدينة زاخو المدمّرة لأنها تم حُجزت لزملائها الموظفين الذين كانوا يعانون «توترًا» شديدًا. وفكّرت

في نفسي: يا لهم من مساكين. كانوا يعانون «توترًا»، وهم يحاولون، من دون شك، أن «يحلوا» المأزق الذين يواجهونه، سعيًا إلى «التغلّب على المشكلة».

هذه لغة علاج تسعى أعمال الغش والأكاذيب جاهدة كي تهرب منها. وهكذا، ادّعى المتحدث الرسمي باسم الرئيس كلينتون، بعدما اعترف بعلاقته بمونيكا لوينسكي، بأنه كان «يسعى إلى الخاتمة». وكما هي حال كثر من رجال السياسة الكاذبين، شعر كلينتون ضرورة «المضي قدمًا»، كما سيشعر رئيس الوزراء بلير من دون شك حيال مجزرته الرهيبة في العراق عندما سيغادر رئاسة الوزراء. وكذلك، يعلن أساتذتنا الثرثارون في علم النفس، رجالًا ونساءً - نعم، فثمة مشكلة دلالية هنا أيضًا، أليس كذلك؟ - بعد الحرب، أن وقت «العلاج» قدرت الوصفة نفسها الموزعة على العائلات التي تعاني «عضلًا»، والتي تعيش في عالم «لايوتوبي». نعم، «لايوتوبي»، هي كلمة جيدة جدًا: هي ضد «يوتوبي»، لكنها مثل كلمتي «يدرك» و«الإدراك» (أحبّهما يومًا جوناثون ديمبليبي كثيرًا)، أصبحت شائعة لأنها تبدو مبهمة.

من جهة أخرى، تُستخدَم الجمل الشعبية الجديدة، مثل «نقطة التحول»، المستعملة في شأن نزاعات الشرق الأوسط عندما يكون الرجال الأشرار على وشك الخسارة، أو «الصورة الأهم» حيث كان من الضروري تذكير الأخلاقيين بالخير الأعظم. هذه الجمل شائعة فقط لا غير. والبعض الآخر قديم في بساطة. لطالما كانت عبارتا «التماسك» و«العبودية» محطّ التباس بالنسبة إليّ، وكذلك الأمر في ما يتعلق بـ «الوقت الممتع» وتصنيف «الطوفي» الشعبي. لطالما ظننت أن مصطلح «الزيادة» كلمة مقبولة جدًا إلى أن اكتشفت أن في سياق كلام البنتاغون العسكري على الجنس، يعاني العراق «موجة» من العنف إلى أن يصل «اندفاع» من الجنود الإضافيين إلى بغداد.

بالطبع، يختلف ذلك عن «الأشخاص الأغبياء» اللاجنسيين الذين يجب أن «نتعامل معهم» اليوم - «الكاتب» لـ «الكاتبة»، على سبيل المثال، «الممثل»

لـ «الممثلة» -، أو المدى اللغوي الذي من الضروري أن نلجأ إليه لنتجنّب الإساءة إلى المواطنين في لندن الذين يتكلمون الكوكنية: كما نعلم جميعنا - نحن الذين ننتمي إلى الوطن الأم بالطبع فحسب - هؤلاء الأشخاص الذين يتكلمون اللغة الإنكليزية «الخورية». ويذكّرني هذا الأمر بهؤلاء الأميركيين الفقراء في ديترويت، الذين تجنبوا أن يتمنوا لي عيدًا سعيدًا السنة الماضية، خوفًا وذعرًا. أنشدوا جميعهم «عطلة سعيدة!»، إلى أن رددتُ بصرخة بعبارة «عيد مجيد!». في المناسبة، في بيروت، نتبادل جميعنا الأماني «عيدًا مجيدًا» و«عيدًا سعيدًا»، سواء أكان أصدقاؤنا مسلمين أم مسيحيين. هل هذه «مسألة شديدة الأهمية»، كما سأل يومًا منتج تلفزيوني إيرلندي زميلًا له عن حدث إخباري؟

أخشى ذلك. إذ لم نعد نستخدم الكلمات بعد الآن. نستخدمها، لتأثيرها بدلًا من معناها، للهرب. نصبح شيئًا فشيئًا «لاأدريين»، كما يصف المواطنون في نيويورك الأطفال الذين لا يكترثون إذا ما شاهدوا الأفلام في السينما، أو عبر هواتفهم الخلوية. ماذا كان يقرأ؟ سأل بولونيوس ملكه. «كلمات، كلمات، كلمات»، أجابه هامليت. حبّذا لو...

«ذي إندبندنت»، ١٣ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

الأكاديميون السامّون وكلامهم الفارغ على الاستبعاد

توجه الحكيم الأنثروبولوجي العظيم مايكل غيلسنان ليُلقي محاضرة في الجامعة الأميركية في بيروت، معقل العلم الهائل، الذي يبدو أنه تأسس على أيدي المرتعدين خلال النزاع الذي نشأ بين اللبنانيين المسيحيين والدروز في القرن التاسع عشر. ويُذكر أن مايكل غيلسنان ألف كتاب «أسياد المستنقعات اللبنانية» الذي كان على وشك أن يشعل حربًا أهلية صغيرة في شمال لبنان. كان موضوع غيلسنان مبهمًا بما فيه الكفاية: هجرة العرب إلى المكان الذي لا يزال مكتب الشؤون الخارجية يسميه «الشرق الأقصى». يبدو أن المهاجرين، في معظمهم، أتوا من شبه الجزيرة العربية، وتحديدًا من منطقة حضرموت الجبلية في اليمن. وتحت الحكم البريطاني، ازدهروا، واشتروا الأراضي، وتركوا ميراثًا. وعندما استقرّوا، أثبتت النساء العربيات الأكثر ثراءً، مكانتهن في هذا العالم الجديد، وشققن طريقهن إلى الخلافات القانونية.

أمر هائل بكامله. ولكن عندما حان وقت طرح الأسئلة، سُئل غيلسنان عن المسائل «الأخوالية» في سنغافورة الاستعمارية. أغمضتُ عينيّ. لم أجد في قاموسي، المصطلح «أخوالية»، ولن أجده. إنه جزء من لغة الأكاديميين السرية - خصوصًا الأنثروبولوجيين منهم - وهذا الأمر بمثابة تهرّب. علينا، نحن المغفلين المساكين، ألا نتدخل في تلك الأمور المدّعية. أعتقد أن هذا هو المقصد. أذكر تلميذة عبّرت لي يومًا عن غضبها من مدرّس الأنثروبولوجيا الذي يستخدم مصطلحات مثل «إيميك» و«إيتيك» في محاولة لإرباكها، وما زلت حتى اليوم أجهل معانيها، والقرّاء مدعوون إلى الإجابة.

لا تقتربوا، تقول لنا هذه المصطلحات. هذا أمر لا يمكنكم فهمه، وأنتم على هذا المقدار من الذكاء، كما قالت لي أستاذة في اللغة الفرنسية في شكل

واضح هذا الأسبوع: «إذا لم نصُغ مقصدنا جيدًا في هذه اللغة السخيفة، فسيُقال لنا إننا صحافيون». هذه هي المشكلة إذًا. إنه الخير ضد الشر، هم أم نحن، المنح الجامعية أم الصحافة الوسخة. هذه ظاهرة جديدة وخطيرة، لغة محظورة قد تكون نمت في الجامعات على مر السنوات العشرين السابقة. في الواقع، يمكن أي رجل وامرأة غير مثقفين جامعيًا، أن يختارا بحثًا أو أطروحة دكتوراه في العشرينات أو الثلاثينات، ويمكنهما أن يفهما المعنى، بغض النظر عن درجة الموضوع الهيغلية. هذا أمر غير ممكن بعد الآن.

منذ ثلاث سنوات تقريبًا، وصل إليَّ مثال جيد عن هذا الأمر من مارك جوبين، وهو أستاذ مساعد زائر في الدبلوماسية الدولية في كلية فليتشير في جامعة تافتس، ومدرّس زائر في برنامج التفاوض في هارفرد. استلمت كتابه الأخير لأغراض المراجعة تحت عنوان: «الحرب المقدسة، السلام المقدس: كيف يمكن الدين أن يفرض السلام في الشرق الأوسط». قد تظنون أنه عنوان واعد. لكن، أعيدوا التفكير. لبعض الصفحات، «تعرّضتُ» للمداغرة بواسطة «التركيبات المجازية»، و«التركيبات الخلاصية الملفّقة»، و«التركيبات الثقافية الرومنطيقية اللاأخلاقية»، و«البداهة الحوارية الأساسية»، و«الميول المحفزة للمجتمع». وإليكم كذبة أخرى: «إن أسطورة إبراهيم التي تدور على الراعي المحبّ والله المحب، اللذين يهتمان بشعب مميز، خلقت وطنًا ونظام معنى لملايين الأشخاص». عذرًا؟ نظام معنى؟ يقول الكاتب إنه ترعرع في «روحية إبعادية بوعي الذات». يتحدث عن «التفاعل» بين «التكافلات السياسية الملفّقة» و«عملية الاختلاط مع الآخر الإنسانية والنفسية والكلية الوجود». يريد أن «يطرح مشكلة» التدخل على مستويات «النخبة». كان الحاخام، الذي شعرت الأسى تجاهه، «زاخرًا بالتناقض»، ما أثبت على ما يبدو أن «التنافر الإدراكي جيد للنزاعات التي لا يمكن تعقّبها». في الواقع، كان يستغفلني. وثمة المزيد: «الإصابات الحوارية»، و«المغلّف الثقافي»، و«الديناميكيات النفسية ضمن العائلة»، و«البنية الغنية للإمكانية التفسيرية»، و«الحواجز للهوية الروحية»،

وبالطبع، العبارة القديمة المفضلة لديّ «التبادل الاجتماعي». ويظهر أيضًا تعبير «الدفاع الجدلي»، إضافة إلى «الاختلاط مع الآخر المضطهد»، ونشاطات أخرى من «الاختلاط مع الآخر»، بما في ذلك الإشارة إلى «تحوّل التركيبات الإدراكية القديمة في شكل جدير بالثناء، بمثابة نهاية للاختلاط مع الآخر: إعادة خلق الأساطير».

والمثير للاهتمام أن الأستاذ جوبين اختار أن يبعث برسالة إلى الرئيس كلينتون، طبعها في كتابه، مستخدمًا اللغة الإنكليزية المفهومة بالطبع إلى حد كبير، وحتمًا حصل على ردّ من النذل العجوز. اقترح الأستاذ الطيّب وجوب أن تُعقد الاجتماعات بين القادة اليهود والمسلمين في شكل علني برئاسة كلينتون، وتُخلق «قوة جديدة لفرض السلام». ومن الملاحظ غياب «التركيبات» هنا. غياب نشاطات «الاختلاط مع الآخر»، أو «نظام معنى»، أو «التناقضات»، لأن من الواضح أن جوبين أدرك أنّ هراءه الأكاديمي لن يتخطى غرفة بريد البيت الأبيض.

فلماذا هذه اللغة الأكاديمية المستحيلة؟ نحصل على معلومات عندما يقارن جوبين «مبادئ اللباس والسلوك في البنتاغون» بـ «مبادئ الخطاب والسلوك المعقّد إلى حد كبير في الأكاديمية». نعم، على ذوي الجامعة أن يكونوا معقّدين، أليس كذلك؟ يجب أن يتكلموا لغة لن يفهمها الآخرون - ربما الصحافيون؟ - في بساطة. وبهدف دخول هذه الدائرة الفريدة من نوعها من الرجال والنساء الأذكياء، على الجميع أن يتعلّموا لغتها السرية ما لم يتمكّن المتطفّلون من التسلّل خلسة عبر الباب. قد يكون ذلك ظهر كدرع وقائية من التدخل السياسي في المستوى الأكاديمي، محاولة لجعل التدريس لااختراقيًا، فيعجز أي عضو في البرلمان أو في الكونغرس أو سيناتور، عن ادّعاء التحيّز السياسي داخل الصف، لأنهم لن يفهموا المحاضر على الإطلاق.

لكني أعتقد أن الأمر يتعلّق بـ«التنفجية». أذكر أستاذة في جامعة جورج

مايسون كانت تشكو من أن «معظم الأشخاص» - وقصدت بذلك سائقي الشاحنات وأفراد طاقم أمتراك وكلّ من لم يعترض على حرب العراق - «لم يحصلوا على ما يكفي من المعلومات». في الواقع، لم أُفاجأ. أساتذة الجامعة، خصوصًا في أميركا، ماهرون في «مشابكة» بعضهم بعضًا، لكنهم فاشلون في التواصل مع غالبية العالم الباقي، بما في ذلك هؤلاء الذين يلملمون نفاياتهم ويسلّمونهم غسيلهم ويطهون لهم. بعد إلقاء المحاضرة في جامعة أخرى في أميركا، سألني أحد الحضور كيف يمكن الجامعات أن تؤثّر في المجتمع في شكل أكبر. وأجبته أن عليها أن تخفّف من استخدام ما أسمّيه «اللغة الأكاديمية السامة». وعليه، صفّق التلاميذ، بينما لزم موظفو الجامعة الصمت راسمين على وجوههم علامات التجهّم حيال هذه الملاحظة.

لا، لا أقول إن الأساتذة جميعهم يستخدمون هذه اللغة. لا وجود للغة السرية في أعمال إدوارد سعيد أو آفي شلايم أو مارتين جيلبرت أو نعوم تشومسكي. لكنها تكبر وتزيد سوءًا، وأعتقد أن التلاميذ فحسب من يستطيعون اليوم أن يثوروا عليها. كل مرة، يتحدثون عن «إيميكس» و«التركيبات»، أو «الإمكانات التفسيرية»، يجب أن يخرج التلاميذ من الصف، ويصرخوا بردّ وينستون تشرتشل الشهير: «هذه لغة إنكليزية لا يسعني أن أتحمّلها».

«ذي إندبندنت»، ١٤ أيار/مايو ٢٠٠٥

الكلمات الرقيقة... الأسئلة الصعبة

عندما عملت في صحيفة «تايمز»، في الأيام الحرة ما قبل موردوخ، استمتعت بالحياة كمراسل في الشرق الأوسط برئاسة محرّر أخبار ملتح أجنبي، اسمه إيفان بارنز. كان هذا الرجل العبقري الذي يتحلّى بروح الفكاهة. وما زال معنا لحسن الحظ، خبيرًا في الكلمات المراوغة وتعابير التهرّب والخدع الدلالية. بين الأسئلة المفضلة لديه: ما رأيك في الرجل الذي يبدأ خطابه بعبارة، «لأكون صريحًا معكم بالكامل؟». يمكنكم أن تفهموا مقصده «إذا وعدكم أحدهم بأن يكون صريحًا معكم، بالكامل، فماذا كان يفعل في الوقت الباقي؟». هذا ما قد يطرحه بارنز. «أما بالنسبة إلى كلمة بالكامل...». من حيث التوازن، فأوافق على أن تكون الكلمة المفتاح «بالكامل». فهي تعني العرقين الأبيض والسود بأكملهما. كذلك لاحظت أنها بين الكلمات التي يفضّلها بلير، إضافة إلى «إطلاقًا». فبلير صريح معنا بالكامل، وإطلاقًا. لطالما كان مقتنعًا مئة في المئة، بأنه على حق في اجتياح العراق (حتى لو كان بقية العالم معارضًا ذلك). وهو واثق بتكامله في شكل كامل ومطلق. وأدعو ذلك بعامل «الكلام الفارغ».

وانفجرت تحذيرات فيسك الرادارية هذا الأسبوع، عندما أخبرنا بلير «أن علينا أن نوجّه حسّ الشكوى الخاطئ بالكامل الذي يشعره المسلمون حيال الغرب». «بالكامل». إن «حس الشكوى» الذي يشعره المسلمون - كان من الأفضل استخدام مصطلح الغيظ - خاطئ «بالكامل». أليس كذلك؟ نحن نُلحق الضرر بأفغانستان، وندمّر مئات آلاف الأشخاص في العراق. واليوم، لأميركا حضور عسكري في تركيا وأوزبكستان وكازاخستان وأفغانستان والعراق والأردن ومصر والجزائر وقطر والبحرين والكويت واليمن وعُمان، وشكوى المسلمين

خاطئة «بالكامل». لا، اطلعوا على بيان بلير مجددًا. إنه لا يقترح حتى وجود الشكوى. إنه «حس» الشكوى الخاطئ. أي شخص يفهم الكذب، يعي تمامًا ما يفهمه بلير جيدًا: لدى المسلمين «حسّ» من الشكوى، وهذا ليس بالأمر الخاطئ على الإطلاق.

ولكن غريب كيف يظن هؤلاء الأشخاص أنهم يستطيعون أن يتهرّبوا من أعمالهم هذه. على سبيل المثال، أستاذي ألان ديرشويتز، وصديقي الحميم منذ وقت طويل، قال لي مساء حادث ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، إنني «رجل خطير» لأني طرحت السؤال: «لماذا»، عن الجرائم الدولية المرتكبة ضد الإنسانية في الولايات المتحدة الأميركية. هذا الأسبوع، في مقال نُشِر في «ذي إندبندنت»، ظهر ديرشويتز من جديد. استمتعت خصوصًا بوصفه تعذيبًا عسكريًا أميركيًا: قياسيًا «النجاة من الماء». وصفه بأنه تقنية تُحدث تجربة أقرب إلى الغرق. يا لهذا الكلام الفارغ. بالطبع هي كذلك. قال إنها وسيلة تعذيب. ولكن، لماذا استخدم كلمة «تقنية»؟ لماذا «تُحدث» «تجربة»؟ في الواقع، إنها تجربة غرق شخص ما، وليست تجربة «أقرب إلى الغرق»؛ هذا هو مقصد هذا العمل الشرير.

تعجبني هذه الجمل الأساسية المبعثرة في مقالة ديرشويتز، رقيقة وناعمة: «طبيعة التساؤل المسموح به»، «الوسائل المريبة»، «حرية الاختيار» (في الجملة «من الضروري منح حرية اختيار أكبر للمتسائلين في السياق الوقائي (كذا)»)، «بعض الأحيان، الجهود المفرطة»، وما إلى ذلك. ولاحظوا أنها جميعًا مبنية على بيان مضلّل واحد. «إن أسلحة الدمار الشامل في أيدي الإرهابيين الانتحاريين من دون خوف من الموت ومن دون وطن، أبطلت التهديد الرادع بالثأر الهائل». صحيح، إذا وُجد هؤلاء الأشخاص. ولكن في بساطة، لم نسمع يومًا عن إرهابي انتحاري بسلاح دمار شامل، مثل أسلحة الدمار الشامل في العراق، التي أذكر أنها كانت ستُسلم إلى إرهابيين انتحاريين، فهي غير موجودة. جلّ ما يفعله ديرشويتز في الواقع هو محاولة تغيير القوانين، حتى يمكننا أن

نلجأ إلى التعذيب قانونًا، عندما نواجه هذا الوحش الخرافي؛ هذا المخلوق الذي يُقصد به فعلًا زرع الخوف في قلوبنا (وبالتالي، إقناعنا بالتماشي ودورة أخرى من «النجاة من الماء»).

إن هراء التعذيب هذا بأكمله يجمع الكلمات المراوغة مثل الضحالب. نلاحظ في صحيفة «وول ستريت جورنال» الشهر الفائت، الإشارة إلى التعذيب كـ«تقنيات تساؤل وحشية». وتُرجى ملاحظة تكرار المصطلح «تقنية». أعتقد أنكم يمكنكم الادعاء أن هذا ما كان الجندي الأميركي يطبقّه عندما أقحم جنرالًا عراقيًا في كيس النوم السنة الماضية، وجلس على صدره وقتله. على سبيل المثال، أجيم سيكو، قائد جيش تحرير كوسوفو الوحشي الذي ظهر فجأة رئيس وزراء في كوسوفو، لكنه ما زال مطلوبًا من بلغراد لجرائم الحرب التي ارتكبها. نشرت «فايننشال تايمز» وصفًا رائعًا له منذ أسبوع تقريبًا، فصوّرته «نحيفًا وشابًا... السيد سيكو، البالغ من العمر ٤٤ سنة، أطلق سلطة حاذقة مشتقة من خبرته الواسعة بصفة كونه قائدًا عسكريًا». يا للكلام الفارغ. لا شك في أنه فعل ذلك.

وظهر كريس هيتشنز في الصورة الشهر الماضي، عندما حاول أن يفسّر لمَ لـمْ تعنِ مذبحة أربعة وعشرين مدنيًا عراقيًا في الحديثة، عودة إلى أيام مجازر ماي لاي. فهيا بنا. «غير عادل على رغم أن الافتراض قد يثبت. فلنتخيّل في ١٩ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥، أن جنود البحرية الأميركية في شركة «كيلو» سُحقوا بالفعل وتحرروا في الحديثة...». فهمتم؟ قتل المتمردون رفيق السلاح. فمن الممكن أن الأميركيين «سُحقوا» و«تحرروا». في وقت لاحق، يصف هيتشنز المجزرة في الحديثة «بضع دقائق عنيفة»؛ وفي ما بعد، يتحدث أيضًا عن «جندي ائتلاف يعبّر عن غيظه من خلال الضغط على الزناد». وبعد بضع ثوانٍ، يسترسل في الكلام على «الاهتياج المزعوم». الاهتياج! يا للسخافة. والمقصود بالطبع أن قتل أربعة وعشرين مدنيًا يتطلّب أكثر من مجرّد «إطلاق» الذخيرة. يستلزم الأمر وقتًا طويلًا - وليس «بضع» دقائق - للانتقال من غرفة

إلى أخرى والقضاء على الكثيرين من الأشخاص، وسط الأطفال الذين تعلو صرخاتهم وهم يتعرّضون للذبح، والنساء اللواتي يحاولن حماية أنفسهنّ من القتل. بعض «الاهتياج».

فماذا تستلزم إدارة الأرض في أيامنا هذه؟ سلطة حاذقة، على ما أظن. القليل من «الفائض» و«الكثير من التقنيات»، ومجرّد إطلاق الرصاص، في شكل كامل ومطلق.

«ذي إندبندنت»، ٨ تموز/يوليو ٢٠٠٦

القلم والتيليكس والهاتف والبريد الالكتروني الكريه

أثّر الحاسوب المحمول فينا سلبًا في شكل كبير. أمضيت السنة الماضية وأنا أكتب تاريخًا عن الشرق الأوسط الذي أثبت لي، بعيدًا من جنون الرجال، أن الحاسوب لم يساعد بالضرورة كتاباتنا أو أبحاثنا في شأن أخطاء آباتنا. وبما أني صحافي ما زال يرفض استخدام البريد الالكتروني - إلزام الآخرين كتابة رسائل حقيقية يخفّف من الرسائل الخاطئة لغويًا، والاستغلالية في أغلب الأوقات - من البديهي أن أقول ذلك، أليس كذلك؟ ولكن، بمساعدة باحثتي الخاصة، توغّلت في ٣٨ ٠٠٠ مستند في مكتبتي في شأن كتابي، ولم أستطع التهرّب من فكرة أن «المحمول» ساعدني على إتلاف ملفاتي وذكرياتي، وبالطبع، الكتابة. وبين المستندات، مذكرات مراسلين، صحف، مجلات، قصاصات، بيانات حكومية، رسائل، نسخ عن أرشيفات الحرب العالمية الأولى، صور. صغت مذكراتي عن الحرب الأهلية في لبنان سنة ١٩٧٠ بأسلوب سهل لبِق. قلم حبر بلون الأزرق الشاحب يتحرّك باستقامة عبر الصفحات. أما مذكراتي عن الاجتياح الأميركي للعراق سنة ٢٠٠٣، فهي غير مفهومة - إلا من قبَلي - لأنني عجزت عن مجاراة سرعة المحمول. واكتشفت أني لم أعد أكتب كلمات بل أمثلها؛ أرسم شبهها وأعجز عن قراءتها، لكن يجب أن أفسّرها عندما أدوّنها. كما يجب أن أضيف على الفور أنني أكتب هذا المقال، وأنا في طائرة الخطوط الجوية الفرنسية من بيروت وحتى الآن، وأنا أكتب، ألاحظ أن ثمة أحرفًا وكلمات وتعابير تفوتني، لأنني أعرف ما أريد أن أقوله، لكنه ليس موجودًا في الصفحة.

ارتحت عندما عدت إلى التقارير التي كتبتها عن الاجتياح السوفياتي لأفغانستان عامي ١٩٧٩ - ١٩٨٠، كانت تُسجّل على آلات التلكس - هذه

الآلات القديمة الرائعة التي كانت تثقب الأشرطة - وحتى اليوم، ما زالت الورقة الرقيقة تنهار في يدي. ما زلت أذكر مكتب بريد رسميًا في كابول يستخدم حديد لحام لإلصاق حرف هـ H على آلته، وكونور أوكليري من صحيفة «آيريش تايمز» شاهدٌ على ذلك. لكني ما زلت أحتفظ بكل مذكرة وكل تقرير أرسلتهما إلى أصحاب العمل في تلك الأثناء في «تايمز».

واليوم، نستخدم الهاتف، أو البريد الالكتروني الذي يسهل إلغاؤه، لكن رسائلي إلى لندن، المسجلة عبر التلكس في سنوات الحرب الرهيبة، وكذلك في خضمّ الحرب الإيرانية - العراقية عامي ١٩٨٠ و١٩٨٨، تخبر قصتها بنفسها. عندما كنت أرسل تقارير من القاهرة أو الرياض، «غلطة شنيعة» ارتكبها مكتب أجنبي، إذ حُذفت الفقرة الأخيرة فصيغ العنوان في شكل غير لائق، كان من السهل على صحافي أجنبي أن يسامحها. لكن انبثاقًا من الخطوط الأمامية في إيران في جزر الفاو، والأسلحة والرمي بالقذائف والجثث، كان من الصعب ألا أرى فاصلة صُرِف النظر عن أنها خيانة من صحيفة «تايمز». مسكين المكتب الخارجي، والمراسل. بالطبع، ثمة لحظات سخيفة في «البحث عن الحقيقة» التاريخي هذا. ولم تفهم باحثتي الخاصة، بعد ثلاثة أيام فقط، لماذا شعرت في باالجوع في استمرار في منتصف الصباح، إلى أن لاحظنا أنه بين العامين ١٩٧٦ و١٩٩٠، كنت أجدول رحلاتي حول الشرق الأوسط من خلال تدوين الوجهة والتاريخ على قوائم طعام الخطوط الجوية. بعد تناول كبد الأوز والكافيار والشمبانيا لمدة ثلاثة أيام على التوالي، لم تستطع رفيقتي أن تقرأ. أما من جهتي، فلم أفهم لأسابيع عدة، الاكتئاب العميق الذي كان يلازمني كل مرة آوي إلى الفراش، أو أستيقظ من النوم، بعد ساعات من الكتابة.

كان الجواب سهلًا: أصبحت المذكرات وشرائط التلكس، معًا، أرشيفًا من معاناة الإنسانية والتعذيب واليأس. كصحافي، يمكنكم جدولة هذا الأمر في شكل يومي، والعودة إلى فندقكم، والنسيان، والاستيقاظ في يوم جديد. ولكن، عندما أجمع أشرطة التلكس والمذكرات، تصبح شهادة رهيبة ومقنعة إلى حد

كبير، عن الإنسانية. وها هي النسخ المسجلة في التلكس تتلف بين ملفاتي في آخر الثمانينات لتحلّ محلها السجلات المؤتمتة فجأة. لكنها لا تعمل. لطالما احتفظت بـ «نسخة ورقية» عن تقاريري في «ذي إندبندنت». ظننت أن الإنترنت «المقدّس» سيحافظ على النثر الذي من المفترض أنني قضيت عليه عنى سنذان الأدب. لكن الأمر ليس كذلك. يحتوي مواقع «ويب» كثيرة تنك الأعمال الموقعة «بقلم فيسك» التي وافق عليها مالكوها. والبعض الآخر، على رغم طبيعته القانونية، إلا أنه فوّت تقارير بدت غير عاطفية. أستمتع دومًا بعدد المؤسسات التي تتصل بي في بيروت كل أسبوع، بهدف التأكد من الاقتباسات أو التواريخ أو الوقائع. «غوغل» لا ينفعها، بعكس مكتبة فيسك التذكارية (المطبوعة)، كما يظنون، في شكل صحيح. وهم على حق. كذلك الأمر. اكتشفتُ «وقائع» أخرى مشكوكًا فيها. أمضيت سنوات وأنا أصف الاجتماع الذي عقده طوني كليفتون من «نيوزويك» مع صدام حسين في آخر السبعينات إذ أخذه صدام بنفسه إلى وسط بغداد، بعدما أخبر القائد العظيم أن بعض العراقيين لا يحبونه. قال صدام لكليفتون: «اسأل أي شخص هنا هل يحب رئيسه». وذكرت هذا في تقريري في «ذي إندبندنت». أحتفظ بملفاتي. لكن أخبرني كليفتون السنة الماضية، أن هذا الأمر خطأ. فهو بالطبع أجرى مقابلة مع صدام حسين، لكن الرئيس العراقي ضحك في بساطة سؤال الذي طرحه كليفتون. وقال له أن يتحدث إلى أي عراقي يختاره. لم يصطحبه قط إلى المدينة. أوتش.

أمضى الحاكم الإداري الأميركي الأول في العراق، الجنرال المتقاعد جاي غارنر، الكثير من وقته يسخر من صدام. لكن باحثتي الخاصة تبث مقابلة أجريتها مع غارنر، عندما كان يحمي الأكراد شمال العراق سنة ١٩٩١. إذ ركّز في استمرار على ضرورة «احترام» الغرب حكومة صدام و«منطقة العراق المستقلة». فشلت «الهجمات» التي شنّتها باحثتي الخاصة على «غوغل» في اكتشاف هذه القصة الملحوظة. أشكر لله مذكراتي. أذكر طباعة بعض نثر تشرتشل في شريط التلكس في بهو فندق شيراتون الفخم في دمشق، المجهّز

ببركة في الداخل، بعد القمة العربية المملة التي تخدّر العقل. كذلك أذكر أني نظرت إلى الأعلى لأرى شريطي الورقي يعوم في بركة فندق شيراتون الاصطناعية.

يُقال لنا اليوم إن الرسائل الالكترونية ستحيي فن عالِم التاريخ. أشك في ذلك. يسهل إلغاء الرسائل الالكترونية، وإذا كانت الحكومات كريمة بما فيه الكفاية للحفاظ عليها لأمناء الأرشيف، فسيحتاج علماء التاريخ إلى جيش من الباحثين بأجر عال ليطوفوا عبر هذا المحيط. بعبارة أخرى، يجب أن يكون علماء التاريخ أغنياء ليتمكنوا من الكتابة.

«ذي إندبندنت»، ٥ شباط/فبراير ٢٠٠٥

فن الكتابة المنسي

لطالما اشتكى والدي من شأن كتابتي. كان يقيس كتابته التي كادت تشبه طباعة المحاسب النحاسية، ويحرص على دقتها مع الكثير من الخربشات الصغيرة التي لاحظت لاحقًا استخدامه لها أيضًا في كتابته مذكرات حرب الكتيبة الـ ١٢ أثناء حكم ملك ليفربول في زمن الخنادق سنة ١٩١٨ عندما كان في التاسعة عشرة من عمره. كانت كتابتي، مقارنة به، غير متقنة، وتفوقها سوءًا أيضًا.

ارتحت عندما زرت متحف الأحرف والكتابات في باريس منذ بضعة أيام، حيث اكتشفت أن الأشخاص العظماء والجيدين كتبوا أيضًا بإحباط وغيظ وحزن، وفي شكل غير واضح، في الكثير من الأحيان. لفتتني كتابة نابوليون: يد جندي عنيد، لكن أحيانًا يوقع في بساطة: «ناب». كان تشرشل يرسم أحيانًا خنازير على الرسائل التي كان يرسلها إلى زوجته. واستمتع الفنانون الرائعون في رسم الصور على رسائلهم، ولاحظت أن جان كوكتو لطالما زيّن رسائله بصور وجوه مدهشة. كذلك كتب ماتيس إلى مارتين فابياني في آذار/مارس ١٩٤٣، عبر رسم، عن فتاة تقرأ الصحيفة. وفسّر غوغين يومًا رسالته من خلال رسم أنبوب تلوين ضخم في أسفل الصفحة. من المفترض أنّ الكتابة تخون الشخصية؛ فكتابتي غير مترابطة وغير متوازية ومعجّلة، لكني لاحظت أن كتابة كاثرين دي ميديسيس غير متوازية أحيانًا، وكتابة روبسبير غير واضحة.

إن قراءة الرسائل عن الأبطال المتوفين منذ زمن بعيد، ومحاولاتهم الفكاهية المثيرة للشفقة ولمستهم، لمسة الطالب الساخر، وهم يسافرون عبر الزمن في شكل سيئ، لأمر إنساني مؤلم. في ١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٠،

كتب الجندي الطيار شاو (لورانس العرب) إلى أنثروبولوجي أميركي، اسمه هنري فيلد، توفي سنة ١٩٨٦، سعيًا إلى مناقشة شؤون عربية في بلايموث. أعتقد أن رسالته في يد بسيطة طفولية، مستخدمًا كلمة «أنا» بكثرة مع ربط الأحرف في شكل سليم.

«عزيزي السيد فيلد،: أتمنى أن تكون فائق الثراء، فلا تؤثر فيك كلفة تكبّد المجيء إلى التعاسة في بلايموث (المدينة الأولى أو الأخيرة في إنكلترا، بحسب نصف الكرة حيث توجد). أنا مخادع في ما يتعلق بالشرق الأوسط وعلم الآثار، على حد سواء. منذ بضع سنوات، طاردتهما، كليهما، وأصبحت خبيرًا في شكل عادل، إلا أن الحرب أثرت فيَّ سلبًا. ومنذ تسع سنوات، التحقت بصفوف سلاح الطيران في شكل مريح، ولم أعد مهتمًا بأي مسائل خارج هذا النطاق. فمدة السنوات التسع هذه كفيلة أن تجعلني غير متماشٍ والتطورات، لكنها لا تجعل آرائي قديمة الطراز وغير مثيرة للاهتمام. نسيت كل ما أعرفه أيضًا».

لورانس المسكين، يقلل قيمته دومًا. ظننت بداية أنه يصف نفسه بأنه «صديق» للشرق الأوسط، ولكن عبثًا. هو لأمر «مخادع»، ويسترسل في رسالته، في حين ينصح للسيد فيلد بأن يبحث عنه وسط الحشود في المحطة. «ابحث عن مخلوق صغير ومتقدم في السن ببزة باللون الأزرق الرمادي، وبأزرار صفر: ربما مثل كشاف في «آر أيه سي» أو سائق قطار، لكن أصغر حجمًا وأكثر وزنًا».

يُقام راهنًا في المتحف الفرنسي معرض لسفينة «التايتانيك» ببرقية مرعبة تسجّل وفاة ثوماس ستيد، أحد أهم الصحافيين في عصره. وعبر كتابة كاتب رسمية ومحبوكة، تعبر بـ «أسف شديد» عن «غياب أي أمل على الإطلاق»، في العثور على ستيد وسط الناجين. لطالما كان التعبير «غياب الأمل» قاتلًا، لكن إضافة مصطلح «على الإطلاق»، في نهايته الشنيعة، لا بدّ من أنها تركت متلقي

البرقية في حال صمت. وثمة حديث هيلين تشرتشل كوندي عن الغرق، ضمن مذكرات ناجية كُتبت بعد وقت قصير من المأساة، أحيانًا في فقرات قصيرة إلى حد مفاجئ، كما لو أن السفينة تعود إلى ذاكرتها من جديد وهي تكتب.

كنت في الحمام أستعدّ للاستحمام في الماء الساخنة.

كانت موسيقى المحركات تخفق وتصدح ألحانًا وتناغمًا.

وها هي الصدمة تحلّ بنا.

وصوّر العقل لحظة بناء القوس سريعًا فوق أرارات. كانت الصدمة أسفل مني. أوقعتني. اصطدمنا بقمة جبل في البحر؛ جبل لم يكتشفه أحد من قبل.

مع كسر باب الحجرة، أصيبت الفاجعة بأمرين أو ثلاثة. وحلّ الصمت التام، وساد بريق أضواء كما لو كنا في حفلة، وغياب مطلق لروح إنسان..

في الصفحات التي تلي، بدأت كتابة كوندي تتمايل بينما تصحّح بقلم الحبر وهي تصف نهاية «التايتانيك» من قارب النجاة.

إن المكان الوحيد على سطح السفينة يتمايل عاليًا تجاه الكوثل. وفي هذه النقطة المتضائلة، احتشد الموت المنتظر مع الشجاعة والأسى الفائقين طوال الساعتين الأخيرتين.

انتظرت النهاية المشلّة. إنها محتومة، على أمل أن الله قد يؤجلها. لا، فليسرّعها برحمته.

وأخيرًا نهاية العالم...

وضعت كوندي سطرًا تحت حرف «ن» من النهاية، و«ع» من العالم.

وفي المياه، نُواحٌ ثقيلٌ من شخص واحد تعلو منه ذروة سكرة الموت، وهي تفرض نغمة واحدة.

كتبت كوندي في البداية «سكرة الموت الأخيرة»، لكنها استبدلت بها «ذروة

سكرة الموت»، مثل المؤلف الذي يجوز أن يختار نهاية أخرى للأوبرا المأسوية. كانت كوندي في الثانية عشرة من عمرها عندما هوت «التايتانيك»؛ تصغر والدي بسنة، وكان حينذاك في الثالثة عشرة من عمره عندما غرقت «التايتانيك». إن كتابتهما متشابهة في شكل غريب، الخربشات ذاتها وأسلوبها الأنيق، كما لو كان من الضروري أن تزيّن الكلمات التي كانت تكتبها.

أعتقد أن المحمول قضى على هذا كله. نادرًا ما أستلم رسائل مكتوبة بخط اليد، على رغم أن رسالة واحدة تُصاغ أحيانًا على الآلة الكاتبة الوفية. اليوم، تطير مخيلتنا بسرعة «الويب». وأيضًا، لا يمكن والدي أن يرى كتابتي اليوم.

«ذي إندبندنت»، ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٧

صدقوا، أو لا تصدقوا

عندما كنت طالبًا، أعجبني عمود لطالما كان يُنشر في انتظام في الصحف البريطانية، تحت عنوان «ريبلايز بيليف إت أور نوت! (صدقوا أو لا تصدقوا بقلم ريبلاي)». في زاوية مستطيلة واحدة تحوي صورًا مرسومة في شكل ساذج، يحاول ريبلاي، بوب ريبلاي، أن يبهر قرّاءه بوقائع مذهلة: «صدقوا أو لا تصدقوا، ثمة متحف في كاليفورنيا مصمّم فقط لمستهلكي الحلويات... صدقوا أو لا تصدقوا، يوجد رجل في مقاطعة كيري يحتفظ بليمونة عمرها ٢٥ سنة... صدقوا أو لا تصدقوا، نُشر رماد باحث في المناخ مساء إعصار دانييل على بعد ٤٠٠ ميل من شاطئ ميامي، فلوريدا»... إلخ، إلخ، إلخ. وما زالت أعمدة «صدقوا أو لا تصدقوا بقلم ريبلاي» على قيد الحياة في شكل مبهر. حتى أنها تجمع في متاحف في الولايات المتحدة الأميركية.

وبالطبع، المشكلة هنا. فهذه عبارة عن وقائع غير عادية لا تسيء إلى أحد. لا يوجد مفجرون انتحاريون في عمود ريبلاي، أو ضربات جوية إسرائيلية («صدقوا أو لا تصدقوا، قُتل ١٧,٠٠٠ لبناني وفلسطيني، معظمهم من المدنيين، في الاجتياح الإسرائيلي للبنان سنة ١٩٨٢)، لم تُسجَّل خسائر فادحة («صدقوا أو لا تصدقوا، توفي حوالى ٦٥٠ ٠٠٠ عراقي في السنوات الأربع التي تلت الاجتياح البريطاني - الأميركي للعراق سنة ٢٠٠٣»). هل فهمتم مقصدي؟ في شكل قريب إلى أبعد حدود.

لكني تذكرت ريبلاي القديم العزيز عندما غصتُ في المقالات عن ذكرى الحرب العربية - الإسرائيلية سنة ١٩٦٧. سُجل الكثير من الذكريات، ولكن أعتقد أن الصحافة الفرنسية فحسب، تحديدًا «لوموند ديبلوماتيك»، كانت مستعدة لمواجهة «صدقوا أو لا تصدقوا». فهي تذكّر في شكل واضح - ومعيب - كيف

تولت الصحف العالمية تغطية قضية «عنف» مصر ضد إسرائيل. في الواقع، صدقوا أو لا تصدقوا، كانت إسرائيل من اعتدى على مصر بعدما أغلق الرئيس جمال عبد الناصر مضيق تيران وأمر جنود الأمم المتحدة بمغادرة سيناء وغزة بعد تهديداته بتدمير إسرائيل. «المصريون يهاجمون إسرائيل»، أخبرت «فرانس سوار» قرّاءها في ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧: كذبة كبيرة جدًا غيّرت عنوانها في ما بعد إلى «حرب الشرق الأوسط».

تقريبًا، في اليوم التالي، اختارت صحيفة «لوبوبولار» الاشتراكية لقصتها العنوان «بعدما تعرّضت إسرائيل للهجمات من الأطراف كافة، تقاوم في شكل منتصر». وفي اليوم ذاته، نشرت «لو فيغارو» مقالًا أعلنت فيه «أن انتصار جيش داوود هو أعظم انتصار على الإطلاق». صدقوا أو لا تصدقوا، أن الحرب العالمية الثانية، التي عُدت من أهم الحروب على الإطلاق، انتهت منذ اثنتين وعشرين سنة فقط. جوني هاليداي، مغنّي البوب الفرنسي الخالد، غنّى لـ٥٠٠,٠٠٠ مناصر إسرائيلي ولقي في المقابل الدعم في الصحافة الفرنسية من سيرج غاينسبورغ وجولييت غريكو وإيف مونتان وسيمون سينيوري وفاليري جيسكار ديستان وفرانسوا ميتران. صدقوا أو لا تصدقوا، ويمكنكم التصديق، نال ميتران يومًا من متعاوني فيشي التابعين لبيتان ميدالية فرانسيسك المبتغاة.

انتقل الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول، دون سواه إلى عزلة سياسية عبر إثر قوله في مؤتمر صحافي بعد أشهر عدة إن إسرائيل «تنظّم، على الأراضي التي احتلّتها، احتلالًا لا يمكن أن ينجح من دون قمع وسيطرة وترحيل. وإذا ظهرت أي محاولة مقاومة لها، فستُعد بدورها «إرهابًا». لقيت هذه النبوءة الدقيقة تأنيبًا من «لو نوفيل أوبزرفاتور»، مفاده أن «فرنسا بقيادة ديغول ليس لديها أصدقاء؛ مصالح فحسب». وصدقوا أو لا تصدقوا، باستثناء صحيفة مسيحية صغيرة واحدة، كان ينقص الصحافة الفرنسية بأكملها مصطلح واحد: الفلسطينيون.

وبفضل الأكاديمية أنيست موبي فانسياما، تذكرت هذا الأسبوع، صدقوا أو

لا تصدقوا، أن الجنود الكنغوليين من المستعمرة الأفريقية الغنية جدًّا في بلجيكا، سجلوا انتصارات ضخمة ضد الجنود الإيطاليين في أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية، بينما أسروا ١٥,٠٠٠ سجين بمن في ذلك ٩ جنرالات. سُمُّوا «القوة العامة»، هذا الاسم الذي استثنى في شكل فرح أن هؤلاء الأبطال هم كنغوليون سود. أمر الجيش ١٣,٠٠٠ جندي ومدني بمحاربة مستعمرات فيشي الفرنسية في أفريقيا والموزعة في الشرق الأوسط، استعدادًا لحماية فلسطين والصومال ومدغشقر والهند وبورما. ومرّ كثر من الجنود البريطانيين والأميركيين في الكونغو، بما أن ثرواتها تحولت إلى مصاريف الحرب لحساب الولايات المتحدة الأميركية وبريطانيا. أُسست قاعدة أميركية في كينشاسا لنقل النفط إلى الجنود الحلفاء المحاربين في الشرق الأوسط.

ولكن، صدقوا أو لا تصدقوا، عندما طلبت الاتحادات التجارية الكونغولية زيادة رواتبها، هذه الاتحادات التي كان أعضاؤها مجبرين على تنفيذ أعمال شاقة داخل المستعمرة البلجيكية من خلال نقل السلع الزراعية والصناعية والمعدات العسكرية، على ظهورهم في أغلب الأوقات، ردّت عليهم السلطات البلجيكية بإطلاق النار، قاتلةً خمسين منهم. رُحِّل ٣,٠٠٠ سجين سياسي على الأقل لتنفيذ الأعمال الشاقة في مقاطعة بعيدة في الكونغو. وبالتالي، هل دُفع لهؤلاء الذين أهدروا دماءهم في سبيل انتصار الحلفاء. أم بالأحرى، لم يُدفع لهم؟ لم يُسلَّم مبلغ الـ ٤ مليارات فرنك بلجيكي المستحق للكونغو، ما يعادل اليوم ٥٠٠ مليون جنيه استرليني. صدقوا أو لا تصدقوا.

فلنسترِح، ونعد إلى واقع ريبلاي، نعم، ثمة عواميد جديدة على خطى ريبلاي:

صدقوا أو لا تصدقوا، لدى روسيل بارسون من هوريكين، ويست فيرجينيا، وشم على يده بتعليمات عن دفنه وترميده!

... صدقوا أو لا تصدقوا، في نيسان/ أبريل ٢٠٠٧، د١٤٨

دفعت مجموعة من محبي الحيوانات حوالى ٤٠٠ ٣ دولار لشراء ٣٠٠ محارة من سوق السمك ماين، ثم أعادوها إلى المحيط! صدقوا أو لا تصدقوا، في صالة الانتظار في المستشفى، ثمة ٧٠٪ يعانون بسبب العظام المكسورة، و٧٥٪ متعبون، و٨٠٪ مصابو حرارة.

ما هي نسبة الأشخاص الذين يعانون الأمراض الأربعة هذه؟

صدقوا أو لا تصدقوا، لا أدري. آه نعم، «جيتا، امبراطور روما، بين ١٨٩ و٢١٢ ب.م، صمّم على اعتماد وجبات بديلة من الطعام. قائمة طعام نموذجية: الحجل (بيرديكس)، الطاووس (بافو)، الكرّاث (بوروم)، الفاصوليا (فاصيولي)، الخوخ (بيرسيكا)، زبيبة (برونا)، شمام (بيبون)».

أعتقد بعد ذلك أنكم ستتقيّأون.

«ذي إندبندنت»، ٩ حزيران/ يونيو ٢٠٠٧

القتل هو القتل هو القتل...

ماذا حصل بحق الله لصحافتنا عن الشرق الأوسط؟ لكان أُعجب جورج أورويل بطرد «رويترز» من الخليل في الضفة الغربية الأربعاء الماضي. أعلنت وكالة الأخبار الأكثر شهرة في العالم: «جنود إسرائيليون سرّيون يطلقون النار على عضو من تنظيم حركة حماس قتل، لا بل اغتيل، أمس، ما وصفه الفلسطينيون بعملية اغتيال». يمكن أي قارئ عاقل أن يستنتج على الفور أن عماد أبو صنيبي، إذ أصابه في الرأس والصدر والمعدة والرجلين «وكلاء سريّين» إسرائيليون. ولكن لا. «رويترز»، كسائر الوكالات والمحطات التلفزيونية الضخمة التي تنقل مأساة الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، لم تعد تسمّي القتل باسمه.

في زمن «الأبَرْتهايد» (التمييز العنصري) التمييز العنصري لم يلفظ أحد كلماته بتصنّع عندما قتلت القوات العسكرية في جنوب أفريقيا أعداء عسكريين. تحدثوا عن القتل والاغتيال. وما زالوا يفعلون ذلك عندما يقتل القاتلون في أميركا اللاتينية أعداءهم السياسيين. وما زلت أبحث عن صحيفة تلجأ إلى سياسة التقليص عندما تنقل «مقتل» - أو بالأحرى، «اغتيال» - عصابات الجيش الجمهوري الإيرلندي أو منظمة الدفاع عن أولستر في بلفاست. ولكن، ليس عندما يقوم الإسرائيليون بالقتل. إذ عندما ينفذ الإسرائيليون عملية قتل، لا يقتلون أو يغتالون، بحسب «رويترز» أو «السي أن أن»، أو «بي بي سي»، إحدى الإذاعات التي انضمت حديثًا إلى هذه الصحافة المترهّلة. يرتكب الإسرائيليون أمرًا يسميه الفلسطينيون وحدهم اغتيالًا. عندما يكون للإسرائيليين يد في الموضوع، تجفّ أخلاقنا وقدرتنا على نقل الحقيقة.

عبر السنوات، حتى الـ«سي أن أن» بدأت تعي أن استخدام المصطلح «الإرهابي» في ما يتعلق بمجموعة واحدة من الأعداء فقط، لأمر عنصري

ومتحيّز. عندما استخدم صحافي في التلفزيون هذا المصطلح لوصف الفلسطيني الذي فجر مطعم بيتزا في القدس الأسبوع الماضي، هاجمه أحد زملائه لأنه وقع دون معايير الصحافة. أمر صحيح. لكن في الواقع، تزداد صحافتنا سوءًا، وليس العكس. فالمحررون الصحافيون حول العالم، يطلبون من صحافييهم أن يكونوا أكثر رقة ومعسولي اللسان أثناء نقل خبر ما قد يغيظ إسرائيل. وإحدى الوسائل الأكيدة لإثبات مسؤولية إسرائيل في القتل، هي مصطلح «تبادل إطلاق النار». أصبح محمد الدرة، الصبي الفلسطيني الذي قُتل بأيدي الجنود الإسرائيليين في غزة السنة الماضية، رمزًا للانتفاضة الفلسطينية. من دون شكّ، أدرك الصحافيون المحققون في مقتل الصبي، بمن في ذلك مراسل صحيفة «الإندبندنت» في القدس، أن الرصاص إسرائيلي (ولو أن الجنود المشتركين في العملية لم يروه). وعلى رغم ذلك، بعدما استنكر عضو إسرائيلي في البرلمان باستنكار الاستفسار العسكري الإسرائيلي الكاذب في الكنيست، وضعت وكالات الصور الغربية الأهم تفسيرات عن الصورة لمكتتبين مستقبليين. نعم، حزرتم، أشارت التفسيرات إلى أنه قُتل بـ«تبادل إطلاق النار».

لطالما صنعت الحروب حيلها الشفوية وجملها الموضوعية وصورها المجازية الصحية، من «الأضرار الجماعية»، إلى «القضاء على العدو». وقد زرع الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي بزورًا فريدة من نوعها. أصبح السور الإسرائيلي في مدينة ما «ختامًا»، والحدود القانونية بين إسرائيل والأراضي المحتلة «خط الاتصال»، والمتعاونون الإسرائيليون «معاونين»، والأرض الفلسطينية المحتلة «متنازعًا عليها»، والمستعمرات اليهودية المبنية في شكل غير قانوني على الأرض العربية «أحياء» وأماكن شعبية جميلة تتعرض لهجمات «عسكريين» فلسطينيين. وعندما يشنّ المفجرون الانتحاريون ضرباتهم - «الإرهابيون» بالطبع، في نظر الإسرائيليين - يسميهم الفلسطينيون «الشهداء». ولعلّ الأغرب في ذلك، التعبير الإسرائيلي المخيف عن عمليات القتل الخارجة عن القضاء التي تنفذها: «عمليات القتل المستهدفة». وإذا كانت ثمة فكاهة

مظلمة في أي من هذا الهراء الخطير، فيجب أن أقرّ بأن إسرائيل وجدت ضربة فعلية في تعبيرها للفلسطينيين الذين يمزقون أنفسهم إربًا أثناء صناعة متفجراتهم: يموتون، بحسب الإسرائيليين، جرّاء «حوادث في العمل».

لكن لا تُقلقني المصطلحات التي يستخدمها الإسرائيليون والفلسطينيون بعضهم عن بعض، بل مجاراة صحافتنا هذه المصطلحات. منذ أسبوع تقريبًا، كتبت في «ذي إندبندنت» أن الـ«بي بي سي» انحنت أمام الضغط الإسرائيلي الدبلوماسي بالتخلي عن مصطلح «الاغتيال» عن مقتل الفلسطينيين لمصلحة تعبير إسرائيل الغريب الأهداف المحددة للتصفية. بعد ذلك، تعرّضت لتوبيخ من مالكوم دوانينغ، محرّر التعيينات في «بي بي سي» الذي قضى على هذا الاستخدام الجديد، قائلًا إنني كنت متحيزًا ومضلّلًا. تنظر «بي بي سي» في بساطة إلى المصطلح «اغتيال» على أنه يجب أن ينطبق على «الشخصيات السياسية والدينية المهمة». ولكن ما يلفت أكثر في ردّ السيد داونينغ أنه لم ينجح في الإشارة إلى مقالي: خيار المصطلحات التي توصي بها «بي بي سي» في ما يتعلق بعمليات القتل الإسرائيلية: «الهجمات المستهدفة». لم تخترع «بي بي سي» هذه الجملة. الإسرائيليون ابتكروها. لا أصدّق لحظة أن السيد داونينغ يدرك ما فعله. ينظر إليه زملاؤه على أنه صديق محترف، لكنه من الضروري أن يدرك أنه عندما يطلب من صحافييه استخدام المصطلح «عمليات القتل المستهدفة»، لا يرتكب خطأً صحافيًا وحسب، بل خطأ في الوقائع. حتى الآن، قُتل سبعة عشر من المدنيين الأبرياء، بمن في ذلك طفلان نتيجة عمليات اغتيال برعاية الدولة. وبالتالي، فإن عمليات القتل «مستهدفة» في شكل سيئ. ولا يسعني إلا التذكر عندما قُتلت جيل داندو، التي تعمل في «بي بي سي»، على عتبة بابها، في دون شك، كان الفاعل شخصًا «استهدفها» عن قصد. لكن هذا ليس ما قالته «بي بي سي». وصفته بالقتل. وكان ذلك صحيحًا.

خلال الأسبوع الماضي، هشمت محطة الـ«سي أن أن» ووكالات الأخبار و«بي بي سي»، الحقيقة مرة أخرى. عندما تعرضت المستعمرة اليهودية في جيلو

لهجوم من مسلّح فلسطيني في بيت جالا. أصبحت مرة أخرى «حيًا يهوديًا» على أرض «متنازع عليها»، على رغم أن الأرض في معظمها، البعيدة عن حال «الخلاف»، تعود قانونًا إلى الشعب الفلسطيني في بيت جالا («جيلو» أي «جالا» باللغة العبرية). لكن هذا ليس ما قيل للمشاهدين والقرّاء. عندما حدثت حال الاغتيال التالية برعاية الدولة، وأودت بعضو فلسطيني في حركة حماس، اختصر لنا صحافي تلفزيوني - من «بي بي سي» هذه المرة - أن «الإسرائيليين نظروا إلى حادث القتل على أنه عملية قتل مستهدفة، بينما ينظر الفلسطينيون إليه على أنه عملية اغتيال». يمكنكم أن تروا المشكلة. اضطرّ رجل الـ«بي بي سي»، المضطرب، بالنسخة الإسرائيلية إلى حد كبير، إلى أن «يعادلها» بالنسخة الفلسطينية كمراسل رياضي عاجز عن لوم أي من الطرفين عن الخطأ. فانتبهوا إلى المصطلحات الأساسية التالية عن الشرق الأوسط في الصحافة التلفزيونية في الأيام المقبلة: «عمليات القتل المستهدفة»، «الحيّ»، «المتنازع عليها»، «الإرهابي»، «التصادم»، «تبادل إطلاق النار». واسألوا أنفسكم: لماذا تُستخدم. أوافق على قول الحقيقة عن الطرفين. أوافق على استخدام المصطلح «الإرهاب»، شرط استخدامه على إرهابيي الجانبين. سئمت الاستماع إلى الفلسطينيين يتحدثون عن الرجال الذين يمزقون الأطفال إربًا فيسمونهم «الشهداء». إن القتل هو القتل هو القتل. ولكن عندما يصيب ذلك حيوات الرجال والنساء، هل يُعقل أن يتعامل معنا صحافيو المحطات التلفزيونية والوكالات تمامًا مثلما يعلّقون على مباراة كرة قدم؟

«ذي إندبندنت»، ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠١

آه، ماري المسكينة

لاحظوا ماري روبنسون، رئيسة إيرلندا سابقًا، والمفوضة العليا في الأمم المتحدة لحقوق الإنسان سابقًا، وهي تقف بصفة كونها متحدثة في مناسبة حفل التخرّج في جامعة إيموري في الولايات المتحدة الأميركية. ارتكبت خطأً فادحًا. تجرأت على انتقاد إسرائيل. فاقترحت - برعب شديد - أن «جذور الصراع العربي - الإسرائيلي هي الاحتلال». تريثي قليلًا ماري! «الاحتلال»؟ أولًا، يسيء هذا المصطلح إلى إسرائيل بعض الشيء؟ أحقًا تقترحين أن الاحتلال العسكري الإسرائيلي للضفة الغربية ومقاطعة غزة، وتنفيذ عمليات الإعدام الخارجة عن القانون في حق المسلّحين الفلسطينيين، وتهديد الطلاب المسلّحين بالحجارة بالأسلحة، وسرقة الأراضي العربية بالجملة لبناء منازل لليهود، أمر خاطئ في شكل من الأشكال؟

ربما أسأت السمع. بالطبع أسأت السمع، لأنّ ردّك على هذه التشهيرات البذيئة، وهذه الطعنات في شأن حقك في الخطاب الحرّ، وهذه الهجمات الافترائية في شأن تكاملك، عبارة عن تذمّر هرّة. «جُرحتُ وخاب ظنّي»، هذا ما قلته لـ«آيريش تايمز». «إنه لأمر مؤلم نشر الادعاءات التي لا أساس لها على الإطلاق». كان عليك أن تهددي متّهميك باتخاذ الإجراءات القانونية. عندما أحذّر هؤلاء الذين يدّعون في بطاقاتهم البريدية الشريرة، أن والدتي كانت ابنة إيتشمان، وأنهم سيتسلّمون كتابًا من المحامي، فيصمتون على الفور، كانت بيجي فيسك في «آر أيه أف» خلال الحرب العالمية الثانية، لكن ليس بالأمر المهم الآن.

ولكن لا، «جُرحتِ»، «خاب ظنّك»، وتسمحين لكينيث ستاين في جامعة

إيموري، بأن يعلن أنه «مضطرب لغياب عامل الدقة الظاهر من جهة الأشخاص الذين اتخذوا القرارات بدعوتها (ماري روبنسون) لتلقي كلمتها». يعجبني جزء «الدقة». ولكن حقًّا، كيف تسمحين لهذه النسخة المخبولة من تكاملك، بأن تفلت من العقاب؟

خاب ظنك. آه، ماري المسكينة!

حاولت أن أبحث عن طريقة لفظ «ديدومز» في و«يبستر»، القاموس الثقة الأفضل في أميركا. لم يحالفني الحظ. ولكن، ما الفائدة إذا كان القاموس الدولي الجديد الثالث، «ويبستر»، يفسّر المصطلح «أنتي - سيميتزم (اللاسامية)» بأنه «تعارض مع الصهيونية: التعاطف مع خصوم دولة إسرائيل». لذا، إذا اقترحتم أو اقترحت - أو بالطبع، اقترحت ماري الصغيرة المسكينة أن الفلسطينيين يتعرّضون للإجحاف رهن الاحتلال الإسرائيلي، إذًا نحن «لاساميون». من العدل فقط بالطبع أن نقتبس الجواب المثير للشفقة للناشر الرسمي لـ«ويبستر»، السيد آرثر بيكنيل، الذي طُلب منه التعليق على هذا التعريف الفادح. أجاب: «مهمتنا أن نجسّد اللغة الإنكليزية بدقة كما هي مستخدمة في الواقع. نحن لا نصدر أي تقويم للمسائل، لأننا لسنا سياسيين». وأضاف في شكل مضحك ومثير للاشمئزاز، إن محرري القاموس يجدولون «إثباتات استشهاد» عن اللاسامية المنشورة ضمن «النشر المكتوب في شكل دقيق في الكتب والمجلات». وبمقدار ما هي منافية للعقل، فإن هذه الملاحظة المنافقة جديرة بإطلاق الضحكات الجوفاء.

حتى «الملابروبيين» للكنتين الإنكليزية والأميركية [للغة الإنكليزية] يخضعون اليوم لهؤلاء الذين سيفرضون رقابة على التعليقات على سياسة الشرق الأوسط التي تتّبعها إسرائيل خلسةً. أعنيها «خلسةً». استلمت ملاحظة غضب مبررة من باتشيبا راتسكوف، المخرج والمنتج في المؤسسة التربوية الأميركية لوسائل الإعلام (أم آي أف)، أشار فيها إلى أن الفيلم الوثائقي الجديد الذين أعدّوه عن

«إيقاف الجدال في ما يتعلق بالصراع الإسرائيلي - الفلسطيني» - وهو في الواقع فيلم عن مؤهلات العلاقات العامة الإسرائيلية في أميركا -، استهدفته من «قوة العمل اليهودية». كان من المفترض عرض فيلم «السلام والدعاية والأرض الموعودة» في متحف الفنون الجميلة في بوسطن.

فماذا حدث؟ طلبت «جيه أيه تي أف» اعتذارًا إلى المجتمع اليهودي، إضافة إلى «تعهّد مراعاة أفضل عند التطرّق إلى الصراع بين إسرائيل والشرق الأوسط في المستقبل». «قد يرغب» أعضاء «جيه أيه تي أف» «في النظر في التهديد بإلغاء عضويتهم وسحب مساهماتهم». وفي السياق نفسه، كتبت سوزان لونغهنري من متحف الفنون الجميلة رسالة مخيفة إلى سوت جالي من «أم آي أف»، مشيرة إلى مخاوف «كثر من أعضاء جمعية بوسطن»، وهم من ناحية أخرى، غير محددي الهوية بالطبع فاقترحت إعادة جدولة العرض (لأنّ العرض الأساس كان مبرمجًا يوم السبت لدى اليهود)، إضافة إلى مناقشة من شأنها أن تتيح للنقّاد التعليق على الفيلم. وختمت الرسالة بالبيان التالي - وهنا أحثّكم على أن تتعلّموا الكلمات المراوغة عن السلطة - «بذلنا الكثير من الجهود تجنبًا لإلغاء عرض الفيلم في المطلق. ولكن، إذا كنتم لستم قادرين على دعم المقاربة المعدّلة، يؤسفني ألا يكون لنا خيار سوى هذا».

هل ترغب السيدة لونغهنري في أن تكون فأرًا؟ أم تحب أن تُضاف عبارة «لونغهنري» إلى «ويبستر»؟ أو «أوسكفورد» على الأقل؟ لا تقلقوا، فإن رب عمل السيدة لونغهنري تجاهل رسالتها السخيفة، في الوقت الراهن، على الأقل.

ولكن، إلى أين؟ دُعيت الأحد الماضي إلى التحدث عن العراق ودعم الرئيس بوش جدار شارون الجديد في الضفة الغربية، على قناة إيرلندية في تلفزيون «تي في ٣»، أثناء برنامج وقت الغداء. وفي نهاية البرنامج، ادّعى طوم كوني، أستاذ القانون في «يونيفيرسيتي كولدج»، في دبلن، فجأة، أني وصفت

وحدات الجيش الإسرائيلي بـ «الغوغائية» (وهو أمر صحيح بالكامل)، وأني كتبت أنَّها ارتكبت مجزرة في جنين سنة ٢٠٠٢.

لم أقل إنها ارتكبت مجزرة، ولكن كان يجدر بي أن أقول ذلك. إذ أثبت تحقيق لاحق أن الجنود الإسرائيليين قتلوا عن قصد مدنيين أبرياء وممرّضة، وداسوا على كسيح في كرسي مدولب. وصرخ كوني «تشهيرات دموية!». وبرّأت قناة «تي في ٣» نفسها على الفور - في شكل صحيح - من هذه التشهيرات. ولاحظت مرة أخرى تدخّل جامعة بارزة في هذا الافتراء. تُعدّ جامعة «يو سي دي» إحدى المؤسسات الأكاديمية الأبرز في أيرلندا، وأتمنى أن يطبّق كوني انضباطًا أكاديميًا مع تلامذته الشباب على نحو أفضل من قناة «تي في ٣». وبالطبع، فهمت القصد. اخرس. لا تنتقد إسرائيل.

فدعوني أُنهِ المسألة بملاحظة إيجابية. ثم أن باتشيبا أميركي يهودي، فلليهود البريطانيين مركز مرموق في منظمة ذكرى دير ياسين التي تحيي ذكرى مجزرة العرب الفلسطينيين التي ارتكبها رجال الميليشيا اليهود خارج القدس سنة ١٩٤٨. هذه السنة أحيوا ذكرى الضحايا من العرب في هذه المجزرة - ٩ نيسان/أبريل - في اليوم نفسه الذي أحيا المسيحيون ذكرى الجمعة العظيمة. وكان هذا اليوم الرابع من عيد الفصح لدى اليهود الذي يُحتفل فيه طوال أيام. ووقع هذا التاريخ في يوم ذكرى إعدام النازيين باستور ديتريتش بونهوفر سنة ١٩٤٥ في مخيّم التجمّع في فلوسنبورغ. التحرير اليهودي منذ ٣٠٠٠ سنة، ووفاة يهودي فلسطيني منذ ٢٠٠٠ سنة، وموت مسيحي ألماني منذ تسع وخمسين سنة، ومجزرة راح ضحيتها أكثر من ١٠٠ فلسطيني من الرجال والنساء والأطفال منذ ست وخمسين سنة. واأسفاه. لم تحظَ ذكرى دير ياسين بالاهتمام الذي تستحقه. يصنّف «ويبستر» داعميه في فئة «اللاساميين» في شكل مخادع. ومن دون شك، سيعترض على ذلك «الكثيرون من أعضاء مجتمع بوسطن». ويصرخ أستاذ القانون البارز في جامعة «يو سي دي»: «التشهيرات الدموية».

يجب أن ننتظر لنسمع رأي «يو سي دي»: في الموضوع. لكن دعونا لا «نُجرَح»، أو «يَخِب ظننا». فلنستمرّ في وصف الأمور كما هي عليه. أليس هذا ما كان من المفترض بمدرسة الصحافة الأميركية أن تعلّمنا إياه؟

«ذي إندبندنت»، **٢٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٤**

«وضع حرج جدًّا»

يجب علينا أن نقاتل. هذه هي الخاتمة الوحيدة التي يمكن أن أستنتجها، بينما أرى تآكل حريتنا في مناقشة الشرق الأوسط تتجدد. والمثال الأحدث - والمعيب إلى حد كبير - على ذلك، هو القرار الجبان الذي اتخذته الحلقة الدراسية الحرة في مسرح نيويورك الذي قضى بإلغاء إنتاج رويال كورت الهائل لـ «إسمي رايتشل كوري». إنها قصة امرأة أميركية شابة وشجاعة، بكلماتها ورسائلها الالكترونية، سافرت إلى غزة لحماية الفلسطينيين الأبرياء، ووقفت في آذار/مارس ٢٠٠٣ أمام جرّافة إسرائيلية محاولة منع السائق من تدمير منزل فلسطيني. داست عليها الجرافة، ثم رجعت وسحقتها مرة أخرى. وقالت قبل أن تموت: «ظهري انكسر».

لم تكتسب رايتشل، البطلة الأميركية، التفاتة من إدارة بوش التي تدوّي بتصريحاتها عن الشجاعة والحرية من القمع كلّ بضع دقائق. اختارت رايتشل النوع الخاطئ من الشجاعة، ودافعت عن حرية الشعب الخطأ. ولكن عندما قرأتُ أن جايمس نيكولا «المدير الفني» للحلقة الدراسية في مسرح نيويورك - ويجب أن نضع منصبه بين مزدوجين - قرر أن «يؤجّل» العرض «إلى أجل غير محدد»، لأن (احبسوا أنفاسكم أيها القراء) «أثناء التخطيط لإنتاجنا والمناقشات والإصغاء في مجتمعاتنا (كذا) في نيويورك، سمعنا أن الوضع بعد مرض أرييل شارون وانتخابات حماس... كان حرجًا جدًّا». لم أعرف، هل أضحك أم أبكي.

فلنواجه هذا الكلام الفارغ. في أستراليا، يواجه صديقي أنطوني لونستن، وهو صحافي وأكاديمي، وقتًا صعبًا أيضًا. أنهى كتابًا مهمًا عن الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني لدار نشر جامعة ملبورن، في حين تسعى المجتمعات

اليهودية في أستراليا إلى أن تمحوه من الوجود قبل إطلاقه في آب/أغسطس. السنة الماضية، كتب العضو في برلمان العمل الفدرالي مايكل دانبي، وهو يهودي مثل لوينستن، بكتابة رسالة إلى «جويش نيوز» الأسترالية يطلب فيها أن يلجأ ناشرو لوينستن إلى «التخلي عن هذا المشروع المثير للاشمئزاز». وقال إن الكتاب سيكون «هجمة على المجتمع اليهودي الأسترالي المستقيم». وتكاتف اليوم مجلس النواب اليهودي القوي الجديد في جنوب وايلز ضد لوينستن، وتُبذل الجهود لحرمانه منصبه في مجلس مركز جامعة ماكري للدراسات في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا(*).

القليل من الاحتيال الحاسم بالنيابة عن إسرائيل؟ لا. تلقيت رسالة الأسبوع الماضي من باربرا غولدشيدر، من الجنسية الإسرائيلية الأميركية، نُشرت روايتها حديثًا «النكبة: الكارثة: الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي». قالت لي إنها تلقّت هجمات «في بساطة لأنني اخترتُ عنوانًا عربيًا لروايتي عن الصراع... قطع زوج أختي علاقته بي قبل أن يقرأ الكتاب... تلقيتُ اتصالًا من «صديق» غضوب من أعضاء أبرشية «الأرثوذوكس اليهود» في بانغور (ماين)، وهو يزمجر قائلًا: «ألم تعلمي أن العرب يريدون أن يدمروا إسرائيل؟»».

أُلغيت مناقشة روايتها الجديدة التي حُددت الشهر الفائت أثناء اجتماع يهودي متحفظ «بسبب الاضطراب حيال روايتي». وكتب أستاذ في بوسطن إلى غولدشيدر، شاكرًا، ما أسمّيه النصيحة الجيدة إلى حد بعيد. وقال: «ثمة حملة شريرة في الخارج. لا تستسلمي». لكن ما العمل عندما يستسلم ناشر ما، أو «مدير فني»؟ اكتشفت بنفسي منذ وقت قليل عندما طلب مجتمع التاريخ العسكري في إيرلندا إعادة طبع مقال نشرته منذ بضع سنوات عن معركة دارت بين كتيبة الأمم المتحدة للجيش الإيرلندي في جنوب لبنان والميليشيا اللبنانية،

(*) فشلت جماعة الضغط الداعمة لإسرائيل. نُشر كتاب لوينستن «سؤالي الإسرائيلي» ولقي صدًى كبيرًا واحتفظ هذا الأخير بمنصبه في مجلس الجامعة.

الوحشية، المتعاملة مع إسرائيل، التي تُسمى «جيش لبنان الجنوبي»، والتي طُرد قائدها الذهاني، سعد حداد، من منصبه كرائد في الجيش اللبناني. ذكرتُ في المقال كيف انتزع رائد إسرائيلي، (حاييم)، الأموال من مواطني قرية حاريص في جنوب لبنان، وكشفتُ عن لقب عميل إسرائيلي - «أبي شوقي» - كان حاضرًا لحظة مقتل جنديين إيرلنديين.

نشرت هذه التفاصيل مرات عدة: مرتين في صحيفتي وفي كتابي السابق عن الحرب اللبنانية. تأسفوا على الأمة. توفي الرائد حداد بمرض السرطان منذ أكثر من عشر سنوات. في الواقع، قابلتُ حاييم أوائل الثمانينات، وقد انهى اجتماعًا مع مختار قرية حاريص، الذي طلب منه المال ليدفع لرجال الميليشيات الوحشيين المتعاملين مع إسرائيل، في حضور الأمم المتحدة التي سجّلت تهديداته. أما «أبو شوقي»، الذي ترغب الشرطة الإيرلندية في إجراء مقابلة معه، فحاول أن يقبض عليّ في وقت لاحق في صور - وحررني على الفور - عندما أخبرته أنه كان شاهدًا على مقتل جنديين أيرلنديين.

فماذا كان من المفترض أن أفعل عندما تلقيت الرسالة التالية من العميد السابق باتريك بورسيل في الجيش الإيرلندي؟ «لسوء الحظ، اضطررنا إلى أن نسحب مقال(ك) مراعاةً لرسالة تلقيناها من ناشرنا، الصحافة الأكاديمية الإيرلندية. يوضّح عقدنا أن مجتمع(نا) سيكون مسؤولًا في حال اتخاذ أي إجراء في شأن التشهيرات هذه». وفي رسالة الناشر فرانك كاس، المرفق طيه، «تنبيه» من محاميه، لأني وصفت حداد بـ «الذهاني»، وسمّيت الرائد الإسرائيلي المبتزّ والعميل الإسرائيلي الحاضر مقتل الجنديين. من المثير للاهتمام أن محامي فرانك كاس يعتقد باحتمال التشهير بهذا الرجل (حداد) المتوفَّى منذ أكثر من عقد من الزمن، في شكل أكبر كي يظنّ أن في الإمكان نشر اسم رمز عسكري أن يحثّ هذا الوغد على الكشف عن هويته الحقيقية في محكمة قانون. أما بالنسبة إلى الرائد حاييم، فيبقى في ملفات الأمم المتحدة الرجل الذي حاول - ويبدو أنه نجح - أن يجبر مواطني جنوب لبنان على دفع الأموال كي يدفع بدوره لقامعيه.

ما هي العبرة من هذا كله؟ في الواقع، من الواضح عدم المساهمة في مقالات لمجتمع التاريخ العسكري في إيرلندا. لكن الأهم، أنني يجدر بي أن أتذكر ما كتبته في هذه الصحيفة منذ ست سنوات أن «درجات الاستغلال والتهديدات الواضحة الموجّهة إلى أي شخص... يجرؤ على انتقاد إسرائيل، توازي مستويات المكارثية في شكل سريع. إن محاولة إجبار وسائل الإعلام على التقيد بقواعد إسرائيل، منتشرة على الصعيد الدولي». وفي حالة نمو، من الحريّ أن أضيف اليوم.

«ذي إندبندنت»، ١١ آذار/مارس ٢٠٠٦

«أبو هنري»: قدرات الدبلوماسيين

بحسب أبي هنري، علينا أن نبقى في أفغانستان عقودًا من الزمن لحماية الأفغان من طالبان. الظاهر أن سفيرنا في كابول، السيد شيرارد كاوبر كولز، «كيه سي أم جي، أل في أو»، أكثر تحديدًا، لا يمانع هذا التوقّع غير العادي.

إن معظم مواطني طالبان أفغانيون. وفكرة وجود الجيش البريطاني في أفغانستان، بهدف حماية المواطنين المحليين بعضهم من بعض، اقتراح استعماري بحقّ. هذا كان رأينا في إيرلندا الشمالية سنة ١٩٦٩. في لكل الأحوال، ظننت أننا دمّرنا طالبان في العام ٢٠٠١. ألم تكن هذه هي الفكرة في تلك الأثناء؟ ألم يكن هذا ما قاله بلير آنذاك؟

«أبو هنري»، وأَدين لإحدى المجلات الحكومية السعودية التي أطلعتني على أن «أصدقاءه السعوديين يلقّبونه على هذا النحو برقة»، غادر الرياض على عجل من أمره، قائلًا إن الأمر كان بمثابة «مفاجأة» بما أنه توقّع أن يبقى هناك سنة أخرى. والأرجح أنه عجز عن اصطحاب الصقرين البريين لعائلة كاوبر - كولز، نور والوليد، إلى كابول. ولكن قبل مغادرته، عبّر أبو هنري عن مدى فخره بخدمات الاستخبارات من الدرجة الثالثة إلى حد فاضح في المملكة، معلنًا: «تأثرت إلى حد كبير بالطريقة التي تطرقت بها السلطات السعودية إلى مسألة التهديد الإرهابي الخطير، وتفسيرها لها. فهي جفّفت وسائل الدعم للإرهاب...».

بالطبع، لا نسمع كلمة واحدة عن عادة السعوديين قطع رؤوس «المجرمين» بعد محاكمات غير عادلة إلى حد كبير. في سنة لا مثيل لها نُفّذت خلالها حالات إعدام لا تُحصى، قطع الجنود المسلحون بالسيوف في المملكة - حيث

يرث الابن عن والده هذه الوظيفة كما لدى الجلادين البريطانيين - ١٠٠ رأس، منتصف هذا الشهر. وعلى رغم ذلك، يجب أن تتجنبوا تلك المراجع عندما يبلغ حجم الاستثمار البريطاني في المملكة العربية السعودية ٦ مليارات جنيه استرليني على الأقل. وهذا، بالطبع، سبب من الأسباب وراء تفاخر أبي هنري أمام أصدقائه السعوديين - بحسب المجلة الحكومية نفسها - بـ«أننا في الرياض نفتخر بسياسة التأشيرة المعتمدة لدينا، حيث يقدّم ٩٥ في المئة من السعوديين طلبًا للحصول على التأشيرة قبل التاسعة صباحًا، ويحصلون عليها الثانية بعد الظهر من اليوم نفسه». «أفٍّ». هذا أمر هائل. قد تتذكرون أن مجرمي حادث ١١ أيلول/سبتمبر الذين يبلغ عددهم تسعة عشر، ضمّوا خمسة عشر سعوديًا؛ وهو سجلّ مهم بالنسبة إلى مملكة صغيرة، حيث، في ظروف أخرى - لو كان المجرمون من تشاد أو مالي مثلًا - لا تُكافأ دولهم بسياسة تأشيرة كريمة إلى هذا الحد.

كذلك بالطبع، لا نسمع أبا هنري يتحدث عن تلك المسألة الصغيرة الأخرى برشوة مزعومة من مجموعة القيمين على أنظمة الدفاع الجوي البريطانية، لبعض المسؤولين السعوديين المتعلقة أما هنا - يمكن قول الكثير، مجاملة - فلا يسعني إلا الإقرار بذلك على الفور، في مقال كتبه في سرور مايكل بيل في «فاينانشل تايمز» في شباط/فبراير الماضي، يصف كيف انكبّ روبرت واردل، مدير مكتب جرائم الاحتيالات الخطيرة، على «التفكير مليًا في الكثير من الأمور» بعد عقد ثلاثة اجتماعات في لندن مع كاوبر - كولز، «السفير المدني البريطاني للمملكة العربية السعودية». يبدو أن السيد واردل «كان يعيد النظر» في احتمال نبذ التحقيق الذي أعدّه، بما أنه قد يلحق الضرر بـ «الأمن القومي». أخبر واردل بيل أن «المسألة صعبة، وأجد أن من المفيد إقالة السفير من منصبه. ساعدني هذا الأمر على فهم المخاطر، وعلى اتخاذ قراري بوقف التحقيق».

يبدو أن أبا هنري «وصف الطريقة التي قد تتأثر فيها الرياض بهذا التحقيق،

وبالتالي تلغي تعاون عناصر الأمن والاستخبارات، ما سيحرم لندن الولوج إلى مراقبة التهديدات الإرهابية المحتملة في شكل حيوي أثناء الحج إلى مكة، حتى أن السفير اقترح أن الإصرار على تحقيق مكتب جرائم الاحتيالات الخطيرة، سيهدد حيوات في بريطانيا». كتب بيل، بحسب شخص «متورّط عن كثب في الأحداث» - وأرجح أن هذا «الشخص» هو واردل - أن كاوبل - باولز لم يفرط في التعبير. لكنه عبّر عن الفكرة في وضوح، وتحديدًا عن النتائج التي يتوقعها... بما في ذلك احتمال مقتل بعض الأشخاص». وبعد يومين، أُهمِل التحقيق في قضية الرشوة. فلا عجب لِمَ ناداه السعوديون بـ «أبي هنري»، بمثل هذه العاطفة.

واستنادًا إلى بعض الملاحظات التي أدلى بها أثناء زيارة حديثة له لأكسفورد، يجب أن يُفاجَأ أبو هنري شخصيًا بقدرته على إقناع بلير بحكمة القرار التخلي عن هذه المسألة المهمة المتعلقة بالتحقيق في الرشوة. لم يُخفِ سخريته وسط الأكاديميين من حول رئيس وزراء السابق، بينما اشتكى من أنه، على رغم الجهود التي بذلها مكتب الشؤون الخارجية في تدوين الملاحظات على الخطابات المقترحة وإعدادها، بالكاد قرأها، وأحيانًا استخدم سطرًا واحدًا فقط من محتوياتها.

ولكن، أعتقد أن هذه هي حال الدبلوماسية: الإقناع من جهة، والدفاع من جهة أخرى، والمحاولة للحصول على مبتغاكم عبر التعليقات غير السرِّيَّة التي يتم الإدلاء بها إلى مسؤولين في مكتب جرائم الاحتيالات الخطيرة، وحتى إلى صحافيين من دون شك. أذكر بالطبع في عقد السبعينات - عندما كنت مراسلًا لصحيفة «تايمز» في الشرق الأوسط - كيف حاول دبلوماسي بريطاني في القاهرة أن يُقنعني بطرد «مراسلة صحافية» محلية: امرأة قبطية مصرية عملت مراسلة للصحافة المشتركة، وأمّنت تغطية كفيَّة للبلد عندما كنت في بيروت. قال لي: «ليست كفيّة بما فيه الكفاية»، واقترح أن أطردها وأعيّن امرأة إنكليزية شابة من معارفه. وعلمت لاحقًا أن لديها اتصالات وطيدة بمكتب الشؤون الخارجية.

رفضت هذا الاقتراح المخيف. وبالطبع، أخبرت «التايمز» أنه لأمر مهين أن يحاول دبلوماسي بريطاني أن يسرّح الصحافية التي كانت تعمل معنا في القاهرة بدوام جزئي. ووافقني الرأي المحرر الأجنبي للصحيفة آنذاك.

لكنّ هذا الأمر يُظهر قدرات الدبلوماسيين.

فما اسم ذاك الدبلوماسي البريطاني الشاب الذي كان في القاهرة أواخر السبعينات؟

لماذا؟ شيرارد كاوبر - كولز، بالطبع.

«ذي إندبندنت»، **٣٠ حزيران/ يونيو ٢٠٠٧**

عبرة من المحرقة

مررت قرب متجر صغير («كشك») للكتب المستعملة في شارع موسيو لو برينس في باريس منذ بضعة أيام، حين وجدت المجلّد الثاني من مذكرات فيكتور كليمبيرير(*). اشتريت المجلّد الأول في باكستان قبل حرب أميركا على أفغانستان سنة ٢٠٠١. ويسترجع الكاتب في هذا المجلّد عدّ انحطاطه القاسي والمرعب بصفة كونه يهوديًّا ألمانيًا في السنوات الثماني الأولى من حكم هتلر، من سنة ١٩٣٣ لغاية ١٩٤١. كانت خبرة غريبة من نوعها، قراءة الجهود التي بذلها كليمبيرير في محاولة النجاة مع زوجته إيفا في درسدين، بينما حاصر النازيون جيرانه اليهود. قرأت ذلك، في حين كنت أتناول الشاي وسط آثار الراج، وحيث تشرئب اعناق الزهور من وسط العشب من حولي، قرب مقبرة قديمة للجنود البريطانيين في نهاية الطريق. واللافت أيضًا هو أن البطل كليمبيرير، نسيب القائد العظيم، أظهر تعاطفًا هائلًا مع الفلسطينيين العرب سنة ١٩٣٠، وقد خشوا أن يخسروا وطنهم لمصلحة قيام دولة يهودية.

«لا يسعني أن أمنع نفسي»، كتب كليمبيرير في ٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٣٣ بعد تسعة أشهر على تولّي هتلر منصب رئيس الوزراء في ألمانيا. «أتعاطف مع الفلسطينيين العرب الثائرين (في فلسطين)، الذين «تُباع» أرضهم. [ويلفون] مصير هندي أحمر، في نظر إيڤا». واللافت أيضًا هو تعليق كليمبيرير على الصهيونية، الذي لم يحاول أن يحسّنه حتى بعدما باشر هتلر اضطهاد اليهود في أوروبا. كتب في حزيران/يونيو ١٩٣٤، «في نظري، أن الصهاينة

(*) نُشرت مذكرات فيكتور كليمبيرير في مجلّدين سنة ١٩٩٨ (راندوم هاوس، نيويورك) وهو رجل أعمال وصحافي وأستاذ في الأدب وناجٍ من المحرقة. توفي سنة ١٩٦٠ في الثامنة والسبعين من عمره.

الذين يريدون العودة إلى الدولة اليهودية للسنة ٧٠ ب.م... يوازون النازيين عدوانيّة، بتطفّلهم بعد سفك الدماء، و«جذورهم الثقافية» القديمة، والنفاق الجزئي، وبإدارتهم للعالم حيث تتوفر هذه الصفات لدى الاشتراكيين القوميين...».

على رغم ذلك، إن وصف كليمبيرير اليومي للمحرقة، وشناعة الغستابو حيال مواطني درسدين، وانتحار اليهود بينما كانوا يُؤمرون بالالتحاق بوسائل النقل شرقًا، ومعرفته المسبقة بأوشفيتز، تشعل غضبكم في حين لا يزال أحدهم اليوم ينكر حقيقة الإبادة الجماعية التي أصابت اليهود. تحدّث كليمبيرير عن مخيمات الإبادة الشائنة أوائل آذار/مارس سنة ١٩٤٢، على رغم أنه لم يستوعب درجات المجازر التي حدثت هناك لغاية انتهاء أشهر الحرب. أقرأ هذه المذكرات، بينما ينقلني قطار الشبكة الإقليمية السريعة إلى مطار شارل ديغول متمنيًا لو تمكّن الرئيس محمود أحمدي نجاد في إيران من السفر معي. وفي الطريق، عبرتُ الأعمال الهندسية التزيينية الفنية في محطة درانسي سنة ١٩٣٠، من حيث اصطحب عناصرُ الشرطة الفرنسية اليهود الفرنسيين قبل نقلهم إلى أوشفيتز. كان أحمدي نجاد من أعلن أن محرقة اليهود ليست سوى «أسطورة»، ودعا في تباهٍ إلى عقد مؤتمر في طهران بالطبع، ليكتشف حقيقة الإبادة الجماعية التي طاولت ٦ ملايين يهودي، والتي يمكن أي عالم تاريخ عاقل أن يقرّ بأنها من إحدى الحقائق الأكثر شناعة في القرن العشرين، إضافة، بالطبع، إلى المحرقة الأرمنية سنة ١٩١٥.

كان الردّ الأفضل على الهراء الطفولي الذي أعلنه أحمدي نجاد، ردّ الرئيس السابق خاتمي في إيران، القائد الشريف الوحيد في الشرق الأوسط في زمننا، والذي أدّى رفضه تأييد داعميه «الإرهاب»، إلى تسليم «مجتمعه المدني» إلى خصوم إكليريكيين أكثر صرامة في شكل محتّم وحزين. أعلن خاتمي «أن مقتل يهودي واحد جريمة»، مستخدمًا، بالتالي، جملة واحدة ليقضي على الكذبة التي حاول خَلَفه أن ينشرها.

بالطبع، رمزت كلماته إلى أمر أكثر أولوية: إن أهمية المحرقة وطبيعتها الشريرة، لا تعتمدان على هوية الضحايا اليهودية. وتكمن طبيعة المحرقة الفظيعة إلى حد فادح في كون الضحايا أناسًا وبشرًا من لحم ودم، تمامًا مثلكم ومثلي. إذًا، كيف يمكننا أن نُقنع المسلمين في الشرق الأوسط بهذه الحقيقة البسيطة؟ ظننت أن الرسالة التي بعث بها رئيس لجنة اليهود الإيرانيين، هارون يشائي، إلى أحمدي نجاد، تضمنّت جزءًا من الجواب. صرّح ياشائي، الذي يمثّل ٢٥ ٠٠٠ يهودي في إيران: «إن المحرقة ليست بأسطورة كما الإبادة الجماعية التي فرضها صدام (حسين) على حلبجة، أو المجزرة التي ارتكبها (أريل) شارون في حق الفلسطينيين واللبنانيين في مخيمي صبرا وشاتيلا».

وانتبهوا هنا إلى غياب أي محاولة لتعداد حالات المقارنة. تُعَدّ عملية قتل ستة ملايين يهودي جريمة إبادة تفوق عدد الضحايا التي ولّدتها كل من عملية قتل مئات الأكراد بالغاز في حلبجة، أو القتلى الفلسطينيين الـ ١,٧٠٠ على أيدي العملاء اللبنانيين لإسرائيل في صبرا وشاتيلا سنة ١٩٨٢. لكن رسالة يشائي رسمت مسارًا مختلفًا: الألم الذي يعانيه الناجون جرّاء نكران التاريخ.

فماذا سيعلّمنا المجلّد الثاني من مذكرات كليمبيرير؟ بعدما تلقى وزوجته إيفا تعليمات الغستابو التي تقضي بنقلهما شرقًا ليموتا، صُعقت درسدين بغارة القوات الجوية الملكية، ووسط مئات آلاف المدنيين الذين ذهبوا ضحية هذه العاصفة النارية في شباط/فبراير سنة ١٩٤٥، اشتعلت أرشيفات الغستابو أيضًا بالنيران. احترقت كل السجلات التي تثبت وجود كليمبيرير، مثل مصير اليهود الذين سبقوهم إلى أوشفيتز. تخلّص الزوجان من النجمة اليهودية، وجالا في ألمانيا كلاجئين من أوراق ثبوتية إلى أن وجدا خلاصهما بعد استسلام النازيين.

قبل خلاصهما، تعاطفا مع ثلاثة جنود ألمان شديدي الاضطراب ضائعين في غابات وطنهم. ووسط معاناتهما القاسية، وانتظارًا لجرس الباب وحضور الغستابو بحثًا في منازل دريسدين ولاطلاعهما على مصيرهما، استطاع كليمبيرير

أن يكتب في مذكراته جملة، على كل صحافي وعالم تاريخ أن يحفظها غيبًا: «لا يوجد ما يعوّض حقيقة اللغة».

«ذي إندبندنت»، ١ نيسان/أبريل ٢٠٠٦



الفصل الرابع

صورة العالم في عين السينما

تملك السينما قدرة خارقة على الإقناع. فاحتواء الفيلم الصوت والموسيقى والصور المتحركة في شكل فريد من نوعه، يجمع ما بين الراديو والفن والموسيقى والمسرح. وأتوقع، على مرّ السنين، أن تصبح السينما الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن نستعين بها للتأثير في العالم. نعم، إن الأفلام تكذب. لطالما كذبت. ستمثّل دومًا حقيقة المخرج. وعلى رغم ذلك، اقترح النوع الجديد في إعداد الأفلام - خصوصًا في الولايات المتحدة الأميركية - رؤية مختلفة لدى محبي السينما، وتحديدًا في الشرق الأوسط. إن إعداد الأفلام الوثائقية، التي ابتكرها حديثًا مايكل مور (حتى لو أنه ما زال يحرص على عدم توجيه أي تعليق يناهض إسرائيل)، سنح لملايين الأشخاص فرصة مشاهدة الدراما السياسية للمرة الأولى.

طبعت الأفلام الرئيسية في ذاكرتي، صورة هائلة في حياتي السابقة. عشتُ أفلامًا، وعاينت نصوصًا سينمائية بالشغف نفسه الذي يملأني عندما أقرأ كتابًا ما. ظللت، سنة، على الأقل، أرغب في أن أكون ناقد أفلام بدلًا من مراسل أجنبي. وبعيدًا من السفر خارج بيروت لنقل الحروب، أردت أن أمضي حياتي داخل صالات السينما الآمنة، وعلى مقاعدها، وأنا أشاهد عالمًا خطيرًا من

دون أن أختبره. وفي النهاية، أمضيت حياتي أشاهد الصراع الحقيقي والمريع في نقل مباشر، قادرًا على مقارنة مأساة الحرب بنسخة الفيلم. واكتشفت، في شكل غريب، أن في إمكان الأفلام أن تُظهر قذارة المعركة بواقعية أكبر بكثير من التلفزيون. إن المسؤولين التنفيذيين الذين يفرضون الرقابة الذاتية على الشبكات الضخمة - بما في ذلك قناة «بي بي سي» - لن يسمحوا لمشاهديهم بمشاهدة الجثث المقطوعة الرؤوس، والأطفال المنتزعة أحشاؤهم، والكلاب المتشردة التي تنهش جثث الضحايا. لا بدّ من أن هذا الأمر «كريه». إذا كنتم ترغبون في مشاهدة ما أشاهده - ما يعانيه الصحافيون جميعًا في الحرب -، عليكم أن تشاهدوا سايفينغ برايفيت راين، أو الانفجار الانتحاري في رانديشن.

وسط أيام الركود ما بين الأزمات في الشرق الأوسط، أتوجه إلى صالات السينما الفخمة في بيروت لأعيش هذه الحياة التي لطالما تمنيتها. أنتقل من مراسل أجنبي إلى ناقد أفلام.

تصفيق من المسلمين في بيروت

ليحيَ رايدلي سكوت. لم أظن يومًا أني سأقول ذلك. تضمن فيلم غلاديايتور، نصًا سينمائيًا من الممكن أنه استُخرج من فيلم «بويز أون بايير». أما الفيلم «بلاك هاوك داون»، فأظهر العرب في الصومال حيوانات عنيفة في شكل عام. لكن، عندما غادرت صالة السينما بعدما شاهدت الفيلم التاريخي الضخم للمخرج سكوت عن الحملات الصليبية، «كينغدوم أوف هيفين»، تأثرت كثيرًا، ليس بالفيلم، بل بحضور المواطنين المسلمين، إذ جلست في وسطهم في السينما في بيروت. أعلم ما قاله النقاد. لم يكن النص السينمائي كافيًا، وظهر أورلاندو بلوم بالطبع كحمال يجول في الشرق الأوسط في سنة مملوءة بالثغر، في دور المحارب الصليبي اليائس باليان من إيبلين.

لكن ثمة تكاملًا في شأن وصف الفيلم للحملات الصليبية. إذ بينما يتماشى ونظرتنا المعاصرة إلى الشرق الأوسط - يخضع المحاربون الصليبيون المعتدلون لسيطرة البارونات المتحفظين المحدّثين المجانين، بينما يتعرّض صلاح الدين للتوبيخ الساخر من شخص يشبه مقاتل القاعدة الخطير - فإنه يعامل المسلمين على أنهم رجال محترمون يستطيعون أن يُظهروا الكرم والقسوة على حد سواء، تجاه أعدائهم. وهو لأمر مدهش بالطبع مشاهدة فيلم «كينغدوم أوف هيفين»، ليس في لندن أو نيويورك، بل في بيروت، في الشرق الأوسط خصوصًا، وسط المسلمين - أغلبهم في العشرين من العمر - الذين كانوا يشاهدون أحداثًا تاريخية وقعت على بُعد مئات الأميال فقط منا. ما هو رد فعل المشاهدين عندما ارتكب فرسان الهيكل جرائم الاغتصاب وقطع الرؤوس وسط القرويين المسلمين الأبرياء في الأرض المقدسة، وعندما أقدموا على

قتل شقيقة صلاح الدين الجميلة والمحجبة بالشادور؟ لا يسعني الإنكار، حبست أنفاسي بضع مرات.

احتجت إلى التركيز من دون مقاطعة. عندما تعرّض ملك أورشليم المصاب بالجذام لمرض مميت - وجهه مغطى بقناع فولاذ كي يجنّب أتباعه النظر إلى شناعة التآكل الظاهرة - وبعدما أوقف المعركة على نحو مشرّف بين المحاربين الصليبيين والمسلمين المشرقيين، طلب صلاح الدين، الذي أدى دوره الممثل السوري الرائع غسان مسعود - ولحسن الحظ، أدى دور العرب في الفيلم العربُ أنفسهم - من أتباعه إرسال أطبائه ليعتنوا بالملك المسيحي. وعند هذا المشهد، صفّق المسلمون في شكل عفوي إعجابًا بعمل الرحمة هذا من جانب بطلهم المحارب: أرادوا أن يروا طيبته تجاه مسيحي.

ثمة أمور في الفيلم تتطلّب وجودكم هنا في الشرق الأوسط لتقدّروها. عندما صادف باليان مجموعة من رؤوس المحاربين الصليبيين على الرمال بعد خسارة المسيحيين سنة ١١٨٧ في معركة حطين، فكّر المشاهدون جميعهم في العراق. هذا هو الكابوس الذي أصادفه كل مرة أسافر إلى العراق لأنقل الأخبار. هذا هو الرعب الذي يضطر كثرًا من اللبنانيين الذين يعملون في العراق، إلى مواجهته. وعلى رغم ذلك، سجّلت لحظة رائعة من الانتقاص من الذات وسط المشاهدين عندما قال صلاح الدين، وهو يفكر في أحد المقاتلين الصليبيين الأعداء، «حاول أحدهم قتلي يومًا في لبنان». ساد الصمت المكان. صدّق الجميع أنها محاولة من مسعود لإدخال هذه الجملة بهدف الاستهزاء بقدرة اللبنانيين على تدمير أنفسهم. وبدوري، بعدما عشت تسعًا وعشرين سنة في لبنان، وشاهدتُ أغلب مأساته، رأيت نفسي غارقًا وسط دموع من الضحك.

أعتقد أن العيش في لبنان، بين قصور الصليبيين، يعطي صدقية لفيلم «كينغدوم أوف هيفين». قيل إن سكوت أراد أن يصوّر الفيلم في لبنان (بدلًا من إسبانيا والمغرب) ويسميّه تريبولي بعد الحملة الصليبية الكبرى [على المدينة

(طرابلس)] التي زرتها منذ بضعة أسابيع. ويعود أصل إحدى أكبر العائلات السياسية في لبنان، آل فرنجية، إلى «الفرنج»، لقب أطلقه العرب على المحاربين الصليبيين. كما أن عائلة الدويهي في لبنان - التي قاتل أبناؤها في معركة عنيفة ضد عائلة فرنجية، على نسق فرسان الهيكل، في كنيسة سنة ١٩٥٧ - من سلسلة الفرسان الفرنسيين المتحدّرين من المدينة الفرنسية الشمالية «دووايي» -. وعلى رغم ذلك، لهو أمر ساخر كيف أحدث فيلم «كينغدوم أوف هيفين» هذا القدر من التعليقات الساخرة في الغرب. إنها قصة - غير أي فيلم آخر حديث - لقيت إعجاب المسلمين. وبرغم ذلك، قلّلنا من شأنها، لأن أورلاندو بلوم تحوّل من حدّاد إلى محارب صليبي، ثم إلى مهندس هيدرولي في شكل غير متوقع؟ أم لأننا شعرنا عدم الراحة حيال الطريقة التي صوّرتنا فيها الفيلم، نحن المحاربين الصليبيين؟

لم يتجنّب انتقام المسلمين عندما سلّم غي دو لوزينيان كأس الماء المثلجة التي أعطاه إياها صلاح الدين، إلى الفارس القاتل الذي ذبح شقيقة الأخير، قال المحارب المسلم مهددًا: «لم أعطك الكأس»، ثم نحر حنجرة الفارس بسيفه. وبحسب الأرشيف، هذا ما قاله وما فعله بالتحديد.

إن مسعود، الممثل السوري المحلي الشعبي في الأفلام العربية، المعروف في الشرق الأوسط بـ«آل باتشينو السوري»، يلقي اللوم على جورج بوش في شأن الأزمة بين العالمين الإسلامي والغربي. وفي مقابلة حديثة معه، قال: «إن جورج بوش غبي، ويحب سفك الدماء أكثر من الشعب والموسيقى. لو كان صلاح الدين موجودًا، لكان منع بوش من تدمير العالم على الأقل، ومنعه خصوصًا من محو الشعور الإنساني بين الشعوب».

وافق مسعود على أن يؤدي دور صلاح الدين، لأنه وثق بأن سكوت سيكون عادلًا مع التاريخ. اضطُررت إلى أن أستعين بالكاتب اللبناني المميز أمين معلوف لأكتشف هل مسعود على حق. فمعلوف هو صاحب الكتاب

الإبداعي «الحروب الصليبية كما يراها»، بينما راجع العرب في شأن أبحاث عمله بدلًا من أرشيفات الحملات الصليبية. «عادل جدًا»، هذا ما قاله عن الفيلم «كينغدوم أوف هيفين». أفهم مقصده. ولكن في نهاية الفيلم، بعدما سلّم باليان أورشليم، دخل صلاح الدين المدينة ورأى صليبًا على أرض كنيسة دُمّر مذبحها خلال الحصار الذي دام ثلاثة أيام. التقط الصليب في حذر، ووضعه على المذبح في إجلال، ووقف المشاهدون إعجابًا بهذا المشهد، مصفقين ومعبّرين عن تقديرهم. أعجبهم هذا العمل المحترم. أرادوا للإسلام رحمة وقوة، على حد سواء. كذلك أبدوا إعجابهم بموسيقى الفيلم.

غادرتُ سينما «الدون» في بيروت مغمورًا في شكل غريب بهذا الأداء الرائع الصادر عن الحضور والفيلم، على حد سواء. أنصح لكم بمشاهدته. وفيما أنتم تفعلون ذلك، تذكروا كيف أدرك المسلمون في بيروت أن حتى هوليوود يمكن أن تكون عادلة. وأدركت حينذاك لماذا لن تُشنّ حرب أهلية مجددًا في المنطقة، على رغم مقتل الصحافي الأكثر شجاعة في بيروت [سمير قصير] الجمعة(*). لذا، عندما تشاهدون «كينغدوم أوف هيفين»، حين أعاد صلاح الدين الصليب إلى المذبح، تذكروا هذا التصفيق المدوّي من المسلمين في بيروت.

«ذي إندبندنت»، ٤ حزيران/يونيو ٢٠٠٥

(*) سمير قصير، أكاديمي وكاتب وصحافي لامع، ضد النظام السوري، تعرّض لجريمة اغتيال بتفجير سيارته خارج منزله في بيروت بتاريخ ٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٥.

عينا صلاح الدين

التقيتُ غاريث بيرس منذ أكثر من ست سنوات، لكني ما زلت محرجًا من لقائنا الأول. أجريت التحضيرات اللازمة للاجتماع مع هذه المحامية الجديرة بالاحترام - الدور الذي أدّته إيما ثومبسون في الفيلم «إن ذا نايم أوف ذا فاذر»(*) - في شيراتون بيلغرافيا أوتيل، فندق الشيراتون الحميم، وأظن... الأغلى في العالم. جلتُ سُدىً في البهو بحثًا عن غاريث أكثر من خمس عشرة دقيقة، إلى أن تقدمّت نحوي امرأة صغيرة ذات شعر أسود وغير متناسق، وسألتني هل أنا روبرت فيسك. أدركت في تلك الأثناء، أنني كنت أبحث عن إيما ثومبسون.

عندما قصدتُ المقهى في «شام بالاس أوتيل» منذ بضعة أيام، كنت أبحث عن صلاح الدين في شكل خاص، هذا المحارب الكردي في القرن الثاني عشر، الذي أدى دوره الممثل السوري غسان مسعود في الفيلم «كينغدوم أوف هيفين» للمخرج رايدلي سكوت. وها هو يشبه صلاح الدين بلحيته البيضاء ويديه الواسعتين والمعبّرتين اللتين يمررهما حول رأسه في غضب على الدمار الذي يشهده العراق، مظهرًا الغضب نفسه، الإنسانية نفسها - واللغة الإنكليزية المتلعثمة نفسها - الظاهرة في الفيلم. أظهر النادلون في دمشق الاحترام للشخصية المشهورة في زاوية المقهى - ليس على الإطلاق، لأن سياساته توازي عنفًا سياسات صلاح الدين، الذي يقع مثواه الفعلي المصنوع من خشب على بعد نصف ميل منا قرب المسجد الأموي -.

(*) قصة عن الحال المؤلمة نتيجة لوضع أحد عشر شخصًا في السجن بتهمة تفجير «ال آي آر إيه» في غيلدفورد سنة ١٩٧٤.

قال: «لا يمكنني أن أتصوّر أن الأحداث في العراق حقيقية. ثم لا يسعني أن أصدّق أن الوضع الراهن أفضل من أيام صدام حسين. العراق الرائع. . . هذا غير عادل. يجب أن نستعد لمستقبل دموي إلى حد كبير في العراق. في نظري، إنها حرب أهلية اليوم. شكرًا، جورج بوش. أتعلم، إن الإيرانيين نوابغ. يعلمون بأن جورج بوش يحتاج إليهم (في العراق). لذلك، يجارونه اليوم. أعتقد أن بوش سيعقد صفقة مع إيران. سيكون من الغباء أن يضرب إيران. إذا أراد أن يدمّر المنطقة، ويحصل على النفط، فسيحضّر لضربة عسكرية». يستريح مسعود في كرسيه أمامي متذكرًا «المجتمع المدني» والصداقة تجاه الغرب التي أظهرها الرئيس الإيراني السابق محمد خاتمي. «آه، يا للخطأ الذي ارتكبه بوش في عدم التحاور مع خاتمي. لم تكن أميركا مهتمة بهذا الرجل. وفوق ذلك جاءهم (الرئيس الجديد) أحمدي نجاد. وماذا نسمع اليوم؟ «انظروا إلى الإيرانيين، هم متطرفون. انتخبوا أحمدي نجاد!»». ثمة أوقات يذكرني فيها غسان مسعود بالصحافي الأميركي الجريء سيمور هيرش.

وفي حين تشتعل الأفكار ويتفجَّر الغضب يشعل مسعود سيجارته الثالثة. يمكنكم أن تروا لماذا تمتّع بتأدية دور معاقبة المحاربين الصليبيين في فيلم المخرج سكوت، مصرًّا على أن يمتطي حصانه بنفسه بدلًا من الممثل البديل، وأن يجسّد دور صلاح الدين فحسب عندما تأكد له أن السيناريو سيحترم ثقافته. يُذكر أن مسعود يتحدّر من ريف وعر قرب طرطوس. وهذا سبب من الأسباب وراء رفضه دورًا في الفيلم الجديد «سيريانا» الذي يدور على دراما النفط واحتيال وكالة الاستخبارات المركزية والملوك العرب. «هناك الكثير من الاعتداءات في الغرب على الإسلام اليوم. التقيت المخرج ستيفين جاغان في دبي بهدف مناقشة «سيريانا». وسألته: «لماذا «سيريانا»؟ هو أحد الأسماء التاريخية لبلدي، لماذا وكالة الاستخبارات المركزية؟ لماذا النفط؟»». أجاب أنها وجهة نظر. كنت خائفًا. عندما يخيفك أمر ما، في رأيي لا تفعله. إن مهنتنا دقيقة جدًّا، جدًّا، جدًّا. لا يمكنك أن تصنع فيلمًا إذا كانت لديك شكوك حيال

السيناريو. ولكن، عندما التقيت رايدلي سكوت للمرة الأولى في إسبانيا، وثقت بهذا الرجل. كان محترمًا، فروسيًا، فوهبت نفسي لهذا الفيلم».

إن اللغة الإنكليزية اللطيفة التي يتقنها مسعود - ويُرجّح أن يكون شوسير «الفارس المحترم الرائع» قد تكلّم على هذا النحو - تتزامن مع أسلوبه السوري في التعبير، بينما يدفع يديه إلى الأمام وأصابعه صعودًا ليُظهر موافقته؛ كما فعل في «كينغدوم أوف هيفين» عندما سلّم المحارب الصليبي باليان أورشليم إلى صلاح الدين. يسأل باليان: ما قيمة المدينة عند القائد المسلم. ويجيب صلاح الدين: «لا شيء». ويدفع المحارب المسلم أصابعه في الهواء ويبكي: «كل شيء». يرسم مسعود ابتسامة عريضة عندما أذكر هذا المشهد. «نعم. نتكلم ونعبّر بهذا الشكل. أنا رجل من الشوارع». ينظر قليلًا إلى زحمة السير من نافذة المقهى. «هذه هي ثقافتي، ولا يمكنك أن تعدّ حوارًا من دون احترام بين المجتمعات. يمكننا أن نقول «حسنًا، لا يوجد حوار». يمكننا أن نستخدم الدبابات والمتفجرات والقذائف، من دون الحوار. لا يمكن أحدًا أن يقول لي إن جورج بوش يتحاور. إن وسائل الإعلام الأميركية التي «تحضن» العالم تصنع من سوريا، «دولة إرهابية»، «شعبًا إرهابيًا». بالنسبة إلينا، سوريا عبارة عن عشرة آلاف سنة من الحضارة. هذا ليس بحادث تاريخي! يصعب على السيد بوش أن يفسّر لنا معنى هذا، أن يخبرنا عن الديموقراطية. شاهدنا وجهة نظره حيال الديموقراطية مع حركة حماس في فلسطين. لكنني واثق من أن المواطنين في الشوارع والمطاعم والمقاهي، لا يصدقون هذا الرجل».

بحسب مسعود، «أراد رايدلي سكوت أن يصنع فيلم أحلامه. بالنسبة إليه، كان الأمر بمثابة رواية مع باليان، ريتشارد قلب الأسد، صلاح الدين. يمكنني أن أفهم الفيلم من الناحية هذه. هذا لا يعني أنه لا يشبه (العراق) اليوم. أتعلمون أمرًا، في النهاية، ثمة مشهد يتعارك فيه المحاربون الصليبيون والجنود المسلمون، بينما تتباطأ تحركاتهم إلى أن يتوقفوا جميعهم على الشاشة. وهنا، نرى باليان وصلاح الدين يتواجهان، حيث اضطرّا إلى أن يتحاورا. أعتقد أن

سكوت أراد أن يقول إن الحروب لا تولّد نتائج جيدة. الأمر الوحيد الذي أدخلته في السيناريو، هو المشهد الذي يقصد فيه صلاح الدين أورشليم، ويضع الصليب الواقع في مكانه على مذبح الكنيسة. قال سكوت: «حسنًا، فلنقم بذلك». أراد أن يظهر هذا الجانب من شخصية صلاح الدين.

قال مسعود: «زرت أخيرًا قبر صلاح الدين منذ ثلاثة أسابيع. قبل إخراج الفيلم، قرأت كل شيء عنه، ثم زرت قبره مرات عدة، لأحصل على «روح» الرجل».

«ذي إندبندنت»، ٢٧ أيار/مايو ٢٠٠٦

تحدِّيَّ ستيفن سبيلبيرغ

إن فيلم «ميونيخ» للمخرج ستيفن سبيلبيرغ ناجح جدًّا. أكاد أسمع القراء يتأوّهون. لن يُعرض في بريطانيا يوم الجمعة المقبل. ولكن، في الولايات المتحدة الأميركية، دان العرب الفيلم في شأن الاغتيال الإسرائيلي للفلسطينيين بعد مجزرة الرياضيين الإسرائيليين في الأولمبياد في ميونيخ سنة ١٩٧٢، وعدوه بمثابة نقد ساخر عنيف للعرب من شأنه أن يجرّد شعبًا بأكمله يعاني سلبًا لممتلكاته ويرزح تحت الاحتلال، من إنسانيته. رأت المجموعات اليهودية أن سبيلبيرغ قلل احترام جذوره اليهودية من خلال وصف عملاء الموساد بأنهم مجرمون وقتلة مصابون بالارتياب الذاتي، توصلوا في النهاية إلى احتقار بلدهم. فكّرت في نفسي: من الحريّ أن تكون ثمة مسألة مثيرة للاهتمام هنا. وقد جلست في الطرف الآخر من الأطلسي لأشاهد الفيلم القنبلة للمخرج حيث تكثر مشاهد القتل وسفك الدماء.

ثمة أمور كثيرة ترعب المشاهد: مقتل الرياضيين المتشابك ومشاهد اغتيال القائد «أفنير» في وقت كان يجامع زوجته في شقة في نيويورك، قتل الاسرائيليين فتاة هوى هولندية أوقعت بقاتل من الموساد لتنفيذ عملية الاغتيال - تقدمت عارية وهي تنزف على الأرض، محاولة التنفس بعدما أصابت الرصاصة صدرها. الصيغة المبتذلة للشرق الأوسط تلك السنة. مشهد حيث يقوم أفنير - في شكل خيالي بالكامل - بالتحدث إلى لاجئ فلسطيني مسلّح يُقْدم على قتله في وقت لاحق. سأل: «أخبرني أمرًا، يا علي. هل تشتاق فعلًا إلى أشجار الزيتون التي زرعها والدك؟». بالطبع يحن علي إلى أشجار الزيتون الخاصة بأبيه. اسألوا أي فلسطيني في الأحياء الفقيرة الرديئة في مخيمات اللاجئين في عين الحلوة أو نهر البارد أو صبرا وشاتيلا في لبنان، تحصلوا على الإجابة

نفسها. إنه مشهد مدبّر وغريب حيث تتضارب مقاربة أفنير المثقّفة والفلسفية وغضب الفلسطيني القاسي والجاهل.

ثمة أخطاء أخرى كثيرة. حذف الاغتيال الفعلي لنادلة مغربية بريئة في النروج على يد فريق الموساد نفسه من نص الفيلم. أعتقد أن هذا الأمر جنّب الإحراج نتيجة إظهار أحد القتلة المختبئين لاحقًا في شقة في أوسلو لملحق عسكري إسرائيلي في النروج؛ رؤية لم تفِد العلاقات الإسكاندينافية - الإسرائيلية كثيرًا. لكن فيلم سبيلبيرغ قطع شوطًا رئيسًا في معالجة هوليوود لصراع الشرق الأوسط. للمرة الأولى، نرى الجواسيس والقتلة الإسرائيليين المهمين، لا يتساءلون عن دورهم كمنتقمين وحسب، بل ويقررون فعلًا أن مبدأ «العين بالعين» باطل، وغير ناجع، وخاطئ على الصعيد الأخلاقي. إن قتل مسلّح فلسطيني - أو فلسطيني واحد يتعاطف مع قاتلي ميونيخ - يخلق فقط ستة بدلاء منه. تمت ملاحقة أعضاء مجموعة اغتيال الموساد واحدًا تلو الآخر وقتلهم. حتى أن أفنير أجرى حساباته أنه كل مرّة يصفّي فلسطينيًا ما، تبلغ الكلفة مليون دولار.

ثم أن نهاية الفيلم تعترف، للمرة الأولى على شاشة السينما، بأن سياسة التسلّط العسكري والاحتلال التي تتّبعها إسرائيل غير أخلاقية. يُذكر أن الفيلم ينتهي عندما يحضر عنصر الموساد المرافق لأفنير إلى نيويورك ليقنعه بالعودة إلى إسرائيل، لتُرفض عودته عندما يفشل في إثبات ما يدين الفلسطينيين الذين تعرضوا للقتل، فابتعد المرافق عن أفنير مشمئزًا عندما عرض عليه تناول الطعام إلى مائدته. في نظري، إن تحرك الكاميرا نحو الاتجاه الأيسر للرجلين معيدة إحياء صورة رقمية لبرجي التجارة العالمية خلف الضباب يدعو إلى «التألم». قلت في نفسي، نعم، ستيف، شكرًا. ولكن فهمنا الرسالة. نعم، هذا هو المقصد. يفكك هذا الفيلم أسطورة الجبروت الإسرائيلي والتشامخ الأخلاقي وقصة حلفاء هذه الدولة الكاذبين - إحدى الشخصيات الأكثر إثارة للشفقة، رئيس مافيا فرنسي طاعن في السن يساعد أفنير - وادعاءاتهم المتعجرفة أن لهم

الحق في التورّط في جرائم دولة بعكس الآخرين. قد يكون كاتب الكتاب، الذي يرتكز عليه ميونيخ - جورج جوناس مؤلف كتاب «الانتقام» - بذل ما في وسعه حقًّا لتفكيك سبيلبيرغ. ويقول: «لا يبلغ المرء الأساس الأخلاقي العالي، إذا لم يتخذ موقفًا من الخير والشر. ما يُبعد الحضور عن الفيلم هو «معاملة الإرهابيين على أنهم بشر... فحين بذل سبيلبيرغ وكوشنر (توني كوشنر، كاتب النص السينمائي الرئيس)» جهدًا لعدم تصوير الناس شياطين، انتهى بهما الأمر إلى أنسنة الشياطين، نعم، لكن هذا المقصد، أليس كذلك؟ فنعت الإنسان بالإرهابي يسقط عنه إنسانيته أيًّا تكن خلفيته.

أصدر آرون كلاين كتابًا جديدًا عن ميونيخ عن دار «راندوم هاوس»، والأرجح أن توقيته دُرس ليتناسب مع الفيلم. بحسب مراجع، يكتب عن مجموعات الموساد نفسها، فيصفها بأنها عصابات وحشية بدلًا من صفة كونها مرتزقة تشكك في نفسها. في سياق آخر، من المثير للاهتمام معرفة أن كلاين، النقيب في وحدة الاستخبارات التابعة للجيش الإسرائيلي، هو أيضًا مراسل لمجلة «تايمز» في أورشليم، ومختصّ في الشؤون العسكرية. أفترض أن صحيفة «أغسطس» المناصرة لإسرائيل، ستعيّن قريبًا عضوًا من حماس مراسلًا في الضفة الغربية ومختصًا في الشؤون العسكرية. ولكن مجددًا، لا تصيب هذه المسائل الهدف. لا يكمن الأمر هل يبدل سبيلبيرغ شخصيات قاتليه - أو هل تمثل مالطا بيروت وبودابيست باريس - بل في إخضاع الهيكلية الأخلاقية الفوقية التي تتحلى بها إسرائيل للمعاينة الذاتية القاسية. في النهاية، يقتحم أفنير القنصلية الإسرائيلية في نيويورك، لأنه ظن أن الموساد سيبحث عنه لتصفيته أيضًا.

لذا الآن، إن التحدي الأكبر هو أمام سبيلبيرغ. كتب لي يومًا صديق مسلم ناصحًا لي بمشاهدة فيلم «لائحة شيندلر»، وسأل هل أراد المخرج أن يستمر في القصة مع ملحمة عن سلب أراضي الفلسطينيين الذي تلا لاجئي شيندلر في فلسطين. عوضًا عن هذا، قفز سبيلبيرغ أربعة عشر عامًا ليصل إلى ميونيخ، حيث أشار في مقابلة، إلى أن العدو الفعلي في الشرق الأوسط هو «العناد».

خطأ. إن العدو الفعلي هو سلب أرض شعب آخر منه. لذا، أسأل الآن: هل نحصل على ملحمة من سبيلبيرغ عن النكبة الفلسطينية لعام ١٩٤٨ وما تلاها؟ أم أننا ننتظر وسننتظر مثل هؤلاء اللاجئين الذين ينتظرون بصبر نافد الحصول على التأشيرات في الفيلم الذي يدور في وقت الحرب: كازابلانكا؟

«ذي إندبندنت»، ٢١ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

دافنتشي التافه

كنت مضطرًا يومًا إلى أن أراجع السيرة الذاتية لهذه الأكاديمية الفلسطينية المستقيمة حنان العشراوي، المؤيدة للسلام؛ لكني أقررت في بداية مقالي، بأن كان من المستحيل تقريبًا الكتابة عنها لأن الكتاب كان رديئًا جدًّا. أجبرت نفسي اليوم على أن أشاهد «ذا دافنتشي كود»، ووقعت في هوة أدبية عميقة منعتني تقريبًا عن التكلم على هذا الفيلم الذي يرتكز - كما نعلم جميعًا - على رواية دان براون الغرائبية.

يا إلهي، إنه رديء! لا أفهم كيف يمكن قداسة بابا روما بينيدكتوس، الذي اشتُهر بمعارضته الشاذين والطلاق والتسلح، والغاضب إلى هذا الحد أن يغلبني لأن الفيلم يعزِّز طبيعة الكنيسة الكاثوليكية الرومانية المملة(*). كان والدي العجوز يشير إلى تقاليد الكنيسة الكاثوليكية بنعتها بـ«الكلام الروماني الفارغ»، وهو وصف غير سيئ لهذا الفيلم المقيت. لا ترمز شعبيته إلى اهتمامنا بالمسيح، بل إلى نقص في إيماننا، وحاجتنا الماسة إلى ديانة تافهة. في الواقع، يدور الموضوع على السحر الأسود. يسرق الفيلم بوقاحة مشاهد من أعمال آخرين. فينتحل أقنعة الوجه وسياج أورشليم الشبحي، المكمّل بالمنجنيق على رغم استبدال الجيوش المسلمة بالمحاربين الصليبيين - من فيلم «كينغدوم أوف هيفين» للمخرج رايدلي سكوت. ويشبه بعض موسيقاه نغمات فيلم «غلاديايتور» للمخرج سكوت المثيرة للتوتر. وفي رأي الممثلة نيلوفير بازيرا، يكاد المجرم يكون السفاح مطابقًا - بالشخصية والمظهر - لصورة الموت التي أداها بينغت

(*) في نهاية الحرب العالمية الثانية، بحسب الفاتيكان، كان البابا العتيد عضوًا في القوات المسلحة الألمانية، في السلاح المضاد للطائرات غصبًا عنه، ولمدة قصيرة.

إيكيروت في فيلم «ذو سيفينث سيل» للمخرج إنغمار بيرغمن. أتذكرون لعبة الشطرنج الشهيرة بين إكيروت والمحارب الصليبي التابع لماكس فون سيدو؟

لكنها جميعًا تطرح سؤالًا قديمًا: كيف اكتسب هذا الكلام الفارغ الشعبية هذه، فيما الفن والأدب والموسيقى - والأفلام - الرائعة لا تجتذب الرواد أبدًا أو نادرًا ما تجتذبهم؟ كيف أن الكتب والأفلام والموسيقى التي من المفترض أن تعجبنا، لا تلقى إعجاب العالم - أو أقلّه ملايين الدولارات - بينما تنكب الفتيات وباريس هيلتون و«ذا دافنتشي كود»، نعم لحصد المعجبين والأموال من سنغافورة إلى دنفر؟ هل نحن فعلًا أدوات لرجال التسويق الذين يدفعون بتلك المسائل كالواعظين، أو مثل الأطباء الدجالين في الغرب المتوحش، والذين يعدون بالشباب الأبدي داخل زجاجة؟

فلنبدأ، ولكن من جهة الرجال الأشرار. أعدت «ذي إندبندنت» بإعداد مراجعة لفيلم «تايتانيك» للمخرج جايمس كاميرون تحت عنوان: «شاهدت فيلم التايتانيك، وهو رديء». الآن، أعجبني فيلم «التايتانيك» كما أعجبني فيلم «كينغدوم أوف هيفين» للمخرج سكوت، الذي لقي مراجعة مروّعة. وما زلت أذكر الجملة المفضلة في الفيلم، عندما سألت روز الرائعة (كايت وينسليت) أندروز، المصمم الإيرلندي للسفينة، هل تغرق السفينة: «سيد أندروز، رأيت الجبل الثلجي، وإني أراه في عينيك». وعندما تنهار التايتانيك برفقة أندروز - وتبيّن أنه الأخ الفعلي لأحد رؤساء الوزراء البروتستانت في إيرلندا - قسمًا بالله، تشعرون كما لو أنكم تنهارون إلى أسفل الأطلسي معها.

أذكر الليالي الطويلة في إيرلندا بولع شديد عندما كنت أكمل أطروحة الدكتوراه (الموضوع: الحيادية الإيرلندية في الحرب العالمية الثانية) من نافذة بيت صغير قبالة منزل آخر أمامه مصطبة، حيث كانت إحدى الكاتبات الإيرلنديات الخصيبات، مايف بنشي، تُنهي روايتها الرائعة «لايت إيه بيني كاندل». ومثل إنتاج مايف، لم تكن كاندل تستحق الانتباه الدقيق والجدي، على

رغم أن عددًا من المشاهد في الرواية منسوب إلى الأسلوب الديكنزي من حيث الشفقة، على سبيل المثال، اللحظات الرهيبة عندما أدرك الزوجان الإيرلنديان (بعكس القرّاء)، أن ابنتهما سرقت من المحل هدية عيد الميلاد التي أهدتهما إياها. ولكن، لا تعد مايف في صف الحائزين الجوائز في فئة الأدب، مثل الروائي الأقل شهرة جون بانفيل، لكنه جار قريب لها. في شكل معاكس، لن يكسب بانفيل قيمة الأرباح التي تحصل عليها مايف؛ هذا الرجل الذي طلب مني يومًا إعداد مراجعة سيرة العشراوي الذاتية الرهيبة.

ما الذي يجعل الفن شعبيًا إذًا؟ عندما كنت أرتاد المدرسة، كان شارلز ديكنز متجهّمًا نظرًا إلى كونه فكتوريًا عجوزًا ومحافظًا كان يعدّ إنتاجات تكسّبية لصحف أسبوعية (صحيح)، حتى لو كانت شخصياته - بيب، سكرودج، أوليفر تويست، وغيرها - شعبية إلى أقصى الحدود لدى الأطفال. ولكن، عندما دخلت الجامعة، كان يظهر ديكنز نفسه في كل مادة أدب معاصر - مع ذكر الدكتور دايفيد كرايغ، في جامعة لانكستر سابقًا - بصفة كونه يساريًا كاذبًا، يتطرّق إلى فضائح الثورة الصناعية (هارد تايمز وبليك هاوس). تمامًا عندما كنت في المدرسة، نما لدي شغف بمؤلفين مغمورين إلى حد كبير، بينما كنت أضجر والديّ حتى السأم بأسطوانات مجهولة، ولكن جميلة لبروكنر وشوستاكوفيتش. أما اليوم، فتحتل المرتبة الأولى شهريًّا طوال السنة. كذلك يُقدم عرض لينينغرايد في شكل مكثّف تمامًا كالتحف التي حوّلها برنامج «النغمات المئة المفضلة لديكم»، المعروض عبر قناة «بي بي سي»، صيغًا مبتذلة: السمفونية الخامسة لبيتهوفن، مقدمة ١٨١٢ لتشايكوفسكي، فنلنديا لسيبيليوس، مقدمة شوبان، واتر ميوزيك لهاندل، ذو فور سيزن (الفصول الأربعة) لفيفالدي. وأنواع موسيقى «البوب» الأخرى التي كلما أسمعها، أهرول إلى الضغط على زر «الإقفال» كما لو أنها كارلي سايمون.

من الواضح أن ليس هناك قواعد محددة لهذا كله. كان فيردي مشهورًا في عصره، بقدر ما هو من رواد الأوبرا اليوم. تجاوز «ذو غار فاذر» الخط ما بين

الترفيه والفن من دون أي جهد، تمامًا مثل هيتشكوك. حافظ كازابلانكا على شهرته اليوم كما في سنة ١٩٤١، وإن اختلفت الأسباب. كان الدكتور زيفاغو لدايفيد لين مشهورًا إلى حد كبير في السينما. أحبّه والدي، لكنه عدَّ رواية باسترناك الأصلية - أكثر تأثرًا ودرامًا - في شكل غريب، نجاح «هؤلاء الإعلاميين اللعينين». يعجبني شعر سيموس هينيي، لكني أرى بومبر، غارة نارية «آر أيه أف» على ألمانيا النازية، إحدى أفضل روايات الحرب، على رغم أن صاحبها لين دايتن المميز والمشهور، لم يحز أي جائزة. من الواضح أن جاسوس جان لو كاري «سمايلي»، تحرك بين الفن والتقدير الهائل (ولكن ليس بالنسبة إلي). خلق كتاب «ذا بريدج أون ذا ريفر كواي»، فسحة الأمل الخيالية والشعبية نفسها وصولًا إلى التراجع الذكي، على رغم أن ذلك تمَّ على حساب الرواية الأصلية المستبعدة لبيار بول، مع نهايتها المؤلمة أكثر، بسبب فشل الاعتداء على الجسر.

هل مكانة الفن في التاريخ منوطة بالموهبة أو الذكاء؟ أم أنه التاريخ بنفسه؟ هل على الكتّاب والمخرجين والمؤلفين، أن يحرصوا على توافق عملهم والزمن الذي يعيشون فيه؟ هل علينا أن ننتظر سمفونية «الحرب على الإرهاب»، «سويت ١١/٩»، «اللحن الجنائزي العراقي»، للتوافق وشوستاكوفيش أو باربر أو بريتن؟ أما بالنسبة إلى «ذا دافنتشي كود»، فيمكننا أن نتعاطف مع صوفي فحسب، وهي مواطنة فرنسية تعمل بصفتها مفككة للشيفرات وتابعة لقسم الشرطة التي يتبين أنها الوحيدة المتبقية من سلالة يسوع المسيح على الأرض. تنهي الفيلم بندبة على رقبتها من النوع الذي حاول البابا يومًا أن يحدثه، من دون قصد بالطبع، في طواقم القوى الجوية المسلحة، فوق ألمانيا النازية. فيلم شعبي؟ تبًّا.

«ذي إندبندنت»، ١٧ حزيران/ يونيو ٢٠٠٦

حُجبت الحقيقة عنا جميعًا

نعم، وصل الفيلم «أوو جيروزاليم» وهو يتماشى وتوقعاتنا في شأن تحويل أوروبا عالمًا هوليووديًّا؛ يُذكر أن الفيلم يرتكز بقوة على التاريخ الملحمي لولادة إسرائيل للمخرجين دومينيك لابيير ولاري كولينز. الفيلم درامي: أبطاله المغني الفرنسي باتريك برويل، في دور قائد إسرائيلي، ودايفيد بن غوريون المتألّق ذو الشعر الأبيض المقاوم للجاذبية، وسيد تغماوي وج. ج. فيلد على أنهما الزوجين الرئيسين للأفلام هذه كافة. وسيد شاهين، العربي المحترم والعادل وذو القلب الطيّب، وبوبي غولدمان اليهودي، اللذان تخطت صداقتهما الحرب التي تدور بينهما. تعودنا هذين الزوجين، بالطبع. تضمّن إكزودس، الذي يرتكز على رواية ليون يورس التي تدور على أحداث سنة ١٩٤٨ نفسها، مواطنًا عربيًا «جيدًا» تصادق مع البطل اليهودي لبول نيومن، تمامًا كما قدّم إلينا بين هور مواطنًا عربيًا «جيدًا» أعار إيهودا بن هور للمخرج تشارلتون هستون أحصنته للاشتراك في سباق المراكب الحربية القديمة ضد قائد المئة الأكثر رداءة في تاريخ الامبراطورية الرومانية. متى أقررنا بوجود مواطنين عرب «جيدين» بقلب ذهبي، نحن أحرار، بالطبع، أن نركّز على النوع الرديء. يقتلون امرأة شابة في إكزودس، وامرأة شجاعة أخرى أثناء معركة اللطرون في «أوو جيروزاليم» (نرى جزءًا منها وقد عرّاها مغتصبها قبل قتلها بقنبلة).

كذلك هي أيضًا علامة تدل إلى الأوقات، إذ، لأسباب «أمنية»، كان من الضروري إنتاج الفيلم «أوو جيروزاليم» في رودس، تمامًا كما صوّرت مشاهد بيروت في فيلم «ميونيخ»، الأفضل إلى حد كبير، في مالطا. صوّر فيلم إكزودس في موقع في قلب إسرائيل أكثر أمانًا. لكنها ليست عادة تبهيم العرب والمسلمين التي تقلقني. عليكم أن تشاهدوا فحسب فيلم أشانتي الذي يدور على المتاجرة

بالعبيد، وقد صوّر في إسرائيل، من بطولة رودجر مور (من بين كل الناس)، وعمر الشريف، لوصف العرب، على النسق النازي، بأنهم قاتلون وسارقون ومتحرشون بالأطفال. إن الحركة المناهضة للسامية ضد العرب - الساميين أيضًا - متساوية في الأفلام. يجب أن أقرّ بأن غموض القادة العرب وتآمرهم في فيلم «أوو جيروزاليم» - باستثناء الملك عبد الله الأردني المحترم - حقيقة فعلًا، وليس على الإطلاق مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني (الذي صافح هتلر).

لا، الأمر الذي أعترض عليه هو التشويه المتعمّد للتاريخ، وقلب الأحداث اليوم لإظهار اليهود ضحايا حرب الاستقلال الإسرائيلية (٦,٠٠٠ ضحية)، فيما في الواقع كانوا المنتصرين، حيث يصور العرب في فلسطين - أو على الأقل هذا الجزء من فلسطين الذي أصبح إسرائيل سنة ١٩٤٨ - أنهم السبب وراء هذه الحرب والمنتصرون الظاهرون (لأن يهود القدس الشرقية أُجبروا على التخلي عن منازلهم بعد توقف إطلاق النار)، عوضًا عن الضحايا الأساسية. فلتأخذوا، على سبيل المثال، مجزرة دير ياسين سنة ١٩٤٨ حيث قتلت عصابة الشتيرن القرويين العرب، في ما يُسمى اليوم بضواحي القدس، جيفات شاوول، وانتزاع أحشاء النساء وإطلاق قنابل يدوية على صالات تعج بالمدنيين. في «أوو جيروزاليم»، تظهر عصابة الشتيرن على أنها عصابة من الرجال المتعطشين إلى لدماء، ونوع من القاعدة اليهودية، المختلفة كليًّا عن الجيش الإسرائيلي المنظم المؤلف من مقاتلي العصابات الشبّان ذوي المبادئ السامية.

في الفيلم، تشاهدون جثث الضحايا العرب - وامرأة مصابة يداويها مواطن إسرائيلي لاحقًا -، ولكن لا تحصلون على صورة واضحة من شأنها أن تظهر دير ياسين قرية من بين الكثير من القرى التي ذُبح أهلها - وهذه هي الحال في الجليل - واغتصب المقاتلون اليهود نساءها. أقدم علماء التاريخ «الجدد» في إسرائيل على التخلّص من هذه الوقائع في شجاعة، مع الإثبات القاطع أنهم خدموا مصلحة إسرائيل في سلب ٧٥٠,٠٠٠ عربي فلسطيني أراضيهم التي كانت ستصبح إسرائيل. وأشار عالم التاريخ الإسرائيلي آفي شلايم في شجاعة إلى هذه

الحقبة على أنها «عملية تطهير عرقي». ولكن، لا يلطّخ أي اقتراح مماثل مشهد المذابح في دير ياسين في الفيلم «أوو جيروزاليم».

يجب أن ينفصل الواقع عنا. وبالتالي، فإن المجزرة، التي أصبحت جزءًا من سياسة ما، تحولّت في الفيلم انحرافًا البعض المتطرفين المسلّحين. بالطبع، بعد نهاية الفيلم، تُعرض على الشاشة صور تسجّل سلب الفلسطينيين أرضهم في شكل وحشي نتيجة لـ«حملات البروباغندا العربية». هذه هي أسطورة في حد ذاتها. ولكن، يجب أن نكرّر: سبق لعلماء التاريخ الإسرائيليين أن دحضوا الكذبة، ومفادها أن الأنظمة العربية أخبرت العرب الفلسطينيين عبر الراديو، أنهم يجب أن يغادروا منازلهم «إلى أن يتم رمي اليهود في البحر». لم يُبث هذا النوع من الأخبار. غادر الفلسطينيون بأغلبهم مخافة أن يصيبهم ما أصاب سكان دير ياسين. فالحملات الدعائية للأخبار التي بثها الراديو كانت إسرائيلية، لا عربية.

كما لو حُجب التاريخ بلحاف أو ستار أو حجاب، إذ نرى فحسب ظل الأحداث الحقيقية، بينما تتشوه معانيها لتصبح غير مفهومة. «هذا هو السبب لماذا أردتم أسلحة»، صرخ بوبي غولدمن في وجه قائد الشتيرن وسط جثث دير ياسين. هو على خطأ. فالأسلحة مكّنت عصابة الشتيرن من قتل عرب دير ياسين لنشر الذعر الذي شرّد ثلاثة أرباع مليون فلسطيني في منفى دائم.

ولكن، أليس هذا هو العالم الذي نعيش فيه؟ ألم تُحجب الحقيقة عنا جميعًا؟ ولا أتكلم على ملاحظات جاك «ذو فايل» ستراو(*)، بل أستاذه السياسي، «بلير لورد كوت العمارة». بعد مرور يوم على مشاهدتي فيلم «أوو جيروزاليم»، فتحتُ صحيفتي لأجد أن رئيس وزرائنا كان يصف نقاب النساء

(*) أقرّ النائب في البرلمان في حزب العمال ووزير العدل اليوم، جاك سترو، عام ٢٠٠٦، بأنه طلب أحيانًا من النساء المسلمات نزع الحجاب خلال الاجتماعات في دائرته البرلمانية تسهيلًا للتواصل.

المسلمات بـ«علامة فصل». وعلى رغم ذلك، هل ثمة رجل يضاهي ذنب بلير في «الفصل»: فصل الشعب البريطاني عن حكومته المنتخَبة في شكل ديموقراطي؟ هل ثمة أحد يضاهي بلير خداعًا؟ هل من أحد يوازيه في سرد الأكاذيب للشعب البريطاني بهدف التعتيم على الوقائع التاريخية وتفكيكها وتشويهها؟

إن أسلحة الدمار الشامل، وإنذار الدقائق الـ ٤٥، والعلاقات بين صدام والقاعدة، والخيال الرديء حيال «نجاح» ما بعد احتلال العراق، و«نجاح» ما بعد التخلّص من طالبان في أفغانستان، هي مجرّد محاولات من بلير ليلبسنا الحجاب، وهو سلاح يضاهي حجاب المرأة المسلمة خطورة. يجب أن نخترق الحجاب الذي ألبسنا إياه «لورد بلير كوت العمارة» كي تصبح الأكاذيب حقيقة والحقيقة أكاذيب. وبالتالي، نُفصَل عن الحقيقة. لذلك، يمثل بلير اليوم بنفسه «علامة الفصل» هذه. واآسفاه على الزمن والأيام! واآسفاه على القدس!

«ذي إندبندنت»، ٢١ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧

عندما يعجز الفن عن التوافق والحياة

تربط الفن والحقيقة علاقة غريبة. خذوا، على سبيل المثال، «ستاف هابنز» للمخرج دايفيد هاير، عن تطور الأحداث وصولًا إلى الحرب في العراق. يُذكر أن عنوانه اقتُبس من ردّ فعل دونالد رامسفيلد على انتشار النهب والسلب في ١١ نيسان/أبريل ٢٠٠٣. وبين المشاهد الأقوى في الفيلم، ظهور كولين باول في المسرحية أمام مجلس الأمن الدولي بتاريخ ٥ شباط/فبراير. كنتُ جالسًا في صالة الأمم المتحدة في تلك الأثناء، وتظهر ملاحظاتي على الاجتماع حدًّا كبيرًا من السخرية وعدم الاقتناع من جهتي. صُعقت بالصور المبتذلة لمختبر أسلحة كيميائية متنقل - اختاروا أن يكون في قطار، من بين الأمكنة جميعًا - والنص التافه عن نقاش دار بين اثنين من أتباع صدام («اعتبر الأمر منتهيًا، سيدي»). ولكن، بفضل مسرحية هاير، اكتشفت ما فاتني.

يقول باول: «أيها الزملاء، إن كل بيان أدلي به اليوم مدعوم بمصادر ثقة... هذه ليست افتراضات. ما نطلعكم عليه هو وقائع واستنتاجات مبنيّة على استخبارات قاطعة». لمَ لمْ أدوّن هذه التصريحات في ملاحظاتي؟ كيف فوّتُّ علي الكذبة الأكبر؟ إن مصدر مختبر الأسلحة الكيميائية «شاهد عيان، مهندس كيميائي عراقي». في الواقع، كان «المصدر» في ألمانيا، ولم تستجوبه وكالة الاستخبارات المركزية. وهكذا دواليك. ثم أن تأثير مسرحية هاير مدمّر: أسوأ بكثير من أداء كولين باول الأصلي، والذي شهدت عليه مباشرة. هل هذا هو تأثير الفن، أم الخداع؟ ربما الأمران معًا، إذ، تُعدّ اليوم مشاهدة عالمنا السياسي، متمثلًا في مسرحية بعد أسابيع أو أيام فقط من حدوثه فعلًا، نجاحًا قياسيًا.

لم يكن كذلك، على رغم أن شعر ساسون وأوين كان معاصرًا والحرب

التي داناها، وقد حدث ذلك في زمن بعيد كل البعد من مجاراة المسرح اليوم. شهدنا جورنيز أند ل ر. س. شيريف بعد عقد من الزمن من سنة ١٩١٨. كان علينا أن ننتظر الوقت نفسه كي يخبرنا غرايفز وبلاندن إياه كما هو. استغرق الفيلم «أول كوايت أون ذا ويسترن فرونت» للمخرج رومارك سنوات من الزمن لإخراجه. ما زلت مولعًا بالنسخة الثانية مع إرنست بورجنين المعدّة بعد الحرب العالمية الثانية. ثم أن الصراع ما بين ١٩٣٩ و١٩٤٥، ولّد أفلامًا رائعة في تلك الحقبة. نعم، أنحني أمام ليزلي هاورد و«ذي فورست أوف ذي فيو» والفيلم المنسي «وان أوف أور إيركرافت إيز ميسينغ» للمخرج دايفيد لين سنة ١٩٤٢. كنت أشاهدها كافة عبر التلفزيون التجاري بعد ظهر كل أحد، مع «كازابلانكا» الذي اشتُهر في حينه لنشيد «المرسييز» أكثر من «بلاي إت سام». كنت أشاهد الكولونيل ستراسر يصل إلى مقهى ريك - أدى دوره ممثل يهودي كان من الممكن أن يموت في أوشيفيتز لو لم يكن في هوليوود (إذ قضى في مباراة للغولف سنة ١٩٤٣). وشعرتُ دومًا أن أفضل جملة في الفيلم عندما يقول بوغي، الذي كان في نصف حال سكر: «بين ملاهي مدن العالم قاطبة، لم تختر إلا أن تقصدني».

على رغم ذلك، مرّت سبع عشرة سنة قبل أن نشاهد الفيلم دانكيرك. ما زال جندي المشاة الشجاع للمخرج جون ميل مؤثرًا جدًّا على رغم أنني لم أتخطَّ مشاهدة تفجير جسر تيستون قرب مايدستون، كبديل سينمائي من معارك فرنسا الشمالية في تلك الأثناء. ومقارنة بذلك، «ذي لونغست داي» كان فاشلًا. فقد انتظر المخرجون البريطانيون حتى العام ١٩٦٠ لينصرفوا إلى تنفيذ أفلام عن الحرب العالمية الثانية(*). بالطبع، تم إعداد بعض الأفلام المفضلة في تلك

(*) انتقدني قارئ لأنني استثنيت «ذو كرول سي» حيث يؤدي جاك هاوكنز القائد المعذّب الضمير في السفينة الحربية «إتش أم أس كومباس روز». في كتاب نيكولا مونسارات وفي الفيلم، يعدّ القبطان قنبلة أعماق في الغواصة الألمانية بينما يتصارع البحارة في سفينة أخرى من أجل السباحة في الماء حوله. يذهبون جميعهم ضحية الانفجارات.

الأثناء. أذكر «ذي غرايت إيسكايب»، ليس لاحتوائه الجمل الأكثر تفاهة في السينما، وفي حين يشترك هيلتس (ستيف ماكين) في سباق على دراجته النارية الألمانية المسروقة نحو جبال سويسرا، يقف ويدوس على الثلج السويسري، ويقول - نعم - يقول: «سويسرا!».

لكني لست عادلًا. لم يُظهر الفيلم «ذي باتل أوف بريتين» - حيث الموسيقى توازي تقريبًا نافثة اللهب جدارة - رعب الحروب الجوية. والأرجح أن الفيلم «ذي بريدج أون ذي ريفر كواي» للمخرج لين، كان الفيلم السينمائي الأول يُظهر المعاناة الرهيبة التي تكبدها سجناء الحرب البريطانيون في آسيا. ولكن أعتقد أن أستنتج أن «أيه بريدج تو فار» هو لما بين الأفلام الأجمل لما بعد الحرب: ملحمة آرنهم هذه التي اكتشفتُ الآن - بعد مشاهدة الفيلم منذ بضعة أيام فقط - أنها تدور على نهاية الامبراطورية، والدراما التي فرضها انهيارها على الرجال والنساء العاديين. كانت معركة آرنهم لا معنى لها البتة، ويكاد الدمار المطلق في الفيلم يشبه الفن العظيم. وقد أُعطي شون كونري أحد أفضل الأدوار. منذ أكثر من عشرين سنة، كانت تُعرض على التلفاز دراما رائعة لمدة ثلاث ساعات، عن أزمة السويس، كنت أشاهدها في بيروت خلال الحرب الأهلية التي تشبه هاير، إذ تبين سنة ١٩٥٦ أن الحكومة البريطانية تكذب في شكل فاضح تمامًا مثلما تفعل برامج المنوعات الأميركية والبريطانية بعد سبع وأربعين سنة.

ماذا بعدُ إذًا؟ هل نشاهد أعمالًا جديدة لهاير كل مرة نذهب إلى الحرب؟ أم ننتظر ثلاث سنوات، أي الوقت الذي استُغرق لعرض «فلايت ٩٣» على شاشات السينما؟ وأشك في أننا لن نحتاج إلى هذا الوقت، وأن السياسيين سيؤدون بأنفسهم أدوارهم؛ بعبارة أخرى، ستصبح الحقيقة وعالم الأفلام (أو المسرح) أمرًا واحدًا. وعلى رغم ذلك كله، مَن منا يمكن أن ينكر أن صور الجرائم الدولية ضد الإنسانية التي حدثت في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ تضاهي «فلايت ٩٣» قوة وتأثيرًا؟ وصلت إنتاجات القاعدة أولًا إلى هناك، إذ لا ءمت

توقيت تصادم الطائرة الثانية ببرجي التجارة العالمية ووقت التغطية التلفزيونية المباشرة. ولهذا السبب، لم يُطالب أحدهم بالمسؤولية. ولم تكن هذه المطالبة ضرورية عندما عرفنا كل ما نريد أن نعرفه من الصور المروّعة. لهذا السبب، قام جزّارو شرائط الفيديو في بغداد، بخلق موقع لهم على الإنترنت لعرض التغطية المباشرة الوشيكة لقطع رؤوسهم.

أصبح العنف اليوم قريبًا جدًا من حيواتنا، فيعجز الفن أحيانًا عن التوافق والحقيقة. بالطبع، من الممكن أن يخسر الممثلون صدقيتهم. وعلى رغم ذلك، ألم يكن رئيس الولايات المتحدة الأميركية الثالث والأربعون، الذي يرتدي اللباس غير الرسمي، مَن تلفَّظ بأكبر كذبة: نُفِّذت المهمة؟

«ذي إندبندنت»، ١ تموز/يوليو ٢٠٠٧

نصيب الشرطي غير سعيد

صدر الآن فيلم مرعب وملهم من ألمانيا. الفيلم «صوفي شول: ذي فاينل دايز» للمخرج مارك روثموند، يدور على آخر يوم من الحرية لتلميذة - والأيام القليلة قبل إعدامها بالمقصلة - تبلغ الواحد والعشرين من عمرها، وتقصد جامعة ميونيخ، قررت سنة ١٩٤٣، بالاشتراك مع أخيها هانز، إطلاق ثورة طالبية على النازيين من خلال حركة جامعية صغيرة سُمِّيت بـ«ذي وايت روز» (الوردة البيضاء).

أصدر الأَخَوان عددًا من المنشورات التي تتهم هتلر، ووزعاها، وهي تركز على ذبح الجنود الألمان في ستالينغراد، [بما ينبئ] بانهيار ألمانيا المعنوي وخسارتها المستقبلية. تؤدي جوليا غينتش دور صوفي، البريئة التي خُيِّرها المحقق من الغستابو بين أن تنكر أخاها، نظرًا إلى إعجابها به، فتنال حريتها، أو أن تواجه عقوبة النازيين مثل أي مواطن ألماني متّهم بتحطيم معنويات ويرماشت، ومساعدة «العدو».

المحقق من الغستابو هو موهر بالطبع، وإحدى الشخصيات الأكثر روعة ورداءة وحساسية في الفيلم. والتحقيق الدقيق الذي أجراه مع صوفي ممتاز: لماذا غادرت جامعتها بحقيبة فارغة بعد ثوان فقط من اكتشاف المنشورات قبالة أرض الردهة؟ لماذا كانت تخطط للصعود في تمام الساعة ١٢:١٥ إلى القطار المتوجه إلى أولم؟ لماذا احتاجت إلى حقيبة لتجمع الغسيل من شقة أختها؟

بالطبع، المحقق موهر معجب بشجاعة صوفي - يُخبر سجينًا آخر «نحتاج إلى أشخاص مثلها إلى جانبنا» - لكن صوفي أرادت أن تنال إعجاب المحقق

موهر وثقته، وهو الذي يجعل منه حاجبه الأيسر المرتعش إنسانًا بقوة تُصنّف على أنها عالة بمقدار ما هي سلاح. ويُذكر أن ابن المحقق، تمامًا مثل خطيب صوفي، يقاتل في الجبهة الشرقية. ثمة سواد في أرواحنا، ربما، يريدنا أن ننال إعجاب رجال الشرطة.

ترعرعت على برنامج «ديكسون أوف دوك غرين» لجاك وارنر على قناة «بي بي سي»، و«الشرطي الكندي» لروبرت باتي في بريطانيا في البرنامج «دايل ٩٩٩». كنت أتابع «نو هايدينغ بلايس» حيث كان البطل المحقق لوكهارت، الموبَّخ من أمي القاضية، التي أرادت أن تعلم لماذا كان رجال الشرطة على شاشة التلفاز في حال إرهاق دائمة ويعملون ساعات إضافية. إن خبرتها في محكمة مايدستون اقترحت ألا يعملوا في شكل قاس مثل المجرمين، وكثيرًا ما كذبت. كنت أطفئ التلفاز بعد «ذيد كارز». الكثير من الواقع.

أجريت مناوشتي الأولى مع الرجال بالزي الأزرق - أو بالأحرى الأخضر - الأزرق في هذه الحال - في إيرلندا الشمالية. ظهر ثلاثة محققين قي منزلي خارج بلفاست سنة ١٩٧٥ وسألوني هل لمحتُ مستندًا حكوميًا بريطانيًا «سريًا» على عتبة منزلي (وضعته عاملة التنظيف، المتزوجة من موظف في الشرطة العسكرية الملكية في أولستر). أجبتُ المحققين أن من غير الممكن أن أقول لهم هل رأيت المستند، بما أنهم لن يسمحوا لي برؤية سوى إنش واحد من الصفحة الأولى، على رغم أنني كنت على ثقة أنه تضمن محضر اجتماع سري عُقد بين موظفي الجهاز الأمني البريطاني والمسؤولين التنفيذيين في حزب العمل في ستورمونت الذين كانوا يتآمرون لابتزاز رجال السياسة البروتستانت بصفة كونهم أعداء السياسة البريطانية في المقاطعة. أجبتهم في لحظة من اللحظات بمكر شديد «وددتُ المساعدة».

في بلغراد سنة ١٩٩٨، عندما كنت الصحافي البريطاني الوحيد الذي غطى اعتداء الناتو على العاصمة الصربيّة، استدعتني موظفة الاستقبال في الفندق

حيث كنت أقيم صباح أحد الأيام. وقال لي الصوت: «ينتظرك بعض رجال الشرطة في البهو، الآن». ظننتُ أنهم سيسألونني هل انتهت صلاحية تأشيرتي، وأنهم لم يدروا أنني جدّدتها بالأمس. كان الرجال الثلاثة - يرتدون المعاطف الجلدي - يجلسون في كراس بلاستيك. «أعطنا جواز السفر»، طالبني محقق ميلوشيفيتش. فأعطيته إياه بتواضع. ووجدت نفسي واقفًا أمامهم بضع ثوان. كنت ضحيتهم، الرجل المذنب. حتى أني وجدتُ نفسي أنحني أمامهم، جزءًا من الثانية، ثم جلست في كرسي بلاستيكي إلى جانبهم منتظرًا. الكثير من النقاشات. عدد من المدونات والأقلام الوضيعة (تمامًا مثل التي أملكها). ثم: «كل شيء في نظام. . . أعتذر عن الإزعاج». وسمعت صوتي - نعم، بالطبع، كان صوتي - مجيبًا: «آه، لا عليك أيها المحقق. هذا واجبكم!».

تذكرتُ يوم عدتُ مصطحبًا والدي ووالدتي إلى منزلنا في باور مونت لاين في مايدستون لنكتشف، أننا تعرضنا للسرقة، فلاحظت والدتي بعض المجوهرات المفقودة. اتصل والدي بالشرطة ووصل محقق لمعاينة الوضع. كان والدي أمين السر في الدائرة، وكان ذلك سنة ١٩٥٥. أنهى والدي النقاش - لم يجدوا «البروشات» بالطبع - «نحن شاكرون لك. وكل ما يسعني القول هو أنني لا أقبل القيام بوظيفتك مهما غلا الثمن».

لا، بالطبع. عند تنفيذ واجبات الشرطة العسكرية، لا يُعد نصيب الشرطي سعيدًا. فهم صوت ضميرنا، ذنبنا، على رغم احترام الجهاز. هم نحن. شاهدوا المحقق موهر. قبل اصطحاب صوفي إلى المقصلة لقطع رأسها، يعود لينحني وداعًا، واحترامًا، ومن الممكن، إحساسًا بالذنب. ألم يكن الأميركيون من وظفوا مجرم الحرب النازية، كلاوس باربي، ومن لفّقوا تبريراته بعد الحرب، ومفادها أن باربي كان «محققًا بارعًا»؟

يُذكرني الأمر بهذا المشهد في عشرات الأفلام، المشار إليه أيضًا في قاموس الصيغ المبتذلة لكاسيل: حجم رائع على رف مكتبتي في بيروت. تُقرع

أبواب الطبقة المتوسطة وفي شكل مواز، أجوبة نساء الطبقة المتوسطة. وتقول، مدركة أن اللعبة انتهت: «يجدر بك الدخول، أيها المحقق».

«ذي إندبندنت»، ٦ أيار/مايو ٢٠٠٦

اصطحبوا امرأة جميلة إلى السينما

تعودنا، في الجامعة، نحن التلامذة الذكور، أن نقول إن من المستحيل اصطحاب امرأة شابة وجميلة إلى السينما والتركيز على الفيلم. ولكن في كندا، أثبتُّ أخيرًا العكس. بما أننا كنا مطّلعين على الوضع في الشرق الأوسط ووقائع الاستغلال وسياسات جورج دبليو بوش الشريرة، دخلنا لمشاهدة «رانديشون» الذي لفتنا إلى أقصى الحدود؛ هذا الفيلم للمخرج جافين هود الذي يدور على شهادة تعذيب «المشتبه به الإرهابي» القوية والمذهلة في عاصمة عربية مجهولة، بعدما أرسله إلى واشنطن سفاحو وكالة الاستخبارات المركزية.

لماذا اتصل «إرهابي» عربي بمهندس كيميائي مصري - حامل البطاقة الخضراء ومقيم في شيكاغو مع زوجة أميركية حامل - بينما كان يحضر مؤتمرًا دوليًا في جوهانسبورغ؟ هل يعرف كيف تُصنع المتفجرات؟ (لسوء الحظ، نعم؛ فهو كان مهندسًا كيميائيًا، لكنه تلقى الاتصالات خطأً). ترجّل من الطائرة في مطار دولز الدولي، وأُرسِل على الفور في طائرة تخصّ وكالة الاستخبارات المركزية إلى بلد يُشبه المغرب، حيث لا يتهاون رجال الشرطة المحليون بالطبع في تعابيرهم وتصرفاتهم أثناء التحقيق. أُجبِر موظف تشغيل في وكالة الاستخبارات المركزية من السفارة الأميركية المحليّة - أدى دوره جايك جيلينهال العصبي الطباع - على مشاهدة تعذيب المخطوف، بينما كانت زوجة السجين تطالب رجال الكونغرس في واشنطن بالبحث عنه. تضع وكالة الاستخبارات المركزية لمستها الرقيقة بينما تحذف اسم السجين من لائحة الركاب: هذه الخدعة التي تبين أنها خاطئة في شكل فاضح، في حين اكتشفت الزوجة أن زوجها استخدم بطاقة ائتمانه لشراء سلع من المنطقة الحرة في رحلة العودة إلى أميركا.

يبدأ المحقق العربي بطرح الأسئلة همسًا على المصري في سجن تحت الأرض، ثم ينتقل إلى وسائل الضرب، ثم إلى «الثقب الأسود»، فإلى أسلوب «النجاة من الماء» القاسي، ثم إلى الشحن بالكهرباء لجسد المخطوف. في الواقع، يؤدي دور رئيس المحققين في «المخابرات» مواطن إسرائيلي (تمامًا مثل العربي، يعلم كيف يجعل السجين يتمنى لو أنه لم يُولَد)، وكان أداؤه جيدًا جدًا لأنه استطاع أن يجعلنا أنا ورفيقتي ننفجر من الضحك عندما سأل السجين كيف حصلت قناة «الجزيرة» على تغطية حصرية للانفجار الانتحاري قبل رجاله.

يكفي القول إن رجل وكالة الاستخبارات المركزية ضعف، وظنّ أن المصري بريء، وأجبر وزير الداخلية المحلي على إطلاقه، بينما يخسر رئيس المحققين ابنته في الانفجار الانتحاري. ثمة عودة في زمن الفيلم على نحو مذهل، بحيث تنفجر المتفجرة في بداية الفيلم ونهايته، بينما تعرّضت ميريل ستريب، رئيسة وكالة الاستخبارات المركزية، الخبيثة واللامبالية، اللوم على خطإها. غير واقعي؟

في الواقع، أعيدوا التفكير. إذ، في كندا، يعيش ماهر عرار، مهندس برمجيات مسالم إلى حد كبير - أصله من دمشق - قُبض عليه في مطار «جيه أف كيه» في نيويورك، وخضع تقريبًا لـ«الأداء» نفسه تقريبًا الذي خضع له المواطن المصري الوهمي في الفيلم. شكوا في أن يكون عضوًا من القاعدة - شارك الخيانة الكنديون في تمرير هذا الكلام الفارغ إلى مكتب التحقيقات الفدرالي - ووُضع في طائرة تخص وكالة الاستخبارات المركزية، إلى سورية حيث احتُجز في سجن تحت الأرض وتم تعذيبه. وقد دفعت الحكومة الكندية لاحقًا لعرار ما يعادل ١٠ ملايين دولار بمثابة تعويض، وتلقى اعتذارًا علنًا من رئيس الوزراء ستيفان هاربر.

ولكن، لم يقلق سفاحو بوش، مثل ستريب، في رئاسة وكالة الاستخبارات المركزية. ما زالوا يشكون في أن عرار «مشتبه به إرهابي». لهذا السبب، عندما

أدلى بشهادته في اجتماع للكونغرس الأميركي الخاص بتاريخ ١٨ تشرن الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧، اضطر إلى أن يظهر على شاشة فيديو ضخمة في واشنطن. وما زال حتى الآن ممنوعًا من دخول أميركا. شخصيًا، أبقى في كندا، لربما قرر مكتب التحقيقات الفدرالي أن يُعيدني إلى سورية لجولة أخرى من التعذيب. ولكن باستثناء رجال الكونغرس الأميركي - قال الديموقراطي بيل ديلاهانت بتواضع: «فلأطلعكم بنفسي على ما لا تتمتع به حكومتنا: الاعتذار» -، لم تبدِ إدارة بوش أي تذمّر في هذا الشأن.

أسوأ من ذلك، رفضت الكشف عن «الإثبات السري» الذي ادعت أنها تملكه ضد عرار، إلى أن أوقعت الصحافة الكندية هذه الأوراق «السرية» في شركها، واكتشفت أنها شهادة سماع لزيارة قام بها عرار لأفغانستان من سجين عربي في مينيابوليس، هو محمد الذهبي، قام أخوه يومًا، بحسب عرار، بتصليح سيارته في مونتريال. ثمة اقتباس جميل من المسؤول في الأمن القومي الأميركي مايكل شيرتوف، وألبيرتو غونزاليس، المدعي العام الأميركي في تلك الأثناء، مفاده أن الإثبات على عرار كان «مدعومًا بمعلومات مطوَّرة من وكالات تنفيذ القانون الأميركي». ألا تعجبكم كلمة «المطوَّرة»؟ ألا تبدو معقّنة؟ ألا تعني «ملفّقة»؟

ويتساءل المرء ماذا ظنّ مشاكسو بوش أنفسهم أنهم يفعلون بإرسال عرار إلى سورية، هذا البلد الذين يتهمونه بأنه دولة «إرهابية» تدعم المنظمات التي يسمونها بـ«الإرهابية»، مثل «حزب الله»؟ يبدو أن بوش يريد أن يهدد دمشق، لكنه مسرور بالاعتماد على معارفه السوريين القاسين، إذا كانوا سيثبتون أنفسهم من خلال شحن الكهرباء والأسلاك في سجن تحت الأرض بالنيابة عن واشنطن.

وعلى رغم ذلك، ماذا تتوقعون من رئيس، يقوم مايكل موكاسي، الشخص التابع له والمرشح لمنصب ألبيرتو غونزاليس السابق، المدعي العام، بإخبار

السيناتور بأنه لا يدري «ماذا تتضمن» وسيلة التعذيب، «النجاة من الماء»، القريبة إلى الغرق، التي تستخدمها القوات الأميركية أثناء التحقيقات؟ «إذا كانت وسيلة النجاة من الماء تعذيبًا، فالتعذيب ليس دستوريًّا»، يشتكي موكاسي القليل الحظ. نعم، أعتقد، إذا كانت الصدمات الكهربائية في الجسد تُعَدّ تعذيبًا - وانتبهوا إلى «إذا» - أن التعذيب يكون غير دستوري. صحيح؟ لاحظ قرّاء «نيويورك تايمز» على الأقل خلود تعليقات موكاسي. طرح محام أميركي مساعد سابق السؤال «كيف يمكن الولايات المتحدة الأميركية أن تأمل استعادة منصبها كقائده عالمية محترمة في شأن المسائل الأهم المتعلقة بحقوق الإنسان، إذا عجز المسؤول المُنوط به تنفيذ القانون عن الإقرار بالحقيقة الواضحة، ومفادها أن النجاة من الماء هي وسيلة تعذيب...؟

بحسب قارئ آخر، «لا يتطلّب التعذيب تحديدًا، تمامًا مثل البورونوغرافيا». وعلى رغم ذلك، لم يخسر الجميع أمام محبي التعذيب في أميركا. هذا ما قاله السيناتور الجمهوري آرلين سبيكتور - صديق مقرّب من إسرائيل - عن تعليقات موكاسي الوقحة: «يسرنا أن نرى شخصًا قويًا بسجلّ قوي يدير هذا القسم».

لذا، هل الحقيقة أغرب من الخيال؟ أم هل تستوعب هوليوود - بعد «سيريانا» و«ميونيخ» - الظلم الفاضح في الشرق الأوسط، والسياسات الوقحة وغير القانونية التي تعتمدها أميركا في المنطقة؟ اذهبوا وشاهدوا «رانديشون». ستغضبون وتتذكرون عرار. ويمكنكم أن تصطحبوا امرأة جميلة لتشارككم غيظكم.

«ذي إندبندنت»، ٣ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٧

نهر عبر الزمن

لطالما بدا لي التلاعب الأدب والتاريخ والأفلام، عملًا كريهًا جدًا. في مكان ما، يريد أحدهم أن يحمينا - أو أن يسمّمنا - بوجهات نظره. أذكر، منذ بضع سنوات، كيف أرادت مكتبة ما في جنوب لندن، أن تسحب ذكرى ويليام شيرير، «ذي رايز أند فول أوف ذو ثيرد رايتش»، من رفوفها نتيجة لما ذكره عن مجزرة هتلر «نايت أوف ذي لونغ نايفز» سنة ١٩٣٤. أشارت إحدى الفقرات المسيئة إلى إحدى ضحايا هتلر، الجندي العاصفة، على أنه «لوطي رديء بوجه أنثوي»، وإلى إرنيست روهم وقائده النازي وصديقه السابق ورفاقه المسلحين، على أنهم «منحرفون جنسيًا». وتكمن المشكلة بالطبع في أنه عندما وصف شيرير المذهل حقبة النازيين سنة ١٩٥٩، كانت ما زالت كلمة «شاذ» تعني «سعيدًا» أو «فكاهيًا»، ولم يكن اللواط ممنوعًا وحسب، بل كان أيضًا يثير اشمئزاز هؤلاء الذين لم يكونوا أحرارًا أو بعيدي النظر بما فيه الكفاية، ليفهموا وجوب قبول المجتمع لهم. لكن، لم يعد يتماشى عمل شيرير والتصحيح أو الأخلاقيات التي تسود مجتمعنا اليوم، وبالتالي كان من الضروري منعه، أو، في نظري، إعادة كتابته، بما يشبه الموسوعة السوفياتية في عهد ستالين.

ما زال الأصدقاء اليهود قلقين من تشجيع «ذي ميرشينت أوف فينيس» الحركة اللاسامية، وقد سمعت أصداء احتمال منع مسرحية شيكسبير، إضافة إلى عمل مارلو، «ذي جو أوف مالطا»، الذي «سمّم الآبار». ثم لدينا «جيروتيون» لـ ت. س. إليوت، حيث «... المحتلّون اليهود على عتبة النافذة، فرّخوا في مقاهٍ صغيرة في أنتورب...». أنكمشُ كل مرة أقرأ هذا. فقد خان إليوت بالنعم، اللاسامية في عمله، في عهده، ولا جدوى من محاولة إنكار الأمر. لكن التاريخ يُملي علينا تقبّل هذا الواقع، بغض النظر عن مدى بغضه، بدلًا من «تنظيف» نشر

الأمس وشعره، تمامًا مثل وينستون سميث في «نايتتين إيتي» فور الذي يحرق تقارير الأخبار لـ«الأخ الأكبر» (بيغ براذر)، ويعيد كتابتها في استمرار. ما زال ماين كامبف لهتلر ضمن المبيعات - ولكن مع مقدمات بارزة وحساسة من شأنها أن تركّز على شرّها -، كي نتمكّن من فهم شناعة النازية في شكل أفضل.

لكن الرقابة الثقافية لم تختفِ. في فيلم «إليزابيث» للمخرج شيخار كابور، مُنحت الممثلة كايت بلانشيت وقتًا فريدًا من نوعه كي تعيد خلق الملكة العذراء في فيلمه سنة ١٩٩٨. لكن النتيجة، إليزابيث: العصر الذهبي، فاشلة، إذ عندما تتوجّه إليزابيث إلى جنودها في تيلبوري قبل وصول الآرمادا الإسبانية المتوقعة سنة ١٥٨٨، حُذفت في شكل قاسٍ الجملة الأكثر شهرة التي نطقت بها، وحفظها كل تلميذ في بريطانيا. هذا المشهد الحيوي الوحيد، حيث تُظهر إليزابيث لجنودها أنها في صفوفهم بصفة كونها رمز قوتهم المقاتلة. تعود والدي أن يقتبس لي هذه الجملة، حتى أنه اصطحبني إلى تيلبوري ليريَني القلعة - التي ما زالت صامدة اليوم حيث قالت إليزابيث لجنودها «قد يكون جسدي ضعيفًا وواهنًا، لكنني أملك قلب الملك وشجاعته».

لم يتحمّل السيد كابور، ويالـلأسف، هذا القدر. في زمن تساوي الجنسين. إن هذه التصريحات ممنوعة وغير مقبولة وغير مناسبة ومفتعلة. بأي طريقة أخرى، يمكن المرء أن يفهم المشهد، حيث في ساطة لا تلفظ السيدة بلانشيت تلك الكلمات الشهيرة والتاريخية التي استخدمتها إليزابيث لتشجيع رجالها، بينما تُطفِر السيدة بلانشيت فرسًا بيضاء (أمام ما يشبه عصبة أكثر من جيش)؟ على الأرجح أن ملايين محبي السينما انتظروا هذه الجملة، لكنهم حُرموها. اضطُرّت إليزابيث إلى أن تكون ملكة قائلة بالمساواة، على رغم كونها عذراء، وأن تمثّل النسوية اليوم إذ لا تكون المرأة «ضعيفة وواهنة»، بدلًا من السيّدة التي مُنحت منصبًا فريدًا من نوعه، وقادت مملكتها في زمن السيطرة الذكورية. بقولها إنها

تملك قلب رجل، لم تكن تستسلم بالطبع لـ«المملكة الذكورية». في إنكلترا التيودرية، قصدَت إليزابيث أنها مساوية للرجل(*).

لكن الأفلام قادرة على صنع أصناف من الخدع أكثر غموضًا. على سبيل المثال، في الفيلم «ذي إنغليش بايشنت» الذي حاز جائزة تقديرية، يقطع جنود فاشيون أصابع الجاسوس دايفيد كارافاجيو. ولكن، طُلب من امرأة أن تنفّذ هذا العمل الشنيع، وبالتالي، تدخل مسلمة محجّبة وهي تحمل سكينًا، بينما يفسّر معذّب كارافاجيو أن «المسلم» يفهم هذا النوع من الأمور. عندما شاهدت هذا المشهد المروّع والدموي، لم أفهم الغرض من إدخال الإسلام في الفيلم، الذي تعود خلفيته الثقافية إلى عهد النهضة الإيطالية. لماذا أراد النص السينمائي - الذي كتبه المخرج، أنطوني مينغيلا - أن يربط المسلمين بالوحشية؟ اشتريت رواية مايكل أونداتجي التي يرتكز عليها الفيلم، لأفهم فحسب معنى البتر في كلمات «كارافاجيو»: «بحثوا عن امرأة للقيام بذلك. ظنوا أنها أكثر فاعلية. أحضروا إحدى ممرضاتهم... كانت بريئة، لم تكن تعرف شيئًا عني، ولا اسمي ولا جنسيتي». وكما توقعتُ، لم تكن هناك أي إشارة إلى المسلم. بالطبع، لا أساس للمشهد العنصري العميق الظاهر في الفيلم في نص كتاب أونداتجي على الإطلاق. إذًا، لماذا وُجد؟(**).

كانت مشاهدة فيلم جو رايت البارع، «أتونمنت»، في الأسابيع القليلة الماضية بمثابة ارتياح؛ هذا الفيلم الذي يدور على دراما الخيانة والكذب والحب ضمن الطبقات العليا سنة ١٩٣٠ في إنكلترا، والذي يتحول من سينما

(*) أشار ترايسي مارتنز، قارئ مستقل، إلى أن تصريح إليزابيث عن «قلب الملك وشجاعته»، ظهر في البدء «فقط ضمن رسالة سنة ١٩٦٣ بعد ٣٥ سنة من تجمّع تيلبوري... لا يوجد إثبات على أن إليزابيث I أدلت بهذا التصريح...».

(**) يُقرأ النص السينمائي (ميثوين دراما، ١٩٩٧) على النحو التالي: «تحضر الممرضة... هي عربية... رأسها مغطّى»... مولر (الألماني): «سأخبرك ماذا سأفعل... هي مسلمة، لذا، ستفهم هذا الأمر. ما هو عقاب الزنى؟».

منزلية مملوءة بالفن المحلي وذات الكلفة المتدنية إلى ملحمة دانكيرك. إن الحبكة - تصويرًا للأشخاص الذين لم يشاهدوا الفيلم - مملة إلى حد كبير. تخطئ بريوني في اتهام حبيب أختها الكبيرة سيسيليا، روبي - ابن عائلة خادمة حاز منحة لدراسة الطب، ليصبح بالتالي فردًا فخريًّا ضمن الطبقة المتوسطة - باغتصاب قريبتها لولا، بعد العشاء الفخم في قصر مالك العزبة العائلي. قُبض على روبي - سيسيليا تصدّق أنه غير مذنب - واتُّهم بالاغتصاب، وبالتالي سُجن. ولكن عند اندلاع الحرب سنة ١٩٣٩، أطلق شرط أن يتطوّع في الجيش. وحين يبدأ الجزء الثاني من هذا الفيلم المظلم، يخفي روبي الجرح الذي تلقّاه في صدره عن العريفين المسؤولين عنه، وهو يقودهما إلى الساحل الفرنسي الشمالي بعدما ضاع وسط انسحاب قوى البعثات الاستكشافية البريطانية في اتجاه موانئ القناة سنة ١٩٤٠.

ثمة تشابه غير مألوف في هذه المشاهد - في الفيلم دانكيرك سنة ١٩٥٧، يقود جون ميل فرقة ضائعة في شكل مشابه نحو الخلاص - ولكن عندما تبع روبي القناة، قال لرجاله إنه يمكن «أن يشمّ رائحة البحر». وعندما يعلو كثيبًا، نرى أمامه فجأة ٢٠ ألف جندي بريطاني - من الممكن أن يكونوا ٣٠ ألفًا - على الشواطئ. وتمتمتُ، همسًا، في شكل مفاجئ وغير متوقع إزاء هذا المشهد الملحمي المفاجئ في السينما، «تبًا لي!» - تزاوج عظيم بين الجمهور والفيلم - ، في حين يصرخ أحد جنود روبي الذين واجهوا أيضًا هذا المشهد، بعدي فورًا: «تبًّا لي».

يدوم مشهد دانكيرك هذا فقط خمس دقائق، لكنه يتغلغل في الدماغ. يقتل المسؤولون الفرنسيون أحصنتهم على الشاطئ، يستلقي الجنود البريطانيون السكارى قرب المزراب، يشتمون. لا توجد أي رقابة هنا. لكن عريف روبي الأسود يستمر في المضي قدمًا. في كتاب إيان مكإيوان الذي تم إخراج الفيلم بناءً عليه في شكل صادق، يُشار إلى «الصوت الضعيف لترنيمة يتم غناؤها في تناغم كلي، ثم يختفي». لكن فيلم جو رايت يأخذ العريف إلى مقهى محطم

قرب الشاطئ، حيث يغني الجنود البريطانيون - المصابون ولباسهم ملطّخ بالدم - ترنيمة كوايكر الكاملة «ربنا العزيز وأبا الإنسانية، سامحنا على سبلنا الغبية». تضع الكاميرا دائرة حول هؤلاء الجنود الشجعان. الفيلم جذاب، ورمز للشجاعة، لكنه أيضًا، يحكي عن عبثية الحرب التي تعطي الفيلم كرامة ما كان ليُعطاها(*). يجعلوننا نصدّق أن روبي ينجح في العودة إلى إنكلترا في إحدى «السفن الصغيرة» ليلتقي مجددًا سيسيليا. حضرت بريوني إليهم في حي الفقراء جنوب لندن لتعتذر، مقترحة أن تذهب إلى المحكمة لتعترف بكذبها. ويتبين أن الزوج الحالي للولا هو من اغتصبها. في النهاية فقط، تقرّ بريوني المتقدمة في السن والمحتضرة (التي أدت دورها فانيسا ريدغرايف في تلك الأثناء)، بأن روايتها عن لقاء روبي وسيسيليا غير حقيقية. تمنّت لو التقيا مجددًا. ولكن، في الواقع، توفي روبي نتيجة لتسمّم الدم في براي ديونز، دانكيرك، بتاريخ ١، حزيران/يونيو ١٩٤٠، وقُتلت سيسيليا في انفجار محطة أنبوب بالهام بعد أربعة اشهر، ولم يجتمعا من جديد.

«انتهى زمن الأجوبة الواضحة»، تقول بريوني المتقدمة في العمر عن نفسها في الكتاب. «كذلك الحال بالنسبة إلى زمن الشخصيات والحبكات. كانت الحبكات تمامًا مثل العربات الصدئة التي تعطّلت إطاراتها... إن الأفكار، والرؤية، والأحاسيس التي أثارت اهتمامها، والعقل الواعي، مثل النهر عبر الزمن». وهذا هو المفهوم الذي يُظهر لنا الفيلم «أتونمنت» أنه محاولة صادقة لم يتمكن عالم الأفلام من كشفها من خلال وصف الكذب والحرب والحب.

«ذي إندبندنت»، ١٩ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨

(*) أنا مدين لقارئي «ذي إندبندنت»، بيتر نيوتن وكريستين فان ميزلين، اللذين عرفا هذه الترنيمة. في مقالي الأصلي، كتبت الجمل الأولى منها في شكل خاطئ: «الجميع القديسين المرتاحين من أعمالهم»، دليل إلى أن أدائي في الغناء في الكورس المدرسي لم يكن يشي بدقة في الترنيم.



الفصل الخامس

الأزمة الكبرى منذ الأزمة الكبرى الأخيرة

بحسب الصيغ المبتذلة، فإن الموت رخيص. وشخصيًّا، أعتقد أن الحياة رخيصة، والموت سعر ليس إلا، يُدفع وفق معدلات سعر الصرف، ذات الصلة. في صحفنا الغربية، توازي حياة أميركية واحدة حياة ألف عراقي أو أكثر، ما لم تكونوا «شهيدًا» أميركيًّا في الجانب «الخطأ»، مثل رايتشل كوري. إن الفواصل المعكوسة مهمة هنا. لا يحمل مصطلح «الأزمة» الأوروبية المعنى نفسه الذي يحمله مصطلح «أزمة» في الشرق الأوسط. في نظر صحفنا، والصحافيين في التلفزيون لدينا، يفوق رفض الدستور الأوروبي التفجير في بغداد أهمية. ولكن، عندما يسعى لاجئ أفغاني وعائلته بحثًا عن ملاذ في هولندا، هل يكون هو صاحب الأزمة - بينما يواجه مخاطر الترحيل، وحتى الموت في وطنه - أم أوروبا المقاومة للهجرة وللمسلمين، التي نسيت زمن التنوير؟



عادة طمس الموتى الطويلة والجديرة بالاحترام

يمضي سهيل مسرعًا قبالة أرضية ضريح الإمام الحسين المصنوعة من الرخام في كربلاء، ومعه حقيبة معادن من البلاستيك. يشير أولًا إلى بقعة حمراء على الفلَج، متجهًا إليّ قائلًا: «كانت هذه عبارة عن قنبلة تصدر دخانًا أحمر أطلقها الأميركيون. وهذه علامة أخرى تدل إلى القنبلة اليدوية». يركع المؤمنون الشيعة وسط علامات الحرق هذه، بينما تتلألأ عيونهم صوب واجهة المسجد الذهب التي تدلّ إلى المكان نفسه، خلف القضبان الفضة التي قبّلها المؤمن، عندما قُتل الإمام الحسين سنة ٦٨٠ ميلادية في معركة ملحمية ومصيرية في التاريخ الإنساني، أكثر من أي صراع آخر خاضته الولايات المتحدة الأميركية. تُسمع خشخشة كل مرة يوقع فيها سهيل ذكرياته، واحدة تلو الأخرى، على الرخام.

أنكرت القوى الأميركية سقوط أي قذيفة على الضريح عندما أطلقت النار قرب مسجد الحسينية الشهر الماضي. بالطبع أنكرت الأمر. أصبح الإنكار مرضًا في العراق، كما أضحت عليه الحال أيضًا في الشرق الأوسط في معظمه. ينكر الأميركيون قتل المدنيين الأبرياء في العراق، وعلى رغم ذلك، يقدمون على قتلهم. ينكر الإسرائيليون قتل المدنيين الأبرياء في الأراضي المحتلة، - وبالطبع، حتى أنهم ينكرون الاحتلال - وعلى رغم ذلك، يقدمون على قتلهم. لذا، فأمثال سهيل قيّمون. فهم يكشفون الأكاذيب. والدليل، في هذه الحال، ذكرياته الصغيرة. تُذكَر على إحدى القنابل اليدوية في حقيبته البلاستيك كلمات من مثل «خرطوشة ٤٤ ملم معلّم أرضي، دخان أحمر أم ٧١٣ بي بي - ٧٩ جي ٠٤١ - ٠٠١». ويُذكر على أخرى «وايت ستار كلاستر أم ٥٨٥». ورغم ذلك، هناك الرمز «٤٠ ملم أم ١٩٥ كيه أكس ٠٩٠ (حُذفت الصورة) ٠١٠ -

٠٨٦». من الغريب قراءة مثل هذه الأمور داخل مبنى ديني يركّز تلامذته عادة على تفاصيل السيرة القرآنية بدلًا من لغة تجارة الأسلحة العالمية.

قتل أميركيون أحد حراس ضريح كربلاء، أحمد حنون حسين، عندما وصلوا لمساعدة الشرطة العراقية أثناء مواجهة مع سارقين مسلّحين قرب الضريح. كذلك قتلوا مواطنين آخرين من الطائفة الشيعية في تظاهرة في اليوم التالي. يصرّ سهيل على أن الجنود الأميركيين أرادوا أن يدخلوا المسجد - سيناريو غير مألوف، بما أنهم تلقوا أوامر بالابتعاد عنه - لكن أربع رصاصات خرقت الجدار الخارجي. ويسألني سهيل بكل صراحة: «نحن شعب مسالم، فلماذا نريد ذلك؟ أتذكر مدى المعاناة التي شهدناها في عهد صدام؟». وها هو يشير إلى الأعلى، في اتجاه إساءة مشينة أخرى إلى الضريح وسط الغطاء الذهب لإحدى المئذنتين الأساسيتين: شظايا جرّاء قذيفة أطلقتها الوحدات العسكرية الضخمة التابعة لصدام أثناء الثورة الشيعية الكبرى سنة ١٩٩١، هذه الثورة التي لقيت تشجيعًا ثم خيانة منّا بعد حرب الخليج الأخيرة.

إذًا، ستظنون أن إطلاق النار في كربلاء كان أمرًا مدبرًا، أليس كذلك؟ ولكن، لا. ما زالت الولايات المتحدة الأميركية مصرّة على أنها لم تطلق النار قط على ضريح الإمام الحسين، وأن «لا معلومات لديها» عن الوفيات، تمامًا كما «لم تكن على علم» بمجزرة طاولت ما لا يقلّ عن ستة مدنيين عراقيين ارتكبها جنودها أثناء إطلاق قذيفة على منزل في مقاطعة حي المنصور في بغداد منذ شهر. تمامًا، كما ليست على علم بعدد الضحايا من المدنيين العراقيين أثناء الاجتياح البريطاني - الأميركي غير القانوني وبعده، وقد قدرتها منظمة مشهورة بـ٥٣٢٢ و٢٠٠٧ في بغداد ومحيطها فقط، بحسب صحيفة «لوس أنجلس تايمز».

ولو لم يكن الرجل الذي قتله جنود أميركيون خارج سجن أبو غريب، الأسبوع الماضي مصورًا صحافيًّا حائزًا جائزة ويعمل في «رويترز»، لشككت في توافر معلومات عنه. وبالتالي، أصبحت وفاة مازن دانا «مأساة شنيعة». وصدر

هذا البيان عن السلطات الأميركية نفسها التي ظنّ وزير خارجيتها، كولن باول، أن إطلاق النار الذي أودى بحياة المصور في «رويترز» والصحافي الإسباني في نيسان/أبريل كان «مناسبًا». بالطبع، لم يتردّد الأميركيون في ترويج الكذبة القديمة، ومفادها أن كاميرا دانا كانت أشبه بقذيفة؛ القصة نفسها غير القابلة للتصديق التي لفّقها الإسرائيليون سنة ١٩٨٥ عندما قتلوا طاقم عمل من موظفين في قناة «سي بي أس»، هما توفيق غزاوي وبهيج متني، في جنوب لبنان.

ولكن، نشاهد حال نكران أشد كرهًا ونفاقًا تؤديها أميركا اليوم على امرأتين شابتين وجميلتين: الأولى، الجندية جيسيكا لينش التي كُرِّمت بصفة كونها بطلة أميركية، بعدما أُصيبت أثناء الاجتياح الأميركي للعراق، ثم «أنقذتها» من السرير في المستشفى العراقي القوات الأميركية الخاصة. وتبين الآن أن الجندية لينش - بعيدة جدًّا من إطلاق النار على المهاجمين العراقيين حتى النَّفَس الأخير، كما أرادنا البنتاغون أن نصدّق - تعرّضت للإصابة جرّاء حادث في الطريق وقع بين شاحنتين عسكريتين أثناء هجوم. كذلك اتضّح أن الأطباء العراقيين اهتموا بها خصوصًا، بينما اقتحم «منقذو» لينش المستشفى، حيث كانت موجودة من دون حرس. لكن الأميركية الشابة الثانية هي بطلة حقيقية، فتاة اسمها رايتشل كوري، وقفت أمام جرافة إسرائيلية أرادت أن تدمّر بيتًا فلسطينيًا وقُتلت، بينما كانت «ترتدي معطفًا» بعلامات واضحة وتصرخ عبر مكبّر للصوت، بعدما سحقها السائق الإسرائيلي تحت جرافته، ثم رجع إلى الوراء ليَرهس جثتها مرة أخرى. تم تصوير هذا المشهد بأكمله. وأشارت نعومي كلاين في شجاعة، بصفة كونها كاتبة يهودية، في «ذي الغارديان»: «بعكس لينش، لم تذهب كوري إلى غزة للمشاركة في الصراع؛ ذهبت في محاولة لمقاومته». وعلى رغم ذلك، لم يقدم أي مسؤول حكومي أميركي على مدح شجاعة رايتشل كوري، أو إدانة قتل السائق الإسرائيلي لها. لزم الرئيس بوش الصمت في شكل جبان. حاولت الحكومة الإسرائيلية، من جهتها، أن تطمس المجموعة الناشطة التي كانت تنتمي إليها رايتشل كوري، مدّعية أن بريطانيين حضرا دفنها بعدما

تورطا في وقت لاحق بتفجير انتحاري في تل أبيب، كأنما المنظمون سيعلمون بالجريمة التي لم يرتكبها الرجلان بعد.

لكن مسألة طمس الموتى ليست جديدة، أليس كذلك؟ في شمال إيرلندا أوائل ١٩٧٠، أذكر كيف جاء ردّ مكتب الصحافة التابع للوحدة العسكرية البريطانية في ليسبورن في كو. أنتريم على الوفاة الغامضة لجنديين سابقين بريطانيين قتلهما جنود بريطانيون. لطالما وُصف الموتى - هنا، احبسوا أنفاسكم، أيها القرّاء - بـ «شخصيات والتر ميتي». لطالما أصابني الاشمئزاز لدى قراءة حالات الطمس هذه في عناوين «بلفاست تلغراف». يتولى موظفون، مجهولو الهوية، في الجيش، تمرير هذه المعلومات إلى الصحافة. وكان الشخص والتر ميتي، خياليًّا لا يمكن تصديق ادعاءاته. قيل هذا عن ثلاثة رجال متوفين على الأقل في شمال إيرلندا.

وأشك، بالطبع، في أنها المرة الأولى يسمع مستشار طوني بلير، طوم كيلي، بوالتر ميتي، وبالسهولة التي تَتولّى بها السلطات تصنيف الموتى. فهو وُلد في شمال إيرلندا، وترعرع فيها، لذا، لا بدّ من أنه قرأ الأكاذيب نفسها مثلي، في صحف بلفاست التي لفّقها «المتحدث باسم الصحافة» المجهول الهوية نفسه في الجيش. كذلك لم يعلم الكثير عن ثوربر، تمامًا مثل السيد كيلي عندما تحدثا إلى صحافيين عبر الهاتف. إذًا من هذه الحرب السوداء في شمال إيرلندا، على ما أظن، لطخ اسم السيد دايفيد كيلي(*) في شكل شنيع، حيث أعطي اسم سميه لمراسل في «ذي اندبندنت».

لذا، فلنتذكر بعض الأسماء هذا الصباح: أحمد حنون حسين، مازن دانا،

(*) الدكتور دايفيد كيلي، اختصاصي في الحروب البيولوجية ومراقب سابق في القوات العسكرية التابعة للأمم المتحدة في العراق، أطلع صحافيًا في قناة بي بي سي» على أن «ملف» داونينغ ستريت غير المشهور عن أسلحة الدمار الشامل تضمّن الكثير من المبالغة. وجدوه ميتًا قرب منزله في أكسفوردشاير بتاريخ ١٧ تموز/يوليو ٢٠٠٣. في كتاب جديد لنورمان بايكر، العضو في الحزب الديموقراطي الليبرالي، يظن هذا الأخير أن كيلي تعرّض للقتل.

توفيق غزاوي، بهيج متني، رايتشل كوري، الدكتور دايفيد كيلي. ما يجمعهم هو فنائيتهم، وقدرتنا على إنكار وفاتهم، أو الكذب حيال السبب الذي قتلناهم من أجله، أو طمسهم في وقت هم يعجزون عن التكلم بأنفسهم. والتر ميتي بالطبع!

«ذي إندبندنت»، ٢٣ آب/أغسطس ٢٠٠٣

أمور مخادعة، شريرة

عندما تسلّل جورج بوش خلسة إلى مطار بغداد لتناول «وجبته الساخنة» في عيد الشكر، كان مفعمًا بالنشاط والحيوية. لم يحضر الأميركيون إلى بغداد «كي ينسحبوا أمام مجموعة من قطّاع الطرق والسفاحين». يبدو أن الشرّ ما زال طليقًا، ومستعدًا لمهاجمة قوات الخير. وإذا كان عدد ضئيل من المتمردين في العراق ينتمي إلى حزب البعث سابقًا - وأتوقع أنه ضئيل فقط - فمن إذًا يشتكي إذا سُمِّي أتباع صدام بـ «قطّاع الطرق»؟ لكن الشر أمر مخادع. يكون موجودًا تارة، ويختفي طورًا. على سبيل المثال: اليابان.

أُحبّ اليابانيين اليوم، فهم جديون ومجتهدون في عملهم، صادقون، مثقفون: اطلعوا فحسب على مجموعتهم من الانطباعيين الفرنسيين، حتى أنهم اتخذوا القرار الصحيح بالانسحاب من «الحرب على الإرهاب» التي أطلقها جورج بوش. وتذكروا أن اليابان هي بين الأمثلة التي يستعين بها جورج بوش عندما يعد بالديموقراطية في العراق. ألم تحول أميركا اليابان المهووسة بالحكم الامبراطوري، أمة تدعم الحرية بعد الحرب العالمية الثانية؟

منذ وقت قصير في طوكيو، مشيت درب الذكريات. ليست ذكرياتي، بل ذكريات البحار الملكي المراهق جيم فيذر؛ هذه الذكريات التي قوطعت في شكل قاس. كان جيم ابن شقيقة والدي فريدا، وكان على متن ريبولس عندما غرقت بعدما قصفها طائرة يابانية بتاريخ ١٠ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١. أُنقذ جيم، وأُعيد إلى سنغافورة، ليقبض عليه عند استسلام البريطانيين. عانى الجوع وسوء المعاملة، وأجبر على العمل في بناء السكة الحديد في بورما. أي شخص يتذكر «بريدج أون ذو ريفر كواي» لدايفيد لين، سيكوّن فكرة جيدة عمّا يحدث. علمت فريدا من أحد أصدقائه، أنه خلال الأيام الأخيرة التي عاشها جيم،

تمكّن من رفع السجين ذي الأقدام الستة طولًا على كتفيه كما لو كان طفلًا. يمكنكم أن تتصوروا أنه كان بخفة الريشة. توفي في مخيم ياباني لسجناء الحرب في وقت من الأوقات سنة ١٩٤٢.

لم أكن أفكر في جيم عندما مشيت في اتجاه ضريح شينتو الأعظم وسط مدينة طوكيو، حيث يتم تكريم قتلى الحرب في اليابان؛ ليس مجموعة المشاة «بنزاي - بنزاي» الفقيرة والدموية فحسب، بل الطيارون الانتحاريون الذين يحطمون متفجراتهم القتالية «زيرو» في ناقلات الطائرات الأميركية. قد لا يعرف الانتحاريون العراقيون الكثير عن «الهواء المقدس» في اليابان، لكن ثمة قصة تاريخية تبدأ في الهادئ وتمتدّ عبر المفجرين الانتحاريين في سري لانكا، وصولًا إلى الشرق الأوسط. إذا كان «قطّاع الطرق والسفاحون» التابعون للرئيس بوش يفكرون في الله عندما يموتون، فقد كان الطيارون اليابانيون يفكرون في امبراطورهم. في ضريح شينتو، في المنطقة التي تحتوي صورًا للحملة اليابانية، توجد تفسيرات مفيدة باللغة الإنكليزية. ولكن، في الغرفة حيث صُوَر الطيارين الانتحاريين - بما في ذلك لوحة زيتية مروعة لهجوم انتحاري على ناقلة أميركية - كُتبت التفسيرات باللغة اليابانية فحسب. لم أُفاجأ بذلك.

الأمر الذي أثار دهشتي، أنَّ على بُعد بضعة أمتار من الضريح، وعلى امتداد السكة الحديد، تقف قاطرة بخارية ضخمة خضراء ولامعة، هي «بويز أوون بايبر». كان المراهقون اليابانيون ينظفون أذرعة الكباس وهم يضعون، برقة، آخر لمسة من الصباغ الأخضر في الغلاية. وبما أنني صبيّ، أردت بالطبع أن أكون سائق محرّك، فركبتها. وسألت: هل تتكلمون اللغة الإنكليزية؟ ماذا تفعل هذه القاطرة في ضريح شينتو؟ ابتسم لي شاب، في انفعال، يضع نظارتين بإطار رفيع مفسرًا: «هذه القاطرة الأولى التي سحبت قطارًا عسكريًّا يابانيًّا عن السكة الحديد بورما»، ثم فهمتُ الصورة: توفي الرامي البحري الملكي جيم فيذر كي يتمكن هذا القطار من التحرك عبر غابات بورما. في الواقع، كان

الواجب الأول للقاطرة نفسها هذه نقل رفات الجنود اليابانيين المتوفين شمالًا من ساحة المعركة.

إن اليابانيين أصدقاؤنا بالطبع، فهم ثمرة ديموقراطيتنا. ولكن، ماذا يعني هذا؟ حتى الآن، لا تقرّ الحكومة اليابانية بالتفاصيل الكاملة لجرائم الاغتصاب والمجازر التي ارتكبتها على النساء خلال سيطرتها على «امبراطورية جنوب شرقي آسيا العظمى المزدهرة». منذ المحكمة العسكرية الدولية التي أُنشئت بعد الحرب - حيث دين سبعة وعشرون مجرم حرب، وأُعدم سبعة منهم - يُدَنْ ياباني واحد بجرائم الحرب في المحاكم اليابانية. الرجال الذين اعترفوا بمشاركتهم في الاغتصاب الجماعي للفتيات الصينيات، إضافة إلى «نساء الراحة» من الصين وكوريا اللواتي أُجبرن على العمل في بيت دعارة، ما زالوا على قيد الحياة، وبعيدين من الإدانة.

إذًا، ألم يمثّل هؤلاء الرجال الشر؟ ما الفرق بين الشبان اليابانيين المكرّمين لتفجير أنفسهم في ناقلات الطائرات الأميركية، والشبان الذين يفجرون أنفسهم في قوافل أميركية في العراق؟ بالطبع، لا يحترم المتمردون العراقيون الصليب الأحمر، وكذلك اليابانيون.

تتعلق المسألة، في نظري بهوية أصدقائكم. وخذوا، على سبيل المثال، هذا المعرض الصغير عن «الجرائم ضد الإنسانية» القائم منذ سنة في متحف الحرب الامبراطوري في لندن، والذي تضمن قسمًا عن المحرقة الأرمنية سنة ١٩١٥. لكن المعرض تضمن أيضًا إنكارًا من الحكومة التركية التي ما زالت تدّعي، في شكل مخادع، أن الأرمن لم يُقتَلوا في إبادة جماعية. كتب آندي كيفوركيان الذي فقد عائلة والده بأكملها على أيدي الأتراك سنة ١٩١٥، رسالة إلى روبرت كرافورد، المدير العام في المتحف، شاكيًا من أن المعرض لم يتضمن إنكار دايفيد ايرفينغ، عالم التاريخ اليميني، أو النازيين الجدد، المحرقة اليهودية. وليس من المفترض أن يُذكر أي إنكار. لكن «خضوع متحف الحرب

الامبراطوري للضغط التركي (أم هو مكتب الشؤون الخارجية؟) بإنكار ما يُجمِع عليه العالم بأسره على أنه الإبادة الجماعية الأولى في القرن العشرين، لهو إهانة للأرمن الذين ما زالوا على قيد الحياة. ثم أن الضوء الأخضر الذي منحه متحف الحرب الامبراطوري للأتراك بإنكار ما حدث، صورة زائفة عن العدالة والحقيقة».

إنها المشكلة القديمة نفسها القاطرة البخارية في طوكيو والإنكار في متحف الحرب الامبراطوري، أكذوبتان لتهدئة الأعداء الذين أصبحوا أصدقاء اليوم. إن اليابان ديموقراطية غربية. إذًا، يتم تجاهل الشر. تركيا هي حليفنا الدنيوي، ديموقراطية تريد أن تنضم إلى الاتحاد الأوروبي. إذًا، يتم تجاهل الشر. ولكن لا تخافوا. بينما يسعى الأميركيون يائسين إلى الهرب من العراق، يتحول قطّاع الطرق والسفاحون رجالًا طيبين من جديد، ويصبح الأشرار في العراق يعملون لحسابنا(*). سبق أن أقرّت سلطات الاحتلال بأنها أعادت توظيف بعض رجال الشرطة السريين والأشرار التابعين لصدام بهدف مطاردة صدام الشرير.

أمور مخادعة، شريرة.

«ذي إندبندنت»، **٢٩ تشرن الثاني/نوفمبر ٢٠٠٣**

(*) صيف ٢٠٠٧، أقنع المسؤولون الأميركيون آلاف المتمردين العراقيين السابقين ودفعوا لهم ليغيروا تبعيتهم والقتال لحسابهم. وبالتالي أقدم المتعاونون الجدد مع أميركا على مطاردة زملائهم المسلحين السابقين، وقتلهم في كثير من الحالات.

أمل الشرق الأوسط!: «أزمة أوروبا!»

«ما الذي يشغلكم أيها الأوروبيون، بحق الله؟ ما هذا الكلام الفارغ على انهيار أوروبا؟ كنا نتناول الغداء على بعد مئات الأمتار فقط من حفرة خلّفتها المتفجرة التي أودت بحياة رئيس الوزراء [اللبناني] السابق [رفيق الحريري] في شباط/فبراير الماضي. دُمِّر المطعم تقريبًا نتيجة للانفجار، ويتحمّل الموظفون النتائج. أُصيب النادل في مطعم «لا بايوت» بشقّ مؤلم وعميق جدًّا في خدّه الأيمن. ما زال ضيفي مدهوشًا. سألني: «هل تعيشون في كوكب الأرض؟»».

فهمنا المقصد. عندما أتصفّح الصحف الأوروبية هنا في بيروت، أقرأ عن الفوضى الأوروبية، وعن الرفض الدستوري في فرنسا وهولندا، واحتمال الانفصال عن الاتحاد الأوروبي، وعودة الليرة (بين العملات كافة، محال!)، وعن نوبات الصراخ في بروكسل (بين المدن كافة، محال!) حيال التنزيلات. تبلغني صحيفة «ذي إنترناشيونال هيرالد تريبيون»، «يدعو بلير أوروبا إلى «التجديد»». أما العنوان في صحيفتي، فهو «براون يطلق إنذارًا صارمًا للاتحاد الأوروبي». يبدو أن الأوروبيين الشرقيين وحدهم يحبون الاتحاد الأوروبي. قد يكمن جزء من الجواب ردًا على السؤال الذي طرحه صديقي اللبناني بين أشباح أوروبا الشرقية. لكن تشكل الصحافة الغربية، عندما تصل إلى بيروت، انحرافًا رهيبًا حيال هذه المسألة.

أمس على سبيل المثال، نشرت الصحف اللبنانية - كسائر الصحف في العالم العربي - صورة لا تجرؤ أي من الصحف الغربية على عرضها. أما هنا، فخصّص ربع مساحة الصفحة الأولى على الأقل لعرض هذا الرعب. أظهرت رجلًا عراقيًّا وسط خراب أحدثه انفجار وهو يحاول أن يساعد صبيًّا في الثانية عشرة من عمره ليقف على رجليه. ليس بالضبط، لأن الصبي فقد جزءًا من رجله

اليسرى من تحت الركبة. وتحت وجهه المحتضَر، بدت بالطبع، بالألوان، جدعة دموية، أمر نجده في ملحمة، أي قطعة كبيرة من العظم الأحمر والغضروف واللحم المتدلّي. كان ليث فلاح، أحد العراقيين المحظوظين «المحرّرين» بفضلنا سنة ٢٠٠٣، يركب دراجته صوب المخبز في بغداد ليشتري الخبز لوالديه وشقيقاته الثلاث. بالنسبة إليه وإلى والديه وشقيقاته الثلاث، وبالنسبة إلى العراقيين والعرب وسكان الشرق الأوسط، وبالنسبة إلى ضيفي في مناسبة الغداء، تبدو أزمات الاتحاد الأوروبي منافية للعقل تمامًا مثل بروكسل والليرة.

إذًا، لماذا لم نعد نفهم، نحن الأوروبيين، سلامنا وفرحتنا وسلامتنا ورفاهيتنا الرائعة، ومعايير العيش المستقبلية، وثروتنا الإلهية الجيدة وحياتنا الطويلة والهائلة؟ عندما أصل إلى باريس على الخطوط الجوية الفرنسية وأركب قطار «آر إي آر» في اتجاه المدينة، وعندما أركب قطار «يوروستار» المتّجه إلى لندن وأتناول قهوتي فيما هو يهسهس بين المقابر العسكرية الكبرى في شمال فرنسا حيث دُفن كثر من أصدقاء والدي، أرى وجوه زملائي الأوروبيين حزينة، تحدّق غاضبة، مثقلة بعبء العيش في العالم الأول الجميل، مهزومة بالحد الأدنى من ساعات العمل وقوانين حقوق الإنسان والحماية، التي تفوق خيال أشخاص أعيش بينهم.

وعندما ينطلق القطار نحو واترلو وألمح نهر التايمز وساعة «بيغ بن»، أتصل بصديق لي على الهاتف الجوال: عراقي يسعى إلى الهجرة إلى أستراليا أو كندا - لم يقرّر وجهته بعد، لكنني قلتُ له إن درجة الحرارة مرتفعة جدًا في الأولى ومتدنية جدًّا في الثانية - ويخبرني أنه يعجز حتى عن العبور إلى الأردن ليزور السفارة الأسترالية. لا تتوافر له قطارات يوروستار. على نحو غريب - وهذا هو نوع الانحراف الذي تعكسه صحفنا في شكل دقيق: نريد أن نصدق أن الشرق الأوسط يتحسّن؛ وأن العراق هو أحدث صورة للديموقراطية في العالم، أن جنودنا يربحون الحرب على المتمردين، على الأقل، نسميها حربًا اليوم،

ولبنان حرّ، ومصر ستصبح حكمًا ديموقراطيًّا قريبًا، حتى أن السعوديين أجروا انتخابات منذ بضعة أشهر. ستنسحب إسرائيل من غزة، وستُنفّذ «خارطة الطريق» الرامية إلى إقرار السلام، وستكون هناك دولة فلسطينية، و...

إنه كلام فارغ بالطبع. إن العراق تجربة قاسية من الألم والخوف؛ تزيد الثورة دمًا مع مرور الأيام، والشعب اللبناني يتعرض للاعتداء؛ ومصر مبارك عبارة عن جهنّم من قمع وفقر، والمملكة العربية السعودية ملكية ثائرة على التقاليد، وشمولية، وستظل على هذه الحال. «انتبه جيدًا»، قلتُ هذا الأسبوع لمحام لبناني، صديق لي، تُطابق ميوله السياسية ميول الصحافي [سمير قصير] والأمين العام للحزب الشيوعي سابقًا [جورج حاوي]، اللذين اغتيلا في بيروت هذا الشهر. أجابني: «أنت أيضًا». فجلست أفكّر في الأمر بعض الوقت.

ربما، نحن الأوروبيين، نحتاج إلى أن نصدّق أن الشرق الأوسط عبارة عن ربيع من الأمل بهدف التركيز على حزننا الذهبي. لعلّ هذا الأمر يساعدنا على الأسف على حالنا، على الشماتة بامتيازاتنا وكره حياتنا المنتصرة، إذا أقنعنا أنفسنا بأن الشرق الأوسط جنّة من الحرية المتنامية والتحرّر من الخوف. ولكن لماذا؟ نكذب على أنفسنا في شأن مأساة الشرق الأوسط، ثم نكذب عليها بشأن جنّة العيش في أوروبا. لربما - تظهر نظرية متعمّدة في هذه الفقرة - مضى الكثير من الوقت على الحرب العالمية الثانية. خارج نطاق الذاكرة الحية تقريبًا، أقنعنا جهنّم أوروبا الفعلي بأن نخلق محيطًا جديدًا من الأمن والوحدة والثروة. وأعتقد، اليوم، أننا نسينا. إن العالم حيث توفي كثر من أصدقاء والدي في شمال فرنسا سنة ١٩١٨، العالم حيث قامت والدتي بتصليح راديوهات «سبيتفاير» في معركة بريطانيا، «يختفي»، بينما يُسمح له بالظهور عندما فحسب يريد رئيس الوزراء بلير أن يقارن حربه الصغيرة والشنيعة في العراق بـ«ذي فاينست آور»، أو عندما نريد أن نستمتع بانهماك تدمير نازي سينمائي في «ذي داونفول». في الشرق فحسب، حيث تتبعثر المقابر الجماعية في الأرض الباردة، وتتوانى الذاكرة وسط الضباب، الأمر الذي قد يبرّر حبهم الاتحاد الأوروبي.

وعلى رغم ذلك، فإن جرح ليث فلاح الرهيب مروع أكثر من «سايفينغ برايفيت راين» -، ولهذا السبب لم تروه هذا الأسبوع في أوروبا.

أمس، قبل تناول الغداء، توجهت إلى ساحة الشهداء في بيروت لأحضر مراسم الدفن الكبيرة لجورج حاوي، الأمين العام للحزب الشيوعي السابق الذي كان في سيارته متجهًا إلى مقهى «الغوندول» الثلاثاء عندما انفجرت قنبلة في أسفل مقعده في السيارة لتمزّق بطنه إربًا. وها هي أرملته، التي أُغمي عليها من الأسى والرعب بعدما رأت جثة زوجها على الأرض، تندبه أمام التابوت. وعلى بعد ٢٠٠٠ ميل، كانت أوروبا في أزمة.

«ذي إندبندنت»، ٢٥ حزيران/يونيو ٢٠٠٥

شاعر يهرب في حصن أوروبا

يجلس محمد زيا إلى جانبي في أمستردام. ويفتح ديوانه الشعري الصغير. تتمايل أبياته الشعرية على الصفحات بالخط الفارسي الدقيق واللغة الدارية في بلده الأم، أفغانستان. «رباه، لماذا هذا القدر من القتل باسم الإسلام، وهذا القدر من عمليات القتل المناهضة للإنسانية... إن الكراسي الوحيدة الباقية في بلدي هي كراسي الحكومة التي تريد أن تدمّر أفغانستان». يقرأ كلمات غضبه على مهل، بينما تقاطعه دقات الساعة الهولندية، في لطف. في الخارج، تتمايل قناة «هيرينغراشت» في رفق تحت المطر. يصعب إيجاد أي مكان يشبه كابول.

يتابع محمد القراءة: «حضر الحمير إلى أفغانستان، مسعود ورحباني والبقية. كان الناس جميعًا في انتظار الحمير. قال قلب الدين [حكمتيار] إن لا ذيل لأيّ من تلك الحمير، ويقول: «أنا أملك ذيلًا فقط، لذا فالوزارة لي». إن الحمير في الحكومة الآن». قد تكون الحمير حيوانات طيّبة وودودة بالنسبة إلينا، ولكن أن تنادي، في العالم الإسلامي، أحدهم بالحمار، إهانة كبرى. كان محمد يتحدث عن مقاتلي العصابات «المجاهدين» الذين انتقلوا إلى كابول بعد انسحاب روسيا سنة ١٩٩٠، هذا الوصول الذي أنبأ بكوارث حرب أهلية دامت سنوات، وخلَّفت وراءها ٦٥ ألف قتيل أفغاني على الأقل. هذا هو الصراع الذي أثار اشمئزاز أسامة بن لادن، الجهادي المناهض للحركة السوفياتية، ما جعله يغادر أفغانستان إلى السودان.

نظر إليّ محمد، وهو رجل صغير الحجم ونشيط بعينين داكنتين وحادتين، قائلًا: «أريد أن أخبر الأجيال المقبلة بما مررنا به، ليفهموا ألمنا. لم أستطع أن أمنع نفسي من كتابة هذا الشعر». هذا هو خطأه. وُشي به لدى «المجاهدين»، فأدخلوه سجنًا شنيعًا في كابول لينقذه فحسب توسّط والده، ثم حضر طالبان

ولم يتمكّن محمد من منع قلمه من خيانته من جديد. «حرصتُ على أن أُبقي شعري «تحت الطاولة»، كما يُقال، لكن أحدهم في مكتبي وجد قصيدة لي «خارج العمل»، وأخبر صاحب العمل الذي كان ملاً». وعندما علِم أنه كُشف أمره، هرب محمد من مكتبه خوفًا إلى بيت والده.

يبدو أن محمد يمضي حياته هربًا. يعيش هو وزوجته وأولاده الثلاثة في شمال هولندا، يتوقون إلى البقاء في الأرض التي لجأوا إليها منذ ست سنوات، لكنّ المحاكم رفضت مطالباتهم بالبقاء، بوحي الروح الجديدة المناهضة للمهاجرين والمسلمين، التي تملأ أوروبا. انتهت صلاحية أوراق محمد. والآن ينتظر رجل الشرطة، في خوف، ليسأله: «من فضلك، أوراقك». أعدّ صديق للعائلة، هو الحاج عبد الرحمن، الأوراق اللازمة ليتمكن محمد وعائلته من مغادرة كابول إلى جلال أباد عبورًا للحدود الأفغانية حيث حصل «الحاج» - لقب شرف يحصل عليه كل من يحج إلى مكّة المكرّمة - على التأشيرات وجوازات السفر المزيّفة، ليتمكنوا من السفر إلى هولندا. قال محمد: «توجهت إلى مقرّ الشرطة لأعلمهم أننا هنا. عاملونا جيدًا. وقالوا لنا أن نتسجل في زيفينار بصفتنا مطالبين بملجأ، وهذا ما فعلناه».

استضيف في قرية هولندية صغيرة حيث لقيت العائلة الأفغانية معاملة طيّبة من السكان المحليين. وتابع محمد: «قدموا إلى شقتنا دومًا ليتفقدونا ويزوّدونا الطعام ويدعونا إلى منازلهم»، بينما تناول قصيدة حزينة عنوانها «شكرًا على كل شيء» تقديرًا للشعب الهولندي. لكن القدر لم يكن حليف محمد مرة أخرى. لو دوّنت جلسات الاستماع الأربع الأخيرة في قضية طلب اللجوء يوم وصوله إلى هولندا بدلًا من تاريخ زيارته الأولى لزيفينار سنة ٢٠٠٠ - حين تأخر تسجيله لأن السلطات الهولندية كانت تستمتع باحتفالات الألفية طوال الأسبوع -، لكان صُنّف في خانة اللاجئين الدائمين.

«لكن المحكمة أرّخت وصولي من تاريخ التسجيل المتأخر في زيفينار،

وأعلمتني بوجوب مغادرتي وعائلتي هولندا. أعلمتني أن طالبان انهزمت، وقد أصبحت أفغانستان الآن «ديموقراطية». ولكن لن تقبل حكومة كرزاي أن تضم عددًا من القادة العسكريين «المجاهدين» الذين زجوا بي في السجن. سيعاودون الكرّة». والأمر صحيح على الأرجح. ينتظر الآن محمد وزوجته وأولاده الثلاثة - ولد منهم واحد في هولندا - الشرطة لتأخذهم إلى مطار شيبول استعدادًا للرحلة الطويلة عودةً إلى بلدهم غير الآمن.

إن مقتل مخرج الأفلام ثيو فان غوغ، وسلوك قاتله المسلم القاسي - الذي أعلن في المحكمة أنه لم يكنّ أي شفقة لعائلة فان غوغ - جعلا قلوب أعضاء الحكومة الهولندية أكثر قسوة، تمامًا مثلما قسّت أعمال الشغب في كليشي - سو - بوا قلبي كل من ساركوزي وشيراك. فما عساي أقول لمحمد، وهو يجلس منحني الظهر في الكرسي العميق والمريح في غرفتي في الفندق، متشبّثًا بدفتر شعره وحقيبة أوراق اللجوء المنتهية الصلاحية؟ ما عساي أقول لهذا المهندس الميكانيكي الحائز إجازة بلغة أجنبية من جامعة أوكرانية، والذي يجب أن ينظف النفايات في شقق هولندية ليكسب المال؟ لا تمكنني مساعدتك، قلتُ في بساطة. سأكتب عنك. سأحاول أن أحصل على عطف السلطات. لكن زمن الإنسانية هذه ولّى.

في اليوم التالي، كنت أُلقي محاضرة في مدينة أنتويرب في بلجيكا، وعندما وقف أحد الحضور وبدأ بتوبيخي، سائلًا: «لماذا علينا أن نساعد الأفغان أو العراقيين أو المسلمين الآخرين، بينما تعاملهم حكوماتهم معاملة سيئة؟ لماذا علينا أن ننقذهم من شعبهم؟ لماذا علينا أن نعاملهم في شكل أفضل؟»، فسّرت له أننا - نحن الغرب - من سلّح «المجاهدين» لمقاتلة الرّوس، ثم تجاهلنا أفغانستان عندما انهارت في الحرب الأهلية. ونحن من غذّى طالبان عبر المملكة العربية السعودية وباكستان عندما ظننا أن في استطاعتنا أن نتفاوض معهم على أنبوب غاز في أنحاء أفغانستان، وأن السفير الأميركي الراهن في العراق - هذه القصة الديموقراطية الناجحة الأخرى المشبعة بالدماء - اشترك

يومًا مع شركة يونيكال التي تفاوضت مع طالبان على مسار خط الأنبوب، وأن كرزاي كان يعمل أيضًا لحساب يونيكال. عبثًا.

يبدو أن أخلاقيتنا الجديدة لم تعد تركز على هل «صدام أسوأ منا»، بل على «لماذا يجب أن نعامل المسلمين في شكل أفضل من معاملتهم بعضهم بعضًا؟». وبما أننا نعلم اليوم أن وكالة الاستخبارات المركزية تحتجز مسلمين آخرين في حصون - سجون، عميقًا في أسفل أرض رومانيا الديموقراطية وبولندا الشجاعة والديموقراطية لتعذيبهم، فأيّ أمل بعد يبقى لمحمد؟ بالنسبة إليه - وإلينا في بريطانيا قريبًا إذا نَفَذَ رئيس الوزراء بلير بريشه - ستكون عبارة عن قصّة مألوفة من ماضي أوروبا المظلم. من فضلك، أوراقك (باللغات الفرنسية والألمانية والإنكليزية).

«ذي إندبندنت»، ٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

لقصة محمد زيا نهاية سعيدة. في شباط/فبراير ٢٠٠٧، بعث برسالة الكترونية إلى أقرباء له، مفادها أن السلطات الألمانية منحت عائلته الإذن للبقاء في هولندا.

الفصل السادس

عندما كنت طفلًا... فهمتُ كطفل

أتذكَّر طفولتي من خلال استرجاع الماضي من رحم الماضي. صحيح، أحتفظ بفيلم بالأبيض والأسود كان يخص والدتي في الماضي - وكانت الكاميرا هدية من جدتي، فيليس - أظهر فيه طفلًا أشقر العينين، مبتسمًا، يلوّح بقبضتيه في الهواء في أغلب الأوقات. أظن أني ما زلت أتذكر رائحة غطاء عربة اليد في المطر. وأظهر في الأفلام التالية، في العاشرة من العمر، وأنا أمضي أيام العطلة في فرنسا وألمانيا مع والديّ. وفيما أنا أتأمل في الماضي، بالطبع، يعجبني أن أفكّر في أن هذه الأيام كانت رائعة، بينما كنت ألعب لعبة رعاة البقر مع أصدقائي في الصفوف الابتدائية في بستان التفاح الذي كان يخص والدي، عندما كنت في الثانية عشرة من عمري، في حين كنت أنجح في امتحانات المستويات المتقدمة، وأتوجه إلى جامعة لانكستر لقراءة اللغتين الإنكليزية واللاتينية ومادة الألسنية. أنسى طبع والدي الناري: كيف كان يجعل والدتي تغرق في الدموع بسبب أخطاء منزلية بسيطة، وكيف كان يضربني، مرارًا وتكرارًا، على يدي في حال قاطعته، وكيف لم أنجح في امتحانات المستويات المتقدمة. عندما سافرت جوًّا - من كينت إلى مدينة بوفاه في ضواحي واز الفرنسية - انتابني الخوف من السقوط من الطائرة. وفكّرت: لو أرادنا الله أن نسافر جوًّا، لمنحنا أجنحة. كان المنطق خاطئًا. لو أراد قصيرو النظر أن يروا،

لمنحهم نظارات. لكن بالطبع، نحن من نخلق منتوجات العلم، سواء أكانت قدراتنا على القيام بذلك هبة من الله، أم لا. وعندما أصبحت مراسلًا في الخارج فحسب، اكتشفت طريقة التغلّب على الخوف من السفر جوًّا، بعد عملية هبوط طارئة للطائرة في إيران الثائرة.

إحدى عملات الفارذنغ اللعينة الأخرى التي تخص آرثر

هذه قصة عن عملات الفارذنغ التي تخصّ آرثر. كان جدي لوالدتي آرثر، خبازًا صغيرًا تزوج سيدة تنتمي إلى طبقة أعلى من طبقته. عارضت عائلة جدتي فيليس هذا القران في شدة؛ لكنه اشترى، مع زوجته، مجموعة من المقاهي المربحة في أنحاء كينت سنة ١٩٢٠. كان آرثر روز مولعًا بلعبة البولنغ. كان عضوًا في فريق البولنغ الإنكليزي (المؤهلات الرئيسة: الكثير من المال)، وكان يلعب لعبته المفضلة في أستراليا، حين ادعى طبيبنا المحلي في ميدستون أنه اضطر إلى العودة إلى إنكلترا بسبب التهاب في المفاصل. لكن التشخيص كان خاطئًا. كان آرثر يعاني مرض سرطان العظام.

كان الفارذنغ - تقريبًا في حجم سنت من اليورو - عبارة عن ربع بنس قديم. وكان الشلنغ ١٢ بنسًا وكل ٢٠ شلنغًا تساوي باوندًا. وكان الفارذنغ يساوي ١٠٠٠ باوند. بدَت لي العملات النقدية البريطانية القديمة مزدانة بنقوش حربية، من مثل التيجان وبوابات الحصون الحديد والسفن الحربية. لطالما فضّلتُ نظيرتها الإيرلندية: كانت عملة «إيري» مزدانة بالعصافير والخنازير والأحصنة والقيثارات. امبراطورية السلطة في مقابل امبراطورية فناء المزرعة. ولكن كان الفارذنغ البريطاني المحبب القديم، يحمل صورة منمنمة لطائر الصَّعو، على الأرجح بسبب قلّة قيمته.

عودة إلى آرثر. كنت أنادي فيليس «نانا»، ولكن أصبح آرثر «غابا» نتيجة لسوء فهم كلمة «غرانبا (جدي)» في نظر روبرت، ابن العامين. كان رجلًا حكيمًا، متفانيًا لفيليس، لكنه بخيل إلى حد كبير. بعد الغداء العائلي يوم تبادل الهدايا، كانت فيليس تعطيني عملة من فئة ٢٠ ليرة استرلينية وكنت أعدها في المقابل بألا أخبر «غابا» عن هذا المبلغ الهائل. ويظهر آرثر ليضع في يدي عملة

من فئة ٥ ليرات أمام العائلة بأكملها. «آه، شكرًا غابا»، يجيب روبرت الصغير المخادع بصوت عال، بينما يضمن مبلغ ٢٥ ليرة لعيد الميلاد المقبل. كنت في الثالثة عشرة من عمري عندما توفيت فيليس بمرض السرطان، لكن عندما توفي آرثر بعد خمس سنوات، وجدت أمي بيغي وأختها عشرات الشيكات، غير المقبوضة، في أدراج آرثر، موقّعة من فيليس بمثابة هدايا لزوجها. وفكّرتا في أن هذا هو السبب وراء رفضه صرف المال. في نظري، كان هذا عربون حب.

بدأت أحبّ آرثر عندما كان يُحتضر. شجعني على أن أصبح صحافيًّا - بعكس والدي - وكان يحب أن يستمع إلى أسطواناتي الكلاسيكية بينما كان في سريره مريضًا في منزلنا في مايدستون. كان يغني «ذي فولغا بوتمان». قبل أن يشتدّ مرضه، علّمني كيف أقطع الأشجار. كان يعاملني كشخص راشد، وهذا ما يريده الصبيان. أحبّ ابنتيه وكان معجبًا بوالدي، بيل، وسمعني مرات عدة أشكو من الضجر لبيغي، أو أقاطع والدي بينما كان يشاهد مسابقة الاختبار على التلفاز. كان يقول: «روبرت في حاجة إلى ما يفعله». فقام بطلب ٣,٠٠٠ فارذنغ من البنك، وصلتْ إلى منزلنا في ريكتوري لاين في أكياس من العملات. دخل آرثر حديقتنا الشاسعة بعكازيه، ورشقها بفئات المئة على أسرّة الزهور خلف الشجيرات وحول الأشجار على بساط العشب الطويل في بستان التفاح. قال لحفيده الإنتهازي: «إذا وجدتها كافة، فسأعطيك ثلاثة باوندات». أمضيت أسابيع تحت المطر أو الشمس الساطعة، أثناء احتضار آرثر، بحثًا عن الفارذنغ بين العشب الطويل وأسرّة الزهور. كنت في البداية أجمعها كل يوم من خلال ملء الكوب؛ ثم كل أسبوع في ما حوته يدي. كل مرة أشعر بالضجر، كان يرسلني بيل وبيغي إلى الحديقة من جديد للبحث. كنت أعثر على ثلاث قطع منها أو أربع كل أسبوع.

ولكن، بالطبع، مع مرور الأعوام وتساقط الأمطار في أنحاء كينت، انغرزت قطع نقدية عميقًا في التراب لتسمم جذورها أزهار والدتي. أما البعض الآخر فانجرف نحو حافة حقل الزهر، ومن ثم نحو المروج المغمورة بالماء.

بعد سنوات على وفاة آرثر، كان والدي يدفع آلة جز العشب اليدوية نحو النباتات اليابسة ويسمع قرقعة معدن لنجد أنا وبيغي بيل واقفًا قرب الآلة التي انكسرت شفرتها. ويقول: «على الأرجح، إنها إحدى عملات الفارذنغ اللعينة الأخرى التي تخص آرثر». حتى بيغي، عثرت على واحدة سنة ١٩٩٦ مدفونة في جذع شجرة سميك على ارتفاع ستة أقدام عن سطح الأرض. وبعد وفاتها، بعت ريكتوري لاين. وحين مررت به أخيرًا، لاحظت أن المالكين الجدد وسعوا مساحة المنزل نحو المرج؛ وليس لدي أي شك في أن في مكان ما في أسفل أسس الخرسانة هذه، ترقد كائنات الصَّعو النحاسية في هدوء.

لكني أتساءل اليوم ألا ترمز عملات الفارذنغ هذه إلى ميراث طوني بلير. الرجل الذي سمح لحزب العمال الجديد بأن يمنح بريطانيا أحلامًا جديدة تشغل نفسها بها. بدا الأمر غير مؤذ. آمن كثر به في البداية. حتى أن البرلمان برز موافقته على الحرب غير القانونية في العراق، بأنه وثق به. هذا القرار الذي أودى بأكثر من نصف مليون نسمة. لا، لم يكذب آرثر، بعكس بلير. أعلن يومًا أنه رفض دفع ضرائبه المحلية على أساس أنه يفضّل أن يحتفظ بالمال لنفسه (وسرعان ما غيَّر رأيه، بعدما اكتشف أنه قد يُستدعى إلى المحاكم للمثول أمام أمين السر في مايدستون الذي هو والدي بيل). لكن آرثر زرع ماله في سعادة، في حديقتنا، إذ لم يكتشف أنه بعد وفاته، سيظهر ميراثه ليكسر شفرات آلة جز الأعشاب خاصتنا، ويشوّه أزهار والدتي، ويحبس نفسه داخل لحاء الأشجار.

أخشى أن يبقى ميراث لورد بلير كما هو عليه. بعد مرور وقت طويل على كتابة ذكرياته التي تخدم مصالحه - وبالطبع، بعد مرور وقت طويل على توجهه إلى البيت الأبيض العظيم في السماء - سنكتشف أن ميراثه السياسي يستمر في مطاردة الشرق الأوسط وتسميمه، وحكم المملكة المتحدة.

بالطبع، لم أحصل على عملات آرثر النقدية. توفي، في حزن شديد، في مستشفى كينت الغربية في مايدستون. قال لبيغي التي كانت في حال نواح:

«أتمنى لو أشرب شيئًا يجعلني أغفو إلى الأبد»، قبل وقت طويل حتى من العثور على عملات الفارذنغ الـ ٥٠٠ «اللعينة». لم أتمنَّ أن يصيب بلير هذا القدر، لكني أتساءل ما هو قدرنا.

«ذي إندبندنت»، ١٧ شباط/فبراير ٢٠٠٧

وكيل الرّبان الأول إدوارد فيسك

احترق البعض من عائلة فيسك الأسبوع الماضي. عندما شبّت النار في سفينة كاتي سارك، تحوّل المكتب الخشب رمادًا، هذا المكتب الذي وطئه يومًا جدي إدوارد، من دون شك في شكل غير ثابت، أثناء العواصف الشديدة التي هبت على «رأس الرجاء الصالح».

كان إدوارد فيسك رجلًا عجوزًا مشاكسًا وقاسيًا ومتمرّدًا: رفض والدي ويليام زيارته عندما كان يحتضر - تمامًا مثلما رفضتُ لاحقًا أن أزور بيل، في غباء، وهو على فراش الموت - بينما كان يشكو من «الاجدوى الذهاب من مايدستون إلى بيركنهاد لرؤية الرجل العجوز عبر النافذة الزجاج». ولكن، عندما كنت أجول مع صديق لي حول كاتي سارك سنة ١٩٨٧، وجدتُ صورة رائعة على الأرصفة السفلية؛ كان ضباب نهر التايمز يلف السفينة الشراعية القديمة تمامًا كما لفها الدخان عندما أوقفت في المحيط الهادئ قبل ١٠٠ سنة. وفي الصورة، مجموعة من البحارة في أسفل السارية في ميناء سيدني وأحدهم - في رأيي، في التاسعة عشرة أو العشرين من عمره - كان يشبهني وأنا شابٌ. يُقال إن الرجل يشبه جده أكثر من أبيه، وكان ذلك صحيحًا في حالي. كان لإدوارد فيسك عيناي وجبيني العريض، حتّى أن شعره كان مسرَّحًا إلى اليسار. كان يبتسم، وهو عن يمين البحار الآخر. وُلد سنة ١٨٦٨، قبل بناء سفينة كاتي سارك بسنة، وقبل كثير من إطلاق اسمها على صنف مشهور من الويسكي، المشروب الذي أحبَّه جدي كثيرًا في وقت لاحق.

في حين كان إدوارد يوجِّه حركة السفينة، كانت هي تخلّت عن طريق الشاي إلى الصين، لتحمّل الصوف من أستراليا. أدري هل كان على متن السفينة عندما حطمت كاتي سارك الرقم القياسي باجتياز «رأس الرجاء الصالح» يفضل

بيل أن يفكر أنه كان على متن السفينة، لكن انتهى به المطاف وكيل الربان الأول على متن السفينة الأسطورة، وما زلت أحتفظ بكتيّب الإبحار الخاص به الذي أعطاني إياه والدي قبل موته. وبحسب الكتيّب الجديد للامتحانات التجارية على متن السفينة الخاص بالقبطان ر. س. كوغل، على وكيل الربان الأول أن يكون «في التاسعة عشرة من عمره وقد أمضى خمس سنوات في البحر». إنه عبارة عن مجلّد رفيع وجلد يحتوي أعلام السفن وتقنية الإبحار: كيف تُدار السفينة ذات الساريات الأربع وسط العاصفة الشديدة - الأمر الذي يستغرق أربعة ميال على الأقل - وكيف «يحسب خط العرض من ارتفاع خط زوال نجمة»، والشعور الناجم عن هذه التقنيات جعلت روبرت الشاب يتّخذ مهنة البحار التجاري وظيفة له عندما يكبر (وهذا لا يبعد كثيرًا عن تصميمي على أن أصبح سائق القاطرة البخارية). فالأمر الذي صدمني هو التموجات الظاهرة على الغطاء الجلد الأسود التي محت الأحرف الذَّهب تقريبًا. صُنعت من مادة من الملح، التي تولّدها البحار الهائلة حيث أبحر جدي منذ ١٢٠ عامًا عندما قدّم والدي بيل طلبًا للالتحاق بالجيش في الحرب العالمية الأولى - عارضت والدته مارغريت رغبته، وهو قاصر - فأظهرت بيانات دخوله في الخدمة البريطانية أنه «وُلد سنة ١٨٩٩ في «ستون هاوس»، ليسو، ويرال، شيشاير». كان هذا منزل إدوارد، ويظهر في المستند أنه «بحّار قبطان من مواليد سنة ١٨٦٨».

كانت مارغريت تصغر زوجها المستقبلي بسنة، ويُشار إليها بـ «ابنة بستاني السوق (كذا)». «كانت امرأة رائعة وودودة»، كما قال عنها بيل مرة، في حماسة. وبعد مضي سنوات عدة - سنة ٢٠٠٤ - أرسلت إلي ابنة أخت بيل، جان، إحدى المطبوعات السبيدجية الجميلة من الزمن الفكتوري، تظهر مارغريت فيها بفستان ضيّق جدًا، مزدان بالزهور، وشعرها مسرّح على شكل كعكة، وتبدو على وجهها ملامح المرأة الجدية - اعتقدت أنها كانت تعاني قليلًا - ربما لأنها وجدت أن العيش مع بحار سابق يفرط في الشرب، تجربة مخيفة، على رغم أن إدوارد أصبح نائب رئيس الميناء في بيركينهاد. أخبرني بيل

مرّة: «عدتُ يومًا إلى المنزل بإصابة بالغة في رأسي لأني كنت أتشاجر مع شبان آخرين. كانت والدتي تنظّف الأرض بممسحة ودلو من الماء. وعندما رأتني، بلّلت الممسحة داخل الدلو ومسحت رأسي. امتلأت الأرض بالدماء». وبحسب بيل، كان والده «يعامل والدته في شكل رهيب» في بعض الأحيان، وكانت ثمة آثار تدلّ إلى أنّ إدوارد كان يعود أحيانًا إلى المنزل مخمورًا، وكان يضرب مارغريت المسكينة أمام الأطفال.

في كل الأحوال، لم يجمع إدوارد الكثير من المال. قبل الحرب العالمية الأولى، أُخرج بيل من مدرسته «لأنّ والدي عجز عن إعالتي»، واشتغل أمينًا على الكتب في مكتب أمين السر في بيركنهاد. كانت هذه الخطوة الأولى نحو تعيينه أمين السر في مايدستون - التي قاطعتها المعركة الثالثة في السوم - هذه الوظيفة التي كان يشغلها عندما وُلدتُ سنة ١٩٤٦. لكن روح إدوارد ظلّت حيّة. كان سيموت في السادسة والتسعين من عمره بعدما تعافى من مرض التيفوئيد في الثانية والتسعين، وتمكّن والدي من البقاء حيًّا حتى سن الثالثة والتسعين. سنة ١٩٨٠، في بداية الحرب بين إيران والعراق، كنت في الميناء العراقي في مدينة البصرة عندما طُلب من جون سنو (في أخبار القناة ٤ اليوم) إنقاذ طاقم السفينة البريطانية المحجوزة في نهر شط العرب. لكن حفيد إدوارد تذكر والده الذي أخبره أن إدوارد قال يومًا إن من المفترض بكل سفينة تجارية أن تحمل خرائط الطرق المائية التي تبحر فيها. ومن دون شك، قامت السفينة الأولى التي ركبتُ على متنها في البصرة بتزويدي خارطة البحرية الملكية لشطّ العرب، فانطلق جون في مهمته الناجحة والمجنونة احترامًا لوكيل الربان الأول على متن سفينة كاتي سارك المتوفي منذ زمن بعيد.

لا بدّ من أن دم الملاحة يجري في عروق العائلة. في نهاية الحرب العالمية الأولى فحسب، اكتشف بيل أن جدّه - والد إدوارد وجدّ جدي - اشترك في القتال في زيبروج سنة ١٩١٥ بصفة كونه ضابط احتياط في البحرية الملكية. على الأرجح أن هذا الصبي العجوز كان في السبعين من عمره على

الأقل. وكولد، كان يصطحبني والدي (إضافة إلى ساحات المعركة للحرب الكبرى) إلى غريفسيند في كينت، لأشاهد البواخر الكبيرة تقلع من تيلبوري في اتجاه التايمز صوب أماكن بعيدة ما زالت إلى الآن تشكل امبراطوريتنا. أبحرت سفن «بي أند أو» البيض الكبيرة نحو الهند، تقطرها دومًا، عبر النهر، الزوارق التي تعلوها مداخن خمس اسمها «الشمس»، والتي كانت تصطف على طول ميناء غريفسيند.

أخيرًا، نال إدوارد رضا بيل عن زواجه الجديد بعد أشهر من وفاة مارغريت الكريمة. أرادت جان أن ترى الرجل العجوز في بيت الراحة بعد سنوات، ووجدته في حال حزن شديدة لأنه خسر بيل. لذلك، لم يترك في هذه الدنيا إلا الجائزة المادية الوحيدة، وهي كتيّب البحّار القديم، المغمور بالملح الذي بقي على قيد الحياة، سليمًا، على رف مكتبتي، بعد وفاة السفينة الكبرى التي أبحر على متنها يومًا من الأيام.

«ذي إندبندنت»، ٢٦ أيار/مايو ٢٠٠٧

هيا، ساتون!

عندما كنت في المدرسة، ضربني يومًا ناظرٌ لأني قرأت كتابًا عن تاريخ تشيكيا أثناء مسابقة كرة قدم. كانت ساتون فالانس - وما زالت - مدرسة عامة، ثانوية الأهمية، بقبعاتها القش ومسابقات الجري الطويلة على الطرق المغطاة بالثلج، والعقوبات الصارمة، بما يرقى بها إلى مستوى المدارس الثرية التي تنمي الشخصية، وإن بطريقة سادية، مثل روكبي وديتون. قامت ساتون فالانس بتحديث أساليبها منذ ذلك الحين، ولكن سنة ١٩٦٠، عُدَّ هتاف «هيا، ساتون!»، وسط مجموعة أغبياء مطليين باللون الأزرق ومرتدين القمصان باللونين الأبيض والأسود، أكثر أهمية من قذف جان ماساريك من النافذة في براغ سنة ١٩٤٨. وفي وقت لاحق، ضربني الناظر بعصا بناءً على أوامر رئيس قاس جدًّا، توازي رغبته في عدم تجنب عمليات الضرب الشريرة حبّه لعبة كرة القدم والروكبي.

عاودتني ذكراه حين قرأت أول كتاب رياضي في حياتي أثناء عيد الميلاد، الكتاب الأميركي الأكثر رواجًا لفرانكلين فور «كيف تفسر لعبة كرة القدم العالم»(*). وأتى هذا الكتاب تأكيد لتوقعاتي: إن كرة القدم والعنف مرتبطان في شكل متين من حيث السبب والنتيجة، وهما - بعيدًا من كون الأولى متنفسًا لتحاشي الثاني - قابلان للتبادل. خلص فور، في النهاية، خلال زيارة لفريق النجم الأحمر، أقوى فرق بلغراد، أن هذا الفريق يغذيه مجرم الحرب الصربي الأكبر أركان الذي اصطحب لاعبيه المسلّحين جيدًا إلى وادي درينا سنة ١٩٩٢

(*) فرانكلين فور، تفسير لعبة كرة القدم للعالم: نظرية غريبة عن العولمة (نيويورك، هاربر بيرينيال، ٢٠٠٥).

في عملية قتل وسلب واغتصاب جماعية. كان أركان يقود سيارة كاديلاك زهرية، وقد تزوج بزوجة لاعب كرة قدم - سيكا، أروع مغنية تقليدية - باللباس العسكري الصربي. والمباراة التي أقيمت، قبل الحرب، بين النجم الأحمر ودينامو الكرواتي - المحبوب من الرئيس الفاشي فرانكو تودجمان - انتهت بمعركة ضارية.

اشتهرت مارغريت ثاتشر بوصفها سفاحي كرة القدم بـ «عار على المجتمع المتحضّر» - هذه الكلمات نفسها التي استخدمناها لاحقًا لوصف القتلة في صربيا. في غلاسكو، يجلس الداعمون البروتستانت للاعبي رانجرز في مجموعات منفصلة - وهم يصرخون «نحن متفانون للدم الفيني إلى أقصى الحدود» - وسط معجبي نادي كرة القدم الكاثوليكي السلتي. أتذكر جيدًا، في تغطية لأعمال العنف في بلفاست أوائل السبعينات، كيف تتجمّع سيارات الشرطة العسكرية الملكية في أولستر عند الجسر حول راغان أثناء مباريات رينجرز أو مباريات السلتيك، أكثر مما ألمحها في حال المواجهات الطائفية خلال أيام الأسبوع. في الواقع، المرة الأولى التي رأيت فيها شرطيًا بريطانيًا مرتديًا بزته في فرنسا، كانت عبر نافذة قطار يوروستار، بينما كان يراقب منصة محطة ليل مسابقة بين إنكلترا وفرنسا.

أصبح اليوم النهب والاعتداء والقتل، جزءًا من كرة القدم الأوروبية، كما لو أنها أصبحت عادة. في أحد العناوين التي قرأتها حين كنت أعبر باريس منذ بضعة أيام، «قُتل معجب في ملعب كرة القدم بعدما اعتدت عليه العصابة العنصرية». وفي شكل نموذجي، نُشرت القصة في الصفحة الرقم **٢٧**. هذه القصة التي تدور على الشرطي الفرنسي الذي قتل، خارج دوام عمله، مجشعًا من العرق الأبيض لفريق باري سان جيرمان، بينما كان يطلق إهانات معادية للسامية، ويحاول قتل معجب يهودي فرنسي لهابويل في تل أبيب. لهو أمر طبيعي أن يقتل معجبو كرة القدم العنصريون خصمهم، وأن يُطلق عناصر الشرطة الرصاص.

إن الصلة بين كرة القدم والعنف - وتبعًا، السادية - لأمر مخيف بحق. ذكّرني صديق لي، إيرلندي الجنسية، كان عضوًا في فرق المراقبة التابع للاتحاد الأوروبي في البلقان، كيف شهد خلال حرب البوسنة تبادل الجثث بين الجيوش الصربية والكرواتية قرب مدينة موستار. «أحضر كل من الطرفين جثثهما في أكياس على متن عربات لوري، وجرّوها إلى حقل صغير. عندما أفرغ الصرب الأكياس، كان من الواضح أن رؤوس جثث الكرواتيين قد قطعت لم أصدّق ذلك. هنا، أمام الكرواتيين الذين أحضروا جثث الصرب، بدأ الصرب بلعب كرة القدم برؤوس الموتى الكرواتيين، بينما كانوا يضحكون، فقد كانوا على ثقة بأن هذا سيثير غيظ الكرواتيين».

أمر غريب، كيف توحّلت كرة القدم على أيدي الجيوش، أليس كذلك. كل مرّة يرغب جندي عراقي أو رجل درزي من الميليشيا أو أصولي مصري، في أن يمدّ إلي يد الصداقة في الشرق الأوسط، يخبرني فورًا أنه من مشجعي فريق مانشستر يونايتد. لا ضرورة للقول إن الفرق، في لبنان، تمثل الطوائف الشيعية والسنّية والمسيحية كرمز قوتها. ورئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، الذي اغتيل، كان يدعم أحد الفرق تمامًا مثلما أصبح بيرلوسكوني مالك فريق ميلان، ومثلما تفرّع الأوليغارشيون الروس بملكية كرة القدم، بما في ذلك ملكية كرة القدم البريطانية. يمكن اللاعبين، منفردين، أن يُلحقوا العار بأنفسهم: قد يغرق جورج بيست في الشرب، وقد يضرب زيدان خصمه [الإيطالي] برأسه لأنه شتم شقيقته، لكن الفريق يستمر أبدًا. في نظر أفقر الفقراء، تُعدّ الثروة الهائلة التي يحصل عليها نجوم كرة القدم - ١٠ ملايين فرنك لبيليه البرازيلي تحت عنوان الرعاية - تقديرًا لإنسانية أرانتيس دو ناسيمينتو (بيليه المستقبلي)، الذي ترعرع في مدينة تري كوراكويس الوسخة والفقيرة غرب ريو.

أعلم أنه ليس بالأمر السيئ. أتذكّر عندما سافرت إلى طهران مع فريق كرة القدم الإيراني سنة ١٩٩٧ بعدما هزم أستراليا في التصفيات المؤهلة لكأس العالم، شكّلت الفرحة الكبيرة التي استقبلوه بها ما يعدّه فرانكلين فور «ثورة كرة

القدم» في الشرق الأوسط: دخول آلاف النساء الإيرانيات ملعب آزادي في شكل غير قانوني، إضافة إلى الدعم السياسي الذي منحه الفريق للرئيس الإصلاحي، الضعيف في شكل مأسوي، محمد خاتمي.

ممكن. لكني أتذكر لحظات أكثر إزعاجًا في الشرق الأوسط عندما كنت أتحقق من أحد الحوادث الوحشية الكثيرة - الصحيحة جدًّا - التي وقعت بين الجنود البريطانيين والسجناء العراقيين. في مستشفى البصرة، استمعتُ إلى سجين سابق، يعاني إصابات جمة، لدى الجيش البريطاني يصف، كيف دخل معذبوه الغرفة حيث كان محتجزًا مع أصدقائه. قال: «قام جنودك، قبل الإساءة إلينا، بتلقيبنا بأسماء، أسماء لاعبين مشهورين في كرة القدم. ثم بدأوا بضربنا وركلنا إلى أن صرخنا وطلبنا الرحمة. لماذا يقدمون على مثل هذا الأمر؟».

أظن أني أعرف السبب.

«ذي إندبندنت»، ٣٠ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦

ليالي الحرب الباردة

في بلد الاغتيالات السياسية والحروب الفلسطينية والأزمة السياسية الدائمة، بدت فكرة إرسال غصن من البوغنفيلية بلون الخزامى من شرفتي في بيروت، إلى صديق في الخارج، فكرة رومانسية. كان الغصن مغطّى باللون البنفسجي، فقطفت زهرة صغيرة وأرسلتها إلى مكاتب DHL لشحنها. كما تلاحظون، تعد هذه من أبسط الأمور. لكن الأمر يفقد قيمته من دون الدولة. بعد بضع ساعات، استُدعيت إلى مكتب الشاحن ليعلموني بمشكلة ما. إذا قطفتُ أوراق الزهرة، منفردة، يمكنني أن أضعها في مغلّف لشحنها. ولكن، إذا تركتها على الساق، كاملة مع الغصينات، فسأحتاج إلى إذن تصدير من وزارة الزراعة اللبنانية. تبًا!

إن الأساس المنطقي بسيط، بالطبع. بغض النظر عن شناعة الواقع وغرابته، يجب أن تستمر آلة السلطة في ممارسة تأثيرها المهلك في حياتنا، حيث تفوقنا المحافظة على السلطة أهمية، بينما تدعمها مبالغ الأموال الهائلة وعدد العمال الكثيف، حتى لو أُثبتت بطالتهم.

تذكرت ذلك كهواية مارسناها يومًا، نحن، شباب مدرسة كينت: إرسال تقارير الاستقبال - كنا نسمّيها، في شكل محتوم، «ت. أ» - إلى محطات الراديو في منطقة أوروبا الشرقية خلال الحرب الباردة. لم يهمنا أننا كنا نساعد الأفعى الشيوعية على أن تنفث سمّها في أنحاء إنكلترا. كنا نستمع في انتباه شديد إلى خدمة راديو موسكو أو راديو براغ أو راديو وارسو أو راديو صوفيا باللغة الإنكليزية - وأحيانًا، في شكل لا يُصدق، راديو تيرانا - ثم نرسل بطاقة بريدية إلى الوحش الشيوعي بهدف التبليغ عن نوعية بثّ بعض البرامج المملة عن الأعمال الفولاذ في بلغاريا، والهندسة الزراعية في بولندا، أو إنتاج المزارع

المشتركة السوفياتية. هل كان ثمة الكثير من التشوّش؟ بعض التشويه ربما؟ أم كان هذا الكلام الفارغ يعبر، الستارة الحديد في وضوح نقي مساء الخميس؟

في المقابل، قد يرسل إلينا مخرجو تلك البرامج الخيالية الشنيعة، عددًا من الكتب والمجلات، معظمها يعجّ بالإحصاءات أو صور المزارعين أو العمال الصناعيين الذين يبتسمون فرحًا، أو صور المستبدين المتألقين. قلة منا من لم تعرف شخصيات تودور زيفكوف أو والتر اولبريتش المحبوبة، أو، بالطبع، اللجنة التنفيذية المركزية الكاملة للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. مساكين سعاة البريد التابعون لحلف وارسو. تضمّن الأدب البولندي ضعفي المجلدات الجالبة للحظ السيئ التي تملأها صور زمن الحرب عن دمار وارسو التي ربطت شرّ النازية، على ما يبدو، بالحكومة الفاشية التي تخصّ أديناوير، والمتزلّفين الغربيين الآخرين. كان التشيكيون يفوقونهم ذكاءً إلى حد كبير، إذ أرسلوا كتبًا صيغت جيد، عن التحف الفنية من صالات العرض الفنية في براغ.

بالطبع، صدقنا، نحن طلاب المدرسة الواثقين من أنفسهم، ان تقاريرنا ت. أ. تناقش في الجلسة العامة التي تُعقد في المقر الرئيس لكل حزب محلي. من المحتمل أنها كانت تُناقش، ومن يعلم ماذا فعلت «م ١٥» بهذه المؤامرة الهائلة على أيدي طلاب أغنى المدارس في كينت. تخيّلت في سذاجة - من بوستدام إلى أورال - خيالة عمال ستاخانوفيت يتسلّقون في جهد أجهزة الإرسال تحت زلاقات باللون الأزرق الشاحب من أوروبا الشرقية (بينما يمسكون بأيديهم تقارير ت. أ. الخاصة بنا، بالطبع) بهدف التلاعب بالأبراج المعاكسة الضخمة وشعلات نار الإرشاد التي كانت تبعث بالرسالة الشيوعية إلى العالم.

حتى إني أرسلتُ يومًا تقرير ت. أ. إلى راديو إيريان العزيزة القديمة في دبلن - فقط لأستلم في المقابل فحسب بطاقة بريدية باللونين الأبيض والأسود، تتميز ببساطة الناردين لتعلمني أن لا ضرورة لإرسال المزيد من التقارير بعد

الآن. فهِم الإيرلنديون المقصد، بالطبع: إن هذه السخافة وقت ضائع تمامًا مثل نشر الدعاية بقيمة مليار دولار حول نظام الراديو في أوروبا الشرقية الذي لم ينجح حتى في تحويل رأسماليًا واحدًا إلى صف قضية الثورة العالمية. إن الأمر بمثابة خدعة لفّقها البيروقراطيون الشيوعيون إرضاءً للبيروقراطيين الشيوعيين الآخرين.

أعتقد أننا لعبنا النغمة ذاتها في بريطانيا. أتذكر قيادة الـ «أيه ١» برفقة والديّ، بينما تستخدم بيغي فيسك الكاميرا السينمائية الجديدة لتصوير الغابات المملوءة بالقذائف المضادة للطيران - المكشوفة بالكامل - باللون الأبيض، الموجودة إلى يمين الطريق العام. كنا نتنزّه قرب محطات «آر أيه أف» في لينكولنشاير، في حين تصوّر والدتي، في سعادة، شرارة كل متفجرة بركانية انفجرت في الهواء تهديدًا للمنليث السوفياتي (ومحطات الإذاعة هذه كافة) وقوتها النووية. نعم، ما زلت أحتفظ بالفيلم. ولكن ما الذي قد يصيب والدتي اليوم - في رحلة إلى بادينغتون غرين، على ما أتخايل - ونحن نخوض «الحرب على الإرهاب»؟

نعلم جميعًا ان هذا الصراع غير المنطقي عبارة عن آخر نسخة من الحرب الباردة: الأمر الذي اكتشفته أثناء مقابلة مع صحافية إسبانية ومصوّرها في لندن منذ بضعة أشهر. التقينا في بادينغتون مصادفة، وكنت أتحدث عن السعادة التي كانت تغمرني في طفولتي عندما كنت أركب تلك القطارات (أفترض، تقارير ت.أ. عن نسخ السكك الحديد) وافترضت أن يتولى المصور تصويري قرب القاطرة. مشينا صوب منصة حيث كان قطار لندن - أوكسفورد يستعد للمغادرة. بعدما التقطنا بعض الصور، وصل عنصران من شرطة النقل البريطانية يرتديان سترتين مضادتين للرصاص، وطلبا منا التوقف عن التصوير. قال لنا أحدهما إن التصوير «غير مسموح» نتيجة «الحملة الإرهابية». تخيّلت صورًا واضحة لشبكة من العساكر التابعين لمنظمة إيتا، يقصّون صورنا من تيتفيلد ثانديربولت، ويوضّبون معدات المتفجرات التي تخصهم قبل التوجه إلى بادينغتون.

هذا هو هراء الشرطة الذي أستمتع به لسببٍ. فالشهر الماضي، في إطار إعداد الإعلانات عن ذكاء محطات يوروستار الجديدة، التطقت الصحف في بريطانيا، في معظمها، صورًا لساينت بانكراس، جوًا، تظهر فيها شبكة المسارات الحديد كافة ونقاط التحول وإطارات الإشارات والفناءات المقضّبة الإرشادية خارج المحطة. أسِفتُ لتيتفيلد ثانديربولت الهشّ في بادينغتون. إذ، على رغم ذلك كله، لا يحلم أي إرهابي بالاعتداء على قطارات يوروستار، أليس كذلك، ولن يجرؤ على دراسة نظام التعقب خارج ساينت بانكراس من الجو؟ لم ترد كلمات «غير مسموح» على ألسنة الرجال المرتدين اللون الأزرق عندما واجهتهم الحملة التجارية لإطلاق محطة يوروستار الجديدة.

هذه هي الحال، بنظري. نخلق وحوشًا، ثم - اهتمامًا بالأموال أو البيروقراطية - نفككهم في هدوء. في وجه الحرب الأهلية الشريرة والأولية، نبني ألف جهاز استقبال أو مليون قذيفة صاروخية. إن قادتنا سعداء. يتمتعون بالسلطة. هذا هو الأمر الأهم. فتذكروا هذا الصباح تقارير ت. أ. التي تخصني، وغصن البوغنفيلية على شرفتي.

«ذي إندبندنت»، ٦ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧

هذا الحديث كلّه عن القطارات المميزة...

ما زالت أمامي ساعة إضافية قبل موعد الغداء في لبنان هذا الأسبوع. استعدتُ اللحظات السعيدة في طفولتي مرة أخرى، وتوجهتُ صوب الشوارع والساحات المرتبة في بيروت القديمة، وتسلّقتُ قاطرة السكة الحديد المسننة الهائلة التي ترقى إلى القرن التاسع عشر. على رغم أنها مشوّهة بالرصاص، ما زال الطلاء الأخضر على القاطرة القديمة الرائعة السويسرية يعكس أمجاد البخار والامبراطورية العثمانية. إذ هم العثمانيون من قرّروا تزيين جوهرتهم بيروت بأحدث القطارات، وهو القطار الذي نقل يومًا القيصر الألماني صوب الجبال فوق المدينة حيث، في محطة صغيرة تسمى صوفر، طلب منه المجتمع المسيحي راجيًا حمايته من المسلمين، صارخًا: «نحن أقلية» وأجابهم القيصر: «إذًا، تحولوا مسلمين!».

لطالما أذهلتني القطارات طوال حياتي. كانت تصطحبني والدتي إلى محطة شرق مايدستون في كينت لمشاهدة محرّكات الصهاريج تسحب قطاراتها المحلية من آشفورد أو أجهزة البخار القديمة، من النوع الرصين القاسي، أثناء الحرب العالمية الثانية مع مسافة ميل من الشاحنات الصدئة المقطورة. يُذكر أن هذه الأجهزة كانت تشبه الوحوش البشعة الضخمة مع خزان احتراق على شكل لفّة أوراق الحمام. أحيانًا، كانت تأخذني إلى المحطة التالية في بيرستيد، حيث كان والدي يلعب الغولف، وحيث كانت الحجيرة - كنا نسافر في الدرجة الأولى - تعجّ بالدخان في النفق أسفل سجن مايدستون والستائر القديمة باللونين الأبيض والأسود المتدلّية أمام النوافذ. كنت أقف في محطة تونبريدج أيامًا وأشاهد القاطرات المخصّصة لصف معركة بريطانيا وصف البحرية التجارية وصف المدارس (حيث اكتشفت لاحقًا أن مدرسة الثانوية العامة التي كنت أرتادها،

ساتون فالانس، استثنيت منها بقوة)، بينما كانوا يعبرون في قطارات السفينة من فيكتوريا إلى دوفر. كان السهم الذهب، في المرحلة التي سبقت قطارات يوروستار، يسعد كل راكب في هذه القاطرات، حيث تكون الناقلات بلوني القشدة والذهب مسحوبة بمحرّك، في حين يتدلّى العلمان البريطاني والفرنسي من الغلاية. وكنا نمسك جميعًا بالكتاب المقدس الخاص بمحبي هذا القطار، دليل راكب القطار في يد إيان ألين عن أرقام المحركات.

كنت أظنّ أن المسألة برمّتها نوع من الجنون، إلى أن اكتشفت إلى أي مدى أشبع نظام السكك الحديد الفن. كان تورنر مهووسًا بالقطارات. تقع بطلة تولستوي، آنا كارينينا، في الحب في رحلة في القطار، وتقرر أن تهجر زوجها على منصة السكة الحديد، وتقدم على الانتحار بإلقاء نفسها أمام قطار محمّل بالسلع، «وتحديدًا عندما أصبح مستوى الإطارات متساويًا معها... وبحركة خفيفة، كما لو أنها ستقوم سريعًا من جديد، ضعُفت... بينما داس على رأسها شيء ضخم وسريع وجرّها على ظهرها، متمتمةً: «اغفر لي ربي كل شيء!». حتى أن تولستوي توفي في محطة السكة الحديد صُمّم جزء من شخصية دكتور جيفاغو لباستيرناك على رحلته من موسكو في القطار، متأملًا القاطرة الثورية الخاصة بستريلينكوف ورحلته اللاحقة عودة إلى لارا عبر مسار مغطى بالثلج بشكل جزئي. إن معالجة الفيلم هذه المسألة أقل شأنًا من معالجة الكتاب لها، إذ أنذرت حلاقة جيفاغو باحتمال القبض عليه إذا استمر في «هذا الحديث كله عن القطارات المميزة».

كان المقصد أن القطارات كافة «مميزة». صورت والدتي روبرت البالغ العاشرة من العمر بإحدى الكاميرات الجديدة بالألوان، بينما كان يشاهد قطار «ترانس يوروب إكسبريس» بلوني القشدة والذهب - قطار ديزل مسحوبًا، من الدرجة الأولى - ينحدر في محطة فريبورغ في ألمانيا سنة ١٩٥٦. كذلك الأمر، كان يوازي هذا القطار، من حيث التميّز، قاطرة بخارية بقياس خلفي «أوو»،

الذي أعادني والدي فيه من ألمانيا حيث كان يساعد في نشاطات إعادة بناء هامبورغ ما بعد الحرب.

وبما أن القطار ألماني الصنع، ونظرًا إلى قوته، انحرف عن مسار هورنباي الإنكليزي، وعبَر الردهة الأمامية، وتجاوز عتبة منزلنا الرئيسة واصطدم بالممر ليستقر في أسفل سيارة والدي. عندما أعادت السلطات اللبنانية تصليح الخط الساحلي من شرق بيروت إلى مرفأ الصليبيين في جبيل، سافرت في سيارة أجرة في قطار بولندي مجهّز بديزل. كان يجرّ ناقلة خشبًا واحدة - مستوردة من الامبراطورية الهندية إلى الامبراطورية البريطانية بعد حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ - وكان يسافر بسرعة أقصاها ١٥ ميلًا في الساعة، لأن اللبنانيين، كلبنانيين، أصروا على أن يوقفوا سياراتهم على المسار عندما كانوا يذهبون للسباحة.

بغض النظر عن المخططين العظماء في العالم وتطوّر القوة الجوية، أحبّ القادة - وخاصة الديكتاتوريين منهم - القطارات. كان هتلر يملك قطاره الفخم مع بطاريات المدفعية المضادة للطائرات المتحركة. كذلك الأمر بالنسبة إلى غورينغ وهيملر وتيتو والضباط السوفيات. وبالطبع، ارتبطت القطارات بعمليات القتل. حملت السكك الحديد التركية آلاف الأرمن إلى مكان اغتيالهم. كذلك، حملت القطارات الأوروبية ملايين اليهود والغجر إلى قنائهم. أما بالنسبة إلى صفارة القطار البخاري التي تخلّلت رواية «سونز أند لوفرز» للكاتب د. هـ. لورنس، فتميزت بمعنى مختلف، بينما انحرفت صوب حقول الثلج في أنحاء أوشفيتز.

لم تسرق المطارات، في شكل من الأشكال، سحر محطات السكك الحديد. اعطوني مطارًا يمكن أن يحل محل سان بانكراس، أو غار دو نور، أو غران سنترال. لكن الأمر يعود إلى سنوات قبل أن فهمتُ - على ما أعتقد - ما يحتويه سحر القطارات. فهو يدور على المسار والسكك والسبيل الدائم والقاطرات. في إدينبورغ وايفيرلي، يمكنكم أن تشاهدوا السكك الثنائية لتدركوا،

مع نقاط ومسارات غير متصلة وبعض التغيرات في العرض، أن القضبان الحديد المصنّعة في شكل دقيق، تمتدّ، في دون انقطاع، من اسكتلندا عبر نفق القناة إلى تركيا أو سانت بيترسبورغ أو فلاديفوستوك أو - باستثناء المتمرّدين العراقيين الذين يستمرون في تفجير السبيل الدائم - إلى بغداد.

أعتقد أننا يروقنا هذا الحسّ من الاستمرار. يجوز للطائرة الخطية أن تسير في خطّ ما، ولكن ليس عبر المدى الجوي نفسه. كذلك لا يجوز للسفينة أن تعبر مجرى المياه نفسه في كل رحلة. أما بالنسبة إلى القطار، فسيسافر دومًا - وتحديدًا - الرحلة نفسها التي قام بها أمس أو قبل مئة سنة، الرحلة نفسها التي سيقوم بها الأسبوع المقبل وبعد مئة سنة.

في شوارع بيروت وساحاتها المرتبة حيث نما العشبُ، ما زالت المسارات مرئية لكنها تحافظ على اتصال شبحي بالماضي، في حين تذكرنا باستمرارية التاريخ والسلطة والموت، هذا الأداء الأسوأ للتاريخ الذي يعجّ بعمليات القتل المصنّعة. لهذا السبب، أعتقد أن القطارات تلتقط مخيلتنا وخوفنا من الطفولة حتى الكهولة.

«ذي إندبندنت»، ١٢ شباط/فبراير ٢٠٠٥

الخوف من الطيران

أكتب هذا المقال في عزلة غريبة، ولكن معروفة لدى جميع المراسلين الدوليين. لم تقلع طائرتي من باريس في اتجاه بيروت، لأن الثلوج أقفلت مطار شارل ديغول. يحدث هذا لجميع الصحافيين. فعندما يفترض بنا أن نتجه إلى حرب ما، أو إلى مقابلة أعضاء ثورة الأرز أو أي ثورة برتقالية أو مخملية، نجد أنفسنا واقفين في الطابور في انتظار حقائبنا بعد تفتيشها، ثم نطلب سيارة أجرة ونعود إلى منازلنا. والسبب هو هذه الآلة الأكثر تطورًا التي لا مثيل لها بين مختلف وسائل السفر، التي نصبو إليها لأنها محور عالمنا. هذه الآلة العاجزة عن الهبوط على الجليد، أو لعلها لا تمتلك تقنية كات - ٤ للهبوط، أو ربما قدرة الدفع العكسية في مجموعة إيرباص أ- ٣٢٠-٤٠٠، لا يمكنها مجاراة الطقس.

أجل، تكثر أسفارنا نحن الصحافيين فنتعلم كمًا هائلًا من المعلومات والتفاصيل الدقيقة عن الطائرات التي لا تنفعنا إطلاقًا. أتريدون معرفة قدرة الإقلاع في مروحية بيل أوغوستا، أو معلومات عن معدات الملاحة في طائرة بوينغ ٧٧٧، أو تصميم المقاعد في «أم دي - ١١١؟» أنا رجلكم. وإضافة إلى كم من المعلومات المريعة عن الإصابات - لن أذكر تفاصيل لعق الجراح أو العمليات الطارئة في مجرى التنفس - فالأرجح أن الصحافيين يعرفون الطائرات أفضل مما يعرفها الكثير من طواقمها.

أنا متأكد من أن هذا ينطبق على الطائرات القديمة في خطوط طيران «أريانا» الأفغانية التي كانت في الخدمة أثناء حكم طالبان. عام ١٩٩٧، كنت في طريقي إلى أفغانستان لمقابلة أسامة بن لادن دون سواه، ولم أجد سوى

رحلة إلى جلال أباد منطلقة من دولة الإمارات العربية، وتحديدًا من إمارة الشارقة، موطن الطائرات المنبوذة، مثل طائرة بوينغ ٧٢٧ القديمة الطراز التي كانت في انتظاري على المدرج. ولكن، عند صعودي إليها وجدت أن الصف الأول من المقاعد وحده كان لا يزال في مكانه، بينما احتلت بقية الطائرة صناديق خشب ضخمة تحتوي «صادرات ميكانيكية»، على ما أخبرني أفراد الطاقم، وكان كل واحد منها مشدودًا إلى أرض الطائرة بالسلاسل. أما الأسوأ فكان المرحاض الأمامي. فبعيد دقائق من الإقلاع، فُتح الباب من تلقاء نفسه، وتدفقت موجة من مياه المجاري ببطء، فوصلت إلى أحذيتنا، ثم تابعت سيرها على طول حجرة الركاب. لم أشعر رغبة في تناول الغداء أثناء الرحلة. كنت جالسًا قريبًا من أفغانيين، كان أحدهما ذا لحية كثيفة - تماشيًا مع قوانين طالبان المتعلقة بالشعر - ويرتدي سروال جينز وقميصًا مفتوح الياقة، راح يحدجني بنظراته وهو يعصر خرقة كبيرة مبللة بالزيت بيمينه مرارًا. صادفتنا فوق قندهار اضطرابات جوية قوية وراحت الطائرة تتأرجح فتتجلجل السلاسل مع اهتزاز الصناديق الخشب داخلها، وعادت موجة المجاري الآتية من المرحاض الأمامي إلى زيارتنا. هنا، أتى ضابط المراقبة إلي وقال: «سيد فيسك، أنت الراكب الوحيد لدينا فلا تقلق على سلامتك. فكما ترى، لقد نلت شرف الجلوس إلى جانب... كبير مهندسي الطائرة»، وأشار إلى الرجل الملتحي العدائي إلى يساري.

آه، كم افتقدت لذة السفر عبر طيران «إير فرانس». كانت هذه شركة الطيران التي حسبت مرة أنني إذا جمعت أسفاري لإلقاء المحاضرات عبر الأطلسي، مع رحلاتي الجوية لمصلحة «ذي إندبندنت» ومواعيدي الأخرى الكثيرة عبر العالم، - وجدت أنني سافرت عليها أكثر من أي عضو من طاقمها. وهذا هو سبب معرفتي بعض أفراد الطاقم أثناء سفري إلى لوس أنجلس أو كاليفورنيا. منذ مدة قريبة، رحبت إحدى مضيفاتهم بي بطريقة تسيء إلى صيت صحافي. فقالت: «آه، مسيو فيسك، تريد كأس جين مع تونيك بعد الإقلاع،

صح؟». طبعًا صح أيها القارئ العزيز، فعلي أن أشرح لك فورًا أنني أخاف الطيران.

بدأ الأمر عندما مررت بتجربة هبوط طارئ في مطار طهران بعد الثورة الإسلامية. فقد علقت الإطارات الأمامية ولم تخرج من حجرتها قبل الهبوط. أقول للمهتمين بأمور الطيران إنها كانت بوينغ ٧٣٧، لكن إيران كانت حينذاك تحت عقوبات الأمم المتحدة. هبطت الطائرة على العشب وسط دوي هائل كان أقوى ما سمعته في حياتي. لم يُتوفَّ أحد، لكن حجرة الركاب امتلأت بعد ذلك فورًا بدخان أزرق كثيف، سببه، كما أدركت بعد ثوان، إشعال جميع الركاب الخائفين سجائرهم في اللحظة نفسها. وعدت إلى لبنان وأنا أعاني أسوأ حال خوف من الطيران في تاريخ العالم.

لحسن الحظ، أنني كنت أعرف جميع الطيارين العاملين على خطوط طيران الشرق الأوسط الذين حلّقوا في طائرات ٧٠٧ القديمة تلك في زمن الحرب الأهلية. وطلب مني أحدهم على الفور الحضور في اليوم التالي، والجلوس في سلسلة من اختبارات الطيران لطائرات البوينغ خارج مطار بيروت في طقس عاصف. أجلسني خلف مقعد قيادة الربان في قمرة القيادة، وسكب لي كأسًا كبيرة من الشمبانيا، ثم وضع السماعات على رأسي وانطلق في جو عاصف جدًا يشبه أجواء فيلم «ذا داي أفتر تومورو». وحلق بطائرة الركاب الخالية فوق البحر المتوسط الهائج والمهجور، ثم استدار عائدًا وهبط على المدرج ١-١٨، ثم انطلق مجددًا نحو العاصفة، ثم حط، وهكذا دواليك - مصاحبًا كل إقلاع بكأس من الشمبانيا - وبعد ١٤ إقلاعًا وهبوطًا كنت أقهقه مثل الأطفال. لم أتخلص كلّيًا من خوفي من الطيران، لكنني لم أعد أخشى الموت كلما صعدت إلى طائرة.

لا أؤمن طبعًا، في قرارة نفسي، بمبدأ الطيران النفاث، مثلي مثل جميع من أعرفهم تقريبًا. فأنا أرفض في بساطة الفكرة القائلة إن من الطبيعي أن يربط

المرء نفسه إلى مقعد في أنبوب معدن يقذفه نحو السماء بسرعة ٥٠٠ ميل في الساعة، طوال سبع ساعات، مع كأس جين وتونيك أو من دونهما. وقد أدركت الآن أنني أستفيد من صديقي القديم: مبدأ إرغام العقل على التصديق.

«ذي إندبندنت»، ٥ آذار/مارس ٢٠٠٥

الفصل السابع

الانتداب القديم

تسلمّت بريطانيا وفرنسا، المنتصرتان الرئيستان في الحرب العالمية الأولى، تفويضًا من عصبة الأمم - التي سبقت الأمم المتحدة - بحكم معظم منطقة الشرق الأوسط بموجب اتفاقية فرساي عام ١٩١٩. فأُعطيَ البريطانيون فلسطين والأردن بأكمله والعراق، وحصل الفرنسيون على سورية (وشمال العراق في البداية). واقتطعت الحكومة الفرنسية الزاوية الجنوبية الغربية من سورية، صانعة منها دولة «لبنان الكبير».



لعنة الله على هذه الديموقراطية

فازت حماس في الانتخابات الفلسطينية في كانون الثاني/يناير عام ٢٠٠٦، فنُبذت منذ ذلك الحين. وقال رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت إن إسرائيل لن تفاوض حكومة فلسطينية تضم حماس. ووضعت إسرائيل والغرب قيودًا على غزة والضفة الغربية. وهددت حركة فتح برئاسة محمود عباس التي ربحت ٤٣ مقعدًا فحسب من أصل ١٣٢ في البرلمان الفلسطيني، بعقد انتخابات جديدة. ويعدّها المجتمع الدولي الآن السلطة «الشرعية الوحيدة

آه لا، لا مزيد من الديموقراطية! ألم نمنحها لأولئك الجزائريين عام ١٩٩٠؟ أولم يكافئونا عليها بهدية لطيفة من الحكم الإسلامي، ثم ألغوا، في احترام، الجولة الثانية من الانتخابات؟ حمدًا لله على هذا! صحيح أن الأفغان انتخبوا مجموعة من النواب على رغم أن بينهم أمراء حرب وقتلة، بيد أن العراقيين انتخبوا السنة الماضية للحكم في بغداد، حزب الدعوة الذي كان مسؤولًا عن معظم عمليات اختطاف الغربيين في بيروت في الثمانينات، وتفجير سيارة الأمير (المرحوم) والسفارات الأميركية والفرنسية في الكويت. دعونا لا نتحدث عن هذا في واشنطن.

والآن، يا للرعب، انتخب الفلسطينيون الحزب الخطأ ومنحوه السلطة. كان من المفترض أن يؤيدوا حركة فتح اللطيفة والفاسدة تمامًا، المناصرة للغرب والولايات المتحدة، التي وعدت بـ«السيطرة» عليهم بدلًا من حماس التي قالت إنها ستمثلهم. وها هم قد انتخبوا الحزب الخطأ مجددًا. والنتيجة: ربحت حماس ٧٦ من أصل ١٣٢ مقعدًا لمصلحتها. لقد طفح الكيل. لعنة الله على هذه الديموقراطية. ماذا سنفعل مع هؤلاء الناس الرافضين التصويت كما يجب؟

في ثلاثينات القرن الماضي، سجن البريطانيون المصريين الذين انقلبوا على حكومة الملك فاروق. وهكذا، أسسوا للحكم غير الديموقراطي الذي تلاه. وسجن الفرنسيون الحكومة اللبنانية التي طالبت بالحرية نفسها، ثم رحل الفرنسيون عن لبنان. لطالما توقعنا من الحكومات العربية أن تفعل ما نأمرها به. ولهذا، نتوقع اليوم من السوريين أن يُحسنوا التصرف، ومن الإيرانيين الانحناء لمطالبنا النووية (على رغم أنهم لم يفعلوا ما هو غير قانوني)، ونتوقع من كوريا الشمالية تسليم أسلحتها (على رغم امتلاكها لها فعلًا، ما يمنع بالتالي مهاجمتها).

والآن، لنضع عبء السلطة الثقيل على كاهل الحزب. ثم نضيف إليه مسؤولياته تجاه الشعب. لقد رفضنا نحن البريطانيين التحدث إلى إيرا، أو إيوكا أو ماو ماو. لكن مع مرور الزمن، احتسى كل من جيري أدامز ورئيسي الأساقفة ماكاريوس وجومو كينياتا الشاي مع الملكة. ورفض الأميركيون التحدث مع أعدائهم في شمال فيتنام. لكنهم فعلوا في باريس. لا، تنظيم «القاعدة» لن يفعل هذا. لكن قادة الانقلاب العراقيين في بلاد ما بين النهرين سيفعلون. لقد تحدّثوا مع البريطانيين عام ١٩٢٠، وسيتحدثون مع الأميركيين. عام ١٩٨٣، تحدثت حماس مع الإسرائيليين، وأخبرتهم صراحة عن انتشار المساجد والدروس الدينية. وتباهى الجيش الإسرائيلي بهذا على الصفحة الأولى من «جيروزالم بوست». في ذلك الحين، بدا أن منظمة التحرير الفلسطينية لن تلتزم قرارات أوسلو. وبالتالي، لم تبدُ أمرًا متابعة المحادثات مع حماس. لذا، لمَ تبدو المحادثات مع حماس اليوم مستحيلة؟

بعد مدة وجيزة من اندفاع قيادة حماس نحو جنوب لبنان، سمعني عضو بارز في الحركة أعلن مجيئي إلى إسرائيل، فقال لي: «من الأفضل أن تتصل بشمعون بيريز، إليك رقم هاتفه المنزلي». كان الرقم صحيحًا. وهذا دليل إلى اتصال قيادة الحركة الأكثر تطرفًا بين الفلسطينيين بكبار المسؤولين الإسرائيليين.

يعرف الإسرائيليون قيادة حماس جيدًا. وتعرفهم قيادة حماس جيدًا. ومن غير المجدي لأمثالنا من الصحافيين الإشارة إلى خلاف ذلك. فلطالما اتضح أن أعداءنا هم أهم أصدقائنا، ويا للأسف، اتضح أن أصدقاءنا هم أعداؤنا. إنها لمعادلة رهيبة - ولكن علينا فهم تاريخ آبائنا. أورثني والدي خارطة تُظهر امتداد حكم البريطانيين والفرنسيين على الشرق الأوسط. وقد حاول الأميركيون السيطرة على خارطة المنطقة منذ الحرب العالمية الثانية من دون جدوى. وقد فشلوا جميعًا. ولا يزال حكمنا لها لعنة علينا حتى اليوم.

كم هو فظيع التحدث مع من قتل أبناءك. وكم مريع التحاور مع من تلطخت أيديهم بدماء إخوانك. لا ريب في أن هذا كان شعور الأميركيين المؤمنين بالاستقلال حيال الإنكليز الذين حاربوهم. سينبغي للعراقيين التعامل مع القاعدة. هذه مشكلتهم، لا مشكلتنا. ولكننا انتهى بنا المطاف، عبر التاريخ، بالتحدث إلى أعدائنا. لقد تحدثنا إلى ممثلي امبراطور اليابان، في النهاية. وكان علينا قبول استسلام الرايخ الألماني ممن خلفوا أدولف هتلر. واليوم، نعقد الصفقات التجارية، في سرور، مع اليابانيين والألمان والإيطاليين. لم يكن الشرق الأوسط مطلقًا خليفة ألمانيا النازية أو إيطاليا الفاشية، على رغم الهراء الذي قاله السيدان بوش وبلير. كم سيمضي من الزمن قبل أن نرمي عبء هذه الحرب المهولة خلف ظهورنا، ونرى مستقبلنا، لا امتدادًا لماضينا، بل كواقع لنا؟

من المؤكد أن علينا قيادة الشعب بمفهومنا نحن، لما تعنيه الحرب، في عصر تضم في حكومتنا رجالًا ونساءً لم يعيشوا الحرب، وليس بمفهوم هوليوود أو الأفلام الوثائقية. الديموقراطية تعني الحرية الحقيقية للجميع، وليس فقط لمن اخترناهم كي يصلوا إلى السلطة عبر الانتخابات.

هذه هي مشكلة الشرق الأوسط.

والآن، يا للرعب، لقد انتخب الفلسطينيون الحزب الخطأ ليتسلم السلطة.

«ذي إندبندنت»، ٢٨ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦

صنابير مطليّة بالذهب

في سلسلة من معارك الشوارع الضارية في حزيران/يونيو ٢٠٠٧، حاصر مسلحو حماس رجال فتح في أرجاء قطاع غزة. وقد أسكتت حماس أي معارضة سياسية بعد مقتل ١١٨ فلسطينيًّا وجرح ٥٥٠ خلال الاشتباكات التي استمرت متقطعة بين الفصيلين الفلسطينيين حتى عام ٢٠٠٨.

كم أن هؤلاء المسلمين مشاكسون في الشرق الأوسط. لقد طلبنا في البدء أن يتبنى الفلسطينيون الديموقراطية، لكنهم انتخبوا الحزب الخطأ - حماس -، ثم انتصرت حماس في حرب أهلية مصغرة وسيطرت على قطاع غزة. وما زلنا نحن الغربيين نرغب في التفاوض مع الرئيس محمود عباس الفاقد الشرعية. «فلسطين» اليوم - وانتبهوا إلى المزدوجين - لديها رئيسا حكومتين. أهلا بكم في الشرق الأوسط.

مع من يمكننا التفاوض؟ مع من يمكننا التحدث؟ طبعًا كان علينا التحدث مع حماس منذ أشهر خلت. لكننا لم نحب هذه الحكومة المنتخبة ديموقراطيًا من الشعب الفلسطيني. كان المفترض بهم التصويت لفتح وقيادتها الفاسدة. لكنهم انتخبوا حماس التي ترفض الاعتراف بإسرائيل، أو التزام اتفاق أوسلو الذي فقد صدقيته. لم يسأل أحد في جهتنا، أي إسرائيل بالضبط يُفترض بحماس قبولها؟ أهي إسرائيل ١٩٤٨؟ أم إسرائيل بعد حدود ١٩٦٧؟ أهي إسرائيل التي تستمر في بناء مستوطنات شاسعة لليهود فقط على أراض عربية، ملتهمة مساحات إضافية من الـ٢٢ في المئة الباقية من «فلسطين» للتفاوض عليها؟

واليوم، يفترض بنا التحدث مع حارسنا الوفي السيد عباس، الزعيم الفلسطيني «المعتدل» (كما تصفه قنوات «بي بي سي» و«سي أن أن» و«فوكس نيوز»)؛ الرجل الذي ألّف كتابًا من ٦٠٠ صفحة عن أوسلو من دون أن يذكر

ولو مرة واحدة، كلمة «احتلال»، وأشار كثيرًا «إلى إعادة انتشار» القوات الإسرائيلية بدلًا من أن يقول «انسحاب». إنه «الزعيم» جدير بثقتنا لأنه يرتدي ربطة عنق، ويذهب إلى البيت الأبيض، ويقول ما يرضينا. لم يصوّت الفلسطينيون لحماس لأنهم أرادوا جمهورية إسلامية - هكذا صُوّر انتصار حماس الدموي - بل لأنهم ضاقوا ذرعًا بفساد فتح والسيد عباس و«السلطة الفلسطينية» المهترئة بطبيعتها.

أذكر أنني استُدعيت منذ سنوات إلى منزل عضو في السلطة الفلسطينية، وقد ثقبت جداره قذيفة من دبابة إسرائيلية. إنها قصة حقيقية. لكن ما فاجأني هو الصنابير المطلية بالذهب في حمامه. تلك الصنابير - بأنواعها - هي ما خسّر فتح الانتخابات. لقد أراد الفلسطينيون نهاية للفساد - سرطان العالم العربي - ولهذا صوّتوا لحماس، ولهذا قرّر الغرب الحكيم والطيّب أن يفرض عقوبات عليهم وتجويعهم وتهديدهم، لأنهم انتخبوا في حريّة. لعلّ الحري بنا تقديم عضوية الاتحاد الأوروبي إلى «فلسطين» إذا تكرّمت وصوّتت للأشخاص المناسبين؟ والوضع مماثل في أنحاء الشرق الأوسط. فقد دعمنا حميد قرضاي في أفغانستان على رغم وجود أمراء حرب وأباطرة مخدرات في حكومته (في المناسبة، نحن آسفون جدًا على جميع المدنيين الأفغانيين الأبرياء الذين نقتلهم في «حربنا على الإرهاب» في المناطق الغربية من مقاطعة هلمند).

نحن نحب حسني مبارك في مصر، وجلادوه لا يزالون يعذبون سياسيي الإخوان المسلمين الذين اعتقلوهم منذ وقت قريب خارج القاهرة، ونالت رئاسته تأييدًا حارًا من السيدة - نعم السيدة - بوش، وسيخلفه ابنه جمال بكل تأكيد.

نحن نحب معمر القذافي الديكتاتور في ليبيا الذي قتل زبانيته خصومه السياسيين في الخارج، والذي سبق مخططه لقتل الملك عبد الله في المملكة العربية السعودية، زيارة طوني بلير الأخيرة لطرابلس الغرب. يجب أن نتذكر أن

جاك سترو، سمّى العقيد القذافي «رجل الدولة» لأنه وافق على التخلي عن طموحاته النووية غير الموجودة أساسًا. ونحب «ديموقراطيته» التي قبلناها كليًا لأنه إلى جانبنا في «حربنا على الإرهاب».

نعم، نحب الملك عبد الله ومُلكه غير الدستوري في الأردن، وجميع أمراء الخليج وشيوخه، خصوصًا من يتقاضون رشىً هائلة من شركات الأسلحة لدينا، إلى حدّ أن سكوتلاند يارد نفسها حُتِّم عليها إقفال تحقيقاتها بناءً على أوامر رئيس وزرائنا، ويمكنني فعلا أن أفهم لماذا كره تغطية «ذي إندبندنت» مفهومه الغريب عن «الشرق الأوسط». لو دعم العرب - والإيرانيون - الملوك والشاهات والأمراء لدينا الذين يدرس أبناؤهم وبناتهم في جامعتي أكسفورد وهارفرد، لكم سهلت حينذاك السيطرة على «الشرق الأوسط».

هنا بيتِ القصيد: السيطرة. ولهذا السبب، نمتنع عن تقديم الخدمات أو ننزعها من زعمائهم. الآن، تتبع غزة حماس، فما الذي سيفعله قادتنا المنتخبون؟ هل على خطبائنا المفوّهين في الاتحاد الأوروبي والأمم المتحدة وواشنطن وموسكو، التحدث إلى هؤلاء التعساء الناكري الجميل (لا تخافوا، فهم لن يصافحوهم)، أم سيُرغمون على الاعتراف بنموذج الضفة الغربية لفلسطين (ويصافحون عباس بكلتا اليدين)، بينما يتجاهلون حماس المنتخبة والمنتصرة عسكريًا في غزة؟ من السهل طبعًا أن يستنزلوا اللعنات على الطرفين. لكن هذا ما نقوله عن الشرق الأوسط برمته. ليت بشار الأسد لم يكن رئيسًا لسورية (الله وحده يعلم من كان البديل)، أوَلم يسيطر الرئيس المتطرف محمود أحمدي نجاد على إيران (حتى لو كان لا يعرف ما هو شكل الصاروخ النووي).

لو كان لبنان ديموقراطية من صنع أيدينا مثل الديموقراطيات الصغيرة الأخرى لدينا، من مثل بلجيكا، أو لوكسمبورغ. ولكنْ لا، هؤلاء الشرق الأوسطيون البائسون يصوتون للأشخاص الخطأ ويدعمونهم ويحبونهم، ولا يتصرفون مثلنا نحن الغربيين المتحضرين.

فما العمل إذًا؟ ألعلنا ندعم إعادة احتلال غزة؟ طبعًا لن ننتقد إسرائيل. وسنستمر في منح دعمنا للملوك والأمراء والرؤساء الكريهين في الشرق الأوسط حتى تنفجر المنطقة برمّتها في وجهنا، وعند ذاك سنقول - كما نقول الآن عن العراقيين - إنهم لا يستحقون تضحياتنا وحبنا.

كيف نتعامل مع انقلاب تقوم به حكومة منتخبة؟

«ذي إندبندنت»، ١٦ حزيران/يونيو ٢٠٠٧

الرجل الذي لن يعتذر أبدًا

لا أظن أن كلمة دهشة تصف موقفي، بل يخطر في بالي تعبير: انعقد لسانه. لقد عجزت في بساطة عن تصديق ما سمعته في بيروت عندما أخبرني اتصال هاتفي أن «بلير لورد كوت العمارة»، كان سيخلق «دولة فلسطين». وتحققت من التاريخ - لا لم تكن كذبة أول نيسان -، لكنني ظللت مذهولًا من هذا الرجل المغرور المخادع، ذاك الكذاب الجلي، والمحامي المتغطرس الملطّخة يداه بدماء الآلاف من رجالهم ونسائهم وأطفالهم، وهو يفكّر جديًّا في أن يكون «مبعوثنا» في الشرق الأوسط.

أيعقل أن يكون هذا صحيحًا؟ لطالما افترضت أن بلفور وسايكس وبيكو، كانوا يجسّدون طموحنا الشرق الأوسطي. لكن بلير؟ رئيس الحكومة السابق هذا، الرجل الذي أخذ بلاده إلى رمال العراق، أيظن فعلًا أن لديه دورًا يؤديه في المنطقة - قام مع لورد ليفي، مبعوثه السخيف الخاص، بالكثير من الزيارات السرية لهناك من دون طائل - والآن سيلوث يديه (وحياتنا كما أخشى) في آخر حرب استعمارية في العالم، وهذا ما يفوق التحمّل.

طبعًا، سيتصل بمحمود عباس، وسيحاول تهميش حماس، وسيتحدث عن «المعتدلين» من دون انقطاع، وسنستمع إليه يتبجح عن الأخلاق، وعن ثقته التامة بأنه يقوم بالصواب جالبًا السلام إلى الشرق الوسط (تذكروا أن هذا هو الرجل نفسه الذي أجّل وقف إطلاق النار في لبنان العام الماضي (٢٠٠٦) ليشارك جورج بوش في أمله اليائس بانتصار إسرائيل (الذي لم يتحقق) على «حزب الله»).

لم يعتذر قط. ولم يقل قط إنه أسف على ما فعله باسمنا. بيد أن بلير

يؤمن بقدرته على «فعل الخير» في الشرق الأوسط، مسجلًا رقمًا قياسيًا في تلبية رغباته الشخصية بعدما اختلق الأدلة المزيفة لأسلحة الدمار الشامل في العراق. إليكم رجل فاقد الثقة في المنطقة - وسياسي فشل بامتياز في جميع ما حاول عمله في الشرق الأوسط - يظن الآن أنه الرجل المناسب لقيادة «الرباعية» لترقيع «فلسطين». إن بلير مفيد في البحث عن عملاء ينفذون مشيئتنا: أي القبول بحصة من فلسطين أقل مما كان عرفات مستعدًا لقبوله حتى. فما يمتاز به من قسوة وخداع، سينسجم تمامًا مع ديكتاتوريي العرب المحليين.

ويخيل إليّ - مفترضًا دومًا صحة هذه القصة المذهلة - أن بلير سيتجوّل في دمشق وطهران، حتى في سعيه وراء «السلام»، ممهّدًا الطريق لاستراتيجية أميركية للخروج من العراق. لكن «فلسطين»؟ لقد أجرى الفلسطينيون انتخابات حقيقية ومتينة كالحديد، ومن النوع الديموقراطي، وربحت حماس. لكنني أفترض أن بلير لن يتمكن من محاورتها. سيحتاج فحسب إلى التحدث مع زمرة عباس، والتفاوض مع «حكومة خيالية»، كما وصفها بدقة زميلي القديم رامي خوري هذا الأسبوع.

يتحدث الأميركيون - أستشهد بكلام «شون ماكورماك» الناطق باسم وزارة الخارجية - عن مبعوث يمكنه العمل «مع الفلسطينيين في النظام الفلسطيني» لتطوير مؤسسات من أجل «دولة ذات سيادة». آه، نعم، يمكنني أن أفهم كيف أغرى هذا اللورد بلير. فهو يحب الدول ذات السيادة، ذات «قوانين الترهيب» الكثيرة والمتشددة أمنيًا، على رغم أنني ما زلت في حيرة حيال معنى عبارة «النظام الفلسطيني». كان جايمس ولفنسون «مبعوثنا» إلى الشرق الأوسط، وهو رئيس البنك الدولي السابق الذي تركه محبطًا لعجزه عن إعادة إعمار غزة والعمل في «عملية سلام» تتفتت مع بناء كل مستعمرة يهودية جديدة وإطلاق صاروخ من صواريخ القسام على إسرائيل. أيظن بلير أنه في إمكانه القيام بما هو افضل من ذلك؟

أراهنكم أنه لن يذكر الجدار الإسرائيلي الذي يقتطع الكثير من الأراضي الإضافية من الفلسطينيين. سيكون «حاجزًا أمنيًا» أو «سياجًا» (مثل «سياج» برلين الشهير الذي سمّاه أساسًا «جدارًا أمنيًا» ضباط فوبو الكرماء في شرطة ألمانيا الشرقية في ذلك الوقت). وسيكون ثمة الكثير من النداءات المطالبة بضبط جميع الأطراف النفس، ودعوات لا تنتهي «إلى الاعتدال»، ولا دعوة أبدًا تطالب بالعدالة. تحب إسرائيل اللورد بلير، وستثير لغته المراوغة على الأرجح إعجاب إيهود أولمرت الذي تستمر حكومته في انتزاع أراضي العرب، بينما ينتظر هو اكتشاف فلسطيني يمكنه «التفاوض» معه، ويتمتع محمود عباس بهيبة أرنب بعدما سُحقت قواته في غزة. مع أي من رئيسي حكومتي «فلسطين» سيتحدث بلير؟ طبعًا، مع من يلتف الطوق والحبل حول عنقه، ويعمل لمصلحة السيد عباس، ويطالب بالمزيد من «الأمن»، وقوانين أقسى، وديموقراطية أقل.

في ما مضى، كان جايمس بايكر أشهر وسيط وحلال مشكلات لدينا، وقد عمل لدى جورج بوش الأب حتى ملّ منه الإسرائيليون، وقبله أتت لائحة طويلة من الأمناء العامين للأمم المتحدة ممن زاروا المنطقة وعبسوا وتوعّدوا بعواقب وخيمة إذا لم يحل السلام عمّا قريب. أذكر رجلًا امتلك غطرسة بلير نفسها، اسمه كورت فالدهايم، كان مقتنعًا - بعد تنحّيه عن رئاسة الأمم المتحدة - بقدرته على أن يكون «مبعوث» سلام في الشرق الأوسط، على رغم عمله خلال الحرب ضابط استخبارات في جيش ورماخ النازي، الشعبة «أيه». ولم تحقق زياراته - خصوصًا للملك حسين - أي نتيجة طبعًا. لكن قدرة فالدهايم على سدل الستار على تاريخه العسكري، فيها أمر مشترك مع بلير. فقد ظل فالدهايم يرفض مرارًا في ثبات الاعتراف كليًا بارتكابه أيّ خطأ. أخبروني بمن يذكركم هذا؟

«ذي إندبندنت»، ٢٣ حزيران/ يونيو ٢٠٠٧

السيدة في مقعد ١ ك

كان ١ ك رقم مقعدي في طائرة ٧٠٧ التابعة لخطوط الشرق الأوسط المتجهة إلى بيروت، لكن مستيسلاف روستروبوفيتش، أجلس «زوجته» عليه - وهي حقيبة بلاستيك بيضاء بطول ستة أقدام، تحوي آلة التشيلو الموسيقية التي سيعزف عليها في بعلبك - ووضع حولها حزام الأمان الأحمر. قال الرجل العظيم: «أسميها زوجتي، لأن اسم آلة الكمان مؤنث في اللغة الروسية. يمكنك أن تجلس إلى جانبي».

بعدما قدّمت إليه صحيفة تصدر في بيروت، أخرج أعظم عازف تشيلو في العالم رزمة من الصحف الروسية، قائلًا للمضيفة: «لا أظن أن لديهم هذه في الطائرة». وهكذا، تجنّب قراءة أخبار أربع وسبعين غارة إسرائيلية على لبنان هذا العام، والمزيد من الخرق لوقف إطلاق النار في جنوب البلاد، وقصف القوات الإسرائيلية حبوش، وعزم الحكومة اللبنانية منع أي عصيان مدني جديد من النوع الذي دعا إليه رجال الدين الشيعة هذا الشهر في بعلبك، وهي المدينة نفسها التي سيعزف فيها روستروبوفيتش معزوفة دفوراك على التشيلو على مقام أ ماجور.

قال في حماسة: «ما أجمل بعلبك. إنها في قلب الجمال في الشرق الأوسط. أريد أن أعانق هؤلاء الناس بموسيقاي. وسأبذل قصارى جهدي من أجلهم. إن رئيسهم مسيحي، ورئيس وزرائهم مسلم. لكن الموسيقى للجميع». بدا أن روستروبوفيتش قد تبنى رؤية لبنان لنفسه. فهو قطعة من الجنة يمكن نسيان الحرب فيها، ولو كان هذا تضرفًا غير حكيم. وهو مكان يبرز فيه التعايش الديني كحجر أساس للوطن، وقد كلّف انقسام هذا التعايش إزهاق ١٥٠٠٠٠ نفس في الحرب الأهلية اللبنانية بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠.

كنت حضّرت نفسي متشائمًا لشرب مياه «بيرييه» طوال الطريق إلى بيروت - لأن الموسيقيين بخلاء بطبيعتهم - لكن روستروبوفيتش فتح زجاجة بلاك لايبل بعد الإقلاع واندفع بحماسة، على الغداء، يشرب نبيذ كسارة الأحمر مصنوعًا سنة ١٩٩٤، وهو الأفضل في لبنان. لقد نسيت أنه روسي. وعندما ناولته المضيفة لائحة طعام الدرجة الأولى، ناولني إياها وسألني: «أتعلم لمَ اخترت الكركند المطهو بالطريقة الروسية؟ لا تعلم؟ لأنني خلال سبع وأربعين سنة عشتها في روسيا قبل أن أُنفى، لم أذق الكركند بالطريقة الروسية حتى وصلت إلى الغرب». والتهم الكركند مثل رجل يتضوَّر جوعًا.

لم يكن قلقًا حيال الرجوع إلى لبنان بعد ثلاثين سنة من آخر حفلة له في مهرجان بعلبك. وقال لي بأسلوب تقريري: «ثمة سلام». لا عجب في أن يحب اللبنانيون هذا الرجل، فهو يعكس أحلامهم. كنت جالسًا منذ أسبوعين في قصر بيت الدين في جبل الشوف، أشاهد أعظم راقصي البولشوي يقدمون تشايكوفسكي وخاتشادوريان تحت تألق النجوم. وعلى بعد ٢٠ ميلًا منهم فحسب، كان الإسرائيليون يقصفون «حزب الله».

مشى القبطان رمزي نجار في ممر طائرة ٧٤٧، طالبًا من روستروبوفيتش توقيع برنامج لحفلته في بعلبك منذ ثلاثين سنة. ومن صفحات البرنامج بين يدي الموسيقي القصير والممتلئ، ابن الأعوام السبعين، طالعتني صورة رجل من الماضي نحيل الجسم والوجه، يبتسم أمام الكاميرات وقد انتصبت وراءه أعمدة معبد جوبيتر الروماني، وفي يده آلة التشيلو نفسها التي جلست إلى جانبه في المقعد ١ ك. قال: «عندما جئت آخر مرة، كان عليّ السفر من بلغراد على الخطوط الجوية اليوغوسلافية، ثم إلى أثينا على خطوط «أليطاليا» بعد ذلك إلى بيروت على خطوط طيران الشرق الأوسط. وعندما هبطت، كانت لدي ساعة واحدة قبل بداية الحفل الموسيقي في بعلبك». «كنت أعلم أن الطريق إلى بعلبك تستغرق ساعتين. لكنهم جهّزوا مروحية في انتظاري طارت بي بين المعابد الرومانية. وراح الجمهور يصفق قبل أن تلفحه عاصفة من الغبار والرمال سببتها

المراوح، وخرجت من المروحية كما لو كنت آتيًا من كوكب آخر. في تلك الليلة، هبط أول إنسان على سطح القمر».

أتى إلهام المهرجان عام ١٩٢٢ عندما وقف هنري غورو بين المعابد الرومانية ذات ليلة مقمرة مستشهدا براسين. وغورو هو الجنرال الفرنسي ذو الذراع الواحدة الذي سلخ لبنان من جسد سوريا، وخلق بلدًا جديدًا وخطيرًا للمسيحيين. وعندما كان روستروبوفيتش يحضّر لزيارته الأولى، كانت إيلا فيتزجيرالد سبقته وغنت في بعلبك، وحضر إليها جان كوكتو وسفياتوسلاف ريختر، وهيربرت فون كارايان وجوان باييز، والمطربة المصريّة المحببة إلى قلب الرئيس عبد الناصر، أم كلثوم.

كان روستروبوفيتش يحمل في جيب معطفه جوازي سفر لرجال الأمن العام اللبناني: جواز زائر سويسريًا وجواز سفر من موناكو، وكلاهما يحتاج إلى تأشيرة لدخول بقية دول أوروبا. وقال لي: «أخبرني أصدقائي في الغرب، أنني في إمكاني الحصول على جواز سفر بريطاني أو أميركي أو فرنسي». «لكنني لم أشأ أن أجعل نفيي من روسيا شرعيًا». كان يسعى وراء الاستمرار، وفهمه اللبنانيون. ليلة أمس في بعلبك، مع أوركسترا «راديو فرانس»، كان يعزف سمفونية دفوراك من جديد، كما فعل قبل ثلاثين عامًا.

وقبل بضع ساعات من هذا، وعلى بعد ٢٠٠ ميل جنوبًا، كانت انفجارات القدس قتلت اثني عشر رجلًا وامرأة أبرياء. قال لي روستروبوفيتش أثناء رحلتنا إلى بيروت: «عندما تتحدث المدافع تسكت الموسيقى». ولم أستطع إلّا تخيّل أن هذه المدافع قد تتحدث قريبًا جدًا.

«ذي إندبندنت» ٣١ تموز/يوليو ١٩٩٧

توفي مستيسلاف روستروبوفيتش عن ثمانين عامًا في نيسان/أبريل ٢٠٠٧. وقال عنه ألكسندر سولجنيتسين: «لقد منح الثقافة الروسية شهرة عالمية».

لا تذكر الحرب مهما فعلت

كيف يمكن أحدًا الاحتفال بحرب أهلية بحق السماء؟ ليس هذا سؤالًا افتراضيًا. ففي بيروت يتحضر اللبنانيون - في صراحة مدهشة ومن دون أي تردد - لتذكر أبشع نزاع في حياتهم تسبب في مقتل ١٥٠٠٠٠ إنسان. وقد حضّر لمراسم الذكرى التي ستقام الأسبوع المقبل رئيس الحكومة السابق رفيق الحريري الذي اغتيل بدوره في ١٤ شباط/فبراير (٢٠٠٥). أهذا أمر يستدعي التأمل؟ أهذه هي اللحظة المناسبة لتذكر فيضان الدم الذي أغرق الكثير من الأبرياء بين عامي ١٩٧٥ و١٩٩٠، بينما ينتظر لبنان كله الانسحاب العسكري السوري، وتطالب الأمم المتحدة «حزب الله» الذي وُلد في تلك الحرب بدوره، بأن يسلم سلاحه؟

بعد التأمل، أظنها فعلًا اللحظة المناسبة. لقد أمضى اللبنانيون السنوات الخمس عشرة الماضية في غيبوبة سياسية، رافضين الاعتراف بماضيهم العنيف لئلا تخرج الأشباح من قبورها الجماعية لتثير جمر الطائفية والعذاب المشترك. فكرة «لا تذكر الحرب مهما فعلت»، لديها مكانة خاصة في وطن يرفض أهله في عناد تعلّم الدروس من ذبح الإخوة بعضهم بعضًا. لقد منعت الرقابة اللبنانية كتابي عن الحرب الأهلية طوال عشر سنين تقريبًا. وأخبرني الحريري نفسه أنه عاجز عن إعادته إلى المكتبات - لسخرية القدر، رفع الحظر عن كتابي السنة الماضية مسؤول أمني موال لسوريا تطالب قوى المعارضة الآن باستقالته - ولن تذكر أي من قنوات التلفاز اللبنانية الحرب. لقد ظلّت السرطان المكتوم في المجتمع اللبناني، المرض الذي خشي الجميع عودته إلى تسميم حياتهم.

ثمة ضرورة جليّة لفهم كيف دمر النزاع لبنان القديم. عندما بثّت قناة «الجزيرة» من قطر سلسلة وثائقية من اثني عشر جزءًا عن الحرب. كان

الكورنيش البحري أمام منزلي في بيروت يخلو من المشاة كل ليلة خميس، وكانت المطاعم تغلق أبوابها، فقد أراد الجميع أن يشاهدوا عذابهم، وأردتُ أنا أيضًا المشاهدة.

خسر جميع معارفي أصدقاء لهم في تلك السنين الخمس عشرة المريعة، وفقدت بدوري أصدقاء أعزاء. توفي واحد منهم في انفجار السفارة الأميركية في أول يوم عمل له عام ١٩٨٣، وقُتل آخر بسكين. وقُتلت شابة بانفجار قذيفة في شارع للتسوق. وتلقى أخو زميل لي - وهو شاب ساعدني على المحافظة على خطوط التلكس الخاصة بي خلال الحصار الإسرائيلي لبيروت عام ١٩٨٢ - رصاصة في رأسه عندما عبر خط تماس من طريق الخطأ، وتوفي بعد أيام قليلة.

وهكذا، سيمتلئ وسط بيروت في ١٣ نيسان/أبريل بعشرات الآلاف من اللبنانيين ليوم «الوحدة والذكرى». وستقام معارض فنية وحفلات موسيقية ومعارض صور وسباق عَدْو وآخر للدراجات الهوائية. وستقوم (النائبة) بهية، شقيقة الحريري بتنظيم حدث أسهم أخوها الذي اغتيل في التخطيط له. وستنظم نورا جنبلاط، زوجة الزعيم الدرزي وليد جنبلاط - أحد أمراء الحرب في تلك المرحلة - الحفلات الموسيقية.

كان يوم ١٣ نيسان/أبريل عام ١٩٧٥ تاريخ قيام مسلّحي الكتائب بنصب مكمن لباص يعج بالفلسطينيين في بيروت. لا يزال الباص موجودًا، ولا تزال ثقوب الرصاص بادية في جسده الصدئ، لكنه تُرك ليهترئ في حقل خارج النبطية، حيث ما زال حتى اليوم. ثقوب الرصاص الوحيدة التي ستراها الحشود الأسبوع المقبل، ستكون تلك المحفوظة عن قصد في تمثال زعماء استقلال لبنان عام ١٩١٥ الذين شُنقوا في ساحة الشهداء، حيث تصل «حديقة التسامح» بين كنيسة وجامع، وحيث يرقد الآن جثمان رفيق الحريري مع مرافقيه الذين قُتلوا معه. كانت الساحة نفسها تشكل الخطوط الأمامية للحرب برمتها. من يدري، كم شبحًا يسكن ساحتها المتسعة مئات الأمتار؟ وعلى مسافة قريبة منها

إلى الشرق، يوجد أتوتوستراد «الرينغ» (المستديرة)، حيث أوقف المسلحون المسيحيون والمسلمون حركة السير عام ١٩٧٥ ومشوا بين صفوف السيارات المتوقفة حاملين السكاكين ليذبحوا ببرودة أعصاب جميع العائلات التي كانت من دين مختلف عنهم. لقد عُثر على ثمانية مسيحيين مقتولين أمام شركة الكهرباء، فأمر بشير الجميل بأن يدفع ثمانون مسلمًا الثمن بحياتهم. وراحت الميليشيات تضاعف الرقم. عندما تكون في حرب، تشعر أنها لن تنتهي أبدًا. وقد شعرت هذا، وبدأت أؤمن تدريجًا - مثل اللبنانيين - بأن الحرب هي المجرى الطبيعي للأمور.

ومثل كل الحروب، اكتسبت زخما مجنونًا. فاجتاحت إسرائيل مرتين، وأتى المارينز الأميركيون، وتعرضت قاعدتهم في المطار لتفجير انتحاري، وهذا ما حل بالفرنسيين أيضًا. ووصلت الأمم المتحدة عام ١٩٧٨ مع جنود دنماركيين والمزيد من الجنود الفرنسيين والإيرلنديين والنروجيين والفيجيين والنيباليين والغانيين والفنلنديين. ويبدو أن الجميع انتهى بهم المطاف في لبنان ليتعرضوا للقصف والقنص. كذلك استُدرج الفلسطينيون في بطء إلى الحرب، وعانوا المجزرة تلو الأخرى على أيدي أعدائهم (الذين اتضح أنهم الجميع تقريبًا). واختفت الرواية التي تقول إن الصراع الفعلي هو بين المسيحيين الموارنة والبقية. لقد كان خطأ الجميع ما عدا اللبنانيين. لا، ليسوا اللبنانيين إطلاقًا. فلقد سمّوا الحرب لسنوات «أحداثًا»، ثم سُمي نزاعهم باسم «حرب الآخرين»، أي الغرباء، وكما لو لم يكن اللبنانيون هم الذين فعلًا من يمارس عمليات القتل.

التفت إلي سائق تاكسي كان أقلني منذ سنوات، ونحن نجوب الشوارع وقال لي: «سيد روبرت أنت محظوظ كثيرًا». وعنى أنني كنت مثله قد نجوت من الحرب. أذكر اليوم الأخير منها. كان السوريون قصفوا الجنرال ميشال عون وأخرجوه من قصره في بعبدا - في تلك الحقبة كان الأميركيون حرصاء على سيطرة السوريين على لبنان - لأنهم أرادوا جنود دمشق لمواجهة جيوش صدام التي احتلت الكويت، وكنت أسير وراء الدبابات نحو بر الأمان المسيحي.

تساقطت القذائف حولنا وصرخت رفيقتي أننا سنموت. فرددت عليها صارخًا أن يجب ألا نموت، وأن هذا هو آخر يوم من الحرب، وأنها ستنتهي الآن فعلًا. وعندما وصلنا إلى بعبدا، رأينا الجثث والكثير من المصابين بجروح خطيرة، والكثيرين يبكون. وأذكر أننا انهرنا وبكينا بدورنا، شاعرين بارتياح كبير إلى نجاتنا ذلك اليوم، ومعرفتنا أننا سنعيش لرؤية الغد وبعده والأسابيع والسنين المقبلة.

لكن الصمت ظل مخيمًا، والخوف الدائم من عودة الأمور إلى الاشتعال. لم يفتح احد القبور الجماعية في حال كان ثمة المزيد من الدماء التي سترويها. وبدأ رفيق الحريري في هذه البلاد المدمرة والكئيبة بإعادة إعمار بيروت. وستكون بيروت الجديدة التي صنعها هي التي ستستضيف احتفالات الأسبوع المقبل الجريئة، بمتاجرها الأنيقة ومطاعمها وحاناتها، على رغم اغتيال الحريري والأزمة المستمرة وعمليات الاغتيال الغامضة التي لا تزال تسعى إلى إعادة إشعال الحرب الأهلية. إن عدم اشتعال حرب لبنانية بعد اغتيال الحريري لدليل إلى نضج الشعب وحكمته، وخصوصًا هذا البحر الهائل من الشباب اللبناني الذي تعلّم في الخارج خلال الصراع، والذي لا يسمح - وأظنه لن يسمح - بحرب أهلية جديدة. لذا، أظن أن اللبنانيين محقّون في مواجهة شياطينهم الأسبوع المقبل. دعهم يحتفلوا. ولننس أمر الأشباح.

«ذي إندبندنت» ٩ نيسان/أبريل ٢٠٠٥

ظل اللبنانيون مؤمنين - حتى بعد اغتيال رئيس وزرائهم السابق رفيق الحريري في شباط/فبراير ٢٠٠٥ - بأن حرب السنين الخمس عشرة لن تعود لتدمرهم من جديد. لكن اغتيال سبعة صحافيين لبنانيين بارزين على الأقل مع كتّاب وسياسيين في السنوات الثلاث التي تلت - وسلسلة من المواجهات الشرسة في الشوارع بين المسلمين والمسيحيين مطلع ٢٠٠٧ - يشير إلى بقاء تلك الأشباح.

أفضل مُدافع في العالم عن سيادة لبنان

لم أستطع كتم ضحكتي العميقة عندما رأيت وزير الخارجية الفرنسية فيليب دوست بلازيبه يصل إلى الأبواب الخشب لكنيسة القديس جرجس المارونية في بيروت هذا الأسبوع. وانطلقت موجة من التصفيق بين عشرات الآلاف من اللبنانيين المحتشدين في جنازة بيار الجميل، وزير الصناعة الذي اغتيل(*). هناك، وقف مندوب الدولة التي دعمت جلاء الجيش السوري السنة الماضية، وكان رئيسها صديقًا لرئيس الوزراء السابق رفيق الحريري الذي اغتيل أيضًا، ودعمه في مجلس الأمن على تشكيل المحكمة التي ستحاكم قتلة الحريري والجميل. هل تتشكل فعلا؟ هذا ما نتساءل عنه في بيروت هذه الأيام.

كان دوست بلازيبه واعيًا هذا كله بالطبع، وقد تفوّه بجملة تنمّ عن مبالغة نرجسية كفيلة بإثارة غيرة بلير، «لورد كوت العمارة». فأعلن بلازيبه: «إن الرئيس جاك شيراك هو أفضل مدافع في العالم عن سيادة لبنان»؛ و«إن فرنسا عازمة... الآن أكثر من ذي قبل، الدفاع عن سيادة لبنان واستقلاله». في صراحة، لست واثقًا هل أريد من الرجل الذي عانق صدام حسين ذات مرة، وعدّه صديقه الحميم، أن يكون أعظم مدافع عني، ناهيك بأن يكون أفضل مدافع عني في «العالم» - أليس مضحكًا كيف يعجز الفرنسيون عن التخلي عن النظرة النابليونية البونابرتية التي يرونها في أنفسهم - وأنا أكيد من أنني سأحذر من اهتمام فرنسا بـ«استقلال» لبنان، مثلما أحذر براز الكلاب في شوارع باريس.

لعلّي أتسرع فأضيف أن تعامل شيراك مع مستعمرات فرنسا السابقة ومناطق

(*) اغتيل بيار الجميّل، حفيد مؤسس حزب الكتائب اللبناني في سيّارته شرق بيروت في ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦. ولم يُقبض على الجناة، كما هي حال جميع مرتكبي الاغتيالات التي وقعت في لبنان خلال الأعوام الفائتة.

انتدابها، كان ايجابيًا وانطوى على نزاهة مسيحية، مقارنة بالسياسة الخارجية المخادعة والكاذبة والمميتة والمنافقة إلى الدرجة المقرفة التي اعتمدتها السيدة بيكيت في البصرة(*). لكن لبنان الذي خلقته فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، كان مبنيًا على تقسيم طائفي لاحظه مسبقًا فرانسوا جورج بيكو - السيئ السمعة - عندما عمل قنصلًا متواضعًا في البلد الذي كان جوهرة الامبراطورية العثمانية، على رغم انقسامه بين مسلمين شيعة وسنّة ودروز ومسيحيين موارنة - مجتمع الفرنسيين المفضّل وطائفة بيار الجميل القتيل - وروم أرثوذكس وروم كاثوليك وكلدان وغيرهم. لقد شكّل الموارنة في ذلك الوقت غالبية ضئيلة، بيد أن الهجرة وميلهم إلى عائلات أصغر من عائلات جيرانهم المسلمين، حولت المسيحيين تدريجًا قلة قد تشكّل الآن ٢٩ في المئة من السكان أو ربما أقل. لكن الفرنسيين أرادوا أن يدير الموارنة لبنان، وهكذا أورثوهم الرئاسة بعد الاستقلال. وحصل المسلمون السنة على رئاسة الحكومة. أما الشيعة، الذين يشكلون اليوم الغالبية السكانية، فعُوِّضوا برئاسة مجلس النواب. هكذا، أراد الفرنسيون أن يخدم «استقلال» لبنان مصلحة فرنسا.

وبرزت على الفور مشكلتان أمام اللبنانيين. فبحصول المسيحيين على أكبر منطقة يمكن قلة صغيرة أن تحكمها - وكان البطريرك الحويك، الزعيم الديني الماروني في حينها، مسؤولًا عن هذا - ضمنوا تفوق الآخرين عليهم عدديًا، وبالتالي سيحكم المسيحيون بلادهم من موقع قوة القلة. بعد انفصال إيرلندا، بدا العجوز جايمس كريغ، مؤسس إيرلندا الشمالية، أكثر حكمة من الحويك. فمن مقاطعة أولستر التاريخية، تنازل، من دون تردد، عن مقاطعات دونيغال ومونااهان وكافان الثلاث، لأن مجتمعاتها البروتستانتية كانت أصغر من عناء الحفاظ عليها. وخلق أولستر جديدة ضمنت مقاطعاتها الست الجديدة غالبية بروتستانتية طوال عقود تلت.

(*) كانت مارغريت باكيت وزيرة الخارجية البريطانية الخاضعة وغير المطلعة في عهد طوني بلير.

أما المشكلة اللبنانية الأخرى - التي أدركها سكان إيرلندا الشمالية على الفور - فهي أن الدولة الطائفية التي تسمح للماروني وحده بالوصول إلى الرئاسة وللسني بتولي رئاسة الحكومة، لا يمكنها أن تكون حكومة معتدلة. ولكن، إذا انتزعنا الطائفية التي خلقتها فرنسا، لن يعود لبنان كما هو عليه. وقد أدرك الفرنسيون هذا كله - على ما أظن - كما أدرك الأميركيون الآن طبيعة الوحش الطائفي الذي خلقوه في العراق. اسمعوا ما كتبه المؤرخ العربي الكبير ألبرت حوراني عن تجربة وجوده في بلاد الشام عام ١٩٤٦، وطّبقوا هذا على العراق. كتب حوراني عن العيش بتلك الطريقة:

هو كالعيش في عالمين - أو أكثر - في الوقت نفسه، دونما انتماء إلى أي منهما؛ أي أن تبدو عليك مظاهر هوية وطنية أو دينية أو ثقافية ما، من دون أن تمتلكها فعلا... ومن دون أن تنتمي إلى أي مجتمع، أو تملك شيئًا خاصًا بك. وتنعكس هذه الحال ضياعًا وسخرية ويأسًا(*).

في خضم هذه الاضطرابات الجيوسياسية، من السهل على الغربيين رؤية هؤلاء الناس ضمن الحدود والألوان التي اخترناها لتعرّفهم. هكذا، ظهرت في الصحف كل تلك الخرائط عن لبنان: الشيعة في أسفل الخريطة وإلى يمينها، والسنة والدروز في منتصفها وفي أعلاها، والمسيحيون محشورون بين بيروت والساحل الشمالي على المتوسط. ونرسم الخرائط الطائفية نفسها للعراق: الشيعة في الأسفل، والسنّة في الوسط («المثلث السني» الشهير على رغم أنه لا يشبه المثلث على الإطلاق)، والأكراد في الأعلى(**).

لقد تبنّى الجيش البريطاني الموقف الاستعماري الساخر نفسه في رسم خارطة بلفاست. وما زلت أملك خرائطهم، الطائفية من السبعينات، التي تظهر فيها مناطق البروتستانت باللون البرتقالي (طبعًا)، والمقاطعات الكاثوليكية

(*) ألبرت حوراني، الأقليات في العالم العربي (مطبوعات جامعة أكسفورد، ١٩٤٧).

(**) المرجع نفسه، ص. ٣٥١-٣٥٤.

بالأخضر (طبعًا)، في حين تبدو المناطق المختلطة التي تشغلها الطبقة المتوسطة حول مالوني رود، باللون البني الباهت، لون نبيذ شيري المعتق. لكننا لا نرسم هذه الخرائط لمدننا البريطانية. يمكنني رسم خريطة لمناطق برادفور المختلطة عرقيًا، لكننا لن ننشرها أبدًا. هكذا، نقسّم «الآخرين»، بينما نتنكر في حذر «الآخرين» بيننا. هذا ما فعله الفرنسيون في لبنان، وما فعله البريطانيون في شمال أيرلندا، وما يفعله الأميركيون الآن في العراق. هكذا، نحافظ على قوتنا المتجانسة. لقد ترعرع بيار الجميل في بكفيا، متجذّرًا في تلك القطعة الضيقة من شمال بيروت. ويخشى الكثيرون من اللبنانيين نزاعًا بين من يدعمون «الديموقراطية» التي انتمى إليها الجميّل، والشيعة الموجودين في «الأسفل»، بكل ما في الكلمة من معنى. وسيضمن الفرنسيون أن البلد الذي حُشر فيه هؤلاء المساكين كلهم، سيبقى «مستقلًا».

هذا ما سيحدث. في المناسبة، متى رأينا خارطة عرقية لباريس وضواحيها؟

«ذي إندبندنت»، ٢٥ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦

نظارات ألفونس بشير

كان ثمة أمر مألوف إلى درجة غريبة، عندما أخضعني طبيب العيون في بيروت لفحص بصر. أنطوان بشير كلداني - نعم، من أور الكلدان، ذاك العرق القديم من بلاد ما بين النهرين - ولعله الكلداني الوحيد الذي أعرفه. أسس والده ألفونس محل العائلة، وهو من جلب ألبوم فحص النظر العائلي الذي تقرأه كما يلي: «واترلو - ستايمز - قراءة - أيام الأربعاء - العصر - واترلو ١,٢٠ - فوكسهال ١,٢٣ - كوين رود ١,٢٦ - تقاطع كالفام ١,٢٨ ...». أجل، إنه جدول زمني لقطارات ساثرن رايلوايز، سيرسا ١٩٤٨، ويخبرني أنطوان أنه وقف مرات عدة يقرأ بمحبة اسم كل محطة تقع بالتأكيد في بقاع نائية من الريف الإنكليزي، كما يحلو له أن يتخيل. يقول: «سأسافر يومًا ما إلى بلدك وأزور هذه الأماكن كلها» «واندزوورث، كالفام، بيوتني، هاونزلو، آشفورد... أليست جميلة؟».

عندما أفحص بصري أشعر كأنني أنحدر في شارع ذكريات ينصح زواره، في حزم، بزيارة ثيودور هامبلين، طبيب العيون في شارع ١٥ ويغمور (هاتف: لانغهام ٤٣٤٣٩) وتدريب قدراتهم البصرية عبر قراءة هذا النص الرائع: «إن شوارع لندن هي الأحسن تعبيدًا والأفضل إنارة بين مدن أوروبا. ثمة مصابيح إلى جانبي كل شارع بمعدل مصباح واحد أمام كل ثلاثة أبواب تقريبًا...»؛ أو جربوا هذه الفقرة لمن يعانون قصور النظر: «يباع نبات الرشاد بباقات صغيرة، بسعر بنس للواحدة، أو الثلاث ببنسين. إن بائع الرشاد يقطع سبعة أميال، وأحيانًا ثمانية، في الغالب، قبل وقت الفطور، ليقطفها طازجة. ولكن توجد عادة كمية طازجة منها في كوفنت غاردنر». أكانت لندن بعد الحرب حسنة الإنارة فعلًا؟ وما المؤهلات المطلوبة لبيع الرشاد؟ لكن ألفونس بشير العجوز لا

يجمع جداول قطارات لندن فحسب، بل يشتري النظارات بالجملة. لهذا، صادفته مشكلة صغيرة في الحرب العالمية الثانية. فعلًا، عندما أظهر أنطوان جواز سفر والده: إصدار المفوض السامي للجمهورية الفرنسية في سورية ولبنان (بناءً على أحكام الانتداب الفرنسي لعصبة الأمم) رأيت المشكلة على الفور: ثمة ثلاثة نسور ألمانية كبيرة جدًا على الصفحة ٢٩، وكل منها يحمل الصليب النازي المعقوف الشرير بين مخالبه. إنه جواز سفر نازي حقيقي أصدرته القنصلية الألمانية في تركيا المحايدة في تموز/يوليو عام ١٩٤١، مع ختم الرايخ الهتلري في الدخول والخروج.

كان ألفونس قرر شراء المئات من النظارات الجديدة بالجملة من ألمانيا في زمن الحرب، لكنه اختار اللحظة الخطأ للسفر، وعلق في ورطة لبنانية في امتياز. فعندما سقطت فرنسا عام ١٩٤٠، أصبح لبنان جزءًا من منطقة فيشي، ووجدت عائلة بشير نفسها، مثل جميع اللبنانيين في ذلك الوقت، حليفة للنازيين. كان هذا الوضع ليُسهّل رحلة ألفونس نظريًا، أو هذا ما اعتقده. ولكن قبيل أيام من حصوله على تأشيرة الدخول من اسطنبول، اجتاح الجيشان البريطاني والأسترالي لبنان من جهة فلسطين و«حرّروا» شعبه من حكومة فيشي الفرنسية بعد حملة عسكرية دموية باهظة الثمن وقعت جنوب بيروت.

بعد بضعة أيام، رجع ألفونس بشير تاعس الحظ إلى لبنان مع المئات من النظارات الألمانية الجديدة ليجد أن الأمور قد تغيرت في غيابه. لم تستلطف السلطات الفرنسية الجديدة على الحدود السورية الصفحة ٢٩ من جواز سفره، بالنسور المهيمنة عليها وصليبها المعقوف. وهكذا، أُرسل مع مئة من المشتبه في أنهم فاشيُّون إلى معتقل المية ومية أعلى صيدا. ولسخرية القدر المريعة، المية ومية اليوم مخيم فلسطيني يضم أحفاد أولئك العرب الذين هربوا من شمال فلسطين عام ١٩٤٨، عابرين الحدود اللبنانية نفسها التي عبرها الحلفاء قبل سبع سنوات. بالطبع، كان مصيرهم لا يزال مجهولًا عندما أصبح ألفونس خلف سياج السجن بالقرب من صيدا.

وما زال غامضًا عليّ - وعلى أنطوان - سبب مخاطرة والده في السفر أثناء الحرب إلى ألمانيا النازية، مهما تكن مربحة ماديًا. كانت القوات الجويّة الملكية تغير على برلين ليلًا، في حين جهّز الألمان جيوشهم الجرارة لاجتياح الاتحاد السوفياتي. كان ألفونس محظوظًا بالعودة إلى لبنان. يقول أنطوان: «أمضى والدي ثمانية أشهر في المعتقل قبل أن يستطيع إقناع السلطات بأنه مجرد طبيب عيون بريء». «أيمكنك تخيل أن تسجن لامتلاكك تأشيرة الدخول الخطأ على جواز سفرك؟». في الحقيقة يمكنني تخيل هذا الموقف تمامًا في لبنان زمن الحرب. لكن نهاية هذه القصة سعيدة بعكس الكثير من القصص اللبنانية.

«أثناء سجنه، حدث نقص هائل في النظارات في الشرق الأوسط، وعندما أقنع الجيش أخيرًا بأنه ليس جاسوسًا ألمانيًا، أعاد إليه كل النظارات، التي زادت قيمتها ٨٠٠ ضعف. واستخدم هذا المال لتأسيس محل لبيع النظارات».

لهذا السبب، أدرس كل سنة جدول ألفونس لقطارات ساثرن رايلويز، وأتساءل عن باعة سرخس الماء، وأجفل لرؤية تأشيرة الدخول البائسة.

«ذي إندبندنت»، ٣ حزيران/يونيو ٢٠٠٦

القطة التي تناولت أسلاك الصاروخ على الفطور

كانت والتر قطة شارع: «بسينة بلديّة»، كما يقولون في بيروت. لونها بني وأسود، ولديها أذنان حادتان وأسنان أكثر حدَّة، وتتفرد بين أبناء جنسها بأنها التهمت جزءًا من صاروخ إسرائيلي من نوع أرض - جو يتم التحكم فيه بالأسلاك الكهربائية. كانت تجلس في الأمسيات الدافئة على الشرفة، وتتأمل كورنيش الواجهة البحرية، وأكشاك القهوة والبحر المتوسط وهو يرتطم بكسل بالصخور الخضرا في الأسفل. وظهرت أحيانًا على صفحات «ذي إندبندنت»، عندما بدا مؤكدًا أن أوتوستراد الواجهة البحرية ستعاد تسميته ليصبح جادة الرئيس حافظ الأسد تيمّنًا بالرئيس السوري (الراحل). لكن هذا الشرف الفائق للعادة حظي به في النهاية طريق قرب المطار.

عندما كانت هريرةً، أحبت والتر الأريكة، حتى في ذروة قصف الجنرال عون الجنوني بيروت الغربية. وكنا نسأل: أين والتر؟ كل مرة تبدأ القذائف تصفر فوق رؤوسنا. وجدتها مرة قابعة على الأريكة تتابع بعينيها نور رصاصات الخطّاط وهي تنطلق من فوق سطوح المنازل. يا لها من قطة قوية.

أسلاك الصاروخ؟ حسنًا، عام ١٩٩٣، في أسبوع القصف الإسرائيلي الطويل على جنوب لبنان، عثرتُ على أسلاك توجيه لصاروخ انفجر في شاحنة. أثارت الأسلاك اهتمامي، لأنني اعتقدت أنها صُنعت في بريطانيا. لذا، عدت حاملًا ستة أقدام تقريبًا من الكابلات النُحاس ووضعتها على مكتبي، عاقدًا العزم على إرسالها إلى مراسل «ذي إندبندنت» في وزارة الدفاع ليتفحصها. وهنا، وجدتها والتر ذات ظهيرة وأكلتها. «أسلاك صاروخ؟»، زعقت زوجة الطبيب البيطري مرعوبة، فهي ألمانية.

أنقذ زوجها الدكتور مصري، حياة والتر بسكب الـ«بارافين» السائل داخل الحيوان، وفي غضون ساعات خرج السلك من فتحة والتر الأخرى، وتركت لمراسل وزارة الدفاع لدينا ما بقي من السلك. تجاوزت والتر الأزمة وعادت إلى لعبتها المفضلة، اللعب بالفئران المطاطي وقد استمتعت حقًّا بهذه اللعبة إلى حد أن عندما مشى ذات يوم فأر حقيقي على حافة الشرفة وتنّزه على الأرض أمام قدميها، اكتفت والتر بالتثاؤب.

لكنها كانت «قطة صحافية». كانت تتكوّر في ليالي الشتاء في مكتبي، قابعة على كومة نسخ قديمة من الصحيفة اللبنانية «لوريان لو جور» الموقّرة: الصحيفة اللبنانية الوحيدة التي تُكتب باللغة الفرنسية الملكية؛ أو كانت تجلس مثل إبريق شاي على وحدة «يو بي أس»، نظام تغذية الطاقة الذي يحتاج إليه كل جهاز كمبيوتر في لبنان للدعم عندما يقصف السيد ناتانياهو والسيّد باراك محطات توليد الطاقة في البلاد. مشت والتر ذات مرة نحو الهاتف وضغطت زر إعادة الاتصال الآلي. ووجدتها واقفة إلى جوار الآلة والحيرة بادية عليها، بينما علا صوت الصحافي جون كوولي المشوش على الخط من قبرص مستفسرًا لم يرفض المتصل التحدث إليه. يمكن والتر أن تضرب ضربتها في أي مكان. وأصبحت آلة التلكس القديمة سريرًا لها - أعترف، لقد ظللت أرسل المقالات عبر التلكس حتى عقد التسعينات - وكان محرك التلكس المتحرّك في استمرار يدفئ بطنها ليلة تلو الأخرى، فتختلط المعلومات الوافدة من «ذي إندبندنت» في استمرار فيما خرجت الرسائل الورقية - التي لم تنجُ من جسد والتر المشعر - رديئة الطباعة، يا للأسف. عندما كنت أستخدم التلكس، كانت تهاجم الشريط ممزقة الثقوب بمخالبها. لم تنج من الصحافة. ولم تنج الصحافة منها.

لقد سمّيتها تيمنًا بمحرر صحافي: والتر ويلز من جريدة «إنترناشونال هيرالد تريبيون» في باريس، الذي رفض الدفاع عن الصحافيّة لارا مارلو بعدما كذّب الجيش الأميركي مقالة كتبتها للجريدة، فدفعنا إلى تخليد الحدث بأسلوبنا. وعندما كنت أعود من حرب الخليج أو جنوب لبنان أو إيرلندا، كانت والتر

موجودة دائمًا تنتظر وجبتها المسائية من طعام «ويسكاس» في الغرفة التي خزّنا فيها وقود المولد الكهربائي الاحتياطي. ولكن، عندما امتنعت عن تناول طعامها الشهر الماضي، عجز الدكتور مصري العظيم شخصيًا عن معرفة ما بها. توقفت والتر عن الخرير، وتقوقعت تحت كرسي غرفة الجلوس.

بعد أسبوع تقريبًا من دون طعام، وضعتها في سلتها وسافرنا إلى باريس حيث كان في انتظارها طبيبان بيطريان. جلست بوداعة في سلتها على أرضية نادي «كلوب كلاس». «يا لها من قطة مؤدبة»، علّق رئيس مؤسسة الحريري الخيرية من المقعد المجاور. لم يعلم أي منا أن والتر كانت تحتضر. كانت تعاني تضخمًا في القلب، سموه ميوكارديا، وكانت المياه المحتبسة في رئتيها تمنعها من تناول الطعام. فسحبا المياه منها، وبعد بضعة أيام عادت والتر تلتهم الدجاج المشوي، ثم تعرّضت لجلطة دموية، وقالت لي الطبيبة الشابة إنها قد تتعرض لرجفات لاإرادية. كانت النهاية. تراخت والتر في غضون ثوان وتحولت رمادًا في ظرف ساعة. ويفرض القانون الفرنسي الاحتفاظ برمادها لسنة ويوم، قبل أن نذروه.

لكننا خرقنا القانون وعدنا بما بقي من والتر إلى بيروت. وفي المكان الذي ترتطم فيه الأمواج بالصخور الخضر في بيروت تحت المنزل، رمينا رمادها في البحر الذي كانت تتأمله دومًا، وتعيش فيه الأسماك التي أكلت منها مرارًا.

لكن، كان علي أن أحزر أن وجود والتر لم ينته. هذا الأسبوع بدأ جهاز «يو بي أس» بإصدار دخان بعدما تعطلت المروحة في مؤخّره. وتوقّف فجأة عمل كل ما أحتاج إليه كمراسل - من كمبيوتر وهاتف وشاحن وطابعة وآلة فاكس - عن العمل. طرح تقني لبناني الصندوق الحديد الثقيل جانبًا، ليعود بعد ساعات حاملًا كتلة من الوبر الأسود والبني في يده. وسألني «ألديك قطة؟». «كان هناك طن من الوبر يسُدّ المروحة». لقد ضربت والتر ضربتها من جديد.

«ذي إندبندنت»، ١٠ حزيران/نونيو ٢٠٠٠

الجلاد الذي عاش قرب المسرح

الاحتراق هو العنوان المناسب لمسرحية وجدي معوض عن لبنان. لا يذكر النص كلمة «لبنان» ويبقى «الجيش الذي يجتاح من الجنوب» - الجيش الإسرائيلي - مجهول الهوية من دون سبب لذلك. لكن المؤلف المسرحي الذي سمى البلدة «النبطية»، وأشار إلى شخصية شيعية بارزة اسمها «شمس الدين» - ترأس المرحوم الشيخ محمد مهدي شمس الدين المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان - لم يحاول كثيرًا تمويه البلد الذي تدور فيه أحداث قصته الدموية القوية. قصة الاحتراق دموية بما فيه الكفاية، وتتحدث عن الحب وشرف العائلة والحرب الأهلية والبربرية.

وجدي معوض من أصول لبنانية مسيحية مارونية، لكنه الآن كندي فرنسي - وكتب مسرحيته بالفرنسية، ثم تُرجمت إلى الإنكليزية في آخر عرض لها في مسرح تاراغون في تورونتو - كتب ملاحظة على برنامج العرض لم يشر فيها إلى خلفيته فحسب، بل وإلى الحرب المدمرة بين إسرائيل وحزب الله الصيف الماضي (٢٠٠٦). لكنه يقول إن مسرحيته: «دعامتها الشعر فوق كل شيء، وهي مفرغة من محتواها السياسي لتتجذر في سياسة العذاب الإنساني، وهو الشعر الذي يوحدنا جميعًا».

الحبكة بسيطة. تموت نوال، السيدة العجوز في كندا، ويحاول ابنها وابنتها - عبر ظرفين مختومين تركتهما لهما الأم - اكتشاف سبب صمتها سنوات قبل موتها. ويتضح أنها حملت من حبيبها خلال صباها في لبنان، لكن الطفل انتُزع منها للحفاظ على شرف العائلة. وهكذا، تنطلق نوال، وسط مجازر الحرب الأهلية اللبنانية، لإيجاد طفلها الضائع: ثمة لحظة مروعة يُنثر فيها دم ضحايا مجزرة الباص على ملابس نوال الشابة.

تنتحل نوال خلال الحرب، هوية معلمة لتدريس أبناء قائد ميليشيا محلية، كي تتمكن من اغتياله ما إن تكسب ثقته. ويُقتل الزعيم الميليشيوي، ولكن يقبض على نوال لتساق إلى السجن، فيغتصبها مرارًا جلاد السجن الرئيس. يذكر رجل عجوز لاحقًا لابنة نوال - التي تسافر إلى لبنان لمعرفة سبب معاناة والدتها طوال سنوات الصمت تلك - أن سلطات السجن أمرته برمي طفلين حديثي الولادة في النهر، لكنه يأخذهما ملفوفين بالقماش إلى عائلة في الجوار وينقذ حياتيهما.

سر نوال - الذي حوّلها من «امرأة دائمة الغناء» إلى عجوز صامتة - هو أن الطفل الذي بحثت عنه، طفل حبيبها الذي مات منذ زمن بعيد، هو مغتصبها ومعذبها. ومعذبها هذا هو والد ابنها وابنتها في كندا، وأخوهما في الوقت نفسه. تعلم البنت هذا السر من زعيم ميليشيا اسمه «شمس الدين»، ويودي السر بعقل والدها - أخيها الذي يلوذ بدوره بصمت أبدي. إنها دراما أوديبية في امتياز.

يمكنني قبول المسرحية على هذا المستوى. فلطالما اعتبرت أن واجب الفنان هو وضع الخيال على مستوى أعلى من التاريخ، ووضع الأحداث الحقيقية - إذا تحتم عليه ذلك - في إطار يلائم التفسير الذي يختار الكاتب أو المؤلف المسرحي كشفه عن الحياة. لكنني، كشاهد على الحرب الأهلية اللبنانية، أجد صعوبة أكبر في تقبل عمل معوض على مستوى فني محض. كان شمس الدين، كمرجعية شيعية في البلاد، أول من دعا اللبنانيين إلى محاربة جيش الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٨٢. وكان ثمة فتاة انتحلت هوية معلمة مدرسة لاغتيال زعيم ميليشيا [انطوان لحد]، اسمها سهى بشارة، وهي يسارية مسيحية، وليست شيعية - وقد قابلت حتى الرجل الذي أعطاها المسدس لقتل زعيم الميليشيا [الأمين العام السابق للحزب الشيوعي اللبناني جورج حاوي] - وحاولت بالفعل اغتياله.

لكن الجنرال أنطوان لحد لم يمت. لقد أراني جراحه - ثقبي رصاصتين - بعيد رجوعه إلى لبنان من مستشفى في إسرائيل. كان واحدًا من أعتى أمراء الحرب الذين عيّنتهم إسرائيل مسؤولًا عن السجن الدموي نفسه - بإدارة إسرائيلية - حيث سُجنت سهى بشارة لاحقًا. لم تُغتصب، لكنها تعرضت للضرب، وتحمّلت سنوات من الحبس الانفرادي حتى تدبرت الحكومة الفرنسية إطلاقها، وتعيش اليوم في فرنسا، بينما يعيش لحد الآن - بعد انهيار «جيش لبنان الجنوبي» الظالم التابع له عام ٢٠٠٠ - في تل أبيب حيث يدير - استعدوا للمفاجأة - ملهى ليليًا.

ولكن، كان ثمة بالتأكيد جلادون محترفون في سجن لحد، واسمه معتقل الخيام، وقد حوّله «حزب الله» متحفًا، إلى أن دمّرته إسرائيل كليًا في حرب الصيف الماضي. كان ساديّو المعتقل يصعقون كهربائيًا قضيب كل سجين، ويرشون المعتقلين بالماء قبل غرس الأقطاب الكهربائية في صدورهم ورميهم في زنزانات انفراديّة غارقة في الظلام، شهورًا. لقد منع الإسرائيليون طوال سنوات، الصليب الأحمر حتى من زيارة السجن المقزز. وفر جميع الجلادين عبر الحدود نحو إسرائيل لدى انسحاب الجيش الإسرائيلي من لبنان تحت النيران منذ سبع سنوات تقريبًا.

بعد مشاهدة «الاحتراق»، دخلت الكواليس لمقابلة الممثلات والممثلين - الذين قدم أحدهم تجسيدًا دقيقًا إلى حدٍّ مخيف لقناص مهووس بموسيقى الجاز - وتبين لي أنهم لم يملكوا أدنى فكرة أنهم أدّوا - في بعض المشاهد - شخصيات حقيقية. ولم يعلموا حتى أن إسرائيل نقلت جلادي معتقل الخيام إلى بلدان غربية على أنهم «لاجئون»، على أساس أنهم سيتعرضون للقتل إذا عادوا إلى لبنان. طبعًا، لم يذكر الإسرائيليون دورهم في فظاعات المعتقل. ولهذا السبب، أتى عضوان من شرطة الخيالة الملكية الكندية إلى منزلي بعد سنوات عدة ليسألوا هل في إمكاني التعرف إلى جلادين

محتملين مُنحوا اللجوء إلى كندا. وأخبرتهم أن أسماءهم مكتوبة الآن على بوابات معتقل الخيام(*).

لكنني أعلم أن جلادًا منهم - يظهر في «الاحتراق» مغتصب نوال - يُعتقد أنه التجأ إلى تورونتو حيث أسس عملًا له. بعبارة أخرى، لعله يعيش على بعد أقل من ثلاثة أميال من مسرح تارغون في جادة بريدجمان. ومن يدري، لعله يحضّر لشراء تذكرة هذا الشهر، ليستمتع بالعذاب الذي صنعه في بلد بعيد لن يجرؤ أبدًا على الرجوع إليه. أيسمى هذا تاريخًا؟ مأساة؟ أم فنًا؟

«ذي إندبندنت»، ١٠ آذار/مارس ٢٠٠٧

(*) المرجع السابق، ص. ٣٩٥-٣٩٨.

معبد الحقيقة

تعوّدنا تسميته معبد الحقيقة. إنه مبنى مكعب من رخام بني وأبيض بعلو عشر طبقات في جادة المزّة في دمشق، تعلو نوافذه الواسعة رمال لم تنظف عنها قط، وفيه أربعة مصاعد فضية اللون متهالكة كانت تستغرق خمس عشرة دقيقة لتصل إلى الطبقة العلوية الرهيبة، حيث بدا مجسّم رأس الرئيس حافظ الأسد مصنوعًا من السمن الأصفر القاتم. هنا، جلس الكهنة يدخنون السجائر في المعبد الذي كان قدره الكئيب أن يشرح للصحافيين الأجانب - واأسفاه عليهم، وفيسك من بينهم - قيم حزب البعث الإنسانية والأخوية والقومية العربية.

في أيام سورية القديمة، كانت هذه مهمة شاقة على أي موظف رفيع المستوى . عندما وصلت أول مرة إلى دمشق، كان إسكندر أحمد إسكندر هو وزير الإعلام، وهو سياسي نحيل كث الشاربين، دلت وظيفته إلى قربه من الرجل الكبير. وكان يحكم من مكتب ذي أبواب أمنية محكمة الإقفال في مبنى ضم وكالة الأخبار العربية السورية («سانا») التي ملأت أخبارها الغثّة صفحات «ذا سيريا تايمز» يوميًا: صحيفة صغيرة تتحدث دومًا عن إتمام الخطط الصناعية الخمسية، وبرقيات من المزارعين المتحمسين تهنئ الرئيس في ذكرى ثورته التصحيحية.

كانت مهمة إسكندر عام ١٩٨٢ توبيخي على جرأتي على دخول مدينة حماه المحرَّمة حيث ارتكبت فيالق رفعت الأسد الفظاعات في حق الآلاف من الثوار الإسلاميين - رفعت شقيق الرجل الكبير، وهو يستمتع الآن، في صمت، بتقاعده الإجباري في الاتحاد الأوروبي (الذي يُرعب مجرمي الحروب) -. حدث هذا دونما همسة احتجاج من الأميركيين الذي يسعون الآن إلى تصفية

عدد مشابه من الثوار في العراق. كانت إذاعة دمشق (وهي إحدى أدوات إسكندر المألوفة) أعلنتني كاذبًا لادعائي أنني تسللت إلى حماه على رغم أنني وصلت إلى المدينة المحترقة عبر توصيلي اثنين من ضباط رفعت.

لكن إسكندر، عندما استقبلني ربيع ١٩٨٢، كان توّاقًا إلى الحفاظ على العلاقات الجيدة مع موظفي صحيفة «ذا تايمز» آنذاك. وأصر في بادئ الأمر على أنني لم أصل إلى حماه - وهو اقتراح كريم سرعان ما دحضته - ثم أنكر معرفته بأي تكذيب لي بثته إذاعة دمشق. لم يكن لدي أدنى شك في أن إسكندر وافق على ذلك الإعلان بالذات، لكنه رسم لي ابتسامة عريضة، ودفع بسيجار نحوي قائلًا: «وحدهم الأصدقاء الحقيقيون يتجادلون بهذه الطريقة».

بعد سنوات، خضع إسكندر لاستئصال للسرطان في لندن، حيث أزيل جزء من دماغه. وعندما سألته عن شعوره عندما استيقظ بعد الجراحة، أجاب: «كان جزءٌ مني مفقودًا». يا لصلابة هؤلاء البعثيين. كانت أيضًا أيامًا عصيبة على زهير جنان، مدير الصحافة الأجنبية في سورية، الذي نادرًا ما حظي بالتقدير على تلاعبه اللبق واللطيف للحصول على تأشيرات دخول للصحافيين الناكري الجميل، وحمتهم جميعًا «مذكراته». لقد عُيّن زهير أخيرًا مسؤولًا إعلاميًّا في السفارة السورية في لندن، وهو منصب سرعان ما تخلى عنه عندما اكتشف البريطانيون أن دبلوماسيين سوريين في لندن - ليس زهير منهم - تستّروا على من خطط لتفجير طائرة «العال» الإسرائيلية. ووافق زهير في دمشق على تأشيرة دخول صحافي أميركي لم يخبره بأنه كان إسرائيليًا أيضًا، وأرسل عددًا من التقارير إلى صحيفته في تل أبيب.

عندها أرسل زهير إلى الطبقات السفلى من معبد الحقيقة، ولم ينجّه سوى وزير الإعلام الجديد محمد سلمان، البعثي الماكر الذي كانت حتمية خسارته مكانته الرفيعة بعدما أزاح الستار عن تمثال جديد للزعيم العظيم خارج معبد الحقيقة. صباح اليوم التالي، شوهدت فرقة من العمال تنزع التمثال. وفي المرة

التالية، التي رأيت فيها محمد، كان تحت الإقامة الجبرية محمولًا إلى مؤتمر حزب البعث للتصويت لرئاسة بشار حافظ الأسد عام ٢٠٠٠ حيث جلس يحتسي القهوة بعصبية في زاوية الغرفة، بينما بدا خوف رفاقه البعثيين من العدوى، فتجمعوا بعيدًا عنه مسافة ٢٠ قدمًا من كل الجهات. خرقتُ هذا الحاجز الوهمي مع زميل لي، واقتربت من محمد لأطمئن إلى صحته. فبدت أمَّارات الارتياح على وجهه جلية. ثم حذا حذونا بعض البعثيين المترددين.

أعجبني أحمد الحريري، وهو مترجم وكاتب «مذكّرات» لخلف زهير. لقد انتقص تدخينه المستمر من نظرته الصارمة والساخرة والأدبية إلى العالم مستشهدًا بويليام بلايك. كان أحمد - الذي عانى ضعفًا في القلب - يشرح تعاليم البعثية باستدارة من عينيه، وكثيرًا ما مهّد لتعليقاته بعبارة: «عدني يا روبرت بألا تكرر ما أقوله لك»، ثم يتبعها وصف شفاف وصادق للحياة تحت حكم حافظ الأسد، واصفًا - ذات مرة - كيف تصرّف رفاقه يوم وفاة القائد الكبير. قال: «ذهب الناس في مدينة تدمر، مسقط رأسي، إلى قبور السجناء السياسيين الجماعية، ورموا الورود على الرمال، كنا نجلس في مكاتبنا داخل ما تسمّيه «معبد الحقيقة» وفي أفواهنا السجائر، وراح كل منا يرمق زميله بطرف عينه مراقبًا رد فعله على وفاة القائد الكبير».

في ذلك اليوم من عام ٢٠٠٠، تصرّف قاطنو معبد الحقيقة بهذه الطريقة تمامًا - على رغم أن ما من ورود وضعت لسوء الحظ على القبور في تدمر - ولكن ما إن استقر بشار في منصبه، حتى هبت نسمة لطيفة في حذر بين البعثيين في أروقة المعبد. وعندما مزحت عن «الحكم الحديد» السابق، كان ثمة الكثير من التهنئة والمديح لبشار. فهذا الأسبوع مثلًا، ذكر الوزير الجديد محسن بلال، الجراح البشوش الذكي، كيف ويا للأسف كان يناقش تقاريري مع اللواء غازي كنعان، وزير الداخلية الذي فجّر دماغه، وياللأسف السنة الماضية، في ذروة تحقيقات الأمم المتحدة في مقتل رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري.

صدمني اكتشافي وفاة أحمد بسكتة قلبية. أما إسكندر فقد توفي منذ زمن بعيد. ويعيش محمد سلمان الآن «في منزله»، على رغم أنه لم يعد تحت الإقامة الجبرية، بينما يعمل زهير، الذي أنقذ رأسه سلمان، مدققًا في صحيفة عن الخيول. الخيول؟ سألت في المعبد. خيول؟ «نعم، صحيفته اسمها «ذا ثوروبريد» (الأصيل)». ألها انتشار كبير؟ «لا يتحدث جميع سكان دمشق عن الخيول يا سيد روبرت». فعلًا. لقد كبر حجم صحيفة «ذا سيريا تايمز» ولا تزال مملّة كالسابق. وكان أحد عناوينها هذا الأسبوع «الحكومة تشدد على أهمية الوحدة الوطنية». لكن صحفًا أخرى نقلت اتهامات لبنانية بأن سورية كانت وراء مقتل الحريري. ويعرض الفندق الذي أنزل فيه مجلات تتحدث عن قمع الأكراد السوريين. لا تزال النوافذ تعلوها الرمال، والمصعد يستغرق خمس عشرة دقيقة للوصول إلى الطبقة العاشرة. لكن هذه سورية جديدة، وقد تغيرت الحياة في معبد الحقيقة.

وأظل أذكّر نفسي بأنهم يسمّون هذا المكان «محور الشر».

«ذي إندبندنت»، ٢٢ نيسان/أبريل ٢٠٠٦

كلنا رفعت

أيُعقل أن يوم محاكمة رفعت الأسد قد اقترب؟ أجل رفعت - أو العم رفعت بالنسبة إلى بشار الأسد في سوريا - الرجل الذي طرده أخوه حافظ الأسد من دمشق بعدما حاول استخدام قواته الخاصة للتخطيط لانقلاب. وكانت تلك القوات الخاصة نفسها التي سحقت تمرد الإسلاميين في حماه في شباط/ فبراير ١٩٨٢، ذابحة - بضعة آلاف بحسب أقوال النظام - و١٠٠٠٠ على الأقل وفقًا لأقوال فيسك (الذي كان موجودًا هناك)، وصولًا إلى ٢٠٠٠٠ إذا كنتم تصدقون «نيويورك تايمز» (لا أصدقها عادة). في كلتا الحالين، لطالما عددتها جريمة حرب، كذبح الفلسطينيين في مخيمي صبرا وشاتيلا في بيروت بعد أشهر عدة من حصولها. إن أرييل شارون - الذي يتحمل المسؤولية شخصيًا في رأي لجنة التحقيق الإسرائيلية نفسها - هو مجرم حرب لم يُحاكَم. ومثله رفعت.

لهذا، شعرت نسمة أمل خفيفة تهب من آلة الفاكس لديّ هذا الأسبوع عندما تسلّمت رسالة بعث بها إلى الأمين العام للأمم المتحدة، أنس العبده رئيس «حركة العدالة والتقدم في سورية» ومركزها لندن. لقد ترك العبده بلدته الزبداني في سورية قبل مجازر حماه، ويعمل الآن كمستشار للمعلوماتية التقنية في شركة دولية. فهو لا يتنشق هواء الشقيقة سورية، مثل رفعت المعزول - مع فريق حراسته - في جزيرة أوروبية لطيفة للاجئين، اسمها ماربيلا. ولعله يحتاج إلى هذا اللجوء لأن العبدة يطلب من الأمم المتحدة الشروع في تحقيق عن حمامات الدم في حماه، مثلما تشحذ همتها ومحكمتها لجريمة اغتيال رئيس الحكومة [اللبناني] السابق رفيق الحريري منذ سنتين.

يصف العبده في رسالته كيف «سحقت الطائرات الحربية والدبابات مناطق

كاملة في المدينة [حماه]... والدليل يشير في وضوح إلى أن القوات الحكومية لم تميّز بين المتمردين المسلحين والمدنيين العُزّل... يمثل الهجوم على المدينة في وضوح جريمة حرب وقتل على نطاق جماعي». وقد وصلت الرسالة الآن إلى رئيس الشؤون القانونية في الأمم المتحدة، نيكولا ميشيل، الذي يعمل أيضًا على قضية اغتيال الحريري. لم يُذكر اسم رفعت «المقدّس» في الرسالة، لكنها تطالب تحديدًا بـ«محاسبة المسؤولين ومحاكمتهم..»، إلا أن ثمة بعض الفوارق في الوقائع. لم يستخدم السوريون الغاز السام في حماه كما يدعي العبده، لكنهم بالتأكيد مسحوا مناطق برمتها من المدينة - ولا تزال مدمرة حتى اليوم، برغم بناء فندق في منطقة منها -. وعندما أنزل زبانية رفعت الركام لاحقًا، أعدموا كل مدني لم يستطع تبرير وجوده في المكان.

لكن ثورة حماه كانت بالطبع تمردًا من المسلمين السنة، وقد قتل المتمردون عائلات مسؤولين بعثيين برمتها وقطعوا رؤوسهم في بعض الأحيان. وفي الأنفاق تحت الأرض، فجرت فتيات ونساء أنفسهن في القوات السورية، وكن من أوائل الانتحاريين في الشرق الأوسط، على رغم أننا لم نقدّر أهمية هذا حينذاك. ولم يكن الأميركيون آسفين على سحق تمرد الإسلاميين هذا على يد العم رفعت. ولا داعي لتذكير القارئ بأحداث فظيعة حدثت أخيرًا تتعلق بمتمردين سنة شرق سورية. وبما أن الأميركيين أصبحوا فاعلين في قتل المدنيين مع المسلحين، أشك متشائمًا، في أنهم سيتحمسون في واشنطن حيال محاكمة تتعلق بحماه.

على رغم هذا ما صدمني ليس قوة رسالة العبده، بمقدار كتابته لها أساسًا. فعندما حدثت مجزرة حماه، لاذت الدول العربية المجاورة بالصمت. على برغم أن كبار رجال الدين السنة في المدينة دعوا إلى حرب دينية، صمت إخوانهم من رجال الدين في دمشق، وفي بيروت أيضًا. كذلك صمت الأئمة وعلماء الدين المسلمون عندما بدأ الجزائريون يذبحون بعضهم بعضًا في معمعة قطع الرؤوس وإعدام قوات الأمن في التسعينات. كما يصمتون الآن على القتل

المتبادل في العراق. طبعًا، لمَا حدثت المجازر الجماعية في العراق لو لم نجتح البلاد. وأشتبه في وجود بعض «الأيدي الخفية» وراء الصراع الأهلي في بلاد لم تنقسم من قبل. لقد أمضى الفرنسيون في الجزائر وقتًا طويلًا مطلع الستينات يقنعون - في نجاح باهر - أعداءهم في جبهات التحرير الجزائرية بقتل بعضهم بعضًا. ولكن، أين شيوخ الأزهر والممالك العربية العظيمة، في حين تُنتشل جثث العراقيين من نهر الفرات، ويُحصدون بالآلاف في بغداد وكربلاء وبعقوبة؟ هم أيضا صامتون.

ولا كلمة انتقاد. ودونما أي اهتمام، أو حتى ذرة تعاطف (بتعبير إينوش باول). قصف إسرائيلي للبنان؟ وحتى اجتياح إسرائيلي؟ هذه جريمة حرب. والعرب محقون، فالإسرائيليون يرتكبون فعلًا جرائم حرب. وقد رأيت أدلة إلى بعض منها الصيف الماضي. ولكن، متى يصبح الدم العربي رخيصًا؟ عندما يُريقه العرب أنفسهم بالطبع. إن هذا لأكثر من مجرد عجز عن النقد الذاتي في العالم العربي. ففي ساحة تحكمها وحوش دعمناها، نحن الغربيين، زمنًا طويلًا، أي نوع من الانتقاد هو مهمة خطيرة. ولكن، ألا يمكن إظهار ولو بادرة صغيرة من الرفض على ما يفعله المسلمون العراقيون بالمسلمين العراقيين؟

أكيد، لكن المشكلة الحقيقية التي يواجهها العرب الآن، هي أن بلادهم قد اجتاحتها الجيوش الغربية واحتلتها بفاعلية. وقد استنتجت منذ بضعة أسابيع، أن وفقًا لتعداد السكان - وتذكروا أن العالم كان أصغر في القرن الثاني عشر - ثمة الآن جنود غربيون في بلاد المسلمين أكثر بـ ٢٢ ضعفًا مما كانوا عليه زمن الحروب الصليبية. كيف ترد الضربة ضد هذه الجحافل وتطردها؟ لقد أرانا العراقيون كيف يفعلون هذا في قسوة وفظاعة. سبق ان قلت إن مستقبل إدارة بوش سيتحدد في العراق لا في واشنطن. ويبدو هذا صحيحًا الآن.

إذًا، ماذا يجب أن نفعل؟ أنسمح لأمثال رفعت بأن يستمتعوا في ماربيلا؟ وينجو قتلة الحريري؟ ويظل العرب صامتين في وجه الفظاعات المخجلة التي

ارتكبها إخوانهم المسلمون بدورهم؟ أراهنكم أن رفعت سيكون في مأمن من جماعة الأمم المتحدة. لكان وقف إلى «جانبنا» لو أنه الآن في العراق يحارب المتمردين المسلمين كما فعل في حماه. أليس كذلك؟ وهذه هي المشكلة كما أخشى. فكلنا رفعت الآن.

«ذي إندبندنت»، ١٠ شباط/ فبراير ٢٠٠٧

وزارة الخوف

بعد أسر ثلاثة جنود إسرائيليين ومقتل اثنين آخرين على أيدي مسلحي «حزب الله» الذين «عبروا» الحدود اللبنانية ـ الاسرائيلية بتاريخ ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦، شنت إسرائيل حربًا مدتها ٣٤ يومًا على لبنان، قاتلة أكثر من ألف رجل وامرأة وطفل، ومدمرة معظم البنية التحتية في البلاد. شكل المسلحون نسبة صغيرة منهم. وقد قُتل أكثر من مئة إسرائيلي، معظمهم من الجنود، برصاص رجال «حزب الله». وعند نهاية هذا الاقتتال المرير، اكتشفت «سكوتلاند يارد» مخططًا «إرهابيًا» آخر في لندن.

عندما عاد التيار الكهربائي البارحة إلى منزلي حوالى الثالثة صباحًا، أدرت قناة «بي بي سي ورلد سيرفس». رجّت المنزل سلسلة من الانفجارات العنيفة - تردد صداها في بيروت كلها - بينما كانت الطائرات الإسرائيلية تهدر فوق المدينة، ثم ظهر عنوان «ورلد سيرفس»: «خطة إرهابية». سألت نفسي: خطة ماذا؟ وظهر شرطيي المفضل، بول ستيفنسن، معاون مفوض الشرطة، وهو يشرح كيف أنقذت قوات الشرطة المفضلة لدي - التي أعدمت بشجاعة برازيليًا شابًا في قطار الأنفاق في لندن النفقي، مطلقة ست رصاصات عليه خلال ثلاثين ثانية - حيوات المئات من المدنيين الأبرياء من انتحاري على متن طائرة.

أنا واثق من أن الشبان ذوي البزات الزرق اختاروا يوم أمس، مصادفة، إنقاذ العالم، في تزامن مع ذروة الغضب على فشل بلير المخزي حيال لبنان. إذ لم تمض ثلاث سنوات على آخر خطة إرهابية كبيرة دفعت العربات البريطانية المصفحة إلى حصار مطار هيثرو في اليوم نفسه - بالمصادفة أيضًا - الذي تظاهر فيه مئات الآلاف من البريطانيين ضد نية بلير اجتياح العراق. «وهكذا، جلست على سجادة غرفة جلوسي أشاهد أولئك الشبان المدرعين في شدة في

هيثرو يحمون الشعب البريطاني من خطر الإبادة، ثم ظهر الرئيس جورج بوش ليخبرنا أننا كنا نحارب «الفاشية الإسلامية». ازدادت التخبطات في الظلام في أنحاء بيروت، حيث يعاني الكثيرون الإرهاب. ويمكنني أن أؤكد لجورج بوش أن الطيارين الذين يقصفون المدينة التي عشت فيها أكثر من ثلاثين عامًا، سواء أكانوا فاشيين أم لا، هم بالتأكيد ليسوا إسلاميين.

وهنا، كانت المعضلة القديمة نفسها. فلحماية الشعب البريطاني - والأميركي - من «الإرهاب الإسلامي»، علينا الحصول على أعداد كبيرة من رجال الشرطة والجنود المدججين بالدروع، والشرطيين العاديين، ومديريات لا نهاية لها ضد «الإرهاب»، ورجال أمن قومي وغيرهم من الشخصيات السيئة، مثل الجلادين الأميركيين، في معتقلات أبي غريب وباغرام وغوانتانامو. إلا أن الطريقة الوحيدة لحماية أنفسنا من العنف الحقيقي الذي قد يحل علينا - وسيحل علينا - هي التعاطي أخلاقيًا وفي شجاعة وعدل مع مأساة لبنان وفلسطين والعراق وأفغانستان. وهذا ما لن نفعله.

صراحة، كنت أحببت وجود بول ستيفنسن في بيروت ليواجه بعضًا من الإرهاب في هذه الناحية من العالم: «إرهاب» «حزب الله» وإرهاب إسرائيل. لكن هذا بالطبع أمر لا يحتمله بول وجماعته. إن عدم الحماسة حيال الظلم المزعوم من متهمين مزعومين في خطة مزعومة لخلق إرهاب مزعوم، مختلف تمامًا عن التعامل مع أسباب هذا الإرهاب، وفعل هذا، على رغم التعرض لخطر رهيب.

لقد سُررت لرؤية بوش - قبل أن تنقطع الكهرباء مجددًا - وهو لا يزال يخبرنا في خبث أن «الإرهابيين» يكرهوننا بسبب «حريتنا»، ليس لأننا ندعم الإسرائيليين الذين ذبحوا اللاجئين، وأطلقوا النار على سيارات الصليب الأحمر، وذبحوا أكثر من ١٠٠٠ مدني لبناني - هذه الجرائم الجديرة فعلًا بتحقيقات بول ستيفنسن - بل لأنهم يكرهون «حريتنا».

ولاحظت يائسًا أن صحافيينا كانوا مجددًا يتلقفون ما ترمي إليهم به السلطة، مستشهدين بـ«مصادر أمنية» لا نهاية لها (مجهولة الهوية)، في دون أن يشككوا مرة في معلوماتها أو في توقيت اكتشاف بول «الخطة الإرهابية»، أو في طبيعة التفاصيل أو الأسباب التي تدفع أي إنسان إلى ارتكاب هذه الفظاعات، لو صح هذا السيناريو الغريب بأكمله. قيل لنا إن الموقوفين مسلمون. أليس هذا مثيرًا للاهتمام؟ مسلمون. هذا معناه أن كثرًا منهم - أو عائلاتهم - تحدروا أصلًا من جنوب غربي آسيا والشرق الأوسط، من المنطقة التي تضم أفغانستان والعراق وفلسطين ولبنان.

كان أمثال بول - في الأيام الخوالي - يطالعون الخارطة عندما يواجهون أشخاصًا من أصول أو ديانات أو أسماء مختلفة حتى. ولو راجع بول ستيفنسن أي أطلس مدرسي، لكان سيلاحظ الكثير من العنف والظلم والمعاناة والوفيات التي تبدو من تخصص شرطة متروبوليتان في المناطق التي تأتي منها عائلات هؤلاء «المسلمين». أثمة جامع مشترك يا ترى؟ أنجرؤ على البحث عن دافع للجريمة، أو «الجريمة المزعومة» بالأحرى؟ كان رجال الشرطة ماهرين جدًا في البحث عن الدوافع. لكن هذه ليست الحال في «الحرب على الإرهاب». فلو بحث فعلا عن الدوافع الحقيقية، لوجد شرطيي المفضل نفسه قد عاد إلى رتبة العريف بول ستيفنسن.

صباح أمس، على سبيل المثال، في اليوم الحادي والثلاثين من النسخة الإسرائيلية لـ«الحرب على الإرهاب» - وهو نزاع يشترك فيه بول وجماعته من ناحية القرب - فجرت طائرة إسرائيلية الجسر الوحيد المتبقي على الحدود السورية ـ اللبنانية، شمال لبنان، في قضاء عكار الجبلي الجميل المشرف على ساحل المتوسط. وبسبب إحساسهم المرهف، اختار الطيارون تدمير الجسر - وتذكروا أنهم ليسوا إرهابيين - عندما كانت السيارات المدنية تعبره، فقتلوا اثني عشر مدنيًا كانوا عليه. في عالم الواقع، نسمي هذا جريمة حرب. حقًا، إنها لجريمة جديرة باهتمام بول وجماعته. ولكن، وا أسفاه، إن مهمة ستيفنسن

إخافة الشعب البريطاني، لا منع الجرائم التي هي السبب الحقيقي لخوف البريطانيين.

شخصيًا، أنا أدعم تمامًا إيقاف المجرمين، سواء أكانوا من نوع «المسلمين الفاشيين»، أم من نوع أسامة بن لادن، أم من نوع إسرائيل. يجب فعلًا توقيف طياريهم في المرة المقبلة عندما يحطون في هيثرو، أو من النوع الأميركي (أبي غريب مع مرتبة شرف)، ومن الصنف الذي فجر دماغ راكب قطار الأنفاق. لكنني لا أظن ستيفنسن يشاطرني الرأي. أظنه يهدد ويتوعد، لكنني لا أراه يُمثّل القانون والنظام. فهو يعمل في وزارة الخوف غير المهتمة، بطبيعتها، بالدوافع أو الظلم. وعلي أن أقول، بعد مشاهدة أدائه قبل انقطاع الكهرباء ليلة البارحة، إنني رأيته يؤدي واجبه أمام أسياده على أتم وجه.

«ذي إندبندنت»، ١٢ آب/أغسطس ٢٠٠٦

أرسل إلي مسؤول بارز في الأمن البريطاني رسالة خطية من أربع صفحات، متذمرًا فيها من إجحافي بحق ستيفنسن، وسائلًا هل تهمني زيارته المرة المقبلة لدى مجيئي إلى لندن؟ لكنني، عندما أتيت إلى مكتبه بعد بضعة أسابيع، لم يذكر ستيفنسن إطلاقًا. لكنه أخبرني عن قلقه من التجاوب مع معلومات استخباراتية من باكستان، ربما أتت عن طريق التعذيب: «حصلتُ على المعلومات، ووجدنا الأسلحة في المكان نفسه الذي أخبرنا عنه الباكستانيون. فما علي أن أفعل؟ أأتجاهل ما وصل إلي وأعرض حياة سكان لندن للخطر؟ لا، علي التصرف بناءً على هذه المعلومات».

لقد كتبنا جميعًا وصايانا

قال أحد المفكّرين إن السريّة مثير جنسي قوي جدًّا. السرية مشوّقة، والخطر غامض وشديد الخطورة. فهو ينساب كما الضباب في شوارع بيروت هذه الأيام، متسللًا عبر الأرصفة حيث يصرخ رجال الشرطة بالتعليمات عبر مكبرات الصوت، وهم يعملون لحفظ النظام، أو ربما لا.

ممنوع ركن السيارات. من تخدعون؟ عندما اغتيل النائب اللبناني أنطوان غانم الأسبوع الماضي، لم تستطع الشرطة - أو لم تشأ - تأمين ساحة الجريمة. لمَ لا؟ وهكذا، بدأ الضباب الأربعاء الماضي ينساب عبر البوابات الحديد لمنزل وليد جنبلاط، الزعيم الدرزي، في بيروت، حيث اجتمع مع بضعة نواب شجعان إلى العشاء عشية جلسة برلمانية لانتخاب رئيس للجمهورية لم تتم. وكثر الحديث عن الغالبية والنصاب القانوني، «النصف زائدًا واحدًا»، الذي يبدو قاعدة دستورية هنا، على رغم أن حلفاء سورية لا يوافقون على هذا. أعترف بأنني ما زلت أقابل نوابًا لبنانيين لا يفهمون نظامهم البرلماني، وأظنهم في حاجة إلى أساتذة جامعيين كثر لإدراكه.

كان الطعام ممتازًا كالعادة. وما المانع من أن يأكل جيدًا من يواجهون الموت بالانفجارات وإطلاق النار يوميًّا؟ لم تنل نورا جنبلاط لقب أفضل مضيفة في العالم من فراغ. جلست بالقرب من أفراد عائلة جنبلاط، بينما كان ضيوفهم - وهم غازي العريضي، وزير الإعلام، ومروان حمادة، وزير الاتصالات، والنائب الطرابلسي مصباح الأحدب وقاض بيروتي - يتمازحون ويتحدثون مُظهرين عدم الاكتراث بشبح الخطر الذي يحيط بحيواتهم.

لقد «أوشكوا» عام ٢٠٠٤ النيل من حمادة في منزله القريب من شقتي.

ويختبئ الآن ستة وأربعون نائبًا لبنانيًا في فندق فينيسيا: كل ثلاثة منهم في جناح. وقد سمع جنبلاط شائعات عن اغتيال آخر قبل يوم من التفجير الذي استهدف غانم وجعله أشلاء. من التالي؟ هذا هو السؤال الذي نسأله جميعًا. «هم» - السوريون أو «عملاؤهم» أو مسلحون يعملون لحكومة غامضة - يخططون للجريمة التالية لتقليص غالبية فؤاد السنيورة الصغيرة. قال جنبلاط: «سيكون هناك قتيلان في الأسابيع الثلاثة المقبلة». ونظر الضيوف بعضهم إلى بعض.

قالت نورا في هدوء: «لقد كتبنا جميعًا وصايانا». حتى أنتِ يا نورا؟ لم تظن أنها مستهدَفة. «ولكن يمكنني أن أكون مع وليد». نظرتُ إلى هؤلاء الرجال المثقفين الشجعان - ربما لم تكن سياستهم حكيمة دومًا، لكن شجاعتهم فوق الشكوك - وفكرت في لامبالاتنا، نحن الغربيين، بحياة لبنان. لم تعد بيروت تُصدَم لاغتيال نائب، لم أعد أدهش. سألني رجل لبناني في نهاية الأسبوع، كيف أثر فيّ لبنان بعد إحدى وثلاثين سنة، فقلت إنني عندما رأيت جثة غانم الأسبوع الماضي، لم أشعر شيئًا. هذا ما صنعه بي لبنان، وهذا ما صنعه بجميع اللبنانيين.

اجتمع ألف درزي بالكاد لحضور جنازة غانم. وحتى الآن لا أمان. لقد سمحوا بسرور لسائقي عبد بركن السيارة على بعد ١٠٠ متر فقط من منزل جنبلاط من دون أن يتحقق شرطي واحد من صندوقها. ماذا لو كان يعمل لمصلحة طرف أخطر من مراسل «ذي إندبندنت»؟ ولمصلحة من يعمل جميع هؤلاء الشرطيين في الخارج؟

ولكن خلال هذا العشاء الصغير في بيروت، لم أستطع منع نفسي من التفكير في سياسيينا المتعالين، أمثال براون وسترو وساركوزي والامبراطورين كوشنير وميركل، واعتقادهم المتغطرس أنهم يشنون «حربًا على الإرهاب» - في المناسبة، أما زلنا نعتقد هذا؟ -. وفكرت في أن، في بيروت، ثمة رجالًا

ونساءً مثقفين يمكنهم الهرب إلى لندن أو باريس إذا شاءوا، لكنهم يفضلون المخاطرة، منتظرين الموت في سبيل ديموقراطيتهم في بلد أصغر من يوركشاير. لا أظن أن سياسيينا الغربيين من هذا العيار.

حسنًا، كنا تحدثنا عن الموت. وقبيل منتصف الليل، وصل رجل يربط شعره كذيل الفرس، ومعه امرأة أنيقة ترتدي السواد (وهو لون مناسب لحديثنا) حاملين لوحة إعلانية يمكن استخدامها في جلسة غد النيابية. كان رفيق الحريري في أعلاها. تلاه [رسم صورة] الصحافي جبران تويني والوزير بيار الجميل وزميل الحريري باسل فليحان، وطبعًا غانم. لقد قُتلوا جميعًا لأنهم آمنوا بلبنان. سألت جنبلاط عما على المرء فعله ليشتهر في لبنان، فانفجر ضاحكًا. النكات السوداوية رائجة هذه الأيام.

وفي لحظة، جلب جنبلاط كتاب كيرزيو مالابارتي الشنيع وهو تقرير رائع لما حدث في الحرب العالمية الثانية على الجبهة الشرقية - خراب - وقدمه إلي مع إهدائه الشخصي. كتب: «إلى روبرت فيسك. آمل ألا أستسلم، لكن هذا الكتاب قاس جدًا وجميل نوعًا ما. «و. جنبلاط» [وتوقيعه]». وتساءلت: كيف تجتمع القسوة والجمال.

ربما، يجب أن نصنع فيلمًا عن هؤلاء الرجال والنساء. وعلى ألاستير سيم أداء دور العريضي، وكلارك غايبل دور النائب الأحدب (وافقنا جميعًا على أن غايبل يصلح للدور). وظننت أن هيربرت لوم يصلح لدور حمادة (أظن أنه يبحث عن اسم لوم في غوغل). أما نورا؟ فيجب أن تؤدي دورها فيفيان لاي أو ديمي مور: من هذا الجيل. ومن سيؤدي دور وليد جنبلاط؟ بالطبع وليد جنبلاط!

ولكن، تذكروا هذه الأسماء اللبنانية، وفكروا فيها عندما يمزق الانفجار التالي هذه المدينة الخطيرة.

«ذي إندبندنت»، ٢٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧

«واجب حتى الموت» والأمم المتحدة

وقف عازفو المزامير الإسكتلنديون بلباسهم التقليدي، مع مئات من الجنود المتأهبين بكبرياء، متخرجي ساندهرست ومعهم راية كُتب عليها «واجب حتى الموت»، وهي عبارة تصلح عنوانًا لفصل في روايات ج. أ. هنري المقيتة عن الامبراطورية التي أجبرني والدي على قراءتها. كان علي البارحة أن أقرص نفسي لأتذكر أن هذه الناحية من الامبراطورية البريطانية، كانت جنوب لبنان. ولكن، لم يوجد ما هو غير بريطاني في فصيلة أسام التي يعود تاريخها الحربي المشرف إلى عام ١٨٤٢، وتحمل ميدالياتها الفضية أسماء قادة من العصر الفيكتوري من راج. وقد لاحظ مالكوم مغيريدج أن الإنكليز الباقين في الفصيلة هم من الهنود. إن فصيلة أسام التابعة للكتيبة الخامسة عشرة، هي مساهمة من الهند في قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام المنتشرة على الحدود الإسرائيلية، حيث أطلت علينا البارحة مراكز التنصت الإسرائيلية المزروعة على طول هضاب الجولان الثلجية. أما جنود الفصيلة الآتون من سبع ولايات من الشمال الشرقي في الهند، فكانوا الأكثر شعبية بين وحدات الأمم المتحدة لسببين بسيطين: فهم يساعدون في الكثير من المهام البيطرية بين المزارعين الفقراء، ويصلحون كل الحواسيب في المدارس المجاورة، وهذا، في رأيي، من تأثير مدينة حيدر أباد المتقدمة تكنولوجيا. ولكن، كان ثمة جانب بارز في استعراض الكتيبة لميداليات الأمم المتحدة البارحة. لقد كانت كل الوحدات الأخرى التي أرسلت ضباطها من غير الغربيين.

كان ثمة جنود فيجيون ونيباليون وغانيون، وثلة من الفرنسيين ومراقب الأمم المتحدة الأسترالي الوحيد. عندما كانت قوات الأمم المتحدة العاملة في لبنان - اليونيفل - في ذروتها خلال الاحتلال الإسرائيلي، كان أفرادها من أغنى

الدول من إيرلندا والنروج وفنلندا وفرنسا. والآن، ينتشر جنود الدول الأفقر عبر الهضاب بين صور والجولان السوري المحتل. وتمكننا رؤية الجيش الهندي يخدم في جمهورية الكونغو الديموقراطية وفي السودان وإثيوبيا لمدة قصيرة. لقد حارب جميعهم تقريبًا في كشمير: كان أغلب جنود الكتيبة ١٥ يحملون ميداليات حمرًا وخضرًا من كشمير على صدورهم البارحة، على رغم أن هذا لم يشر إليه رسميًّا. ففي نهاية المطاف، معظم اللبنانيين مسلمون.

ويبدو أن نفوذ الأمم المتحدة العالمي أخذ يعتمد أكثر فأكثر على قوات خارج الناتو. أظن أن قواتنا الغربية المتفوقة أكثر سعادة في البوسنة، أو تحتل العراق في صورة غير قانونية. ولن يفرط رئيس الوزراء بلير برجاله على الحدود الإسرائيلية. فقبرص تكفي البريطانيين. لكن هذا كله يطرح سؤالًا مهمًا: هل الدول التي سميناها سابقًا «العالم الثالث» تصلح أكثر لحفظ السلام؟ ألن يكون مناسبًا أكثر - إذا لم تكن هذه هي الحال - جلب جنود يفهمون الفقر لحفظ السلام في بلاد الفقر؟

عندما أرسل الإيرلنديون جنودهم إلى لبنان عام ١٩٧٨، كانت إيرلندا بلدًا فقيرًا نسبيًّا، وسرعان ما شعر جنودها تعاطفًا كبيرًا مع المزارعين الشيعة وعائلاتهم التي اعتاشت من أراضيها الصغيرة في التلال والوديان الصخر. وعليّ تذكير نفسي بأن لدى إيرلندا كتيبة كاملة في ليبيريا، ويمكننا إيجاد القوات الإيرلندية في كابول وبريستينا ومونروفيا. وعندما خاطب الهنود قادتهم البارحة، ورد ذكر الصومال وكمبوديا وأنغولا. أذكر الآن، وسط فساد الحروب البوسنية والكرواتية ورعبها، كيف اتضح أن أذكى القوات وأكثرها انضباطًا، لم تكن القوات الفرنسية أو الكندية، بل القوات الأردنية على الحدود الصربية.

عام ٢٠٠٢، عندما كان جورج بوش يهدد الأمم المتحدة، وهو لا يزال مصممًا على اختياره الأحمق جون بولتن سفيرًا مقبلًا في الأمم المتحدة، سُئلت في نيويورك هل «أؤمن بالأمم المتحدة». كان السؤال يشبه تقريبًا سؤال هل

أؤمن بالله، أو بالشيطان الذي يؤمن به بوش، أنا متيقن. ولكن علي الاعتراف على رغم من عدم يقيني كليًا بوجود الله، - أو تصور جورج بوش له، أجبت: بلى، أؤمن بالأمم المتحدة. ولا أزال مؤمنًا بها. أجريت في البوسنة نقاشًا طويلًا عن قيمة هذه المنظمة الدولية مع ضابط كندي فيها. كنا نتعرض للكثير من القصف، ولعل هذا ما شحذ تركيزنا. كانت نظريته بسيطة جدًا: لو كان لدينا أمم متحدة عام ١٩١٤، لعلها أوقفت الحرب العالمية الأولى. وقال: «لا أظن أن معارك سوم أو فردان، كانت حدثت لو كانت الأمم المتحدة موجودة». «وعلى رغم كل الأخطاء التي ارتُكبت في البوسنة، لكان الأمر أسوأ بكثير - وأشبه بالحرب العالمية الثانية كثيرًا - لو لم تكن الأمم المتحدة هناك».

إن الفوضى العارمة في الصومال لا تدعم رأيه بتاتًا. ولكن، هل ما فعله الأميركيون في العراق أفضل؟ ما إن تجاهلوا الأمم المتحدة حتى دخلها الجيش الأميركي وجماعة بلير. والآن، يواجهون ثورة تزداد حدتها إذ يعجز أي غربي أو عراقي، حتى عن السير أو القيادة في شوارع بغداد من دون أن يخشى الموت الفوري. إن شعار «واجب حتى الموت» قد يناسب الكتيبة الهندية في لبنان، لكنني أشك في تبني الكثير من قوات الأمم المتحدة هذا الشعار. نظن، لسبب ما، أن جيوشنا الغربية تخوض أعتى المعارك، لكنني لست متأكدًا من صحة هذا. فلقد خدم الجيش الهندي في سري لانكا التي يفوق انتحاريوها انتحاريي العراق شراسة بأشواط. وأخبرني أحد المحاربين الهنود الذين خدموا في سري لانكا: «كان عليك الانطلاق بسرعة مئة ميل في الساعة أينما ذهبت». «لا أظن أنني حاربت قوات مثل قواتهم أبدًا».

وهنا السؤال الجهنمي: ماذا لو أرسلت الأمم المتحدة قوة متعددة الجنسية إلى العراق مطلع ربيع ٢٠٠٣؟ ماذا لو أرسلنا القوات الهندية والجنود النيباليين، بدلًا من كتيبة المشاة الأولى الأميركية، عبر نهري دجلة والفرات، تحت لواء القبعات الزرق؟ أكانت الفوضى ستصبح أسوأ مما هي عليه في العراق اليوم؟ لو دمرت الأمم المتحدة أسلحة الدمار الشامل لدى صدام - وقد دمرتها الأمم

المتحدة، أليس كذلك، لأننا نعلم أنها لم تكن موجودة حين احتجناها؟ - ألم تكن قادرة على إدخال وحدات عسكرية بعد إجبار صدام على تفكيك نظامه؟ تقولون لا؟ حسنًا، في هذه الحال كيف تفسرون تداعي النظام السوري في لبنان بسبب قرار مجلس الأمن الرقم **١٥٥٩**؟ البارحة، تنحى جانبًا (اللواء) جميل السيّد نفسه - المدير العام لجهاز الأمن العام اللبناني الموالي لسورية، وهو شخصية أشد قوة ومكرًا من الرئيس اللبناني - مع موظفيه الموالين لسورية أيضًا. صحيح أن الأميركيين والفرنسيين هم من ضغطوا للحصول على القرار **١٥٥٩**، ولكن كم من الأشخاص بيننا هم مستعدون اليوم للوقوف والاعتراف بأن الأمم المتحدة تفعل في لبنان ما فشلت الولايات المتحدة في تحقيقه في العراق؟

«ذي إندبندنت»، **٢٣** نيسان/أبريل **٢٠٠٥**

لقد تعاظم حجم قوات الأمم المتحدة العاملة في لبنان، اليونيفل، بإضافة كتائب قتالية مدرعة من قوات الناتو بموجب قرار مجلس الأمن الذي دعمته الولايات المتحدة، وفُجرت وحدة إسبانية من هذه القوات في أول عملية من نوعها في جنوب لبنان في صيف **٢٠٠٧**، نجم عنها مقتل ستة من ذوي «القبعات الزرق».

الفصل الثامن
طائفة القسوة

أضحى التعذيب و«التحقيق»، الرمزين الجديدين للغرب «الليبرالي» بالنسبة إلى ملايين المسلمين. وأضحت الأقطاب الكهربائية و«التعذيب بالماء» والضرب والاغتصاب الشرجي والقتل، أمورًا شائعة في العراق وأفغانستان، فلم نعد نُفاجَأ بأي كشف جديد. وعلى رغم أن صور السجناء العراة المذلولين في سجن «أبي غريب»، أمست الآن تذكارًا للاإنسانيتنا، ننسى أن الصور التي رأيناها هي مجرد نسبة ضئيلة من التي حصل عليها البنتاغون، ويُظهر بعضها اغتصاب النساء العراقيات. كان جورج بوش أول من أعلن أن علينا الذهاب في «حرب صليبية» ضد مجرمي ٩/١١. ونحن نتصرف الآن في الشرق الأوسط بقسوة الحروب الصليبية الأولى تمامًا. لقد قُتل حوالى نصف مليون عراقي منذ الغزو. وكلما زرت بغداد، أجد أن أحد معارفي زُهقت روحه.



زمن المحارب

في الأسبوع الذي تخيّل فيه جورج بوش أن «حربه على الإرهاب» المضرّجة بالدم ستقود القرن الحادي والعشرين إلى «عصر مشرق من الحرية الإنسانية»، تفقّدت صندوق بريدي لأجد رسالة مخيفة أرسلها إلي محارب أميركي مخضرم يخدم ابنه الملازم أول طبيبًا ميدانيًا في القوات الأميركية في بغداد. يعتقد صديقي الأميركي، في اختصار، أن تغيير عقيدة الجيش في ظل إدارة بوش، من عقيدة «جندي» إلى عقيدة «محارب»، تشجع الجنود الأميركيين على ارتكاب الفظاعات.

من «أبي غريب» إلى غوانتانامو فباغرام، إلى ساحات معارك العراق والسجون «السود» لدى الاستخبارات الأميركية، والإذلال والضرب والاغتصاب واللواط والقتل، أصبحت كلها أمورًا عادية جدًّا إلى حدّ أن الفظاعات الجديدة أخذت تختبئ في الصفحات الداخلية من جرائدنا. إن دفاتر ملاحظاتي الصحافية مملوءة بالشكاوى العراقية والأفغانية عن التعذيب والضرب من آب/أغسطس ٢٠٠٢، ثم من عام ٢٠٠٣ حتى الآن. وأظل أسأل نفسي: كيف حدث هذا؟ من البديهي أن الأدلة تشير إلى الرأس. ولكن، أين بدأت طائفة القسوة هذه؟

أولًا، إليكم «مبادئ الجندي» الرسمية في الجيش الأميركي، التي وُضعت أساسًا لتفادي المزيد من فظاعات حرب فيتنام:

«أنا جندي أميركي. أنا جزء من جيش الولايات المتحدة، حامي أعظم أمة على الأرض. إنني فخور بالبزة التي أرتديها، وسأتصرف دومًا بطريقة تجلب الثناء لخدمة الجيش والأمة التي أقسمت على حمايتها... أيًّا يكن الموقف الذي

أنا فيه، فلن أفعل لذاتي أو لمنفعتي أو لأمني الشخصي ما يسيء إلى زيي ووحدتي وبلدي. سأستخدم كل وسيلة لدي، وفوق ما يطلبه مني الواجب لمنع رفاقي في السلاح من ارتكاب أفعال مشينة في حق أنفسهم وفي حق زيهم. أنا فخور ببلدي وبعلمه. وسأحاول جعل شعب هذه البلاد فخورًا بالخدمة التي أؤديها لأنني جندي أميركي».

وهذه هي النسخة الجديدة مما يسمى الآن «عقيدة الجندي»:

«أنا جندي أميركي.

أنا محارب وجزء من فريق. أخدم شعب الولايات المتحدة، وأعيش وفقًا لمبادئ الجيش.

المهمة دومًا أولًا،

ولن أقبل الهزيمة أبدًا.

لن أستسلم أبدًا.

ولن أترك أبدًا رفيقًا سقط في المعركة.

أنا نظامي، قوي الجسد والعقل، مُدرَّب وفاعل في تدريباتي ومهامي الحربية. وأحافظ دومًا على سلاحي ومعداتي ونفسي.

أنا محترف خبير، ودومًا متأهب للهجوم والالتحام، وتدمير أعداء الولايات المتحدة في القتال وجهًا لوجه. أنا حارس الحرية وأسلوب الحياة الأميركية.

أنا جندي أميركي».

ومثل معظم الأوروبيين - وكثر من الأميركيين - لم أكن أعلم بهذه المبادئ الجديدة الشرسة لدى القوات المسلحة الأميركية، على رغم أن ملاحظة انسجامها مع تبجّحات بوش غير صعبة. وتغريني الإشارة إلى هذا بالتفصيل،

لكن صديقي الجندي الأميركي المخضرم فعل هذا في بلاغة في رسالته. لذا، يجب أن يكون الرد بلغته: كتب أن «عقيدة المحارب»:

لا تسمح بأي نهاية لأي نزاع ما عدا الدمار الكلي لـ«العدو». فلا تسمح بأي هزيمة... ولا تسمح للجندي بالتوقف عن القتال أبدًا (ما يجعلها تخدم فكرة «الحرب الطويلة»). ولا تذكر شيئًا عن إطاعة الأوامر، ولا عن احترام القوانين أو إظهار ضبط النفس. ولا تذكر شيئًا عن الأفعال المشينة...

أصادف كل يوم أمثلة جديدة على القسوة العسكرية الأميركية في العراق وأفغانستان. إليكم على سبيل المثال الخبير العسكري طوني لاغورانيس، عضو فريق التحقيق الأميركي المتنقل، العامل مع المارينز الأميركي، الذي استضافته أيمي غودمان في البرنامج الأميركي «ديموكراسي ناو»! وهو يصف عملية في بابل، خارج بغداد عام ٢٠٠٤: «كل مرة خرجت قوات الاستطلاع في مهمة، كانت تعود بسجناء مرضوضين محطمي العظام، يعانون الحروق أحيانًا. كانوا عنيفين جدًّا مع هؤلاء الناس. وكنت أسأل السجناء عما حدث، وكيف أصيبوا بهذه الحروق، فيخبرونني أنهم أصيبوا بها بعد أسرهم بينما كانوا مكبَّلين، وكان جنود المارينز في قوات الاستطلاع يحققون معهم... أجبر أحدهم على الجلوس على أنبوب عادم جيب هامفي. كان مصابًا بتقرح كبير، وحرق من الدرجة الثالثة في مؤخر قدمه». وردت قصة لاغورانيس بأسلوب قوي مؤثر في كتاب غودمان الجديد «ستاتيك»، وقد روى لاغورانيس أخبارًا عن هذه القسوة لعقيد في المارينز وكولونيل محام من مكتب المدعي العام الأميركي. «أتعلمون؟ لقد رفضوا الاستماع. لقد أرادوا أرقامًا. أرادوا عدد الإرهابيين المقبوض عليهم، ليتمكنوا من إبلاغها إلى القائد».

تتزايد قصص الهمجية كل أسبوع، وأحيانًا كل يوم. في كندا، طلب أميركي هارب من الجندية اللجوء، وقدم رفيقه في الخدمة العسكرية أدلة على القوات الأميركية كانت لديها أوامر برَهْس الأطفال المهملين إذا صادفتهم في شوارع

الفلوجة. يبدو، يا للفظاعة، أن الثوار يضعونهم أحيانًا ليجبروا القوات الأميركية على التوقف فيقعون في مكمن. هذا ما يحدث عندما «تضع المهمة أولًا»، عندما تذهب «لتدمير» - عدوك بدلًا من هزمه. كما يقول صديقي الجندي الأميركي المخضرم:

«إن النشاطات التي تشهدها السجون الأميركية وما يرد في التقارير عن مئات الحوادث ضد المدنيين في العراق وأفغانستان، وغيرهما من الأماكن، ليست مجرد هفوات، بل جزء مما ينوي الجيش الأميركي أن يتحوّل إليه، وفقًا لعقيدته. فالكثير من الجيوش الأخرى تتصرف بأسلوب أسوأ من الجيش الأميركي. لكن هذه الجيوش لا تدعي أنها «قوى الخير». أظننا في حاجة إلى جيش مؤلف من جنود لا محاربين».

لقد فهم وينستون تشرشل الشرف العسكري، ونصح للبريطانيين في الحرب العالمية الثانية قائلًا «كونوا متمردين عند الهزيمة، ونبلاء عند الانتصار». ليس بعد الآن. فكما قال جورج بوش هذا الأسبوع: «إن أمن أميركا يعتمد على نتيجة المعارك في شوارع بغداد»، لأننا ما زلنا «في بدايات هذا الصراع بين الطغيان والحرية». أعتقد أننا، في النهاية، ننوي أن نقود القرن الحادي والعشرين إلى عصر مشرق من الحرية الإنسانية داخل دهاليز السجون «السود»، تحت قبضات المارينز الأميركي، على فوهات عادم هامفي. نحن محاربون، نحن ساموراي. نحن نستل السيوف. نحن ندمر. هذا ما قاله بالضبط أسامة بن لادن.

«ذي إندبندنت»، ١٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦

ولّت موضة التعذيب، وأتت موضة الإساءة

«الكفاح» هو الكلمة «الرائجة» في أميركا الآن. فنحن لن «نربح» الحرب في العراق، لأننا فعلنا هذا عام ٢٠٠٣، أليس كذلك؟ عندما اندفعنا إلى بغداد وأطحنا صدام حسين. يومذاك، أعلن جورج بوش: «لقد أنجزت المهمة». لذا، علينا الآن أن «نكافح»، هذا ما قاله هذا الأسبوع أف. جي. «بينغ» وست، الجندي السابق ومساعد سكرتير شؤون الأمن الدولية سابقًا في حكومة ريغان، وهو يروج لكتابه الجديد «نو ترو غلوري: فرونت لاين أكاونت أوف ذا باتل فور فالوجا» (لا مجد حقيقيًا: سجل الخطوط الأمامية لمعركة الفلوجة)، واضعًا صورة شاملة مخيفة لما ينتظره المسلمون السُّنة في العراق.

كنت أجلس على بعد بضعة أقدام من بينغ - محاولًا الترويج لكتابي، في حين كان يشرح لسكان نيويورك كيف راح الجنرال كايسي يفرض منع تجول على المدن السنية في العراق، الواحدة تلو الأخرى، وكيف إذا لم يقبل السنة الديموقراطية فسيتعرضون «لاحتلال» (استخدم هذه الكلمة بالذات) القوات العراقية حتى يقبلوا بها. وتحدث عن «شهامة» القوات الأميركية - لم يذكر شيئًا عن عذابات العراقيين المريعة - وأصر على أن «يكافح» الأميركيون لأن من المستحيل السماح بانتصار «الجهاديين». ذكّرت بينغ بملاحظة الدوق ويلينغتون عن جنوده في معركة واترلو. وأخبرت الجمهور أنني لا أدري هل أخاف الأعداء، لكنني أقسم بالله أن بينغ أخافني.

كان ظهورنا في مجلس العلاقات الأجنبية - الكائن في منزل تقليدي في شارع ٥٨ يحتوي أرائك وثيرة وتكييف أقوى من اللازم (الرحمة يا ربي، نحن مطلع تشرين الثاني/نوفمبر) - جزءًا من سلسلة عنوانها «العراق: الطريق إلى

الأمام». وتساءلت: إلى الأمام؟ إن العراق كارثة. قد يظن بينغ أنه «سيكافح» أمام «الجهاديين»، لكن كل ما قلته هو أن المشروع الأميركي في العراق انتهى، وأنها كانت مأساة مهولة للعراقيين الذين يموتون في بغداد وحدها بمعدل ١٠٠٠ قتيل في الشهر، وأن على الأميركيين الخروج إذا كان ثمة أمل في عودة السلام، وأنهم كلما أسرعوا في الرحيل كان ذلك أفضل.

وافقني الرأيَ الكثيرُ من الحضور. وقام رجل متقدم في السن بتفتيت عرض بينغ من خلال وصف الدمار الهائل في الفلوجة عندما «حرّرها» الأميركيون للمرة الثالثة في تشرين الثاني/نوفمبر الماضي. وقدمت وصفًا عامًا للأشخاص الذين ينبغي لجنود بينغ ودبلوماسييه التحدث إليهم إذا أرادوا الخروج من هذا المأزق العسير، ذاكرًا الضباط العراقيين السابقين الذين كانوا قادة القسم غير الانتحاري في عمليات التمرد، والذين ستقع عليهم مسؤولية التعامل مع «الجهاديين» ما إن تغادر جماعة بينغ العراق. وقلت إن الأميركيين في حاجة إلى مساعدة إيران وسورية كي ينسحبوا، وهما الدولتان اللتان تشوه صورتهما إدارة بوش راهنًا (لسبب وجيه). وقد قوبلت ملاحظاتي بصمت من الحضور.

كان أسبوعًا غريبًا في أميركا. ظهر في واشنطن أحمد الجلبي، أحد النواب الثلاثة لرئيس الحكومة العراقية، ليشرح كم كانت يداه نظيفتين. وكان علي أن أذكّر نفسي مرارًا بأن الجلبي صدر عليه حكم غيابي في الأردن بتهمة التحايل على البنوك على مستوى واسع. وكان الجلبي من قدم إلى صحافية «نيويورك تايمز» جوديث ميلر، كل المعلومات الخاطئة عن أسلحة الدمار الشامل لدى صدام. وكان زملاؤه المنشقّون من أقنعوا حكومة بوش بوجود تلك الأسلحة. وقد دِين الجلبي السنة الماضية وحدها لمنحه أسرارًا استخباراتية أميركية لإيران. وهو لا يزال يخضع لتحقيق الـ«أف بي آي». لكن الجلبي تحدّث مع مؤسسة «أميركان إنتربرايز» اليمينية في واشنطن، ورفض تقديم أبسط اعتذار إلى الولايات المتحدة، ثم اجتمع مع وزيرة الخارجية كوندوليزا رايس ومستشار

الأمن القومي ستيفن هايدلي. ووافق نائب الرئيس تشيني ووزير الدفاع دونالد رامسفيلد على لقائه.

في المقابل، كانت تلك المحافظة الساذجة التي خدعها الجلبي عرضة لمقابلة شرسة فعلًا في صحيفة «واشنطن بوست» بعدما قدمت استقالتها بسبب التسريب الليبرالي لفضيحة «بلايم غايت». وظهر «استعراض جودي» أثناء مقابلتها، وكتبت لين ديوك مراسلة «بوست». «يا لجودي الغاضبة. يا لجودي الحزينة. جودي الجذابة. جودي التآمرية. جودي الصحافية المراسلة النجمة لدى «نيويورك تايمز» التي تحوّلت ضحية محاصرة لمحبي الإشاعات...». معلنة نيتها عدم تقديم أي اعتذار عن كتابتها عن تهديد على الولايات المتحدة، وقامت ميلر هذا «بتأكيد قوي يقارب الهوس، وكانت عيناها المتحدّيتان مغرورقتين بالدموع». آخ، لا يمكنني سوى التفكير كيف أصبح رد فعل الإعلام الأميركي شديد الغرابة حيال الجنون والانهيار والفوضى في العراق. إن الجلبي، زميل جودي القديم، هو من يجب أن يلقى هذه المعاملة. ولكن لا، لقد عاد إلى خدعه القديمة باختلاق القصص لإدارة بوش والتلاعب بها، بينما تمزق الصحافة الأميركية مراسلتها إربًا.

يشبه العيش في نيويورك وواشنطن هذه الأيام العيش في منشور زجاجي. لقد اختفت كلمة «التعذيب». لا يعذَّب أحد في العراق أو أفغانستان أو غوانتانامو. وما يفعله الأميركيون لسجنائهم هو «إساءة». حدثت لحظة رائعة هذا الأسبوع عندما عرضت أيمي غودمان، وهي حلم كل يساري، تسجيلًا مصورًا من فيلم بونتيكيرفو الجميل عام ١٩٦٥، ذا باتل أوف ألجيرز (معركة الجزائر) على برنامجها «ديموكراسي ناو». ظهر «الكولونيل ماثيو» - الفيلم نصف متخيّل - وهو يشرح ضرورة التعذيب لإنقاذ أرواح الفرنسيين. ثم ظهر الناطق باسم السيد بوش الحقيقي، سكوت مكليلان، قائلا إنه لن يناقش أساليب التحقيق، إلا أن الهدف الأساسي للإدارة هو حماية الأرواح الأميركية.

يشير الصحافيون الأميركيون الآن إلى «قانون إساءة» بدلًا من قانون تعذيب. نعم، كلمة «إساءة» تبدو أفضل بكثير، أليس كذلك؟ فأنت لا تصرخ أو تئن بألم عندما تتعرض لإساءة. لا صرخات معاناة، ولا مناقشة للوضع العقلي لأولئك «الحيوانات» الذين يرتكبون هذه الإساءة بالنيابة عنك. ومن المفيد أن نتذكر أن حكومة رئيس الوزراء بلير قررت أن من الملائم استخدام المعلومات المستخلصة بهذه السادية. حتى جاك ستراو يوافق على هذا.

لذا، كانت أمرًا مريحًا قيادة السيارة إلى الأرشيف الوطني الأميركي في ميريلاند للبحث عن محاولات أميركا إنتاج ديموقراطية عربية بعد الحرب العالمية الأولى، وإقامة دولة عربية عملاقة موحّدة تمتد من الحدود التركية إلى الساحل المغربي المشرف على الأطلسي. لقد حاول الجنود والدبلوماسيون الأميركيون تحقيق هذا في لحظة مشرقة ووجيزة في تاريخ أميركا في الشرق الأوسط. ولكن، ويا للأسف، توفي الرئيس وودرو ويلسن، وأصبحت أميركا انعزالية، وقسم البريطانيون والفرنسيون المنتصرون الشرق الأوسط لغاياتهم الخاصة، منتجين المأساة التي تواجهنا جميعًا اليوم. فعلًا، إنه لكفاح.

«ذي إندبندنت»، ١٢ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٥

الحقيقة... الحقيقة

تباهى رائد في القوات الخاصة الأميركية - لا داعي لأخبركم أنه أصبح كولونيلًا - أمام زميل لي منذ بضع سنين قائلًا: «إن التعذيب ناجح». ويبدو أن الاستخبارات المركزية وزبانيتها المأجورين في أفغانستان والعراق، لا يزالون يعتقدون هذا. فلا دليل إلى أن التعذيب والضرب و«التعذيب بالماء» وإقحام الأنابيب المعدنية في شرج الرجال - وطبعًا التعذيب حتى الموت المعتاد - انتهت. فلماذا إذًا، اعترفت الاستخبارت المركزية الأميركية في كانون الثاني/يناير بأنها دمرت أشرطة فيديو لسجناء يُخنقون - بطريقة التعذيب بالماء - قبل أن يراها المحققون الأميركيون؟

صادفتُ قبل بضعة أيام رسمًا من القرون الوسطى، يُظهر سجينًا مقيّدًا إلى كرسي خشب، وقد أُقحم خرطوم جلدي في بلعومه، ووضع منفخ بدائي عند طرف الأنبوب، حيث وقف جلاد بملابس مخيفة يعمل في تفان ساكبًا المياه في الخرطوم. فجحظت عينا السجين من الرعب وهو يشعر الاختناق، أمام ناظري المحققين الإسبان الذين لم تبد عليهم أدنى أمارات الشفقة عليه. من قال إن «التعذيب بالماء» كان جديدًا؟ إن الأميركيين يقلدون أسلافهم في التحقيقات الإسبانية. كذلك وجدت صورة أخرى في صحيفة كندية في تشرين الثاني/نوفمبر تُظهر سجينًا قيد التحقيق في إسبانيا، على ما أعتقد، بدا فيها مقيدًا وقد استند ظهره إلى طرف الدولاب الخارجي، بينما تولى رجلان يرتديان قلنسوتين تعذيبه. فاستخدم أحدهما مضخة هواء لإذكاء النار المشتعلة أسفل الدولاب، بينما أدار الآخر الدولاب كي تصل رجلا السجين إلى النيران. كانت عينا الرجل المسكين مغلقتين من شدة الألم، وقد عُري من ملابسه جميعًا، ما خلا قطعة قماش على عورته. وكان ثمة راهبان واقفين بالقرب منه، وقد ارتدى أحدهما قلنسوة،

والآخر جلبابًا فوق ردائه الكنسي، حاملًا ورقة وقلمًا بيده لتسجيل كلام السجين.

يقول أنطوني غرافتون، الذي عمل على كتاب عن السحر في أوروبا في عصر النهضة(*)، إن التعذيب استخدم في القرنين السادس عشر والسابع عشر بطريقة منهجية على أي مشتبه فيه بممارسة الشعوذة، وكانت شهادته تُسجَّل لدى كتّاب عدول محلفين - أظنهم يماثلون ضباط تحقيق الاستخبارات المركزية - ويشهد عليها مسؤولون لم ينكروا قطّ أن هذا كان تعذيبًا، لكن الشباب الذين أداروا دولاب النار لم يصفوها بأنها «تحقيقات مطوّرة»، كما يذكر غرافتون:

«كتب هنري تشارلز، ذلك الرجل الطليعي في القرون الوسطى في إسهاب عن الطرائق التي استخدم فيها المحققون التعذيب لحمل المساجين على الاعتراف بآراء وأفعال هرطقية. ولأنه رجل مستنير كتب في عصر عدَّه مستنيرًا، فقد تأمل هذه الممارسات الهمجية ودانها في وضوح، يحسده عليه كل من يطالع التصريحات الرسمية الراهنة».

كان ثمة محترفون في العصور الوسطى دُرِّبوا على استخدام الألم طريقة تحقيق وعقوبة قصوى قبل الموت. وكان يعرض على المحكوم عليهم «بالشّنق أو الغرق أو التقطيع أربعة أجزاء»، في لندن القرون الوسطى، مثلًا، «الأدوات» قبل أن يبدأ عذابهم النهائي بسحب أمعائهم أمام جمهور عريض. وسيتذكّر القراء الذين شاهدوا فيلم «برايف هارت»، أن ويليام والاس عُرضت عليه «الأدوات» قبل أن يوضع على الخشبة، لكنه نجا من تفريغ أمعائه قبل أن يُجَز رأسه. كان معظم المعذبين في القرون الوسطى يعدمون في كل الأحوال، بعد أن يقدموا المعلومات الضرورية إلى المحققين. ونشرت هذه التحقيقات - مع

(*) نُشرت اكتشافاته الأولية في مجلة «ذا نيو ريبابلك» ثم أعيد نشرها في صحيفة «ناشيونال بوست» في تورنتو في ١٥ تشرين الأول/نوفمبر ٢٠٠٧.

تفاصيل التعذيب الذي رافقها - وانتشرت في سرعة كي يفهم الجمهور الخطر الذي مثّله المساجين وسلطة من أنزلوا بهم ذاك العذاب. لا تدمير للأشرطة في تلك الحال. وأضيفت المنشورت المصورة والأغاني، وفقًا لغرافتون، إلى الحملة الدعائية. ودرس روني بو تشيا هسيا والأكاديميان الإيطاليان دييغو كواغليوني وآنا إيسبوزيتو، محاكمات ترينت في القرن الخامس عشر التي كان ضحاياها يهودًا في الأغلب، إذ اتهمت ثلاث عائلات يهودية في ترينت، عام ١٤٧٥، بقتل ولد مسيحي اسمه سايمن، تنفيذًا لـ«طقوس» الفصح المفترضة باستخدام دمه في صنع خبز «ماتزو». يا للأسف، لا يزال ثمة من يصدق «أكذوبة الدم» هذه - التي كانت مختلقة تمامًا بالطبع - في نواح عدة من الشرق الأوسط، على رغم أن من المرعب اكتشاف جذور هذه الفكرة في أوروبا القرن الخامس عشر.

كان «البوديستا» - مسؤول المدينة - كالعادة هو المحقق الذي عدّ الأدلة الخارجية مجرد إشارة إلى الذنب. وكانت أوروبا لا تزال في ذلك الزمن تحكم وفق القانون الروماني الذي استوجب الاعتراف بغية الحصول على إدانة. ويصف غرافتون، بتصوير مرعب، ان الجلاد عندما لا تعود أجوبة السجين تنال رضا «البوديستا»، كان الجلاد يربط يدي المرأة أو الرجل وراء ظهره، ثم يرفع السجين ببكرة نحو السقف، ما يسبب ألمًا مبرحًا. «ثم يتولى الجلاد بناءً على أوامر البوديستا»، إجبار المتهم على «القفز» أو «الرقص»، - عبر جذبه إلى أعلى ثم إرخاء الحبل، ما يخلع الأطراف ويسبب آلامًا لا توصف». وشملت وسائل التعذيب الأخرى وضع البصل والكبريت تحت أنف السجين ووضع بيض ساخن تحت إبطيه. وعندما سأل صامويل - فرد من عائلات ترينت اليهودية - البوديستا أين سمع أن اليهود يحتاجون إلى دم مسيحي، أجابه المحقق - تذكروا أن هذا كله حدث بينما كان صامويل يتدلى من الرافعة في الهواء - أنه سمعها من يهود آخرين. قال صامويل إنه ظلمًا يُعذَّب. فصرخ البوديستا «الحقيقة، الحقيقة»، وأجبر صامويل على «القفز» حتى علو ثماني أقدام، وهو

يقول لمعذبه: «الرب المعين والحقيقة سيساعدانني». وبعد أربعين دقيقة، أعيد إلى زنزانته.

اعترف المساجين اليهود بالطبع بعدما تحطمت معنوياتهم. وبعد جلسة تعذيب أخرى، ذكر صامويل اسم زميل يهودي. وبعد جلسات تعذيب إضافية - شملت وضع البيض تحت الإبطين - تحطمت إرادته، فاخترع مكيدة القتل من أجل الطقوس اليهودية، وسمى مذنبين آخرين في جريمته الوهمية. وتمكنت سيدتان تحت التعذيب، من تبرئة الأطفال. ولكن في النهاية، وفقًا لأقوال غرافتون، «ألقوا التهمة على أحبائهم وأصدقائهم وأفراد من المجتمعات اليهودية الأخرى». هكذا، يجبر التحقيق المدنيين الأبرياء - من حرفيين وزوجات ومراهقين - على الاعتراف بجرائم خيالية، إضافة إلى المتهمات بالشعوذة، والنساء اللاتي اعترفن تحت التعذيب بأن طرن في الهواء لعبادة الشيطان، ودمرن المحاصيل، وقتلن الأطفال. ووجد المؤرخ ليندال روبر في أكسفورد، أن المعذبين تقبلوا في النهاية أنهم مذنبون.

لا تمكن الإجابة عن استنتاج غرافتون. التعذيب لا يؤدي إلى الحقيقة. فهو كفيل بجعل أي شخص عادي يقول كل ما يريده المُعذب. من يعلم هل السجناء تحت تعذيب الاستخبارات الأميركية بالماء، اعترفوا بأنهم في إمكانهم الطيران للقاء الشيطان؟ ومن يدري هل انتهى الأمر بالاستخبارات بتصديقهم؟

«ذي إندبندنت»، ٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨

صليبيو «المنطقة الخضراء»

تنزهت هذا الأسبوع مع بات وأليس كاري، على طول الساحل اللبناني لرؤية بعض القلاع. بات هو بنّاء من مقاطعة ويكلو، ولديه الشجاعة الكافية ليأخذ عطلة مع زوجته في بيروت، في حين يفكر الجميع بالهرب منها. لكنني أردت أن أعرف رأيه في عمران القرن الثاني عشر، وما تقويمه لحصن من العصر الصليبي؟ إن أجمل قلاع لبنان هي أصغرها، وتحديدًا حصن صغير مهمل على حافة صخر قرب قرية البترون، حيث عليك تسلق أدراج مصقولة جيدة، لا مساند فيها لليدين، فهذا لبنان، على الجهة الأفقية من قلعة المسيلحة، ثم صعود عتبات البوابات إلى داخلها الرطب والمعتم. وهكذا تلمسنا طريقنا في الحصن، مدة نصف ساعة. وأشار بات: «لقد جعلوه منيعًا، وإلا لما كانوا هنا». «لكنك لن تجد أي شركة تقبل بإدراجه تحت أي بوليصة» تأمين. ولا بد من أنه كان باردًا جدًّا جدًّا في الشتاء». وبعد بضع دقائق، نظر إلي في انفعال وقال: «إنه مثل السجن»، وكان محقًّا. فالمنظر الوحيد للعالم الخارجي، كان عبر فتحات رماة الأسهم في الجدران. كان الظلام مخيّمًا في الداخل، وقد حُجب العالم المنير في الخارج وراء دفاعات القلعة. وأمكنتني رؤية النهر المتدفق إلى جنوب القلعة، والجبال تمتد في الأفق البعيد. كان هذا كل ما في وسع المدافعين - صليبيين أم مماليك - رؤيته. لقد كان الصلة الوحيدة بالأرض التي احتلوها.

يوجد في طرابلس أكبر حصن في لبنان، قلعة سان جيل (صنجيل) المهولة، التي لا تزال تهيمن برهبتها فوق مرفأ المدينة بمآذنه الرقيقة وعدد كبير من الأكواخ الإسمنت. ظهر ثقبا قذيفة - تذكاران من الحرب الأهلية اللبنانية بين ١٩٧٥ و١٩٩٠ - على الجدار، لكنَّ داخل القلعة ثمة عالمًا في حد ذاته،

من الإسطبلات وقاعات الطعام والدهاليز. كان فارغًا - لقد هرب جميع السياح تقريبًا من لبنان -، وشعرنا العزلة الخانقة في هذا المكان الرهيب.

كان بات متضلّعًا من قلاع الصليبيين. «عندما تعرضوا لحصار، كانت الطريقة الوحيدة للدخول إليهم، هي بدفع جذوع الأشجار تحت الأساسات وإشعالها. عندما تتحول رمادًا تكون قد هوت الجدران. لم يسكب المدافعون الزيت المغلي من الفتحات الدفاعية، بل رموا الرمل على المهاجمين، فكان الرمل يتغلغل داخل دروعهم. ويبدأ بإحراقهم، حتى يمنعهم الألم الشديد من القتال. لكن الوضع هنا في طرابلس مماثل للقلعة الصغيرة، إذ بالكاد يمكنك أن ترى المدينة عبر فتحات السهم. إنه سجن آخر، لكنه أكبر».

وهكذا، جلست على الأرضية الحجر الباردة محدّقًا من فتحة، وأمكنني فعلًا رؤية مئذنة واحدة ومساحة صغيرة من شارع. كنت في ظلام، مثلما كان الصليبيون الذين بنوا هذه القلعة في الظلام. حقًّا، لقد أمضى ريموند دو سان جيل سنوات محاصرًا المدينة، محدقًا في غضب من علياء حاميته العظيمة المبنية على «جبل الحجاج»، بتجار طرابلس الأقوياء الذين كانوا يتزودون في استمرار من السفن الوافدة من مصر. مات رايموند في القلعة، مواجهًا المدينة التي حلم بالسيطرة عليها، لكنه لم يعش طويلًا حتى يدخلها. وبالطبع، بعيدًا من جهة الشرق، في بلاد ما بين النهرين العريقة [العراق]، تنتصب اليوم حصون قوية - وإن كانت أقل جمالًا - لتحمي جيش احتلال آخر. فقلاع الأميركيين مصنوعة من الإسمنت المضغوط والفولاذ، لكنها تخدم الغاية نفسها وتحكم على من بنوها بالعيش في سجون.

يمكن السلطات الأميركية والأقمار الصناعية العراقية في «المنطقة الخضراء» في مركز بغداد، رؤية بعض من المدينة والبلاد التي يدعون حكمها. وهم إذ ينامون حول قصر صدام حسين الجمهوري الكئيب، يمكنهم التحديق بالجدار الأمني حول منطقتهم داخل الأسوار، أو عبر مناظير رشاشاتهم الأوتوماتيكية،

لكن هذا أقصى ما سيراه معظمهم من العراق. فنهر دجلة يكاد يكون مختفيًا، كذلك الجدول المتدفق قرب قلعة المسيلحة. وترسل السفارة البريطانية داخل المنطقة الخضراء دبلوماسييها عبر مطار بغداد، ثم تنقلهم عبر الحوامات إلى الحصن، وهناك يقبعون حتى يستدعوا إلى لندن. بالفعل، لقد استخدم الصليبيون في لبنان - بأسمائهم الرنانة مثل تانكريد وبيمند وبالدوين - نظام سيطرة يشبه إلى درجة مدهشة المارينز الأميركي والقوات الجوية ٨٢. لقد بنوا قلاعهم على بعد مسيرة يوم بعضهم من بعض على ظهر الخيول - أو في متن مركب يجوب ساحل لبنان - مغامرين بالخروج فقط للتنقل بين حامياتهم.

ثم أتى من الشرق، من سورية ومن خليفة بغداد ومن بلاد فارس «الحشاشون»، «القتلة» - عاد الصليبيون بهذه التسمية إلى أوروبا - الذين حولوا العقيدة الشيعية مذهبًا متطرفًا، عادّين اغتيال خصومهم السياسيين فريضة دينية. وكل من يشك في صلة هؤلاء «المقاتلين الأجانب» بالعراق الآن، عليه قراءة تاريخ طرابلس القديمة - من تأليف تلك المؤرخة اللبنانية اللامعة، الأرمنية نينا جيديجيان - الذي يغطي حقبة «الحشاشين»، ونُشر في ذروة الحرب الأهلية اللبنانية. كتبت تقول: «يُعتقد أن الإرهابيين تعاطوا الحشيش لخلق رؤية مذهلة عن الجنة قبل الانطلاق لتأدية واجبهم المقدس ونيل الشهادة... وقد زاد وصول الصليبيين من السخط المكبوت، خالقًا مرتعًا خصبًا لنشاطاتهم».

كان من أُولى ضحايا الحشاشين كونت مونفيررات، قائد الحملة الصليبية الثالثة الذي حاصر عام ١١٩١ عكا - «سان جان دو أكر»، بالنسبة إلى المسيحيين - وقتله رجال أرسلهم زعيم «الإرهابيين» الفرس، حسن الصباح. وتعاطى الحشاشون مع جيش صلاح الدين المسلم بالاحتقار نفسه - وحاولوا اغتيال صلاح الدين مرتين - وخلال مئة سنة، كانوا أنشأوا قلاعهم الخاصة حول طرابلس. لقد بنوا «قلعة رئيسة» منها - وأنا أستشهد بجغرافي عربي من القرن الثالث عشر - «أرسل المختارون من الحشاشين إلى كل الأصقاع والبلاد لقتل الملوك وخير العباد». لذا ليس صعبًا، في الأروقة الباردة والرطبة لقلعة

سان جيل، أن نرى حماقة احتلال أميركا للعراق. لقد كانوا معزولين عن الشعب الذي حموه، محشورين في حصونهم، عرضة لهجوم دائم من «المقاتلين الأجانب». ولهذا، دُمِّرت أحلام الصليبيين.

أثناء جلوسي وراء تلك الفتحة في قلعة طرابلس، أمكنتني رؤية معنى جديد في إشارة أسامة بن لادن المستمرة إلى الأميركيين، بصفة كونهم «جيوش الصليبيين». فالحروب الصليبية تأسست بدورها على عقيدة لاهوتية وضعها محافظون جدد. كان الفرسان سيحمون مسيحيي الأرض المقدسة. كانوا «سيحررون» أورشليم - «لقد أنجزت المهمة» - وانتهى بهم الأمر بنهب ثروات المشرق، خالقين ممالك تافهة ادعوا سيطرتهم عليها، يحيون في خوف وراء دفاعاتهم الحجري. وكان خصومهم العرب في ذلك الوقت يمتلكون فعلًا سلاح دمار شامل للصليبيين، اسمه الإسلام.

قال بات بينما كنا نخرج من البوابة العملاقة في قلعة سان جيل: «يمكنك أن تفهم لماذا عجز الصليبيون عن البقاء هنا». «أشك في أنهم عرفوا أساسًا من كانوا يقاتلونهم». امتنعت عن الطلب منه مرافقتي في رحلتي المقبلة إلى بغداد، لأتمكن من الاستماع إلى الجزء الثاني من حكمة البنّاء.

«ذي إندبندنت»، **٢** نيسان/أبريل **٢٠٠٥**

جنة في الجحيم

خلال الحرب الأهلية بين ١٩٧٥ - ١٩٩٠، انتشرت نكتة صاخبة على طرفي جبهة القتال في بيروت. كانت هذه النكتة القديمة تقول إن الله خلق لبنان وجعله أجمل بلد على وجه الأرض. لكنه كان يشبه الجنة، ما أثار غيرة الله، فخلق الشعب اللبناني فيه. لكن اللبنانيين، على رغم ما هم فيه من عذاب ودمار، ظلوا يعتنون بشجر الأرز لديهم ويزرعون الكرمة والقمح وبساتين التفاح والياسمين. على شرفة منزلي في بيروت حتى، ثمة شقائق النعمان وعريشة السجاد وشجرتا بلح بائستان. أذكر أنني أردت الشعور بدفء النباتات، لكنني لم أهتم جديًّا بها لأن القذائف كانت تتساقط على شقتي في استمرار، ولم أكن واثقًا فعلًا هل تنجو هي، أو حتى أنا.

منذ صيفين حارقين مضيا في بغداد، فعلت الأمر نفسه، وعبرت الشوارع الخطيرة نحو حديقة سوق فيها الينابيع والورود الزهر، ويديرها جندي عراقي سابق ممن شاهدوا جثث الأكراد المتعفنة في حلبجة بعد قصفها بالغاز. اشتريت نبتتين بعلو ثلاثة أقدام ووضعتها بطريقة احتفالية على شرفة «ذي إندبندنت» في فندق الحمراء كتكريم كئيب لزهوري في بيروت، والمطل الخيالي على بحر المتوسط، الذي يحتل مكانه في الواقع مجمع سكني شرير متشقق. كانت النباتات تستهلك ليترات من المياه القذرة يوميًّا، لكن زملائي الذي خلفوني تركوها تموت، مثلما كانت بغداد تموت. ومن يمكنه أن يلومهم؟ إن الورود في زمن الحرب وقاحة جميلة، إنها جنة وسط المأساة، محاولة لخلق الفردوس في الجحيم.

لكننا هذا الشهر ذهبنا من جديد إلى محل إكزوتيكا في بيروت لتجديد أزهار الشرفة، بينما كان لبنان في خضم أحدث أزماته وأخطرها. وأعدت غرس

عريشة السجادة القديمة التي لم تعد مزهرة. وحلت محلها ثلاث أخريات، متألقة بألوان البرتقالي والقرمزي والزهري . ثمة الآن القرنفل الأفريقي والفل على الشرفة. والسبب؟ هو مصادفة مذهلة: كانت الحزمة البريدية الأخيرة من «ذا إندبندنت» تحتوي عددًا من «لندن ريفيو أوف بوكس» الصادر في **٢٦** نيسان/ أبريل. جلست أطالعه على شرفتنا المزهرة من جديد، كان ثمة تحليل كتبه بريان ديلن لكتاب كينيث هيلفاند «ديفانيانت غاردنز: مايكينغ غاردنز إن وارتايم» (الحدائق المتمردة: زرع الحدائق في زمن الحرب). سأشتريه بالطبع. فقد جذبتني الفقرات المقتبسة منه . لقد اكتشف هيلفاند أن رجال القوات الفرنسية والبريطانية في خنادق الحرب العالمية الأولى، زرعوا حدائق مصغرة.

نشرت «ذا إلاسترايتد لندن نيوز» في أيار/مايو عام ١٩١٥، صورة بحجم صفحة كاملة عنوانها «الجمال وسط الحرب». وكتب ديلن قائلًا:

لقد سُمّرت لوحة كتب عليها «شارع ريجنت» إلى شجرة متفحمة، ووقف أمامها جنديان يعتنيان بمصطبة من زهور الدفلى. وتُظهر صورة التقطت في هضاب يبريس الشتاء السابق، جنديًا من كتيبة لندن البندقية يتحضّر للصورة واقفًا في ما يشبه نسخة عن حديقة كوخ إنكليزية».

يبدو جليًا أن الحدائق المثالية وُجدت فعلًا، ويسميها ديلن «صفًّا غريبًا من الأصص المزروعة في عناية على طول الجبهة».

وبدأت أتساءل وأنا أقرأ هذا، هل تخفف الزهور من وطأة الحرب علينا. ألم تكن أغنية «زهور بيكاردي» أغنية في زمن الحرب؟ ألم نزل نخلد الزهور الحمر الدموية في حقول فلاندرز؟ ألم يسخر غرايسي فيلدز من الغارات النازية، بزرع «أكبر نبتة دريقة في العالم؟ أوَلم يطلق البريطانيون الاسم الحركي الكئيب «عملية حديقة السوق» على مدينة أرنم؟

بالطبع، حصد البريطانيون في زمن الحرب حدائق السوق للحصول على الطعام لا الزهور. ولعله صحيح ما اقترحه ديلن: الحديقة في زمن الحرب هي

رمز لليأس، بمقدار ما هي غذاء لروح الإنسان. ويسجل كتاب هيلفاند كيف كان يهود غيتوات وارسو - بعد زمن طويل من منعهم دخول الحدائق العامة - يرون من نافذاتهم «فتيات صغيرات حاملات باقات من الليلك، يمشين على الجانب المخصص لـ «الآريين» من الشارع». وسجلت ماري بيرغ في الغيتو عام ١٩٤١، كيف كان في إمكانها «اشتمام أريج البراعم المتفتحة الرقيق. ولكن لا ربيع في الغيتو». وما من دلالة رمزية إلى انهيار أميركا في العراق أعمق من قصة الضابط الأميركي بروك تيرنر في قاعدة عسكرية شمال بغداد، وهو يشذب بمقص قطعة معشبة أصغر لا تتجاوز المتر عرضًا والمترين طولًا؟ كان تيرنر يتصرف مدفوعًا بحنينه إلى عشب مسقط رأسه أوريغون، لكنها كانت «منطقة مزروعة صناعيًّا»، يهددها من الداخل عدو شرس من قوات النمل المتمردة.

كان من ألهمني لوضع النباتات على شرفتي، هو مالك المبنى الذي أقطنه، وهو مصطفى الذي زرع أشجار تين وزيتون وشتلات ورد في باحة فارغة مجاورة لنا دمرتها قذيفة (ودفن الفلسطينيون لاحقًا بضعة صواريخ على بعد أمتار منها). يغطي الآن موقف سيارات كئيب مشتل مصطفى الصغير، لكنه التزم واجبه وأنقذ معظم أزهاره التي تتدلى الآن من ٢٤ صندوقًا أبيض على الحافة الأمامية من منزله. وفي النهاية، ألم يكن الراحل ريزارد كابوشينسكي في كتابه الرائع عن الشاه، من أدرك سبب صنع الإيرانيين سجادًا بهذه الروعة؟ لقد حاكوا صورًا للطيور ولونوا أجنحتها بأبهى الألوان، راسمين الشجر على الحرير والأنهار وأغصانًا تعلوها البراعم. لقد كانوا يطرحون سجاداتهم على الأرض خالقين حديقة في الصحراء.

يحلق الآن جيش من عصافير الحب فوق حديقة مصطفى، ويختبئ في شجرِ النخيل على الكورنيش. لكن ثمة عصفورًا لجوجًا مزعج الصوت، يوقظنا جميعًا قبل طلوع الفجر كل صباح. وهو يزعق «زيق زيق زيق»، بتكرار رتيب ونشاز من دون انقطاع. حتى دوي القذائف كان أكثر موسيقية منه، أو «جوقة» ويلفريد أوين في القصف المدفعي. كان مصطفى طوال أشهر يخرج مرتديًا

بيجامته ورداء نومه، ويهجم على الشارع بما في جعبته من الحجارة، فيرميها على الأشجار، محاولًا ضرب العصفور التاعس الذي حرمنا النوم. وكان يخطئ دومًا، حتى استسلم في نهاية المطاف. والآن، تشارك ذرية هذا العصفور في جوقة النشاز ذاتها الساعة ٤,٣٠ صباحًا. لا يمكننا فعل شيء. لقد انتصرت الطبيعة على الإنسان.

«ذي إندبندنت»، ١٢ أيار/مايو ٢٠٠٧

«يصبح بوش متنبئًا وقت نومه»

سايمون هيرش هو رجل نكد صعب المراس، ولا يتحمّل الحمقى أبدًا. ولأنه الرجل الذي أماط اللثام عن قصة ماي لاي وفظاعات أبي غريب، أعتقد أن من حقه أن يكون نكدًا من حين إلى آخر، وصعب المراس أيضًا. فهو يتعامل مع أشخاص نافذين في واشنطن، بينهم واحد - جورج و. بوش - يود القضاء عليه. وعندما كتب هيرش - كما فعل في «نيويوركر» هذا الشهر - أن «الجيش الأميركي اليوم وأمس والمسؤولين الاستخباراتيين»، قالوا إن بوش لديه لائحة أهداف لمنع إيران من الحصول على الأسلحة النووية. وإن «أقصى أهداف» بوش في المواجهة النووية مع إيران هو تغيير نظامها - مجددًا! - يمكنكم عند ذاك أن تروا سبب قلق بوش الذي وصف قصة هيرش بأنها «متطرفة»، ما يعني أن فيها شيئًا من الصحة.

لهذا، توقعت ردًّا جافًّا عندما حاصرت هيرش في جامعة كولومبيا في نيويورك وأعطيته ورقة خلال محاضرة تشارلز غلاس، طالبًا مقابلة معه. «كل ما تطلبه»، كتب مجيبًا على قطعة الورق. أما محاضرته هو فكانت مخيفة. لدى بوش رؤية مسيحية، وينوي دخول التاريخ (من بابه الخلفي) بصفة كونه الرجل الذي «أنقذ» إيران. «لذا، نحن في أزمة أميركية حقيقية... لقد شهدنا انهيار الكونغرس، وانهيار الجيش. والخبر المفرح هو أننا عندما سنستيقظ غدًا سنكون اقتربنا يومًا إضافيًا من نهايته [بوش]. لكن هذا هو الخبر المفرح الوحيد».

وقد قال هيرش إننا سنشهد «انهيار» الإعلام في الولايات المتحدة، والتفكك الكلي للمدرسة الصحافية التي أسسها كل من إيد مورو، هاوارد ك. سميث، دانيال إيلسبيرغ، كارل بيرنستين، وبوب ودوارد. إن هيرش الرمادي

الشعر ذا النظارات الذي يكثر من الشتائم، هو ما بقي لنا لإخافة أقوى رجل في العالم (فضلًا عن إهانات مورين دود في «نيويورك تايمز»).

لذا، من الجيد أن نعلم أنه ما زال يحارب مع صحافيين آخرين على لائحة أهدافه. قال: «أعرف بعض الجنرالات الجديين. ولكن لا يمكنني حثهم على الظهور علانية. إذ ستهاجمهم [قناة] «فوكس»، و[نيويورك] «تايمز» وستخلع «واشنطن بوست» رقبتهم. إنها آلة ضخمة. فأنت لا تُكافَأ في غرفة الأخبار لأنك متمرد». إن الصحافيين في صحف التيار العام هم متخرجو جامعات من الطبقة الوسطى، وليسوا مراسلين قطعوا الطريق الشاق نحو النجاح، مثل هيرش الذي عمل مراسلًا في شوارع شيكاغو في بداياته. فأغلبهم لا يملك صلات بمجتمعات المهاجرين. «إنهم لا يعلمون معنى أن تحيا على المعونة الاجتماعية. لم تشارك عائلاتهم في فيتنام، ولا تشارك الآن في العراق». حتى شبكة «بي بي سي» ضلت طريقها».

«ذي إندبندنت»، ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٧

ما هي مدرسة هيرش الصحافية إذًا؟

«في عملي، أحصل على المعلومات، وأتحقق منها، وأجد أنها خاطئة. هذا جوهر عملي. والآن ثمة أمور في الجيش بسبب أشخاص لا أعرفهم - لا أتطرق إلى الموضوع -... كنت أقابل [الرئيس] بشار [الأسد] في الوقت الذي اغتيل فيه [رئيس الحكومة اللبنانية السابق رفيق الحريري]. وكانت واضحة العداوة الشديدة بين بشار والحريري. كان يقول إن الحريري أراد السيطرة على شركات الخلوي في دمشق. ما زلت أجهل ما حدث حتى اليوم. لقد قابلت بشار من الساعة ١١ صباحًا حتى الأولى بعد الظهر [يوم ١٤ شباط/فبراير ٢٠٠٥]. ووصف الحريري بأنه لص كبير. لم أكتب عن هذا».

قلت في نفسي: ها قد ضاع سبق صحافي عن عداوتهما الشديدة. لكن موضوع إيران أمر مختلف تمامًا بالنسبة إلى هيرش. لقد كان يتحدث مع مصدر له: «ذكرت له موضوع إيران أجاب: الأمر سيئ جدًا. عليك التحقق منه. يمكنك السفر إلى فيينا لتعرف مدى بعدهم [الإيرانيين] عنه [إنتاج الأسلحة النووية]. ثم أخبرني أنهم يواجهون صعوبات مع بوش في حمله على التراجع عن الخيار النووي. لا يريد الناس التحدث علانية. يريدون أن يقع كل الهراء على رأسي».

وكما قال هيرش في تقريره في «نيويوركر»، يراجع المخططون النوويون روتينيًا خياراتهم - ويستشهد بما قاله أحدهم: «نتحدث عن الغيمة النووية، الإشعاعات، الضحايا الهائلة، وتلوث لمدة سنوات» - لكن ما إن يحاول المخططون معارضة هذه الأمور كلها، حتى يتم إسكاتهم بالقوة. قال البيت الأبيض - وفق ضابط استخبارات آخر استشهد به هيرش- «لمَ ترفضون هذا؟ أنتم قدمتم الخيار». بعبارة أخرى، ما إن يضع المخططون الخيارات روتينيًا

على الطاولة، حتى تصبح هذه الخيارات احتمالات تُدرس بدلًا من أن تكون مجرد تقارير تقنية.

يتابع هيرش: «خطاب جونز هوبكينز ذاك» - مشيرًا إلى الخطاب الذي هاجم فيه بوش مقالة هيرش - «لقد تحدث عن التقدم الرائع في العراق. هذا هذيان، ثمة أشخاص رفيعو المستوى في البنتاغون عاجزون عن حمل الرئيس على التخلي عن هذا، لأنه وضع مجنون. قد تجد بعض الآراء المجنونة في المملكة المتحدة، لكنك تعلم أنها مجنونة. إلا أن هذه الجماعة [في واشنطن] تتحدث عن الرؤية النبوءة. يصبح بوش متنبئًا وقت نومه: عليه أخذ قيلولة. إنه اسلوب صبياني وشديد السذاجة. ولا تظن أنه خفف وتيرته. ما زالت لديه سنتان... ولم تخف وتيرته بعد. والكونغرس لدينا لا يزال عاجزًا عن التفوه بكلمة معارضة. في هذه القصة أتمنى، من صميم قلبي، أن أكون مخطئًا في كل نقطة مهمة فيها».

لقد سلّط هيرش عينه الحكيمة على البريطانيين أيضًا. «إن بلادك قلقة جدًا مما سيفعله بوش. جماعتك» - يعني هيرش مكتب الخارجية - «قلقة جدًا. لا استئذان... لا استشارات». أما في واشنطن، «فإن الدفاع عن الإنسانية والسلام والنزاهة، لا قيمة له في تركيبة السلطة. إن حكومتي عاجزة عن الخروج [من العراق]. فهم لا يعرفون كيف يخرجون من بغداد. لا يمكننا الانسحاب. ستكون نهاية هذه الحرب فوضوية جدًا جدًا، لأننا لا نعرف كيف سنخرج. سنخرج جثة وراء جثة. وأظن أن هذا يملأني رعبًا». لقد عبر أحد مصادر هيرش في البنتاغون عن هذا كله في بلاغة: «المشكلة أن الإيرانيين يدركون أن الدولة النووية وحدها ستمكّنهم من الدفاع عن أنفسهم ضد الولايات المتحدة. سيحدث أمر سيئ».

أتذكرون تلك الجملة التي قالها بوغارت في فيلم «كازابلانكا»؟ عندما سأل سام، عازف البيانو، عن الوقت في نيويورك، أجاب سام أن ساعته متوقفة،

فقال بوغارت: «أراهنك أنهم نيام في نيويورك. أراهنك أنهم نيام في جميع أنحاء أميركا»... ما عدا هيرش.

«ذي إندبندنت»، ٢٠ نيسان/أبريل ٢٠٠٦

وتكبر الأكاذيب كلما ازداد الوضع سوءًا

نشهد الآن أكبر أزماتنا منذ حدوث آخر أزمة كبيرة. هكذا، ندير حرب العراق، أو حرب العراق الثانية كما يريد منا رئيس الوزراء بلير أن نصدق. ويتم استعراض الرهائن في بزات رياضية برتقالية لتذكرنا بخليج غوانتانامو. ويطالب المختطفون بالإفراج عن النساء اللواتي يحتجزهن الأميركيون. إنهم يتحدثون عن أبي غريب. أبو غريب؟ أيذكر أحد سجن أبي غريب؟ أتذكرون تلك اللقطات القذرة؟ ولكن، لا تقلقوا. ليست هذه أميركا التي يعرفها جورج بوش، فضلًا عن أننا نعاقب الفاسدين، أليس كذلك؟ النساء؟ لم يبق منهن، سوى «طبيبة الجراثيم» و«طبيبة الجمرة الخبيثة». لكن العرب لا ينسون بهذه السهولة. كانت سيدة لبنانية، سامية ملكي، أول من فهم المعنى الرمزي الصحيح لصور أبي غريب بالنسبة إلى العالم العربي. العراقي العاري، بجسده الملطخ بالبراز، وقد أُديرَ ظهره إلى الكاميرا، مادًّا يديه أمام الشقراء الأميركية المسترجلة التي تحمل عصا، لقد حملت صورته، كما كتبت تلك السيدة في كاونتربانش، «الدراما والألوان المتنافرة التي نجدها في لوحة لكارافاجيو».

إن أفضل أعمال باروك الفنية تدعو المشاهد إلى أن يكون جزءًا من العمل الفني. «أُجبر على السير في خط مستقيم، وقد ربطت قدماه، والتوى جسمه قليلًا، فمد يديه للتوازن. جسم السجين العراقي المشدود، وقد برز أكثر بسبب البُراز والإضاءة السيئة، واقفًا في وضعية المصلوب، ينزف الكرامة التي حُرمها زمنًا طويلًا. إن العربي يُعذّب بسبب خطايا العالم».

وهذا، كما أخشى، هو أقل العذابات التي حصلت في أبي غريب. فما الذي حل بكلّ أشرطة الفيديو التي سُمح لأعضاء الكونغرس بمشاهدتها سرًّا ولم يُسمح لنا - عامة الشعب - برؤيتها؟ ولماذا نسينا فجأة كل ما يتعلق بسجن أبي

غريب؟ تحدث سايمور هيرش - أحد الصحافيين القلائل في أميركا الذين تحدثوا علنًا عمّا حدث في ذلك السجن الرهيب. وأنا مدين لقارئ للقطعة التالية من محاضرة حديثة لهيرش:

لقد حدث الكثير من الفظاعات التي تجهلونها. أتفهمون ؟ ثمة أشرطة فيديو، وثمة نساء في الداخل. ربما قرأ بعضكم أنهن يهربّن رسائل إلى الخارج، للاتصال برجالهن. هذا ما يحدث في أبي غريب... كانت النساء يهربن رسائل يطلبن فيها: نرجوكم، تعالوا واقتلونا بسبب ما حدث. في اختصار، إن النساء اللواتي اعتقلن مع صبيانهن الصغار، تعرّض أطفالهن، في حالات مسجلة، للاغتصاب أمام عدسات الكاميرا. كان الأسوأ فيها تسجيلًا لصراخ طفل...

لكننا نسينا هذا منذ الآن. مثلما يحظر علينا التحدث عن أسلحة الدمار الشامل. لا أعلم هل علي أن أضحك، أم أبكي مع تكشف التفاصيل في بطء عن جهود بوش وبلير اليائسة لإيجاد خطر غير موجود. تمكنت فرق «المسح المتحرك» الأميركية، في مرحلة ما، من اقتحام مقر سابق للمخابرات العراقية في بغداد، ووجدت بابًا داخليًا مقفلًا، فظنّوا أنهم سيجدون هنا الفظاعات التي يصلّي بوش وبلير لوجودها. وما الذي عثروا عليه خلف الباب الثاني؟ معرض واسع من المكانس الكهربائية الجديدة. في مقر حزب البعث، ظن فريق آخر - يقوده الرائد كينيث ديل - أنه وجد الوثائق السرية التي ستكشف عن أسلحة الدمار الشامل لدى صدام. واتضح أن الوثائق كانت تعريبًا لكتاب أي جي بي تايلور: «ذا ستراغل فور ماستري إن يوروب» (الصراع على الهيمنة على أوروبا). لعله يجدر ببوش وبلير قراءته.

وفي حين نتابع ترنحنا نزولًا على المنحدر المتداعي الذي صنعنا رعبه بأيدينا، علينا الاستماع إلى المزيد من الأكاذيب الأكبر والأكبر. إياد علاوي، رئيس «الحكومة الدمية» الذي لا يزال لقبه «رئيس الحكومة الانتقالية» بين الكثيرين من زملائي الصحافيين - يُصرُّ على أن الانتخابات ستنعقد في كانون

الثاني/يناير على رغم أن سيطرته على العاصمة العراقية (ناهيك ببقية البلاد) أقل من سيطرة محافظ بغداد عليها -. إنه العميل السابق لدى الاستخبارات المركزية الذي وافق طوعًا على منع الإفراج عن السجينتين لحظة أمرته واشنطن بذلك، وها هو يقفز طواعية أيضًا إلى لندن، ومنها إلى واشنطن، لينهل المزيد من أكاذيب بوش وبلير.

إنها حرب العراق الثانية بالفعل. كم من التبجح الإضافي يتوقعون أن يهضم الجمهور؟ نحن نحارب في «محنة الإرهاب العالمي»، وفقًا لبلير. ماذا يمكننا أن نفهم من هذا الهراء؟ طبعًا لم يخبرنا أننا سنحظى بحرب عراق ثانية عندما ساعد على شن الأولى، هل فعل؟ ولم يخبر العراقيين بهذا؟ هل فعل؟ لا، كان علينا المجيء «لتحريرهم». هيا إذًا، نتذكر الأزمة قبل الأزمة قبل الأزمة. لنرجع إلى تشرين الثاني/نوفمبر الماضي عندما كان رئيس وزرائنا يخطب في مأدبة لورد مايور. أبلغنا حينذاك أن حرب العراق - ولعله كان لا يزال يتحدث عن الأولى - كانت «حربًا ذات أهمية مصيرية لبداية القرن الحادي والعشرين».

هذا صحيح بالتأكيد. لكن استمعوا إلى ما أخبرنا إياه أيضًا «بلير لورد كوت العمارة» عن الحرب. «إنها ستحدد العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب، وستؤثر بدرجة عميقة في تطور الدول العربية والشرق الأوسط. وستكون لها تداعيات بعيدة الأثر على مستقبل الأميركيين والدبلوماسية الغربية». هذا صحيح بالتأكيد، أليس كذلك؟ فمن الصعب التفكير في ما هو أخطر علينا، على الغرب، على الشرق الأوسط، على المسيحيين والمسلمين منذ الحرب العالمية الثانية - الحقيقية - من حرب بلير على العراق. وتذكروا أن العراق، كان سيكون النموذج للشرق الأوسط برمته. وسترغب كل دولة عربية في أن تكون مثل العراق. سيكون العراق العامل المحفز - وربما «البوتقة» - للشرق الأوسط الجديد. سنوفّر عليكم الضحكات الساخرة.

لقد صدمني في الأسابيع الأخيرة أن الكثير من رسائل القراء، أرسلها إلي رجال ونساء حاربوا في الحرب العالمية الثانية، وهم يطلبون في شدة وإلحاح،

عدم السماح لبوش وبلير أبدًا بتشبيه هذا المستنقع الموحل بالصراع الحقيقي ضد الشر الذي خاضوه منذ أكثر من نصف قرن.

كتب لي روبرت باري يقول: «أذكر، أنا ابن التسعين، رجالًا مشوهي الأجساد والعقول، ساروا في شوارع ريف وايلز التي نشأتُ فيها بعد عام ١٩١٨».

لهذا السبب، تظل قصيدة أوين: «دولتشي أي ديكوروم إيست»(*) بالنسبة إلي أقصى تعبير عن حقيقة الموت في الحرب التي زاد من فظاعتها القصف الأميركي «المركّز» والانتحاريين. نحن في حاجة إلى ويلفريد أوين جديد لينير أبصارنا وعقولنا. لكن حتى ظهور من هو مثله، يجب «منح هذه القصيدة مساحة لتتكلم من جديد».

سيصعب إيجاد دفاع فصيح عن القصص الساذجة التي يروّج لها رئيس وزرائنا. فمنذ سنين طويلة، لم يحدث شرخ كهذا بين الشعب والحكومة المنتخبة، في كل من أميركا وبريطانيا. إن ملاحظات بلير الأخيرة هي خطابات كتبها - وأستشهد بقصيدة أوين - «أطفال يتوقون إلى مجد يائس». صورة كين بيغلي المعصوب العينين، هي أحدث أزماتنا العظيمة(*). لكن دعونا لا ننسَ ما حدث قبلها.

«الإندبندنت»، ٢٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤

(*) اختطف المهندس المدني، كين بيغلي، في بغداد في ١٦ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٤. وعلى رغم تدخل المجلس الإسلامي البريطاني، أقدم خاطفوه على ذبحه في ٧ تشرين الأول/أكتوبر من العام نفسه بعدما طالبوا بإطلاق سجينات عراقيات.

أرسلوا المزيد من الشهداء

أتساءل أحيانًا هل دخلنا عصرًا جديدًا مما يسميه الفرنسيون «الطفولية». أعترف بأنني أكتب هذه الكلمات في دوائر المحاضرات في باريس حيث تنطبق هذه التسمية على كل تصريح سياسي تقريبًا، وبينها تصريحات شيراك وساركوزية ودوفيلبان... إلخ. لكن الأشخاص الذين أشير إليهم بالطبع، هم جورج و. بوش، ورئيس الوزراء بلير، والوافد الجديد إلى قاعة فيسك الطفولية: الرئيس محمود أحمدي نجاد في إيران.

بالنسبة إلى شخص مثلي كُتب عليه أن يتأمل أشلاء فلسطين وإسرائيل، والجثث المرمية في أكوام النفايات في العراق، والنساء اللواتي أُطلقت النار على رؤوسهن في مشرحات بغداد، لا يمكنني سوى أن أهزّ رأسي غير مصدق هذا الكم الرهيب من الهراء الصرف - لنسمِّ الأشياء بأسمائها - الذي يتدفق الآن من أفواه قادتنا العظام. لقد ولّى زمن تحدث العظماء والأخيار بصوت واثق، ولو كان ماكرًا، غير تافه، وعندما أدت الأكاذيب الكثيرة إلى استقالة وزارية أو اثنتين. لكن يبدو أننا نعيش اليوم في مستويين: الحقيقة والوهم.

لنبدأ بحقيقة العراق. إنها «كارثة جهنمية» - مثلما قال وينستون تشرشل عن فلسطين أواخر الأربعينات - دولة من الفوضى تمتد من الموصل حتى أربيل وصولا إلى البصرة، وحيث يسيطر الثوار المسلحون على الشوارع على بعد أقل من نصف ميل من المنطقة الخضراء في بغداد، حيث يحلم الدبلوماسيون البريطانيون والأميركيون و«حكومتهم» العراقية المنتخبة «ديموقراطيًا»، بالتفاؤل ببلد يغلي شعبه كرهًا للاحتلال الغربي. لا عجب في أنني أزداد يقينا يومًا بعد يوم، بأنني أريد الابتعاد عن الصراع.

أما بالنسبة إلى بوش، فأميركا ليست متحمسة للانسحاب من العراق، بل بعيدة كل البعد من هذا. ويقول إن الولايات المتحدة تحارب أعداء يريدون تأسيس «امبراطورية شمولية»، و«هي خطر مميت على البشرية جمعاء» وستواجهها أميركا. إن واشنطن تحارب «أشرس عدو واجهناه». لكن ماذا عن ألمانيا النازية في عهد هتلر؟ أو إيطاليا الفاشية في عهد موسوليني؟ والامبراطورية اليابانية التوسّعية التي قصفت بيرل هاربر عام ١٩٤١؟ لعل بوش و«بلير لورد كوت العمارة»، يمثلان دور روزفلت وتشرشل، أو يدعيان أن صدام هو هتلر، لكن أن يرفعا من قدر نزاعاتنا القذرة غير القانونية والمميزة بالتعذيب لتصبح أهم من الحرب العالمية الثانية - أو يجعلون أعداءنا ذوي العمامات أخطر من مجرمي الشرطة السرية النازية في أوشفيتز - فهذه بلا شك خطوة نحو الطريق إلى مستشفى المجانين.

أعلن الرئيس الأميركي المفضل لدي هذا الأسبوع: «لقد حقق العراق تقدّمًا مذهلًا»، «وفقًا لأي مقياس تاريخي». عفوًا؟ وفقًا لأي مقياس تاريخي، لقد حقق الثوار العراقيون اختراقات مذهلة لقلب الاحتلال العسكري الأميركي للعراق. ويخبرنا بوش: «لقد فقدنا خيرة رجال أمتنا ونسائها في الحرب على الإرهاب»، «إن أفضل طريقة لتكريم تضحية قواتنا التي سقطت، هي إتمام المهمة». بعبارة أخرى، سنبرهن قيمة التضحية من خلال القيام بالمزيد من التضحيات. حقًّا، إنه تفكير مماثل لتفكير بن لادن في سذاجته. هل خسرنا شهداء؟ إذًا، هيا نرسل المزيد منهم!

ثم يأتينا أحمدي نجاد، الرئيس الإيراني في أحد المؤتمرات المملة والرتيبة عن «الصهيونية» في طهران هذا الأسبوع، فيقول إن إسرائيل يجب «محوها عن الخارطة». لقد عشت كفاية لأتذكر جعجعة مماثلة قامت بها زمرة ياسر عرفات القديمة والمنهكة في بيروت أواخر السبعينات. كان خطاب أحمدي نجاد - أمام ٤٠٠٠ «طالب»، أصحاب الحضور الإجباري الذين كانوا صورة ثابتة للثورة الإيرانية - محشوًا بكل الادعاءات القديمة. «كان تأسيس طغاة العالم الدولة

الصهيونية اعتداءً على العالم الإسلامي. إن المعارك في الأرض المحتلة هي جزء من حرب المصير». وأسأل نفسي هل كان هذا الرجل السخيف كاتب نص فيلم ريدلي سكوت: «ذا كينغدوم أوف هيفن» (مملكة السماء)؟ طبعًا لا، لأن هذه الملحمة الهوليودية تشبه ملحمة هوميروس في أبعادها ومعانيها، مقارنة بخطاب أحمدي نجاد العقيم. لقد عانيت هذا النوع من الأمور خلال الثورة الإيرانية الأولى، عندما أسس آية الله الخميني حكومته الدينية في إيران. لقد أضحت رؤية بوش وأحمدي نجاد، حكومة تخدم الأموات، ويحكمها الأموات.

لكن، تمهلوا. لم نحسب حساب النظرة التشرشلية لدى اللورد بلير الذي أخبرنا الخميس: «لم أصادف قطُّ موقفًا يعلن فيه رئيس دولة رغبته في محو دولة أخرى». يا الله! ما الذي في وسعنا فعله مع هذا الرجل؟ ألم تكن روما عازمة محو قرطاجة، صحيح؟ وثمة قصة السيد هتلر الصغيرة - بعبع بلير المعتاد عندما يحدّق عبر بادية الصحراء نحو نهر دجلة - وقد أصرّ على محو بولندا، وحوّل تشيكوسلوفاكيا حامية نازية لبوهيميا ومورافيا، وسمح للأوستاش الكرواتيين بأن يسعوا إلى تدمير صربيا، وأنهى أيامه معلنًا أن دولته الألمانية نفسها يجب محوها لأن شعبها لا يستحقه.

ولكن، لنستمع الآن إلى «بلير لورد كوت العمارة» مجدّدا. «إذا استمروا [الإيرانيون] على هذا المنوال، فالسؤال الذي سيطرحه الناس هو: متى ستفعلون شيئًا حيال هذا؟ أيمكنكم تخيل دولة مثل هذه، بموقف كهذا، تمتلك أسلحة نووية؟» أجل، يمكننا تخيلها بالطبع. إنها كوريا الشمالية. عفوًا!!! لديهم بالفعل أسلحة نووية، أليس كذلك؟ لذا، سنطرح سؤالًا مختلفًا. من هم بالضبط هؤلاء «الناس» يا لورد بلير الذين يتوقعون منك «أن تفعل شيئًا»؟ ألديهم أي جامع مشترك مع ملايين الناس الذين قالوا لك ألّا تجتاح العراق؟ وإذا كان لا جامع بينهم، أيمكننا الحصول على بعض عناوينهم أو هوياتهم أو أرقام هواتفهم؟ مليون منهم على الأقل؟ أشك في هذا.

هل من نهاية لهذا؟ أخشى أنها لم تحن بعد. عثرت في أستراليا منذ بضعة أسابيع، على مسلمين في ميلبورن وأديلايد، أتحفوني بقصص تعرُّضهم للإساءة والشتائم البذيئة في الشوارع. وسيقدّم رئيس الوزراء جون هاورد قوانين جديدة للتصدي لـ«الإرهاب»، ستسمح بالاعتقال من دون محاكمة، مع توسيع نطاق قوانين «التحريض على العصيان» ليصبح استخدامها ممكنًا ضد من يعارضون تدخل أستراليا العسكري العقيم في أفغانستان والعراق (وهم من المسلمين طبعًا).

حسنًا، احسب حسابي يا جون. أعتقد أنك تعيش في بلاد عظيمة وبين شعب عظيم، لكنني أنوي أن آتي إلى أديلايد مجددًا في الربيع لأعترض على أي تدخل غربي في هذين البلدين، يشمل تدخّل دولتك. وأتشوق إلى نيل تهمة التحريض على العصيان. وأقول للورد بلير «الذي سيفعل شيئًا» ضد كوريا الشمالية: أتمنى ألّا يجد السيد بوش أعداء أسوأ من قوات فيرماخت والشرطة السرية النازية. وأتمنى في صدق، أن ينضج في السنوات المقبلة الحكام الصغّار في دولة الموت التي اسمها إيران. يا للأسف، يتمنى قادتنا، مثل بيتر بان، أن يظلّوا شبانًا إلى الأبد، وطفوليين إلى الأبد، ويلعبوا في ملاعبهم الرملية الخالية من الدماء - على حسابنا - إلى الأبد.

«ذي إندبندنت»، ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥

البساط السحري

جرّبتُ هذا الأسبوع الخطوط الجوية الجديدة بين بيروت وبغداد. إنها طائرة صغيرة أنيقة تتسع لعشرين راكبًا، لها محركا دفع، ويقودها وربان لبناني كندي. أما اسمها فيُرجعك إلى زمن سحيق: «خطوط طيران البساط السحري». صدقوني، إنها مثلما قال القائد كويغ في رواية «ذا كاين ميوتيني». لقد كُتب «البساط السحري» على بطاقات الركوب الزرق الصغيرة، وعلى باب حجرة القيادة، وفوق أغطية مقاعد الركاب، حيث صورة الطائرة تحلق في الأجواء على بساط سميك.

إنها خطوط طيران صغيرة غريبة. فعندما تصل إلى مطار بيروت بزجاجه ومعدنه الأنيق الجديد، يطلبون منك الذهاب إلى مكتب المسؤول عن تأشيرات الدخول أمام مكتب البريد في صالة الوصول. وهناك تجد مجموعة من الأميركيين المكتئبين - «مقاولون» أمضوا عطلة نهاية الأسبوع في المواخير - ورجال أعمال لبنانيين خائفين. . . وكما حزرتم: مراسل «ذي إندبندنت» الخائف مثلهم تمامًا.

مضى وقت قبل أن أدرك أن الموضوع بأكمله كان بمثابة صورة مجازية عن العراق. ينطلق المسافر من صالات الوصول في بيروت عابرًا كاشفات المعادن عند المغادرة، مارًّا بالسوق الحرة الحديثة التجهيزات ليتناول كوب «كابوتشينو»، ثم يتجه نحو بوابة المغادرة الخاصة بحجاج مكة. وفي غرفة تشبه الصندوق مطليّة بالأبيض، ينتظر المسافر باصًا أزرق صغيرًا يأتيه في نهاية المطاف من جانب المطار هادرًا لـ«ذنبه» في التأخير، ثم يمر بالقرب من مخازن شحن قُصفت خلال معارك بيروت التي يسر الجميع تناسيها، نحو أدراج الطائرة الوحيدة في أسطول البساط السحري.

بعدما صعدت الأنبوب المعدن ووصلت إلى مقعدي، أدركت أننا كنا على بعد بضع مئات من الأمتار من قاعدة المارينز الأميركي القديمة التي فجرها الانتحاريون عام ١٩٨٣، حاصدين أرواح ٢٤١ أميركيًا. أذكر كيف تغيّر الضغط الجوي في شقتي في بيروت عندما انفجرت القنبلة، وكيف وقف جورج بوش الأب، نائب الرئيس حينذاك، بعد يومين وسط الخراب ليخبرنا: «لن ندع حفنة من «الإرهابين الأشرار الجبناء» يغيرون سياسة الولايات المتحدة الخارجية». ثم قرر الرئيس ريغان في غضون شهر «إعادة نشر» المارينز الأميركي في سفنهم البعيدة عن الساحل.

تلك كانت أفكاري المتطرّفة بينما كنا نحلّق فوق الجبال اللبنانية المكسوّة بالثلوج، عابرين الحدود السورية، ثم اتجهنا شرقًا عبر صحارى سورية والعراق ذات اللون البني الداكن التي تزداد قتامة. فتحت جريدتي الصباحية ورأيت جورج بوش الابن الكريه، راسمًا ابتسامته السخيفة، وهو يخبر العالم: على رغم «بعض المشكلات الصغيرة» في «العراق»، ستُجرى الانتخابات في ٣٠ كانون الثاني/يناير كما يجب، وسيُهزم العنف، ولن يتمكن الأشرار من التقدم نحو الديموقراطية. بمعنى آخر، لن يسمح لحفنة من «الإرهابيين» الأشرار الجبناء، بتغيير سياسة الولايات المتحدة الخارجية.

طبعًا، ما إن تصل إلى ساحة تجارب بوش الجديدة والعظيمة في الديموقراطية، حتى تجد أن كل شيء يبدو مختلفًا. وجميعنا يتطلع إلى الإنتخابات المقبلة في بغداد في حماسة سكان دريسدن نفسها عندما حلّق اول أبناء لانكستر من الألب. يغص مطار بغداد بالمرتزقة المدججين بالسلاح ورجال الغيركا اللطفاء، لكن المدججين بالسلاح أيضًا. وثمة لوحة إعلانية كبيرة على مسافة ليست ببعيدة من المطار، عليها صورة ملوّنة هائلة لمخلّفات تفجير سيارة في بغداد، وتظهر في الزاوية السفلية اليمنى من الصورة، امرأة شبه عارية.

ويقول النص العربي المكتوب تحت هذه السفالة:

«يريدون تدمير بلادنا، ويهاجمون المدارس. يريد هؤلاء الكلاب أن يظل أبناؤنا في الجهل ليتمكنوا من تعليمهم الكراهية. نحن نحتاج إلى مساعدة القوات المتعددة الجنسية لنُريهم أننا مستعدون لفعل أي شيء لاسترجاع بلادنا واجتثاث القتلة والناهبين من طرقنا. فهم من يتحملون المسؤولية كاملة عن هذه الجرائم الشنيعة التي ارتُكبت في حقّ شعبنا العراقي المسالم. إن العراقيين يرفضون أن يكونوا ضحية، لأنهم شعب قوي لن يموت».

لكن، في حين يرغب العراقيون في الأمن، يتزايد بينهم من يناصرون «الكلاب»، وقلّة تريد «مساعدة القوات المتعددة الجنسية» - أي جيش السيد بوش - في بغداد والكثير من المقاطعات السُّنية التي يسيطر عليها الثوار. طبعًا، تُظهر استطلاعات الرأي راهنًا - وهي اختراع الغرب، لا الشرق - أن أغلب العراقيين يريدون فعلًا بعضًا من ديموقراطية السيد بوش. وقد أرادوا الكثير منها بالتأكيد في عهد صدام، على رغُم أننا كنا مشغولين حينذاك بدعم نظام صدام ليتمكن من اجتثاث القتلة كلهم من إيران، ناهيك بالشيوعيين العراقيين والشيعة والأكراد الذين كانوا يحاولون تدميره.

وتُظهر استطلاعات الرأي أيضًا أن أغلب العراقيين - وغالبية كاسحة في رأيي - يريدون بعض الحماية من جميع القتلة والناهبين الذين تعجز القوات المتعدّدة الجنسية، في الوقت الراهن، عن الإمساك بهم. ويريد السواد الأعظم من العراقيين، من دون شك، جوازات سفر أميركية. حقًّا لطالما اعتقدت أن الطريقة الوحيدة والأكيدة لإنهاء حرب العراق هي منح الجنسية الأميركية لجميع العراقيين، بطريقة الرومان الذين جعلوا أبناء الشعوب التي غزوها مواطنين رومانيين. ولكن، بما أن هذه الفكرة لن تروق للسيد بوش وبناة امبراطوريته، فعلى العراقيين أن يتحملوا الديموقراطية في قراهم ومدنهم ذات الكهرباء المجانية والبترول المتناقص.

لقد كان الشيعة بالطبع ينتظرون الانتخابات بصبر نافد منذ عامين تقريبًا.

وكان الحاكم الإداري الأميركي، بول بريمر، متخوّفًا من عقدها بعد الغزو بزمن قصير، عندما كان في إمكانهم السيطرة على البلاد من دون الكثير من العنف، لئلّا يتحوّل العراق حكمًا دينيًا شيعيًا. وينتظر الأكراد أيضًا وضع بصمتهم على الدويلة الجديدة في الشمال.

المشكلة هي أنّ من دون مشاركة السُنّة لن تمثّل نتائج هذه الانتخابات الشعب العراقي - على رغم أنها ستكون حرّة بعكس انتخابات صدام - مثلما لم تمثّلهم الإحصاءات التي منحت الرئيس المخلوع ٩٨,٩٦ في المئة من الأصوات. ويهدد الأميركيون الآن بـ «إضافة» بعض السنّة من اختيارهم إلى البرلمان. ونحن نعلم ما سيكون مدى تمثيلهم الفعلي للمجتمع السني الذي هو قلب الثورة على الاحتلال الأميركي.

خلاصة الموضوع أنّها ستكون فوضى هائلة، سنتأملها بعد انتخابات ٣٠ كانون الثاني/يناير(*). وقد بدأت منذ الآن شرارات النار بالاشتعال، ولكن، لا تخافوا، فسيُخبرنا بوش وبلير أنهما عرفا أن الوضع سيُصبح عنيفًا يوم الانتخابات - وهذا يجعل كل شيء مقبولًا، صح؟ - وإذا ازداد العنف سوءًا، فسيثبت هذا مدى نجاح الانتخابات لأنها أغضبت القتلة والناهبين و«الكلاب». إن حفنة من الإرهابيين الأشرار الجبناء لن يغيّروا سياسة الولايات المتحدة الخارجية. حسنًا، سنرى. في هذه الأثناء، أنا أتفقد جدول الرحلة لأرى هل في وسع بساطي السحري إرجاعي إلى بيروت بعد ٣٠ كانون الثاني/يناير.

«ذي إندبندنت»، ١٥ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٥

(*) فازت الأحزاب الشيعية الرئيسة في انتخابات الجمعية الوطنية العراقية بمئة وأربعين مقعدًا من أصل مئتين وخمسة وسبعين، وفاز التكتل الكردي بخمسة وسبعين مقعدًا فيما فازت المجموعات العلمانية التي تدعمها الولايات المتحدة بأربعين مقعدًا فقط.

يجب أن يستمر الاستعراض

إن هذا الوضع يدفع بالمرء إلى الصراخ. كنتُ، طوال الأسبوع، أقود سيارتي عبر شوارع بغداد المظلمة والخطيرة - الحامية كفرن - والتي ازداد انتشار الثوار ومخبريهم فيها، بينما تنطلق القوات الأميركية بهلع بين جزر الازدحام، شاهرة أسلحتها في اتجاه كل من يقترب ضمن نطاق ٥٠ مترًا منها. وكان الأكراد والشيعة يمزقون العراق إربًا داخل قصر صدام حسين الجمهوري القديم المنعزل كمكوك فضاء، رافضين توقيع الدستور إلا إذا أعطاهم الولايات - والثروة النفطية - التي أرادوها. لقد فوّتوا المهلة النهائية، على رغم أنني لم أجد من يأبه بها داخل بغداد «الحقيقية»، أو خارج حصون المنطقة الخضراء. ذاك المساء، أشعلت تلفازي لأسمع الرئيس بوش يمدح «شجاعة» المتفاوضين على الدستور، ووعد بوش شخصيًا بأنهم سيلتزمون المهلة النهائية.

شجاعة؟ أشجاعة إذًا، الجلوس في كبسولة زمنية بعيدًا من شعبك خلف أميال من الجدران الاسمنت والمجادلة في مستقبل أمة تعيث الفوضى في أرجائها؟ عندها تظهر كوندوليزا رايس لتخبرنا أن هذا كله جزء من «طريق الديموقراطية» في الشرق الأوسط.

لقد عدتُ مجددًا إلى الشوارع، وأنا هذه المرة في محطة باصات النهضة - تحمل كلمة «نهضة» معنى ساخرًا في وضع كهذا - ومن حولي حطام لتفجير آخر. سيارات الشرطة المحطمة والباصات المحترقة والمسحوقة تمامًا (مع جميع ركابها طبعًا) نسوة يصرخن غاضبات، أطفال أُخذوا إلى مستشفى الكندي، وهم ملفوفون بالضمادات، فاستقبلهم تفجير قنبلة أخرى. وفي تلك الليلة، قلّبت محطات التلفاز ووجدت القادة العسكريين المحليين في مدينة الصدر في بغداد - بالقرب من محطة الباص - يعلّقون في حبور قائلين إن المواطنين على رغم

غضبهم الشديد، يدعمون قوات الأمن «المحلية» (أي الأميركيين) ويقدمون إليها المساعدة أكثر من ذي قبل، وأننا - استعدوا للمفاجأة - «في طريق الديموقراطية».

أتساءل أحيانًا هل تأتي لحظة يتصادم فعلًا الوهم والحقيقة والأكاذيب. متى سيأتي الانفجار؟ هل عندما ينسف الثوار القاعدة العسكرية الأميركية برمتها، أم عندما يتدفقون فوق جدران المنطقة الخضراء، ويحولونها مربعات سكنية مدمّرة مثل بقية أحياء بغداد. أو هل يقولون لنا - كما فعلوا في الماضي - إن هذا يُظهر «يأس» الثائرين فحسب، وإن هذه الأفعال الشنيعة (تفجير محطة الباص على سبيل المثال) مجرد إثبات أن «الإرهابيين» يعلمون أنهم يخسرون؟

يمر، في الازدحام، صبي بالقرب من سيارتي محاولًا بيعي مجلة. وجه صدام - من جديد - على الغلاف، وعلى الصفحات الأولى وجه الديكتاتور السابق المرهق بشاربيه الكثيفين. هذا تذكير جديد للناس في بغداد، بحسن حظهم لتخلصهم من الطاغية. سيمثُل صدام أمام المحكمة الشهر المقبل، شهرين، قبل نهاية العام. حانت وولت ست مهل نهائية - مثل الكثير من المهل في العراق - لمحاكمة هذا العجوز المخيف. ولكن، يجب الحفاظ على دهشة الناس ورعبهم من صورة صدام. لعلّك تتصبّب عرقًا في منزلك المقطوعة عنه الكهرباء، أو ربما نفدت الخُضر الطازجة لديك، لأن برادك ساخن، أو ربما تقف في الطابور لساعات لشراء الوقود، أو تتعرض لتهديدات مستمرة بالموت والسطو المسلح، أو تعاني مدينتك ١١٠٠ ميتة عنيفة في تموز/ يوليو وحده (هذا كله صحيح)، ولكن، كي تنسى هذه الأمور قليلًا، تذكّر أن صدام سيُحاكَم.

لم أقابل أحدًا في العراق يأبه لصدام بعد الآن، ما عدا من خسر أحباءه على أيدي زبانيته. إنه رجل من الماضي. وإعادة نبش هذا الوحش إهانة لشعب بغداد الذي تتجاوز مخاوفه وقلقه وحداده أي معونة أو مسرحية يقدمها الأميركيون للتخفيف عنهم. ولكن في أرجاء العالم - كلما ابتعدنا من العراق،

ازدادا صدقية - سيكرر جورج بوش وطوني بلير زعمهما أنهما رسّخا أسس الديموقراطية في العراق، وأطاحا الطاغية صدام، وأن مستقبلًا عظيمًا ينتظر البلاد، والاستثمارات الجديدة يتم التخطيط لها في المؤتمرات الدولية (وتُعقد بعيدًا جدًا من العراق طبعًا) وسيقولون إن التفجيرات المقبلة في أوروبا، كالتفجيرات الأخيرة، لن يكون لها أي علاقة إطلاقًا بالعراق. يجب أن يستمر الاستعراض، وأعلم يقينًا أنني عندما أعود إلى بيروت أو أسافر إلى أوروبا، لن يبدو العراق في صورة سيئة جدًا. وستبدو المهاترات المجنونة منطقية جدًا وستبتسم قطة شيشاير لي من الشجرة.

الديموقراطية ثم الديموقراطية ثم الديموقراطية. لنأخذ مصر مثلًا، سيسمح الرئيس مبارك لخصومه بالظهور في الانتخابات المقبلة. ويلفت بوش الأنظار إلى هذا كدليل آخر إلى الديموقراطية في الشرق الأوسط. لكن، على خصوم مبارك أن ينالوا موافقة أعضاء حزبه في البرلمان، ولا يزال حزب الإخوان المسلمين - الذي يجب أن يكون أكبر حزب في البلاد - غير شرعي رسميًا. جلست في بغداد أشاهد بداية مؤتمر مبارك الحزبي الممسوخ الذي طلب فيه دعمًا. من سيربح الإنتخابات «الديموقراطية»؟ سأجازف وأقول: صديقنا القديم مبارك. وأراهنكم أنه سيحظى بأكثر من ٨٠ في المئة من الأصوات. ابقوا معنا(*).

وطبعًا، شاهدت من عشّي الصغير في بغداد إخراج المستوطنين الإسرائيليين من مستوطناتهم غير الشرعية في قطاع غزة. لا تظهر كلمة «غير شرعية» على شاشة «بي بي سي». وطبعًا، لم يقل أحد إن المستوطنين - المستعمرين بالأحرى - لم يكونوا يُطردون من أرضهم، بل من أرض أخذوها أساسًا من أصحابها. ولا يهتم أحد باستمرار بناء المستعمرات غير القانونية داخل الضفة

(*) في الحقيقة، حاز مبارك ٨٨٪ من الأصوات في انتخابات العام ٢٠٠٥، وأقل من ٨٠٪ من الأصوات في انتخابات البرلمان في العام نفسه.

الغربية، ما سيجعل قيام دولة فلسطينية «قابلة للحياة» (تعبير بلير المفضل) مستحيلًا في النهاية. في غزة، انتظر الجميع أن يفتح المستوطنون والجنود الإسرائيليون النار بعضهم على بعض. وعندما أطلق مستوطن النار فعلًا، قتل أربعة عمال فلسطينيين في الضفة الغربية. مرّت القصة خلال التغطية التلفزيونية كأنها سحابة سوداء محرجة، وطواها النسيان؛ تم تفكيك المستوطنات؛ الجلاء عن غزة. سيتحقق السلام في زمننا.

ولكن في بغداد، يبقى العراقيون الذين تحدثت إليهم غير مقتنعين. وسأظل أحترم إلى الأبد من يعيشون في جحيم العراق اهتمامهم بالفلسطينيين، وفهمهم ما يحدث في الشرق الأوسط، وعدم انخداعهم بالتفاهات التي يروّج لها جورج بوش و«بلير لورد كوت العمارة». سألني صديق عراقي هذا الأسبوع: «ما هي «أيديولوجيا الشر» هذه التي يظل بلير يتحدث عنها؟». «ما ستكون بدعته الجديدة؟ متى سيصحو؟».

لمَا استطعت أن أجيب بأفضل من هذا.

«ذي إندبندنت»، ٢٠ آب/أغسطس ٢٠٠٥

«لقد قتله العدو» لكن الأمور على ما يرام في العراق

نرى الأمور مسلّمًا بها، أو كما كان يقول صديقي العزيز: «هذا هو الواقع». أجلس في مطار بغداد أنتظر طائرة «البساط السحري» الصغيرة التي ستُرجعني إلى بيروت، لكن مدير المحطة المحلي العراقي، السيد غزوان، لم يظهر كعادته. ومن دونه لا يمكنني دخول منطقة المغادرة، أو تسلّم حقائبي.

كان هنا في كانون الثاني/يناير الماضي ليخبرني أنه لن ينسى العبور بي عبر الأمن، وتحدث إلى ضابط عراقي يشبهه إلى حد كبير، طالبًا منه الاعتناء بي. كان غزوان يتحدث الإنكليزية في شكل سليم، لكن بحذر، وكان يضحك من نفسه عندما يرتكب خطأً في نطقها. لذا اتصلت بهاتف غزوان فرد علي رجل عجوز. قلت له إنني أريد التحدث إلى غزوان. «لماذا؟»، «لأنني أريد أن أعلم متى سيكون في المطار». ثمة صوت يشبه النحيب على الطرف الآخر من المحادثة. «لقد قُتل». جلست على مقعدي البلاستيك في المطار، عاجزًا عن النطق. «ماذا؟ ماذا تعني»؟ قال العجوز: «لقد قتله العدو»، ثم سمعت أحدًا يأخذ الهاتف منه.

أتحدث الآن إلى امرأة شابة تتقن الإنكليزية. «من أنت؟». أنا راكب، إنكليزي. بدأت أعتذر لأنني لم أعلم أن غزوان قُتل. حتى وكلاء السفريات في بيروت لا يزالون يضعون اسمه على أنه صلتهم في بغداد. غمغمت الشابة - زوجته، أرملته الشابة بالأحرى - شيئًا ما عن قتله في طريقه إلى المطار. سألتُها متى حدث هذا، أجابت: «في ١٤ آذار/مارس». لقد رأيته قبل خمسة أسابيع بالضبط من وفاته. واتضحت القصة. كان شقيقه حارس أمن في المطار، ولعله الضابط الذي يشبهه ورأيته في شباط/فبراير. كان الرجلان يغادران منزلهما معًا إلى العمل بالسيارة نفسها عندما أطلق مسلحون النار على شقيقه فقتلوه، وتوفي

غزوان مع أول رشق للرصاص. اعتذرت مجددًا وأعربت لها عن مدى أسفي. فشكرتني المرأة الشابة وانتهى الاتصال.

نرى الأمور مسلَّمًا بها. عدت إلى بيروت، وشاهدت البابا الجديد يزور ألمانيا مسقط رأسه، ويقابل الجالية اليهودية في كولون، ويتحدث عن شر المحرقة اليهودية - عليه فعل ذلك - ويتكلم بعطف على إسرائيل. لمَ لا؟ ثم يعقد لقاءً مع الجالية الإسلامية، فأرى أفرادها على الشاشة، خافضين رؤوسهم قليلًا بينما تختلس أعينهم النظر إلى الكاميرات. يعظهم البابا عن شرور «الإرهاب». يبدو كل شيء منطقيًا.

ثم نهضت. لم يذكر في خطابه الأول ولا حتى كلمة واحدة عن الاحتلال الإسرائيلي للضفة الغربية، وتوسع المستوطنات على أراضي الغير، مخالفة كل القوانين الدولية. أما المسلمون فعلينا تذكيرهم بخطاياهم، وبواجبهم في استئصال «الإرهاب»، ووعظهم بالاعتدال في كل الأحوال، والقضاء على خطر الانتحاريين. وفجأة، وجدت نفسي مصعوقًا من سوء تقدير البابا. لكنني أدرك في خجل أنني تماشيت معه. ألم تكن مهمة البابا الاعتذار من يهود أوروبا. أوَلم تكن مهمته تحذير مسلمي القارة العجوز؟

هكذا، نقف جميعنا في الصف نفسه. أجل، عليه الاعتذار عن المحرقة، حتى نهاية الزمن. ولكن، ألم يكن حريًا بقداسته - هو مدفعي المضادات سابقًا - الاعتذار من المسلمين على غزو العراق الدموي والكارثي. لا ، لا، طبعًا لا يوجد أي تشابه في مدى الشر أو التأثير... إلخ، ولكن كان في إمكانه على الأقل إظهار شجاعة سلفه الذي واجه جورج بوش وحربه الضارية. إنه التسليم بالأمور. قرأت في بغداد ثم في بيروت، آخر قوانين رئيس الوزراء بلير «لمحاربة الإرهاب». طبعًا، طبعًا. ما الذي تتوقعه بعد تفجيرات الانتحاريين في أنفاق لندن؟ يجب حماية عاصمتنا الغالية وشعبها. فقد مر ثلاثة قطارات أو أربعة في نفق كينغ كروس قبل انفجاره في ٧ تموز/يوليو، وانا آخذ هذه الأمور على

محمل الجد شخصيًا. ولو كنت في أنفاق لندن اليوم، لتفاديت على الأرجح الشبان الذين يحملون حقائب، ولتجنبت رجال شرطة العاصمة المسلحين(*).

بعدما أفرطت الصحافة في الثناء على قوات أمننا الرائعة، أود إلقاء نظرة عن كثب على هؤلاء الوطنيين الطيبين. هؤلاء الرجال (والنساء؟) الذين كذبوا علينا في شأن أسلحة الدمار الشامل في العراق، والذين عجزوا عن إيجاد أي دليل يدفع سير التحقيق في انفجار على الأقل من الانفجارات الأربعة في ٧ تموز/يوليو (وليس في الانفجارات غير القاتلة التي حدثت بعد ذلك ببضعة أيام). هؤلاء الذين قتلوا مدنيًا أعزل وهو جالس في قطار الأنفاق.

ولكن، أقول لنفسي مجددًا: **مهلًا لحظة**. إن تفجيرات ٧ تموز/يوليو تعدّ يومًا هادئًا إذا وقعت في بغداد. ألم أكن في موقع انفجار محطة باصات النهضة الذي مزق أربعة وثلاثين مدنيًا بريئًا - وأرواحهم بقيمة أرواح مدنيي لندن - الأسبوع الماضي؟ لقد واجه الأقارب في المستشفى الكندي صعوبة في التعرف إلى جثث القتلى. كانت الرؤوس موضوعة قرب الأجساد الخطأ، والأقدام قرب الأرجل الخطأ. يا لها من مشكلة. لكن إنكلترا لم تنبس ببنت شفة. لقد كنا لا نزال عالقين في صدمة ٧ تموز/يوليو. لا أثر لمحققين يتقصّون الأثر حول موقع انفجار النهضة بحثًا عن أدلة. لقد وقعت لاحقًا أربع عمليات انتحارية وغدت النهضة خبرًا قديمًا.

انجلت الحقيقة أمامي وأنا أقف على شرفتي المطلة على المتوسط في نهاية

(*) أطلق أربعة شرطيين بريطانيين من وحدة مكافحة الإرهاب النار ثلاثين ثانية على رأس برازيلي بريء، جان شارل مينيزيس، وهو كهربائي في السابعة والعشرين من العمر، في محطة قطار الأنفاق في لندن في ٢٢ تموز/يوليو ٢٠٠٥ بعدما ظنوا أنه مفجر انتحاري، بينما تبيّن لاحقًا أنهم على خطأ. وعلى رغم أن التقرير الرسمي انتقد في شدّة الشرطة، لم تتخذ أي إجراء لخفض رتبة أي من الشرطيين الأربعة أو إجبارهم على الاستقالة. وأدلى ضابط بارز بتصريح قال فيه: «فعلنا كلّ ما في وسعنا». وقد سبب أربعة انتحاريين إسلاميين بريطانيين مقتل ٥٢ مدنيًا وجرح ٧٠٠ آخرين في شبكة قطارات الأنفاق في لندن في ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٥.

هذا الأسبوع، إننا نسلّم بالكثير من الأمور. نحب انقطاعًا قصيرًا لاستمرار الحياة. لعل هذه غلطة الصحف اليومية، فنحن نضع العالم في كبسولة كل اثنتين وعشرين ساعة، ثم ننام على الموضوع ونبدأ تاريخًا جديدًا في اليوم التالي، ونعجز تمامًا عن الإدراك أن القصة لم تبدأ قبل المهلة النهائية ليلة أمس، بل قبلها بأسابيع أو شهور أو سنين. الحقيقة «أننا» لو لم نغزُ العراق عام **٢٠٠٣**، لما سُحق أربعة وثلاثون عراقيًّا في ثلاثة انفجارات الأسبوع الماضي، أليس كذلك؟. وإنها لحقيقة مؤكدة أننا لو لم نغز العراق، لما كانت انفجارات **٧** تموز/يوليو. وفي هذه الحال، لما وعظ البابا المسلمين الألمان عن شرور «الإرهاب» الأسبوع الماضي.

وطبعًا، لو لم نغزُ العراق، لكان السيد غزوان وشقيقه على قيد الحياة، ولكانت أرملته الحزينة زوجة شابة وسعيدة، ولكان والده المكسور والمفجوع أبًا فخورًا. ولكن، كما كان صديقي يقول: «هذا هو الواقع».

«ذي إندبندنت»، ٢٧ آب/أغسطس ٢٠٠٥



الفصل التاسع

لقد فقدنا إيماننا، لكنهم لم يفقدوه

أعيش في منطقة مسلمة في بيروت، في القسم الغربي من المدينة، وتحديدًا في المنطقة الدرزية من العاصمة اللبنانية، حيث يُعدُّ الدروز من المسلمين [وهم ممثَّلون] في البرلمان. إن مصطفى، مالك المبنى الذي أسكنه، درزي. لكن سائقي عبد مسلم سني، ومترجمي العربي الدائم، عماد، شيعي، وبائع الخضر، باتريك، مسيحي. والغريب أننا لا نفكر في هذا. فأنا لا آكل عندما أسافر مع عبد أو عماد خلال رمضان. وإذا كنت مع مسلم ملتزم دينيًا، لا أشرب الكحول. أما إن كنت مع مسيحي فكثيرًا ما أتحدث الفرنسية، اللغة المفضلة لدى المجتمع الماروني اللبناني. لكن هذا مجرد دليل إلى الاحترام. إن احترام المعتقدات شفهيًا موجود في العالم الإسلامي الذي أعيش فيه. يتمنى لي عبد ميلادًا سعيدًا، فأجيبه: «عيد مبارك» في عطلته الإسلامية التي تُعد نهاية رمضان. كان الإمام علي بن أبي طالب من قال ما معناه: الناس صنفان: إما أخٌ لك في الدين، وإما نظيرك في الخلق. كان الإمام علي محقًا. لقد أنقذ المسلمون حياتي - مرات عدة - في السنين الاثنتين والثلاثين التي أمضيتها في الشرق الأوسط. فكيف لا أعدّهم إخوتي في الإنسانية؟

لكنني أنتقد المجتمع الإسلامي. وتروّعني جرائم الشرف التي لا تزال

تُرتكب ضد الشابات، وتحظى بحصانة شبه تامة عبر العالم الإسلامي. ويقرفني قطع الرؤوس الطقوسي لدى السعوديين الوهابيين. لقد سئمت رفض المسلمين البدء بنهضة روحية، وطرح أسئلة حيال طبيعة مجتمعهم. تُغضبني وتحنقني الطبيعة القبلية لهذه الشعوب، وكيف يعارض الأهل تقليديًّا زواج ابنة السني بابن الشيعي أو المسيحي، أو العكس بالعكس. وعندما اقترح الرئيس الراحل الياس الهراوي تطبيق الزواج المدني في لبنان، أظهرت العائلات من كل الطوائف دعمها له. يجب ألا تتحكم الكنيسة في اتحاد الأرواح، مجبرة اللبنانيين على الزواج مدنيًّا في قبرص؟ ولكن، ما إن أعلن الهراوي اقتراحه هذا حتى علت جوقة احتجاجات من القساوسة والأئمة والبطاركة والمفتين. من قال إن الدين هو قوة خير وتسامح ومحبة؟

ولقد سئمت جهودي الشخصية - مع المسيحيين والمسلمين واليهود في إسرائيل - لتصحيح السجلات التاريخية، والحصول على اعتراف بمعاناة الآخر. يُصيبني الرعب عندما يكذّب المسلمون حقائق المحرقة اليهودية، وينكر المسلمون الأتراك حقيقة المحرقة الأرمنية عام ١٩١٥، وعندما يظهر المسيحيون الصهاينة دعمهم غير المشروط لإسرائيل، ويتحدثون عن اقتراب يوم القيامة، مصرّين على أن الإسلام دين غريب عنيف يحكم بالسيف، ويهدف إلى الهيمنة على أوروبا «المسيحية». وأرتعب أيضًا عندما يردد مثل هذا الكلام أمثال بن لادن في هذا العالم، وعندما يثير أمثال جورج بوش هذه المشاعر تحديدًا، داخل العالم الإسلامي، بغطرستهم وعنفهم. نحن لم نفهم بعدُ البلاد التي ظهر فيها الانتحاريون ليهددونا. ولم ندرك بعد دورنا في توليد هذه الظاهرة. إذا كانت كلمات بن لادن تحمل اعتقاد ملايين المسلمين، فتأكدوا أننا ما زلنا صليبيين.

الله والشيطان

اقترح ستيفان أودوان روزو، أول مؤرخ فرنسي للحرب العالمية بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨، منذ زمن ليس ببعيد، أن الغرب كان وارث حروب عنيفة جدًّا، كاتبًا: «بعد ١٩٤٥، وسّعها [الحروب] الغرب نحو الخارج، في كوريا والجزائر وفيتنام والعراق. لقد توقفنا عن التفكير في تجربة الحرب ولا نفهم انعكاساتها [علينا] بأشكال مختلفة كالإرهاب. ونرفض الاعتراف بوجود نوع مختلف من المواجهة الآن...». ولعله كان يجب أن يضيف أن السياسيين - ورؤساء الوزراء حتى - يرفضون الاعتراف بهذا. نحن نحارب الشر. ولا علاقة لهذا باحتلال أراضي فلسطين، وأفغانستان والعراق، والتعذيب في أبي غريب وباغرام وغوانتانامو. لا، لا، صدقًا لا. إنها «الأيديولوجيا الشريرة»، قوة ظلامية مبهمة وغير محددة. هذه هي المشكلة.

ثمة خطآن في هذا الكلام. الأول هو أنك ما إن تبدأ بالكلام على «الشر»، تكون تتحدث عن الدين. الخير والشر، الله والشيطان. كان انتحاريو لندن من المسلمين (أو ظنّوا أنهم مسلمون)، لذا يجب على الجالية الإسلامية في بريطانيا أن تتأهب وتَدينهم، كمسلمين. ولم يكن علينا نحن «المسيحيين» أن نفعل هذا، لأننا لسنا مسلمين. ولم يجب علينا كـ«مسيحيين» إدانة المسيحيين الصرب الذين ذبحوا ٨٠٠٠ مسلم في سربرينيتشا منذ عشر سنوات فحسب. كل ما فعلناه هو أننا اعتذرنا لأننا لم نفعل شيئًا حينذاك. لكن المسلمين، لأنهم مسلمون، عليهم في انتظام إدانة أمور لم يفعلوها. وهذا، في ظني، هو المقصد الحقيقي. أعتقد أننا نؤمن بأن دينهم له علاقة بكل ما يحدث، وأن الإسلام دين متخلف وعنيف وغير مستنير. هذا ليس صحيحًا، لكن ميراثنا في الاستشراق يشير إلى العكس.

غريبة هي طريقة احتقارنا وحسدنا لـ «الآخرين». لقد أظهر الكثيرون من

أولئك المستشرقين الأوائل اشمئزازًا وانبهارًا بالشرق. لقد كرهوا عقوباته وباشواته، لكنهم أحبوا نساءه. لقد استهواهم الحريم. ووجد الغربيون فكرة الحصول على أكثر من زوجة مغرية جدًّا. وبصورة مماثلة، أظن أن جوانب من «انحطاطنا» الغربي تثير اهتمام المسلمين، حتى لو واظبوا على إدانتها. لقد صُعقت منذ سنوات عندما سافر ابن صديقي اللبناني للدراسة في جامعة جنوب إنكلترا. وكلما مررت بلندن آتيًا من بيروت، كنت أحمل له تسجيلات صوتية أو رسائل من أهله - في تلك الأيام العظيمة قبل الإنترنت - وكان التلميذ يلتقيني عادة في حانة في بلومزبيري مع فتاة دومًا، فيشربان أكوابًا عدة من البيرة قبل الرجوع إلى شقتها لتمضية الليلة. لكنه في آخر فصل دراسي له في الجامعة، اتصل بمنزله وطلب مني والدته أن تبحث له عن عروس. لقد انتهت أيام المرح واللهو. وأراد من «الماما» أن تجد له شابة عذراء ليتزوج بها.

فكرت في هذا الموضوع كثيرًا حينذاك. لقد كان - ولا يزال - رجلًا محترمًا ونزيهًا جدًّا، وقد رفض الكثير من عروض العمل المربحة جدًّا في الخارج ليعلّم طلاب المرحلة الثانوية في بيروت. لكنني أظن أنه لو كان ضعيفًا لواجه الكثير من المشكلات في حياته. ما الذي كان يفعله في بريطانيا، لِمَ كان يستمتع بوقته «مثلنا»، ثم أدار ظهره لهذه المتعة ليحظى بحياة محافظة أكثر؟

لنأخذ زياد الجراح مثل آخر - على رغم عدم وجود أي تشابه بين الرجلين -. لقد عاش زياد في ألمانيا مع حبيبته التركية - لم يكن يواعدها فحسب، بل عاش معها - ثم في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ اتصل بالفتاة ليقول لها «أحبك». سألته الشابة: ما بك ؟ أجاب ببساطة «أحبك»، وأغلق الهاتف، ثم ركب طائرة وفجَّر ركابها، وهوى بها أرضًا في بنسلفانيا. ما الذي كان يدور في خَلَده وهو يسمع صوت حبيبته التي قال إنه يحبها؟ كان والده، الذي أعرفه جيدًا، مذهولًا مثلما ذُهل أهل انتحاريي لندن. ولا يزال عاجزًا عن تصديق ما فعله زياد الجراح حتى هذا اليوم، بل لا يزال ينتظر عودته إلى المنزل.

من السهل أن يسخر المرء من كراهية العرب للغرب، وحبّهم له في الوقت نفسه. تمكنني رؤية الغضب على بوش يظهر في صفحات الصحف المحلية في العواصم العربية، ثم أمرّ بالسفارة الأميركية حيث يقف المئات من العرب أحيانًا حول جدرانها آملين في الحصول على تأشيرة لدخول الولايات المتحدة الأميركية. إن القرآن كتاب لا يُقدَّر بثمن، وكذلك بطاقة الجنسية الأميركية (غرين كارد).

ولكن من الرسائل الكثيرة التي تردُ عليَّ من المسلمين، خصوصًا في بريطانيا، أظن أن في إمكاني فهم بعض الغضب المتولد بينهم. فمعظمهم يأتي من دول شديدة القمع تتحكم فيها القيود الدينية والعائلات المتشددة في حيواتهم. وتعرفون بقية القصة. لذا ثمة انفصام حاد بين حياتهم والمجتمع من حولهم في بريطانيا، فالمسلمون الذين وُلدوا فيها، حتى كثيرًا ما ينشأون في عائلات تقليدية. يمكن الحرية البريطانية - الاجتماعية والسياسية - أن تكون جذابة جدًّا ومعرفتهم أن حكومة لندن المنتخبة ترسل جنودها لغزو العراق وقتل المسلمين في الوقت نفسه، قد تحوّل هذا «الانفصام» إلى ما هو أخطر بكثير.

يمكنك أن تعيش حياة جيدة في هذه البلاد: بريطانيا. ثمة فتيات جميلات تمكنك مصاحبتهن (لاحظوا أننا نتكلم على الرجال)، أو تزوجهن أو مساكنتهن فحسب. تمكنك مشاهدة الأفلام - لا نقطع مشاهد العري من أفلامنا - وإذا أحببت، يمكنك تناول بضعة أكواب بيرة في حانة قريبة. هذه الأشياء «محرَّمة» بالطبع، وخاطئة، لكنها ممتعة، وجزء من «حياتنا». معظم البريطانيين المسلمين الذين أعرفهم لا يشربون الكحول، ويتصرفون باحترام مع النساء من كل الأديان (لذا، أرجوكم ألا ترسلوا إلي رسائل غاضبة)، بينما يستمتع آخرون بحرّيتنا بيسر كبير. لكن من يعجزون عن هذا، من استمتعوا بحريتنا، مع شعور الذنب جرّاء ذلك. إن الذين تروّعهم المتع التي نالوها من «مجتمعنا»، ويروّعهم بالمقدار نفسه إحساسهم بالفساد، يواجهون مشكلة خاصة (خصوصًا بعد رحلة إلى باكستان لنيل جرعة من الطقوس الدينية التقليدية).

وتُشعل فلسطين أو أفغانستان أو العراق هذه المشكلة. يريدون أن يهربوا من هذا العالم، وهم يعبّرون عن غضبهم الأخلاقي وعجزهم السياسي في الوقت نفسه. وأعتقد أنهم يريدون تدمير أنفسهم لشعورهم الذنب، وتدمير غيرهم لارتكابهم جريمة «إفساد» أنفسهم. ولو عنى هذا حتى قتل حفنة من أبناء دينهم والعشرات من الأبرياء الآخرين. هيا، نضع حقائب الكتف ولتنطلق القنابل. أما من قدّمها إليهم فقصة أخرى. لقد حدث شيء، في جزء من الثانية، بين كلمة «أحبك» وإغلاق الهاتف.

«ذي إندبندنت»، ٢٣ تموز/يوليو ٢٠٠٥

طفولية الحضارات

عبّر المسلمون في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦، في مختلف أنحاء العالم، عن غضبهم على سلسلة من الرسوم الكاريكاتورية في الصحف الدنماركية، أظهرت إحداها النبي محمد واضعًا قنبلة في عمامته. وأحرق المتظاهرون السفارة الدنماركية في بيروت.

إنهم يرسمون كاريكاتورًا للنبي محمد، واضعًا عمامة في شكل قنبلة. فيُستدعى السفراء من الدنمارك، وتنظّف الدول الخليجية رفوفها من البضائع الدانماركية، ويهدد مسلحون في غزة الاتحاد الأوروبي. في الدانمارك، يعلن فليمنغ روز، المحرر «الثقافي» في صحيفة تافهة نشرت الرسوم السخيفة - في أيلول/سبتمبر الماضي - أننا نشهد «صدام حضارات»، بين الديموقراطيات الغربية العلمانية، والمجتمعات الإسلامية. وهذا يثبت، في اعتقادي، أن الصحافيين الدانماركيين يتّبعون تقليد هانز كريستيان أندرسن. يا إلهي، يا إلهي. إن ما نشهده هو «طفولية الحضارات».

فلنبدأ بوزارة الحقائق الوطنية. هذه ليست مسألة العلمانية في مواجهة الإسلام.

بالنسبة إلى المسلمين، الرسول هو رجل تلقى الوحي الإلهي من الله مباشرة. ونحن نعدّ أنبياءنا شخصيات تاريخية مبهمة تختلف مع حقوق الإنسان المتطورة لدينا، وأقرب إلى أن يكونوا كاريكاتورات أنفسهم. والواقع هو أن المسلمين يعيشون دينهم. أما نحن فلا. لقد حافظوا على ديانتهم في وجه تقلبات تاريخية لا تُعدُّ ولا تُحصى. ونحن خسرنا ديننا مذ كتب ماثيو أرنولد عن «زمجرة البحر الطويلة المتراجعة». لهذا، نتحدث عن «الغرب في مواجهة

الإسلام»، بدلًا من «المسيحيين في مواجهة الإسلام»، إذ لم يبق الكثير من المسيحيين في أوروبا. ولا يمكننا الالتفاف على هذا الموضوع بدعم ديانات العالم الأخرى، ثم السؤال لمَ لا يمكننا السخرية من محمد.

يمكننا فضلًا عن هذا، أن نكون منافقين حيال مشاعرنا الدينية. أذكر منذ عقد مضى، كيف صوّر فيلم اسمه «ذا لاست تمتايشن أوف كرايست» (التجربة الأخيرة للمسيح)، المسيح يمارس الحب مع امرأة. أشعل أحدهم النار في دار السينما في باريس التي عرضت الفيلم، فقُتل شاب. وأذكر جامعة أميركية دعتني إلى إلقاء محاضرة قبل ثلاث سنوات. ففعلت. كان عنوان المحاضرة «١١ أيلول، ٢٠٠١: اسألوا عمن فعلها. ولكن، حبًّا بالله، لا تسألوا عن السبب». وعندما وصلت، وجدت أن الجامعة محت عبارة «حبًّا بالله» لأننا «لم نشأ أن نثير حساسية فئة معينة». «أهًا»، إذًا، نحن لدينا أيضًا «حساسية» معينة.

بتعبير آخر، في حين نزعم أن على المسلمين أن يكونوا علمانيين طيبين في ما يتعلق بحرية التعبير - أو الرسومات الرخيصة - نقلق حيال التمسك بديننا الثمين بالمقدار نفسه. ثم أنني استمتعت بادعاءات رؤساء الدول الأوروبية الفارغة، وزعمهم أنهم لا يمكنهم السيطرة على حرية التعبير أو الصحف. وهذا أيضًا هراء. فلو كان ذلك الرسم للنبي محمد صوّر حاخاما يعتمر قبعة في شكل قنبلة، لعلا صراخ «المعاداة السامية» ليصم آذاننا - وهم محقّون في هذا - مثلما نسمع الإسرائيليين يشتكون غالبًا من الكاريكاتورات المعادية للسامية في الصحف المصرية.

فضلًا عن هذا، يمنع قانون بعض الدول الأوروبية - فرنسا وألمانيا والنمسا بينها - إنكار أعمال الإبادة العرقية. ففي فرنسا مثلًا، من غير القانوني أن نقول إن محرقة اليهود أو محرقة الأرمن لم تحدث. ومن غير المسموح به فعلًا الإدلاء بنوع معين من التصريحات في الاتحاد الأوروبي. وما زلت غير واثق من تحقيق هذه القوانين أهدافها. فمهما تمنع إنكار المحرقة، يجد أعداء

السامية طرائق للالتفاف حولها. ولكن، لا يمكننا تطبيق قيودنا السياسية لمنع من ينكرون المحرقة، ثم نروح ننادي بالعلمانية عندما نجد أن المسلمين يحتجون على صورنا المستفزة والمسيئة إلى الرسول.

إن رد الفعل «الإسلامي» على هذه القضية، محرج للكثيرين من المسلمين. ثمة أسباب مقنعة بأن المسلمين يريدون شيئًا من الإصلاح الديني. فلو أن هذه الرسوم دعمت رأي من أرادوا مناقشة هذه الموضوع، لما استاء أحد. ولكن من الواضح أن القصد منها كان الاستفزاز. لقد كان العمل مشينًا جدًّا إلى حدّ أنه ولّد رد فعل فحسب. وهذا ليس الوقت المناسب لإشعال ترّهات صامويل هانتينغتون القديمة عن «صدام الحضارات». ففي إيران حكومة رجال دين من جديد. وعلى رغم النيات والغايات، ثمة واحدة في العراق أيضًا (الذي لم يكن مفترضًا أن يحظى بإدارة من رجال دين منتخبين ديموقراطيًّا، لكن هذا ما تناله عندما تطيح بالطاغية). في مصر، ربح الإخوان المسلمون ٢٠ في المئة من المقاعد في آخر انتخابات برلمانية. والآن لدينا حماس تحكم «فلسطين». وثمة رسالة هنا، أليس كذلك؟ الرسالة هي أن السياسات الأميركية - «تغيير الأنظمة» في الشرق الأوسط - لا تحقق غاياتها. ويفضل ملايين الناخبين هؤلاء الإسلام على الأنظمة الفاسدة التي فُرضت عليهم. ورمي الرسوم الدانماركية إلى هذه النار لأمر خطير فعلًا.

ليس الموضوع في أي حال، تصوير الرسول أو لا. فالقرآن لا يُحرّم تصويره، على رغم أن ملايين المسلمين يحرّمونه. المشكلة هي أن الرسوم صوّرت النبي محمد رمزًا للعنف يشبه بن لادن. لقد صوروا الإسلام دينًا عنيفًا. وهو ليس كذلك.. . **أم هل نريد أن نجعله كذلك؟**

«ذي إندبندنت»، ٤ شباط/ فبراير ٢٠٠٦

انظروا في المرآة

في زمن يعرّف رئيس الوزراء بلير «أيديولوجيا شريرة»، وتسمي القاعدة العمليات الانتحارية التي قتلت ١٥٦ من الشيعة في العراق «أخبارًا طيبة لأمة الإسلام»، أشكر للسماء قراءنا، ولاسيما منهم جون شيبيرد، المحاضر الرئيس للدراسات الدينية في كلية ساينت مارتن في لانكاستر. لقد رد السيد شيبيرد بعتاب لطيف على تعليق كتبته - مختصره أننا في صميمنا نعتقد أن الدين هو سبب تفجيرات لندن - على رغم خطأ هذا الرأي. وعلّق قائلًا: «ربما ما خفي كان أعظم». وأخشى أنني أخطأت وأصاب هو. إن تعليقاته مكتوبة في مقالة مصوغة في براعة، تحكي عن جذور العنف والتطرف في اليهودية والمسيحية والإسلام، وعن الحاجة الملحّة إلى جعل كل الأديان «صالحة للاستهلاك البشري».

يمر السيد شيبيرد، في بساطة شديدة، على بعض من مقاطع الإنجيل وآيات القرآن: تلك المقاطع التي نفضل عدم الاستشهاد بها أو التفكير فيها، ونجد أن ذكر المجازر والتطهير العرقي موجود بكمّ كبير فيها إذا اتبعناها حرفيًا. لقد كان دخول اليهود «أرض الميعاد» مصحوبًا بغزوات دموية واضحة وتطهير عرقي في ما بعد. وقد اختزن التقليد المسيحي هذا التراث، فكانت «أرض ميعاده» مصحوبة بقسوة امتدت إلى معاداة شرسة للسامية. ويشير شيبيرد إلى أن «العهد الجديد» «يحتوي مقاطع قد... يتخذ القانون البريطاني إجراءات ضدها لإثارتها الكراهية العرقية»، لو كانت ستنُشر في أيامنا هذه. ويشمل التراث الإسلامي - وتحريمه عبادة الأصنام - خلال حياة النبي محمد «مشاهد سفك دماء وقتل تصدم الأحاسيس الدينية المعاصرة».

لهذا، على سبيل المثال، قام باروخ غولدشتاين، وهو الطبيب العسكري

الإسرائيلي، بذبح تسعة وعشرين فلسطينيًا في الخليل عام ١٩٩٤، مرتكبًا مجزرته في يوم بوريم، عيد الاحتفال بخلاص المجتمع اليهودي من الامبراطوية الفارسية، الذي تبعته مجازر على نطاق واسع «لينتقموا من أعدائهم» (إستر ٨:١٣). وكان الفلسطينيون هنا يمثّلون دور الفرس طبعًا، وفي مرات أخرى كانوا يمثّلون العماليق («.... اقتل كل رجل وامرأة وطفل ورضيع، وكل ثور وخروف وجمل وحمار، (صموئيل ١٥:٣). كانت «أرض الميعاد» الأصلية، على ما يُسمى اليوم الضفة الغربية - وهذا يفسّر استيطان اليهود في الأراضي الفلسطينية - ولم تكن المنطقة الساحلية من ضمنها (لكن الاقتراحات بنزوح إسرائيل نحو الشرق تاركة حيفا وتل أبيب وعسقلان لفلسطينيي الضفة الغربية، من المستبعد أن تنال حظوة لدى حكام إسرائيل).

في هذه الأثناء، دخلت فكرة «الشعب المختار» الديانة المسيحية: البروتستانت في شمال إيرلندا مثلًا (أتذكرون ميثاق أولستر؟)، والتفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، والولايات المتحدة في بعض النواحي. إن «العهد الجديد» مزخرف بخبث العداء للسامية، متّهمًا اليهود بقتل المسيح. اقرأوا مارتن لوثر. ويأمر القرآن بتسليم الشعوب التي هُزمت باسم الدين (القرآن ٩:٢٩). وقال الخليفة أبو بكر، أحد خلفاء النبي محمد، في بوضوح «إن الكافرين من رفضوا الله ورسوله، فليأذنوا بحرب من الله... وليس لهم إلا السيف والنار وقتلهم أينما حلوا».

ها هو الوضع. كيف يتعاطى السيد شيبيرد مع هذا كله؟ يجب رفض سياسة المستوطنات، لا لأنها مشكوك في أمرها من وجهة نظر لاهوتية، بل لأن انتزاع ممتلكات الآخرين خطأ أخلاقي. ويجب رفض معاداة السامية، لا لأنها غير منسجمة مع الإنجيل، بل لأنَّها لا تنسجم مع أي أخلاق أساسية مبنية على قيم إنسانية مشتركة. وإذا كنا نَدين العنف الإسلامي، فليس السبب هو سوء فهم للنبي محمد، بل لأن العنف يخرق حقوق الإنسان الأساسية. «إن مستوطنات الضفة الغربية، والعداء المسيحي للسامية، و«الإرهاب الإسلامي»... ليست أخطاء أخلاقية لأنها مشكوك في أمرها من منظور ديني، بل نشك فيها دينيًا لأنها خطأ أخلاقي».

صحيح أن معظم المسيحيين واليهود والمسلمين يستمدون من تقاليدهم معاني التسامح والاعتدال. ونفضّل أن نرفض الفكرة القائلة إن ديانات أولاد إبراهيم هي مخطئة في جوهرها، من ناحية عدم التسامح، والتمييز، والعنف، والكراهية. وإذا وضعنا فحسب احترام حقوق الإنسان فوق أي اعتبار آخر - إذا صح فهمي طرح السيد شيبيرد - وجعلنا الدين يسلّم للقيم الإنسانية العالمية، يمكننا عند ذاك «تذليل الصعاب». يمكنني سماع هدير الأصوليين منذ الآن. وعليّ القول إنني أظن الأصوليين الإسلاميين سيكونون أعلاهم صوتًا. إن إعادة تفسير القرآن هي مثل الرمال المتحركة، من الخطير جدًّا الاقتراب منها، وهي موضوع عسير جدًّا إلى حد أن معظم المسلمين يرفضون التطرق إليها.

كيف يمكننا أن نقترح على ديانة «تسلّم» بالله أن «تسلّم» هي نفسها بـ«حقوق الإنسان العالمية» اللطيفة الظريفة التي وضعناها نحن الغربيين؟ لا أعلم، خصوصًا عندما فشلنا كـ«مسيحيين» في إدانة الفظاعات التي ارتكبناها وفضلنا نسيانها فعلًا. لنأخذ مثلًا، المسيحيين الذين ذبحوا المسلمين في سربرينيشا، أو المسيحيين - من الكتائب اللبنانية الحليفة للإسرائيليين - الذين دخلوا مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في بيروت، وذبحوا ١٧٠٠ مدني فلسطيني مسلم. أنذكر هذا؟ هل نذكر أن المجازر حدثت بين ١٦ و١٨ أيلول/ سبتمبر عام ١٩٨٢؟ أجل، اليوم هو الذكرى الـ٢٣ لهذه المجزرة الصغيرة - وأظن أن «ذي إندبندنت» ستكون واحدة من قلة من الصحف التي ستتذكرها. لقد كنت في تلك المخيمات عام ١٩٨٢. ومررت على الجثث. لقد وضع بعض رجال حزب الكتائب في بيروت صورًا لمريم العذراء على أعقاب بنادقهم، مثلما فعل المسيحيون الصرب في البوسنة.

فهل نحن في موقع يخوّلنا أن نقول لجيراننا المسلمين: «لنذلل الصعاب»؟ لا أظن هذا. فقد تقوّض وضع حقوق الإنسان إلى حدّ كبير بسبب طيشنا، وغزونا غير الشرعي للعراق، والفوضى التي سمحنا لها بأن تتجذر هناك، ورفضنا الفاضح منع توسّع المستوطنات الإسرائيلية في الضفة الغربية، ومطالبنا

الدائمة التذمر من قادة المسلمين للتنديد بالمجرمين الذين يغالون في تفسير نصوص دينهم. لقد خسرنا منذ زمن بعيد شجاعتنا.

لقد أدت مئة عام من التدخل الغربي في الشرق الأوسط، إلى خلق منطقة منقسمة جدًّا بحدود وهمية وجبهات مزيفة، ومثقلة بالمظالم، بحيث أن موقفنا لا يسمح لنا بتاتًا بوعظ العالم الإسلامي في حقوق الإنسان وقيمته. انسوا العماليق والفرس ومارتن لوثر والخليفة أبا بكر. لننظر إلى أنفسنا في المرآة، وسنجد أشد الآيات رعبًا.

«ذي إندبندنت»، ١٧ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥

تحطيم التاريخ

ما السر في صورة محفورة؟ ولِمَ نميل كثيرًا، نحن البشر، إلى تحطيم وجوهنا، وتدمير تاريخنا الإنساني، ومحو ذكرى اللغة؟ لقد غطّيتُ (كصحافي) اغتصاب الثقافات البوسنية والصربية والكرواتية في يوغوسلافيا سابقًا، والتدمير المتعمّد للكنائس والمكتبات والمقابر وبرج موستار العثماني الرائع حتى، وسمعت الأعذار. «لا مكان لهذه الأمور البالية»، هذا ما نُقل عن لسان المدفعي الكرواتي، وهو يطلق قذائفه المدفعية على القوس العثماني الأنيق فوق نيريتفا. إن تسجيلات الفيديو لانهياره، كانت، في حد ذاتها، تصويرًا لمجزرة ثقافية إلى أن دمرت حكومة طالبان تمثالي بوذا العملاقين في باميان.

لكنني كنت الأسبوع الماضي أحدق في بوذا عملاق آخر، هذه المرة في دوشانبي عاصمة طاجكستان، على بعد بضع مئات من الأميال من الحدود الأفغانية. كان بوذا نائمًا بهدوء، واضعًا رأسه العملاق على راحة يده اليمنى المفتوحة، ما دفعني إلى أن أمشي على رؤوس أصابعي في محاذاة جسده الممتد ٤٠ قدمًا، هامسًا في حديثي مخافة إيقاظ هذا العملاق الذي شابهت ملامحه، بعينيه المغمضتين وأنفه المنحدر، شخصيات موديلياني. ظننت أنه نجا من تخريب محطمي التماثيل، حتى أدركت أن هذا الإله الباعث للكارما، تعرض للاعتداء بدوره.

كانت العينان والأنف سليمة في أعلى رأسه، لكن الجزء السفلي من وجهه أعادت أيد معاصرة ترميمه في عناية. ولعل ثلاثة أرباع جسده حديثة الصنع، إذ تمتد يده اليسرى السليمة بلطف على رجله اليسرى العلوية، واضعًا راحته على خصره فوق ثنيات ردائه الأصلي. فما الذي حصل لهذا البوذا؟ من المؤكد أن طالبان لم تصل إلى دوشانبي.

راحت مديرة متحف دوشانبي الأثري الرائع تشرح في بطء، بكلمات إنكليزية محبطة. فقالت: «عندما أتى العرب، حطّموا هذه الأشياء كلها باعتبارها أصنامًا». آه نعم، بالتأكيد فعلوا هذا. لقد أتت جيوش الإسلام إلى ما يعرف اليوم باسم طاجكستان حوالى سنة ٦٤٥ ميلادية، فكانوا طالبان زمنهم، ملتحين كأحفادهم في القرن العشرين، ومن دون أجهزة تلفاز، لكن كان لديهم الكثير من تماثيل بوذا لتدميرها. فكيف بحق السماء، نجت تماثيل بوذا في باميان من التدمير قديمًا؟».

كان معبد بوذا في فاكش، شرق كورغونتيبا، حديث العهد (قبل مئة سنة أو مئتين)، عندما أتى العرب. ويحوي المتحف «أعمال» محطمي الأصنام هؤلاء، وهي كثيرة ومحفوظة بحذر يائس. تبدو ضربات السيوف على عرش بوذا، وقد تضرر تمثالا شيفا وزوجته بارفاتي (من القرنين السادس والثامن) في شدة على أيدي طالبان القدماء هؤلاء، فلم يبق منهما سوى أرجلهما والبقرة المقدسة تحتها.

اكتشف تمثال «بوذا في النيرفانا» أول الأمر عام ١٩٦٩، على عمق ٣٠ قدمًا تحت الرمال، ثم أُحضر إلى دوشانبي نتيجةً مباشرة لتدمير تمثالي بوذا في أفغانستان. بمعنى آخر، لقد ألهم تطرّف طالبان عمليات الحفاظ على الآثار بعد الحكم السوفياتي، إذ ما عاد في وسعنا تأمّل تمثال الإلهين العملاقين في باميان، لأن وزارة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كابول عدَّتهما جديرين بالتدمير، فلا يزال في إمكاننا تأمل تمثال هذا الإله في وضعية «الأسد النائم»، بعدما نقله إلى دوشانبي ورثة امبراطوية ستالين الوحشية. إنها فكرة تصدم.

كان بي أي ليتفينسكي مسؤولًا عن أول أعمال الرحمة المعمارية. وفي نهاية المطاف، نقل التمثال إلى عاصمة طاجكستان مقسّمًا اثنين وتسعين قسمًا. ومنذ مدة قريبة، حضر وفد صيني صديق، وطلب أخذ تمثال بوذا النائم إلى الصين،

فقيل لأعضائه إن في إمكانهم التقاط الصور لهذه التحفة الفنية فحسب، وربما كان هذا هو سبب صنع البوذا «الجديد» في جمهورية الصين الشعبية.

ما من داعٍ لأن أقول إن أجزاء كثيرة من تماثيل أخرى - حيوانات وطيور وشياطين - انتقلت من الأديرة إلى المتاحف. وفكّرت في أن العرب لم يتصرفوا في صورة أفضل من جماعة هنري الثامن عندما بدأوا العمل في أديرة إنكلترا. ألم تُدنّس الصور المنحوتة في كنيسة إيست ساتون الصغيرة فوق كنتيش ويلد خلال ذلك العصر العظيم من التاريخ الإنكليزي؟ ألا تملأ كاتدرائياتنا وجوه محطمة، هي الشاهد الباقي على نوعنا الخاص من طالبان البروتستانت؟

فضلًا عن هذا، إن وصول اللغة العربية سمح بازدهار الشعر في طاجكستان - كان الفردوسي من طاجكستان وكتب «الشاهنامه» باللغة العربية -. وفي دوشانبي تمكنك رؤية أروع الأضرحة من عصر الملك بابور، وقد خُططت الآيات القرآنية بالخط العربي في تأن على سطح الحجارة السود الناعمة. ولكن، عندما ابتلع ستالين طاجكستان في الامبراطورية السوفياتية - وسلّم في خبث مدينتي طاجكستان، طشقند وسمرقند إلى جمهورية أوزبكستان الحديثة، لإذكاء العداوات العرقية بينهما - منع مفوضوه الكتابة العربية. ووجب على جميع الأولاد منذ تلك اللحظة، تعلّم اللغة الروسية، وكان عليهم استخدام الحرف السلافي لا العربي، ولو كانوا يكتبون بلغة طاجكستان.

وجلب مصطفى كمال أتاتورك «الحداثة» إلى تركيا في ذلك الوقت بطريقة مماثلة، فأرغم الأتراك على التحول من الكتابة العربية إلى الكتابة اللاتينية (وأظن أن هذا هو أحد أسباب الصعوبة التي يواجهها الباحثون الأتراك المعاصرون في دراسة النصوص العثمانية المهمة عن محرقة الأرمن عام ١٩١٥). إذا تخلصنا من اللغة المكتوبة يبدو التاريخ أقل خطورة. ألم نحاول فعل الأمر نفسه في إيرلندا مجبرين رجال الدين الكاثوليك على أن يصبحوا خطباء للعامة لتظل اللغة الإيرلندية متناقلة شفهيًا لا كتابة؟ وهكذا، عجز

الزوجان الطاجكستانيان والأولاد الذين أتوا لتأمل ماضيهم في دوشانبي، عن قراءة «الشاهنامه» كما كُتبت. ولا يمكنهم فك رموز الشعر الفارسي الأنيق المنقوش على تلك الأضرحة المذهلة. إليكم هذا النصر الضئيل على محطمي الأيقونات، ولعلها أول ترجمة إنكليزية للكتابات فوق أحد تلك الحجارة العتيقة، التي يفهمها اليوم قلة من الطاجكستانيين:

«سمعت أن الملك جامشيد العظيم

حفر على حجر قرب نبع هذه الكلمات.

كثيرون مثلنا جلسوا قرب هذا النبع

وتركوا الحياة في إغماضة عين

لقد أمسكنا العالم بأسره بفضل شجاعتنا وبأسنا

لكننا لم نأخذ معنا إلى القبور شيئًا».

قرب كنيسة إيست ساتون في كينت، لا يزال ضريح إنكليزي كنت أقرأ نقشه كلما هرولت بالقرب منه مرتديًا شورت مدرسة ساتون فالنس ظهيرة السبت الممطر. لا أذكر اسم الشخص الذي يخلده الضريح، لكنني أذكر الأبيات المنقوشة فوق الاسم:

«اذكرني أيها العابر

فكما أنت اليوم، أنا كنت أمس

وكما أنا اليوم أنت غدًا

تذكّر أن الموت يلاحقك».

وأذكر فعلًا، وأنا مرهق ومتجمد بملابس الهرولة الخفيفة، أنني كرهت هذه الرسالة الأبدية، إلى حد أنني أردت أحيانًا أن آخذ مطرقة وأحطم ذلك الشيء اللعين شر تحطيم. نعم، في مكان ما في قلوبنا السود، لعلنا جميعنا مثل طالبان.

«ذي إندبندنت»، ٨ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧

والآن اسمهم «ذوو البشرة السمراء»

لقد كان أسبوعًا جيدًا في كندا - أو أسبوعًا لعينًا، هذا يتوقف على وجهة نظرك - لفهم مدى التحيّز الحتمي الذي وصلت إليه الصحف الكندية واحتمال تحولها إلى العنصرية . فبعد اعتقال سبعة عشر مسلمًا كنديًّا بتهمة «الإرهاب»، باشرت «ذا تورونتو غلوب أند مايل» - و«ناشونال بوست»، بدرجة أقل منها - حفلة صاخبة من الاتهامات التي من شأنها عرقلة سير أي محاكمة عادلة وتزرع في الوقت نفسه الرعب في قلوب ٧٠٠٠٠ مسلم في البلاد. حقًا، لو كنت كنديًّا مسلمًا الآن لكنت أتفقد جداول الرحلات الجوية كي أغادر البلاد. ألعل هذا هو الهدف من هذه الحملة الصحافية؟

أولا، التهمة: لقد تحدّث محامي أحد المتهمين حتى عن مخطط لمهاجمة البرلمان في أوتاوا، واحتجاز أعضاء البرلمان رهائن، وقطع رأس رئيس الوزراء ستيفن هاربت. ومن دون التأكد من هذه «الحقائق»، أو إثارة أي شك في مصدرها - شرطة الخيالة الملكية الكندية أو الاستخبارات الأمنية الكندية التي تتسرب منها المعلومات دومًا - أخبر الصحافيون قراءهم أن مجموعة السبعة عشر كانت تخطط لتفجير البرلمان، والمقر الرئيس للاستخبارات الأمنية الكندية ومؤسسة البث الكندية وأهداف عدة أخرى. وقد تم تصوير كل امرأة محجّبة أو ترتدي شادورًا من قريبات المتهمين وطبعت معظم صورهن في الصفحات الأولى. «إرهاب ينشأ في عقر دارنا»، أصبح موضوع الشهر حتى لو لم تتم محاكمة «الإرهابيين» بعد. وقيل لنا إنهم كانوا يصنعون «سمادًا» يمكن تحويله متفجرات. وعندما اتضح أن ضباط الشرطة الكندية تبين لهم أن «السماد» كان من مواد غير خطيرة، لم يتابع أحد التداعيات الجلية لهذه «الغارة»، بل، أعلنت إذاعة في بافلو في الولايات

المتحدة، أن المتهمين حصلوا في الواقع على «متفجرات». أصبنا الهدف: إنهم مذنبون قبل المحاكمة.

وطبعًا، زخرف منتقدو المسلمين هذه التفاهات بقلقهم الورع حيال حقوق المتهمين. فهمست مارغريت وينت، صحافيّة «غلوب أند مايل» بنعومة كاتبة: «قبل أن أتابع، عليّ تبرئة ذمتي». «لم يتم إثبات أي شيء ويجب ألا يتسرع أحد في إصدار الأحكام». وما من داع لأن أقول إن هذا بالضبط ما فعلته وينت في الفقرة نفسها. «إن اكتشاف تفشي الإرهابيين في عقر دارنا، إن كان هذا هدف أولئك الرجال، من المتوقع أن يصدمنا على رغم توقعنا له».

وفي حال لم ننتبه إلى مغزى هذا النفاق، ختمت وينت مقالها، معلنة «أن كندا ليست مستثناة من انتشار الإرهابيين في عقر دارها». إن الشبان الغاضبين هم القنبلة، والإسلام هو الفتيل. وأضافت أن البلاد لعلها ستكون أوفر حظًّا من كثر «في إهماد النار». لكن من يشعل الفتيل فعلًا، يا ترى؟

لقد وجدت عبارة مزعجة - ولو كانت بريئة في البداية - طريقها إلى الصحف. يشار الآن إلى المتهمين السبعة عشر - وعائلاتهم، بل الجالية الإسلامية كلها في البلاد في بعض الأحيان - على أنهم «مولودون في كندا». نعم، بالطبع هم مولودون في كندا. لكن ثمة فرقًا طفيفًا بين هذا وأن تكون «كنديًّا»، كما يوصف مواطنو هذه البلاد الشاسعة في أي سياق آخر. والتلميحات واضحة. ثمة الآن نوعان من الكنديين: النوع المولود في كندا (المسلمون)، والكنديون (الباقون).

إذا بدوت لكم أنني كثير التذمر، فاقرأوا هذه الجملة من الصفحة الأولى في «غلوب أند مايل» ليوم الثلاثاء، التي يفترض أن تكون شهادة عيان لعملية الاعتقال التي شنّتها الشرطة: «كانت شاحنة رمادية كبيرة مربعة مركونة مباشرة خارج مكتبه... وفي الساحة المجاورة، شاهد أحد الرجلين السمراوي البشرة اللذين استاجرا الوحدة السكنية القريبة...». عفوًا؟ يا أصحاب البشرة السمراء؟

يا ربي ما هذه العنصرية الموجودة على الصفحة الأولى لصحيفة كندية يومية كبيرة؟ ما معنى «ذوي البشرة السمراء» بالضبط، إن لم تكن سوى محاولة مقرفة لعزل المسلمين باعتبارهم «الآخرين» في المجتمع الكندي المتعدد الثقافات؟ ولاحظت مثلًا، كيف تتودد الصحيفة إلى رئيس شرطة تورونتو ورجال شرطته اللامعين، فهم لم يشيروا إليهم على أنهم «ذوو البشرة البيضاء» (وهم بالتأكيد كذلك).

لهذا، طرحت هذا السؤال على جوناثان كاي، كاتب مقالات في «بوست»، ولا يمانع من نشر بعض الخوف في صحيفته. ألم تكن عبارة «ذوي البشرة السمراء» تدفع بالصحافة نحو العنصرية. وإليكم جوابه المدهش: «هذه تعابير شعبية شائعة مثلما كنا، كما تعلم، نقول «ملوّنين» قبل أربعين سنة». تعابير شعبية؟ إن قاموسي يعرّف التعبير الشعبي كما يلي: هو استخدام الإشارة أو التفوّه بعبارات طبيعية بلغة المتكلم الأم. بمعنى آخر، من الطبيعي جدًّا في كندا هذه الأيام أن نشير إلى المسلمين بـ «ذوي البشرة السمراء». هل أضحك أو أبكي؟ يعتقد السيد كاي، إذا طلب مني وصف أفضل شرطيي تورونتو، بحسب أصولهم العرقية، «كنت ستقول رئيس الشرطة الأبيض». كم هذا صحيح.

في خضم هذا المستنقع، يتمكّن صحافيو كندا من تلطيف وقائع تورط بلادهم العسكري الجديد في أفغانستان. فقد نُشرت أكثر من ٢٠٠٠ كتيبة حول قندهار في عمليات عسكرية نشطة على ثوار طالبان. إنهم يحلون محل القوات الأميركية التي ستنتقل لمحاربة المزيد من الثوار المسلمين في العراق. والآن كندا متورطة في حرب أفغانستان. ومن يشك في هذا، عليه أن يلاحظ أن البلاد قدّمت إلى الولايات المتحدة ١,٨ مليار دولار «مصاريف دفاعية» في أفغانستان، و٥٠٠ مليون فحسب «مصاريف إضافية»، بينها المساعدات الإنسانية والتحديث الديموقراطي... إلخ، وما يتبعها في العراق. بعبارة أخرى، مضت كندا إلى الحرب في الشرق الأوسط. ووفقًا لوزير الخارجية الكندية، لا شيء من هذا قد يسبب غضب المسلمين في البلاد، على رغم أن جاك هوبر، رئيس

الاستخبارات الأمنية الكندية الذي عليه تعلم الكثير عن الشرق الأوسط لكنه كثير الكلام، قال منذ بضعة أيام: «لدينا ملف أمني خطير [في كندا] قبل أفغانستان. في أي حال، وجود الكنديين والقوات الكندية هناك زاد من هذا الخطر نوعًا ما».

لقد قرأت هذا كله أثناء رحلتي من كالغاري إلى أوتاوا هذا الأسبوع، جالسًا في الصف خلف تيم غودارد وزوجته سالي وابنته فيكتوريا، الذين كانوا يتحدثون في لطف ويضحكون في شجاعة للطاقم والركاب. وفي عنبر البضائع في طيارتنا، كان تابوت نيكولا، ابنة السيد غودارد وأول جندية كندية تسقط في معارك أفغانستان. وفي اليوم التالي، كان يذر التراب على ضريحها في المقبرة العسكرية الوطنية الكندية. وظهرت صورة مؤثرة جدًّا له في صحيفة «بوست»، لكنها كانت في الصفحة السادسة. أما على الصفحة الأولى؟ فصورة لشرطي بريطاني يقف خارج منزل في برادفورد، يملكه مسلم «قد تربطه صلات بكندا». صلات مفترضة بالطبع.

«ذي إندبندنت»، ١٠ حزيران/يونيو ٢٠٠٦

مسألة «الإيمان»

أولًا، أقدّم إليكم أفضل نكتة في بلفاست منذ سنوات، «هدية» من صديقي القديم دايفد مكيتريك الذي عمل عام ١٩٧٢ في «أيريش تايمز» في شمال إيرلندا عندما كنت مراسل «تايمز» في لندن، واشتغل والده في «هارلند أند وولف» شركة السفن التي بنت سفينة «تايتانيك». قال دايفد: «عليك الاعتراف بفضل «هارلند أند وولف». فلولاها لما وصلت «تايتانيك» إلى مكانتها اليوم». ربما كان السبب المكسرات والبيرة في فندق مالميزون وزينته الجنائزية، لكن نكتة دايفد كانت تمثّل نوعًا ما بلفاست الجديدة. لطالما سخر سكان شمال إيرلندا من أنفسهم، لكنهم فعلوا ذلك محرجين خلال سنوات العنف، وقبلها حتى.

عندما أُنتج أول فيلم ضخم عن «تايتانيك» عام ١٩٥٧ - الفيلم الذي أدى فيه كينيث مور دور لايتولر الضابط المساعد - كانت شركة «هارلند أند وولف»، قلعة البروتستانت تلك، لا تزال خجلة من أشهر سفنها، ورفضت تقديم أي مساعدة إلى صانعي الفيلم ومنتجيه، بل رفضت السماح لهم حتى بالاطلاع على تصاميم بناء السفينة. أما اليوم في بلفاست، فتعترف «هارلند أند وولف» ومروجو «تايتانيك» للسياح بفخر، بإنجازهم الباهر، وإن كان مشؤومًا. بلفاست هي مدينة «تايتانيك»، حيث يقف النصب الأصلي لضحاياها، وقد نُظّف حديثًا، خارج مجلس المدينة قبالة المقر الرئيس لمصرف ألستر (حيث يقلقهم حسابي المصرفي بمقدار ما أقلقهم جبل الجليد عام ١٩١٢).

كنت أحاضر في بلفاست الأسبوع المنصرم، فأذهلتني معرفة سكان شمال إيرلندا الواسعة بالشرق الأوسط. ويبدو أن المجتمعات المنقسمة تنجذب بعضها إلى بعض أحيانًا. لقد أرادت لجنة بلادي «سانداي في ديري»، التي تشكلت

تخليدًا لذكرى الكاثوليك الأربعة عشر الذين قتلتهم القوات المظلية البريطانية عام ١٩٧٢، «التوأمة» مع مدينة الفلوجة العراقية عام ٢٠٠٣، بعد مقتل أربعة عشر مدنيًّا عراقيًّا فيها على أيدي القوات المظلية الأميركية الرقم ٨٢، وهو الحدث الذي أشعل تمردًا حوّل العراق برمته منطقة كبيرة تشبه بوغسايد: «ممنوع المرور».

عام ٢٠٠٠، كتب جون هيوم مقالا لـ«جيروزالم بوست» أقرَّ فيه بإمكان تطبيق اتفاق «غود فاريداي» على الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، لكنني خالفته الرأي. فمعاهدات سلام الآخرين لا يمكن نسخها بطريقة سليمة. فالضفة الغربية، بمستوطناتها اليهودية الهائلة، تشبه إيرلندا في القرن السابع عشر بعد انتزاع أراضي الكاثوليك. هذه هي الفكرة التي أوضحتها للجمهور قرب نهر لاغان.

أسئلة الجمهور: أيمكن إجبار إسرائيل على التزام قرار مجلس الأمن الرقم ٢٤٢؟ الجواب: كلا. هل لبنان معرض الآن لخطر أكبر مما كان عليه قبل الحرب الأخيرة؟ الجواب: نعم. هل بلير هو فعلًا «كلب بوش» المدلل في الشرق الأوسط؟ الجواب: نعم. كيف يمكن «الإيمان» أن يجلب السلام إلى شعوب الشرق الأوسط من «ذرية إبراهيم» (مبادرة يوحنا بولس الثاني)، وبالطبع، ما أثر استشهاد البابا بينيديكتوس بامبراطور بيزنطي من العصور الوسطى؟ الجواب: إن بينيديكتوس - ليس البابا المفضل لدي - ذكي كفاية ليتوقع تأثير عبارته المزعجة والمقلقة في أيامنا هذه عن العنف والنبي محمد.

عليَّ أن أضيف أن هذا كله، حدث قبل يومين من قرار بينيديكتوس إجلاء سكان المطهر، ونقلهم إلى مساكن مريحة أكثر في الجنة، لأن انهيار الكنيسة المسيحية البطيء في الغرب، معناه - في رأيي - أن تنتقل بنفسها إلى المطهر. وقد برزت مسالة «الإيمان» في اجتماع كبير - معظمه من الشباب - في رهبانية كلونارد في فالز، وهي مؤسسة تبشيرية كاثوليكية تملك كنيستها الرائعة ميزات

التردد الصوتي التي تتميز بها قاعة رويال ألبرت هول ولا بد من أنهما بُنيتا في المدة نفسها تقريبًا - التي يثير تدينها الواضح قلق «العلمانيين» من أمثالي. لقد كنت أخطب عن شرور الحروب ولاأخلاقية «التدخل البشري المسلح» عندما أتى السؤال من الأب جيري رينولدز الذي يُعدّ في حد ذاته، ركنًا من أركان مدينة بلفاست.

وددت أن أذكر أن والدي، وهو على حافة موته، قال إنه لم يخش «الرحيل»، لكنه أشار إلى خوفي «لأنك لا تملك إيمانًا»، إلّا أنني أخبرت الحضور أننا نحن الغربيين (ما عدا الأب رينولدز)، خسرنا إيماننا عمومًا، بينما لم يخسره العالم الإسلامي. وكان أكثر سؤال تكرر في بلفاست هو: كيف يمكننا إجبار قادتنا على إيقاف حروبهم؟ لا أعرف الجواب، لكنني أحب ملاحظة تلك الكاتبة الكندية الخلّاقة، مارغريت آتوود، في روايتها الأخيرة «مورال ديسوردير». كتبت: «لا يمكنك أن تكون قائدًا، إذا لم يتبعك أحد». تُرى، أهذه هي طريقة التعامل مع بلير لورد كوت العمارة، وزمرته؟

لو قال جاك سترو ذلك الأسبوع، إنه يود من النساء المسلمات أن يخلعن حجابهن في جراحته البرلمانية، لكنت طعنته بسكين الإيمان في الرهبانية. الله وحده يعلم ما الذي سيطلبه في «جراحته المقبلة» إزالة غطاء رأس جميع الراهبات الكاثوليكيات؟ أم الشُّعُور الاصطناعية التي تعتمرها نساء اليهود الأرثوذكس؟ لا يمكنني ألا أفكّر أن لولا جاك سترو لما بلغ الخوف من الإسلام المبلغ الذي وصل إليه اليوم.

«ذي إندبندنت»، ٧ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٦

كراهية على خارطة

لمَ نحاول تقسيم مواطني الشرق الأوسط وشعوبه؟ لمَ نحاول تقطيعهم، وجعلهم مختلفين، وتذكيرهم - في استمرار، وفي خبث وعنف - بانقساماتهم، وشكوكهم وقدرتهم على الكراهية المتبادلة؟ هل السبب هو عنصريتنا المعتادة؟ أم ثمة أمر أكثر سوداوية في نفوسنا الغربية؟

انظروا إلى الخرائط. هل أنا الوحيد الذي يشمئز من نزعتنا الصحافية لنشر خرائط الشرق الأوسط «المذهبية»؟ لقد فهمتم قصدي. فلقد ألفنا جميعًا خارطة العراق بألوانها الرمزية. الشيعة في أسفلها (طبعًا)، والسنة في منتصف «المثلث» - في الواقع يشبه ثمانيّ الأضلاع (أو خماسيّ الأضلاع) - والأكراد في الشمال؛ أو خريطة لبنان، حيث أعيش: الشيعة في أسفلها (طبعًا)، والدروز إلى الشمال، والسنة في صيدا وعلى ساحل بيروت، والشيعة في الضواحي الجنوبية من العاصمة. يوجد سنة وشيعة في المدينة - أما المسيحيون الموارنة فأبعد إلى الشمال، والسنة في طرابلس، والمزيد من الشيعة شرقًا. كم نحب هذه الخرائط. فهي تُسهّل عملية الكراهية.

طبعًا، ليس الأمر بهذه البساطة. هل أخبر سائقي السُّنّي، عبد، أن خارطتنا تُظهر أنه لم يعد في إمكانه أن يركن السيارة بالقرب من منزلي؟ أم أخبر الناشر المسلم لنسخة كتابي العربية «ذا غريت وار فور سيفيلايزيشن» (الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة)، أنه لا يستطيع لقائي بعد الآن في مكاننا المفضل في مطعم بول في بيروت الشرقية لتناول الغداء، لأن خرائطنا تُظهر أن هذه منطقة المسيحيين الموارنة في بيروت؟

في الطريق الجديدة (السنية) غادرت عائلات شيعية منازلها، موقتًا، في

عطلة صغيرة، تاركة المفاتيح مع الجيران، وهذه هي الحال دومًا، ما يعني أن خرائطنا لبيروت أصبحت أنظف وأسهل على الفهم. ويحدث الشيء نفسه في بغداد على نطاق أوسع بكثير. لقد أصبحت ألواننا الرمزية أنقى. ولا داعي لاستخدام عبارة «منطقة مختلطة» التي تزعجنا.

لقد فعلنا الأمر نفسه في البلقان. كان وادي درينا في البوسنة للمسلمين حتى «طهّره» الصرب. سربرينيشا؟ امحُ عبارة «منطقة آمنة»، واكتب «منطقة للصرب». كراجينا؟ كانت صربية إلى أن سيطر عليها الكرواتيون. هل سميناهم «كرواتًا»، أم «كاثوليكيين» أم الاسمين على خارطتنا؟

إن ذنبنا في هذه اللعبة الطائفية واضح. نريد تمييز «الآخرين»، («هم»)، اعدائنا المحتملين، بعضهم عن بعض، بينما نظل، نحن الغربيين المتحضرين بقيمنا الموحدة الراقية المتعددة الثقافة فوق مستوى الشبهات. يمكنني ان أرسم خارطة مذهبية لمدينة بيرمينغهام البريطانية مثلًا - مقسمة بين «مسلمين» و«غير مسلمين» - ولكن لن تنشرها أي صحيفة. ويمكنني أن أرسم خارطة عرقية جدًّا لواشنطن، تظهر فيها الخطوط الفاصلة بين مجتمعات «البيض» و«السود»، لكن «واشنطن بوست» لن تنشر خارطة كهذه أبدًا.

تخيلوا كم ستستمتع «نيويورك تايمز» بتلوين مناطق بروكلين وهارلم والنهر الشرقي، بالأبيض والأسود والبني، وتوزيع سكانها: إيطاليين، وكاثوليكًا، يهودًا وبروتستانتًا بيضًا؛ أو متعة «تورونتو غلوب أند مايل» بالتمييز بين مونتريال الفرنسية وغير الفرنسية (يمر الخط الفاصل بينهما عبر نفق المدينة)؛ أو تورونتو (حيث أصبحت منطقة «إيطاليا المصغرة» أوكرانية أو يونانية)، وتلوين ضواحي مسيساوغا بالأخضر للمسلمين طبعًا. لكننا لا نرسم هذه الخرائط الهتلرية لمجتمعاتنا. فسيكون هذا أمرًا لا يُغتفر، ولاأخلاقيًا، وهو ما لن نفعله أبدًا في حضارتنا الثمينة التي نحرسها في حذر.

مررت بالقرب من كشك صحف في نيويورك هذا الأسبوع، فلمحت مجلة

«تايم» المجحفة وعلى غلافها - الذي يشبه فعلًا أغلفة المجلات النازية في الثلاثينات - رجلان مقنّعان، أحدهما بالأسود، والثاني أخفى وجهه بوشاح مرقع. كان العنوان الرئيس: «السُّنة ضد الشيعة»، «لمَ يكرهون بعضهم بعضًا». كان هذا طبعًا تحليلًا للحرب الأهلية في العراق. في المناسبة، إنها حرب أهلية تحدث عنها الناطق الرسمي الأميركي في بغداد في آب/أغسطس ٢٠٠٣ في حين لم يتصور عراقي واحد أن هذا ما سيحدث لاحقًا.

اشترِ مجلة «تايم»، عزيزي القارئ، وافتح الصفحة ٣٠. ما الذي ستجده؟ «كيف تُميّز بين السني والشيعي». مفيد، صح؟ وتليه مقالات تحوي معلومات مفيدة للتمييز بينهما. «الأسماء» مثلًا. «ثمة بعضها الذي يحمل معنى مذهبيًا: أبو بكر، عمر، وعثمان. إن من يحملون هذه الأسماء سُنة بالتأكيد. ومن كان اسمه عبد الحسين أو عبد الزهراء (في المناسبة، لم أقابل في حياتي أحدًا اسمه عبد الزهراء)، فهو شيعي على الأرجح»، ثم نجد مقالات تحت عناوين، مثل «الصلاة»، «المساجد»، «المنازل»، «اللهجات»، «اللكنات» و«السيارات» حتى... ارحمنا يا الله. وأخيرًا - للقراء التائهين غير المصدقين، يخبرنا مقال بنوع ملصقات السيارات التي يجب أن ننتبه إليها (إذا لمحت صورة للإمام علي فستعلم أن السائق شيعي على الأرجح)، أو نوع لوحة التسجيل (إذا كانت السيارة مسجلة في مقاطعة الأنبار، فهذا معناه أن السائق سني على الأرجح).

شكرًا مجددًا. لا أعلم لمَ لا يشتري الجيش الأميركي أعداد هذا الأسبوع من «تايم»، ويرميها فوق بغداد ليساعد أي مجرم محلي جاهل على التعرف إلى أهدافه في سهولة. ولكن، هل تساعدنا «تايم» على التعرف إلى المجتمع الأميركي المنقسم في شدة (من يملك نفايات أكثر في حديقته في واشنطن، ما هي الملصقات التي يجب أن ننتبه إليها في ديربورن، ميتشيغان)؟ بالتأكيد لا.

أنا أيضًا مذنب بلعب هذه الألعاب المذهبية الصغيرة في الشرق الأوسط. فأنا أسأل أي لبناني ألتقيه عن المنطقة التي وُلد فيها، لا لأتذكر الأنهار

والجبال بالقرب من مسقط رأسه، بل لأضع رمزًا له في خارطتي. لكنني أتحرر من هذا التصنيف في سهولة. فمن يخبرني أن أصله من جنوب لبنان (شيعة)، يتضح أنه يعيش في قرية حاصبيا الدرزية. ومن تخبرني أنها من جبيل (مسيحيون) يتضح أنها من القلة الشيعية في المنطقة. آه، لو تغادر هذه الأقليات المزعجة لتعيش في مناطقها المناسبة في خرائطنا المذهبية الاستعمارية.

ونتابع التحاور مع ملوكنا السُّنة في الشرق الأوسط - ونستمع إلى هذيانهم عن «الهلال الشيعي» - لا عجب أننا نكره شيعة إيران إلى هذا الحد. ونتابع تقطيع الأراضي وتقسيمها، ونطبع المزيد والمزيد من خرائطنا العنصرية، وأتساءل في جدية تامة هل ننوي الترويج لحروب أهلية في أنحاء هذا القسم من العالم. أتعلمون؟ أظن أننا نريد هذا.

«ذي إندبندنت»، ٣ آذار/مارس ٢٠٠٧

«إذا قصفتم مدننا فسنقصف مدنكم»

في ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٥ - يوم اجتماع قمة الدول الثماني الكبرى في اسكوتلندا - فجّر أربعة مسلمين بريطانيين انتحاريين أنفسهم في شبكة أنفاق لندن للقطارات والباصات، وقتل ٥٢ شخصًا وجُرح ٧٠٠ آخرون.

«إذا قصفتم مدننا فسنقصف مدنكم»، هذا ما قاله أسامة بن لادن في أحد تسجيلاته الفيديوية الحديثة: «سندمر مدنكم». تفضلوا، لقد كان واضحًا وضوح الشمس أن البريطانيين مستهدفون مذ قرر طوني بلير الانضمام إلى جورج بوش في «حربه على الإرهاب» وغزو العراق. لقد تلقينا التحذير. من الواضح أن يوم انعقاد قمة الثمانية الكبار اختير مسبقًا ليكون يوم تنفيذ العملية.

ومن غير المجدي أن يخبرنا السيد بلير أمس، أنهم «لن ينجحوا أبدًا في تدمير أغلى ما لدينا». إنهم لا يحاولون تدمير «أغلى ما لدينا». إنهم يحاولون دفع الرأي العام إلى إجبار بلير على الانسحاب من العراق، ومن حلفه مع الولايات المتحدة، ومن طاعته لسياسات بوش في الشرق الأوسط. لقد دفع الإسبان ثمن دعمهم بوش - وأثبت انسحاب اسبانيا من العراق لاحقًا أن تفجيرات مدريد حققت أهدافها، بينما تحمّل الأستراليّون المعاناة في بالي.

من السهل على طوني بلير أن يصف تفجيرات البارحة بـ «البربرية» - طبعا إنها كذلك - ولكن ماذا تسمي الوفيات المدنية في الغزو الأنغلو أميركي للعراق عام ٢٠٠٣، والأطفال الممزَّقين أشلاء بالقنابل العنقودية، وأعدادًا لا تحصى من العراقيين الأبرياء الذين حصدتهم نقاط تفتيش الجيش الأميركي؟ عندما يُقتلون نقول إنها «أضرار غير مقصودة» وحينما «نُقتل» فهذا «إرهاب بربري». إذا كنا نحارب التمرد في العراق فما الذي يمنع من أن يأتي إلينا؟ أمر واحد أكيد:

إذا كان طوني بلير يعتقد فعلًا أن «محاربة الإرهاب» في العراق ستمكننا من حماية بريطانيا بفاعلية أكبر - محاربتهم هناك بدلًا من أن نتركهم يأتون إلى هنا، كما يقول بوش دومًا - فهذه الحجة لم تعد مجدية.

إن توقيت هذه التفجيرات مع موعد انعقاد قمة الثمانية الكبار، عندما كانت أنظار العالم مسلطة على بريطانيا، لم تكن ضربة عبقرية. فأنت لا تحتاج إلى شهادة دكتوراه لتختار لقاء حميمًا آخر بين بوش وبلير موعدًا لإقفال عاصمة البلاد بالتفجيرات وذبح أكثر من ثلاثين مواطنًا فيها. لقد أُعلن موعد قمة الثمانية الكبار قبل وقت طويل من انعقادها لمنح الانتحاريين الوقت الكافي للتحضير. إن الهجمات المنسقة التي رأيناها بالأمس تستوجب أشهرًا من التحضير: اختيار المنازل الآمنة، وتجهيز المتفجرات، وتحديد الأهداف، والتخطيط لوسيلة التواصل بينهم (فالهواتف الخلوية ستكشفهم). إن التنسيق والتخطيط المعقد والقسوة الوحشية المعتادة تجاه أرواح الأبرياء، هما سمتا القاعدة. وليتنا لا نستخدم عبارة «علامة الجودة» - كما فعل زملاؤنا في الفضائيات البارحة - لأنها تدل إلى الفضة الثمينة لا المعادن البخسة.

والآن، دعونا نتأمل حقيقة أن افتتاح قمة الثمانية الكبار البارحة في يوم شديد الحساسية والدموية، كان فشلًا كاملًا لقوات أمننا، وهم «الخبراء» الاستخباراتيون أنفسهم الذين زعموا وجود أسلحة دمار شامل في العراق في حين فشلوا فشلًا ذريعًا في اكتشاف خطة عمرها أشهر لقتل سكان لندن: القطارات والطائرات والباصات والسيارات وقطارات الأنفاق. تبدو وسائل النقل من اختصاص فنون القاعدة الشريرة. لا يمكن أحدًا تفتيش ٣ ملايين راكب في لندن يوميًا. لا يمكن أحدًا توقيف كل سائح. ظن البعض أن «يوروستار» قد تكون هدف القاعدة - تأكدوا من أنهم درسوا هذا الاحتمال - لكن لمَ استخدام وسيلة الرفاهية في حين يمكنك الإفادة من أي باص عادي أو قطار نفقي لتحقيق غاياتك؟

ثم أتى دور المسلمين في بريطانيا، الذين انتظروا هذا الكابوس منذ أمد بعيد. الآن أصبح كل مسلم بيننا «متهمًا»، الرجل أو المرأة ذات العينين البنيتين، الرجل الملتحي، المرأة المحجبة، الصبي الذي يحمل أمارات القلق، الفتاة التي تقول إنها شُتمت بسبب أصلها. وهذا بعض من أهداف تفجيرات أمس: فصل المسلمين البريطانيين عن غيرهم من البريطانيين (لن نقول المسيحيين) لتشجيع العنصرية نفسها التي يدعي بلير كرهه لها.

ولكن، إليكم المشكلة. إن استمرارنا في الادعاء أن أعداء بريطانيا يريدون تدمير «أغلى ما لدينا»، يشجع على العنصرية، فالذي نواجهه هنا هو هجوم مركزي محدد ومباشر على لندن نتيجة «الحرب على الإرهاب» التي أوقعنا فيها طوني بلير. قبيل الانتخابات الرئاسية الأميركية، سأل بن لادن: «لماذا لم نهاجم السويد؟». يا للسويد السعيدة الحظ. فلا يوجد فيها أسامة بن لادن ولا طوني بلير.

«ذي إندبندنت»، ٨ تموز/يوليو ٢٠٠٥

أكاذيب العنصريين

آه، كم يمتحن صبري مسلمو الشرق الوسط عندما يتعلق الأمر بالحقائق التاريخية. فبعد سنوات وأنا أشرح لأصدقائي العرب أن المحرقة اليهودية - القتل المخطط والمنظم لستة ملايين يهودي على أيدي النازيين - هي حقيقة لا يمكن إنكارها، ما زلت أواجه رفضًا متعمدًا. وهذا الأسبوع، عرّض الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد بلاده للعار والمهانة عبر عقد «مؤتمر» حيادي مزعوم عن محرقة اليهود لتكرار أكاذيب العنصريين الذين لو لم يوجّهوا حقدهم تجاه اليهود، لكانوا وجهّوا سمّهم بالتأكيد نحو عرب الشرق الأوسط، الساميين الآخرين.

وأتساءل دومًا كيف يتوقعون أن يفهم الغرب التطهير العرقي لـ٧٥٠٠٠٠ رجل وامرأة وطفل من فلسطين عام ١٩٤٨، ويصدّقه، بينما يرفض العرب فهم ما ارتُكب من شرور في حق يهود أوروبا؟ وهنا طبعًا السخرية اللعينة في القصة كلها. فما على مسلمي الشرق الأوسط فعله هو أن يقولوا للعالم إنهم غير مسؤولين عن محرقة اليهود على رغم ما ارتُكب فيها من فظاعات وشرور. فمن الظلم المجحف والمخزي أن يُعذّب الفلسطينيون بسبب وضع لم يسببوه هم، والأبشع أن يُعامَلوا كما لو كانوا سببه. ولكن لا، لا يملك أحمدي نجاد الذكاء أو النزاهة لفهم هذه المعادلة البسيطة الأساسية.

صحيح أن مفتي القدس الفلسطيني صافح هتلر، لكن فلسطينيي عصرنا المقموعين والمسحوقين تحت الاحتلال، والذين ذُبحوا - في صبرا وشاتيلا، وفي جنين، وفي بيت حانون - لم يكونوا قد وُلدوا في الحرب العالمية الثانية.

إن عار إسرائيل وقادتها الأبدي، هو ادعاؤهم أن الفلسطينيين أسهموا في

الحرب العالمية الثانية. عندما كان الجيش الإسرائيلي يزحف إلى بيروت عام ١٩٨٢، كتب رئيس الوزراء الإسرائيلي حينذاك، مناحيم بيغن، رسالة معتوهة إلى الرئيس الأميركي رونالد ريغان، شارحًا فيها شعوره كأنه يزحف إلى «برلين» لتصفية «هتلر» (أي ياسر عرفات، الذي راح يُشبّه مقاتليه بالمدافعين عن ستالينغراد). وكتب أوري أفنيري - ذلك الكاتب الإسرائيلي الشجاع - رسالة مفتوحة إلى بيغن بدأها بقوله: «حضرة رئيس الوزراء، لقد مات هتلر». لكن هذا لم يمنع أرييل شارون من تجربة الخدعة نفسها عام ١٩٨٩. ففي حديثه مع وزارة الخارجية الأميركية، كان عرفات «مثل هتلر، الذي كان لديه الكثير للتفاوض عليه مع الحلفاء في الشطر الثاني من الحرب العالمية الثانية». وقال شارون لجريدة «وال ستريت جورنال» «إن عرفات هو عدو من الطراز نفسه».

لا داعي للقول إن أي مقارنة بين سلوكي القوات الألمانية في الحرب العالمية الثانية والقوات الإسرائيلية اليوم (وزعم الإسرائيليون الكاذب دومًا بـ «طهارة سلاحهم») تعدُّ معادية للسامية. وأظن عمومًا أن هذ هو رد الفعل السليم. فالإسرائيليون لا يرتكبون عمليات اغتصاب جماعية، أو ذبح الفلسطينيين أو تركيب غرف غاز لهم. ولكن لا يسهل دومًا فصل أفعال القوات الإسرائيلية عن هذا التشابه المجنون. لقد أرسلت إسرائيل ميليشيا الكتائب اللبنانية المسيحية الحانقة إلى مخيمي صبرا وشاتيلا، بعدما أخبرتها أن الفلسطينيين قتلوا زعيمها [بشير الجميل]. وشاهدت القوات الإسرائيلية المذبحة ولم تفعل شيئًا.

وأشار الروائي الإسرائيلي أ .ب. يهوشع، إلى أن حتى لو لم تعلم قوات بلده ما كان يحدث، «لكان جهلها هذا تماما كجهل الألمان الواقفين خارج بوخينوالد وتريبلينكا من دون أن يعلموا ما يحدث فيهما».

بعد مجازر جنين، اقترح ضابط إسرائيلي على رجاله - وفقًا للصحف الإسرائيلية - أن يدرسوا تكتيكات القوات النازية في وارسو عام ١٩٤٤ في معارك الأحياء الضيقة. وعليّ أن أسأل - ومن الواجب طرح هذا السؤال -

كيف يمكننا ألّا نتذكّر هجمات قوات لوفتوافي النازية على اللاجئين الفرنسيين العزل عام ١٩٤٠، بعدما قتلت القوات الجوية الإسرائيلية أعدادًا لا تحصى من اللاجئين اللبنانيين المدنيين على طرق لبنان في أعوام ١٩٧٨، ١٩٨٢، ١٩٩٣، ١٩٩٦، ومجددًا هذا الصيف [٢٠٠٦]؟ لقد قُتل الآلاف من اللبنانيين بهذه الطريقة خلال السنين الخمس والعشرين الماضية.

أرجو منكم أن تعفوني من سماع ذاك الهراء عن «الدروع البشرية». ماذا عن سيارة الإسعاف المملوءة بالنساء والأطفال التي قصفتها طوافة إسرائيلية تحلق على علو مخفوض بصاروخ عام ١٩٩٦؟ أو قافلة اللاجئين التي تمزق النساء والأطفال فيها إربًا بقصف طوافة إسرائيلية أخرى تطير على علو مخفوض، وقد كانوا يفرون على الطرقات بعدما أمرهم الإسرائيليون بمغادرة منازلهم! لا، ليس الإسرائيليون نازيين. لكن الوقت حان لنتحدث عن جرائم الحرب حتى يكفّوا عن هذه الاعتداءات على اللاجئين. ويحق للعرب التحدث بالطريقة نفسها وعليهم ذلك. ولكن عليهم التوقف عن الكذب حيال التاريخ اليهودي، وربما تعلّم الدرس من المؤرخين الإسرائيليين الذين يتحدثون في صدق عن الوحشية التي واكبت ولادة إسرائيل.

أما بالنسبة إلى رد فعل الغرب على تخاريف أحمدي نجاد، فقد كان رئيس الوزراء بلير «مصدومًا» وغير مصدّق. أما رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود أولمرت فرد بأسلوب احتقاري أكثر فصاحة. أنا متيقن من أن أحمدي نجاد - الذي يعي تمامًا قيمة علاقة إيران الثمينة بتركيا - سيكون أجبن من أن يحيي محرقة الأرمن في طهران. من كان ليتصور أن بين حكومات بريطانيا وإسرائيل وإيران هذه الجوامع المشتركة؟

«ذي إندبندنت»، ١٦ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦

علم الأحلام

عندما كنت صبيًّا صغيرًا، لم يكن يراودني إلا كابوس واحد، كان بطله دائمًا كلب جدي. كان آرثر روز يملك كلبًا ودودًا من نوع لابرادور، يطلق عليه لقب «سير لانسوليه» - اسم «لانس» تصغيرًا له - وكنت أعشق هذا الكلب. أظن أنه كان يحبني بدوره، لأننا كنا نتسابق حول قطعة الأرض الواسعة خاصة أرثور، وعندما أحاول رفعه نحو الأعلى كان يحاول تقليدي، ويرفعني بدوره إلى أعلى، وحينما أستلقي أرضًا كان يجلس مديرًا لي ظهره، ومصفقًا بذيله السميك والقوي نحو وجهي. أما في كوابيسي، فكنت دائمًا في مواجهة «لانس» العدائي، وقد تحول الآن إلى «لاب» غير وديّ، على شكل مخلوق يعض وينبح تمامًا كالذئب. أما فروته المستردة الذهبية اللون، فبقيت على حالها، لكن وجهه كان مشوّهًا بالبغض الذي يكنّه لي، وكان يثير في نفسي الخوف حتى يسبب بكائي الناتج عن الخوف، نهوض والدي لتفقد سريري. كان يهزني مرارًا وتكرارًا حتى أتحرر من طيف هذا الكلب الشبح المرعِب.

كنا ما نحن الغربيين، نميل إلى اعتبار الأحلام ظاهرة عَرضيّة ناتجة عن انخفاض النشاط العقلي، وجموده، وغيبوبة خاصة تنشأ عن تجاربنا اليوميّة، أو - في الحال الوحيدة التي راودني فيها كابوس عن الحرب - نتيجة صدمة الرعب الحقيقي. فبعد مجزرة مخيمَي صبرا وشاتيلا في العام ١٩٨٢، ظننت في الواقع، خلال نومي، أن الأجساد كانت متكدسة على السرير من حولي. أما السبب فبسيط: كنت أمر فوق الجثث المتحلّلة حيث تفوح من ثيابي رائحة الموت. ولكن خلافًا لذلك، كانت أحلامي عبارة عن أمور غير حادة جدًّا: بحار هائجة، وجدال مع صديق، وخوف مرعب نتيجة الاستعداد لنقل نسخة إلى

«ذي إندبندنت» في شأن أمر اختبرته خلال كابوس ما. ومن الواضح أن المراسلين في فييتنام مرّوا بالأمر نفسه.

ولكن بالنسبة إلى مجموعة المسلمين المتطرفين، فإن الأحلام تذهب بعيدًا، على أنها أكثر من مجرّد أمر جديّ، إذ أُنزل الوحي على النبي محمّد من الله - القرآن - بعد مراودته سلسلة من الأحلام دامت ستة أشهر، وبين هؤلاء مَن يؤمن بأن النص الكامل للقرآن أُنزل على النبي في ذهول أشبه بحلم. وبعبارات أخرى، لم تعد الأحلام مجرّد انعكاس لتكاسل الدماغ البشري، بل قد تُعدُّ اتصالًا مباشرًا بالله. وقد أرسل إلي البروفسور إيان إدغار من قسم الأنثروبولوجيا في جامعة درهام، نتائجَ التحقيق الخاص الذي أجراه في شأن هذه الظاهرة(*)، تجربة «الحلم الحقيقي» - أو الرؤية في اللغة العربية - حيث يُعتقد أنها «جزء أساس ومُلهم، بل حتى استراتيجي من الحركة الجهادية المناضلة والمعاصرة في منطقة الشرق الاوسط وفي أنحاء العالم». ويصف الإسلام بأنه «على الأرجح ثقافة الحلم الليلي الأوسع نطاقًا في عالم اليوم»، حيث يقتبس إدغار «حديثًا» (وهو قول للنبي) تقول فيه عائشة، زوجة محمّد، إن «بداية الوحي الإلهي كانت على شكل أحلام تقيّة وصالحة خلال نومه... لم يراوده قط أي حلم، لكن ذلك جاء كومضة نهار».

وألف كاتبٌ متخصص في الأحلام، عاش في القرن الثامن عشر، في البصرة، جنوب العراق، اسمه ابن سيرين، كتابًا عن الأحلام وتفسيراتها، قسّم فيه الأحلام إلى الأحلام الروحانية («رؤى») المستوحاة من الشيطان، و«الأحلام المنبعثة من «النفس» (ومعناها «الدم الجاري والحامي»)، وهي عبارة عن روح دنيويّة تمتزج في جسم الشخص الحالم، وتكون مختلفة عن الروح». إني أخشى أن يوضع كلب جدي اللابرادور والشرس في هذه الخانة الأخيرة. ولكن يُمنع العبَث بهذه الأفكار. ولثلاث سنوات خلت، قدم محمد آمن الله ورقة في

(*) «حلم الليل الإيحائي لتحفيز الجهاد وتبريره»، بقلم إيان. ر. إدغار، جامعة درهام.

بيركلي، يكشف من خلالها أن نصف الموظفين المسلمين الاثني عشر والعاملين في قسم الدراسات الدينية في جامعة ماليزيا، شهدوا أحلامًا «حقيقية» حيث أظهرت نسبة خمسين في المئة منها النبيّ. إذ ويقتبس «حديث» عن النبي قوله «أيًا يكن مَن رآني في حلم ما، فلا شك في ذلك، لقد رآني بالفعل لأن الشيطان يعجز عن تقليد شكلي».

من المؤكد أن أسامة بن لادن يؤمن بالأحلام. فهو لم يكتفِ بإخباري مرة أن أحد «أشقائه» راوده حلم بأنه رآني مرتديًا العباءة الإسلامية ملتحيًا، وأنا أمتطي حصانًا، ولا بدّ من أن يعني ذلك أنني كنت «مسلمًا حقيقيًّا» - وهي محاولة لتجنيدي كنت أشحت النظر عنها في سرعة - ولكن بعد جرائم ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ ضد الإنسانية، نُقل عن لسانه قوله «إن أبا الحسن المصري أطلعني قبل عام أن «رأيت في حلم أننا كنا نمارس لعبة كرة القدم ضدّ الاميركيين. وعندما بان فريقنا في الملعب، تبيّن أن كلهم ربابنة طائرات!». وهو (المصري) لم يعلم شيئًا عن عمليات (٩/١١) إلى حين سماعه بالامر على جهاز الراديو. وأضاف أن اللعب تواصل وألحقنا بهم الهزيمة. كان ذلك بمثابة بشرى سارة لنا». وأفاد يسري فضة، وهو صحافي يعمل في قناة «الجزيرة»، سبق أن أجرى مقابلة في العام ٢٠٠٢ مع كل من مخططي القاعدة رمزي بن الشيبة وخالد شيخ محمّد، أن الشيبة تحدث عن مراودة أحلام عدّة له تتعلق بالإخوان قبل وقوع الهجمات. «فقد تحدث عن النبي وصحابته المقرّبين إليه، كما لو أنه التقاهم فعلًا». وقد تذكر الشيبة أن «محمّد عطا (أحد خاطفي الطائرات البارزين في هجمات ١١ أيلول/سبتمبر) أطلعني على أن مروان (الشهدي) راوده حلم جميل أنه يحلق عاليًا في السماء وتحيط به طيور خضر ليست من عالمنا، وأنه كان يصطدم بأشياء وكان سعيدًا جدًّا». وأشار فضة إلى أن «الطيور الخضر كثيرًا ما تملك دلالة معيّنة في الاحلام. فاللون الأخضر هو لون الإسلام. أما الطيور المحلقة فرمز للجنة. ويعلق إدغار أن تذكر بن لادن الحلم حيث يبدو فيه فيسك التاعس كإمامٍ يمتطي حصانًا، يرمز ذلك - وفقًا

لإيان إدغار - إلى وضع «شخص» ما وتصنيفه وشرفه وكرامته وقوته ومجده». شكرًا جزيلًا، لكن الحال ليست كذلك.

وقد أشار ريتشارد ريد، الذي اتُهم بتهريبه المتفجرات في حذائه في رحلة جوية تعبر الأطلسي تابعة للخطوط الجوية الأميركية، إلى حلم راوده حيث حاول ركوب شاحنة «البيك آب» التي كانت تغص بالركاب، وأجبر على السفر في سيارة أصغر حجمًا. على الأرجح أن شاحنة البيك آب ترمز إلى الطائرات الأربع التي استخدمت في اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر حيث أقصِيَ عنها ريد، أما السيارة فعبارة عن الطائرة التابعة للخطوط الجوية الاميركية، حيث أُجبر ريد على «اللحاق» بزملائه البالغ عددهم تسعة عشر. وبالنسبة إلى زكريا موسوي، وهو فرنسي من أصل مغربي، يُزعَم أنه خاطف الطائرة صاحب الرقم العشرين، فقد وجد أن أحلامه الخاصة بقيادة طائرة وصدمها بمبنى شامخ، أصبحت مسألة مهمة في محاكمته في الولايات المتحدة الاميركية في العام ٢٠٠٦. وقد أطلعت حركة طالبان، رحيم الله يوسف زاي، وهو الصحافي الأكثر حكمة حتى الآن في باكستان، على أن مؤسس الحركة، الملا عمر، الأعور «يتلقى تعليماته أثناء الحلم الذي يراوده، ويتقيّد بها». فالحلم بمثابة تكوين لتأسيس طالبان. وصودف ان اتصل الملا عمر مرة بيوسف زاي ليسأله عن تفسير حلم رأى فيه «قصرًا أبيض» تشتعل فيه النيران. وهو علم أن يوسف زاي زار البيت الأبيض. فهل بدا ذلك شبيهًا بالقصر الأبيض؟ كان ذلك قبل تاريخ ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١.

إنه لأمر مثير للدهشة، كَشْفُ قاري بدر الزمان بدر، وهو أسير سابق في معتقل غوانتنامو، لـ«دايلي تايمز» في لاهور كيف «أن عددًا من العرب راودتهم أحلام حيث أبشرهم النبي (صلى الله عليه وسلم) بنفسه خبر إطلاقهم... وقد رأى سجين عربي واحد يسوع المسيح يأخذ بيده ليقول له إن المسيحيين اليوم ضُلِّلوا وتمكن السجناء الآخرون في وقت لاحق من شم عطر المسيح على يده». وبعبارات أخرى، فإن المسيح، وهو نبيّ مهم عند الإسلام، يقول

للسجناء المسلمين إن المسيحيين ضُلِّلوا. ويعلق إدغار قائلًا: «كم بدت الرسالة المبيّنة من خلال الحلم، تجرّدًا من ضيمهم!»

ولكن تتوافر أيضًا الأحلام الخاطئة، إذ يستذكر إمام من بيشاور كيف أن رجلًا أطلعه أن النبي أخبره أنه يمكنه شرب الكحول. ولكن عندما أقر الرجل بأنه يشرب الكحول، قال الإمام إنه لم ير النبي، بل كان ذلك مجرّد تبرير للشرب. واأسفاه، أخشى انتفاء أي أمل بالنسبة إلينا نحن غير المخلصين!

«ذي إندبندنت»، ٢٦ يناير/كانون الثاني ٢٠٠٨

الفصل العاشر

أمر منيع

إن التاريخ ليس من مسؤوليتنا، لكن واجبنا يكمن في دراسة الماضي، ولا يقتصر وحسب على تجنّب تكراره المحزن، بل وفهم الحاضر. ففي لبنان، يستحيل ألا تتأثر عند رؤية الآثار الرومانية العظيمة المتناثرة في الأرياف، من دون إبراز تلك الامبراطورية الواسعة التي يفترض أن تُعرف بأنها «مدنيّة»، وجعلت من جميع الشعوب التي غزتها مواطنين رومانًا. وفي محاربة المسلمين في خلال الحرب العالمية الأولى، لا تزال معركة غاليبولي إحدى أهم هزائمنا العسكرية. ولكن، كيف «نستخدم» التاريخ لغاياتنا السياسية الخاصة، وكيف لا نحزن إلا على المتوفين حديثًا، وكيف نشعر في سهولة أننا قادرون على المضي قدُمًا والمطالبة بالاضطلاع بأدوار لنا في التاريخ. ونبدو تائهين في غياب جبابرة الأمس... لست متأكدًا من أن المراسلين الأجانب «يعيشون» التاريخ، لكننا نشهده بكل تأكيد، ولكن من دون الماضي. فنحن لا نشاهد إلا مجرّد أطيافَ تبرز على الجدران.



ما الذي كان الرومان سيظنّونه في شأن العراق

يُعدُّ البروفسور مالكوم ويلكوك، كي أكون دقيقًا، أحد الأساتذة الأكثر لطفًا وكياسة ودقة، الذين علموا اللغة اللاتينيّة الشنيعة والتاريخ الروماني، عندما ارتقيت إلى سنتي الدراسية الثانية في جامعة لانكستر في العام ١٩٦٥. فهو عمل على إحياء الامبراطورية الرومانيّة. وقد خطر في بالي هذا الصباح - سنة توفي - بينما كنت أجول في شوارع روما العتيقة، وأتمعّن في عِبَر إحدى الامبراطوريات السابقة، لا بل أكثرها خطورة. يجدر بي أن أضيف إن البروفيسور ويلكوك عمل في البدء أستاذًا للمادة الإغريقيّة - وكان عرّفني إلى أخيل حيث كان يتمشى والبحر النبيذي -. وأظهر، وفقًا لنعي إحدى شخصياته، «كيف استوحى هوميروس شخصياته بطريقة إبداعية من الأساطير المعروفة وحولها نماذج مقنعة للطريقة التي يتصرف فيها الأبطال».

أما الآن، فإني أتساءل ما الذي يذكرنا بذلك؟ في الواقع، ما الذي تذكرني به الأمبراطورية الرومانية؟ إني أتذكر وأعود بالزمن إلى العام ١٩٩٧، حين جمّعت قطعًا من صاروخ أميركي الصنع، وأخذتها إلى واشنطن حيث كنت أنوي أن أعرضها أمام صانعيها. وأشرت في يومياتي إلى المدينة «حيث كان اليوم الربيعي الماضي جميلًا: الكابيتول وأهم الأبنية الحكومية التي بدت شبيهة بروما القديمة...». صحيح أن بنّائي واشنطن كانوا يرغبون في أن تبدو مدينتهم شبيهة بعاصمة مالكوم ويلكوك الأكثر شهرة. وقد شبّه جنود أميركيون كُثُرٌ يؤدون واجبهم في العراق - وبينهم شاب قتِل هناك العام المنصرم - حيواتهم بحيوات قادة المئة عند الرومان. وليس بالأمر الصعب مشاهدة الاميركيين بأجهزتهم القتالية - الخوذ على الطريقة الألمانية ودرع الجسم كيفلر المرهقة والجزمات البنيّة - ورؤية قادة المئة بدروعهم الجلديّة وخوذهم المزيّنة بالريش.

يمكننا الانتقال إلى العراق، حيث تخبرنا بزاتهم بذلك. يمكننا عبور أراضي السومريّة حيث من المفترض أن تكون الحضارة انطلقت، في إمكاننا الوقوف في بغداد. إننا نشكّل (ألم يكن أنطونيوس أصلًا عضوًا في الحكومة الثلاثية تقريبًا) واحدة من «دعائم العالم الثلاثية»، وكي تحسوا بوقع الأقدام الرومانيّة، اشعروا بهدير الدبابة من نوع «أبرامز أم ١ إيه ١». لكن، أهكذا تكون الامبراطوريات؟ اعتدت أن أصدق أنها كانت تضم نظام احتواء الخوف الخاص بها، إذ كانوا يوجهون ضرباتهم إلى هؤلاء الذين يجب عليهم أن يفهموا المقولة الرومانية Carthago delenda est. علينا ان ندمّر قرطاجة (حيث تتم الإشارة إلى القاعدة) لكنني لست متأكدًا. أظن أن الامبراطوريات - الرومانية والبريطانية والأميركية - تتوسع لأنها بطبيعتها تجسد، في شكل دائم وحاسم، القوة العسكرية. يمكننا التوجه إلى بغداد، إذًا، فلنتوجه إلى بغداد. وأذكر أن البروفيسور ويلكوك أثار انتباهي إلى كراسوس، ذلك الميلياردير الروماني العظيم الذي جمع ثروته من عملة Sestertii، من تأجير البيوت الرومانيّة، حيث تمكنت شخصيته، في شكل مقنع، من أسر انتباه لورانس أوليفييه في فيلم «سبارتكوس». وقد أخذ أعضاء فرقه إلى ما يُعرف اليوم بالصحراء السورية - العراقية، وقد مزَّقها إربًا البارثيون (حيث تتم الإشارة إلى «الإرهابيين» السوريين والإيرانيين الحاليين الذين نشهدهم). وقد دُعِي كراسوس شخصيًا إلى إجراء محادثات الاستسلام داخل خيمة، قطِع فيها رأسه، ومُلِئت جمجمته بالذهب وأعيدَت إلى روما، على الطريقة العراقية، كإفصاح عن ثروته.

عندما كتب هوارد هايز سكولارد كتابه العظيم «من الأخوين غراكوس إلى نيرون»، في الثلاثينات أحس في وضوح أن القيصر أغسطس بمثابة موسوليني سابق لأوانه. وقد تولت نسخات عدة من الأفلام الخاصة بالتاريخ الروماني - ويعدّ فيلم غلاديتور (المصارع) أحدث جهود هوليوود المبذولة في هذا المجال - تصوير القوة الامبريالية على أنها فاشيّة في شكل رئيس، على رغم أن ذلك

غير منصف بعض الشيء بالنسبة إلى روما. وقد شكلت الجمهورية - روما الخاصة بالحكومات الثلاثية - محاولة لتقسيم السلطة، وليس خطأ شيشرون أن يكون كل من بومبيوس والقيصر أغسطس وأنطونيوس - الذين حاولوا استرداد ألوية كراسوس من الصحراء البارثيّة - أخفقوا في الدفاع عن الديموقراطية.

ما أبرزته روما ليس إلا فكرة «الانتماء». فقد أصبح كل شعب تعرض للغزو، مواطنًا رومانيًا. لنفكر لحظة، ما الذي كان سيحدث في العراق لو قُدّم إلى كل مواطن عراقي جواز سفر أميركي في العام ٢٠٠٣: من دون أي تمرّد أو حرب أو وقوع إصابات في صفوف الأميركيين، بل وحده الحب والرغبة لدى كل كائن بشري يعيش جنوب غربي آسيا أن يغزوه جورج دبليو بوش!. وقد طرحت مرة هذه الفكرة على مسؤول في وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية (CIA) في العمارة - أجل إنها العمارة نفسها التي وقعت خارج الحكم البريطاني الشهر الماضي والتي يعدها طوني بلير إرثًا له في ولايته بعد رحيله - وقد سخر مني. قال لي «لسنا هنا لما فيه مصلحتهم». لكننا هنا، أليس كذلك؟

كان للبروفسور ويلكوك نائب مميّز في قسم الكلاسيكيات في جامعة لانكستر، هو المحاضر دايفيد شوتير الذي اتصلت به هاتفيًا أمس. تعود شوتير المقارنة بين الفرق الرومانية البارزة لواء التدخل السريع الألماني Wehrmacht خلال الحرب العالمية الثانية في روسيا، وهي مقارنة يفضل السكوت عنها اليوم. وهو يتحدث اليوم عن «مكان روماني في الوقت»، وإبداع «الأشخاص أصحاب الطاقة الجنونية». وقد حبست أنفاسي عندما قال لي، عبر الهاتف، وأنا أقف على بعد ١٠٠ متر من المنتدى الروماني -، «كيف يمكن الغزاة أن يكونوا شرسين عندما تدعو الحاجة إلى ذلك». وقد فهم فيرجيل الحاجة إلى الاستفادة من فوائد السلام. وأردف شوتير في بطءٍ، أن الجيش الروماني، كما ينظر قادته إلى العراق اليوم «كان عدّ المكان وضعًا غير مقبول بتاتًا».

بالتأكيد، لم يتراجع الرومان. فهم لم «يلوذوا بالفرار». وعندما زارهم الطاعون الشبيه بتنظيم «القاعدة» في بيثينيا (تركيا حديثًا)، حيث صفّي كل من الرجال والنساء والأطفال الرومان، صلبوا أعداءهم حتى الإبادة. لم تكن حقوق الإنسان تملك أي أهمية في روما القديمة. وكانت غرفة التعذيب تشكل جزءًا من الحضارة الرومانية. أما الصليب فكان رمزًا للقوة.

إذًا، ما الذي أدى إلى انهيارها؟ الفساد بالطبع. وفي النهاية، وصل كل من القوطيين والقوطيين الشرقيين والقوطيين الغربيين إلى روما. وليس بعيدًا من المكان الذي أكتب فيه تقريري، في إمكانكم العثور على العملات المحروقة ذات اللون الأخضر Sestertii، والمنقوشة على حجارة السوق الرومانية، حيث وُضعت في النار في وقت وصل «الآخر» - الجيش «الغريب» الذي لم يوافق على «القيم» الرومانية - إلى المنتدى، إلى حد أن التجار لم يتسنّ لهم الوقت لإقفال متاجرهم.

عليّ أن أعود هذا الصباح وأنظر مجددًا إلى تلك النقود المحروقة. لكنني سألت نفسي هل يُردع «الإرهابيون» - القوطيون والقوطيون الشرقيون والقوطيون الغربيون - في العراق، أو، على الأرجح، هل يعيشون أصلًا في واشنطن ويمزقون امبراطوريتهم إربًا. أشك في أن يوافق مالكوم ويلكوك، أكثر «أفراد الشعب الروماني» نبلًا، على ذلك.

«ذي إندبندنت»، ٤ تشرين الثاني/نوفمبر ٢٠٠٦

للذّكرى

تذكّرني ويلينغتون بميدستون، كينت، عندما كنت صبيًّا صغيرًا؛ الواجهات البالغ عددها ١٩١٢ لمتاجر عدّةٍ في نيوزيلندا؛ والشوارع الضيّقة؛ الحافلات الكهربائيّة؛ والقطع النقدية الضخمة؛ واللكنة الإنكليزية القديمة الطراز إلى حد ما؛ وتناول كعك الدوناتس والكعك الساخن. وقد تعوّد كل شخص يقطن في ميدستون، أن يطلق على جاره في هذه المنطقة لقب «رفيق» - أجل أعلم أنها عبارة أسترالية أيضًا - وكان رجال ويلينغتون الكبار في السن يرتدون ربطات عنق كما كان والدي يفعل في عقد الخمسينات. أما جدتي فيليس فتعودت أن تدير مجموعة من المقاهي في كينت - حيث كان جدي آرثور يعمل خبازًا في مقهى ذا بريدج في ميدستون، يقع داخل تيودور هاوس الحقيقي. وقد تهدّم بعد بيعه مباشرة واستعيض عنه بوكالة تأمين مبنيّة من الخرسانة -. لكن بيتي الاول في باور ماونت رود، شيِّد بقرميد المغسلة مثل منازل عدة في نيوزيلندا.

صحيح، لم يكن هناك عدد كبير من قوم الماوري، لكن السينما كانت بمثابة مراكز ترفيهية في ويلينغتون. وكانت في ميدستون سينما غرانادا التي كانت تعرض أفلام هوليوود. وأتذكر كلًا من كيرك دوغلاس في فيلم «ذا فايكينغز» The Vikings وشارلتون هيستون في الفيلم الطويل بن هور Ben Hur. ثم افتُتحت سينما ريغال Regal وهي مبنى قديم فراحت تعرض الأفلام المصنّفة في درجة ب، إضافة إلى لمحات قصيرة من النهود العارية. وفي إحدى الليالي عندما احترقت سينما «ريغال»، ذهبت لأشاهد فوج الإطفاء في ميدستون وهو يهمد النيران. اعتقدت فيليس أن ذلك الامر كان بالتأكيد عقابًا من الله بسبب النهود العارية.

وتضم ويلينغتون أيضًا سينما إمباسي Embassy وسينما باراماونت Paramount - وكانتا تشبهان إلى حد كبير سينما ريغال القديمة - وقد عرضنا فيلم فياعي ميونيخ Munich وشريك Shrek، وفيلم سيريانا Syriana من بطولة جورج كلوني، حيث وجده هواة السينما النيوزيلنديون الأصغر سنًّا، معقدًا جدًّا ولم يَقووا على فهمه. عليّ أن أقرّ بأن سينما باراماونت عرضت الأسبوع الماضي فيلمًا وثائقيًا يعود تاريخه إلى ثلاث عشرة سنة خلت، ومدته ساعتان ونصف الساعة، تحت عنوان «من بيروت إلى البوسنة»، حيث يظهر شخص اسمه روبرت فيسك يدخل مسجدًا محترقًا في البوسنة - في ١١ أيلول/سبتمبر ١٩٩٣، بالله عليكم! - ويعلق على الموسيقى قائلًا «عندما أشاهد أمورًا مماثلة، أتساءل ما الذي يخبّئه لنا المسلمون».

كانت الحافلات الكهربائيّة في ميدستون مؤلفة من طبقتين بلون القيء، وكانت بنيتها الخشب تتصدّع كلما «تلاعب» التيار الكهربائي إلى حد ٣٠ ميلًا في الساعة. أما الحافلات في ويلنغتون المؤلفة من طبقة واحدة، فلم تكن مصنوعة من الخشب، لكن كنيسة واحدة على الأقل، هي كنيسة القديس بولس القديمة، مشيّدة في العام ١٨٦٦، كانت مصنوعة كلّيًا من الخشب، وكانت تتضمن الألواح للنحاس الصفر نفسها التي تعوّدت أن أقرأها بالقرب من ممرات كنيسة جميع القديسين في ميدستون. وتشير إحداها إلى أن «بمجد الله ووفاء لذكرى ريتشارد جون سبوتسوود سيدون، قائد قوة التجريدة النيوزلنديّة»، «قتل على أرض المعركة في بابوم، فرنسا في العام ١٩١٨ عن عمر ٣١ سنة. كان وفيًّا حتى الموت». وتحمل لوحة أخرى اسم معركة مألوفة أكثر: «وفاءً لذكرى القائد الثاني أس. أوكارول سميث، لواء كتيبة القتال التاسع، وقع في أرض معركة سوم في ٢٥ آب/أغسطس ١٩١٦، عن ٢٥ سنة.

بالتأكيد، أتذكر أن القائد الثاني، هو بيل فيسك من الكتيبة ١٢، الوحدة العسكرية لملك ليفربول، وقد وضع ربطة عنق بزته العسكرية لبقية حياته كي تذكره بمعركة سوم. وقد وصل إلى ذلك المكان في آب/أغسطس من العام

١٩١٨ للقتال في الوحل عينه، حيث قُتل القائد الثاني أس. أو كارول سميث. وبعد ثلاثة أشهر فقط، قُتل القائد سيدون في بابوم، وهي منطقة قريبة من قرية لوفانكور حيث أمضى بيل فيسك البالغ من العمر تسعة عشر عامًا ليلته في ١١ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٨. واعتاد بيل فيسك المشاركة في احتفاليات النصب التذكاري في ميدستون كلّ عام، مع نبتة الخشخاش الحمراء الداكنة كلون الدم البارزة في عروة الزر في معطفه الأسود الكبير والأحبّ إلى قلبه، على رغم أنه رفض أخيرًا وضع ميداليته الخاصة بالحرب العالمية الاولى، حيث حفرت عبارة «الحرب الكبرى تحت ذريعة الحضارة» على قفاها.

ثم وقع نظري في كنيسة القديس بولس في ويلينغتون، على اسم حمّام الدم التركي الذي لطالما انتظرته: لوحة نحاسية صفراء يعلوها صليب كُتِب عليها: «وفاءً لذكرى الرقيب دبليو. آر ريتشاردسون، قتل في معركة غاليبولي، في ٥ كانون الأول/ديسمبر ١٩١٥ عن ٣١ سنة». لقد قتل قبل بضعة أيام فقط من انتهاء مغامرة ونستون تشرشل العسكرية على شكل انسحاب مخزٍ. وتظهر رحلة قصيرة إلى أحدث متحف في المدينة، خلافًا لمدينة ميدستون في شكل قاطع، أن ويليام ريتشاردسون، رقم الخدمة ٢٢٤٣/١٣، كان ابن تشارلز طوماس وشارلوت ريتشاردسون من ويلينغتون. وقد ووريَ في مقبرة رصيف المغادرة في غاليبولي: Embarkation Pier.

واعتبرت معركة غاليبولي المعركة الغربية والأهم في القرن العشرين التي دارت مع جيش إسلامي. لا بد من أن تمتلكوا قلبًا قاسيًا كالحجر لئلا تتأثروا بالإصابات التي أصابت الجيش النيوزلندي. فمن أصل ٨,٤٥٠ جنديًّا أرسلوا للقتال في تركيا، قتل ٢,٧٢١ عنصرًا، وجرح ٤,٧٥٢. أي دولة أخرى يمكنها الجهر بنسبة ٨٨ في المئة من معدل الإصابات؟ وفيما أنا أنظر إلى الصفائح الموجودة في كنيسة القديس بولس، إذا بسيدة عجوز تتجه نحوي، واسمها جوي ماك كلين، وتقول لي بلا مقدمات: «كان والدي موجودًا آنذاك في غاليبولي. أجل، كان يحارب المسلمين، ولكن بالنسبة إليه كانوا عبارة عن «العدو»

وحسب. كان يقاتل من أجل بلاده، أليس كذلك، يحارب من أجل ما اعتقدته مناسبًا». فكّرت مليًا في الملاحظة التي أبدتها هذه السيدة المتقدمة في السنّ اللطيفة حتى تغيّرت ملامح وجهها. وأردفت قائلة «كان عدد المسلمين الموجودين هنا يبلغ آنذاك ٣٠٠ شخص. أما الآن فعددهم ٣,٠٠٠ مسلم». في تلك اللحظة، أحسست بوطأة تلك العبارات الأخيرة: بدأ طيف هجمات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ يظلّل هذه الكنيسة الخشب النائية حتى.

اتجهت بسيارتي نحو الساحل الجنوبي للجزيرة الشمالية لنيوزيلندا للفرار من هذا الظل. وعلى جرف صخر يشبه تمامًا التلة حيث تم إنزال الأتراك، يبرز نصب تذكاري لمصطفى كمال أتاتورك. أجل، لقد كان شخصًا علمانيًا ومدخنًا شرهًا، حظّر الكتابة العربيّة وارتداء الحجاب. إنه الرجل الذي أنهى الخلافة الأخيرة على رغم أنه مسلم. ويلاحظ على اللوحة الرخامية خطابه الذي وجّهه إلى أفراد العائلات النيوزيلندية والأسترالية المحزونة، الذين توجهوا أولًا إلى غاليبولي حدادًا على أحبائهم في حقبة الثلاثينات. ويعدُّ ذلك الخطاب الاكثر رحمة الذي تقدّم به زعيم مسلم في عصرنا الحديث:

«إلى هؤلاء الأبطال الذين أزهقوا أرواحهم ودماءهم وخسروا حيواتهم... إنكم ترقدون الآن في تراب دولة صديقة. لذا، ارقدوا في سلام. لا فرق بالنسبة إلينا بين المسيحيين والمسلمين، وهم يرقدون جنبًا إلى جنب في بلادنا. أما بالنسبة إليكن، أيتها الأمهات اللواتي أرسلن أولادهن بعيدًا من بلادهم، فامسحن دموعكنّ. إن أبناءكن يرقدون الآن في كنفنا في سلام. فبعدما قدّموا حيواتهم على هذه الأرض، أصبحوا بمثابة أبنائنا هم أيضًا.

وجدت نفسي أتساءل: ما رأي أسامة بن لادن حيال ذلك.

«ذي إندبندنت»، في ٢٥ آذار/مارس ٢٠٠٦.

اقرأوا لورنس العرب

بالعودة إلى العام ١٩٢٩، خط لورنس العرب المدخل لـ «حرب العصابات» في النسخة الرابعة عشرة من موسوعة بريتانيكا. إنها لقراءة مخيفة - وإني أشكر في هذه المناسبة لأحد قرائي المفضلين، واسمه بيتر ميتكاف من ستيفيناج، أنه أرسل إليّ المقالة الملحوظة - نظرًا إلى احتوائه في شكل مروّع، رسالة موجّهة إلى الجيش الاميركي في العراق.

من خلال الكتابة عن المقاومة العربية للاحتلال التركي خلال الحرب الممتدة من ١٩١٤ إلى ١٩١٨، سأل لورنس المتمرّدين (في العراق وفي أيّ مكان آخر): «... لنفترض وجود سيطرة ما، وهو أمر غير قابل للتأثير وغير ملموس من دون واجهة او حدود، ينساب كالغاز؟ إن الجيوش تشبه الأشجار جامدةً ككلّ ومتجذرة في الأرض، وتتغذى من خلال جذوع طويلة تصل إلى رأسها. قد يكون العرب مجرّد بخار...». وبدا الأمر مثاليًّا أن يستخدم لورنس الرعب الذي تولده حرب الغاز كاستعارة لحركة التمرّد. وواصل قوله، في سبيل السيطرة على الأرض التي احتلوها: «قد يحتاج الأتراك إلى حصن منيع كل أربعة أميال مربّعة ولا يمكن أن يضم الحصن أقل من ٢٠ رجلًا. إن الأتراك في حاجة إلى ٦٠٠ ألف رجل لمواجهة الارادات الضعيفة الموحدة لكل الشعب العربي المحلي. لم يكن يتوافر لديهم سوى ١٠٠ ألف رجل».

أما الآن، فبمَ يذكركّم ذلك؟ إن عبارة «الحصن المنيع كل أربعة أميال مربّعة»، ليست إلا صدى المستقبل المرعب لـ«نزوة» جورج دبليو بوش السخيفة. يحتاج الاميركيون إلى ٦٠٠ ألف رجل لمواجهة الارادة الضعيفة الموحدة

للشعب العراقي، وهم لا يتوافر لديهم سوى ١٥٠ ألف جنديّ. أما دونالد رامسفيلد، بصفة كونه مهندس «الحرب»، فهو المسؤول عن الأمر. وعلى رغم ذلك، لا يزال هذان النذلان يلوذان بفعلتهما.

فليرفع أيديهم هؤلاء القراء الذين يعلمون أن وزير الدفاع الكندي، غوردون أوكونور، وجه رافضًا رسالة إلى رامسفيلد قبل يومين من مغادرته البنتاغون بخزيٍ، يثني فيها على «قيادة» هذا الرجل السيّئ السمعة. أجل. أراد أوكونور «انتهاز هذه الفرصة لأقدم إليكم التهنئة بالإنجازات الكثيرة التي حققتموها (النص الحرفي) بصفة كونكم وزير الدفاع، وإقرارًا بالمساهمة الفاعلة التي أنجزتموها في الحرب على الإرهاب». وقد استفاد العالم الذي تدفق في حماسة على أوكونور المضحك من قيادة رامسفيلد «في مواجهة المسائل المعقدة». وحاول أوكونور عدم الاكتراث لهذه الرسالة الذليلة المنبثقة من القانون الكندي للوصول إلى المعلومات، عبر الادعاء أنه أراد فحسب تقديم شكره إلى رامسفيلد على استخدام المنشآت الطبية الأميركية في ألمانيا لنقل الجنود المصابين الكنديين إلى بلادهم عائدين من أفغانستان. إلا أنه لم يأتِ على ذكر هذا الأمر في سياق رسالته المتناقضة. يبدو أن أوكونور ليس إلا شخصًا آخر من المتوهمين العالميين الذين يعتقدون أنهم في إمكانهم تجاهل الحقائق - والإشادة بالأغبياء - من خلال الإشارة إلى نقيض الحقيقة.

آه، كم نفتقد لورنس. وقت كتب منذ ثمان وسبعين سنة «أن الصحافة المكتوبة هي السلاح الأمضى في مخزن الأسلحة لقائد (العصابات) الحديث»، تمامًا كأنه يتوقع الاستخدام الحديث لحركة القاعدة للإنترنت. وبالنسبة إلى المتمردين فـ «إن المعارك كانت مجرّد خطأ... وقد تحدث نابليون برد فعل غاضب على الحدّة المفرطة للقرن الثامن عشر، حيث أوشك الرجال إغفال أن الحرب تمنح ترخيصًا للقتل». صحيح، لم تكن الثورة العربية في خلال الحرب العالمية الأولى مشابهة لحركة التمرد العراقي القائمة اليوم. ففي العام ١٩١٧، كان الأتراك يملكون القدرة البشرية وعددًا ضئيلًا من الأسلحة. أما اليوم، فإن

الأميركيين يملكون الأسلحة وكمًّا ضئيلًا من الرجال. ولكن أصغوا مجدّدًا إلى لورنس.

لا بد لحركة التمرّد من أن تمتلك قاعدة محصّنة...

وفي أذهان الرجال المحوّلة إلى معتقداتها، ينبغي لهم التركيز على عدو غريب ومتطوّر يتخذ شكل جيش منظّم من الاحتلال بحيث يكون صغيرًا جدًّا للوفاء بعقيدة عدد الهكتارات، فيكون عددها قليلًا لتعديل المساحة في سبيل السيطرة على كل المنطقة في شكل فاعل انطلاقًا من القلاع المحصّنة.

ولا بد لهذه الحركة من أن تمتلك شعبًا ودودًا، لا يكون ودودًا على نحو جديّ، بل يتعاطف معها إلى حد عدم خيانة الحركات المتمرّدة لمصلحة العدو. ومن الممكن زرع المتمرّدين بنسبة ٢ في المئة على نحو نشط داخل قوة ضاربة، و٩٨ في المئة على نحو متعاطف... سهولة الحركة الممنوحة والأمن... الزمن والعقيدة... سيكون النصر حليف المتمرّدين، نظرًا إلى أن العوامل الحسابية تشكل حدًّا قاطعًا، إذ تُعد في المقابل كمال الوسائل وروح القتال لا معنى لهما على الإطلاق.

هل قرأ الجنرال الأميركي دايفيد بيترايوس ذلك؟ هل قرأ بوش ذلك؟ هل أخذ أي من الاستعماريين الاميركيين التعبين الذين يتمايل المنحازون منهم إلى معاداة العربية قريبًا من العنصرية، عناء دراسة هذه الحكمة؟ إني أتذكر كيف أعلن دانيال بايبس - وهو احد أهم المتوهمين في الصحافة الاميركية الحديثة - صيف ٢٠٠٣ أن العراقيين كانوا في حاجة إلى (رجاءً من دون ابتسامة متكلفة) «رجل قوي وديموقراطي».

وبكل تأكيد، كانوا يملكون رجلًا قويًّا، صديقنا القديم والمخلص صدام حسين، الذي تعوّدنا على مناداته بـ «الرجل القوي» عندما كان صديقنا، كان منهمكًا في استخدام غازنا [الكيميائي] ضد إيران. وأتساءل ألن يعاقب بوش - المنهزم كما هو عليه الآن في العراق - في القريب العاجل الانقلاب العسكري

العراقي لإطاحة حكومة «المنطقة الخضراء» بقيادة نوري المالكي المضحكة في بغداد.

لكن تمهلوا، ها هو بايبس يعود مجددًا. ها هو مدير «منتدى الشرق الأوسط» يكتب في جريدة «ناشيونال بوست» في كندا عن «فلسطين». تبدو مقالته تنضح بالحدّة المعتادة. كانت الفوضى الفلسطينيّة «تدفع» بأمراء الحرب إلى الواجهة. وكان عرفات يمثل رمزًا «شيطانيًا». فقد حرم الانسحاب الإسرائيلي من غزة، الفسلطينيين «عنصر الاستقرار» الوحيد في المنطقة. واأسفاه! تبدو «الفلسطينيّة» (أيًا يكن اسمها) «سطحيّة». إن «الغبن» الفلسطيني ليس إلا مجرّد «أسطورة عظمى للسياسات الحديثة». تُعدُّ غزة اليوم مقاومة (إسلامية) في قلب الشرق الاوسط، تتسلل من خلالها إلى مصر وإسرائيل والضفة الغربية». ويختم بايبس مقاله «في أحد هذه الأيام، لعلّ «مفاوضي السلام»، العالمون منهم والأغبياء، سيلاحظون أثر الكوارث التي صنعتها أيديهم». وقد أضاف في استحسان أن «إيهودا باراك، وزير الدفاع الإسرائيلي الجديد، يخطط على نحو واثق لمهاجمة حماس في غضون أسابيع، وهو يدين رئيس الوزراء إيهود أولمرت، لإقدامه على إنعاش حركة «فتح الفاسدة والتحرّرية» بقيادة محمود عبّاس.

إذًا، نحن مقبلون على حرب أخرى في الشرق الأوسط، هذه المرة على حماس - المنتخَبة ديموقراطيًا بالتأكيد، ولكن فحسب كنتيجة لما يسميه بايبس بتهافت «إدارة بوش» غير المبالية للانتخابات الفلسطينيّة؟ من الجيّد رؤية طوني بلير الأخير يلقّب أصلًا بعبارة «عالم». ولكن، ألم يجدر ببايبس أيضًا قراءة لورنس؟ إذ إن التمرّد يُعَدّ «بخارًا» أقوى من الكلمات التي يتفوه بها هؤلاء المتوهمون.

«ذي إندبندنت»، ١٤ تموز/يوليو ٢٠٠٧

نظرة مختلسة إلى حقبة الفاشيّة

تعني عبارة شيوشا في مدينة نابولي الإيطالية، «شوشاين». وهو البرنامج الأكثر جدلًا وتحفظًا وتحريضًا، يعرض على القناة الثانية لتلفزيون إيطاليا الرسمي، قناة «الراي». ويود رئيس وزراء إيطاليا سيليفو برلوسكوني، التأكد من أن النسخة الرقم ٣٣ من شيوشا - وتلفظ على هذا النحو - التي عرضت الأسبوع المنصرم هي الأخيرة منه. وادعى السيد برلوسكوني، في نيسان/ أبريل المنصرم، أن السيد ميشال سانتورو، وهو مقدّم هذا المزيج المجنون من الوثائقيات المتألقة، بما فيه الزاوية الساخرة التي تحمل عنوان «هذا ما كانت عليه أحداث هذا الأسبوع»، «استغل التلفزيون الرسمي في شكل مجرم». ها هم الصحافيون الإيطاليون ينتظرون سفك الدماء.

وقد تضمن البرنامج «الأخير» لهذا الموسم، خلال الأسبوع المنصرم - حيث استُضفت للمشاركة فيه - برنامجًا وثائقيًا تدميريًا، أعدّه المراسل كورادو فورميغلي عن فشل الغرب في مساعدة أفغانستان. ويبرز هذا الوثاقي نقاشًا طويلًا وغاضبًا داخل الاستديو، وفي بعض الأحيان مرحًا تناول موضوع ارتباطنا الأخرق داخل البلاد، دار بين المنظمات غير الحكومية واختصاصيي الدفاع وممثلة أميركية وصحافي إيطاليّ يساري الاتجاه وصحافي مناصر لإسرائيل والسيد فيسك. لو أمكن قناة «بي.بي.سي» فحسب أن تبث هذا النوع من النقاش القاسي والواقعي على الهواء! عند نقطة معيّنة، تدبرت أمري لأفسح في المجال أمام الضيوف الآخرين، كي يتحدثوا عن سبب ارتكاب الجرائم ضد الإنسانية في ١١ أيلول/ سبتمبر.

لكن ذلك لم يكن موضوع نقاشنا. لطالما اعتبر برنامج شيوشا مصدر إزعاج بالنسبة إلى إدارة السيد برلوسكوني، إذ يقدم في نقطة ما على التحقيق في خلفية علاقة المافيا بأحد الزملاء المقرّبين من رئيس الوزراء. وخلال تقديمه حلقة عن

وضع الفلسطينيين في ظل الاحتلال، اتهمت الجماعة اليهودية الإيطالية السيد سانتورو - تمامًا كغيره من الصحافيين الكثر الذين يجرؤون على انتقاد إسرائيل - بصفة كونه «معاديًا للساميّة». وقد طلب أيضًا السيد ليون بازيرمان، وهو رئيس الجماعة اليهودية في روما، من إدارة تلفزيون «الراي» طرد السيد سانتورو. وأرغِم السيد بازيرمان في وقت لاحق، بموجب حكم صادر من محكمة إيطالية، على دفع مبلغ ٥٠ ألف يورو للصحافي.

وتمامًا كعدد من الصحافيين اليساريين في إيطاليا، كان السيد سانتورو شيوعي الاتجاه، استهل مسيرته كصحافي آنذاك في جريدة الحزب الشيوعي «لونيتا»، لكنه أصبح اليوم مقدم البرامج المثالي والمحرّض مثله مثل جيريمي باكسمان، والمتصنع تمامًا كبراين ريكس المثالي قبل أن يفقد قوته. وهو يحث ضيوفه على الغضب والكرم. لكن مجلس إدارة «راي» لا يشعر المرح، إذ يعد ثلاثة منهم، وقد تم تعيينهم في شباط/فبراير، حلفاء «فورزا إيطاليا». أما رئيس قناة «الراي» أنطونيو بالداساري فهو مقرّب من تحالف برلوسكوني. ولم يُطلع فريق عمل برنامج «شيوشا» هل يُسمح له بتصوير حلقات أخرى. حتى الآن، على الفريق التخطيط لجدول الخريف المقبل. وإضافة إلى التأثير الذي يملكه السيد برلوسكوني في مجلس إدارة قناة «الراي»، يوشك احتكار التلفزيون العائد إلى القطاع الخاص في إيطاليا: إذ يسيطر على ثلاث قنوات خاصة: القناة الخامسة، إيطاليا ١، والشبكة ٤، كذلك يسيطر من خلال شقيقه على الجريدة اليومية «الجيورنالي» برقم توزيع بلغ ٢٠٠ ألف نسخة. وهو يسيطر في شكل فاعل على المجلة الإخبارية الأسبوعية، «بانوراما»، كإضافة إلى المجلة الاجتماعية الخاصة بالإشاعات «شي»، مع رقم توزيع بلغ مليون نسخة.

أيعدّ الأمر مجرّد صخبٍ آخر يدور بين الجناح الأيمن «بابيفور»، للسياسة الإيطالية، وقوى اليسار الفاسدة والمهزومة انتخابيًّا؟ يبدو الأمر مسليًّا لو نظرنا إلى الامر من هذا المنظار. ولكن بعد مرور بضع ساعات على عرض الحلقات

الأخيرة من البرنامج، حضرت معرضًا في الطبقة السفلية من مبنى فيتوريو إيمانويلي التاريخي، وهو أشبه بوظة شنيعة مصنوعة من الخرسانة والرخام، وتضم الجندي الإيطالي المجهول في الحرب العالمية الأولى. والمعرض، كما تشير إلى ذلك لوحة مثبتة على المدخل، كان من وحي السيد برلوسكوني نفسه، دون سواه، ليجسد وحدة ايطاليا وقد بلغت المئة والخمسين من عمرها.

أما في الداخل، فتبرز عشرات الأعلام العسكرية، بل المئات منها - في الواقع أعلام عسكرية عدة كذلك - بدءًا من الحرب التي امتدت من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ وما قبل ذلك. كذلك يضم المعرض عظمة ساق تعود إلى غاريبالدي، وقد استخرجت بعد إصابته في معركة أسبرومونتي في العام ١٨٦٢، بل يضم أيضًا حذاء الرِّجل اليمنى المزيّن بالفراء الذي يخص الرجل العظيم، إذ تبدو عليه آثار الرصاصة. وما هو أكثر تأثيرًا من ذلك، كان الفيلم الوثائقي الطويل عن الحملة العسكرية الإيطالية على الامبراطورية المجريّة والنمسوية خلال الحرب العالمية الاولى، عندما كانت إيطاليا، بكل تأكيد، إلى «جانبنا». ويضم أيضًا صور فيديو مدهشة من الأرشيف لخطوط ألبين الأمامية - إنه عبارة عن فيلم حقيقي، ولم يُعَدْ تمثيله، لكنه يشبه إلى حد كبير الفيلم البريطاني آنذاك - بالإضافة إلى مشهد غرق أسطول المعركة الضخم، إذ يغرق تمامًا كباخرة «التأيتانيك»، وعلى متنه مئات الأفراد من طاقمها.

لكن الأمر الأكثر قلقًا، هو التعليق الخطيّ الذي يبدو على الشاشة نظرًا إلى أنه قد يُضاف عندما تجمُع لقطات الفيلم معًا: على الأرجح في السنوات الاولى من حكم موسوليني. ومجددًا وتكرارًا، يشار إلى الحرب بعبارة «المجيدة». بل تتم الإشارة حتى إلى الإصابات في صفوف الإيطاليين والبالغ عددها ٦٠٠ ألف إصابة باللغة الإيطالية، على أنها «محرقة». وتُعدّ المعركة العظيمة والأخيرة في الحرب - التي دارت في بياف - تضحية دمويّة. على الأرجح أن لا شيء يبدو غير دقيق من ناحية الوقائع، ولكن ما معنى ذلك؟ هل

أضحى الدم فعلًا إسمنت الوحدة في إيطاليا؟ ظننت أنني قد أجد ترياقًا في ساحة بلازو فالنتيني حيث يُقام معرض آخر تحت - «وصف لحقبة ما: الفن والهندسة المعمارية في حقبة الفاشية» -، نُظم في ما كان يُعرف آنذاك بحمّامات الامبراطور تراجان. أما الهدف من هذا المعرض، بحسب ما علمت من مقدّمة روسانا بوساغليا، فيكمن في «إبراز طريقة تطوّر الفن الإيطالي في حقبة الفاشية، على أنه لغة خاصة بها وقادر على التعامل مع المواضيع المختلفة بطريقة مستقلة كلّيًا...» بدا الأمر مراوغًا بعض الشيء. لا استهجان للحقبة الفاشية.

وبدلًا من ذلك، لنُلقِ نظرة سريعة على ما قد يُعدّ جيدًا في شأنها. وبكل تأكيد، في وقت برزت لوحات ومنحوتات مذهلة، ظهرت إلى جانبها لوحة زيتيّة لموسوليني ومنحوتة له في محاذاة صورة فوتوغرافية للدوتشي (الزعيم) نفسه، وهو يتأمل المنحوتة نفسها. وعرض لنا سيلفانو موفا، وهو رئيس مجلس محافظة روما في المقدمة نفسها، فكرة أن «الفاشية كما كانت عليه في عقد العشرينات - أي حركة متميّزة بالحاجة إلى الاحتفال - لم تكن الحركة نفسها التي كانت ستصبح ما هي عليه في عقد الثلاثينات. ومنذ البدايات الأولى لدكتاتورها، أشار موسوليني إلى أن العلاقة بين السياسة والفن شديدة الأهمية، مثلما روّج لعدد كبير من المعارض...». فما معنى ذلك؟

تسلّلت بعض ظهر مشمس لتناول الغداء متأخرًا، وفتحت جريدتي الإيطالية. ما الذي وجدت؟ يرغب الرئيس الإيطالي كارلو تشيامبي في تكريم غاريبالدي، الجنود الإيطاليين الذين حاربوا النازيين في بسالة في جزيرة سيفالونيا أثناء الحرب العالمية الثانية - انتظروا لتروا - الجنود الذين قاتلوا في معركة العلمَين في العام ١٩٤٢. لكن هؤلاء الجنود الأخيرين كانوا يحاربون إلى جانب موسوليني وحلفائه النازيين. لو كان روميل فاز في المعركة بمساعدة إيطاليا، لكانت قوى المحور وصلت إلى كل من القاهرة وفلسطين، حيث كان من الممكن ضمّ الشعب اليهودي إلى المحرقة. في اختصار، تساءلت: ألم يكن

حريًّا بالسيد بازيرمان أن يشتكي من هذه الخطة المشؤومة للسيّد تشيامبي عوضًا عن الافتراء على السيد سانتورو.

أيستدعي ذلك شعور القلق؟ الصحافيون الإيطاليون رغبوا في تحسين الوضع. فقد أخبروني أن السيد برلوسكوني رجل أعمال قبل كل شيء، وكذلك الأمر بالنسبة إلى السيد تشيامبي. أما السيد سانتورو ففنان يرغب في الاضطلاع بدور الشهيد. ولو أعيد بثّ برنامج شيوشا على الهواء، فسيشكل ذلك زوبعة إيطالية أخرى. وعلى برغم ذلك، إذا لم يتم هذا الامر، فسيظن عدد كبير من الأوروبيين في جدّية أكبر في شأن السيد برلوسكوني، وسيسألون أنفسهم هل يُعدّ فعلًا رئيس دولة متحدة، أم مجرّد وغد(*)

«ذي إندبندنت»، ٥ تموز/يونيو ٢٠٠٢

(*) لم يعرض برنامج شيوشا على الشاشة قط. وعلى الأقل، تعرض برلوسكوني للهزيمة في الانتخابات الإيطالية في العام ٢٠٠٧. ولكنه قد يعود مجددًا.

مَن يبكي الآن أموات معركة واترلو؟

«في شأن المعاناة، هذا ما كتبه أودين في شكل بارز في العام ١٩٣٨ «كانوا دائمًا على حق، الأسياد القدماء: كيف سيفهمون ذلك. الموقع البشري: كيف سيحدث ذلك، بينما يقوم شخص آخر بالأكل او فتح نافذة، أو يمشي ببلادة». لكن لوحات الصلب العظيمة لكارافاغيو أو بيليني، أو لوحة بييتا لمايكل أنجلو في الفاتيكان - على رغم أن أودين لم يفكر في ذلك - تتميز بوجود الله إلى جانبها. قد نشعر بقوة المعاناة في سياق الدين. لكنني لست متأكّدًا كم نحن رحومون فعلًا خارج هذا الإطار الروحي.

لا تزال فظاعات الأمس - المجزرة في مدرسة بيسلان وتفجيرات بالي والجرائم ضدّ الإنسانية في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، والقتل بالغاز في حلبجة - تثير فينا الرعب والشفقة على رغم أن هذه المشاعر تتكيف في شكل كبير مع طبيعة مرتكبيها. ففي عصر أصبحت الحرب خيارًا سياسيًّا بدلًا من عدّها الخيار الاخير، حيث أضحى من الممكن اختصار شرعيتها بدلًا من أخلاقيتها على ورقة بقياس A4(*)، نفضل التركيز على المعاناة المسبّبة من «قبلهم» بدلًا «منا» نحن. وبالتالي، فإن عشرات آلاف العراقيين الذين قُتلوا في العام ٢٠٠٣ خلال الغزو الإنكليزي والأميركي والاحتلال اللاحق، ومئات آلاف الفيتناميين الذين قُتلوا في حرب فيتنام، ومئات المصريين الذي تقطعوا إربًا بسبب غزونا قناة السويس في العام ١٩٥٦، لا يشكلون جزءًا من وخز ضميرنا. وقد ذُبح حوالى ١,٧٠٠ فلسطيني في لبنان في العام ١٩٨٢، ما يعادل أكثر من نصف ضحايا برجي التجارة العالميين.

(*) تم اختصار الإخطار المبهم المؤلف من ١٣ صفحة للوكيل العام البريطاني، اللورد غولد سميث، في شأن شرعية غزو العراق في شكل بارز إلى إخطار صريح للسيد بلير، يتألف من ورقة واحدة بقياس A4.

ولكن، كيف يمكن لقراء كُثُر أن يتذكروا التاريخ الدقيق؟ ١٦ - ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢. تبدو «تواريخنا» مقدّسة، أما «تواريخهم» فليست كذلك؛ وعلى رغم ذلك، لاحظت كيف يجب «عليهم» التعلم «منّا». كم مرة سئل العرب صراحةً عن شعورهم إزاء ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ على أن الغرض الخاص منه اكتشاف هل يبرزون درجة الصدمة والرعب نفسها؟ وما هو عدد سكان الغرب الذين يعلمون ما حدث في أيلول/سبتمبر ١٩٨٢؟

إن الأمر يدور على الذكرى الحية؛ وكذلك، وأشك في ذلك، على السجلات الفوتوغرافيّة. فالكوارث التي حلّت بأجيالنا - أو أجيال أهلنا أو حتى أجدادنا - تتميّز بحدّة كانت تفتقر إليها حمّامات الدَّم السابقة. لذلك، يمكننا التأثر إلى حدّ البكاء بسبب المأساة الملحميّة للحرب العالمية الثانية والضحايا التي بلغ عددها ٦٠ مليونًا، وبمقتل ٦ ملايين يهودي، خصوصًا من خلال ذكريات عائلاتنا عن هذا الصراع - وقد قُتل قريب لي لجهة والدي على طريق بورما - ولاسيما بسبب شعراء الحرب العالمية الأولى. وقد أسّس كل من أوين وساسون المتحف الشفهي الحيّ أبدًا عن ذلك الصراع. لكني أدرك جيدًا لماذا أعاد الإسرائيليون بناء متحف المحرقة الخاص بهم في ياد فاشيم. وسرعان ما سيموت آخر الناجين من مخيّمات الموت التابعة لهتلر. لذلك، لا بد من إبقائهم أحياء من خلال المقابلات المسجلة التي أجريَت معهم بالتزامن مع التسجيلات والملابس العائدة إلى من ذبحهم النازيون.

وها هي الشفقة تبدأ بالتأرجح. قبل حرب ١٩١٤ - ١٩١٨ كانت المجازر كافية لذرف دموع العالم أجمع. فقد شكلت حرب البلقان في العام ١٩١٢ مذبحة، إذ خشي شهود العيان عدم تصديق رواياتهم على الإطلاق. وتحوّلت حرب البوير خزيًا أخلاقيًّا بالنسبة إلى البريطانيين، لأننا جمعنا عائلات أعدائنا في معسكرات اعتقال تعاني الأمراض. أما الحرب الفرنسية - البروسيّة التي دارت بين العامين ١٨٧٠ و١٨٧١ على رغم تصوير دوميه المعاناة الفرنسية بدقة مدهشة وبصور تعيد إحياء كومون باريس - أبقتنا عديمي الاهتمام. وعلى الرغم

الصور الصامتة، هذا ما تفعله الحرب الأهلية الأميركية، ما زال في إمكاننا شعور الهلع - بل علينا ذلك - بسبب موت مليون شخص جراء المجاعة الإيرلندية على رغم كونه أمرا مؤلمًا جدًّا، حتى لو أن الصور ابتُكرت منتصف القرن التاسع عشر، لم يتم التقاط صورة واحدة لضحايا هذه المجاعة. علينا أن نعتمد رسومات أخبار لندن المصوّرة لإبراز الحزن والرعب اللذين ولدتهما المجاعة الأيرلندية.

على رغم ذلك، مَن يبكي أموات معركة واترلو أو مالبلاكيه أو الحرب الأفغانية أو حرب المئة عام - حيث كانت تأثيراتها لا تزال موجودة في العام ١٩١٤ - أو الحرب الأهلية الإنكليزية؟ من يبكي ضحايا فلودين فيلد أو ناسباي أو المذبحة العالمية الناتجة بسبب الطاعون الأسود؟ صحيح، تتمكن الأفلام، في إيجاز، من إثارة بعض المشاعر لدينا في شأن تلك الأشباح. لذلك، تظل التايتانيك مأساة حقيقية بالنسبة إلينا على رغم انها تعرضت للغرق في العام ١٩١٢، إذ كانت حرب البلقان تحصد أرواح عدد أكبر بكثير من الأبرياء. كذلك يمكن فيلم «برايف هارت» التأثير في نفوسنا. ولكن في نهاية المطاف، ندرك جميعًا أن إعدام ويليام والاس ليس إلا موتًا مزيّفا لميل غيبسون. ومع مرور الوقت، عندما نبلغ مذابح الأزمنة الغابرة، لا نهتم البتة. جنكيز خان؟ تيمورلنك؟ استباحة روما؟ تدمير قرطاج؟ انسوا الامر. فقد تحولت ضحاياها غبارًا ولم نعد نكترث لأمرهم. لا ذكرى لهم. بل حتى أننا نثبت دهشتنا من دون أي قساوة بعد الآن. ألا نقف في صف ساعات ونحن ننظر إلى الغرفة في لندن حيث تعرض ولدان اثنان للقتل بوحشيّةً؟ الأمراءِ في البرج؟

بالتأكيد، لو كان الأموات يملكون قيمة روحية، لأصبح موتهم حقيقيًّا بالنسبة إلينا. إن ضحية الصلب الأكثر شهرة في روما، ليس سبارتكوس - على رغم أن كيرك دوغلاس بذل قصارى جهوده للحصول على الدور في فيلم كوبريك الحاذق - بل نجار من الناصرة. وما زال شعور الشفقة حديثًا بين

المسلمين بالنسبة إلى شهداء حقبة الإسلام الأولى، كما هو الأمر اليومَ بالنسبة إلى ضحايا العراق. إن أي شخص رأى المسلمين الشيعة في العراق أو لبنان أو إيران، وهم يحييون مقتل الإمامين علي والحسين - وهما تعرّضا للخيانة تمامًا مثل يسوع المسيح - يكون قد شاهد دموعًا حقيقيّة تنهمر على وجوههم، دموعًا لا تقل عن تلك التي ذرفها الحجاج المسيحيّون في القدس في أسبوع الفصح الجاري. في إمكانكم ذبح مدينة برمّتها من الأبرياء في الحرب الفونيّة القرطاجيّة، ولكن سمّروا ابن مريم على خشبة، أو اقتلوا صهر النبي، وستشاهدونهم وهم ينتحبون طوال أجيال.

إن ما يقلقني، على ما أفترض، أن ملايين عدة من الأبرياء ماتوا ميتة مرعبة لأن قاتليهم انتحبوا على شهدائهم الدينيين. هكذا ارتكب الصليبيون المذابح في حق الشعب بكامله في بيروت والقدس في العام ١٠٩٩، بسبب رغبتهم في «تحرير» الأرض المقدّسة، وبين ١٩٨٠ و١٩٨٨ مثل أتباع النبي مليونًا ونصف مليون شخص من الدين نفسه بعدما قام قائد مسلم سنيّ [صدام حسين] بغزو دولة مسلمة شيعيّة [إيران]. وكان معظم الجيش العراقي يتألف من الشيعة، لذا شكل ذلك انتحارًا جَماعيًّا بالفعل لأتباع علي والحسين.

لعلّ الشوق والخلاص كانا جزءًا أساسيًّا من تجربة آبائنا الدينية. لكني أعتقد أنه لأكثر حكمة وإنسانية في قرننا الواحد والعشرين، أن نعكس أخطاء آلهتنا البشرية الصغيرة، هؤلاء الإنجيليين الذين يدعون أنهم يدافعون عن «الخير» ضد «الشر» وهم يجهلون التاريخ وبرك الدماء البشرية التي غطته، ويفلتون بفعلتهم بورقة بقياس A4.

«ذي إندبندنت»، ٢٦ آذار/مارس ٢٠٠٥

شهود على الإبادة الجَماعية: حكاية غامضة من سويسرا

كنت في لوكارنو هذا الأسبوع، وأنا أهاجم كارلا ديل بونتي - القاضي جيفريز من محكمة العدل الدولية لاهاي - لتجرؤها على تهديد الصحافيين الذين لن يُدلوا بإفاداتهم ضد مجرمي الحرب الصربية. لمَ لا تحاول، بمساعدة من «محققيها» الصغار، استجواب بعض من مجرمي الحرب المحليّين خصوصًا في منطقة الشرق الاوسط؛ على سبيل المثال، رفعت الأسد أو أرييل شارون؟ ثم، في أسفل الطريق عند سينما صغيرة وضيّقة، قدّم السويسري عبرة عن ماهية حقيقة جرائم الحرب، أو كيف تُعدُّ معرفة جرائم الحرب - خصوصًا الفشل في الإدلاء بالشهادة في هذا الشأن - جريمة في حد ذاتها. ويعد «ميشين إن هيل» فيلمًا مرعبًا، إذ يروي سرًّا حتى الآن فصلًا مخزيًا للحرب العالمية الثانية لا يزال مجهولًا في بريطانيا، كما هو عليه الأمر في سويسرا.

نوجّه الاحترام الكامل إلى مهرجان الأفلام في لوكارنو الصغيرة، حيث عُرض الفيلم الخاص بفريديريك غونسيث. ومدته ساعتان ونصف الساعة، ويدور على بعثات الصليب الأحمر السويسري إلى الجبهات الشرقية النازية بين العامين ١٩١٤ و١٩٤٤. بالتأكيد، كلنا يعلم كيف تعرّضت اللجنة الدولية التابعة للصليب الاحمر للخداع على أيدي الألمان، وكيف صيغت تقارير لامعة المعاملة الإنسانية التي لقيها اليهود في معتقل تريزين، إضافة إلى معسكرات الاعتقال الأخرى. ما زلت مستعدًا للموافقة على الكلمة التي ألقاها المؤرخ السويسري التابع للصليب الأحمر خلال الحرب العالمية الثانية - عندما أجريت معه مقابلة قبل ستة عشر عامًا - فقال إن شر «هتلر» بلغ مستوًى ترك الصليب الاحمر في عالم أخلاقي مختلف» - لكنني بتّ أقلّ اقتناعًا بوجود أي عذر لما حدث للبعثات الأربع للصليب الاحمر المتوجّهة إلى روسيا التي احتلها

النازيون. فقد أبرز لنا فيلم غونسيث أمرًا فريدًا من نوعه: مجموعة من الجرّاحين والأطباء والممرضات الخُلقيين والمحايدين من غير الألمان، استعدوا للاهتمام بالضحايا الروسية، ولاسيما منها الألمانية في معارك هتلر في بربراروسّا، لكنهم سرعان ما وقعوا أنفسهم ضحية «البروباغندا» النازية والجبن الأخلاقي، وأكثر ما يؤلم السويسريين جميعًا تهديدات الحكومة السويسريّة المستميتة لإخفاء أدلتهم عن حدوث جرائم وإبادات جَماعية العالم.

في اختصار، اشترك الفريق الطبي المؤلف من ٢٠٠ مسعف في أربع بعثات توجهّت إلى أوروبا الشرقية المحتلة. لا بل صُوِّر فيلم يُظهر هؤلاء الليبراليين ذوي الأعين البرّاقة، وهم يغادرون محطة زوريخ (وقد أكدوا جميعهم، خطيًّا، انتماءهم إلى العرق «الآري» بنسبة ١٠٠ في المئة). وتتوافر وثائق عدة تثبت أنهم - من دون علم الأطباء السويسريين - كانوا تحت السيطرة المباشرة للجيش الألماني. وقد تحدّث الناجون الكبار في السن من البعثات عن رعبهم لدى رؤية سقوط الجنود الألمان اليافعين حول سمولينسك، إضافة إلى عمليات البتر من دون استخدام البنج - تتوافر صور مريعة في شأن عملية مماثلة - وكيف تبيّن أن الطبيب في الصليب الاحمر هو صديق لهيملر إذ أوصى لاحقًا بضرورة ان تعمل البعثات السويسريّة في محاذاة القوات الخاصة المعنية بالحماية الشخصية.

ومن خلال قائمة الإثباتات الراهنة، تذكر الطاقم الطبي الهرم والسويسري كيف فهموا - في بطء شديد، كما أضاف واحد منهم - أن من غير المسموح لهم مساعدة الجرحى الروس. وقد طُلِب أحد الاطباء السويسريين إلى خارج المستشفى لمساعدة الأسرى الروس. ويتذكر عدد آخر منهم رؤية القطارات الروسيّة باوو تنقل ٣,٠٠٠ سجين: «وجوه يخبئها الشعر والاوساخ»، ويتقاتلون على لقمة الخبز مع الإدراك المتنامي بتقليص عدد الأسرى الروس وعددهم ٢٠٠ ألف إلى ٢٠ ألف أسير خلال شتاء ١٩٤١-١٩٤٢. ولا تنفك ممرضة سويسريّة تكرّر «نظرنا إليهم (أي الروس) من خلال النافذة... لم يملك بعض

منهم حتى الأحذية». ويصف طبيب كيف رأينا أسيرًا روسيًّا يحمله رفيقاه، وهو يتهاوى بين ذراعيهما. «لم أقم بواجبي كطبيب وككائن بشري خوفًا من مواجهة المشكلات مع مضيفينا (الألمان)».

لكن الأمر لم يخلُ من بطولة. فثمة طبيب، كان يشير إليه في شكل مختلف باسم «رينتيلين» - اسم شهرته - أحد زملائه الناجين، لم يعد يقوى على البقاء شاهدًا على ذل مماثل. «عندما شاهد ما كان يحدث، لم يقوَ على تحمّل الأمر ذهنيًا، وقد أعيد إلى بلاده، بمفرده على ما أظن». بالإضافة إلى ذلك السويسري الذي تمكن من الدخول - في الواقع، النفاذ - إلى غيتو وارسو، حيث كان شاهدًا أوّلَ على المحرقة اليهودية. على سبيل المثال، تقول الممرضة شارلوت بيسريغر - برينو: «كان هناك أشخاص ممدّدون أرضًا. كانوا جميعهم يرتدون خرقًا بالية». ويقول تشارلز والدبيرغر: «كان الأشخاص ممدّدين على الأرض، فاقدي الوعي بعض الشيء، لعلهم ماتوا أصلًا، لا أعلم»؛ أو تيريز بالير: «يوجد كوخ، كوخ خشب. وقد جاء حارس المقابر واتجه نحونا، وقال: «تعالوا معي، تعالوا». أرشدنا إلى ما يشبه الكوخ وفتح الباب. أحسست الحاجة إلى التقيؤ. كانت الرائحة نتنة. كانت تعمّ المكان كومة من الجثث، لطاعنين في السن، وليافعين من كل الأنواع».

وبينما يتولى فيلم غونسيث توضيح الأمور، كان الشعب السويسري بين الشهود المحايدين الأوائل على الإبادة الجماعية المرتكبة في حق الروس - كان هتلر ينوي قتل ملايين الأسرى السوفيات - إضافة إلى المحارق اليهوديّة. ولكن عندما عادت البعثة السويسرية الأخيرة إلى سويسرا في العام ١٩٤٤ - حيث كشف عملية الفرار الشاقة لطاقمها الطبي، الجيش الأحمر المتطور - آثر أفرادها التحفظ بدلًا من البسالة، واغلاق دفاتر يومياتهم حيث دوِّن الرعب ست سنوات، على إلحاق الضرر بالحياد المفترض لبلدهم الأم. ويستحق شخص واحد بين هؤلاء - اسمه رودولف بوشير - أن يكون بطلًا سويسريًّا. فقد حاضر

في زوريخ، وأطلع الرأي العام السويسري على ما رأيناه، كذلك عرض صورًا مريعة للمذبحة المرتكبة في الجبهة الشرقية، ودان ملاحقة اليهود.

وطبقًا للواقع، فقد كان حاضرًا في تلك المحاضرة رجل من الشرطة السريّة السويسريّة، ودوَّن ملاحظات عن ذلك، وقد هُدِّد بوشير بالاعتقال ومنع من إلقاء المحاضرات، وحُذر - يا للهول، فكرت في نفسي حين سمعت ذلك - من أنه قد لا يُسمح له بأداء خدمته في الجيش السويسري. وفي ما بعد، أشارت ابنة بوشير إلى ما يسمّى «ضبابية الألاعيب السياسيّة، ولعلها على الأرجح، وسيلة لطيفة للإشارة إلى التصريح المذهل الذي أعلنه وزير الشؤون الخارجية السويسرية، مارسيل بيليت - غولاز، الذي كتب في العام ١٩٤١: «علينا (السويسريين) أن نستمر في إظهار الدعم الثابت الذي يستحقه الجهد الألماني».

كلا، لا أريد أن أسحق السويسريّين. أعبر عن تقديري الكامل للمواطن السويسري الذي أعدّ هذا الوثائقي الرائع. إنني أثني على الأطباء المتقدمين في السن الذين أدلوا بشهادتهم، على رغم أن ذلك جاء متأخرًا. ويسأل أحدهم في شكل بائس «ما الذي يمكننا القيام به؟». لست مقتنعًا أيضًا بحق السيدة ديل بونتي في إرغام الصحافيين على الإدلاء بشهاداتهم عن جرائم الحرب المرتكبة اليوم. لكنني ما زلت أريد محاكمة مجرمي الحرب في منطقة الشرق الأوسط إذا أدلى الصحافيون بشهادتهم لدى محكمتها.

لكنني أتذكر، منذ عشرين سنة، أني كتبت تقريرًا طويلًا إلى صحيفتي آنذاك، أي «ذا تايمز»، عن استخدام صدام حسين الغاز في حربه على الإيرانيين - وقد رأيت الجنود الشبان الإيرانيين وهم يسعلون مستعينين بالمناشف في قطار للمستشفى العسكري كان ينقلهم إلى طهران من الجبهة - وأتذكر كيف تولّى مسؤول في وزارة الخارجية في الأسبوع نفسه اخبار محرّري أن روايتي «غير مفيدة»، طبعًا، لأننا كنا آنذاك ندعم صدام، ولأن دونالد رامسفيلد كان يلتقي

صدّام في ذلك الوقت، في محاولة منه لإقناعه بالسماح للولايات المتحدة الاميركية بإعادة فتح مقر سفارتها في بغداد.

«غير مفيد»، هذا بالتأكيد ما ظنه السويسريون تمامًا بشهادة أطبائهم الوافدين من الجبهة الشرقية.

«ذي إندبندنت»، ١٦ آب/أغسطس ٢٠٠٣

يمكنكم الطلب من جندي ما إحراق قرية...

ليس بمكان بعيد عن شرفتي التي تطل على البحر المتوسط، ترقد غواصة فرنسيّة تعرّضت للغرق. وهي تستقر في قعر البحر إلى يسار شجرة الجكارندا المزهرة ذات اللون الأرجواني، والتي تطل على الجهة المقابلة من نافذة غرفة نومي. تعرضت تلك الغواصة للغرق في العام ١٩٤١ عندما تسلّلت غواصة للبحرية الملكية متخفيّة إلى ساحل لبنان آتية من فلسطين، حين اكتشفت وجود غواصتين اثنتين من أسطول حكومة فيشي الفرنسيّة تحاولان الرسو على ذلك الساحل بعد الغزو الأنغلو - فرنسي للبنان. ولا تنفك السفارة الفرنسية في لبنان تعيد تذكير الآخرين، على نحو منتظم، بأنها مقبرة حربية، لكن اللبنانيين يستمرون في ممارسة السباحة داخل الهيكل. وها هي حركة المد والجزر المتوسطية الرقيقة تهتزّ على السفينة من وقت إلى آخر، بينما تتمايل معها الهياكل العظميّة الموجودة في الداخل، وهي لا تزال تُظهر بقايا بزاتها العسكرية. لن تنتهي أبدًا الحرب العالمية الثانية.

تنتشر في صيدا وبيروت مقابر الحرب - حيث قتل البريطانيون والفرنسيون جراء إنجاز الحرب المدهش والمجهول الهدف عمومًا - وكثيرًا ما أقود سيارتي في أجزاء منطقة الدامور، حيث أطلق قناص فرنسي النار على جندي فلسطيني يهودي اسمه موشي دايان، فأصابه في عينه. وأحتفظ في منزلي بألبوم صور تعود إلى الحرب العالمية الثانية في لبنان، تصوّر الخيار الذي اتخذه الجيش الفرنسي في لبنان عندما أخبر أن في إمكانه إما الإبحار إلى بلاده في ظل حكومة فيشي الفرنسية، وإما البقاء في منطقة الشرق الاوسط ومحاربة الجنرال ديغول. وقد اختار معظمهم العودة إلى مرسيليا. وتبرز صفحتان في كتاب الصور خاصتي، آلاف الفرق العسكرية الفرنسيّة وهي تبحر من مرفأ

بيروت رافعة علمًا فرنسيًّا ضخمًا، حيث تمّ تطريز العبارات التالية «يعيش بيتان».

ها نحن الآن. كانت سنة ١٩٤١ سيئّة على دعم الحلفاء، وكانت ستالينغراد تبعد مسافة ثمانية عشر شهرًا، كدليل قاطع إلى أن من الممكن لجم قوة هتلر. لكنني أتذكر تلك الغواصة الفرنسية كلما رأيت غطاسًا لبنانيًا صديقا لي يُبحر من فندق الريفييرا ليتفقد الحطام في شكل منتظم. وعلى ما اعتقد، فإن الحرب العالمية الثانية تعد ركيزة لتاريخنا الحديث، وهي الصخرة التي تستلقي عليها كل قصصنا: الأمم المتحدة وبروتوكولات الصليب الاحمر الدولي والقانون الدولي لحقوق الإنسان.

إني أشعر الإهانة من الطريقة التي يحاول فيها كل من القزمين بلير وبوش ارتداء الصدرية الخاصة بكل من تشرشل وروزفلت. أنظر إلى بلير وهو يعبث في البصرة، وأتذكر كيف أن يوسب بروز تيتو، وهو الرجل الوحيد الذي تمكن من تحرير بلاده من الطغيان النازي من ضمن أمة محتلة، هو القائد الوحيد في صفوف الحلفاء الذي أصيب أرض المعركة أثناء الحرب. فما هي الجراح التي أصيب بها بلير؟ قبل بضعة أشهر، أحسست بالرغبة في المشاركة في البرنامج الذي تقدمه شبكة «بي.بي.سي»، أقراص ديسيرت أيلاند، حيث يمكنكم اختيار ثماني أغان لدفع المستمع إلى الملل - أو الترفيه عنه - ومن الأغاني التي اخترتها، خطاب وينستون تشرشل الموجه إلى الشعب البريطاني (وأقرّ بأنه بالكاد تتخلله الموسيقى)، في ١٨ حزيران/يونيو ١٩٤٠. لقد اخترت ذلك الخطاب لأنني أردت أن أثبت لكل من بلير وبوش، أنهما ليسا وينستون تشرشل.

يبدأ خطاب تشرشل على الشكل التالي: «إن هتلر يدرك أن عليه، إما القضاء علينا في هذه الجزيرة، وإما خسارة الحرب». يا له من اصطفاف مبهر للكلمات. لكان بوش استخدم عبارة «إلحاق الهزيمة بنا»، ولكان بلير استخدم عبارة «ضربنا»، لكن تشرشل استخدم عبارة «القضاء علينا». وتابع تشرشل قائلًا

«إذا وقفنا في وجه هتلر، فستكون عندئذ أوروبا حرّة، لتتمكن حياة العالم من المضي قدمًا نحو مستويات مرتفعة واسعة، تضيئها الشمس». فلنقارن تلك الجملة بجملة «إنني على يقين في شكل قاطع وكليّ، بأنني على حق» للورد بلير في كوت العمارة، حين كان يعظ في شأن العراق.

قبل يومين اثنين، تناولت الغداء في مطعم سباغيتيريا في بيروت برفقة أدريان جولمز من صحيفة «الفيغارو»، وهو صحافي فرنسي تلقى مقالاته شهرة واسعة، وقد عرف المصير نفسه لبطلي العظيم جورج غينيمير، الطيار الفرنسي الذي أُسقطت طيارته فوق إيبر في العام ١٩١٧ بعد تدميره ما مجموعه ثلاثًا وخمسين طائرة ألمانية. لقد كان القصف الألماني خلال تحطم طائرته شديدًا جدًّا، وحين بلغت البوالو - فرقة مشاة فرنسية - مسرح الحادث لم يكن بقي شيء من غينيمير أو طائرته. وقد منح غينيمير اسمه لشارع جميل يمتد على جهة واحدة من حديقة لوكسمبورغ في باريس، وتحدثنا أنا وجولمز عن معركتي فردان والسوم، وبالتأكيد عن الصراع الكبير الثاني لـ «جيلنا»، حيث أزهقت حياة ٦٠ مليون شخص. لذا، كيف يمكن هذين القزمين أن يستمرا الادعاء أنهما يحاربان الحرب العالمية الثانية؟ ألا توجد طريقة ما يمكننا من خلالها وقف هذا الكلام الفارغ؟

تحدثنا انا وأدريان عن سقوط برلين (شاهدوا فيلم «داونفول» في حال لم تروه حتى الآن، وستقبعون في صمت لحظات عدة، بعد انتهائه). وقد أبدى ملاحظة مميّزة عند الانتهاء من طعامنا. كان أدريان جنديًّا أجنبيًا فرنسيًا - ومقره في كورسيكا - قبل أن يصبح (على نحو حكيم) صحافيًّا. وقال لي «أتعلم أمرًا يا روبرت، ثمة امر مدهش، في إمكانك أن تطلب من جندي ما إحراق قرية وسيقوم بذلك ليرتكب بذلك جريمة حرب؛ أو يمكنك أن تطلب منه إنقاذ شعب ما وسيقوم بذلك ليصبح بطلًا إنسانيًّا. أليس ذلك مدهشًا؟».

«ذي إندبندنت»، ٢ حزيران/ يونيو ٢٠٠٧

أيجب على الصحافيين أن يشهدوا في المحاكمات ضدّ جرائم الحرب؟

وصل محققان كنديان متخصصان في جرائم الحرب، لمقابلتي في بيروت خلال الأسبوع الماضي. كلا، لم يأتيا للتحدث معي عن حرب البوسنة، بل أرادوا معرفة معلومات عن التعذيب الذي كانت تمارسه إسرائيل في معتقل الخيام في جنوب لبنان، وعن أعمال الضرب والأسر داخل زنزانات في حجم الخزانة، مع تثبيت الأطراف الكهربائيّة على أقدام السجناء والعضو الذكري لكل منهم أثناء التحقيق. وكان معظم ممارسي التعذيب من الأشخاص اللبنانيين التابعين لإسرائيل والمتعاملين معها في ميليشيا «جيش لبنان الجنوبي»، وقد مارسوا أعمالهم الشنيعة لمصلحة الإسرائيليين - ضد النساء والرجال على حد سواء - منذ أواخر السبعينات وحتى الانسحاب الإسرائيلي في العام ٢٠٠٠: حوالى ربع قرن من التعذيب. لا يزال معتقل الخيام مكانه، فاتحًا أبوابه على الملأ، ليكون شهادة حيّة على الوحشية والخزي الإسرائيليين(*).

تكمن المشكلة في أن إسرائيل تحاول الآن زرع جلاديها اللبنانيين في الدول الغربية، إذ يُطلب من كل من السويد وكندا والنروج وفرنسا وألمانيا ودول أخرى، منح الجنسية لهؤلاء الأشخاص الذين تشمئز منهم النفوس تحقيقًا لمصالح «السلام»، ثم أن الحكومة الإسرائيلية تفضل أن يغادروا إسرائيل. وقد وصل المحققون الثلاثة - وهم شرطيان اثنان ومسؤول في وزارة العدل - إلى بيروت للتأكيد أن حكومتهم لن تمنح الجنسيّة لمجرمي الحرب الإسرائيليين.

(*) لم يعد كذلك بعد الآن. فقد تعرض لضرر فادح جراء اندلاع حريق فيه خلال الحرب التي دارت بين إسرائيل و«حزب الله» في لبنان في العام ٢٠٠٦.

وكانوا يعلمون بما كانوا يتحدثون. كلانا يعرف أن واحدًا من الجلادين السابقين، كان يعيش في السويد برفقة ابنيه الآثنين، وأن واحدًا آخر فتح مطعمين اثنين في أميركا. شعرت بسعادة في التحدث معهم. لكن الدردشة أمر، والإدلاء بشهادة أمر آخر. إني أوضح هذه النقطة لأن شبكة «بي.بي.سي» كشفت لي الأسبوع الماضي، أن مراسلها في بلغراد، واسمه جاكي رولاند، كان يخطط للإدلاء بشهادته ضد سلوبودان ميلوسوفيتش في محكمة جرائم الحرب في لاهاي. وتلقيت هذا الأسبوع دعوة إلى المشاركة في مقابلة إذاعية لـ «بي.بي.سي»، ولكن مع مراسل آخر لديها، سبق أن أدلى بشهادته في لاهاي، واسمه دان دايمون.

في الواقع، تلقيت اتصالًا هاتفيًا من أحد المحققين في محكمة لاهاي قبل بضعة أسابيع، كان يريد معرفة هل رافقت سابقًا وفدًا من الاتحاد الأوروبي إلى معسكر الاعتقال في البوسنة في العام ١٩٩٢. وقد سافرت مع رجال الاتحاد الأوروبي إلى معسكرين اثنين، غير المعتقل الذي يستفسر عنه المحقق لدى محكمة لاهاي. لكن هذا الاتصال لم يكن الأول الذي تلقيته من محكمة لاهاي - وقد فعلت ذلك سابقًا - ولا أظن أن على الصحافيين التصرف كأنهم شرطيون. إذ يمكن أيًا يكن أن يستخدم مقالاتي في لاهاي، بل كنت أكثر من مستعد توقيع كتاب يثبت صحتها. وهذا كل ما في الأمر.

وهذا الأسبوع، عندما ناقش مراسل «بي.بي.سي» دان دايمون على الهواء، أن من المحتمَل عدم «تصديق» التقرير الخطي أو الشفهي في حال كان المراسل غير مستعد للإدلاء بشهادته أمام محكمة ما، أُصبت بالدهشة. ففي قضايا عدة، باشرت محكمة لاهاي اتخاذ إجراءاتها بناءً على مقالات صحافية وعلى برامج تلفزيونيّة. وعلى حد علمي، لم يشكك أحد في تقاريرنا في شأن جرائم الحرب الصربية والكرواتيّة: نعم جرائم الحرب البوسنية المسلمة. في الواقع أنا أشك في أن يكون رأي دايمون مجرّد ستار لتغطية همومه الخاصة في شأن حدود الصحافة.

إني أعلم بكل تأكيد كيف تتكون الحجج. يفكر المراسل في نفسه حين يحضر (أو حين تحضر المراسلة إلى المحكمة: قد أكون صحافيًا، لكنني كائن بشريّ. لا بد من أن يحين الوقت ليتفوق الضمير الأخلاقي على قواعد الصحافي. لا أحبّذ هذه الحجّة. أولًا، لأن المفهوم الضمني يرتكز على أن الصحافيين الذين لا ينوون الإدلاء بشهادتهم، ليسوا بكائنات بشرية؛ وثانيًا لأنني أقترح أن المراسلين لا يعملون عادةً بضمير أخلاقي. فجوناثان راندل، وهو صحافي عمل لدى صحيفة «واشنطن بوست» في البوسنة، وأطلع محكمة لاهاي أنه يرفض الإدلاء بالشهادة ضد المدعى عليه الصربي، يتفهم في شكل جيّد ذلك كله.

لكن ما يثير قلقي، هو أن مهنة الصحافة تتضمن عنصر مهزلة في حال غطينا أحداث الحرب، كمراسلين، وشاركنا بعد ذلك في محاكمة الرجال الأشرار، بناءً على طلب محكمة، إذ تصل أوامرها إلى جرائم الحرب التي ترى إن من الملائم دون سواها - أو تلك التي تعد الغرب مناسبًا - التحقيق في شأنها. على سبيل المثال، فإن جاكي رولاند التابعة لـ «بي.بي.سي» لم تتحدث - خلال تغطيتها الفظائع التي وقعت في البلقان - عن المهمات الصربية بعبارات: إني مراسلة لدى «بي.بي.سي» و - في حال فقدتم الكثير - إني مستعدة لمساعدتكم في محاكمتكم». في الواقع، لو كانت قالت ذلك، لما كانت تسنت لها الفرصة للقيام بأي تغطية صحافية، ولا كان أي منا قد قام بذلك. ولكن - وقد درج الآن مراسلو قناة «بي.بي.سي» على التحول شهودًا في المحاكمات في محكمة لاهاي - فليساعدنا الله جميعًا في المستقبل.

لا أملك شيئًا ضد تقارير جاكي رولاند. ولكن في حال أحسّت أن شهادتها أمر حيويّ في إدانة السيد ميلوسوفيتش، فإن القرار يعود إليها. لكن لهذه الرواية جانبًا آخر، إذ إن السيدة رولاند لا تخطط للمثول أمام محكمة العدل الدولية في لاهاي، لأنها اختارت أن تدلي بشهادتها ضد الزعيم الصربي السابق. لقد سافرت إلى لاهاي لأن القوى الغربية قرّرت أن عليها الإدلاء بشهادتها ضد

السيد ميلوسوفيتش -، وبالطبع، على برغم عدم إدلائها بالشهادة ضد مجرمي الحرب المزعومين الذين اشتهروا بفظاعتهم المماثلة في أنحاء أخرى من العالم.

دعوني أشرح الامر: فقد اختبرت على مرّ السنين الست والعشرين، جرائمَ حرب عدّة في منطقة الشرق الأوسط. كنت موجودًا في حماه عندما أقدمت القوات الخاصة السورية على قتل ٢٠ ألف مدنيّ خلال ثورتي الإخوان المسلمين في العام ١٩٨٢. وكنت موجودًا في مخيّمي صبرا وشاتيلا في العام عينه عندما ذبح القتلة من حزب الكتائب المتعامل مع اسرائيل، مدنيين فلسطينيين. وكنت مع الجنود الإيرانيين عندما أطلقت القوات العراقية قذائف الغاز عليهم. وكنت موجودًا في الجزائر بعد حدوث مجازر الذبح في بن طلحة، حيث أشرك الجنود الجزائريون فيها. وأظن بوجوب إحالة هؤلاء المسؤولين عن تلك الفظائع، على المحكمة. أما أرييل شارون - وقد تبيّن أنه «مسؤول شخصيًّا» عن جرائم صبرا وشاتيلا بموجب تحقيق أُجري في بلاده - فقد أصبح الآن رئيس وزراء إسرائيل. ويعدُّ الجيش العراقي في مأمن من المحاكمة: في الواقع، إننا ندعوه إلى الانقلاب على صدام حسين. لذا، في حال أراد أي مراسل صحافي الإدلاء بشهاده ضد السادة المذكورين آنفًا، فلينسَ الأمر. لن تُدعى السيدة رولاند إلى زج الرئيس الأسد أو شارون خلف القضبان. في الواقع، بذلت بلجيكا قصارى جهدها لثني الناجين من مخيم صبرا وشاتيلا عن الإدلاء بشهاداتهم ضد شارون في بروكسيل.

هذا ما هو عليه الأمر في إيجاز. إذ لا يُطلب منا نحن كصحافيين الإدلاء بشهاداتنا لمصلحة العدالة الدولية. تتجه السيدة رولاند إلى الإدلاء بشهادتها ضد مجرم حرب نرغب اليوم في محاكمته؛ وعلينا أن نعود بذاكرتنا إلى العام ١٩٩٥ عندما كنا في حاجة إلى أن يوقع السيد ميلوسوفيتش اتفاق دايتون، عندئذٍ لم يكن مطلوبًا من السيدة رولاند الإدلاء بشهادتها، سواء من لاهاي أو أي جهة أخرى.

وما دمت معنيًّا بالأمر، فإني على استعداد دائم لأن أقابل محققين في جرائم الحرب. فأنا أقدّر جميع الذين التقيتهم. ولو توافرت لدينا محكمة دولية لمحاكمة جميع الأنذال، لكنت غيّرت رأيي. ولكن حتى ذلك الوقت، فإن عمل المراسل لا يتضمّن الانضمام إلى المحاكمة. فنحن شهود، نسطّر شهادتنا ونسمّي، في حال أمكننا ذلك، الأشرار. إذ يقع على عاتق العالم التصرف، وليس على عاتقنا نحن.

«ذي إندبندنت»، ٢٤ آب/أغسطس ٢٠٠٢

أين هم عظماء اليوم؟

قبل أن يسافر الرئيس المصري أنور السادات في رحلته إلى القدس في العام ١٩٧٧، أبلغ إلى العالم أنه لا ينوي العيش «بين الأقزام». كان وقع ذلك قاسيًّا على الأقزام، ولكن لا شك في أن ذلك كشف حقيقة السادات. ظن أنه رجل عظيم. لكن التاريخ يفترض أنه كان على خطأ. فقد أدى اتفاق كامب دايفيد الذي وقعه في العام ١٩٧٨ مع رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغن، إلى إعادة صحراء سيناء إلى السيادة المصرية لكنه حصر بلد السادات ضمن سلام بارد وعزله شبه قاتلة. وقد أطلق عليه أخيرًا لقب «الفرعون»، وهو لقب قد يكون السادات أحبّه لو لم يهتف قاتلوه بهذا الاسم وهم يهجمون في عنف على منصة العرض العسكري في العام ١٩٨١.

وتنضح منطقة الشرق الاوسط، بكل تأكيد، بالملوك والدكتاتوريين الذين يُطلق عليهم - أو يحبون أن يتخيلوا أنفسهم - رجالًا عظماء. فصدام حسين ظن نفسه ستالين - من ناحية الوحشية، ولسوء الحظ بالنسبة إلى بعض صفات العظمة - بينما شبّه جورج بوش الأب صدّام بهتلر. أما عدن فعدّت عبد الناصر موسوليني النيل، عندما أمم قناة السويس في العام ١٩٥٦ (على برغم أن موسوليني لم يكن عظيمًا، إلا أنه اعتقد أنه كذلك). وزعم ياسر عرفات عند وفاة ملك الأردن الهاشمي حسين، أنه شبيه صلاح الدين، أي المحارب الذي طرد الصليبيين من فلسطين. والحق يقال إن الإسرائيليين هم الذين طردوا الهاشميين من فلسطين. لكن الحسين كان إلى «جانبنا». وعند وفاة هذا الملك الصغير المقدام جراء إصابته بمرض السرطان في العام ١٩٩٩، خلّده الرئيس كلينتون الذي صرّح بقوله «أصبح في الجنة»، وهو عمل عظيم ظل غير كاف إلى أن أعاده البابا يوحنا بولس الثاني إلى موقعه قبل جنازته خلال هذا الشهر.

أصغيت طويلًا إلى هذا الحشو المطلق في الكلام عن قداسته، الذي ينتمي إلى الجناح الأيمن في شكل ميؤوس منه عندما كان يُحتضر، وقرأت الكم الكبير من التهكم اللاذع الذي يوجِّه إليه بعد بضعة أيام. إني أوافق على معظم ما كُتب في هذا الشأن. لكنه كان الشخصية العالمية الأبرز - على أن اكتساب المكانة «العالمية» ليس بالضرورة صفة من صفات العظمة، لكنه يساعد على ذلك - التي عارضت الغزو المجنون للرئيس بوش للعراق. وبقرار حازم، دان عدم شرعية الهجوم على العراق، ثم أعاد الكرّة بطريقة لم يجرؤ أي رجل دين بارز آخر على القيام بها. حسنًا فعل البابا، كما أتذكر أنني قلت هذا في ذلك الوقت - وقد يكون فظًّا من قبلي أن أنسى هذا اليوم. ولكن أكان رجلًا عظيمًا؟ في الحقيقة، يبدو عالمنا مملوءًا بالرجال الصغار. ولا يبدو مملوءًا بـ «أقزام» السادات وحسب. قد يُعدُّ القذافي «رجل دولة» بالنسبة إلى وزير خارجيتنا المهرول - وقد تم ذلك عندما اتُهم الزعيم الليبي بأنه كان يخطط لاغتيال عاهل المملكة العربية السعودية عبد الله - لكن أي شخص يقترح في شكل جدي قيام دولة إسرائيلية وفلسطينية مشتركة يطلق عليها اسم «إسرائلطين»، هو مرشّح في شكل بارز للرجال في المعاطف البيض(*).

في الواقع، تطرح هذه المسألة السؤال التالي: هل من وجود لرجال عظماء في منطقة الشرق الأوسط؟ لا، بل هل من وجود لرجال عظماء في عالمنا اليوم؟ أين هم - وقد طرح علي أخيرًا هذا السؤال قرّاء كثر- خلفاء تشرشل وروزفلت وترومان وآيزنهاور وتيتو ولويد جورج - وودروو ويلسون وديغول وكليمنصو؟ تبدو الرزمة الحاضرة اليوم للرؤساء ورؤساء الحكومات المتكلّفين، بعيدة كل البعد، منهم. قد يظن بوش أنه يشبه تشرشل - لكنه يعجز عن مقارنة نفسه بوالده - دعوا رئيسنا ونستون على حدة، إذ يبدو بوش الابن أشبه بطالب

(*) أشاد وزير خارجية بريطانيا في العام ٢٠٠٥، جاك سترو، بتعليق القذافي على تطوير التكنولوجيا النوويّة (هذا إذا كان ذلك صحيحًا)، بصفته «نوعًا من الحنكة».

منكب على المذاكرة، بينما يبدو أصدقاؤه - تشيني ورامسفيلد وولفوفيتز والبقية - سيئي السمعة. يرغب شيراك في أن يكون رجلًا عظيمًا، لكن مشكلته تكمن في أنه يتعرض للاستهزاء. راجع المرادف الفرنسي لـ سبيتينغ إيمدج. ويواجه بلير عائقًا أسوأ. فقد صار محط استهزاء، حتى أن الشخصية التي يضطلع بها رجل دين سَميُّه في برنامج برايفت أي أصبحتْ بكل بساطة غير مضحكة.

من الواضح أن التضحية تؤدي دورًا في هذا الشأن. فالتعرض للصدمة من أجل أصدقائك - ويُستحسَن أن تقوم بـ «صنع السلام» على رغم أن معظم هؤلاء يبدون خلال تنفيذهم مشروع «السلام» كأنهم أمضوا وقتًا طويلًا وهم يشنون الحرب - يُعدّ في شكل واضح بمثابة الدرب الممكن الذي يؤدي إلى العظمة. لذلك، يملك السادات فرصة، وكذلك الأمر بالنسبة إلى إسحق رابين في إسرائيل، إضافة إلى الملك حسين، من خلال مرضه - في شكل مسرحي أكثر - والبابا الراحل، على رغم أن والدتي توفيت جرّاء المرض نفسه مع دراما وتباهٍ أقلّ. إن هؤلاء الأشخاص الذين يقاتلون في نجاح محتلي بلادهم، يدخلون عالم الضوء: ديغول أيضًا وتيتو، ولربما موشي مين، ولكن ليس في الظاهر قادة حزب جبهة التحرير الوطني الجزائرية، وبالتأكيد ليس قادة حزب الله اللبناني. وكلنا نعلم كيف تحول عرفات من صفة كونه «إرهابيًا خطيرًا» إلى رجل دولة من الدرجة الأولى، ثم عاد مجددًا إلى خانة «الإرهابي»، إلا أنني أميل في منطقة الشرق الاوسط إلى الرئيس الإيراني خاتمي. إنه رجل محترم وفيلسوف يتمتع بأخلاق عالية بكل ما للكلمة من معنى، وقد أطاحته القوة السياسية التي يتمتع بها أعداؤه رجال الدين المنصّبون من آية الله الخميني. لم يتحوّل «المجتمع المدني» الخاص بخاتمي حقيقة على الإطلاق؛ ولو تحقق ذلك، لكان عندئذٍ يُعدّ رجلًا عظيمًا. ولكن عوضًا عن ذلك، تبدو حياته كأنها مأساة مملوءة بالأمل الذابل. إني أشير إلى الخميني، وأخشى أن علينا إدراجه في القائمة. فقد اختبر فقر غاندي، وأطاح دكتاتوريّة شرسة، وغيّر تاريخ الشرق

الاوسط. أما وقد أصبحت بلاده اليوم قائمة على الأموات - حكومة خاضعة لسلطة الأموات ولمصلحتهم - فإن هذا، لسوء الحظ، لا يغير ذلك. لكن تلك المسألة تطرح سؤالًا آخر غامضًا: لمَ نتوقف عند جيل واحد أو اثنين سابقين؟ لمَ نتوقف عند الحرب العالمية الأولى؟ قد نسأل أنفسنا، أين هم اليوم دوق ويلينغتون ونابليون والملكة إليزابيث وريتشارد قلب الأسد، ونعم: صلاح الدين والقيصر وجنكيز خان؟

والغريب في الأمر أن قائمة الرجال العظماء لا تتضمن اسم غاندي، الذي أعده مرشحًا بارزًا نظرًا إلى كل الأسباب المحققة. فقد كان رجلًا صالحًا ومسالمًا في شكل ملموس. حرّر بلاده من الحكم الامبريالي، واغتيل. قد يكون نيلسون مانديلا بين المرشحين الذين وضعتهم نظرًا إلى كل الأسباب الواضحة (ولا تُعد اعتراضاته على بوش آخرها)، إضافة إلى الممرضة أديث كافيل - «الوطنية لا تكفي» - التي أطلق عليها النار الألمان خلال الحرب العالمية الأولى. ولا بد من أن تندرج مارغريت حسن في قائمتي، وهي العاملة في مجال البِرّ والشُّجاعة والناكرة للذات في شكل فائق، والتي تعرضت للذبح في العراق، ما يثبت بالتأكيد أن علينا طرح السؤال التالي: أين هنّ النساء العظيمات في عصرنا الراهن؟ قد أقول، رايتشل كوري، تلك الشابة الأميركية التي سحقتها دبابة إسرائيلية بعدها وقفت في طريقها لحماية منازل الفلسطينيين في غزة. أما بالنسبة إلى قائمة الرجال، فما رأيكم في موردخاي فانونو، وهو المنشق الإسرائيلي الذي فضح البرنامج النووي الإسرائيلي؟ أجل، جميع الأشخاص المتواضعين والعاديين، إذا أردتم ذلك، الذين قاموا بما قاموا به، أيًّا يكن الثمن، ليس لأنهم يطمعون بالعظمة، لكن لأنهم آمنوا بأن ما فعلوه هو الصواب.

«ذي إندبندنت»، ١٦ نيسان/أبريل ٢٠٠٥

الفصل الحادي عشر

أميركا، أميركا

يتهم الأميركيون أعداءهم الحقيقيين والخياليين بالظلم، لكن المواطنين المسلمين في الولايات المتحدة الأميركية - وملايين المواطنين غير المسلمين الموجودين في الولايات المتحدة الاميركية الذين يرفضون التزام الصمت حيال التقيّد شبه الوطنيّ تجاه أميركا المحافظة - هم يشكلون على الأرجح الأمل الأعظم للأمة. إذ أسافر إلى الولايات المتحدة الأميركية من الشرق الأوسط، كل ثلاثة أسابيع لألقي محاضرات في الجامعات الاميركية. يا لها من تجربة قاسية وحقودة أحيانًا، ولكن واعدة. لو كنتم في صدد إدانة سياسة الولايات المتحدة الأميركية المتبعة في منطقة الشرق الأوسط، قد يكون من الحريّ بكم التوجّه وأخذ الشرارة من «أرض الأحرار».



خطاب حرّ

كانت ليلى العريان تغطي رأسها بالحجاب أثناء وجودها في مكتبها في نايشون بوكز، وهي واحدة من دور النشر في نيويورك التي تعاملت معها. قالت لي: لا، سيكون من الصعب أن أتحدث مع والدها عبر الهاتف. ففي المركز الطبي الواقع في سجن شمال كارولينا حيث يوجد، لا يمكنه إجراء سوى عدد قليل من المكالمات الهاتفية - إذ تخضع للمراقبة بالطبع - وقد بدأ يزداد وهنًا في شكل كبير. يبلغ سامي العريان تسعة وأربعين عامًا. لكنه أضرب عن الطعام ستين يومًا للاعتراض على الانتهاكات التي تمارسها الحكومة ضده، العدالة التهكّمية التي أخفقت على نحو واسع في استنهاض الكلاب النائمة للصحافة الاميركية في كل من نيويورك وواشنطن ولوس أنجلس. ويعود الفضل كله في ذلك إلى المراسل جون ساغ من تامبا، فلوريدا، الذي كان يعرض طريق الجلجلة الصغيرة للعريان طوال أشهر، بالتزامن مع كاونتر بنش لألكسندر كوكبورن.

تقوم الرواية على ما يلي: عمل سامي العريان، وهو فلسطيني من مواليد الكويت، أستاذًا ذائع الصيت في مجال الكمبيوتر في جامعة جنوب فلوريدا، حيث حاول، ولكن سُدًى، إيصال المأساة الحقيقة للعرب الفسلطينيّين إلى الحكومة الأميركية. لكن وفقًا لساغ، غضب اللوبي الإسرائيلي جراء دروسه - طردت عائلة العريان من فلسطين في العام ١٩٤٨ -، وفي العام ٢٠٠٣، وبناءً على تحريض من النائب العام أشكروفت، أوقف حكم بتهمة التآمر بـ «القتل وتشويه السمعة» خارج الولايات المتحدة، إضافة إلى جمع الاموال من أجل الجهاد الإسلامي في «فلسطين». وقد أُوقف سنتين ونصف السنة في زنزانة

انفراديّة، حيث يُسمح له بالمشي نصف ميل مع تكبيل يديه وقدميه، ولا يُسمح له إلا بالتحدث مع محاميه. وقد كلفت محاكمة تامبا العريان ٥٠ مليون دولار اميركي (٢٥ مليون جنيه إسترليني)، واستغرقت ستة أشهر؛ واستدعت الحكومة ٨٠ شاهدًا (٢١ منهم من إسرائيل)، واستعانت بـ ٤٠٠ مكالمة هاتفية ضبطها كإثبات على الاتصال الهاتفي الذي أجراه شريك المدعى عليه مع العريان - انتظروا الأمر - في المنام. وقد استخدم القاضي المحلي، واسمه جايمس مودي حق رفض اللجوء إلى أي ملاحظة في شأن لاحتلال العسكري الإسرائيلي، أو القرار الرقم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن في الأمم المتحدة على أساس أنها تعرّض نزاهة هيئة المحلفين للخطر.

وفي كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥، بُرىء العريان من أكثر التهم الموجهة إليه خطورة، ولاسيما تلك المتبقيّة، عندما صوتت هيئة المحلفين بعشرة أصوات في مقابل اثنين لمصلحة التبرئة. ونظرًا إلى أن مكتب التحقيقات الفدرالي «أف.بي.آي» أراد تقديم تهم إضافية، تولى محامو العريان إطلاعه على ضرورة التقدّم بالتماس من شأنه أن يضع حدًّا لأي ادعاء لاحق. وعندما حان وقت محاكمته، تبيّن للعريان - الذي استوفى مدة عقوبته التي يتبعها الترحيل - أن مودي يتحدث عن «دم» في رقبة المدعى عليه. إذ عليه تمضية أحد عشر شهرًا آخر في السجن. حينذاك أصرّ المدعي العام غوردون كرومبيرغ على ضرورة أن يشهد السجين الفلسطيني بتهمة الفكر الإسلامي الموجهة إليه. وظن العريان أن المساومة على التماسه، ألحق بها الغار، ورفض الإدلاء بشهادته. فسجن في ازدراء، وهو لا يزال يعاني في السجن.

بالتأكيد، لا يتصرف الجلادون الأميركيون على هذا النحو في العراق. فقد شعر واحد منهم، عرف عنه باسم ريك فير، البهجة من خلال «عقد الاستجواب» الذي حرّر روحه في «واشنطن بوست» - وكل الإطراء هنا، في المناسبة لـ «البوست» - في شأن مغامراته في «مركز» التحقيق في الفلوجة

للكتيبة الجوية الرقم ٨٢ . إذ كان فير يعاني الكوابيس بسبب شخص عراقي حرموه النوم أثناء استجوابه من خلال «إرغامه على الوقوف في الزاوية وتجريده من ثيابه». أما الآن فإن فير هو مَن يعجز عن النوم. «يحدق في رجل من دون وجه... وهو يطلب مني المساعدة، لكنني أخاف من التحرك. يبدأ بالبكاء. إنه لصوت محزن وهو يزعجني. يبدأ بالصراخ، ولكن عندما أستيقظ من نومي أدرك أنه صراخي أنا».

الحمد لله أن فير لم يكتب مسرحية عن تجاربه ويعرضها على القناة ٤ التي أقدمت بكل برودة أعصاب على عرض «ذا مارك أوف كيين»، وهي عبارة عن مأساة إساءة تصرف الجيش البريطاني في البصرة. وسرعان ما ظهر للعلن أن بث مسرحية طوني مارشنت قد يؤثر في النتيجة السعيدة الراهنة لإنتاج السجن الإيراني ١٥ من رجال الأمن المشهورين بإثارة حفيظة العالم الإسلامي، بروايات تتناول كيف يقدم أولادنا في البصرة على ضرب المواطنين العراقيين. وبصفة كوني المراسل الصحافي الذي كان أول من كشف عن وفاة العامل في الفندق، بهاء موسى في ظل الوصاية البريطانية على منطقة البصرة، أفترض أن علينا دائمًا الإشارة إلى موته بعبارة «الوفاة»، نظرًا إلى أن الجنود الذين كانوا حاضرين أثناء عملية ضربه الوحشية اتهموا بالقتل. ويعلم العرب المسلمون جيّدًا كيف يُعامَل سجناؤهم أثناء التحقيق معهم. ومن المفترض ألا نؤمن نحن، البريطانيين الموجودين في بلادهم، بالتعذيب. إذ يعلم العراقيون كل شيءٍ في هذا الشأن كما أدركوا كل ما يتعلق بمصير موسى، وذلك قبل وقت كبير من نقلي الخبر إلى صحيفة «ذا إندبندنت أون صاندي».

نظرًا إلى أن الأمر يدور على منعنا من اكتشاف الحقيقة في منطقة الشرق الأوسط، ويقوم على الحؤول دون إقدام الشعبين البريطاني والأميركي على طرح الأسئلة في شأن الاحتلال غير الأخلاقي والوحشي وغير القانوني دوليًا لأراضي المسلمين. أما في بلاد الأحرار، فتتواصل هذه الرقابة المنظمة على الواقع

السائد في الشرق الأوسط، وحتى في مدارس تلك البلاد. أقدم مدير مدرسة ثانوية في كونيتيكت على منع التلامذة من ممارسة لعبة تقوم على استخدام أحرف وكلمات تتألف منها أسماء الجنود الأميركيين الموجودين في العراق. وتحت عنوان أصوات متضاربة (Voices in Conflict)، قام كل من نتالي كروف وسيث كوبروسكي وجايمس بريسون، إضافة إلى زملاء آخرين لهم في مدرسة ويلتون الثانوية، بتجميع أفكار الجنود والآخرين - بمن في ذلك تلميذ في التاسعة عشرة من عمره في مدرسة ويلتون الثانوية وقتل في العراق - من أجل ابتكار مسرحيتهم الخاصة. لا جدوى من ذلك. قد تؤذي هذه التمثيلية «هؤلاء الذي فقدوا أحباءهم، أو لديهم أفراد من عائلاتهم يؤدون واجبهم في الوقت الذي نتحدث فيه» على ما أعلن مدير مدرسة ويلتون، تيموثي كانتي. أما جملتي المفضلة، فهي أن كانتي يظن أنه لم يتسن لهم الوقت الكافي للتمرّن سعيًا إلى أن توفر هذه المسرحية «تجربة إيعازيّة وشرعية لتلامذتنا».

وبكل تأكيد، يمكنني أن أتفهم في وضوح وجهة نظر السيد كانتي. فالتلاميذ الذين أخرجوا ذا كروسيبل لأرثور ميلر، تلقوا تعليمات من السيد كانتي - حيث لم تُدوَّن تجاربه الحربية، في حال توافرها - أنهم غير مسؤولين عن إطلاع الجمهور على ما يفكر فيه الجنود. وانهمرت العروض على تلامذة ثانوية ويلتون من أجل أداء المسرحية في أماكن أخرى. شخصيًّا، أظن أن السيد كانتي محق في هذا الشأن. فمن الأفضل تشجيع تلامذته على أداء مسرحية تيتوس أندرونيكوس لشكسبير، التي تقوم على أعمال العنف والتعذيب والاغتصاب والتشويه وجرائم الشرف الممارسة على نطاق واسع. وقد يسهم ذلك في شرح وضع العراق في شكل مثالي للأشخاص الصالحين في كونيتيكت. إنها «التجربة إيعازية وشرعية». في حال هذا ما كانت عليه أصلًا.

«ذي إندبندنت»، ٧ نيسان/أبريل ٢٠٠٧

بُرِّئ العريان من جرم الازدراء منتصف كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٧، وظل مسجونًا ثلاثة أشهر إضافية أو أربعة. إلّا أن عائلته خشيت أن يُتّهم بجرم جزائي لعدم الشهادة أمام هيئة المحلفين الكبرى. وأملت في ترحيله إلى مصر حيث يعيش ثلاثة من أولاده من أصل خمسة، على رغم أن مصر تمارس التعذيب المنظم على أنواع «المشتبه فيهم الإرهابيين» جميعًا.

نتيجة متعادلة!

إني أسمّي هذه الظاهرة «أليس في بلاد العجائب». كل مرة أزور الولايات المتحدة الأميركية، أحدق من خلف نافذتي في المنطقة النائية، حيث أعيش وأعمل لمصلحة «ذي إندبندنت» - مراسلًا في منطقة الشرق الاوسط - وأشاهد منظرًا لا أقوى على تمييزه، إنها لمأساة بعيدة تحوّلت، هنا في أميركا، تمثيلية مضحكة وسخيفة وأكاذيب وقحة. هل أنا شخصية قط تششاير؟ أما أنا ماد هاتر؟

أمسكت الكتاب الجديد لجيمي كارتر تحت عنوان «فلسطين: سلام، وليس فصلًا عنصريًّا في مطار سان فرانسيسكو»، وقد تصفحته في يوم واحد. إنه عبارة عن كتاب جيّد يلقى صدى قويًّا لدى القراء من تأليف الرئيس الأميركي الوحيد الذي هو أقرب ما يكون إلى القداسة. ويعدّد كارتر المعاملة الفظيعة التي يلقاها الفلسطينيون، ولاسيما منها الاحتلال الإسرائيلي وتجريد اسرائيل الفلسطينيين أراضيهم إضافة إلى الوحشية الممارسة على الشعب المجرّد من حقوقه، وهو ما يطلق عليه «نظام الفصل العنصري مع وجود شعبين يتقاسمان الأرض، لكنهما منفصلان كليًّا أحدهما عن الآخر، إذ يسيطر الإسرائيليون، كليًّا، خصوصًا قمع العنف من خلال حرمان الفلسطينيين أبسط حقوقهم الإنسانية». ويستشهد كارتر بإسرائيلي عندما يقول إنه «خائف من أننا متجهون نحو تشكيل حكومة، كما حدث في جنوب أفريقيا، حيث ازوداجية المجتمع المؤلف من الحكام اليهود والعرب الخاضعين مع عدد ضئيل من حقوق المواطنة...». ويضيف كارتر أنّ التغيير المقترح، ولكن غير المقبول، «يكمن في اقتطاع أجزاء أساسية من الأراضي المحتلة مع إبقاء الفلسطينيين محاطين بالكامل بالجدران والأسوار والمعابر الإسرائيليّة، حيث يعيشون كأسرى ضمن الجزء الصغير من الأرض المتروكة لهم».

لا داعي للقول إن الصحافة والتلفزيون الأميركيين قد تجاهلا على نطاق واسع ظهور هذا الكتاب الحكيم على نحو بارز، إلى حين تهافت اللوبي الإسرائيلي الاعتيادي على الإساءة إلى جيمي كارتر الطاعن في السن والمسكين، على رغم أنّه مهندس معاهدة السلام الطويلة الأمد الموقعة بين إسرائيل وجارتها العربية، أي مصر التي تم تأكيدها من خلال اتفاق كامب دايفيد الشهير، الموقع في العام ١٩٧٨. ولم تتردّد صحيفة «نيويورك تايمز» في إطلاع قرائها (كل الأخبار التي يمكن نشرها بكل تأكيد)، على أنّه أثار «الاحتدام في صفوف اليهود» من خلال استخدامه عبارة «فصل عنصري». وقد ردّ الرئيس السابق على ذلك من خلال الإشارة في شكل معتدل (ومحق) إلى أن اللوبي الإسرائيلي شكّل بين هيئات التحرير الأميركية «رفضًا لانتقاد الحكومة الإسرائيلية». وبين الانتقادات النموذجية الموجّهة إلى كارتر، ذلك المقدّم من مايكل كينسلي الوارد في صحيفة «نيويورك تايمز» (بالطبع) ومفاده أن كارتر «يقارن إسرائيل بالحكومة السابقة العنصرية البيضاء في جنوب أفريقيا». وقد استتبع ذلك تصريح حقود من أبراهام فوكسمان، رئيس رابطة مكافحة التشهير، الذي أعلن أن السبب وراء كتابة كارتر هذا الكتاب «هو الكذبة الوقحة والمخزية القائلة إن اليهود يسيطرون على المناظرات في هذه البلاد، وبخاصة عندما يتعلق الأمر بوسائل الإعلام، ما يضفي لمحة جدية على الأمر، وهو أنه ليس سوى ناقد آخر، وهو ليس مجرّد محلّل وحسب. إنه رئيس سابق للولايات المتحدة». ولكن أجل، تلك هي الفكرة، أليس كذلك؟ إنها ليست برسالة يلقيها أستاذ محاضر في جامعة هارفرد عن قوة اللوبي. إنه اعتبار مشرّف وصادق من صديق لإسرائيل، وللعرب صودف أنه رئيس أميركي سابق وبارع. ولهذا السبب، تحوّل كتاب كارتر مسلسلً، والمناسبة، أقدم التحية هنا إلى الرأي الأميركي الذي تهافت على شراء الكتاب بدلًا من الإصغاء إلى السيد فوكسمان.

ولكن في هذا السياق، أتساءل لمَ لم تُشِرْ صحيفة «نيويورك تايمز»

والصحف الأخرى ذات الخط الجبان الصادرة في الولايات المتحدة الاميركية، إلى العلاقة الحميمة التي تربط إسرائيل بالنظام القائم على التمييز العنصري في شكل كبير في جنوب أفريقيا الذي لا يُفترض بكارتر ذكره في كتابه؟ ألم تتعامل إسرائيل بتجارة الألماس المربحة مع حكومة جنوب أفريقيا العنصرية والخاضعة للعقوبات؟ ألم تُقِم إسرائيل علاقة عسكرية عميقة ومثمرة مع ذلك النظام العنصري؟ هل أنا في حلم - كأنني أنظر من وراء الزجاج - عندما أتذكر في نيسان/أبريل من العام ١٩٧٦ الزيارة الرسمية التي قام بها رئيس وزارء جنوب أفريقيا جون فورستر - وهو أحد مهندسي هذا النظام الكريه القائم على الفصل العنصري والمشابه للنظام النازي - لإسرائيل، حيث حظي باستقبال رسمي من كل من رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن، وبطل الحرب موشيه دايان، والحائز في وقت لاحق جائزة نوبل إسحق رابين؟ وبكل تأكيد، لم يشكل هذا الامر جزءًا من المناظرة الأميركية المهمة حيال كتاب كارتر.

وفي مطار ديترويت، اخترت كتابًا في حجم أخف، هو تقرير مجموعة دراسة العراق التي أجراها كل من بايكر وهاميلتون، وهي دراسة لا تدور على العراق بكل ما للكلمة من معنى، لكنها تقدّم بعض السبل الموحشة حيث يمكن جورج بوش الفرار من الكارثة اللاحقة به من دون سفك دماء كثيرة. وبعد التحدث إلى العراقيين في المنطقة الخضراء في بغداد - لعل عبارة منطقة الحلم تكون أكثر دقة في هذا الشأن - تبرز بضعة اقتراحات تستحق العناء (وهو أمر مرفوض في شكل متوقع من إسرائيل): استئناف محادثات السلام الجدية بين الإسرائيليين والفلسطينيين والانسحاب الإسرائيلي من هضبة الجولان... إلخ. لكن ذلك مكتوب بالدلالات المستهلكة نفسها للدبابات، ذات التفكير أليميني - في الواقع، اللغة المستخدمة في مؤسسة بروكينغز السيئة السمعة وأحد زملائي السابقين، وهو الكاتب المسيحي في صحيفة نيويورك تايمز، توماس فريدمان - التفكير المملوء بالحواشي «الهشّة» والتحذيرات، بأن «الوقت ينفد». وقد اكتشفت أن الأدلة لكل هذا الهراء تبرز في آخر التقرير، حيث يعدّد «الخبراء»

الذين استشارهم السادة بايكر وهاميلتون والباقون، ويُعدّ معظمهم أركانًا أساسيين في مؤسسة بروكينغز، وكذلك توماس فريدمان من صحيفة «نيويورك تايمز».

ولكن بالنسبة إلى الحماقة المحض، من المستحيل التغلب على المناظرة ما بعد بايكر وهي تدور بين «الفلاسفة» الذين جرّوا الولايات المتحدة الاميركية إلى كارثة العراق. وقد قال الجنرال بيتر بايس، وهو الرئيس الغريب حدًّا، لهيئة الأركان المشتركة الأميركية في شأن الحرب الأميركية في العراق «إننا لا نربح، لكننا لا نخسر». كذلك أعلن وزير الدفاع الجديد لبوش، روبرت غايتس، أنه يتفق مع الجنرال بايس في قوله «إننا لا نربح، لكننا لا نخسر». وقد دفع بايكر بنفسه إلى الهراء عينه من خلال التأكيد: «لا أظن أنها يمكنكم القول إننا نخسر. وعلى المنوال نفسه، لست متأكدًا من أننا نربح». وعند هذا الحدّ، صرّح بوش هذا الأسبوع، نعم، «إننا لا نربح ولا نخسر». وفي خضم هذه التصريحات، من المؤسف ما يحدث للعراقيين.

وقد فكرت مليًّا في هذا الجنون أثناء نوبة من الاضطرابات الحادة على ارتفاع ٠٠٠ ٣٧ قدمٍ فوق كولورادو، حين لمعت الفكرة في رأسي. إن النتيجة النهائية في هذه الجولة الفريدة من نوعها في حرب العراق بين الولايات المتحدة الاميركية وقوى الشر. إنها نتيجة متعادلة!

«ذي إندبندنت»، ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦

الخوف والاشمئزاز يسيطران على الحرم الأميركي

مساء ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١، استشاط آل ديرشوفيتز غضبًا من اساتذة القانون في هارفرد. وقد صاح على الإذاعة الإيرلندية قائلًا إنّ روبرت فيسك «رجل خطير». لقد كنت «مناصرًا للإرهاب»، و«مناهضًا للأميركيين»، وهذا ما أعلنه ديرشوفيتز أمام سكان مقاطعة مايو «ذلك يبدو تمامًا معاداة للسامية». وبالطبع، تجّرأت على طرح سؤال «لماذا». لمَ قاد تسعة عشر شابًا عربيًّا الطائرات في اتجاه برج التجارة العالمي والبنتاغون وبنسيلفانيا؟ يبدو الأمر شديد الغرابة. جاء القتلة التسعة عشر من مكان اسمه الشرق الأوسط. فهل من مشكلة في تلك المنطقة؟

إني أتذكر هذا الهراء لأن آل كان يمضي وقته في العمل وهو يهاجم مناوئه اللدود والقديم نورم فينكلشتاين، الذي تقدّم بطلب للعمل في جامعة دي بول في الولايات المتحدة الأميركية، حيث يعمل بصفته أستاذًا مساعدًا في السياسة. وقد تولى القسم حيث مركز عمل نورم، دعمه، إلا أن آل انهال على أعضاء الكليّة من خلال توجيه ضربة محكمة إلى نورم وكل أعماله. دعوني أشرح لكم ما هي تلك الأعمال. تولى فينكلشتاين، وهو يهودي وابن أحد الناجين من المحارق، نشر عدد من الأعمال التي توجه انتقادًا لاذعًا إلى الاحتلال الإسرائيلي لفلسطينيي الضفة الغربية، إضافة إلى استخدام مناصري إسرائيل حجة المحارق التي استهدفت ٦ ملايين يهودي من أجل قمع الانتقادات الموجهة إلى سياسة إسرائيل. وقد أثار كتاب «صناعة المحرقة» من تأليف فينكلشتاين، غضب ديرشوفيتز المتواصل.

أما اليوم، فإني أعرف نورم منذ ست سنوات، وهو مجادل قاس لا يردعه محظور، ويثور غضبًا على جميع المناصرين التقليديين لإسرائيل، وبخاصة هؤلاء

الذين يغضون الطرف عن التعذيب. شخصيًّا، إني أجد الحججَ التي يقدّمها نورم مجهدة بعض الشيء. وخلال النقاشات الإذاعيّة، يكتسب صوته لهجة متذمرة في شكل خفيف، وهذا ما يثير غضب خصومه. ولكن، من الواضح أن آل يحاول القضاء على مسيرة نورم المهنية من خلال إضافة «الملف» الذي أرسله إلى أكاديميّي جامعة دي بول - جميعنا يتذكر أن كلمة «ملف» تُستخدم أيضًا في بريطانيا وعليّ أن أضيف، أن لا علاقة لآل على الإطلاق بجامعة دي بول - ويتضمن تفاصيل تتعلق بـ «الأكاذيب الصريحة لنورمان فينكلشتاين واقتباساته الخاطئة وتشويهاته». ويقول آل إن من العار على جامعة دي بول أن توظف نورم لديها. «إذ لم تعدّ منحته الدراسية أكثر من هجمات إعلانيّة موجهة إلى أعدائه الأيديولوجيين». وكأن ذلك لا يكفي، فقد انقضّ آل، وهو يهودي أيضًا، على الفيلسوف والأكاديمي اللغوي نعوم تشومسكي، الذي قدّم دعمه إلى نورم ويشير إليه آل أنه «الكاهن الاعلى للجناح اليساري الراديكالي والمناهض لإسرائيل».

إني أسمع القراء يصرخون كفى. أوافقهم الرأي. لكن قسم السياسة التابع حيث يعمل نورم، منحه أعلى العلامات على منحته المدرسية، وهو يقول إنه «يقدم حجة مفصّلة تفترض أن ديرشوفيتز الراهن سرق أجزاء كبيرة من أعمال الآخرين أو استخدمها بطريقة غير ملائمة في كتابه الراهن بالنسبة إلى إسرائيل». ويمتلك نورم «سجلًا رئيسًا وجدّيًا من الإنتاجات والأعمال العلمية». وألقى محاضرات في كل من جامعات شيكاغو وهارفرد وجورج تاون، إضافة إلى الجامعات الشمالية الغربية. كل شيء يسير على ما يرام حتى الآن. أما اليوم، فقد ظهر فجأة «تشاك» سوشار، وهو عميد معهد دي بول للفنون والعلوم الليبرالية، بتوصية مذهلة تقوم على عدم توظيف نورم. وأعلن تشاك أنه «على رغم كونه أستاذًا ماهرًا يتمتع بتقويمات حصص عالية في شكل ملائم، لكن هذا الكم من (عمله) المهم لا يتوافق وقيم القديس منصور دي بول، وبخاصة التزامنا المؤسساتي في ما يتعلق بكرامة الفرد، خصوصًا احترام حقوق الآخرين

في إبداء الرأي والتعبير عن مواقف فكريّة مختلفة وصريحة». ووفقًا لتشاك، فإنّ كتب نورم «تجاور اغتيال الشخصيات و... تتضمن استراتيجية تهدف في شكل واضح إلى القضاء على سمعة أشخاص كثر يخالفونه آراءه».

عليّ أن أقول الآن إنّ الباحثين الذين يقرأون هذا العمود، سيهتمون بمعرفة المزيد عن عمل تشاك الخاص. إني أُجمِع على أنه لا يملك أي أمر يتعلق بالشرق الأوسط على رغم أني واثق أن الدراسة التي أجراها عن التحسين والتغيير المدني: بحث في المجتمع المدني (١٩٩٢)، لقيت صدى لدى القراء الأميركيين الذين يصطفون أمام المكاتب بحثًا عن النسخ الأولى منها. كل ما أطلبه هو معرفة كيف أمكن عميد جامعة ما أن يُقحِم نفسه في هذا النوع من الهجمات الإعلانية الموجهة إلى أحد زملائه، فألصق تلك التهم بذلك الزميل نفسه. لقد أحببت أنا أيضاً ما قيل عن «قيم القديس منصور». فذلك كفيل بأن يولد ضحكة واحدة أو اثنتين. إن القديس منصور دي بول - أي القديس بول الحقيقي الذي عاش من العام ١٥٨٠ ولغاية ١٦٦٠، وليس دي بول من مخيلة تشاك الخصبة - كان عالم لاهوت عقلانيًا أسره القراصنة الأتراك المسلمون، فنقل إلى تونس بصفة كونه عبدًا. وهناك تولى مناقشة قيمه الدينية، حتى أنه تمكن من دفع مالكه إلى اعتناق المسيحيّة، واستحق بذلك حريته. أما مؤسساته الخيرية - وهو أسس دارًا للّقطاء في باريس - فأصبحت أسطورة تمكن تشاك سوشار من إهانتها بكل بساطة.

على رغم ذلك، ففي كل أنحاء الولايات المتحدة الاميركية، يواصل أصدقاء نورم الأكاديميون انتقادهم لسوشار الوضيع؛ بل حتى في بيروت حيث ألقى نورم محاضرات، أصرّ أكاديميّو الجامعة الأميركية على ضرورة منحه الوظيفة في القسم الخاص به. إنهم عرب يدعمون أستاذا يهوديًا وابن أحد الناجين من المحرقة. وبالطبع، إني أقرّ بأن ذلك قويّ بعض الشيء على العالم الحقيقي، ثم أني أملك رغبة سرية تقوم على الإمساك بكل من نورم وتشاك وآل وخبط رؤوسهم بعضها ببعض. لكن ما يحدث في جامعة دي بول هو أمر شديد

الخطورة في العالم الأكاديمي الحميد والمخيف، يحدث الآن في الولايات المتحدة الاميركية. تدق ساعة الحقيقة بالنسبة إلى نورم في أيار/مايو. وكما يقال: راقبوا الأمر.

«الإندبندنت»، ١٤ نيسان/أبريل ٢٠٠٧

رُفض توظيف نورمان فينكلشتاين في حزيران/يونيو ٢٠٠٧، ووضع في خانة «الإجازة الإدارية» لغاية العام ٢٠٠٨. لكن في ٥ أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧ أعلن استقالته بعدما توصل إلى تسوية مع جامعة دي بول وفقًا لشروط لم يكشف عنها. وقد وصفت الجامعة فينكلشتاين بأنه باحث غزير وأستاذ بارز» الأمر الذي يلتمس في شكل واضح السؤال المرتبط برحيله. ودان ديرشوفيتز التصريح الذي أدلت به الجامعة على أنه «تسوية». ما الذي كان ليظنه القديس منصور حيال هذا الأمر الذي لا يحتمل التفكير في هذا الشأن.

كيف جعلني مسلمو أميركا الوسطى أشعر أمانًا أكثر

كل مرة أزور الولايات المتحدة الاميركية، أتساءل ما الذي يخبئه لي فتيان الأمن الداخلي. لكن خلال الأسبوع المنصرم، شكلت شيكاغو قطعة حلوى. كنت وصلت لتوي من لبنان، كما أخبرت الشاب الجالس في المكتب، وكنت أستعد لألقي محاضرة عن الإسلام. وقد رثى لحالي قائلًا «لا بد من أنك أمضيت وقتًا عصيبًا في لبنان»، وهو يضع الختم على جواز سفري في أقل من ثلاثين ثانية، ويعيده إليّ مع تحيّة كاتب السيناريو: «تفضل يا صديقي». وهكذا، فقد تجاوزت الحاجز، وركبت في سيارة البالومينو خاصتي البيضاء اللون المركونة في الموقف، وتوجّهت نحو الهلال الإسلامي الذي يعلو فوق شيكاغو. هيا يا فيسك!

نسيت كم يبلغ عدد المسلمين الأميركيين من أصل جنوب غرب آسيوي بدلًا من شرق أوسطي، أي ينتمون إلى عائلات باكستانية وهندية، عوضًا عن العائلات السورية أو المصرية أو اللبنانية أو السعودية. لكن الطائفة السنيّة الأكثر عددًا والبالغة ٣٢ ألف شخص التي تجمّعت من أجل الاجتماع السنوي للمجتمع الإسلامي في أميركا الشمالية، ليست عبارة عن بائعي نقانق وفرّاشين وسائقي سيارات أجرة في نيويورك. فهم يشكلون جزءًا من العمود الفقري لأميركا الوسطى، حيث يعملون محامين لشركات، ومطوري عقارات ومهندسي بناء ومالكي سلسلة من المتاجر. وهم ليسوا بالمسلمين المنصاعين والأذلّاء والخائفين تمامًا، إذ تعودنا وصفهم في بشكل متزايد غداة الجرائم الدولية المرتكبة ضد الإنسانية في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١. وقد توجهت إلى حوالى ١٢ ألف مسلم كانوا حاضرين في القاعة، وقلت إن منطقة الشرق الاوسط لم تكن يومًا خطيرة كما هي عليه اليوم. فقد انتقدت قائد «حزب الله» السيد حسن

نصر الله على قوله إنه لم يخطر في باله قط أن الإسرائيلين قد يردون في شكل وحشي على عملية أسر الجنديين الإسرائيليين ومقتل ثلاثة آخرين منهم في ١٢ تموز/يوليو ٢٠٠٦. وفي وقت لاحق، كشف لي إمامٌ صالح قائلًا: «خلت أنّ ما قلته عن السيد حسن نصر الله كان أشبه بإهانة». ولكن بدا واضحًا أن الجمهور لم يفسر الأمر بهذه الطريقة.

وعندما أخبرتهم أنهم بصفة كونهم مسلمين أميركيين، يحق لهم أن يطلبوا حق الردّ عندما تطالب مجموعات اللوبي في شكل ماكر بأن شبكة انتحاريين كانت تخطط ضمن مجتمعهم الذي يتقيّد كليًّا بالقانون، أخذوا يزمجرون. لكنني حذرتهم من أنني سأصغي في بعناية إلى ردودهم في الجملة التالية. وعندئذٍ، قلت إنهم لا بد من أن يتمتعوا بالحرية الكاملة لانتقاد - ويجب عليهم انتقاد - الأنظمة المسلمة التي استخدمت التعذيب والظلم، حتى لو كان هؤلاء الطغاة قد عاشوا في الأراضي التي جاءت منها عائلاتهم. وقد وقف هؤلاء الآلاف من المسلمين وأخذوا يصفقون ويصرخون تأييدًا منهم مع إبرازهم العاطفة والحماسة أكثر من غير المسلمين والمستفزين الصارخين في شأن «الإرهاب العربي». لم يكن ذلك ما كنت توقعته.

وبعد بضع ساعات، عندما كنت أوقّع نسخًا من الطبعة الأميركية لكتابي عن منطقة الشرق الأوسط - وهو بكل تأكيد السبب الحقيقي وراء مجيئي إلى شيكاغو - تقدم نحوي بعض من هؤلاء الناس ليشرحوا لي أنهم ليسوا مسلمين أميركيين، بل هم أميركيون مسلمون، وأن الإسلام ليس عبارة عن دين غير متوافق والحياة والحرية والسعي وراء السعادة. حتى أن بعضهم يملك قصصًا لمآس كبيرة. فقد كتب لي شاب واحد جملة قصيرة كي أدوّنها على الصفحة الأولى من نسخته الخاصة لكتابي. إذ كتب على قطعة قماش زهرية اللون. الجملة التالية «إلى روح أهلي وأنسبائي الذين قضوا على يدي زعيم الخمير الحمر بول بوت في كمبوديا. يوسس آدم». رفعت رأسي نحوه، ووجدت الرجل الشاب يبكي. ثم قال لي «أترى، إنني ضد الحرب»، ليضيع بعد ذلك بين

الحشود. كذلك حضر أشخاصٌ أكثر حظوة: منهم على سبيل المثال، المذيع الباكستاني الذي أراد التحدث معي عن مبادئ بلاده المحبة للسلام، حتى بدأت بوصف العلاقة السرية المتواصلة بين أجهزة المخابرات الباكستانية وحركة طالبان، وحينذاك أنهيت المقابلة سريعًا.

وكان بين الحشود رجل شاب ذو ملامح آسيويّة، عرّف عن نفسه في شكل لطيف بأنه «السيد يي، إمام معتقل غوانتنامو»، وتبيّن أنه السيد يي نفسه الذي اتهمته في شكل غير شرعي ومخادع السلطات الأميركية بأنه يتولى تمرير الرسائل إلى تنظيم القاعدة خلال خدمة السجناء الذين يُزعم أنهم ينتمون إلى القاعدة. في أحد أفخم المعتقلات الأميركية. ولكن من الملاحظ عدم وجود أي مرارة بين هؤلاء الناس. وهم يعانون فقط ألمًا متزايدًا للطريقة التي يتناول فيها كل من الصحافة والتلفزيون الأميركيين وصفهم - وجميع المسلمين في العالم - بعدِّهم طائفة غريبة وقاسية وساديّة. وقد كتبت إحدى النساء مقالة في شهر حزيران/ يونيو من هذا العام في صحيفة «تورنتو ستار»، تناولت فيها قرية سديروت الاسرائيلية التي تُعدُّ هدفًا لمئات الصواريخ الفلسطينيّة، ومصدرها غزة. ويقول العنوان «تحت النيران في أرض الصفر الإسرائيليّة». وسألتني تلك المرأة «هل تؤمن بهذا النوع من الصحافة، سيّد فيسك؟». وكنت على وشك ان أعرض لها «جانبَي الصورة» الخاصة بالمحاضرة، عندما لاحظت أن المقالة تتحدث عن مقتل خمسة إسرائيليين فقط في سديروت خلال خمس سنوات. أجل، إن كل حياة متساوية. ولكن مَن الذي قرر في ستار أن قرية إسرائيلية مع حال وفاة واحدة كل عام، تعادل الأرض الصفر في مانهاتن مع ٣,٠٠٠ حال وفاة كل ساعتين؟ يبدو أن الصحافة الكنديّة تساوي بين الأموات، لكن بعضهم أكثر مساواة من سواهم.

ولم أقوَ على منع نفسي من ملاحظة الدرجة التي يقوم فيها طوماس فريدمان من صحيفة «نيويورك تايمز»، بوقد النار. فهو الشخص نفسه الذي كتب قبل بضع سنوات أن الفلسطينيين يؤمنون بـ «التضحية بالطفل»، لأنهم يسمحون

لأولادهم برمي الحجارة على الجنود الإسرائيليين، فيضطر هؤلاء إلى إطلاق النار عليهم! أما الأمر الأكثر فظاعة بالنسبة إلى المسلمين الذين تحدثت إليهم، فهو إقدام فريدمان الآن على «حيونة» العراقيين - وفقًا لما شرحته فتاة بشكل جميل - وقد قدّمت إلي قصاصة ورقية لفريدمان تنتهي بهذه العبارات: «إنها لمأساة عالمية في حال نجح (العدو العراقي المتمرّد)... ولكن لن تقوى الحكومة الأميركية على الطلب من مواطنيها الأميركيين التضحية بأولادهم في سبيل شعب يكره بعضه بعضًا أكثر مما يحب أولاده».

ها نحن مجددًا، هذا ما فكرت فيه. يضحّي المسلمون بأولادهم. يبغض المسلمون بعضهم بعضًا أكثر مما يحبون أولادهم. لذا أفترض أن لا عجب في أن أولادهم يتلقون الرصاصات التي تخترق قلوبهم في غزة، ويتلقون الرصاصات الأميركية في العراق، إضافة إلى القنابل الإسرائيلية التي تقضي عليهم في لبنان. إنه خطأ العرب. وعلى رغم ذلك، فهنا في شيكاغو يعيش المسلمون الذين يصرفون عنهم كل أنواع النميمة والمغالطات والأكاذيب، ويقولون إنهم يشعرون الفخر لأنّهم أميركيون. وأعتقد - بالنسبة إلى رجل يستيقظ كل صباح في شقته في بيروت وهو يتساءل أين سيقع الانفجار التالي - أنني أحسست بأمان أكثر في هذا العالم.

«ذي إندبندنت»، ٩ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٦

هل يتمكن الشبان والشابات العاملون في وسائل الإعلام، من اللحاق بشعبهم؟

تُعدُّ مشاهدة كلب اللبرادور الخائف والمثير للشفقة، والمستلقي على ظهره، ليتحوّل في المساء إلى روتوييلر شرس في وسائل الإعلام الأميركية. واحدة من ملذات المجتمع الدائمة في الولايات المتحدة الأميركية. لقد اختبرت هذه الظاهرة خلال الأسبوعين المنصرمين، بصفة كوني ضحيّة ومستفيدًا على حد سواء. ففي نيويورك ولوس أنجلس، تم التعامل أصلًا مع انتقادي رئاسة جورج دبليو بوش وبناء المستوطنات الإسرائيلية المتواصل في الضفة الغربية، بالاستخفاف الذي تحتفظ به كل الأوراق بالنسبة إلى مَن يجرؤ على الاستفسار عن مشاريع الفخر والديموقراطية في البلاد. ففي صحيفة «نيويورك تايمز»، نجح إيثان بونير، ذلك الصحافي القدير واللامع، في توبيخي على مهاجمتي الصحافيين الأميركيين الذين - وسرعان ما اقتبس عباراتي الخاصة - «ينقلون بطريقة جبانة «موضة» من الشرق الأوسط حيث يخشون في شدة الانتقاد الإسرائيلي، فيحولون جرائم إسرائيل «هجمات مستهدفة»، والمستوطنات غير الشرعية «أحياء يهوديّة».

من الملاحظ أن بونير بعيد كل البعد عن قرّائه، إلى حدٍّ أنه لم يعلم أن كلمة «جبان» هي العبارة نفسها التي يستخدمها الاميركيون لوصف صحفهم الذليلة (وعلى الأرجح يتوافر سبب واحد وراء تراجع مستوى تداول الصحف في شكل خطير). ولكن، عندما تجرّأ نائب ديموقراطي محترم ومحارب سابق في فيتنام في واشنطن على الاقتراح أنهم خسروا الحرب في العراق، خصوصًا ضرورة إعادة الجنود الأميركيين إلى ديارهم، وعندما جاء الردّ الجمهوري قاسيًا

جدًّا، إلى حدّ التبرّؤ منه، تولت الكلاب القديمة شمّ الهواء، وأدركت أن **القوة** تنتقل بعيدًا عن البيت الأبيض، وبدأ «يسيل لعابها».

وفي نقل مباشر تلفزيوني في سان فرانسيسكو، كان في إمكاني متابعة انتقادي الحماقة الأميركيّة المتواصلة في العراق. وقد نضح العمدة السابق ويلي براون - الذي سمح لي بالتقاط صورة لي وأنا أضع قبعة سيستون خاصته باللون الأزرق الباهت - بدفء حيال بريت «المشاكس» (على رغم أنه زعم أنني أميركيّ الجنسية) وقد فضح سياسات بلاده في الشرق الأوسط. إن ذلك كفيل بأن يُشعركم الحد الأدنى من الأسف - على رغم أن ذلك يؤثر فيكم لثوان معدودة - بالنسبة إلى الرجل الموجود في البيت الأبيض. ولم ينشأ ذلك كله عن التحول المألوف من نيويورك إلى «لوس أنجلس إنترناشيونال» حيث استعيض عن الرعب من هجمات تنظيم القاعدة بالخوف من طبقات الأوزون. أما على الساحل الشرقي، فقد علت صيحات الافتتاحيات على إدارة بوش. وأحدث سيمور هيرش، وهو الصحافي الأميركي المبارك الذي اخترق رواية الرعب الممارس في سجن أبي غريب، مفاجأة في العراق في شأن اكتشافات مفادها أن القادة الأميركيين في العراق يعتقدون أن حركة التمرّد باتت خارج السيطرة الآن.

عندما سيطر مجدّدًا هؤلاء المسلحون العراقيون خلال هذا الأسبوع على مدينة الرمادي بأكملها (وقد «حرَّرها» الجنود الأميركيون أربع مرات سابقًا منذ العام ٢٠٠٣) وقد أبرزت الرواية فواتير متساوية في ساعات الذروة على التلفزيون، حيث يبدو بوش وهو لا يكلّ من التشديد في شكل واسع وغير محدود، على أن القوات العراقية - التي يخرقها المتمردون، وهم عبارة عن خنجر في خاصرة الاميركيين - ستتمكن قريبًا من تسلم المهام الأمنية من قوات الاحتلال. وحتى في هوليوود - حيث تثبت مواعيد الإنتاجات أن التعفن بدأ يلوح منذ أكثر من عام - يتم حتى الآن تعميق المسائل الخاصة بالمحرّمات، وصولًا إلى سطح الأوحال السياسيّة. إذ تدور أحداث فيلم «جارهيد»، وهو من

إنتاج يونيفرسال بيكتشيرز، على وحدة بحريّة مريرة ومصدومة خلال حرب الخليج عام ١٩٩١. أما فيلم غود نايت وغود لاك من إنتاج جورج كلوني، وهو فيلم آسر باللونين الأبيض والأسود يتناول المعركة البطولية للمراسل خلال الحرب العالمية الثانية إد موروو مع السيناتور مكارثي في عقد الخمسينات - يقوم موضوعه على إدارة الانشقاق وسحقه - فتطلبت تكاليف إنتاجه أضعاف المبالغ المدفوعة. يقوم ممثل ما بأداء دور موروو. أما مكارثي فلا يبرز إلا بصور حقيقية مأخوذة من الأرشيف. إنه لأمر لا يُصدَّق، فقد أظهر اختبار للجمهور، أُجريَ في نيويورك انتقادًا للرجل الذي «يقوم» بدور مكارثي، متهمين إياه بأنه «يبالغ في التمثيل». أنقول الامر نفسه عن السادة بوش وتشيني ورامسفيلد في السنوات المقبلة؟ إني أشك في ذلك.

إضافة إلى فيلم «سيريانا»، وهو عبارة عن ملحمة كلوني بالنسبة إلى تجارة النفط، حيث يمزج ما بين المفجرين الانتحاريين والعملاء المستقلين لوكالة المخابرات المركزية الأميركية (يمثل كلوني شخصيًّا دور واحد منهم)، ويتناحرون على أملاك العرب في الشرق الأوسط - إذ يريد واحد منهم نشر الديمقراطية الحقيقة وتحقيق الثروة لشعبه، إضافة إلى السيطرة على كل موارد بلاده - بالتزامن مع ذبح رجال الأعمال السيّئي السمعة ومحامي الساحل الشرقي. وتتولى «السي.آي.أيه.». في نهاية المطاف، اغتيال أمير عربي يريد امتلاك نفط بلاده (إنه لأمر كبير بالنسبة إلى الديموقراطية) - وتتم العملية بقنبلة جويّة من دون طيّار يتحكم بها رجال موجودون داخل غرفة في فيرجينيا - في وقت يقدم مواطن باكستاني تعرض للطرد من عمله في حقول النفط نظرًا إلى إقدام تكتل أميركي على تقليص أرباح مساهميها، على تدمير إحدى ناقلات الشركة بهجوم انتحاري.

وصرّح كلوني لصحافي يعمل في «إنترتاينمنت ماغازين» «يبدو الناس أقل خوفًا اليوم. فقد بدأ عدد كبير منهم بطرح الأسئلة. أصبح من الصعب تجنّب الأسئلة». وبالتأكيد، تطرح تلك الأسئلة بسبب مقتل أكثر من ألفي أميركي في

العراق، عوضًا عن الشعور بالشفقة على عشرات الآلاف من القتلى فيه. يتم التفكير مليًا في الأمر لأن الاحتلال الكامل غير الشرعي للعراق ينتهي بمصيبة بدلًا من تحقيق النصر.

لكنهم لا يزالون يتجنبون طرح السؤال الخاص بإسرائيل. إذ لا يتفوّه الأمراء العرب في فيلم «سيريانا» بكلمة واحدة عن إسرائيل، وهم الذين يتميزون في الواقع بهوسهم بالاحتلال في الضفة الغربيّة. ولا يشير العملاء العرب في تنظيم القاعدة الذين أقنعوا الشاب الباكستاني بمهاجمة ناقلة النفط، إلى إسرائيل، وهذا ما كان ليفعله بالتأكيد كل مساعد لِبن لادن. ومن المفيد معرفة أن فيلم «فاهرنهايت ٩/ ١١» لمايكل مور لم يشر إلى إسرائيل، ولو مرة واحدة.

لم يبق أمامنا سوى مسألة رئيسة واحدة في الشرق الأوسط علينا مواجهتها. تولت آيمي غودمان، وقد تعودت إثارة غضبها من خلال الادعاء أنّ برنامجها «الديموقراطية الآن!» الذي يُبث من محطة سابقة في بروكلين لإطفاء الحرائق، لا يملك سوى ثلاثة مستمعين (بينهم آيمي غودمان)، أن تثير في شكل شجاع هذا الموضوع غير المذكور. وفي في شكل جزئي كنتيجة لذلك، فإن محطتها الإذاعية والتلفزيونية «البديلة»، وكم أكره هذه العبارة المخنثة «البديلة»، تنتقل شيئًا فشيئًا في اتجاه التيار. أصبح الأميركيون مستعدين لمناقشة علاقتهم مع إسرائيل، إضافة إلى الظلم الأميركي الممارس على العرب. وتمامًا على جاري العادة، يُواجَه المواطنون الأميركيون العاديون بالمراسلين الإذاعيين والتلفزيونيّين المألوفين على نطاق واسع. أما الآن فعلينا الانتظار ورؤية هل يلحق الإعلاميون والإعلاميات بشعبهم.

«ذي إندبندنت»، ٣ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٥

البرازيل وأميركا وركائز الحكمة السبع

تحدث الأمور الغريبة عندما يشرد المراسل عن الإيقاع، إذ يتبيّن أن مناطق واسعة من العالم تمتلك أولويات مختلفة. ثم أن نظرية التآمر الأخيرة التي حيكت عن مقتل رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري - من المحتمل أن يكون المجرمون مرتبطين بقضية إفلاس بنك في بيروت [بنك المدينة] - لا تندرج على لائحة «دومينيون بوست» في نيوزيلندا. وخلال الأسبوع المنصرم، لدى وصولي إلى مدينة ساو باولو الواسعة التي تملأها الفوضى وغير الخاضعة للتنظيم، انتشرت فضيحة الفساد السياسي - التي مسَّت نائبًا برازيليًا في شأن إفلاس شركة «فاريغ» لخطوط الطيران السيئة التابعة للبلاد - ودعوني أحذركم من أن هذه القضية أسوأ ممّا كانت عليه حال خطوط طيران أوروبا الشرقية في ظل حكم الاتحاد السوفياتي - إضافة إلى تنازلات النفط المؤمّمة حديثًا من البرازيل في بوليفيا، وتصدّرت الصفحات الأولى.

بالطبع، لدينا الرسالة الطويلة التي وجّهها الرئيس الإيراني أحمدي نجاد إلى الرئيس بوش - «كثيرة الاستطراد» كما وصفتها صحيفة «إنترناشيونال هيرالد تريبيون» المحلية، وهو وصف لن يقوى كاتبو العناوين الرئيسّة على تطبيقه بالنسبة إلى السيد بوش شخصيًّا - إضافة إلى تقارير كاملة تتناول الشرق الأوسط في الصحيفة اليومية، «فولها دي ساو باولو»، في شأن العقوبات المريعة التي فرضها الاتحاد الأوروبي على حكومة «فلسطين» المنتخبة في شكل ديموقراطيّ - التي كُتبت، ويا للأسف، عبر وكالات الأنباء -.

ثم ننتقل إلى البرازيل ومساحتها الجغرافية الواسعة، وقصتها المذهلة مع الاستعمار والديموقراطيّة، خصوصًا مزيج الأعراق البشريّة في شوارع ساو باولو، التي تبرز الأصول الإثنية للمحتلين الوافدين من أي قطار في تورنتو،

ومزيج من اللهجة البرتغالية، إذ تبدو فجأة منطقة الشرق الأوسط بعيدة كل البعد. البرازيل؟ طبعًا، غابة الأمازون والغابات المدارية والقهوة وشواطئ ريو. ومن ثم ننتقل إلى برازيليا، وهي عاصمة البلاد المزعومة، تمامًا كما هو عليه الأمر بالنسبة إلى كانبيرا الزائفة في أستراليا، وإسلام أباد المزوّرة في باكستان، كي يتمكن سياسيو البلاد من التواري بعيدًا من شعبهم. وقد تبيّن وجود جامع مشترك بين تلك الدول والعالم العربي، هو الوجود والتأثير والضغط الدائم الذي تمارسه الولايات المتحدة، ويتلخص ذلك عندما كان الحاكمون البرازيليون من حزب اليمين يبحثون عن الشيوعيين في عقدي الأربعينات والخمسينات. لم يكن صعبًا العثور عليهم.

وفي العام ١٩٤١، أصبحت أميركا المحاربة حديثًا، التي غرقت في حرب عالمية، قلقة جدًّا القفزة الجبارة التي قامت بها البرازيل عبر تجاوزها بعيدًا المحيط الأطلسي لإنشاء قواعد عسكرية لها شمال البلاد. في الواقع، لم تكن واشنطن مضطرة إلى القلق حيال ذلك. فإغراق الغواصات الألمانية خمس سفن تجارية برازيليّة أثار الرأي العام على نطاق واسع، ما أجبر حكومة غيتوليو فارغاس من حزب اليمين وغير الديموقراطيّة على إعلان الحرب على النازيين. فليرفع أيديهم القراء الذين يعلمون أن أكثر من ٢٠ ألف جندي برازيلي حاربوا إلى جانبنا خلال الحملة الإيطالية، حتى نهاية الحرب العالمية الثانية. إني أشك في أن عددًا أقل من الأيدي سيرفع لو سألتكم كيف قُتلت القوات البرازيلية. وفقًا لتاريخ البرازيل الباهر من كتابة بوريس فاوستو، قتل ٤٥٤ جنديًّا خلال القتال ضد الجيش الألماني. وأسهمت عودة القوة الضاربة البرازيلية في إحلال الديموقراطية في البرازيل. وبعد مرور تسع سنوات، أطلق فارغاس النار على نفسه ليترك وراءه رسالة انتحار دراماتيكيّة، إذ كشف أن «القوات الأجنبية» مسؤولة عن الأزمة الاقتصادية الأخيرة التي تتخبط فيها البلاد. وهاجمت الحشود السفارة الأميركية في ريو.

حسنًا، يبدو الأمر مختلفًا كليًّا اليوم في وقت يحاول الرئيس البرازيلي

اليساري، لويس إيناسيو لولا دا سيلفا، الذي وجد نفسه مهددًا أيضًا من «القوات الأجنبية» بعد انتخابه الشعبيّ، إيجاد تفسير منطقي لتأميم تكتلات النفط البرازيلي في بوليفيا، وهو عمل قام به صديق دي لولا الحميم واليساري في لاباز، إيفو مورالس. عليّ القول إنّ الانفجار الحاصل داخل الحكومة اليساريّة الأنيقة في أميركا اللاتينيّة، يملك جامعًا مشتركًا مع جامعة الدول العربية، حيث تظل الوعود العربية بالوحدة مقوّضة بالحجج البغيضة. لا عجب في أن أحد الصحافيين في جريدة «فولها» عنون قصته هذا الأسبوع «العربية».

ولكن، هل أتخلى عن المكان؟ أو هل تمسك منطقة الشرق الاوسط بقبضتها على ضحاياها، وهي وسيلة لنخع رؤوسهم عند مجرّد التفكير في أنها أكثر أمانًا أن تنغمس في مدينة وفي عالم، بعيدًا من العرب؟ وبعد مرور يومين على وجودي في البرازيل، وصل إلي بريد المكتب خاصتي من المكتب الخارجي في لندن، وقد تكوّرت على سريري لأقرأ رسائلي. أولًا أخرجت من الحقيبة، سيرة بيتر ميتكالف من ستيفناج مرفقة بصفحة مصوّرة لركائز الحكمة الخمس من لورنس العرب. وكتب لورنس عن العراق في حقبة العشرينيات وعن النفط والاستعمار. ويقول في هذا الشأن «إننا ندفع ثمن تلك الأمور من شرفنا وأرواحنا البريئة».

توجّهت على طول نهر دجلة برفقة مئة عسكري من ديفون تريتوريلز... والأتباع الفرحين الذين تغمرهم قوة السعادة، وخصوصًا قدرتهم على جعل النساء والأولاد يفتخرون بهم. وقد لاحظ أحدهم، في شكل واضح، أهمية أن يكون قريبهم إنكليزيًا. كنا نرميهم بالآلاف في النار ليموتوا أسوأ ميتة، ليس لكسب الحرب، بل كي نسيطر على الذرة والرزّ والنفط في بلاد ما بين النهرين.

أما في اليوم التالي، فنشرت صحيفة برازيلية صورة جندي أميركي ممدّدًا على ظهره في شارع في بغداد، وهو ينزف حتى الموت نتيجة انفجار قنبلة

موضوعة إلى جانب الطريق. في الواقع، لقد رُميَ داخل نيران أبشع أنواع الموت.

ثم أخرجت من علبة البريد خاصتي مرفقًا من أنطوني لونشتاين، وهو صديقي الصحافي القديم في سيدني، عبارة عن مقالة من صحيفة «ذا أستراليان»، وهي ليست صحيفتي المفضلة بما أنها لا تزال تقرع الطبول لمصلحة جورج دبليو في العراق. وإنما اقرأوا ذلك:

قبل ثلاث سنوات، كانت قوات النخبة الأسترالية تقاتل في الصحراء الغربية في العراق للحد من قوة مواقع إطلاق صواريخ سكود. أما الآن، بعد مرور ثلاث سنوات، فإننا ندرك في الوقت نفسه أن أعضاء من القوات الأسترالية الخاصة يخاطرون بأرواحهم حيث يقاتلون ضد قوات صدام حسين في وقت الذي كانت حمولة القمح في السفن الأسترالية تتحرك نحو موانئ في «الخليج الفارسي»، حيث يتم تفريغ تلك الحمولة ونقلها إلى العراق عبر شركة شحن أردنيّة تسدّد العمولة لصدام حسين.

وأتذكر أن بين الأسباب التي قدّمها رئيس الوزراء الأسترالي جون هاورد لإعلان الحرب على العراق، مع العلم أنه لم يعلن يومًا للأستراليين أننا لم نجد أي أسلحة دمار شامل، أن نظام صدّام حسين عبارة عن نظام «فاسد». فمن الذي كان يمارس الفساد؟

إني أستعدّ لأتأكد من **«فندق مقصود بلازا»** في ساو باولو. مقصود؟ تعني هذه العبارة باللغة العربية **«المكان الذي تتوجهون إليه مجددًا»**. بالطبع، فقد تبيّن أن صاحب الفندق برازيليّ من أصل لبناني. وتأكدت من مواعيد سفري. وكانت تذكرة السفر تشير إلى **«ساو باولو - فرانكفورت - بيروت»**. العودة مجددًا إلى الإيقاع الذي لا مفر منه.

«ذي إندبندنت»، ١٣ أيار/مايو ٢٠٠٦

من القاهرة إلى فالدوستا

ثمة فرق ملحوظ بين جامعة القاهرة وحرم جامعة فالدوستا في منطقة الجنوب في الولايات المتحدة. وقد زرت كلتا الجامعتين في هذا الأسبوع، وشعرت أنني كنت أسافر في سفينة فضائية مغمّة، أو حتى آلة زمنيّة على الأرجح، مع مجرّد مجموعتين نجميتين بعيدتين لإرشادي خلال رحلتي. الأولى تُسَمَّى في وضوح العراق، أما الثانية فهي الخوف. وبين الاثنتين عدد من الجوامع المشتركة.

يخضع قسم السياسة في جامعة القاهرة الواسع، لإدارة الدكتورة منى البرادعي. نعم إنها شقيقة رئيس الوكالة الدولية للطاقة الذريّة، أما تلامذتها وهم في معظمهم من الشابات، ومحجبّات في أغلبيتهنّ، ووجهوا بحسب الأصول أسئلتهم الخطيّة عند نهاية المحاضرة الطنانة التي ألقاها فيسك عن إخفاقات الصحافة في الشرق الأوسط. وبين الأسئلة الموجّهة «لماذا قمتم بغزو العراق؟». وعلى رغم أنني لم تعجبني صيغة المخاطب في «قمتم»، لكن الإجابة كانت «النفط». «ما رأيكم في الحكومة المصرية؟ وعند ذلك الحين، نظرت إلى ساعتي. وأخبرت التلامذة أنني أقدّر أنني ما زال أمامي متسع من الوقت للتوجه إلى مطار القاهرة قبل أن يدرك العاملون في أجهزة المخابرات التابعة لحسني مبارك إجابتي.

سمعت صوت ضحك عصبيّ. وأجبت قائلًا: في الواقع إن التعديلات الدستورية من أجل تكريس تشريع قانون الطوارئ المصري ضمن القانون العام وتوقيف داعمي جماعة الإخوان المسلمين، لا تشكل طريقًا نحو الديموقراطيّة. وقد ذكرت في سياق إجابتي، القائمة التي أعدّتها وزارة الخارجية الأميركية عن الموقوفين المصريين المعتقلين تعسفًا، إضافة إلى التعذيب الروتيني والمحاكمات

غير العادلة. لم أر ما الذي يمكن الشرطيين المحليين القيام به حيال **الإدانة** الموجهة من أصدقاء مبارك الأميركيين. لكن تلك اللحظة كانت رمزيّة في امتياز. إذ أراد هؤلاء التلاميذ المرحون والأذكياء معرفة هل يسمعون الحقيقة، أم يُخدعون بمنحهم البروميد في شأن الخطى الثابتة لمصر في اتجاه الديموقراطية والاستقرار - نقيض ما يحدث في العراق - إضافة إلى نجاحها الاقتصادي المفترض. لا أحد يشك في أن رجال مبارك يراقبون عن كثب تلاميذ بلاده.

لكن الأسئلة التي طرحَت عليّ بعد انتهاء الصف، شرحت الأمور كلها: لماذا لم «نغادر» العراق؟ هل «نقوم» بمهاجمة إيران؟ «هل «آمنّا» فعلًا بالديمقراطية في منطقة الشرق الأوسط؟ في الواقع، يبدو واضحًا أن «طيفنا» يلقي بظلاله على هؤلاء الشباب. وبعد مرور ثلاثين ساعة، نفضت الغبار عن تلفازي داخل غرفتي في فندق في فالدوستا، في جورجيا، وقد شاهدت امرأة مرصعة بالجواهر على قناة فوكس تخبر المشاهدين الأميركيين «أننا» إذا «غادرنا» العراق، فعندئذٍ سيلاحقنا «الجهاديون». «فهم يريدون خليفة يسيطر على العالم» وقد أصرّت على تقرير يتناول ولدين اثنين وضعا عمدًا داخل سيارة مفخّخة عراقية فُجرت في ما بعد. وتشدّقت في الحديث عما كان يقوم به «الجهاديون» المسلمون «منذ عقد السبعينات في لبنان». وكان ذلك هراءً بالطبع. إذ لم يحتجز أي ولد داخل سيارات مفخخة في بيروت -، ولم يكن هناك «جهاديون» أثناء الحرب الأهلية اللبنانية في السبعينات. والخوف كان منتشرًا. وبما أن مجلس النواب يتحدث الآن عن انسحاب أميركي بحلول آب/أغسطس ٢٠٠٨، فإن الخوف يتدلى من الأشجار في أميركا.

وبالعودة إلى قرية تايغر في جورجيا، يُشاع أن كايثي بارنز تبحث عن البشائر نظرًا إلى أنها تخشى على حياة ابنها، الكابتن إدوارد بيرغ من اللواء الرابع، فرقة المشاة الثالثة الأميركية، الذي توجّه إلى العراق للمرة الثانية من أجل أداء الواجب. وهذه المرة خلال «الطفرة» المخزية لجورج بوش. وفي المرة الأخيرة التي توجهت فيها إلى العراق، رأت السيدة بارنز أفعى ميتة،

وعدّتها بمثابة إشارة سيئة. ثم رأت أوزتين كنديتين تطيران فوق الأشجار، وكان ذلك فألًا حسنًا. وتشير أتلانتا جورنال - كونستيتيوشن ببلاغة إلى أن «التفكير العقلاني يمارس هذه اللعبة وقت الحرب، حيث يتحول قصف الرعد تبشير، ويصبح تغريد العصفور نبوءة».

ويتميّز تلاميذ الدكتور مايكل نول في فالدوستا بذكائهم وإشراق عيونهم تمامًا كتلاميذ الدكتورة البرادعي في مصر. فقد احتشدوا للمحاضرة نفسها التي ألقيتها في مصر، وبدا واضحًا أنهم يتقاسمون المخاوف نفسها في ما يتعلق بالعراق. لكن ندوة نكدة عُقدت ذلك الصباح، شكلت مسألة بائسة، وأثارت غضب الشابات. فقد قالت إحداهن بصوت متهدّج ««إذا «غادرنا» العراق، فإن الجهاديين «الإرهابيين» سيأتون إلى أميركا. قد يهاجموننا في دارنا». تحسّرت على الأمر محبطًا. كنت أصغي إلى صوتها، لكنه كان عبارة عن صوت امرأة أطلت على قناة «فوكس» التلفزيونية، كان الصدى المتكرّر والميؤوس منه لكلٍّ من بوش وبلير، ومفاده أننا سنفشل في العراق، وسيتمكنون «هم» من بلوغ شواطئنا. كما أقرأ الآن في الصحف الأميركية اليوميّة «الخوف» نفسه وقد تحول لاعقلانيّة. وقد أعلن لوك بوغز - يا إلهي كم أحببت ذلك الخط الثانوي - في صحيفته المحلية: «إني أقترح أن تدعوا الإرهابيين يتعفنون في غوانتنامو. ودعوا الأوروبيّين... يعودون. إننا أمة جديّة وملتزمة العمل الجديّ، حيث نسعى إلى قتل الرجال الأشرار أو أسرهم، قبل أن يلحقوا بنا الأذى». وهو يطلق على سجناء غوانتنامو اسم «الجهاديين المتشدّدين».

أدركت أن تلك الفتاة الموجودة في ندوة الدكتور نول، لا تتكلم في إسهاب على «الجهاديين» الذين يسافرون من العراق إلى أميركا لأنها تؤيّد بوش. إنها خائفة. إنها حقًّا خائفة من كل إنذارات «الرعب» وتهديدات «الجهاديين» المفترضة، خصوصًا التحذيرات من «الإرهاب» التي بلغت الضوء الأحمر، والتنبيهات الأرجوانية اللون، إضافة إلى كل الأدوات الأخرى التي تستخدم الألوان للإشارة إلى درجة الخوف. وهي تصدّق رئيسها، وقد قام الرئيس بتوكيل

أسامة بن لادن للقيام بالعمل من أجله: تولى تحطيم معنويات تلك الفتاة الشابة والقضاء على شجاعتها. لكن أميركا ليست في حال حرب. فهي لا تعاني انقطاعًا في الكهرباء في الحرم الجامعي الدافئ والاخضر في فالدوستا مع أقسام إدارتها بالطراز الإسباني وكنيستها الضيقة والجميلة. ولا وجود لأيّ تقنين في الطعام. ولا وجود للملاجئ التي تؤوي الهاربين من الغارات الجوية أو القنابل أو «الجهاديين» الذين يطاردون قومًا كهؤلاء يخافون الله. إن الجنود الأميركيين هم في حال حرب، وملتزمون صراعًا عراقيًا يلحق ضررًا بالنسيج الاجتماعي الأميركي البعيد كل البعد من الحذق.

وقد التقيت خارج الحرم سيّدًا لطيفًا وحسّاسًا، هو محارب سابق في فيتنام كان برفقة ولديه الطبيبين. أحدهما كان برتبة عقيد، وهو موظف طبّي في الجيش، في طريقه مجددًا إلى بغداد خلال هذ الأسبوع من أجل «طفرة» بوش، فيؤدي واجبه في بسالة أمام الخطر المتعاظم. أما الآخر فهو طبيب مدنيّ يكره الحرب. وبالكاد يتمكن الشابان، اللذان يفرق بينهما العراق، من التحدث أحدهما مع الآخر.

وقد اتصل الابن الجندي هذا الأسبوع من مخيّم العبور الخاص به في الكويت. أطلعني والده قائلًا «أظن أنه خائف». وطلبت مني سيدة في منتصف العمر، أن أوقع لها نسخة من كتابي الذي تنوي إرساله إلى ابنها العامل في سلاح البحرية في بغداد. كانت ترتعش في عناية على نحو ملموس وهي تتحدث إليّ. وقد وجدت نفسي أكتب على الصفحة الأولى من الكتاب المهدى إلى ابنها في البحرية «اعتنِ بنفسك جيّدًا، وعد إلى الوطن سالمًا».

«ذي إندبندنت»، ٢٤ آذار/مارس ٢٠٠٧

محاولة دخول أميركا

هذه هي قصة الإنترنت وجواز السفر ورغوة الشوكولا. الأول لا يقول إلا الأكاذيب، والثاني لا فائدة منه، أما الثالثة فلا تؤكل أبدًا.

بدأ الأمر عندما انطلقت إلى «سانتا في» لعرض كتابي الجديد عن الشرق الاوسط. كان من المقرر إجراء مقابلة مع المضيفة الإذاعية السيّئة السمعة، آمي غودمان، إضافة إلى حشد مهيب من الناس المجتمعين للاستماع إلى بوب العرب. وتتحقق دائرة الهجرة الأميركية بابتهاج من جواز سفري الصغير، الأحمر اللون، بواسطة ماسحة الكومبيوتر، والذي تكثر فيه تأشيرات الدخول الصادرة عن دول منبوذة، إلا أن هذا الامر لم يبدُ أنه يزعج السيدة العاملة في الأمن القومي. لكن ما أقلقها أمر مختلف، قالت «لا يمكن مسح جوازك»، وأجبتها بطريقة غير مبالية «لا». أُرسلت إلى غرفة ضخمة تعجّ بالزوّار الذين يصبحون غاضبين، والوافدين إلى الولايات المتحدة. تولى رجل طويل فحص قزحية عينيّ وأخذ بصماتي. ظننت أن هذا هو كل ما في الأمر، ولكن لا يبدو كذلك. وبعد مرور أربع وخمسين دقيقة، جاءت سيدة أخرى من الأمن القومي - ما زلت أكره استخدام عبارة «القومي»، وكأنها صدًى مراوغ لكلمة «هيميت» الالمانية. قلت إني لست في حاجة إلا إلى ست وثلاثين ساعة في الولايات المتحدة الأميركية، وقد جئت كي ألقي محاضرة بلا أجر سيحضرها مئات الأشخاص.

أعلنت السيدة مبتهجة «سأستشير المشرف عليّ لأرى هل في استطاعتنا إدخالك البلاد». تنفست الصعداء، وقلت فلتحيَ أميركا، إلى حين دخولها مجدّدًا إذ أخبرتني أن المشرف عليها لن يدعني أدخل. إنّ الفتيان والفتيات الذين يُفترض بهم ردع أسامة بن لادن عن مهاجمة أميركا، يحرصون الآن على

منعي من عرض كتابي في «سانتا في». وقد سمح لي العمل الفني الحاذق بتوجيه الحديث والمحاضرة عن كتابي عبر الأقمار الصناعية، مباشرة إلى قاعة المحاضرات في «سانتا في». ثم جاءت بعد ذلك الضربة. فقد أطلع أحد المنظمين صحيفة «نيو مكسيكن»، وهي صحيفة أرغب اليوم في شرائها وإغلاقها، على أن السلطات الأميركية منعتني من الدخول لأن «أوراقي غير قانونية»، وهو صحيح إلى حد ما. ولكن في غضون ساعات، ضجّ الإنترنت، وهو عبارة عن مؤسسة لعينة لا أستخدمها، بروايات مفادها أنّ الولايات المتحدة الأميركية حظرت دخولي بسبب مقالاتي الانتقادية لإدارة بوش، أو لأنني أجريت مقابلة مع بن لادن منذ وقت طويل، أو لصفة كوني مريعًا إلى حد أنّ الديموقراطية لن تدعني ألطّخ ممسحة القدمين التي توضع على الباب.

وقد لحقت بي هذه الثرثرة أينما ذهبت في أنحاء العالم. ففي أستراليا، حين ذهبت لإطلاق كتابي، سُئلت، خلال عشر مقابلات إذاعية وتلفزيونيّة، وأربع محاضرات، عن شعوري حيال منعي من دخول الولايات المتحدة. لا بد من أنني أمضيت ما مجموعه ساعتان وأنا أشرح أن ذلك لا صحة له. كل ما في الأمر أنني سافرت بجواز سفر قديم لم يعد صالحًا بعد الآن لدخول الولايات المتحدة الاميركية. ولكن، لا جدوى من ذلك. وفي اسكتلندا، قدّمني أستاذ جامعي إلى الحضور من خلال الإعلان أن مقالاتي «أثارت أخيرًا انزعاج إدارة بوش»، لأنني مُنعت من الدخول. وقد طاردتني تفاهات الإنترنت إلى دبلن، ثم إلى كورك، وبعدهما إلى بلفاست. بدا واضحًا أن لا شيء قد يردع هذه الرسالة.

اتصل روبن هارفي، المعلن لـ «فورث استايت»، وهم ناشرو كتبي بمكتب جوازات السفر في لندن، وتدبر مقابلة مع «مراقب ما»، وهي كلمة تفوح منها رائحة الـ «هيميت» الكريهة، من أجل تزويدي جواز السفر الجديد المشفّر على الكومبيوتر الذي يطلبه الأميركيون راهنًا. وفي النهاية، لا بدّ من أن أتوجه إلى نيويورك من أجل إطلاق كتابي في أميركا في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر. وقد

توجهت إلى مكتب جوازات السفر، وكانوا أشخاصًا مهذبين وفكهين ومرحين، وقد تفهّموا المشكلة. ولكن كان في حوزتي جوازا سفر، أليس كذلك؟ وقد يتطلب ذلك توجيه رسالة من «ذي إندبندنت» تشرح فيها أنني عملت في الشرق الأوسط، وأن أختام التأشيرة الإسرائيلية كانت «منافية»، وقد أعجبني ذلك بعض الشيء، بالنسبة إلى دخول الدول العربية. لذا، كان من الضروري الحصول على جوازي سفر. وورد اتصال بالمكتب الخارجي للأوراق، ثم وصل فاكس إلى مكتب جوازات السفر في غضون ثلاث دقائق. وعلق فاحصي قائلًا: «كل شيء يسير على ما يرام». لكن مجموعة الصور الشمسية التي أحضرتها كانت غير ملائمة. أرغب في أن تُلتقط مجموعة جديدة من الصور عند آخر الرواق؟ وهكذا حدث. وقالت لي آلة التصوير في خفّة، وأنا أهمّ بالمغادرة: «أراك مجددًا».

قال لي «فاحصي»: «هذا ليس جيدًا». وقد عكست نظارتي الضوء على النصف السفلي من عينيّ. وسألني مستغربًا: لمَ لا يلتقط لي الصور من دون أن أضع نظارتي. علمت ما الذي قد يعنيه ذلك. ففي المستقبل، قد يطلب كل مسؤول عن تأشيرة عربية، أن أنزع نظارتي عندما أقترب من مكتبه. لم يعد يحق لي الحصول على فكّة بقيمة ٣,٥٠ جنيهات إسترلينية من أجل الآلة. لذا، هرعت إلى محطة فيكتوريا، وأسرعت إلى «ماركس اند سبنسر» حيث طلبت منهما أن يصرفا لي ورقة ١٠ جنيهات إسترلينية لأحصل على الفكة. لا حظَّ في ذلك. ثم بدأت أبحث بين الرفوف، كحيوان، عن الغرض الأصغر حجمًا والأبخس ثمنًا لأشتريه، وعثرت على رغوة الشوكولا، وعدت أدراجي إلى مكتب الدفع.

وضعت النقود مجددًا في آلة التصوير داخل مكتب جوازات السفر، ورميت برغوة الشوكولا إلى هارفي (وهو لا يأكل الشوكولا)، ودفعت ٣,٥٠ جنيهات إسترلينية داخل الفتحة الضيّقة، ثم نزعت نظاراتي وحدّقت في شكل أعمى في الشاشة. قال الصوت مجددًا «أراك مجددًا»، ولكن أكثر اشمئزازًا بعض الشيء. وبالعودة إلى فاحصي، وكان هذه المرّة امرأة، فوعدتني بالحصول على جواز

سفر جديد، قبل ساعة من انطلاقي إلى أكسفورد ومن ثم إلى مطار هيثرو من أجل إتمام الجزء الأوروبي من إطلاق كتابي. وكان الوقت منتصف النهار تقريبًا عندما اتصلت بي «ذي إندبندنت» قائلة إن مكتب جوازات السفر في حاجة إلى صور جديدة مجددًا».

حان الوقت للعبارة التي لا أستخدمها عادة على صفحة التعليقات. يا ويلاه! عدت مجددًا إلى مكتب جوازات السفر. كانت الصور الملتقطة سابقًا غير واضحة بتاتًا، وأخفق فاحصي في تحديد ذلك عندما وافقت عليه آلة التصوير. بالتأكيد، كانت غير واضحة بتاتًا. فمن دون نظارتي، لم يكن في استطاعتي رؤية الشاشة الدمويّة. أما مع نظاراتي، فبالتأكيد قد ينعكس الضوء على عينيّ مجددًا. أمسكت بهارفي وتوسّلت إليه قائلًا «أدخل رأسك في الباب الدموي، وأخبرني كيف تبدو صورتي على الشاشة قبل أن أدخل النقود فيها». أربعة فلاشات إضافية. دمدمت الآلة في وجهي: «أراك مجددًا»، فركلتها.

بالعودة مجددًا إلى الفاحص. أجل، تسير الامور في شكل جيّد، لكن جواز السفر لن يكون الآن جاهزًا خلال أربع ساعات أخرى. وعليّ أن أذهب إلى أكسفورد لإلقاء محاضرة في غضون ثلاث ساعات. أخبرت هارفي أنه يمكنه أن يرسل إلي جواز السفر الجديد عبر خدمة البريد «دي.أتش.أل» إلى إيرلندا. ثم تكلم فاحص آخر قائلًا: «لست مخوّلًا بموجب القانون القيام بذلك». كان هارفي يهمهم وهو يتنفس تمامًا كما يفعل الفوضويّ عندما يخطط لجرائمه. وقال لي «سأطلعك على أمر، سآتي في الصباح لآخذه قبل أن أقوم بأي أمر آخر، وأحاول اللحاق بك قبل أن تغادر إلى مطار هيثرو». وها هو في الثامنة صباحًا، يركب دراجته ويمسك بجواز سفر جديد. توجهت مسرعًا إلى المطار، وفتحت في شكل مفاجئ الصفحة الأولى من جواز السفر، ونظرت إلى تلك الكلمات الامبراطورية والعظيمة على الصفحة الاولى. «يطلب وزير خارجية جلالة المملكة البريطانية، باسم جلالتها، من كل من يهمهم الأمر، السماح

لحامل الجواز السفر في حريّة من دون أيّ مانع أو إعاقة...». في إمكاني رؤية موظفي الأمن القومي يرضخون أمام هذا التحذير الصادر عن وزارة خارجيتنا. إن ذلك كفيل بنقلي إلى الولايات المتحدة الأميركية في ٨ تشرين الثاني/نوفمبر؟ أو هل يتم ذلك؟(*).

«ذي إندبندنت»، ٢٢ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥

(*) تم ذلك.

الفصل الثاني عشر

أسئلة لا أجوبة لها

يحب الصحافيون «حلّ» الألغاز التي تحيط بالعالم، وكشف النقاب عن «الحقيقة». ولكن تتوافر روايات تبقى بعيدة المنال. على سبيل المثال، العلم الثابت للاحتباس الحراري، قليلون هم الذين ينكرون الآن أنه أصبح واقعًا، لكن الشيطان يكمن في التفاصيل. وفي ما يتعلق بهذه الأخبار، فإن التقارير لن تتوافق أبدًا. ما زلت أشك في ما حدث فعلًا في ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ - على رغم أنني لا أنتمي إلى فئة «الإخوان» الذين يؤمنون بالمؤامرات الجَماعيّة - بل أزداد شكًا في أننا توصلنا إلى الحقيقة في شأن تفجيرات لوكربي. لا أعلم من قتل بنازير بوتو على رغم أنني أشتبه في بعض الأسماء. ثم أننا لن نعلم أبدًا، تحديدًا، من هو الشخص الذي كان يُفترض بوالدي إعدامه في العام ١٩١٩.

أهي مشكلة الطقس؟ أم هي الحرب؟

بالعودة إلى عقد الستينات، صدر فيلم عظيم تحت عنوان «ذا داي ذا أورث كووت فاير» 'The Day the Earth Caught Fire' وأتذكر أن ليو ماككيرن قام بدور مراسل لـ«دايلي إكسبرس» إلى جانب الناشر الحقيقي للصحيفة آرثور كريستيانسن. أما ما اكتشفته «إكسبرس» فهو أن الحكومة البريطانية عمدت إلى تركيب رشاشات مياه في هايد بارك لتقي الناس الحرّ، خلال فصل الشتاء. وكشف المحقق في نهاية الأمر، وهو مجرّد خيال كما أتذكر، أن القوى الأميركية والسوفياتية تولت، من دون الاطلاع على نشاطات بعضها بعضًا، اختبار أسلحة نوويّة في اللحظة عينها تمامًا في الجهات المقابلة من الكرة الأرضية. لست متأكدًا هل يكشف زملاؤنا في «إكسبرس» اليوم أيًا من ذلك، ولكن ليس ذلك المقصود. ففي الفيلم، يتعرض كوكبنا للانفجار بالتأكيد، وها هو يتوجه الآن نحو الشمس. وبالطبع، حاولت الحكومات إخفاء الامر.

تذكرت الآن ذلك الفيلم القديم، وصريره هذا الأسبوع، عندما استيقظت في منزلي الكائن في بيروت وأنا أرتجف بردًا. كنا منتصف شباط/فبراير في لبنان، حيث يتولى فصل الربيع المبكر تدفئة الأجواء. لكن ذلك لم يحدث. ففي قرية جزين [الجنوبية] ذات الطابع المسيحي، كان الثلج يتساقط في شكل حادّ. خرجت إلى شرفتي المطلة على المتوسط وقد لفحت وجهي رياح حادة وجليديّة تتجه من جهة البحر. قد تقولون، يا لبوب المسكين. من الأفضل تركيب جهاز تدفئة مركزيّ (إذ يعيش معظم اللبنانيين مثلي عبر استخدام أجهزة تدفئة خطيرة ورخيصة تعمل على الغاز). أما الآن، فأجد عددًا من المتوازيات الغريبة. فخلال فصل الخريف الماضي في ملبورن، على سبيل المثال، تبيّن أن فصل الربيع الأسترالي أكثر برودة مما كان متوقعًا. ولكن في عيد الميلاد في تورنتو،

تعرضت الثلوج للذوبان عن آخرها. وسرت في شوارع المدينة، وقد اضطررت إلى خلع كنزتي بسبب الشمس. كان ذلك الشتاء الأكثر دفئًا تشهده البلاد حيث تشتهر مساحات التوندرة فيها بكآبتها الجليدية.

عليّ أن أضيف إن الكنديين الذين رحبوا بهذا الذوبان الخطير للثلوج، يبدو أنهم يتناقضون والواقع. إن الامر يشبه بعض الشيء حين تشعرون البرد، لكنكم تعبّرون عن سروركم لرؤية أرضية منزلكم تحترق إذ أصبحتم تشعرون الآن الدفء. ثم ننتقل إلى طاقم الخطوط الجويّة. فهنا في منطقة الشرق الاوسط، على سبيل المثال، أخبرني الطيارون أن الرياح الرئيسة قد تكون قوية جدًّا عند الارتفاعات الكبيرة، إلى حد أن برج مراقبة حركة الملاحة الجوية يجبرهم على خفض الارتفاعات. وبصفة كوني طيّارًا يدرك كيف يخاف الرحلات الوعرة، وأنا كذلك بالفعل، يمكنني أن أقول لكم إنني لم أواجه اضطرابات مماثلة، للتي واجهتها خلال الأشهر الأربعة والعشرين الماضية.

ها قد حدث الانحراف، لكنه انحراف مهم. فقد كان عالم بريطانيّ اسمه كريس باسبي، يتحرّى من خلال إحصاءات نفقاتها مؤسسة الأسلحة الذريّة في ألدرمستون التي تتولى قياس اليورانيوم المتوفر في عيّنات الهواء في حجم كبير، وارتكز اشتباهه على أن جزيئات اليورانيوم المستنفد التي خلفتها حربا الخليج - ويُستخدم اليورانيوم المستنفد في رؤوس الصواريخ المضادة للدروع من المدفعية الأميركية والدبابات والطائرات البريطانيّة - تكون قد انتشرت عبر أوروبا. لست بواضع نظريات المؤامرة، لكن ثمة أمرًا غريبًا في ذلك. عندما قدّم باسبي المعلومات التي توصلت إليها ألدرمستون في العام ٢٠٠٤، طلبوا منه ألا يعير الأمر أهمية. وعندما طلب المعلومات في ظل قانون حرية المعلومات في العام ٢٠٠٥، تولت ألدرمستون إصدار الأرقام. ولكن مهلًا. فالإحصاءات المفقودة من البيانات التي سلموها إليه كانت تلك العائدة إلى الأشهر الأولى من العام ٢٠٠٣. أتذكرون ما كان يحدث آنذاك؟ قليل من الغبار في العراق، وغزو

جماعي أميركي وبريطاني لدكتاتورية صدّام، إذ استخدم الجنود الأميركيون أطنانًا من قنابل اليورانيوم المستنفد. وفي نهاية المطاف، فإن باسبي الذي أجرى دراسات عن تحركات الهواء ذات الارتفاع العالي فوق أوروبا، استلم البيانات من وكالة الدفاع في بريستول، حيث أظهرت ارتفاعًا لمستوى نسبة اليورانيوم في حجم كبير في عينات الهواء فوق بريطانيا خلال تلك المدة.

حسنًا، لم نمت بعد، على رغم أن القراء الذين يقرأون هذه المقالة لن يكونوا سعداء بمعرفة أن عيّنات من نظام الترشيح حول ألدرمستون أظهرت حتى ارتفاعًا في النسبة. إنها الصدمة والرعب في الواقع.

بالعودة إلى روايتنا الرئيسة. سئمت أن أسمع شيئًا عن «الاحتباس الحراري»، إذ أصبحت المسألة فكرة مبتذلة إلى حدٍّ تحوّلت أمرًا فرعيًّا وغير مقروء، ومضجرًا، على الأرجح كما ترغب حكوماتنا في أن تكون عليه. فقد أصبح الغطاء الجليد الذائب وجبال الجليد المختفية، أمرًا لا بد منه بالنسبة إلى كل التقارير. وبعدما وضعت منظمة اليونيسكو منطقة Ilulissat ice fjord ضمن قائمة التراث العالمي، تبيّن أنها انخفضت بنسبة ثلاثة أميال. وتتوفر مفارقة جميلة في أن الكنديين يخوضون الآن جدالًا مع الولايات المتحدة الأميركية في شأن الخط البحري في الشمال الأقصى، إذ يرغب الاميركيون في استخدام ممرّ ذائب في الشمال الغربي يقع جزئيًا تحت السيادة الكنديّة. ولكن يراودني حدس بأنّ أمرًا أكثر خطورة يصيب كرتنا الأرضية، ولا يتم إطلاعنا عليه.

دعوني أذكّركم بنهاية فيلم «ذا داي ذا أورث كووت فاير». يخطط كل من العلماء الروس والأميركيين، على حد سواء، للقيام بتفجير جديد ومشترك من أجل إعادة مسار العالم إلى طبيعته. وقد صوِّر المشهد الأخير من الفيلم داخل قاعات الطباعة لصحيفة «دايلي إكسبرس» (وهي القاعات الحقيقية). يقف الناشرون بالقرب من آلاتهم وهم يمسكون بعنوانين معدّين للنشر وفقًا لنتائج التفجير. أحدهما يقول «انتهى العالم». أما العنوان الثاني فيقول «أنقذ العالم».

وكما تعوّد الكاتب الشعبي العظيم جون غوردون أن يكتب في صحيفة «صانداي إكسبرس»: إن ذلك يجعلكم تنتظرون حتى النهاية، أليس كذلك؟

«ذي إندبندنت»، **٢٥** كانون الثاني/يناير **٢٠٠٦**

اخشوا التغيّر الحاصل في المناخ، لا أعداءنا

كان ذلك بمثابة تحذير، فقد تعرّض الفيلم المصوّر في المنزل للخدش، بالتأكيد نظرًا إلى مرور أكثر من خمسين عامًا على تصوير والدتي له بالألوان. كان اللون الطاغي فيه هو الأبيض. ويبدو بيل فيسك، البالغ من العمر سبعة وخمسين عامًا وهو يقف في حديقة منزلنا مرتديًا معطف العمل الطويل والأسود خاصته وهو يقذف كرات الثلج على ابنه. إنني في العاشرة من عمري وأرتدي سروالي القصير، لكن الثلج كان يغطيني حتى الخصر. لا بد من أن ارتفاع الثلج كان يبلغ معدل قدمين اثنين في الحديقة إذ يمكنكم حتى أن تشاهدوا البخار الخارج من فمي. لا تظهر والدتي في الفيلم. فهي تقف في الثلج خلف والدي، وكانت تبلغ آنذاك ستًا وثلاثين سنة، وهي ابنة مالكي القهوة حيث كانوا يستضيفون «يوم الملاكمة» من كل عام، عائلتي وعائلة عمتي، ويقيمون غداءً كبيرًا، ويشعلون نارًا مزمجرة من خشب الشجر. كان الطقس آنذاك باردًا جدًا.

أظن أن آندرو مار، وهو ناشر صحيفة «ذي إندبندنت»، كان أول من جعلني أفكر في ما يحدث. لقد كان فصل صيف حارًا جدًّا وكنت وصلت لتوي إلى لندن من بيروت، وعلقت قائلًا بعدم وجود فرق كبير في درجتي الحرارة. استدار آندرو وأشار إلى المدينة. وصاح قائلًا «ثمة أمر غريب في هذا الطقس الدموي». وبالطبع، فقد كان محقًا.

إني أقرّ اليوم بالأمر على نحو صامت: إن العواصف الضخمة اجتاحت أوروبا، ولاسيما الاضطراب الغربي الذي اختبره طيارو الطائرة التي كانت تنقلني عبر المحيط الاطلسي. ونظرًا إلى أنني لم أسافر يومًا إلى مكان بعيد جدًّا، أو في شكل متكرّر، فإني ألاحظ أن درجة الحرارة نهاية العام بلغت في

كل من تورنتو ومونتريال ١٥ درجة، أي إنه «عيد ميلاد ربيعيّ» على ما كتبت الصحف الكنديّة. أما في دنفر فأقفل المطار بسبب تساقط الثلوج. عدت إلى لبنان لأجد كمًا قليلًا من الثلوج، حيث يطغى اللون الصخريّ والرمادي على جبل صنين الذي يعلو منزلي، مجرّد بساط أبيض اللون يغطي القمّة. أما الثلج فعميق في القدس. بينما تعاني بيروت نقصًا في المياه.

كيف يمكن هذه التحذيرات أن تصيبنا عرضًا، وكيف نعاملها عَرَضًا، إني أشك في أن معظم الناس يشعرون أنهم منفصلون عن القوى السياسيّة، وفاقدو الامل عندما يواجهون مأساة عالمية، إلى حدّ أنهم لا يقومون بشيء سوى مشاهدة الغضب والاستغاثة المتناميين. وقد قيل لنا إن من الممكن أن تشهد مستويات المياه في المحيطات العالمية ارتفاعًا بنسبة ٢٠ قدمًا. احتسبت ذلك في بيروت، فيتوقع أن يغطي البحر الأبيض المتوسط، خلال الطقس السيئ، جدار شرفتي في الطبقة الثانية.

تلويّت في فراشي لأن الليالي كانت رطبة في شكل غريب، وقرأت، وأنا أضيء المصباح إلى جانب السرير، امتعاض هانز فون سبونيك وحكايته المؤلمة للسنوات التي عمل فيها منسقًا للشؤون الإنسانية للأمم المتحدة في العراق، تحت عنوان نوع مختلف من الحرب، وهو عبارة عن تحليل للعقوبات المعيبة والإجرامية المفروضة على الشعب العراقي بين العامين ١٩٩٠ و٢٠٠٣. وعلى سبيل المثال، هذا ما كتبه السفير الروسي لدى الأمم المتحدة، سيرغي لافروف، في آذار/مارس من العام ٢٠٠٠: «... إن درجة الكارثة الإنسانية في العراق ستؤدي لا محالة إلى تفكك نسيج مهم من المجتمع المدني». كان الأمر عبارة عن «وضع حيث تعرّض خلاله جيل كامل من العراقيين للشلل، سواء جسديًا أو معنويًا». وقد تحدث السفير الفرنسي في الأمم المتحدة، ألان ديجاميه، في شكل مماثل عن «الأزمة الإنسانية في العراق»، وهي أزمة قد تقنع فون سبونيك في نهاية الأمر بالاستقالة. إنه تحذير آخر. أتذكر كيف قال لي فون سبونيك العبارات نفسها في بغداد. وهكذا فعل سلفه دينيس هاليداي. ولكن

عندما سئل بيتر هاين الذي يحرص الآن في شكل ميؤوس منه على البقاء بعيدًا من سياسات الولايات المتحدة في العراق، التعليق على المسألة، قال عن فون سبونيك وهاليداي «إنهما بالتأكيد ليسا الرجلين المناسبين لتلك الوظيفة». وعلق جايمز روبين الذي أصبح الناطق الرسمي باسم مادلين اولبرايت، أن فون سبونيك «يتلقى أجره عن عمله، وليس عن الكلام».

وعلى رغم ذلك، تتوافر هذه التحذيرات كلها. هل ظننا فعلًا أن العراقيين، بعد إفقار عدد كبير من أولادهم والقضاء عليهم، وبعد «إلحاق الشلل الجسدي والمعنوي» بجيل منهم، سيرحبون بـ «تحريرهم»؟ وانطلاقًا من حطام العراق، ظهرت حركات التمرّد والكراهية التي تمزّق الآن الشعب، وتقضي على الولاية الرئاسيّة لجورج دبليو بوش ورئاسة مجلس الوزراء لطوني بلير. ولكن، علامَ يطلعنا ذلك؟ ما زالوا يريدون تخويفنا. الإرهاب ثم الإرهاب ثم الإرهاب. أما الآن فلدينا الدكتور ديث(*) وهو وزير داخليتنا في المملكة المتحدة الذي يكشف لنا أن الحرب على الإرهاب قد تدوم طويلًا، تمامًا كالحرب الباردة. وأخيرًا، كانت الارملة المسكونة بالخوف(**) مسؤولة عن أجهزة المخابرات خاصتنا فقالت إنّ الحرب على الإرهاب قد تستمر «جيلًا» من الزمن. أتقصد بذلك مدة «ثلاثين سنة»؟ أم ستين سنة، كما ادعى الدكتور ديث؟ إذ زعم بوش أنها قد تستمر «إلى الأبد»، وهو بكل تأكيد غرض طموح من أجل منصب الجلاد والحاكم السابق.

ما يقصده هؤلاء الرجال، من خلال الهراء الذي يتفوّهون به عن «القيم»، هو أن الوسيلة الوحيدة للتخفيف من خطر التعرض لهجوم في لندن أو واشنطن، تكمن في اعتماد سياسة أخلاقية منصفة حيال الشرق الاوسط. إن الإخفاق في

(*) جون ريد، وهو طبيب عائلة، كان مهووسًا بالحاجة إلى امتلاك المواطنين البريطانيين بطاقة الهويّة.

(**) شغلت السيدة إليزابيث مانينغهام بولر، منصب المدير العام لجهاز أمن المملكة المتحدة، «أم. آي ٥» من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٢ ولغاية نيسان/ أبريل ٢٠٠٧.

تحقيق ذلك، ولأن لا نيّة واضحة لدى آل بلير وآل بوش للقيام بذلك، يعني أننا سنتعرض للتفجير مجددًا. لم تكن كلمات الدكتور ديث بمثابة تحذير لنا. إذ لم يُقصَد منها تحضيرنا للمستقبل، بل كان المقصود منها الفسح في المجال أمامه للتبرير «قلت لكم ذلك» عندما يقدم رحّالة ما على قتل إنسان بريء في قطار في لندن. عندئذٍ، يقال لنا إننا في حاجة إلى تشريعات أكثر صرامة. سيكون علينا أن نشعر الخوف.

أجل، علينا أن نخاف. علينا أن نستيقظ كل يوم مع الخوف. علينا أن نُخضِع نظامنا السياسي الكامل لآلة من الخوف. على المجتمع المنظم أن يدور حول خوفنا. وتمامًا كإرهابيي الأزمنة الغابرة، تخبرنا كلير ستيرلينغز وبراين كروزايرز في أيامنا هذه، عن آلاف الإرهابيين «وهم مجموعة من الممارسين المحترفين الذين يُصدرون فتاوى بالموت العنيف، وقد خضعوا كلهم للتدريب في كوبا أو كوريا الشمالية أو الاتحاد السوفياتي أو أوروبا الشرقية، - فإنّ كلًا من الدكتور ديث واللورد «بلير كوت العمارة» ووزير الخارجية السابق جاك «ذا فيل» سترو (أتذكرونه»)، يريدوننا أن نعيش في الخوف. يريدوننا أن نخاف.

أظن أن علينا أن نشعر الخوف ممّا نفعله بالنسبة إلى كوكبنا. لكن لا يجدر بنا الخوف من أعدائنا في العالم. فإنهم سيعودون. إن احتلال الغرب دولًا إسلاميّة عدة حتّم لنا هذا القَدَر. ولكن إذا وضعنا الآن حدًّا للظلم الذي نفرضه على الشرق الأوسط، قد يتمكن الدكتور الموت من تخطي عتبة سنيه الستين قبل أن يغادر منصبه المرموق. فكروا في الأمر الآن.

في هذه الاثناء، شاهدوا العالم والطقس والاضطراب الحاصل عند خلال التحليق عاليًا، وتذكروا الثلج في ميدستون.

«ذي إندبندنت»، ٢٠ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧

مَن هو الذي ابتكر الواقع؟

كلّ مرة كنت ألقي محاضرة خارج منطقة الشرق الأوسط، كان ثمة شخص واحد، في شكل دائم بين الجمهور، أطلق عليه صفة «الشخص الذي يهذي». إني أقدم الاعتذار إلى جميع الرجال والنساء الذين يأتون لسماعي وفي جعبتهم أسئلة ذكيّة ومناسبة، وكثيرًا ما يكون بعض منها متواضعًا جدًّا، تُظهر تفهّمهم المأساة التي تشهدها منطقة الشرق الأوسط في شكل أفضل من الطريقة التي ينقلها الصحافيون. لكن «الشخص الذي يهذي» شخص حقيقي. فقد تحوّل شكلًا ماديًّا، في كل من ستوكهولم وأكسفورد وساو باولو ويريفان والقاهرة ولوس أنجلس، وبصيغة المؤنث كما في برشلونة. وأيًّا يكن البلد، لا بد من وجود «شخص يهذي» دائمًا.

وجاء سؤاله، أو سؤالها، على النحو التالي: في حال كنتم تظنون أنفسكم صحافيين أحرارًا، لمَ لا تبلغون عما تعرفونه حقيقة عن اعتداءات ٩/١١. لمَ لا تقولون الحقيقة، وهي أن إدارة بوش (وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، أو الموساد، أو سمّوها ما شئتم) هي التي قامت بتفجير برجي التجارة العالميين. لمَ لا تكشفون الأسرار الكامنة وراء اعتداءات ٩/١١؟ يكمن الافتراض في كل حال، أن فيسك يعلم - إذ يملك مكتبًا حقيقيًّا، أسفله نحاس، ومملوء وقائع تثبت نهائيًّا ما «يعلمه العالم كله» (وهي الجملة المستخدمة عادة)، عمن دمّر برجي التجارة. كذلك يشعر «الشخص الذي يهذي» أحيانًا الأسى في شكل واضح. فقد صاح رجل واحد في كورك وهو يوجّه سؤاله إليّ، وبعد ذلك، عندما اقترحت عليه أن النسخة الخاصة بمؤامرته غريبة بعض الشيء، غادر القاعة وهو يصرخ في غضب ويركل المقاعد.

وكثيرًا ما حاولت أن أقول «الحقيقة». ففي وقت تتوافر أسئلة لا أجوبة لها عن اعتداءات ٩/١١، فإنني مراسل الشرق الأوسط لصحيفة «ذي إندبندنت»، ولست مراسل المؤامرة. ثم أنني أملك مؤامرات حقيقية كافية جدًّا في لبنان والعراق وسورية وإيران والخليج... إلخ، لأقلق بالنسبة إلى تلك الخيالية الموجودة في مانهاتن. أما حجتي النهائية، وهي في رأيي النقطة الفاصلة، فهي أن إدارة بوش أخفقت في كل شيء قامت به في الشرق الأوسط، عسكريًّا وسياسيًّا ودبلوماسيًّا، لذا، كيف أمكن بحقكم أن تُرتكب في نجاح جرائم دولية ضد الإنسانية في الولايات المتحدة بتاريخ ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١؟

في الواقع، ما زلت متمسكًا بوجهة نظري. إذ يمكن أيّ رجل عسكريّ، كما فعل الاميركيون منذ عامين، الادعاء أن تنظيم القاعدة يلوذ بالفرار وهو غير قادر على القيام بأي أمر على قياس اعتداءات ٩/١١. وقال الكولونيل دافيد ساثيرلاند عن الحملة الطفولية التي حملت عنوان «عملية مطرقة البرق» في محافظة ديالا العراقية «نجحنا في تعطيل تنظيم القاعدة، وأجبرناه على الفرار»، وتابع قائلًا: «إن خوفهم من مواجهة قواتنا يثبت أن الإرهابيين يدركون تمامًا عدم وجود ملاذ آمن لهم»، إضافة إلى المزيد من الأقوال المماثلة، وكلها لا صحة لها. وخلال ساعات، شنّ تنظيم القاعدة هجومًا على بعقوبة على معقل لكتيبة، وقتل أفراده جميع الشيوخ المحليين الذين تعاونوا مع الأميركيين. ويذكرني ذلك بحرب فيتنام، وهي الحرب التي تابعها جورج بوش من السماء من تكساس، وهو ما يمكن أن يفسّر لِمَ مزج هذا الأسبوع بين نهاية حرب فيتنام والإبادة الجماعية الواقعة في بلد مختلف اسمه كمبوديا حيث نفذ شعبها في نهاية الامر الفييتناميون أنفسهم الذين كان زملاء السيد بوش الشجعان يحاربونهم طوال الوقت.

ولكن، ها نحن الآن. إني منزعج في شكل متزايد من التناقضات الواردة في الرواية الرسمية لهجمات ٩/١١، إذ لا يقتصر الأمر، وحسب، على

المغالطة الواضحة: أين هي أجزاء الطائرة (المحرك... إلخ) التي **اصطدمت** بمبنى البنتاغون؟ لم التكتّم عن أسماء المسؤولين المرتبطين بحادث **تحطم** الرحلة **٩٣** من خطوط يونايتد (تلك التي تحطمت في بنسلفانيا)؟ لماذا **انتشر** حطام الرحلة الرقم **٩٣** على مسافة أميال، بينما كان من المتوقع أن **تتحطم** بجزء واحد في حقل ما؟ إنني لا أتحدث مجددًا عن «البحث» المجنون لدايفيد آيك عنوان «أليس في بلاد العجائب وكارثة برج التجارة العالمي» الذي يدفع بأيّ رجل أو امرأة عاقلة إلى قراءة دليل الهاتف.

إني في صدد التحدث عن مسائل علميّة. على سبيل المثال، لو ثبت فعلًا أن مادة الكيروزين تشتعل بدرجة حرارة ٨٢٠ درجة مئويّة في أفضل الظروف، فكيف أمكن الجسور الحديد الخاصة ببرجي التجارة، حيث يفترض أن تبلغ درجة ذوبانها حوالى ١,٤٨٠ درجة مئويّة، أن تنقصف في الوقت نفسه؟ (لقد هوت في خلال ٨,١ و١٠ ثوان)؟ ماذا عن البرج الثالث الذي يطلق عليه اسم برج التجارة العالمي، المبنى الرقم ٧ (مبنى سالمون بروذرز) الذي هوى في خلال ٦,٦ ثوان ضمن المساحة التي يشغلها الساعة ٥,٢٠ بعد الظهر في ١١ أيلول/سبتمبر؟ لمَ سقط أرضًا بهذا الشكل المتقن من دون أن تصطدم به أي طائرة؟ وقد تلقى المعهد الوطني الأميركي للمعايير والتكنولوجيا التعليمات من أجل تحليل سبب تدمير الأبنية الثلاثة. كاملة لم يُصدِر المعهد أي تقرير حتى الآن في شأن المركز التجاري العالمي، الرقم ٧. ويقوم اختصاصيان أميركيان ذائعا الصيت في مجال الهندسة الميكانيكيّة. وهما لا يدخلان بالتأكيد ضمن فئة «الشخص الذي يهذي» بالاعتراض قانونًا على الشروط المرجعية للتقرير النهائي، منطلقين من أنه قد يكون «زائفًا ومخادعًا».

صحافيًّا، انتشرت أمور كثيرة عن اعتداءات ٩/١١. فقد تحدثت التقارير الأولية للمراسلين أنهم سمعوا أصوات «انفجارات» في البرجين، الأمر الذي يفسّر تصدّع الجسور، بحيث يسهل صرف النظر عنها. ثم تحدث تقرير عن العثور على جثة امرأة من أفراد طاقم الطائرة في أحد شوارع مانهاتن موثوقة

اليدين. حسنًا، دعونا ندَّعي أن التقرير المستند إلى الإشاعات في ذلك الوقت، تمامًا كالقائمة التي أصدرتها وكالة المخابرات المركزية الأميركية في شأن خاطفي الطائرات العرب، التي تضمنت ثلاثة أسماء لأشخاص كانوا، ولا يزالون، على قيد الحياة ويعيشون في الشرق الاوسط، عبارة عن خطأ مخابراتيّ أوليّ.

ولكن، ماذا عن الرسالة الغريبة التي يُزعم أنها من كتابة محمد عطا، وهو خاطف الطائرة والقاتل المصري، صاحب الوجه المجفل إذ تركزت نصيحته «الإسلامية» لزملائه الشنيعين، والتي كشفت عنها وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية، زرعت الحيرة في نفس كل صديق مسلم أعرفه في الشرق الأوسط؟ وقد أتى عطا على ذكر عائلته، وهو أمر لن يقدم على الأرجح المسلم الذي تلقى تدريسًا سيئًا على ذكر هذا الامر في صلاة. وهو يذكر شركاءه في الجريمة بتلاوة صلاة المسلم الأولى لليوم ثم يتولى الاقتباس منها. إلا أن المسلم لا يكون في حاجة إلى تذكير مماثل، باستثناء نص صلاة «الفجر» المدرج في رسالة عطا.

دعوني أكرّر الأمر: لست صاحب نظرية المؤامرة. وفِّروا عليّ جهد الشخص المصاب بالهذيان. وفروا عليّ المؤامرات. لكن تمامًا كأي شخص آخر، أود ان أكتشف الرواية الكاملة لاعتداءات ١١/٩، على الأقل لأنها أصبحت الزناد الخاص بـ «الحرب على الإرهاب» المجنونة والزائفة، على نحو كامل، التي أدت إلى الكارثة في كل من العراق وأفغانستان، إضافة إلى عدد كبير من دول الشرق الأوسط. وقد تولى بوش في سعادة صرف المستشار كارل روف الذي أعلن يومًا: «نحن الآن امبراطورية، إننا نبتكر واقعنا الخاص». أهذا صحيح؟ قولوا لنا على الأقلّ. قد يساعد ذلك الناس على التوقف عن ركل المقاعد.

«ذي إندبندنت»، ٢٥ آب/أغسطس ٢٠٠٧

في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨، كشف أن وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية أتلفت شرائط فيديو خلال التحقيق مع المشتبه بهم من تنظيم القاعدة الذين قد يكونون مرتبطين بفظاعة اعتداءات ٩/١١. لم يتم الإفصاح قط عن وجود هذه الشرائط، للجنة الرسمية التي تتولى التحقيق في الهجمات. وفي صحيفة «نيويورك تايمز» في ٢ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٨، اشتكى كل من توماس أ. كين ولي هـ. هاميلتون، وهما رئيس اللجنة ونائبه، من أن جورج تينيت لم يسمح بمقابلة المحتجزين. وقد ختما قولهما بأن «المسؤولين الحكوميين قرّروا عدم إحاطة هيئة مؤسّسة قانونًا جانب علمًا عن التحقيق في إحدى أهم المآسي التي تواجهها هذه البلاد. وهذا ما نسميه العرقلة.

رسالة من السيدة إيرفين

بعد مقالاتي عن «الأشخاص المصابين بالهذيان» الذين يحضرون محاضراتي في انتظام من أجل الادعاء أن الرئيس بوش، ووكالة الاستخبارات المركزية الاميركية، والبنتاغون والموساد. . . إلخ هم الذين قاموا باعتداءات ١١ أيلول/ سبتمبر، تلقيت رسالة هذا الأسبوع من ماريون إيرفين التي خشيت أن يتحمّل أحد أفراد عائلتها خطر عدِّهم مجرّد «أشخاص مصابين بالهذيان» و«الأصوات المسموعة في البريّة». الأمر ليس كذلك، نظرًا إلى أن السيدة إيرفين كانت تكتب عن حادث لوكربي، اعتقدت، تمامًا مثلها، بوجود زوايا عدة سود وغامضة في شأن هذه الجريمة. لست متأكدًا كليًا من أن وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية لم تتعرض لفضيحة سرقة المخدرات من الطائرة، كذلك أني لست متأكدًا على الإطلاق من أن رجل الاستخبارات الليبي الصغير، المقرحي، الذي دين في نهاية المطاف في ذكرى الخياط مالتيسي، تدبّر في الواقع زرع القنبلة في الطائرة التابعة لرحلة بان آم، الرقم ١٠٣ في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٨٨.

لكنني آخذ رسالة السيدة إيرفين على محمل جدّي ومزدوج في شكل مضاعف، لأن أخاها، واسمه بيل كادمان، كان على الرحلة الرقم ١٠٣ وقتل مساءً فوق منطقة لوكربي قبل تسعة عشر عامًا. كان يعمل مهندس صوت في كل من لندن وباريس. وكان مسافرًا برفقة صديقته صوفي، التي قتلت بكل تأكيد، لتمضية عطلة الميلاد مع عمتها في الولايات المتحدة الأميركية. لا شيء قد يبدو أكثر بلاغة من الرسالة الخاصة بالسيدة إيرفين التي سأقتبسها لكم. وهي تقول إنها تشكّ بقوّة في علاقة ليبيا بهذا التفجير.

وقد كتبت: «شعرنا منذ بداية كانون الأول/ديسمبر ١٩٨٨ أن أمرًا ما خفي عنّا:

... إنّ التحذير بتشويه سمعة هلسنكي (السفارة الأميركية)، ووجود وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية على الأراضي الاسكتلندية قبل الشروع في أعمال التعرف إلى الجثث في شكل ملائم، وسلوك وزراء «تفلون» في الوزارات والحكومة، أسهمت جميعًا في إبراز شعور عميق من القلق. وقد بلغ ذلك ذروته عندما اطلع والدي من أحد أعضاء اللجنة الرئاسيّة الأميركية عن سلامة الطيران والإرهاب، أن حكومتنا كانت على علم بما حدث، لكن الحقيقة لن تظهر. وفي فراغ الحقيقة، فإن السيناريو الأسوأ ومفاده أن الأرواح أزهقت تكفيرًا عن أرواح الإيرانيين الذين قُتلوا في حزيران/يونيو ١٩٨٨، يأخذ درجة ما من الصدقية. فقد أسقطت الطائرة في آخر اللحظات خطورة من ولاية ريغان.

عليّ أن أشرح أن الأرواح الإيرانية التي أشارت إليها السيدة إيرفين، عبارة عن الركاب الإيرانيين لخطوط طيران مدنيّة من نوع إيرباص، كانت أسقطتها فوق منطقة الخليج سفينة حربية أميركية قبل بضعة أشهر من حادث لوكربي، خصوصًا قبل انتهاء الحرب الإيرانية - العراقية التي استمرت ثماني سنوات. فقد أطلقت سفينة فينسين، الملقبة بـ «روبوكروزر» من الطاقم التابع لسفن أميركية أخرى، صواريخها على طائرة الإيرباص، اعتقادًا منها أنها طائرة نفاثة تابعة للقوات المسلحة الإيرانية. وهي لم تكن كذلك، كانت طائرة الإيرباص ترتفع في الجو، لكن ريغان بعد بضعة اعتذارات سطحيّة، حمّل إيران مسؤولية المجزرة لأنها رفضت الموافقة على وقف إطلاق النار المقترح من الأمم المتحدة في حربها على العراق، إذ كنا ندعم آنذاك صديقنا القديم صدّام حسين (أجل إنه الشخص نفسه!). كذلك تولت البحرية الأميركية توزيع ميداليات، لينجّنا الله، على قبطان سفينة فينسين وطاقم مدفعيته. وبعد مرور بضعة أسابيع، دعا القائد العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، وهو فلسطيني مناصر لإيران ويقيم في

لبنان، إلى عقد مؤتمر صحافي مفاجئ في بيروت لإنكار تورّطه في حادث لوكربي أمام المراسلين المدهوشين.

لماذا؟ هل أشارت أصابع الاتهام إليه؟ أم إلى إيران؟ وفي وقت لاحق، انتقلت تلك «المصادر الرسمية» المألوفة، التي سبق أن رفعت أصابع الاتهام ضد إيران، إلى تحميل ليبيا المسؤولية. وفي ذلك الوقت، كنا في حاجة إلى دعم حليفة إيران، أي سورية، خصوصًا الصمت الإيراني، من أجل تحرير الكويت بعد غزو صدام لها في العام ١٩٩٠. وعلى صعيد شخصيّ، لطالما اعتقدت أن حادث لوكربي جاء انتقامًا لتدمير طائرة الإيرباص، إذ يُضفي المؤتمر الصحافي الغريب الذي دعت إليه الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، صدقية على ذلك، الأمر الذي يفسّر الرسالة الشجاعة للسيدة إيرفين. وكما تقول، فإن والديها مارتن وريتا كادمان، عقدا اجتماعات لا تحصى مع النواب، وبينهم تام داليل وهنري بيلينغهام وسيسيل باركنسون وروبن كوك وطوني بلير ونلسون مانديلا (لقيت مطالبته بنقل المقرحي إلى سجن ليبيّ دعمًا من عائلة كادمان).

ومن خلال جملة مؤثرة جدًّا، تضيف السيدة إيرفين أن والديها «يتقدمان في السن، ويعيشان في خوف من أنهما سيموتان من دون أن يتحمل أحد مسؤولية موت ابنهما. وهما يواجهان خطر فقدان التركيز، ويشعران أنهما «يهذيان». فقد أظهرت الحرب في العراق التي امتدت من العام ١٩٨٠ حتى ١٩٨٨، أن ما من عبرة أُخذت. ولأن صودف وجود أخي في تلك الطائرة، نشعر الآن جميعًا حسّ المسؤولية التصاعديّ حيال الوضع في العالم». ثم توصلت السيدة إيرفين إلى ما مفاده:

«ما الذي يمكننا فعله؟ الآن، وقد تقدم والدي في السن، يقع على عاتقنا، نحن الجيل التالي، أن نحاول وخز الحكومة، ولكن، هل ثمة أمل ما؟ إنني أكتب لكم لأسألكم هل تعتقدون بوجود إجراء معقول يمكن اتخاذه من شأنه أن

يُضفي احتمالًا بسيطًا بالنجاح... إن رفض التفهم والاعتراف بالماضي، أمر خطير بالنسبة إلى المستقبل».

ما كنت شخصيًا قادرًا على صوغ الأمر على نحو أفضل، وأملك فكرة مباشرة عنه. إذا صدرت أكاذيب رسمية عن لوكربي، وإذا تولت الحكومتان البريطانية والأميركية تغطية الغش، وصدرت الأكاذيب عن هؤلاء المسؤولين عن أمتنا - فلا بدَّ إذًا من أن أشخاصًا كثرًا في السلطة على علم بذلك. إني أحثّ جميع هؤلاء الذين قد يكونون على علم بالأكاذيب المماثلة، على أن يراسلوني (عبر البريد الالكتروني، أو باليد) إلى صحيفة «ذي إندبندنت». يمكنهم توجيه رسائلهم إلى السيدة إيرفين في ظرف بوضع اسمي عليها. وبعبارات أخرى، إني أوجه نداءً إلى جميع الصادقين الذين يدقون ناقوس الخطر من أجل البوح بالحقيقة.

يمكنني أن أسمع حركة الفتيان باللباس الأزرق. هل نحن نشجع موظفي الدولة المدنيين على انتهاك قانون الوثائق السرية؟ بالتأكيد لا. إذا قيلت أكاذيب على المسؤولين أن يطلعونا على ذلك، بما أن قانون الوثائق السرية، في هذه الحال، أسيء استخدامه لأنهم بقوا صامتين. لكن، في حال تم الكشف عن الحقيقة، لن ينتهك احد قانون الوثائق السرية.

لذا، فإني في انتظار الأخبار. نحن لسنا في حاجة إلى «الأشخاص المصابين بالهذيان». لكن هؤلاء الذين يعلمون الحقيقة التي يتعذر الكشف عنها، يملكون شرف الإفصاح عنها كلها. فهذا أقل ما يستحقه كل من مارتن وريتا كادمان والسيدة إيرفين وبيل وصوفي. أما بالنسبة إلى الشرطي الذي قد يحاول تهديدي أنا - أو السيدة إيرفين - في سعينا وراء الحقيقة، فأقول له أن يذهب إلى الجحيم معهم.

«ذي إندبندنت»، ١٣ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧

مَن قتل بنازير؟

يبدو الأمر غريبًا، كيف تُرد الرواية على مسامعنا في بشكل سريع. فقد اغتيلت بنازير بوتو، الزعيمة المقدامة لحزب الشعب الباكستاني، في روالبندي، المدينة الملتصقة بالعاصمة إسلام أباد، حيث يقطن الجنرال السابق مشرّف، وقد كشف لنا جورج دبليو بوش أن قاتليها كانوا «متطرفين» و«إرهابيين». في الواقع، لا داعي لمناقشة ذلك. إذ يبدو أن القاتل قد أطلق النار على بوتو مرّتين، قبل أن يفجر نفسه. لكن المفهوم الضمني لبوش، والمدعوم بصدق من «رجال دولة» عالميين (وأتوقف هنا لأطلق ضحكة خفيفة)، و«محلل أمني باكستاني» على شاشة تلفزيون كندي، ارتكز على وقوف الإسلاميين وراء الاغتيال. كانوا مجانين طالبان مجددًا، وعنكبوت تنظيم القاعدة الذي ضرب هذه المرأة الوحيدة والشجاعة التي تجرّأت على المطالبة بالديموقراطية في بلادها.

سادت لحظة مضحكة جدًّا، عندما طالب كل من بوش والناطق الرسمي باسمه بـ«جلب المذنبين أمام العدالة». دعوني أكرر ذلك: «جلبهم أمام العدالة». سيداتي وسادتي، إننا نتحدث عن أمّة يسودها الفساد إلى حدٍّ أنها انتفت فيها العدالة لعصور، وحيث تولى الجنرال مشرّف في الواقع، وهو صديق جورج دبليو بوش، طرد رئيس المحكمة العليا، ووضع حدًّا فعليًّا لأي نظام محكمة حرّ في باكستان. قد يتوافر الكثير من أوجه «العدالة» في غرف التعذيب تحت الأرض في مقارّ الشرطة الباكستانية، لكننا لن نرى أيًّا منها علنًا.

وبكل تأكيد، ونظرًا إلى التغطية الصبيانيّة لهذه المأساة المروّعة، بغض النظر عن اشتهار السيدة بالفساد، دعونا لا نتوهم أن هذه المرأة الشجاعة هي في الحقيقة شهيدة، إذ من غير المفاجئ أن القرد الذي ينادي بـ «الخير في

مقابل الشر» يمكن استهلاكه لشرح وقائع المذبحة في روالبندي. من كان ليتصوّر أثناء مشاهدة قناة «بي.بي.سي» أو «سي. أن. أن» الخميس، أنّ شقيقي الضحيّة، وهما مرتضى وشهناواز، خطفا طائرة باكستانية في العام ١٩٨١، وطارا بها نحو كابول، حيث طلب مرتضى الإفراج عن أسرى سياسيّين في باكستان؟ وقد قتل مسؤول عسكري على الطائرة التي كانت تقل أيضًا ركابًا أميركيين. ولهذا على الأرجح أُفرج عن الأسرى. لم يُشر إلى ذلك خلال تغطيتنا الإعلامية لجريمة قتل بوتو.

وقبل بضعة أيّام فقط، في أحد أكثر الأحداث أهمية خلال العام (لكن غير المعروفة على نحو تام)، تولى طارق علي نشر تشريح لامع للفساد الباكستاني (وذلك الخاص ببوتو) في «لندن ريفيو أوف بوكس»، إذ ألقى الضوء على بنازير بوتو، وقد حمل عنوان «ابنة الغرب». في الواقع، وضعت المقالة فوق مكتبي كي أصوّرها، بما أن الشخص المعنيّ اغتيل في روالبندي. وفي نهاية هذا التقرير المذهل، تحدث طارق في اسهاب حين عن الاغتيال اللاحق لمرتضى بوتو على يد مسؤولين في الشرطة بالقرب من منزله حين كانت تشغل بنازير بوتو رئاسة الحكومة - إذ كانت تكنّ مشاعر الغضب لمرتضى لمطالبته بالعودة إلى قيم حزب الشعب الباكستاني، خصوصًا ادانته بنازير لتعيينها زوجها وزيرًا للصناعة، وهو منصب مربح جدًّا في الحكم.

وعلى رغم ذلك، وفي مقطع يمكن تطبيقه عقب جريمة قتل بنازير، يواصل التقرير كشفه: «أطلقت الرصاصة القاتلة من مسافة قريبة. ونصب الفخ في عناية، كما هي عليه العادة في باكستان، حيث أظهرت وحشية العملية في وضوح، عمليات الدخول الخاطئة إلى سجلات الشرطة، والأدلة الضائعة، والشهود الذين يتم توقيفهم وتعذيبهم... إضافة إلى قتل الشرطي الأشخاص الذين يخشون قول الحقيقة. إنّ قرار تصفية شقيق رئيسة الحكومة اتُخذ على مستوى رفيع جدًّا. عندما اتصلت فاطمة، وهي ابنة مرتضى البالغة من العمر أربعة عشر عامًا بعمتها

بنازير، لتسألها لمَ تم توقيف الشهود، بدلًا من توقيف قتلة والدها، قالت إن بنازير أخبرتها: «اسمعي، ما زلت فتاة يافعة. أنت لا تفهمين هذه الامور».

هل هذا ما جعلنا الكشف الخاص بطارق علي نعتقده. فعلى رغم ذلك، تلوح في الأفق الصلاحية المذهلة التي تتمتع بها المخابرات العسكرية الباكستانية. فهذه المؤسسة الكبيرة، الفاسدة والمرتشية والوحشية، تعمل لمصلحة مشرّف. مثلما عملت سابقًا، وما زالت تعمل، لمصلحة حركة طالبان. وهي تعمل أيضًا لمصلحة الأميركيين. في الواقع، تعمل هذه المؤسسة لمصلحة جميع الأطراف. لكنها تُعدّ المفتاح الذي يستطيع مشرّف استخدامه البدء بالمحادثات مع أعداء أميركا عندما يشعر أنه مهدّد، أو عندما يريد الضغط على أفغانستان، أو يريد استرضاء «المتطرفين» و«الإرهابيين» ليقهر بذلك جورج دبليو بوش. وفي المناسبة، دعونا نتذكر أن المراسل دانييل بورل الذي يعمل لدى «وول ستريت جورنال»، الذي قطع رأسه آسره الإسلامي في كراتشي، أجرى، في الواقع، لقاءه الدموي مع قاتليه المستقبليين في مكتب تابع لقائد في المخابرات العسكرية الباكستانية. إن الكتاب الرائع لأحمد رشيد تحت عنوان «طالبان»، يُعدُّ دليلًا ثابتًا إلى فساد المخابرات العسكرية الباكستانية وعنفها. اقرأوا الكتاب، عندئذٍ سيبدو لكم كل ما تقدم ذكره منطقيًا.

ولكن بالعودة إلى الرواية الرسمية، أعلن جورج بوش الخميس أنه «يتطلع قُدُمًا» إلى التحدث إلى صديقه القديم مشرّف. وهما بالطبع سيتحدثان عن بنازير. لن يتحدثا بكل تأكيد عن واقع أن مشرّف لا يزال يحمي أحد معارفه القدماء، وهو السيد خان، الذي زود الأسرار النووية الخاصة بباكستان جميعًا لكل من ليبيا وإيران. لا، دعونا لا نُدخِل «محور الشر» في هذا الأمر.

لذلك، فقد سئلنا بالطبع التركيز مجددًا على جميع هؤلاء «المتطرفين» و«الإرهابيين»، عوضًا عن منطق الاستجواب الذي كان يشعرْ عدد كبير من الباكستانيين عقب اغتيال بنازير. في كل الأحوال، فإن ذلك الأمر لن يستغرق

طويلًا لفهم أن الانتخابات المكروهة التي تلوح في الأفق بالنسبة إلى مشرّف، قد تُرجأ على الأرجح إلى أجل غير مسمّى في حال تعرض معارضه السياسي الرئيس للتصفية قبل يوم الاقتراع(*).

دعونا نمرَّ عبر هذا المنطق، تمامًا كما أمكن المحقق إيان بلير القيام به في سجلات الشرطة، وذلك قبل أن يصبح من كبار قادة الشرطة في لندن. السؤال: مَن أجبر بنازير بوتو على البقاء في لندن، ومحاولة الحؤول دون عودتها إلى باكستان؟ الجواب: الجنرال مشرّف. السؤال: مَن أمر بتوقيف آلاف المناصرين التابعين لبنازير خلال هذا الشهر؟ الجواب: الجنرال مشرّف. السؤال: من وضع بنازير تحت الإقامة الجبرية الموقتة في منزلها هذا الشهر؟ الجواب: الجنرال مشرّف. السؤال: من أعلن حال الطوارئ هذا الشهر؟ الجواب: الجنرال مشرّف. السؤال: من قتل بنازير بوتو؟ أ... نعم، حسنًا، تمامًا.

أترون المشكلة؟ أمس، أخبرنا محاربونا على التلفزيون، أن أعضاء حزب الشعب الباكستاني الذين كانوا يصرخون أن مشرّف «قاتل»، كانوا يتذمرون من أنه لم يؤمّن الحماية الكافية لبنازير، وهذا أمر خاطئ. كانوا يهتفون ضده لأنهم يظنون أنه هو مَن قتلها.

«ذي إندبندنت»، **٢٩** كانون الأول/ ديسمبر **٢٠٠٧**

(*) أرجأ مشرّف الانتخابات حتى شباط/ فبراير ٢٠٠٨. وقد فقد مناصروه أغلبيتهم في البرلمان. أما حزب الشعب الباكستاني التابع لبنازير بوتو، الذي يتولى ابنها الشاب قيادته ظاهريًا، ولكن يمسك أرملها آصف زرداري، بإدارته فعلًا، فقاد محادثاته التحالفية مع الرابطة الإسلامية الباكستانية التي حققت نجاحًا مفاجئًا بقيادة نواز الشريف، من أجل تشكيل الحكومة. لكن مشرّف أصرّ على بقائه في سدّة الرئاسة، حيث يتلقى الدعم الأميركي والبريطاني على السواء في شكل مؤكد.

قضية جانير ويلز الغريبة

تبدو الحروب جميعًا كألغاز، تمامًا كما هي الطرق المؤدية إلى قلب الإنسان. حتى أنّ «إيه.جي.بي» تايلور عجز عن شرح أسباب الحرب العالمية الأولى في كتابه الذي حمل العنوان نفسه. كذلك، لم يستطع والدي، على رغم أنه شارك فيها. ولكن يبرز لغز يشهد تطورًا في شأن الرجل الذي كان يفترض ببيل فيسك، وهو الملازم الثاني في سرية ليفربول الملكية، تصفيته شرطيًّا بريطانيًّا في باريس. وقد تعرّف إليه بيل تحت اسم فرانك ويلز. لقد شاهدت توقيع ويلز في أسفل صفحة الاستئناف الأخير المقدّم إلى المحكمة العسكرية، التي أصدرت عليه حكم الموت. لم يأت ذلك بمنفعة. فقد أطلق النار على ويلز في لوهافر في أيار/مايو ١٩١٩، لكن ليس على يد والدي، الذي من خلال أنبل تصرف قام به في حياته، رفض إصدار الامر بإطلاق النار، ولعلّه على الأرجح قضى على مسيرته العسكرية الخاصة. يرقد الآن فرانك أوسوالد ويلز في مقبرة القديسة ماري (المقبرة: القسم ٦٤/ في.آي/ أف/ ٥)، التي تقع بالقرب من مكان إعدامه فجرًا. إلا أن الرجل المدفون في ذلك المكان قد لا يكون فرانك ويلز على الإطلاق. في الواقع، قد لا يكون من وجود لأيّ فرانك ويلز.

عليّ أن أشكر هنا العمل الدؤوب لمنتدى الحرب العالمية الأولى، والباحثين العسكريين بوب دونلي وبيبّو سابوني وساندرا وتيم، وعدد آخر من موجّهي الرسائل الالكترونية، ويبدو أن معظمهم من الجنسية الأسترالية (وقد أرسلت إلي نسخهم المطبوعة عبر جيرارد هوليغ، بما أنني ما زلت مجرّد «لوديت» لا أستخدم البريد الالكتروني). قد يكون جواسيس الحرب الأولى هم الذين أرسلوا إلي استنتاجاتهم الخاصة بهذه الرواية. سأبدأ بنسختي الخاصة التي

تتضمن كلمات أخيرة لويلز تقدّم بها، ولكن من دون جدوى، إلى المحكمة التي أمرت بإعدامه، في محاولة منه لإنقاذ حياته:

«إني أبلغ من العمر ٢٠ عامًا. التحقت بالجيش الأسترالي في العام ١٩١٥، وكان عمري آنذاك ١٦ ربيعًا. توجهت إلى مصر والدردنيل. وأُوكل إلى عدد كبير من المهام في تلك المناطق، وفي فرنسا. وانضممت إلى الجيش البريطاني في نيسان/أبريل من العام ١٩١٨، ثم جئت إلى فرنسا في حزيران/يونيو ١٩١٨. سُرِّحت من الجيش الأسترالي بسبب الحمَّى التي أثرت في رأسي بعدما ساءت حالي في مصر. وقد أقنعني أصدقائي بمغادرة وحدتي. وهكذا بدأت معاشرة رفاق السوء. بدأت أتناول الكحول وألعب الميسر في شكل كبير. لم تكن لديّ أي نيّة بارتكاب أي جريمة كالتي أُحاكَم الآن بسببها أمام المحكمة... إنني ألتمس من المحكمة أن تأخذ في الاعتبار صغر سنّي، وأن تمنحني فرصة أن أعيش حياة مستقيمة ونزيهة في المستقبل».

يمكن العثور على الاستئناف المقدّم من ويلز، الذي رفضته المحكمة، في مكتب السجلات العامة (أو «المحفوظات الوطنية»، كما تشير إليها الآن بيليرت) في كوو. ويبدو توقيعه في أسفل الطلب، مكتوبًا بخط مرتجف قليلًا.

في ما يلي الفقرة الاولى من الصفحة الرقم ١٨ المقدّمة من هوليغ إليّ:

«غادر الجندي ١٧٠٥ ريتشارد ميلور أستراليا (في العام ١٩١٥) كتعزيز سريّة الخيالة الخفيفة الأولى. وأشارت والدته إلى أنه التحق تحت اسم أخيه وزوّر عمره. وبعد أقلّ من مدة خدمة أمضاها كل من مصر وفرنسا، فرّ من العسكريّة في أيار/مايو ١٩١٨ ولم يُقبض عليه قطّ. وفي ١٩٣٩، كانت والدته إليزابيث لا تزال توجه الرسائل إلى وزارة الدفاع (الأسترالية) طلبًا للمعلومات عن مصيره».

في ما يأتي الصفحة **٢١٣** لميلور من سجل الخدمة الموجودة في المحفوظات الوطنيّة الأسترالية.

أما الآن فاستعدوا للمفاجأة.

«في أيار/مايو **١٩١٩**، كان جانير فرانك أوو. ويلز ورقمه **٢٥٣٦١٧**، من سرية مدفعية الميدان الملكية، ينتظر تنفيذ إعدامه لإقدامه على إطلاق النار على شرطيّ عسكري أثناء القبض عليه جراء هربه من العسكرية. وقد طلب التحدث إلى ضابط أسترالي قبل إعدامه. زار الرائد بورفورد سامسون، وهو الضابط الآمر في قوات المشاة الأسترالية في باريس، ويلز في زنزانته. وآنذاك، أخبره ويلز أن اسمه الحقيقي هو ريتشارد ميلور، وأنه فار أسترالي من العسكرية. قُبض عليه خلال مسح للفارين من الخدمة، ثم التحق بالجيش البريطاني تحت اسم ويلز. وكشف لسامسون عن ماضيه في إيجاز، وطلب منه أن يكتب رسالة إلى والدته ويخبرها بما حدث له... نفذت حكم الإعدام في **٢٧** أيار/مايو فيه فرقة إطلاق النار ودفنت جثته في مقبرة القديسة ماري، في لو هافر».

وعلى برغم أن الملف الخاص بميلور يتضمّن تصريح سامسون، الذي يتطابق كليًّا مع سجل خدمة ريتشارد ميلور، خصوصًا قوات الحملة البريطانية التي أمرت بتسجيل إعدام ويلز، لم يتم قط إطلاع السيدة ميلور رسميًّا على مصير ابنها. كذلك، لم يسجّل الجيش الأسترالي رسميًّا أن ميلور وويلز هما الشخص نفسه. في الواقع، لا يزال اسم ميلور مدوّنًا حتى الآن لدى الأستراليين، هاربًا من الخدمة العسكرية، مجهول الهوية في أيّ مكان. وفي العام **١٩٣٣**، صُنفت أجزاء من ملفه الرسميّ «سرية». وتشير صفحة واحدة منها، بتاريخ **٢٦** آب/أغسطس **١٩٢٠**، هل قبض على ميلور، وجاء ذلك بعد مرور عام واحد على إعدام ويلز/ميلور.

وعلى برغم ذلك، فإن الرواية التي كشفها ويلز لسامسون لا لبس فيها، لأنه كان في إمكانه تزويد الرائد الأسترالي تفاصيل عن ميلور ذات دقة بالغة،

مثل مكان في ولادته، وتفاصيل خاصة بوالدته، وعنوان منزله في ويغرام روود في منطقة فورست لودج في سيدني، وخصوصًا تواريخ التحاقه بالجنديّة. كذلك بدا واضحًا أنه تمامًا في سنّ ميلور الذي أعلن التحاقه رسميًّا في العام ١٩١٥، عندما كان يبلغ واحدًا وعشرين عامًا، وعلى رغم أن إليزابيث تقول إنه كان يستخدم اسم أخيه ريتشارد، وكان يبلغ فعلًا آنذاك ستة عشر ربيعًا فقط. وفي حال كان ذلك صحيحًا، فإن ريتشارد ميلور هو الأخ الأصغر، واسمه ساموبل ميلور.

ولكن، لمَ أعاد ميلور ابتكار نفسه، من خلال التوصل إلى الاستنتاجات الواضحة للتصريح الذي أدلى به ويلز لسامسون؟ هل التحق بالجيش البريطاني في العام ١٩١٨ ليتجنّب دخول السجن الأسترالي بسبب هربه من العسكريّة؟ لمَ لم يكشف عن هويته الحقيقية أمام المحكمة العسكرية؟ ولمَ لم تُطلع السيدة ميلور المسكينة على إعدام ابنها؟ ويذكر سامسون الحديث الذي أجراه ويلز في زنزانته، في يومياته التي تولى ابنه نشرها سرًّا في وقت لاحق. أما ساندرا فتتساءل، في إحدى رسائلها الالكترونية، هل تزوّج موريل بفتاة إنكليزية، وأجبر بذلك على الالتحاق بالجيش البريطاني. هل اعترف ويلز، ظنًّا منه أن ذلك قد يحول دون إعدامه؟

بدأت السيدة ميلور استفساراتها عن مصير ابنها في العام ١٩٢٠. وفي العام ١٩٣٩، أخبرت السلطات الأسترالية أنها أصبحت متقدمة في السن، وأرادت معرفة ما حدث لابنها قبل أن تموت. وجاءت مناشداتها اليائسة طلبًا للمعلومات عن ابنها إثباتًا على القساوة الرسمية. أما اليوم، فقد أشار أحد المحققين في منتدى الحرب العالمية الأولى في شكل دقيق، إلى «إن اليأس الذي أبدته والدته يستحق الحصول على جواب».

المصير الحقيقي لفرانك ويلز، هذا في حال كان موجودًا، يبقى لغزًا. إني أشك في أن يقوم بيل فيسك من قبره (لو كان لديه واحد، فقد أُحرقت جثته)

لطلب تفسير من السلطات عن كل هذا التعتيم. لكن واأسفاه، أصبحت السلطات، تمامًا مثل فرانك ويلز وريتشارد ميلور، أو على الأرجح ساموئيل ميلور وبيل فيسك شخصيًّا، أصبحت كلّها اليوم في عداد الموتى. هل ينبغي للجنة مقابر الحرب التابعة للكومنولث التفكير في تغيير الاسم المحفور على المقبرة الرقم ٦٤/في.آي/أف/٥ في لوهافر؟ وتبرز في النهاية إشارة دالة مثيرة للاهتمام: يرد الآن اسم سيدة من عائلة ميلور في دليل سيدني الهاتفي، وهي تسكن في منطقة لا تبعد كثيرًا عن ويغرام روود، فورست لودج. لو كان بيل على قيد الحياة، لكان رغب في أن يقرع جرس بابها.

«ذي إندبندنت»، ٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٧

الفصل الثالث عشر

العدو الأخير

عندما نكون في سن الشباب، يبدو لنا الموت أمرًا مستحيلًا. وحين ناقشت الموضوع المحظور مع والدتي، وكنت أبلغ آنذاك الثانية عشرة من عمري، من عمري قالت لي، وهي المتفائلة المستحيلة أبدًا، «إنهم» قد يتوصلون إلى علاج لهذه المسألة عندما أصبح كبيرًا. وتقصد بـ «هم»، القوم المختصين بالسيطرة على حياتنا، بدءًا بالعلماء، وصولًا إلى منتجي قناة «بي.بي.سي.». بعض الأمل في الأفق. واأسفاه، إذ يبدو الموت أمرًا محتمًا منذ الولادة. وكلما تقدّمنا في السن، على ما أظن، يصبح خوفنا منه أخفّ بفعل السحر. ريتشارد هيلاري، الطيّار المقاتل التابع للقوات الجويّة الملكية، الذي تعد على الأرجح، مذكراته عن المعركة البريطانيّة، العمل الأدبي الأكثر مبيعًا في المرحلة الأولى من الحرب العالمية الثانية، أصدر كتابه تحت عنوان «العدو الأخير»، المستوحى من الرسالة إلى أهل كورنتوس ١٥: ٣٣: «إن العدو الاخير الذي ينبغي القضاء عليه هو الموت».

لست متأكدًا من أنني أؤمن بذلك. أظن أن العدو الأخير هو الخوف على الأرجح، على رغم أنني لست متأكدًا كيف يمكننا القضاء عليه. أتذكر أنني كنت أقود سيارتي في العام ١٩٧٨، وأنا أعبر بلدة الدامور جنوب بيروت، التي كان

يسيطر عليها الفلسطينيون، خلال غارة جويّة إسرائيلية شرسة. وكانت مظاريف القذائف المضادة للطائرات الفارغة تتهاوى فوق سقف سيارتي في وقت تنفجر المنازل على جانبَي الطريق. وأتذكر أنني كنت أفكر في أن «الأمر الأسوأ الذي يمكن أن يحدث لي، هو أن أتعرض للقتل». فكرت مليًّا في الأمر في هدوء. كانت تلك الطريقة الوحيدة للتغلب على الخوف، على رغم أنّه طريقة خطيرة بما أن لا يمكن الصحافيين البقاء على قيد الحياة أثناء الحروب، إلا أذا أقنعوا أنفسهم بأنهم هنا للتبليغ عن الصراع، وليس للموت في خضمّه.

أفترض أنني اختبرت الآن كثيرًا من حالات الموت، بالتأكيد جرّاء العنف لا من خلال صيغة رجال الشرطة المذهلة و«الأسباب الطبيعية»، إلى حد أنني كبرت وأنا أذعن للوجود، بل حتى بطريقة غير مبالية. لكن مأساة الموت، لا يمكن تفاديها. ويتضمن هذا الفصل مثالًا مأسويًا خصوصًا عن شاب أتى إلى لبنان ليعمل صحافيًّا، إلا أنه توفي جراء حادث سيارة بعدما عاد إلى وطنه ألمانيا. الأوقات غير المتوقعة لحالات الموت، إلا بالنسبة إلى سجين مُدان، أو حال مرض مستعصية، تشكل جزءًا من حال الرعب التي تصيب البشرية كافة. لطالما كانت الصحافة الشعبية البريطانية مهووسة بالحياة ما بعد الموت، بعكسي أنا. بطبعي، عادة، لا أخشى الموت. ولكن منذ بضع سنوات خلت، عندما كنت أنتقل عبر مرتفعات جبل صنين المغطاة بالثلوج في لبنان، كنت أناقش مسألة ما بعد الحياة مع سائقي عبد، ومترجمي البارع إلى اللغة العربية عماد، أولهما مسلم سنيّ والآخر شيعيّ. إنها المواضيع التي نناقشها بعد مرور اثنين وثلاثين عامًا على عملي في لبنان. قال لي عبد في حزن «كل ما نعلمه هو أننا نرحل، أما العالم فيستمرّ من دوننا». اعترضت على ما قاله. فجمال الثلوج التي تغطي الجبل من حولنا، وأغصان الأشجار المغطاة بالجليد والمجرّدة من أوراقها، وخصوصًا السماء باللون الأزرق الشاحب، من المؤكد أن ذلك كله لم ينشأ بسبب اصطدام غيمتين اثنتين قبل بلايين السنين. لا بد من وجود «أمر آخر». عندئذٍ أدركت أن الأمر يتعدّى تمامًا إيمان فيسك الكبير، وأخذ عبد

وعماد يضحكان علي بألطف الطرق، وإن لم تخلُ من الفكاهة السوداء. **فقد** أرادا العيش في الحاضر، وليس بعد الموت. لهذا السبب، أفترض أن الشجاعة العظمى التي ينبغي لنا إظهارها، تبرز في آخر أيام حياتنا.

في الكولوسيوم حيث تحولت الأفكار موتًا

منتصف يوم الخميس، تمدّدت على ظهري داخل الكولوسيوم، ونظرت إلى موكب نجوم فوق سماء روما، حيث التهمت الأسود المصارعين، وعلى بعد بضعة أمتار من الصليب الذي يحدّد الموقع المفترض لصلب القديس بولس(*)، وقد أصبحت عبارة «الاستشهادي» كلمة صعبة في عصر الانتحاريين، لم أفكر إلا كيف تحوّل هذا المركز الوحشي واحدًا من أهم الاماكن المستقطبة للسياحة في وقتنا هذا. وقد طلبت مني إحدى قنوات التلفزيون الإيطالية، التحدث عن عقوبة الإعدام في الشرق الأوسط لمناسبة مجموعة من أحكام الإعدام الاميركية والسجناء المحكوم عليهم بالإعدام. وقد تم دمج مولدين اثنين في محاولة لإغراق الساحة القديمة بالنور. لذلك، فقد حان وقت التفكير.

قد يرغب القراء الذين يمتلكون المال الكافي، في معرفة أن كلفة استئجار الكولوسيوم أربعًا وعشرين ساعة بلغت ٧٥ ألف جنيه استرليني. وبالتالي، فقد دُفع مبلغ قيمته ١٠,٥٠٠ جنيه استرليني في مقابل أمسيتنا القصيرة تحت النجوم. ولكن من أمكنه عدم التفكير في عقوبة الإعدام في الكولوسيوم؟ وأثناء مشاهدة الحلقة الأولى من السلسلة التلفزيونية الإيطالية، التي أعادت سرد الزيارات التي قام بها رجل وامرأة من الجنسية الإيطالية لأميركيين اثنين أمضيا سنوات عدة وقد حكِم عليهما بالإعدام في تكساس، صُعقت لرؤية كيف في شكل واضح، أُصلح وضع هذين السجينين، اللذين قد يتذكران أو لا يتذكران، وهما تحت تأثير المخدرات، هل ارتكبا جريمة قتل أم لم يفعلا. وقد أعرب كلاهما عن أسفه لارتكابه جرائم القتل، وأمل في أن يتمكنا في يوم ما من معاودة عيش

(*) في الواقع، صُلب القديس بولس في مكان يبعد عن الكولوسيوم أكثر من ميل.

حياتهما في شكل صالح، والاهتمام بأولادهما، والذهاب إلى التسوق، وأخذ الكلب في نزهة. وبعبارات أخرى، لم يعودا بعد الآن المجرمين، كما كانا عليه سابقًا عندما دينا.

ونظرًا إلى حالهما، أظن أن أيًّا كان سيعفو عنهما. لكنني أشك في أن يكون الذنب أو البراءة هو كل ما تشكله عقوبة الإعدام، إذ تُعدّ هذه الأخيرة بالنسبة إلى مَن يؤمنون بها مجرّد شغف. إنني أميل إلى الاعتقاد أنّها أقرب إلى الإدمان، وهو أمر تمامًا كالتدخين أو شرب الكحول، لا يمكن التخلص منه إلا من خلال الامتناع الكلي عنه. لا وجود لأي مبرّر لعمليّات الإعدام السرية اليابانيّة، أو الحقن القاتلة في تكساس، أو قطع الرأس خارج مساجد المملكة العربية السعودية. ولكن، كيف أمكنكم بلوغ هذه المرحلة عندما تكون الإنسانية مهووسة إلى حد كبير بالموت بهذه الطريقة البربريّة.

كلما شنق الإيرانيون مروّجي المخدرات أو المغتصبين، وما أدرانا هل هم مذنبون أم أبرياء، تكون الأكفان والتوابيت التي ترفع هؤلاء البائسين نحو السماء كأنهم دجاجات ميتة، محاطة دائمًا بالرجال والنساء، وكثيرًا ما يهتفون عبارة «الله أكبر». وقد قاموا بذلك حتى عندما تم شُنقت امرأة. وبالتأكيد، يتوافر بين هؤلاء الناس من هو ضدّ هذا العقاب المريع. ولكن على ما يبدو، لا بد من وجود أمر أوليّ في رغبتنا في القتل القضائي. وقد كتب مرّة جورج برنارد شو، أنه لو أُلقيَ المسيحيون طعامًا للأسود في روبرت ألبرت هول، لكان وُجد آنذاك منزل مكتظ كل ليلة. إنني على يقين بأنه كان محقًّا. ألم يكتظ آلاف هؤلاء الرومان في هذا الكولوسيوم المشؤوم نفسه، حيث أتمدد أنا، من أجل مشاهدة المذابح المماثلة؟ ألم يكن إعدام صدام حسين جزءًا من محاولتنا الخاصة إلهاء العراقيين بالخبز والسيرك؟ أولم يكن منفذو عملية الإعدام الصارخون الذين صوروا على طريقة الفيديو عبر الهاتف الجوال، موازين للمصارعين الذين يُخضعون أعداءهم تحت حد السيف؟ ودعونا نتذكر أن الإعدام ليس بدوره الحق المقتصر على الدول والرؤساء دون سواهم. وقد مارس الجيش الجمهوري

الإيرلندي عقوبة الإعدام. كذلك مارست حركة طالبان الإعدام، وهكذا يفعل تنظيم القاعدة، ويؤمن أسامة بن لادن، وقد سمعت ذلك منه شخصيًّا، بالإعدام «الإسلامي» المتمثل في قطع الرأس.

أتذكر الحشود التي قتلت ثلاثة فلسطينيين تعاونوا مع الدولة العبرية في العام ٢٠٠١، وقد شوهدت أجسادهم المعرّاة تتأرجح على الأعمدة الكهربائية في وقت لاحق، بينما كان الأطفال الصغار يرشقون الحجارة على جذوعهم، ويحتفل الآلاف عندما رميت جثثهم داخل شاحنات القمامة بضحكة مزمجرة. كنت مدهوشًا جدًّا، إلى حدّ أنني عجزت عن تدوين ذلك في مفكرتي، ورسمت عوضًا عن ذلك صورًا عن هذا المجون. لا تزال هذه الصور محفوظة اليوم في صفحات مفكرتي وهم معلقون رأسًا على عقب، تمامًا كالقديس بولس، إذ رفعت أقدامهم في شكل منحرف فوق رؤوسهم، وشُوِّهت أجسادهم بأعقاب السجائر.

إن الخصمين البارزين لـ«الحرب على الإرهاب»، التي يفترض أننا نحاربها جميعًا، وهما السيدان بوش وبن لادن، لا ينفكان يتحدثان عن الموت والتضحية. على رغم ذلك، أظهر بن لادن، في أحدث شريط فيديو له، إيمانًا مؤثرًا بالديموقراطية الأميركية عندما ادعى أن الشعب الاميركي صوّت لمصلحة بوش في ولايته الرئاسيّة الأولى. بالنسبة إلى بن لادن، جاءت اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر ٢٠٠١ «عقابًا» على سفك الولايات المتحدة الأميركية الدماء في العالم الإسلامي. في الواقع، تتحوّل المزيد من الاعتداءات التي يقوم بها كل من المقاتلين والجنود التقليديين على حد سواء، عمليات انتقامية. ألم يكن الحصار الأول الذي استهدف الفلوجة انتقامًا لقتل المرتزقة الأميركيين؟ ألم يكن أبو غريب جزءًا من «انتقامنا» على هجمات ١١ أيلول/سبتمبر، وخصوصًا إخفاقنا في العراق؟ ويأتي، خصوصًا، كبير من العمليات الانتحارية المرتكبة في الشرق الأوسط، في كل من فلسطين وأفغانستان والعراق، بعد سقوط «الشهداء»

في عمليات سابقة. وقد أعلن صراحة تنظيم القاعدة في العراق أنه «قتل» الجنود الأميركيين المتورطين في اغتصاب جندي أميركي فتاة عراقية وقتلها.

وعلى رغم ذلك، أخشى أن المشكلة الحقيقية تتجاوز عملية القتل الفردي، سواء أكان قضائيًّا أم خلافه. وبطريقة مخيفة، إننا نؤمن بالموت العنيف. فنحن ننظر إلى الامر على أنه خيار سياسي يرتبط بالحماية الذاتية على نطاق وطنيّ كعقاب للخاطئين المحدّدين والفرديين. إننا نؤمن بالحرب. ما الذي تمثله العدوانيّة - على سبيل المثال غزو العراق في العام ٢٠٠٣ - باستثناء عقوبة الإعدام على نطاق جماعي؟ نبدو نحن «الدول المتحضرة»، تمامًا كالجيوش الذهبية التي نظن اننا نحاربها، مقتنعين بأنّ عقاب الموت، على نطاق رهيب، يمكن تبريره أخلاقيًّا.

وأخشى أن تكون هذه هي المشكلة. عندما نذهب إلى الحرب، نضع أغطية ونشدّ رافعة الجلاّد. وما دمنا نرسل جيوشنا إلى الهياج، أيًّا يكن المبرّر، سنواصل شنق «مجرمينا» وقاتلينا وإطلاق النار عليهم وقطع رؤوسهم، بالحماسة نفسها كما كان الرومان يبتهجون بالرجال المضرّجين بالدماء في الكولوسيوم قبل ألفي عام.

«ذي إندبندنت»، ١٥ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٧

أبطال موتى وذكريات حيّة

دعونا الآن نكرّم رجالنا المشهورين. إني أتحدث بالتأكيد عن تنوع الأموات، لأن شعورًا يخالجني أننا نحدِّد آدميين من خلال الطريقة التي نكرم بها أمواتنا، كما نعامل الأحياء على السواء. وقد تعود والدي، بيل فيسك، على إجباري على التنزه حول ممرّات كنيسة جميع القديسين في ميدستون لمشاهدة الكتابات التي تشير إلى لائحة شرف المعركة التي يأكلها العثّ، والتابعة لفوج وست كانت الملكي فوق رؤوسنا. إني أفضل الطريقة التي نقوم بها، نحن البريطانيين، مصادفة. يرقد تشرشل تحت حجرة بسيطة في بلادون في أكسفوردشاير. يتجمّع شعراؤنا معًا في كنيسة وستمنستر. وترقد بقايا جثمان إسحق نيوتن تحت صحن الكنيسة، وقد كتب باللاتينيّة على قبره «يبتهج الإنسان الفاني لوجود زخارف عظيمة من الجنس البشري». وعلى بعد ثلاثة أميال من المكان، يلتمس آيرون ديوك الجنة بمفرده داخل تابوته الحديد باللون الأسود في كنيسة القديس بولس. أما الكتابة التأبينيّة المفضلة لديّ، فما زالت تلك الخاصة بالعميد سويفت، وقد كتبها بنفسه باللغة اللاتينية أيضًا، في كاثدرائية القديس باتريك في دبلن، وترجمتها التي أدين بها للقارئ ستيفن ويليامز، تقول:

هنا يرقد جثمان

جوناثان سويفت

عميد هذه الكنيسة الكاتدرائية

حيث لن تمزق المهانة الوحشية

فؤاده

بعد الآن

امض أيها المسافر

وحاكِ إن استطعت

انتصارًا أضناه

لحرية الإنسان»،

وقد أُصبت بالدهشة أخيرًا وأنا أتجوّل في البانتيون في باريس بالطابع التطابقي الأبيض اللون الرتيب للبيت الكاثوليكي الفرنسي، شبه الثوري الخاص بالموتى. وقد كتب على طول الإفريز «إلى الرجال العظماء، من الأمة الشاكرة لهم». وكثيرًا ما يترجم الفرنسيون عبارة الأمة بـ«الوطن»، التي أجدها، بالنسبة إلى كل الأسباب المعتادة، مزعجة. في الواقع، منذ أن مزجت عبارة «الأمة» بعبارتي «العائلة» و«العمل»، خلال الاحتلال، بدلًا من عبارات الحريّة والمساواة والأخوّة، تفاجأت لأن كلمة الأمة حافظت على وحدتها. إلا أن نظري وقع على أمور غريبة داخل البانتيون. صدقًا، فقد وضع الزوجان المتناحران فولتير وروسّو، كل قبالة الآخر، داخل نعشيهما الأصليين. وصل فولتير إلى لندن في الموعد للمشاركة في تشييع نيوتن الذي شبّهه بديكارت. وكتب «في باريس، تمكنكم رؤية الأرض على شكل بطيخة، أما في لندن فتبدو مسطحة على الجانبين. بالنسبة إلى أتباع ديكارت، فإن الضوء موجودٌ في الهواء. أما بالنسبة إلى أتباع نيوتن، فهو ينبع من الشمس خلال ست دقائق ونصف الدقيقة».

ولكن، لا وجود لأي ضوء طبيعي في سرداب البانتيون، نظرًا إلى وجود التطابقية - يا إلهي. وقد خُتم جميع هؤلاء الرجال العظماء، إضافة إلى بضع نساء، داخل تابوت حجر مشابه. يبدو قبر ألكسندر دوما مماثلاً لبطل المقاومة جان مولان. وكذلك الامر بالنسبة إلى قبور كل من بيار وماري كوري وإميل وزولا وأندريه مالرو وفيكتور هوغو وجان جوريس (وهو أحد أبطالي إضافة إلى مولان)، وجان مونيه. يبدو أن المساواة تظهر المعنى المخصص لها. وتمامًا

كأموات فردان، لا يُسمح لنخبة فرنسا بالحصول على خدمات وأزهار وقصائد ومسامحات خاصة إضافية. لا ترون إلا تلك القبور الطويلة والبيضاء اللون التي تذكّرني بحجرات النوم حيث تعرّض طاقم المركبة الفضائية في العام ٢٠٠١، سبايس أوديسيه، للقتل على يد هال الكومبيوتر. وقد أشار الكومبيوتر إلى «أن وظائف الحياة في حال حرجة»، نظرًا إلى تعرضهم للقتل على يد هال، ثم أشار لاحقًا إلى «أن وظائف الحياة انتهت». وفي البانتيون، أنهيت كذلك وظائف حيواتهم، في معظمها، وفقًا لمشيئة الله، باستثناء جان مولان الذي قتل كلاوس باربي.

وبالتأكيد تأثرت حين اكتشفت كيف عامل لبنان الصغير - طفل فرنسا - موتاه المكرّمين، من الطائفتين المسلمة والمسيحية، الذين أعدمهم الأتراك شنقًا في العامين ١٩١٥ و١٩١٦، لأنهم طالبوا بالاستقلال عن الامبراطورية العثمانية. توجهوا نحو المشانق إلى ما يعرف اليوم بساحة الشهداء، التي تبعد أقل من ميل عن المكان حيث يقع منزلي، وهم يعلنون تحدّيهم الاحتلال التركي في وقت يباشر الجلاد مهمته. وقد رمى الأتراك جثامينهم في مقبرة مشتركة تقع على شاطئ بيروت. ولكن، عندما «حرّر» الفرنسيون بيروت في العام ١٩١٨، نبشت جثثهم. وبالتأكيد، يستحقون الحصول على إعادة دفن تكريمي. ولكن، تبيّن أن الكنيسة المسيحية لا تسمح بأن يرقد الشهداء المسلمون في مدافنها، كذلك لن يفكر رجال الدين المسلمون مليًّا في السماح بدفن الشهداء المسيحيين في مقابرهم. لذلك، سمح لهم متصوفة الدروز بأن يرقدوا في سلام في قطعة أرض يملكونها وسط بيروت.

وقد عثرت عليهم في ذلك المكان خلال الأسبوع المنصرم بالقرب من زحمة سير شعبيّة وهم مسجونون خلف بوابة حديد، وقبورهم مغطاة بأغصان الأشجار تحيط بها القرّاص ويصيح ديك صغير حولها. يرقد الاخوان محمصاني في مقبرة واحدة مصنوعة من الإسمنت بينما يرقد الآخرون، وعددهم تسعة عشر شهيدًا، في مقابر تحمل أسماءهم وتواريخ ميلادهم، بالكاد يمكن تحديدها.

عمر مصطفى حمد، وُلد في بيروت في العام ١٨٩٢، والأمير سعيد الشهابي، وُلد في حاصبيا عام ١٨٨٩... وتشير لوحة وُضعت بالقرب من بوابة صدئة إلى «مقبرة الشهداء اللبنانيين، وقد تم تجديدها برعاية رئيس الوزراء رفيق الحريري في ٦ آذار/مارس ١٩٩٤». ولكن، منذ تاريخ ١٤ شباط/فبراير من العام الماضي، أصبح الحريري الذي اغتيل، شهيدًا لبنانيًا بدوره. وعلى بعد حوالى ١٠ أمتار من المقبرة، يقع الموقع حيث قتل الرئيس رينيه معوّض جراء انفجار ضخم آخر في العام ١٩٨٩. في الواقع، إنه لغضب وحشي.

«ذي إندبندنت»، ٤ آذار/مارس ٢٠٠٦

السفينة التي ترقد منبسطة في قعر البحر

نحن، الصحافيين، مجرّد تلاميذ للحماقة البشرية. فلسطين والعراق والخليج وبلاد فارس. طوال أكثر من مئة عام، انضوى تدخلنا الغربي في منطقة الشرق الأوسط تحت شعار «الحماقة». وهذا ما يحدّده القاموس بأنه «التعهد الأحمق.... والمكلف الذي ينتهي بوقوع كارثة». كذلك أشك في أن يتضمن ذلك مزيجًا مضرًّا من الغرور والغطرسة.

وقبل بضعة أيّام، عندما كنت واقفًا على الصخور التي تتكسر عندها الأمواج فوق الميناء الصليبي اللبناني القديم في أنفه، أجل حيث أمضى ريتشارد الأول/ريتشارد قلب الأسد (الذي كان يتحدث الفرنسية لا الإنكليزية)، ليلته هربًا من العواصف، كان في إمكاني التفكير مليًّا في أنّ أكثر الحماقات جلالة وأكثرها سخافة، تخطر لنا دائمًا في البحر. ونظرًا إلى إلحاح القبطان سميث على التوجه بسفينة التايتانيك بسرعتها القصوى عبر المحيط الأطلسي الشمالي المتجمّد في العام ١٩١٢، لأنه أراد التأثير في نفوس الأميركيين في ما يتعلق بسرعتها، لذلك، قبل تسعة عشر عامًا، قرّر نائب الأميرال سير جورج ترايون للبارجة البريطانية «أتش.أم.أس» فكتوريا التي ترقد في مكان ليس ببعيد عن المكان الذي أقف عليه، أن يشرك الأسطول المتوسطي للبحرية الملكية في المناورات البحرية الأكثر سرعة وخطورة التي يعرفها الإنسان سعيًا منه إلى التأثير في الأتراك العثمانيين.

وانطلاقًا من أنفه اليوم، فإن الرياح تتكسّر في البحر. وقد لاحظت كيف تجعل حركة المد والجزر الغدّارة، البحر يرتفع وينخفض على شكل جبال صغيرة عند أسفل الشاطئ. كان الغواص اللبناني - النمسوي كريستيان فرنسيس لا يزال يبحر يوميًّا من فندق شبه مهجور، بحثًا عن الحطام الذي عثر عليه على

عمق ٤٨٠ قدمًا تحت سطح المياه. وتُعدُّ حماسته للتاريخ بمقدار ما هي للغوص، معدية، وقد تعهد في سعادة أن يطبع لي الأمر الوحيد الذي أحبه أكثر فأكثر في الصحافة: الأرشيف والصحف والسجلات الرسمية التي أصدرتها «مراكز السلطة» من أجل تبرير حماقتها، أو من أجل التهرّب من المسؤولية. وفي مثل هذه الحالة، فإن رواية الأسف الكاملة، كانت حاضرة في مرافعات المحكمة العسكرية التابعة للبحرية الملكية في العام ١٨٩٣ في «الاستفهام عن خسارة جلالتها بارجة فيكتوريا». يبدو أن ترايون كان عبارة عن سميث في الفيلم.

كان السلوك القاسي، وكانت صفتا «السكوت» و«الصعوبة» من أقل المميّزات التي وصفها به مرؤوسوه. واشتهر، تمامًا مثل سميث، بسمعته كبحّار بارع، بل كان في الحقيقة الكابوس لكلّ تلميذ. كان رجلًا مؤثرًا، أراد الطاعة بدلًا من المبادرة. لذلك، في ٢٢ حزيران/يونيو ١٨٩٣، حين كان العثمانيون يراقبون المشهد من مدينة طرابلس القديمة شرقًا، أمر ترايون سفن أسطوليه الاثنين المؤلفين من أحدى عشرة بارجة، بالالتفاف ١٦ عقدة والإبحار في سرعة في اتجاه بعضها بعضًا. لم يلفظ مرؤوسوه أيّ كلمة. وفي اللحظة الأخيرة، كان من المفترض أن تلتف السفن مجدّدًا لتبحر في موازاة بعضها بعضًا في الاتجاه المعاكس. لكن رجال ترايون كانوا خائفين جدًّا، إلى حد لم يقووا على الاستعلام عن هذا الجنون. أما الشخص الوحيد الذي تردد في ذلك، فكان نائبه، الأدميرال ألبرت ماركام على متن سفينة «اتش.أم.أس كمبرداون»؛ وقد تلقى رسالة قصيرة ونزقة من قائده مفادها: «ما الذي تنتظره؟». ومع حتميّة إيشلين وبقوة ١٤,٠٠٠ عقدة حصانية، ارتطمت بارجة فكتوريا التي تزن ١١ ألف طنّ، وهي واحدة من أولى المدرّعات البريطانيّة وخصوصًا البارجة البحرية الأولى التي يتم تزويدها توربينة بخارية، بسفينة كمبرداون التي تولّت تحطيم سفينة فكتوريا حتى عمق ١٢ قدمًا تحت الماء، الأمر الذي أدى إلى فتح ثقب كبير فيها وصل إلى عمق ٢٨ قدمًا.

تُعدُّ الكلمات الأخيرة المعلنة، السلاح الأمضى بالنسبة إلى الصحافي ضد الموت. وقد زوّدتنا البحريّة عددًا من الكلمات المأثورة لتتماشى والملاحظة المزعومة لسميث الموجّهة إلى مالك سفينة التايتانيك، بعد الاصطدام بالجبل الجليد: «حسنًا، ستتصدر الآن عناوين الصحف حضرة السيد إسماي». أما بالنسبة إلى قضية ترايون، الذي يحيط به ضباطه الصغار المرعوبون، ولكن الصامتون، في وقت تتجه كمبرداون نحوهم، فقد صرخ نائب الأدميرال: «توجهوا إلى مؤخر السفينة! توجهوا إلى مؤخر السفينة». وعند ذاك بينما ارتجفت سفينته العظيمة تحت تأثير الاصطدام، وبدأت بالانقلاب، قضي على العمال المسؤولين عن إشعال النار لتشغيل السفينة، وهم يحاولون من دون جدوى الاستمرار في توجيه فكتوريا نحو الشاطئ، وغرق الطاقم الذي يعمل على متن سفينته نتيجة تدحرج السفينة فوق رؤوسهم. ثم أعلن ترايون، ويمكنكم تخيّل إغاثة البحرية المشابهة لبلير، قائلًا «هذا كله بسببي». وقد حكم على نفسه إلى الأبد على أنه الرجل الذي أودى بسفينته الرئيسة إلى قعر البحر. أما العثمانيون الذين كانوا يشهدون العرض على الشاطى فتأثروا بالفعل. ونتيجة لذلك، قتل ٣٥٨ بحارًا بريطانيًا بمن في ذلك ترايون الذي حُمّل المسؤولية كاملة عن أعظم مأساة وقعت في زمن السلم في تاريخ البحرية الملكيّة.

إنّ العار الحاصل في أرض المعركة أو في الجوّ، تُخفف حدته بطريقة ما مع مرور الزمن. إذ يغطي العشب المقابر دائمًا، على حد قول الشاعر الأميركي كارل سانبورغ. تتطاير أجزاء الطائرات في الجوّ. أما في أعماق البحار، تمامًا كسفينة التايتانيك، فتظلّ حماقتنا مقدّسة وأبديّة. بالنسبة إلى الشاب كريستيان فرنسيس، الذي أثيرت حماسته نتيجة روايات صيادي الأسماك القديمين ومستندات البحرية التي قرأها في المتحف البحري الوطني في غرينيتش، فقد عثر على السفينة الرئيسيّة لترايون على عمق ٤٨٠ قدمًا، وهي سليمة، بل ما هو أكثر دهشة، منبسطة في شكل عموديّ، إذ تبدو أقواسها مدفونة على مسافة عميقة في أسفل البحر المتوسط، إضافة إلى مراوحها الضخمة المنبسطة نحو

الأعلى، تضيئها أشعة الشمس الخافتة في المتوسط. وقد عمل فرانسيس بالتعاون مع غواصين اثنين بريطانيّين وثلاثة بولنديين. وتولوا جميعهم إنتاج أفلامهم الخاصة بالهواة لتقديمها إليّ. وها هي مجموعة كبيرة من الأسماك تجتاح الأقواس. يمكنني أن أرى اسم فكتوريا على كوثل السفينة.

ها هي حجرة ترايون، وها هي بسطة الدرج الحديدي رأى منها سفينة كمبرداون تدنو منها. لا يزال المدفع الخلفي لفكتوريا البالغ ١٠ إنشات مكانه، ولا تزال مدافعها الجانبية، وعددها اثنا عشر، مثبّتة لصدّ الألمان، وهي لن تحارب يومًا في الحرب العالمية الأولى. وبالنسبة إلى فكتوريا، كم نحب التاريخ القائم على عبارة «لكان قد»، فمن المؤكد أنها كانت لتشارك في أهم معارك الصراع التابعة للبحرية الملكية. وفي شكل لا يقبل التصديق، فإن نائب ترايون لم يكن سوى جون جيليكو. ولعلّ فراره ذلك اليوم من لبنان جاء لمصلحة أسطول أعالي البحار الألماني عندما التقاهم جيليكو خارج جتلاند في العام ١٩١٦. ويتعامل فرنسيس مع الحطام على أنه مقبرة بحرية بريطانية، وهو ينظر من خلال نوافذ الحجرة فقط، يلاحظ وجود طبق فضيّ بين إحداها، لكنه يفترض استمرار وجود العظام، بما في ذلك هيكل ترايون العظمي في الجزء المدفون من فكتوريا. مسكين ترايون. تنتصب سفينته الرئيسّة كأنها شاهدة قبر وهي ومؤخرها منتصب تشكل الحطام الوحيد في العالم الذي يقف منبسطًا، أنفها في الطين ومؤخرها منتصب نحو الاعلى إلى الأبد. ولكن، هل استخلصنا العِبَر من ذلك؟

هل قمنا بذلك في الواقع؟ كنت أتحدث إلى البولنديين الذين مارسوا الغطس نحو العمق، في اتجاه فكتوريا لمدة ساعة قبل أن أدرك أنهم الرجال أنفسهم الذين تجوّلوا بين حطام البلطيق لإحدى أهم المآسي البحرية العالمية: غويا وويلهالم غوستلوف وجنرال فون شتوبين. وقد غرق حوالى ١٨,٠٠٠ ألف ألماني على متن تلك السفن ومعظمهم من المدنيين، بالمقارنة مع عدد ركاب التايتانيك وعددهم ١,٥٠٠ راكب، في فصل الشتاء الجليدي من العام ١٩٤٥

بينما كان يحاول النازيون إخلاء شعبهم من دانتزيغ قبل التقدم السوفياتي نحو ألمانيا. لكن الروس غرقوا جميعًا. وقد تناول أحد البولنديين جهاز حاسوبه المحمول، وها إني أرى أمامي عظامًا وجماجم حقيقية، وخوذة وحزامًا ألمانيين، إضافة إلى بقايا قميص. وأخبرني الغواص البولندي قائلًا: «أرادت السلطات البولندية فحص جمجمة، وقد أعدناها إلى اليابسة. حُدِّد أنها تعود إلى امرأة في العقد الثالث من عمرها».

عدنا مجددًا إلى الغطرسة. كانت الخوذة دليلًا إلى أنّ الألمان كانوا أيضًا على متن تلك السفن، إلاّ أن معظمهم كان من المدنيين. وما زال الروس يمجدون الغوّاصين الذين قتلوا عددًا كبيرًا من المدنيين في البحر بين ٣٠ كانون الثاني/يناير و١٦ نيسان/أبريل ١٩٤٥. إن ذلك يضع الأدميرال ترايون في الظل. ويمكن «سوء التقدير الأحمق... والمكلف الذي ينتهي بوقوع كارثة»، تحديد الممارسة البشرية للحرب، على حد سواء. ويعجز البحر عن إخفاء أسراره بعد الآن. فقد أودعت حماقتنا في ذلك المكان... إذا أردنا أن نتأكد ماذا يُقصد بذلك.

«ذي إندبندنت»، ١٩ شباط/فبراير ٢٠٠٥

«شكرًا بروس»

أصابتني دهشة وأنا أتجوّل عبر مقبرة التايتانيك. بالتأكيد، نعلم جميعًا أن سفينة الكابلات الكندية أخرجت عشرات الجثث من المحيط الأطلسي. لكن السير بين الرؤوس الحجرية للمقابر في هاليفاكس، ونوفا سكوتيا، تجربة مؤثرة، وإن كانت «رُمِّمت» منذ بضع سنوات، وهي لا تبدو قديمة كما هي عليه فعلًا. لم أكن أقصد أن أكتب مقالة عن التايتانيك مجددًا، على رغم أنني أُصبت بالدهشة بعدما لاكتشفت أنّ عددًا من الأموات يأتون من قرية كفرمشكي اللبنانيّة. لا يزال سكان القرية ينعون أجدادهم الذين مضى على موتهم مدة طويلة، والذين هاجروهما كان يعرف بسورية آنذاك هربًا من المجاعة التي كانت تستشري في الأرض. لا يملك عدد كبير من أموات التايتانيك المدفونين في هاليفاكس أسماءً لهم. اما البعض الآخر فلديهم أسماء.

لنأخذ إرنست والدرون، ملك كورين ريكتوري، كلونز في إيرلندا. وقد كتب على شاهدة القبر خاصته «توفي أثناء أدائه الواجب، أس.أس تايتانيك. في ١٥ نيسان/أبريل ١٩١٢، ٢٨ عامًا. إن يديّ فارغتان، وإني أتشبث بالصليب فقط». ثم ألقيت نظرة على الكتابة الواردة في أسفل الحجرة «شيّدها السيد ج. بروس إسماي، تخليدًا لخدمة طويلة وصادقة». ومن في إمكانه أن ينسى أن السيد إسماي نفسه، وهو مدير وايت ستار لاين الذي اشتهر بقوله العبارة التالية في ملحمة جايمس كاميرون: «إن هذه السفينة لا تعرف الغرق، فهي غير قابلة للغرق». في الواقع، إنه بروس إسماي نفسه الذي تسلق أحد قوارب النجاة الأخيرة في ساعات الفجر الأولى من ١٥ نيسان/أبريل، وتمكّن من الفرار بينما قتل المئات من ركابه وزملائه في هذه الرحلة الاولى في المياه المتجمّدة للمحيط الأطلسي. كيف تجرّأ على بناء شاهدة القبر المماثلة؟ نظرت إلى مضيفي

في هاليفاكس، وهو صاحب مكتبة كنديّ، وكانت ابتسامة عريضة تعلو وجهه، وقال: «شكرًا بروس».

على رغم ذلك، كيف تؤثر فينا تلك المقابر إلى هذا الحدّ؟ لقد مات ملايين من الأبرياء الآخرين في شكل غير متناهٍ وبطريقة اكثر رعبًا. يقال إن التجمّد حتى الموت ليس سيئًا بقدر تمزّق الجسد أجزاء بانفجار قذيفة، على رغم أن علي انتظار تأكيد ذلك، خلال حربين عالميتين رهيبتين، في عنق الزجاجة الخاصة بي، أي منطقة الشرق الأوسط. ولكنني أتمشى حول واحد وستين قبرًا في مقبرة فيرفيو لاون. أجل، توجد سكة حديد بالقرب منها، ويبدو أن ذلك يوجد بالقرب من كل مقبرة، وأنا أتعجّب لأقدار هؤلاء الأشخاص المساكين. وكذلك يفعل الآخرون. ولاح وجود شاهد قبر واحد كُتبَت عليها العبارات التالية: «تم تشييده وفاءً لذكرى طفل مجهول الهوية استُرجعت بقاياه من كارثة التايتانيك، في ١٥ نيسان/أبريل ١٩١٢» (وقد اصطدمت سفينة التايتانيك بجبل جليدي كان يطفو على سطح المحيط الأطلسي قبل تشييد السفينة في بلفاست، في وقت متقدم من اليوم الرابع عشر وتعرّضت للغرق في اليوم الخامس عشر. وقد تراكم بالقرب من هذه المقبرة الوحيدة، دميتان اثنتان للأطفال وإكليل من الورد ودمية على شكل بطة وخاتمان اثنان. ما الذي أثر في هؤلاء الأشخاص الحادّين بعد مرور تسعين عامًا على وفاة الطفل المجهول، ودفعهم إلى وضع هذه الأغراض كلها بالقرب من مقبرته؟ لماذا أنا شديد التأثر لرؤيتهم هنا في هذه المقبرة الكندية النائية حيث الرياح تأتي من البحر، والعشب الطويل يتراقص في حرارة الصيف؟

إننا انتقائيون في حدادنا. لمَ لا نذرف الدموع يوميًّا على ملايين الروس والبولنديين واليهود والآخرين الذين قُتلوا وصُفّوا حتى الموت وخنقوا بالغاز وأحرقت جثثهم خلال الحرب العالمية الثانية؟ وهكذا، فإني أهيم في هذه المقبرة المكشوفة للرياح، البعيدة كل البعد من السواحل البريطانيّة. «وفاءً لذكرى عزيزنا وأبينا هارولد راينولدز، ١٥ نيسان/أبريل ١٩١٢ عن عمر ٢١ عامًا».

«في أرض الخراب المريرة هذه

وحدك

حرّرت كل قديس عظيم

من الأحزان

لا بشر عند شواطئك يعينونك

ويرى وجوه الملائكة تناديني

لأتقرب منك».

وقد جاء في كل من فيلمي التايتانيك لكاميرون، والفيلم الصادر في العام ١٩٥٨ والمقتبس عن فيلم «إيه نايت تو ريمبمر» لوالتر لورد، حيث أدّت الفرقة أغنية «نيرر، ماي غود تو ذا». وعلى رغم ذلك، يبدو أن تلك القصة أبصرت النور عندما بلغت سفينة الإنقاذ كارباثيا (التي غرقت خلال الحرب العالمية الأولى خارج إيرلندا) شواطئ نيويورك، ولم يؤدَّ النشيد الوطني قط. وقد شكّ علماء التايتانيك، وهو موجودون صدّقوني، في أن الفرقة التي غرق جميع العازفين فيها أدّت موسيقى «ذا ميري ويدوو» و«سونغ دوتون» من تأليف ألكسندر راغتايم باند. أما أكثر الأمور سخرية في هذا كله فهو قرار كاميرون القاضي بتصوير الفرقة الموسيقية على متن التايتانيك وهي تعزف «نيرر، ماي غود تو ذا» للمقطوعة الموسيقية الأميركيّة، وهو أمر ما كان ليحدث على متن سفينة بريطانية.

لكن هذه اللوحات كلها تظهر وضوحًا في حد ذاتها. «ألما بولسون، ٢٩ عامًا، توفيت هي وأولادها الأربعة، وهم توربورغ دانا عن عمر ثماني سنوات، وبول فولك وعمره ست سنوات، وستينا فيولا وعمرها أربعة أعوام، وكوستا ليونارد وعمره سنتان». هل حدث ذلك لأن هؤلاء الأشخاص كانوا يمثلون نهاية عهد البراءة؟ هل حدث ذلك لأننا نعلم جميعًا أن خلال مجرّد عامين اثنين، قد

تندلع حروب تايتانيك الأولى في القرن العشرين بعد مغادرة الدوق فرديناند قاعة المدينة في ساراييفو؟ احتفظ بصورة للدوق المذكور برفقة زوجته، وهما يغادران المبنى، قبل خمس دقائق فقط من موتهما. إنها بطاقة بريديّة ابتعتها من باريس قبل ثلاثة عشر عامًا، وقد وجّهها شاب إلى قريب له في مارن، في فرنسا بتاريخ ٥ تموز/يوليو ١٩١٤، فوضعتها بالقرب من المدخل إلى شقتي في بيروت لتذكير زوّاري (وأنا شخصيًّا) بمدى خطورة الحياة خارج الباب الأمامي. ورحت أنظر مجددًا إلى تلك القبور. كيف كان يبدو عالمهم، عندما كان أبي يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا، ولم يكن أرسل بعد إلى السوم؟ إيفيريت إدوارد إليوت، وهو فرد من الطاقم البطل، وعمره ٢٤ عامًا.

شمخوا في أماكنهم رجالًا

بعدما رحل جميع الضعفاء

وأظهروا للعالم مجددًا

كيف يموت الرجال في إنكلترا

وهنا يرقد هيربيرت كاف، وعمره ٣٩ عامًا.

هناك ستظهر أدراج

طريقي إلى الجنة

وجميع من أرسلت برحمتك إلي

من ملائكة تشير إلي

أن أتقرب منك إلهي

أنا اتقرب منك

هل فقدنا أمرًا ما على مرّ السنوات منذ العام ١٩١٢؟

«ذي إندبندنت»، ٢٤ تموز/يونيو ٢٠٠٦

هؤلاء الذين سبقونا

كانت مدرسة ساتن فالنس مدرسة قبيحة وكريهة. أما اللحظة العظيمة فيها، فكانت عبارة عن الرقصة السنويّة مع مدرسة بينيندن للبنات (الأميرة آن، تتنفّس في شدّة)، لكن الجزء الباقي كان مجرّد ضباب كحساء البازلاء وبحيرات رطبة تمتد عبر ويلد، وآمال بتقدم أكاديمي أعلى. لقد عملت جاهدًا للحصول على علاماتي من المستوى A تحت إشراف مدير مدرسة أحمق، أصرّ على أن نمضي وقتًا إضافيًا في تعلم قواعد اللغة اللاتينيّة (وبخاصة ليفي)، وأصرّ أيضًا على دراستنا المفسدة لكل من جيلبرت وساليفان. أساسًا، كنت بمثابة جائزته، وأنا أنقر على الإيقاع في إيولانتيه. وفي وقت لاحق، تعلمت، من خلال بملعنة التلميذ إفساد «ذا بايرت أوف بينزانسي»، وأنا أعزف على الكمان.

لكنني تعلمت أمرًا واحدًا من مدرسة ساتن فالنس: ساعات الفجر الأولى في ويلد كينت. وحتى في بيروت، حيث أتمشى الآن لمشاهدة الفجر الجميل الذي يوفره لنا المتوسط دون سواه، هل أفهم ذلك. إنني أناقش، (بل أكره)، معظم ما علمتني إياه مدرستي. لكن ذلك كان يتخبط على مكتبي كل عام، وفي صندوق بريدي المرسل من لندن، وفي نسختي السنويّة من «ذا ساتونيان». وكان ذلك يُظهر «وستمنستر هاوس»، حيث كنت مثاليًّا، وقد انتظرت في ذلك المكان طوال الليل في انتظار وصول الصواريخ السوفياتية بعد كُشف عن أزمة الصواريخ الكوبيّة، وقد غادرت ذلك المبنى الرائع المغطى بالقرميد الأحمر، تخالجني أحاسيس غير مباحة «أننا» خلفنا وراءنا حقول ألغام عدة في العالم. كنت محقًّا. لكنني أتذكر مدى روعة أمسيات الصيف تلك وأنا أقرأ شيوسه وشكسبير ودون وميلتون. وأشعر وجود أمر ما في مؤلفاتهم ينير دربي في

حياتي. وسرعان ما أدركت كيف توصلت لاحقًا إلى الاعتقاد في شدّة أنه كان نسيم الهواء في ويلد كينت الذي كان يغمرني. هل منحنا ذلك حياة طويلة؟

إني أقول ذلك عندما أفتح طبعتي الأخيرة (المجلد ٣٧) من «ذا ساتونيان». على سبيل المثال، اكتشفت أن جون هنري أبليت، وهو أستاذ في مدرستنا في العام ١٩٢٦، توفي عن أربع وتسعين سنة، ولاحظت ما كتب في المجلة: «أبلغنا بوفاة غايفين ويليام كاربنتر في العام ١٩٩٢... عن عمر ٧٩ عامًا. وهو كان أخا الأستاذ المرحوم غارث كاربنتر والمرحوم دروو كاربنتر... وعمل في تجارة الأخشاب لمصلحته بعد أدائه خدمته العسكرية في الحرب لمصلحة «آر.إيه.أف.سي». كذلك لاحظت ما يلي: «أُبلغنا بوفاة إدوارد ويليام باين في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٣ (من مواليد ١٩٢٩، سانت مارغريت هاوس) عن ٨١ عامًا. وكان إدوارد الأخ الأكبر لجيفري شولتو باين وديسنون بيشوب باين، وكان عمّ تيموثي بيشوب باين». وهكذا، أخذت أجول بناظريّ على أسماء قدامى مدرسة ساتن الذين سبقونا. «في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦، توفي ألفرد بران كات (١٩٣٠، سانت مارغريت) عن ٩٢ عامًا. كان ألفرد والد أنطوني كات (١٩٦٣، وستمنستر هاوس، حيث كان يقع منزلي القديم). وقد مات حزنًا بعد شهر على وفاة والده وجدّ بيارز كات (١٩٩٦، وستمنستر هاوس). وقد عمل ألفرد مزارعًا في رومني مارشيز طوال حياته».

أحبّ تلك التذكارات لأصدقاء مدرستي الذين ماتوا منذ زمن طويل، والمجهولين. فهنا، مثلًا، نقرأ «عند بداية حزيران/يونيو ٢٠٠٦»، روي هارت دانستان عن تسعة وثمانين عامًا.

غادر روي المدرسة «بناءً على طلب المدير»، وجاء ذلك بعد سلسلة من فراره الصاخب. وعلى رغم ذلك، فقد كان يبدي دائمًا مودة كبيرة لساتن فالنس. انتقل بعد ذلك إلى معهد دولفيتش حيث كان تلميذًا مثاليًا ورئيس فريق الرياضة. كذلك تخرّج طبيب أسنان في مستشفى كينغ كوليدج في لندن قبل أن يخدم برتبة

ملازم في القوات الاحتياطية البحرية الملكي خلال الحرب العالمية الثانية. وبعد ذلك، مارس طب الأسنان حتى تقاعده في العام ١٩٧٤.

كم أحب عبارات «بعد ذلك»، ولو أبطل طلب المدير الأحمق كم كان سيبدو السيد دانستان بارعًا بَعدِّه تلميذًا قديمًا من مدرستي. ولكن دعوني، نزولًا عند اهتمام القراء، أكمل سيرته الذاتية بعد الحرب العالمية الثانية:

عُين عمدة لوارمينستر من ١٩٨٥ إلى ١٩٨٦. وكان مرتبطًا عن كثب بالنقابة الدولية للتخدير (بإمرة بريطانيا العظمى). كان ذلك أصلًا عبارة عن نقابة منتجين وتجار تأسّست في شكل محصور في فرنسا في القرن الثالث عشر تحت رعاية ملوك فرنسا. ماتت النقابة في القرن السابع عشر، ولكن أعيد إحياؤها في نقابة مستخدمي المواد المخدّرة التي تأسست في العام ١٩٥٥ ففتحت أبوابها لمحبي الأعشاب والطعام والرفقة الجميلة.

وفي العام ١٩٧٧، تأسست آمرة بريطانيا العظمى، وانتخِب روي دانستان حاجبًا أثناء الاجتماع الأول المنعقد في فينتنر هول في مقار شركة وورشيببفول في فينتنر.

إلى أين نذهب؟ في ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٥، «في شكل مفاجئ، ولكن هادئ»، أُبلغت، في غيرسي، أن جيفري أوستن نوبس (سانت مارغريت، ١٩٣٢) قد فارق الحياة عن اثنتين وتسعين عامًا. «انتقل جيفري عند إنهائه المدرسة إلى معهد ماغدلين في أكسفورد لدراسة القانون، وتخرّج بشهادة محامٍ في العام ١٩٣٧. أدى خدمته في المدفعية الملكية خلال الحرب العالمية الثانية، وأُسر في الحرب من العام ١٩٤٢ ولغاية العام ١٩٤٥». وهكذا توالت الأمور. توفي غي غوبل عن ثلاثة وثمانين عامًا، وتوفي بيتر بريل عن سبعة وسبعين عامًا. «وهو كونه رائد، خدم في صقلية وإيطاليا خلال الحرب العالمية الثانية، وخدم لاحقًا في منطقة الشرق الاوسط وألمانيا، وأمضى بعض الوقت في وزارة الدفاع».

ما الذي تعلمه جميع هؤلاء الرجال من ساتن فالنس؟ هل أدركوا حقًّا وجود طريقة ما يمكننا من خلالها أن نتعلم البقاء على قيد الحياة مدة أطول؟ هل أدركنا جميعًا قيمة أمر ما لم نكن نفهمه في ذلك الوقت؟ أما اليوم، فأراني أنظر إلى مذكراتهم القديمة. دانستن ونوبس وكروووهرست ولويس وغوبل وكولمان وباتلر ومولينو - بيري وسكوبل - هودغينز وكريسويل وكات وغورمان وهيلز، وأقدّر هؤلا الرجال الذين ماتوا منذ وقت طويل، ولم أعرفهم في الماضي.

يمكننا أن نقدّر هؤلاء الذين سبقونا، بدءًا بآبائنا الذين لا نزال نجهل أسماءهم. لكن ما الأمر الذي أبقاهم على قيد الحياة؟ إن ذلك المنظر الرائع المُطل على ويلد كينت، والذي غُطي الآن لسوء الحظ (فقد ذهبت ذلك اليوم لإلقاء نظرة، وإذ بالبلدية قطعته في شكل مريب) أو كان الأمر يتعلق بإيمانهم بالحياة، لن نملكه نحن، أو لم نعد نملكه؟ لا أعرف. إني أتذكر في ظل الضباب الكبير، في عقد الخمسينات - كيف نسينا اليوم جميعًا الدخان الصادر من الضباب الكثيف - وكيف أذهب للتأكد من إقفال باب الكنيسة والغرف داخلها، حيث أغلق على تلك الأسماء العظيمة. لا أظن أنني اهتممت بأمرهم. لا أظن أننا نفعل، لكنني أتذكر ذلك الآن، وأنا أراجع قائمة الوفيات الخاصة بقدامى المدرسة، كم كانوا رجالًا صالحين (قبل أن تلتحق النساء بمدرسة ساتن فالنس!)، آمنوا بأمور آمل أن أؤمن اليوم شخصيًّا بها.

«ذي إندبنتدنت»، ١٨ آب/أغسطس ٢٠٠٧

الوداع، آن - كارين

كانت آن - كارين تعلم كل شيء عن القنابل. وكانت لها وجهات نظر قويّة حيال فظائع لندن(*). «لا جدوى من الضرب في عنف في شأن الأمن»، هذا ما كانت تقوله لي في بيروت خلال الحرب الأهلية اللبنانيّة. «عليك أن تكتشف لماذا يقوم الناس بذلك، وما الذي يمكن القيام به للحؤول دون ذلك. لن تتمكن من ردع الأمر بمجرّد الحديث عن «الإرهاب»». لكانت فهمت آن - كارين، وهي واحدة من أفضل الدبلوماسين النروجيين، وصديقة عزيزة على قلبي لأكثر من عقدين من الزمن، سخرية رحلتي الأخيرة لأكون معها: لانني عدت مجددًا إلى بيروت عبر لندن، آتيًا من مراسم جنازتها في أوسلو، كنت متوجهًا على خط بيكاديلي لاين في طريقي إلى هيثرو في قطار يسبق بثلاثة قطارات أو أربعة، ذلك الذي انفجر على تقاطع كينغ كروس.

كانت آن - كارين امرأة قاسية. وُلدت في العام ١٩٤١ عندما كانت النروج تحت الاحتلال الألماني، إذ بدا أن الحرب قرّرت مصير حياتها. كانت امرأة رائعة وطويلة القامة وشقراء تحتسي الكحول، تمامًا كجنديّ يُضرب فيه المثل، ولكن من دون إظهار أي أثر لذلك، وكانت تدخن السجائر وهي تمسك بفلتر طويل أملًا منها أن ذلك سيقيها مرض السرطان.

لكن ذلك لم ينفع، وقد ماتت متألمة وهي تحاول إدخال الهواء إلى رئتيها، وحيدة في مستشفى نروجي. كانت «تُعالَج» في شكل دائم، وقد أحست

(*) التفجيرات الانتحارية ضد القطار والباص التي حدثت في ٧ تموز/يوليو ٢٠٠٥، وراح ضحيتها ٥٢ شخصًا، إضافة إلى الانتحاريين الأربعة. وأدت التفجيرات أيضًا إلى جرح ٧٠٠ شخص آخرين، إصابات ٢٢ منهم خطيرة.

أنها في منزلها، وهي عاجزة عن السير وغير قادرة على استعمال البريد الالكتروني بعد الآن. اتصلتُ بها قبل بضعة أيام من وفاتها. وقد بعثت إلي برسالة قالت فيها إنها تريد أن تتحدث معي. سألت بصوتها العالي عبر خط الهاتف، عن لبنان، وما الذي قد يحدث في العراق، وهل أعود إلى العراق. ولكن كلًا منا يعلم أنها كانت ترغب في التحدث إليّ لتودعني. حاولتُ أن أبهِج آن - كارين عبر تذكيرها بالمغامرات الطائشة والهوجاء والمضحكة والخطيرة والضرورية التي تعودنا القيام بها في لبنان، وكيف أنها في العام ١٩٨٢ عندما غزت اسرائيل القوات السورية وهاجمتها في الجبال بالقرب من بحمدون، قادت هي السيارة برفقتي نحو التلال وقت تولت طائرة إسرائيلية تدمير المدرعات السورية من حولنا.

وقالت ساعة دوّت انفجارات ضخمة في الجبال «هذا أمر متقن، متقن يا بوب، لكوننا ذهبنا بعيدًا». وكانت كلمة «متقن» من أحب العبارات إلى قلبها، «متقن» كما «تمّت المهمة».

وقد قلت لها: «آن - كارين، إن ذلك خطير وقاتل»، ثم رمقتني بنظرة ذابلة وقال لي: «بوب، إننا نرفع علم النروج على السيارة. إنني دبلوماسية». ثم نظرت إلى العلم وطوله ١٦ إنشًا، وأيقنت أن الطائرة الإسرائيلية تحلق على ارتفاع ١٠ آلاف قدم، وحدّقت في آن - كارين، وكانت تضحك.

أخبرت هذه القصة في جنازتها أمام الأشخاص النادبين، وقد كان بعضهم يذرف دموعًا سخية، وقد انفجروا ضحكًا. عادت آن - كارين إلى الحياة مجددًا، وهي مسمّرة في تابوتها الأبيض على يساري ومحاطة بالورود البيض. لكنها كانت من الأشخاص القلائل الذين لا يمكن أن أتخيلهم ماتوا. إن حبها الحياة، وحبها المغامرة، قد أضفيا عليها صفتها الخارقة التي لا يمكن أحدًا امتلاكها إلا هؤلاء الذين لا يخافون مؤسسة الموت. كانت في صربيا وقد استقرت في إيران بصفة كونها مكلفة الأعمال النروجية في بلد دفعها أحيانًا

إلى الجنون، لكنها كانت تقدّم شراب الجِن والمقويّات في شكل هستيري في حديقة منزلها في طهران. وفي يوم من الأيام، جاءت إلى بيروت برفقة دبلوماسي في وزارة الدفاع، كان شعر الاستياء كثيرًا من تحليلي المتعلق بالشرق الأوسط لأنه لم يتقاطع مع تحليله الخاص. وقد صرخَت في وجهه «اصمت، أنت جئت إلى هنا لتصغي، ولم تأت لتجرّب نظرياتك السخيفة». كلا، لم تكن تخشى آن - كارين الحمقى، لا يزال في إمكاني أن أستعيد كلماتها اللاذعة من وقت إلى آخر في حال ظنّت أنني لم أتمكن من بعض الوقائع البديهيّة الخاصة بالحياة في الشرق الاوسط؛ حيث قالت إن العدالة، بالنسبة إلى المواطنين في العالم العربي، قد تكون أحيانًا أكثر أهمية من الديموقراطيّة.

وقد أخبرتني عبر الهاتف خلال آخر أيامها أنها تعتقد أن الأمن والكهرباء في العراق هما أكثر أهمية من الديموقراطيّة. ولعلها كانت على حق. فقد شعرت أنّ وزارة الخارجية النروجيّة كانت بدورها موجّهة وفقًا للولايات المتحدة الاميركية، ولا تبحث إلا عن مشاهد واشنطن في «عمليات السلام» و«خرائط الطريق». وهي يمكنها أن تكون غير حكيمة. فقد خرجت مرّة من سفارة النروج في بيروت في الثمانينيات، حين كانت تعمل آنذاك بصفة ملحقة، وكانت الدموع تغطي وجهها كانت دموع الضحك. وقالت: «قرأت لتوّي رسالة من سفيرنا لدى واشنطن، وقد ذهب لمقابلة ريغان، وكان الرئيس يحتفظ بمجموعة من البطاقات الموجزة كي يتمكن من الإجابة في شكل صحيح. لكن البطاقات اختلطت في ما بينها. وعندما سأله سفيرنا عن العلاقات التجارية بين واشنطن وأوسلو، أجابه ريغان إن السلام سيحلّ في منطقة الشرق الاوسط!».

احترمت آن - كارين لأنها كانت تبحث دائمًا عن نفسها، لتكون شاهدة على الأحداث التي قد تصفها في رسائلها الليليّة إلى وزارة الخارجية في أوسلو. في وقت اختبأ الدبلوماسيون الغربيون الآخرون داخل سفاراتهم في بيروت، وقد

فعل عدد من الصحافيين الغربيين الأمر نفسه داخل فنادق بيروت، كانت هي موجودة في التلال تعمل تحت الخطر ومن مصدر الحدث الأصلي. لا عجب في أنها أرسلت إلى بيروت بعد سنوات عدّة للتفاوض، من أجل تحرير رهينة ما. وقد نجحت في ذلك. كم أحب، يومًا ما، أن أقرأ تقاريرها المقدّمة إلى أوسلو، خصوصًا الغضب الذي كانت تتضمنه في شكل واضح.

لم يبد ذلك قط واضحًا كما كان عليه عندما دخلت مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في ١٨ أيلول/سبتمبر ١٩٨٢. وقد نظرت في غضب - كان وجهها مشدودًا جدًّا، إلى حد أنني اعتقدت أنه فقد جماله - إلى أكوام الرجال الموتى والنساء المنتزعة أحشاؤهن والأطفال القتلى، كل ذلك من عمل حزب الكتائب حليف إسرائيل. وصرخت قائلة: «إنه لأمر مقرف! مقزز! وحشيّ! سندفع ثمن هذا في يوم ما!». على الأرجح ما زلنا ندفعه الآن.

وجّهنا وداعنا إلى آن - كارين داخل كنيسة سابقة لا تبعد كثيرًا عن صف من مقابر حرب للبريطانيين، تضم جثامين طاقم القوات الجوية الملكية الذي فُقد فوق النروج سنة وُلدت هي. كان ذلك المبنى بيضويّ الشكل مع عدد كبير مما ظننته حروفًا قديمة على الجدران، لكنه كان يتلاءم مع شمعتين اثنتين كانتا تحيطان بكلا الجانبين من تابوتها. لم تكن آن - كارين يهوديّة، لكنها كانت تحب جميع سكان الشرق الأوسط.

أما الموسيقى الأخيرة، فكانت أغنية سويديّة تتعلق بركاب الدرجة الثالثة من سفينة التايتانيك، وطريقة انتقالهم من عدم اعتقادهم إلى اقتناعهم بأنهم قد يموتون. وانتهت الأغنية في النهاية، وفقًا لما تزعمه كلماتها وألحانها، بأنهم قد يغرقون في شجاعة بينما لا يزال علم السفينة خافقًا عاليًا. وحفاظًا على شخصية آن - كارين في شكل كامل، أوصت بأن يؤخذ أصدقاؤها المقرّبون، على حسابها الخاص، إلى زقاق بحريّ في أوشلو بعد ظهر اليوم نفسه على متن قارب مملوء بأربعين زجاجة من شمبانيا بولينغر. ونظرًا إلى شجاعتها خلال

الحرب، كانت، على ما أظن، صحافية مقدار ما كانت دبلوماسيّة. كانت كائنًا خاصًا بأوقاتنا الخطيرة. وهي عرفت كيف تعيش، وكيف تموت.

«ذي إندبندنت»، ١٦ تموز/يوليو ٢٠٠٥

أخبروا أندريا أن كريس لم يعانِ

الموت أمر نوعيّ، ولكن ليس بالنسبة إليّ. أجل، إني أرى صور العراقيين الذين تعرضوا للسحق والسحل والقذف والرمي حتى الموت في بغداد. وأشاهد صورة الرجل العجوز الميت وهو جالس على كرسيّ في نيو أورليانز. لكن الأشخاص الذين نعرفهم، والذين يمكننا تحديدهم مع أنفسنا، هم الذين يؤثرون فينا دائمًا. يبدو أن شبح الموت كان يلاحقني هذا العام. في ١٤ شباط/فبراير، رأيت جثة رئيس الوزراء اللبناني السابق رفيق الحريري ممددة أمامي وكان جورباه يحترقان. خلت للوهلة الاولى أنه بائع كعك على كورنيش بيروت، وهو أحد الرجال الذين يبيعون الخبز المحمّص. أما الآن فقد أوقفت الأمم المتحدة أربعة رؤساء أجهزة أمنيين لبنانيين رفيعي المستوى - وأكثرهم تخويفًا - كمشتبه بهم.

ثم توفيت صديقتي الدبلوماسية النروجيّة آن - كارين أرفينسن في حزيران/ يونيو جراء إصابتها بمرض السرطان. وبعد ذلك، وفي شكل لا يصدّق، توفي كريستيان كلينيرت. لم يكن صديقًا مقرّبًا إلي. فقد التقيته مرة واحدة فقط في تموز/يوليو عندما جاء إلى بيروت مع صديق له وحبيبته أندريا بيستريخ. وهي تعمل صحافيّة، أما هو فَمصور. ولا أنفك أردّد، وأنا أكتب هذا، أنه «كان» يعمل كمصوّر. جاءت هي لتجري معي مقابلة لحساب صحيفة ألمانية، بينما تولى هو التقاط الصور. جلسنا على شرفتي التي تطل على البحر، وتحدثنا عن قضية الشرق الأوسط، ومتغطرسي الغرب، والتغطيات الكاذبة للحروب، ومستقبل لبنان؛ هذا البلد الهرم والمسكين. تميّز هذان الزوجان بالتواطؤ الخاص الذي يميز دائمًا الأشخاص المغرمين. هي تبلغ من العمر ستًا وثلاثين سنة، أما هو فيبلغ - يا إلهي، كان يبلغ - سبعًا وثلاثين. وقد تعارفا قبل ثلاثة عشر

عامًا، ثم غادرا إلى جنوب لبنان. وأخبرتني لاحقًا بوجود متحف بالقرب من صور يعرض صورًا لنزوح الفلسطينيين في العام ١٩٤٨، فاتبعتُ نصيحتها، وهكذا أصبح قراء صحيفة «ذي إندبندنت» على علم قبل منذ أيّام، بهذه الغرفة الرائعة المملوءة بالمستندات والأدوات الخاصة بالمزارع والصور والكتب المتعلقة بـ«النكبة» و«الكارثة» العربيتين قبل سبعة وخمسين عامًا.

وفي وقت لاحق من هذا الأسبوع، أرسل المكتب الخارجي في «ذي إندبندنت» رزمة البريد الأسبوعيّة والمعتادة خاصتي. أما داخل الطرد، فكان ثمة ظرف سميك بنيّ اللون يحتوي صورًا ملوّنة (بوب العرب يبدو جديًّا جدًّا)، وصورتين لكل من أندريا وكريستيان. كان يتكئ برأسه على كتفها. وقد التقطت له صورة خاطفة ذُيلت بـ «١٩٦٨/٧/٢٦ - ٢٠٠٥/٧/٢٩». سألت نفسي ماذا يعني ذلك بحق الله؟ عثرت على رسالة موجّهة من أندريا. وفي ما يلي النص الكامل الذي كتبته مع بعض الأخطاء بلغتها الإنكليزية:

عزيزي روبرت،

يُحزنني أن أقول لك ذلك: توفي أعز أصدقائي وشريكي في ٢٩ تموز/ يوليو إثر حادث سيارة بالقرب من ميونيخ. حدث ذلك بعد أسبوعين فقط على مجيئنا من لبنان، وبعد ثلاثة أيام من عيد ميلاده السابع والثلاثين. وقد قال لي يوم عيد ميلاده، إنه شعر للمرة الأولى «كأنه حقق أخيرًا مبتغاه في الحياة».

كانت رحلتنا إلى بيروت مهمة بالنسبة إليه. فقد أمضينا وقتًا رائعًا، فالتقينا أشخاصًا كثرًا، وكان عملنا معًا كفريق رائعًا. التقط هذه الصور خصيصًا لك، وكان ذلك الأمر الأول الذي قام به منذ عودتنا. كان سعيدًا جدًّا لأنك منحته فرصة التعرف إليك. كنت شخصًا خاصًا بالنسبة إليه، وقد أحبّك كثيرًا.

خططنا لمغادرة ميونيخ في العام المقبل، وزيارة عدد كبير من البلدان، وخصوصًا الإقامة في بيروت بعض الوقت. وتقدمنا بطلب لدى معهد غوتيه

لفصل دراسي في الخريف. أما الآن، فأريد مغادرة ميونيخ أكثر من أيّ وقت مضى، فكل شيء فيها يذكّرني به. إني أتذكر كل خطوة قمنا بها، وهو لأمر مؤلم جدًّا.

يوم الجمعة **٢٩** تموز/يوليو، توجه مسرعًا إلى عمله ولم يعد قط. كان موجودًا في سيارة مع اثنين من زملائه يجلس إلى جوار السائق. وقد تحدث كريس بحماسة عن بيروت وكم أحبّها. كذلك تحدث عني، وكم كان رائعًا العمل معًا.

لعلّ السائقة كانت منشغلة في الإصغاء إليه إلى حدّ أنها أخطأت في القيادة واصطدمت بسيارة من نوع «بي.أم. دبليو» كانت متجهة تجاهها بسرعة **١٠٠** ميل في الساعة. فقد كريس وعيه مباشرة ووجد صعوبة في التنفس. وتعرض لإصابات داخلية عدّة، وفارق الحياة بعد ساعتين في مستشفى في ميونيخ. أما زميله الذي كان جالسًا في المقعد الخلفي، فنجا من الحادث لكنه ما زال في المستشفى، أما السائقة فلم تصب بأذى.

أما الآن، بعد مرور ثلاثة أسابيع على وفاته، فما زلت عاجزة عن استيعاب الأمر. تغيّرت حياتي جذريًّا، ولا أملك أي فكرة عن المستقبل، أو حتى اليوم التالي. أعيش كأنني «مخدرة». ما زلت على قيد الحياة، ولكن ماذا بعد؟

كنت أعمل لحسابي، لكنني كنت أملك دائمًا بعض مشاريع النشر من أجل دفع الإيجار وكسب المال للعيش. وقد خسرتها كلها. أما في الوقت الراهن، فمن الصعب العثور على عمل في الصحف. آمل أن أجد فرصة جديدة في المستقبل. الأمر الوحيد الذي أعرفه، هو أنني أريد مواصلة الكتابة. كذلك أريد مغادرة ميونيخ أكثر من أي وقت مضى، والتوجّه إلى «الشرق».

عزيزي روبرت، شكرًا مجددًا منا كلينا، لأنك تمكنت من إيجاد الوقت

للقائنا. وأرجو أن تجد طيًّا بعض الصور. لدينا المزيد من الصور الخاصة بك، لكن تلك الصور أعجبتنا أكثر من سواها. أعلمني في حال أردت الحصول عليها كلها.

مع الاحترام الفائق وأطيب التمنيات من ميونيخ،

أندريا».

أُصبت بالدهشة. «يا إلهي»، صرخت عاليًا، وقلت: يا إلهي، ثم اتصلت بأندريا.

قالت لي: «في ذلك الصباح، أسرعت نحو النافذة لأقول له وداعًا، ثم التفت إليّ ولوّح لي بيده مودّعًا». أما الشرطة الألمانية التي وصلت أولًا إلى مكان الحادث، فقالت لأندريا إن كريس لم يعان.

يتطلب الامر سنة واحدة ما بعد الوفاة. أعدت قراءة الرسالة في محاولة مني لفهم رثائها وحزنها وشجاعتها. إن السطر المميز في نهاية الرسالة - «شكرًا مجددًا منا كلينا» - حيث أعادت أندريا خلق حبيبها الميت وبالتالي أعادت إحياء كريستيان ليرسل أمنياته إلى بيروت، كان مفجعًا.

ولكن، هل تكمن العبرة هنا؟ لطالما ردّدت هذا السؤال. إن الرجل المقتول والطفل المرهوس على الجسر، والرجل العجوز الميت في كرسيه لأن رئيسه لم يُعِر أي اهتمام بظاهرة الاحتباس الحراري، ورئيس الوزراء الذي رفض الإقرار بأن مواطنيه ماتوا في تفجير القطار في لندن بسبب حماقته في العراق.. . تلك الأمور كلها ذات معنى. لكن ميونيخ؟

يا له من أمر غريب، فهذه ليست المرة الأولى أتلقى أخبارًا مفجعة من تلك المدينة. لكن موته لا معنى له. كان يجب أن يكون كريستيان كلينيرت حيًّا اليوم، لكنه ميت، وأنا، بصفة كوني صحافيًّا، أضيفه إلى لائحة «شهدائنا»، هؤلاء الذين يموتون إثر حوادث سير وعواصف وتحطم طائرات، وكذلك جراء

القنابل، وعلى أيدي الجنود غير المسؤولين وقوات الاحتلال والمسلحين. وعلى رغم ذلك كله، أستيقظ كل يوم في بيروت وأسمع صوت الرياح وحفيف أشجار النخيل خارج نافذة غرفة نومي، وأسأل نفسي عن الأمر الذي نسأل ذواتنا عنه هذه الأيام، أو الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا: أي رعب ينتظرنا اليوم؟

«ذي إندبندنت»، **٣ أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٥**

ملحق

تمويه الذكرى

شارع بيتان، إرسال المرأة إلى أوشفيتز

ما زلت أحتفظ بصورة لشارع قديم وحميم في بيروت تعود إلى عقد الثلاثينات، إذ تبدو منازله ذات الطابع العثماني ملفوفة بالأزهار. ويمكن رؤية سيارة سيتروين قديمة في آخر الطريق المرقّع، حيث تظلّل الأشجار الأرصفة الضيّقة في كلتا الجهتين. وقد كُتِب على اللافتة «شارع بيتان». كان والدي المسن، وهو الذي شارك في المعركة الثالثة من سوم، سيعلمني الوعد الذي قطعه بيتان في فردان: «لن يمرّوا». ولكن بالطبع، تحوّلت وطنية بيتان في العام ١٩١٦، ورفضه السماح لجيش قيصر بالتقدّم إلى ما بعد موس، عارًا على فرنسا في العام ١٩٤٠. وعند وصولها إلى بيروت في العام ١٩٤١، عملت قوات الغزو البريطانية والأسترالية التي أخرجت حكومة فيشي الفرنسية من لبنان، على نزع اسم بيتان عن الشارع ذي الطابع العثماني. وتحدث بيل فيسك بعد ذلك عنه في التباس. إن بيل، مثل معظم الرجال والنساء البريطانيين، وخصوصًا مثل عدد كبير، من الفرنسيين والفرنسيات ولكن ليس الجميع، لم يتمكنوا من مسامحة الرجل الذي تعاون مع هتلر الالماني.

إني أتحفظ تجاه الفرنسيين لثلاثة أسباب: أولًا، منذ سنوات خلت، اقتادني شعور الغضب والفضول العميقين إلى المشاركة في قداس عن روح الموتى وسط باريس. وتولى كاهن أميركي الاحتفال بالقداس، وقد أقيم، - في الواقع، نعم - وفاءً لذكرى المارشال فيليب بيتان. وجلست برفقة صديق وزميل عزيز عليّ، في صحن الكنيسة، وأخذنا نتفرج على أكثر من ١٠٠ شخص، معظمهم من النساء والرجال المسنين الذين ينتمون إلى الطبقة الوسطى، مع وجوههم الجامدة والوقورة والمشؤومة والمتكتّمة بين ظلمة الكنيسة. وقد حضروا لتذكُّر قائد حكومة فيشي الفرنسية، الذي استبدل شعار الحرية والمساواة

والأخوة، بالعمل والعائلة والوطن. وأرسل مواطنيه اليهود بالتزامن مع آلاف اللاجئين اليهود الأجانب إلى أوشفيتز بحماسةٍ فاجأت النازيين أنفسهم.

ثانيًا، لأنني انتهيت من قراءة كتاب إيرين نِميروفسكي المتألق، لا، دعوني أتكلم بصراحة، المتحوّل في شأن سقوط فرنسا، «سويت فرانسيز»(*) وهي رواية كانت تنوي من خلالها الكاتبة اليهودية الشابة جعلها نسختها الحديثة من كتاب «الحرب والسلام» لتولستوي. فكتاب «سويت فرانسيز» أحد الكتب النادرة التي يمكن وضعها جانبًا ليلًا، لتستيقظوا وأنتم تحلمون بها متشوقين لتعرفوا هل تمكن السيد كوربن الثائر من الوصول إلى مصرفه في تور، بعد رحلته من باريس، أم هل الزوجان الشجاعان ميشو من النجاة من الهجمة النازية العنيفة، أم هل تخضع سيسيل الجميلة، التي أصبح زوجها الفرنسي الخائن والكريه أسير حرب، للضابط الألماني المثقف الذي يبدو أحيانًا بريئًا كالأطفال، وأحيانًا أخرى محبًا في شغف، وهو الذي سكن في منزلها.

ولدت نِميروفسكي في كييف في العام ١٩٠٣، وهي ابنة مصرفيّ لامع ولاجئ من الثورة الروسية ثم أصبح لاجئًا في باريس في العام ١٩٤٠، وقد حققت رواياتها الأولى نجاحًا باهرًا، إذ تعذر نشرها في ظل الحكم النازي. هربت من باريس برفقة زوجها اليهودي ميشال إبشتاين إلى قرية إيسي ليفيك في المنطقة الخاضعة للسيطرة الألمانية، وكان كلا الزوجين مهدّدًا بالإبادة. لكنها كانت تواصل كتابة ملحمتها عن الخيانة والبسالة، إضافة إلى الانزلاق الراسخ والثابت نحو الممالأة التي تعانيها الشعوب المحتلة جميعًا، بأحرف صغيرة تشبه شبكات العنكبوت على دفاتر صغيرة. جُمِّد حسابها المصرفي. وأبدت احتجاجها أمام ناشرها الفرنسي، قائلة: «لا بد من أن تعلم أن في حال احتجز هذا المال داخل حساب مصرفيّ مجمّد، لن يأتي عليّ بالنفع بأي طريقة».

(*) صدرت النسخة العربية من كتاب إيرين نميروفسكي عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بعنوان «متتالية فرنسية».

وكانِ من المفترض أن يصدر «سويت فرانسيز» في خمسة مجلدات، لكن نِميروفسكي لم تتمكن من إنهاء سوى كتابين اثنين فقط، هما «عاصفة في حزيران/يونيو» («ستورم إن جون») يروي الهرب من باريس في العام ١٩٤٠)، و«دولتشي» ويتناول العام الأول من الاحتلال في قرية فرنسية صغيرة. وفي شكل لا يقبل التصديق، كان الجنود الألمان المقيمون في ذلك المكان، يتلقون معاملة حسنة تصل إلى حدود اللطافة وإن شابها الكثير من السخرية. وكتبت نِميروفسكي «بما أن الألمان (الموجودين في القرية) أساءوا الظن بنزعتهم إلى عدم الكياسة، فقد كانوا حرصاء خصوصًا، على ما يقولونه للسكان. لذلك اتُّهموا بالنفاق».

وفي ما يلي مشهد رائع يصف وصف لوسيل وحبيبها المستقبلي الألماني بمنظار فتاة صغيرة:

«كان الألماني والسيدة يتحدّثان بصوت منخفض. هو أيضاً، بدا في ذلك الحين باهت اللون. وكانت من حين إلى آخر تسمع صوته المخنوق، وكأنه يريد أن يصرخ أو يبكي دون أن يجرؤ على ذلك. لم تفهم الصغيرة شيئًا من كلامه سوى أنّه يتكلّم عن زوجته وعن زوج السيدة. سمعَته يردّد مرارًا وتكرارًا: ''لو كنتِ أيضًا سعيدة...''».

وبعد غزو هتلر روسيا، غادرت الوحدة الألمانية الموجودة في قرية نِميروفسكي في اتجاه الجبهة الشرقية. «بدأ الرجال ينشدون أغنية وقورة وبطيئة، امتدت حتى الليل. وسرعان ما أصبحت الطريق خالية. وكل ما بقي من الفوج الألماني كان مجرّد غبار». إن ذلك يشبه روعة أسلوب بروردينو، بل واقعية أسلوب تولستوي.

لكن نِميروفسكي لم تتمكن من إتمام ملحمتها. فثلاثة كتب لا تزال غير مدونة ولا ناجزة، على رغم امتلاكنا الملاحظات التي تركتها في هذا الشأن (عناوين تلك الكتب المفترضة هي «الأسر» و«المعارك»، و«السلام»). وتم

توقيفها وإرسالها إلى أوشفيتز حيث ماتت في مستشفى بيركينو المريع في ١٧ آب/أغسطس ١٩٤٢. أما زوجها، فناشد ناشريها المساعدة، ظنًا منه أنها ما زالت على قيد الحياة، ووجّه نداءه إلى الصليب الأحمر والسفير الألماني في باريس، وإلى بيتان شخصيًا. وكانت النتيجة المباشرة لكتابه الموجه إلى الرجل العجوز، توقيفه هو أيضًا وإرساله إلى أوشفيتز، ومن هناك مباشرة إلى غرفة الغاز.

إجمالًا، نُقل ١٠٠ ألف يهوديّ من فرنسا إلى مخيّمات الموت، كذلك نُقل ٢٠ ألفًا عبر مخيّم المرور العابر في درانسي خارج باريس، وبينهم حوالى ألفي طفل، سلمت السلطات الفرنسيّة أربعمئة طفل منهم. وقد استحضر ذلك في مهرجان الأفلام اليهودية في دورته الرابعة عشرة في فيينا هذا الأسبوع، عندما قدّم توماس دراسخين فيلمه «تشيلدرن ميموريز». ولكن تخيّلوا غضب السيد دراسخين، وهذا هو السبب الثالث لتحفظي حيال الفرنسيين، عندما اكتشف أن السفارة الفرنسية في فيينا، التي استضافت العرض الأول للفيلم، حذفت الجملة التالية من برنامجها: «سلمت فرنسا ١١,٤٠٠ طفل يهوديّ إلى النازيين، من خلال سلطاتها، وقد قتلوا في أوشفيتز».

لمَ، بحق الله، سُمح بالقيام بهذه الرقابة؟ فقد أقرّ الرئيس جاك شيراك في العام ١٩٩٥، بأن الدولة الفرنسيّة كانت مسؤولة عن ترحيل اليهود. لكن يبدو أن وزارة الخارجية الفرنسية فاتها هذا الأمر. وبالتأكيد، فإن موظفي المعهد الفرنسي في فيينا، لم يتبلغوا الرسالة. هل ينبغي أن توجّه إليهم نسخة متمّمة لرواية نِميروفسكي المأسويّة والمؤلمة؟ أم مجرّد دعوة إلى المشاركة في القداس الإلهي عن راحة نفس المرحوم المارشال الفرنسي فيليب بيتان؟

«ذي إندبندنت»، ٢ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦

أنا ابنة إيرين نميروفسكي

أودع موريس بابون في قبره خلال الأسبوع الماضي مع وسام جوقة الشرف، الأمر الذي يثبت أن العرب لطالما شكوا في الأمر لكنهم رفضوا الإقرار به، عمومًا، ألا وهو: أن البيروقراطيين والعنصريين وغيرهم ممّن عمل لمصلحة هتلر، نظروا إلى باقي الشعوب على أنها عدوة لهم. كذلك، لو تمكن جيش هتلر من الوصول إلى الشرق الأوسط، لوجد «حلًا نهائيًا» لـ«القضية العربية». أما مسؤولية بابون عن التوقيفات وعمليات الترحيل التي حدثت في العام ١٩٤٢ وطاولت ١,٦٠٠ يهوديّ داخل بوردو وفي جوارها، وبينهم ٢٢٣ طفلًا، نقلوا إلى مخيّم درانسي ومن ثم إلى أوشفيتز، فقد أثبتت من دون أدنى شك خلال محاكمته في العام ١٩٩٨.

إلا أن المسألة التي تبدو أقلّ وضوحًا، هي العدد الدقيق للجزائريين الذين قتلهم رجال الشرطة في باريس، فقذف بهم إلى نهر السين في العام ١٩٦١. وطبعًا، لم يحاكم عن هذه الجريمة الأقلّ شأنًا، لكن المجردة من المبادئ الخلقية في بشاعتها. وهو حضّر وجهّز لعملية قمع الشرطة للتظاهرة التي دعا إليها ٤٠ ألف جزائري لمناسبة الاستقلال، في مدن الجزائر ووهران والبليدة وغيرها من مناطق الجزائر الحديثة، حيث وقعت هذه الفظاعة بين أنسبائهم الكهول، إذ يقال إن ٤٠٠ جزائري تعرضوا للقتل على أيدي رجال بابون. ويرجح بعض المؤرخين أن العدد قد يكون ٢٥٠ شخصًا. أما بابون فيفضل الادعاء بمقتل اثنين فقط.

ويطاول الأمر نفسه الحاج أمين الحسيني، وهو المفتي العام لمدينة القدس. فهو المفتي الذي فرّ إلى العراق خلال الحرب العالمية الثانية، ثم هرب مجددًا بعدما تمكن البريطانيون من القضاء على الحكومية الموالية لدول المحور، التي

استحوذت على السلطة في بغداد، حيث انتهى به الأمر في برلين النازيّة وهو يصافح هتلر، كذلك عمل في حماسةٍ لمصلحة ماكينة الحملة الدعائية التابعة للرايخ الثالث.

استرجعتُ هذه الأمور كلها الأسبوع المنصرم، حين تلقيت رسالة مهمة من تولوز على صندوق البريد خاصتي في بيروت. وجاءت ردًا على مقالتي التي كتبتها عن إيرين نميروفسكي والتي خلّفت تذمرًا قاسيًا لدى الملحق الصحافي في السفارة الفرنسية في لندن. لكن الرسالة الموجهة من تولوز، والمكتوبة بلغة إنكليزية تشوبها أخطاء القواعد إلى حد ما، كتبتها ابنة نميروفسكي الوحيدة التي ما زالت على قيد الحياة، دنيز إبشتاين، وآمل ألا تمانع من اقتباسي أجزاء منها:

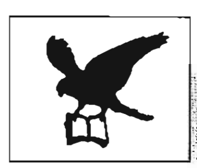
«اسمح لي بأن أعرّفك إلى نفسي: أنا ابنة إيرين نميروفسكي... أردت أن أشكر لك أنك تحدثت عن والدتي بطريقة جيّدة. من دون أي شك، أدى هذا الكتاب إلى إيقاظ بعض الضمائر، ولكن وفقًا لما أعلمتني إياه حيال تصرف السفارة الفرنسيّة عندما يستذكر أحدٌ ما الأطفال اليهود الذين قُتلوا بالتآمر مع السلطات آنذاك، أدرك أن الذكرى مُوِّهت فعلًا بطريقة سهلة جدًّا، الأمر الذي يفتح الباب على مصراعيه بالنسبة إلى مجازر أخرى راح ضحيتها الأبرياء، أيًا تكن أصولهم. لذا، أود أن أوجّه إليك هذه الرسالة القصيرة. بتأثر وشكر كاملين أبلغ الآن من العمر ٧٧ سنة. وعلى رغم ذلك، أعيش كل يوم مع هذا الماضي الذي يُثقل كاهلي، وتم التخفيف من وطأته جراء سعادتي لإعادة إحياء والديّ. كما آمل في الوقت نفسه، تمامًا مثلهما، بإعادة إحياء ذكرى جميع هؤلاء الذين لا يتحدث عنهم أحد بعد الآن. ملاحظة: اعذرني على لغتي الإنكليزية الركيكة!»[*].

(*) رسالة موجهة من دنيز إبشتاين إلى الكاتب في ٣ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٦

سيكون من الصعب إيجاد كلمات أكثر تأثيرًا من تلك. إنه إيمان مدرك بأن من الممكن استحضار الأموات من خلال عباراتهم الخاصة بالتزامن مع التذكر السخيّ الكبير للأبرياء الآخرين الذين قُتِلوا في مجازر أخرى. إن الصورة المذهلة الخاصة بـ«تمويه الذكرى» تحمل في طياتها رسالتها الخاصة. وهذا بالتأكيد ما عاناه الحاج أمين، وحدث مع بابون أيضًا، وفقًا لما أفترض، قبل دفن الرجل العجوز المريع الأسبوع المنصرم.

«ذي إندبندنت»، ٢٤ شباط/فبراير ٢٠٠٧





مجموعة كريم بقرادوني

- لعنة وطن
- السلام المفقود
- صدمة وصمود

مجموعة شكري نصرالله

- **مذكرات قبل أوانها** - شكري نصرالله
- **السنوات الطيبة** - شكري نصرالله
- **ستّ الستّات** - **علياء رياض الصلح** - شكري نصرالله



- **تقي الدين الصلح سيرة حياة وكفاح** - (جزآن) - عمر زين
- **مبادئ المعارضة اللبنانية** - حسين الحسيني
- **رؤية للمستقبل** - الرئيس أمين الجميل
- **الضوء الأصفر** - عبدالله بو حبيب
- **الخلوي أشهر فضائح العصر** - ألين حلاق
- **أصوات قلبت العالم** - كيري كندي
- **الخيارات الصعبة** - د. إيلي سالم
- **أسرار مكشوفة** - اسرائيل شاحاك
- **الولايات المتحدة الصقور الكاسرة في وجه العدالة والديموقراطية** - تحرير برند هام
- **مزارع شبعا حقائق ووثائق** - منيف الخطيب
- **الأشياء بأسمائها** - العقيد عاكف حيدر
- **اللوبي** - إدوار تيفنن
- **أرض لا تهدأ** - د. معين حداد
- **الوجه الآخر لإسرائيل** - سوزان نايثن
- **مساومات مع الشيطان** - ستيفن غرين
- **بالسيف أميركا وإسرائيل في الشرق الأوسط** - ستيفن غرين
- **الأسد** - باتريك سيل
- **الفرص الضائعة** - أمين هويدي
- **طريق أوسلو** - محمود عباس
- **الأمة العربية إلى أين؟** - د. محمد فاضل الجمالي
- **النفط** - د. هاني حبيب
- **الصهيونية الشرق أوسطية** - إنعام رعد
- **حربا بريطانيا والعراق** - رغيد الصلح
- **نحو دولة حديثة بعيداً عن ٨ و١٤ آذار** - الشيخ محمد علي الحاج العاملي
- **الحصاد** - جون كوولي
- **عاصفة الصحراء** - اريك لوران
- **حرب تحرير الكويت** - د. حبيب الرحمن
- **حرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- **المفكرة المخفية لحرب الخليج** - بيار سالينجر وإريك لوران
- **الماسونية - دولة في الدولة** - هنري كوستون
- **النفط والحرب والمدينة** - د. فيصل حميد
- **رحلة العمر من بيت الشعر إلى سدّة الحكم** - د. عبد السلام المجالي
- **الدولة الديموقراطية** - د. منذر الشاوي
- **التحدي الإسلامي في الجزائر** - مايكل ويليس
- **السكرتير السابع والأخير** - ميشيل هيلير
- **التشكيلات الناصرية في لبنان** - شوكت اشتي
- **كوفي أنان رجل سلام في عالم من الحروب** - ستانلي ميسلر
- **عزيزي الرئيس بوش** - سيندي شيهان
- **الولايات غير المتحدة اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **رؤساء الجمهورية اللبنانية** - شادي خليل أبو عيسى
- **أوزبكستان على عتبة القرن الواحد والعشرين** - إسلام كريموف
- **أوزبكستان على تعميق الإصلاحات الاقتصادية** - إسلام كريموف



- **العرب والإسلام في أوزبكستان** - بوريبوي أحمدوف وزاهدالله مندوروف
- **إسرائيل والصراع المستمر** - ربيع داغر
- **أبي لافرنتي بيريا** - سيرغو بيريا
- **الفهم الثوري للدين والماركسية** - زاهر الخطيب
- **الديبلوماسية على نهر الأردن** - د. منذر حدادين
- **المال إن حكم** - هنري إده
- **قراصنة أميركا الجنوبية - أبطال يتحدّون الهيمنة الأميركية** - طارق علي
- **اللوبي الإسرائيلي وسياسة أميركا الخارجية** - جون ج. ميرشايمر وستيفن م. والت
- **على خط النار - مذكرات الرئيس الباكستاني** برويز مشرف
- **قرارات مصيرية: حياتي في دهاليز السياسة** - غيرهارد شرودر
- **امرأة في السلطة** - كارل برنستين
- **الطبقة الضاربة** - دايفد روثكوبف
- **ابنة القدر** - بنازير بوتو
- **إرث من الرماد** - تيم واينر
- **حكاية وطن** - ا.د. سري نسيبه
- **بلاكووتر - أخطر منظمة سرية في العالم** - جيريمي سكاهيل
- **حروب الأشباح** - ستيف كول
- **سنوات بلير** - ألستير كامبل وريتشارد سكوت
- **الأيادي السود** - نجاح واكيم
- **ستالين الشاب** - سيمون سيباغ مونتيفيوري
- **تعتيم** - بقلم آمي وديفيد جودمان
- **دارفور تاريخ حرب وإبادة** - جولي فلنت وألكس دي فال
- **بالعطاء لكلٍّ منّا أن يغيّر العالم** - بيل كلينتون
- **رئيس مجلس الوزراء في لبنان بعد الطائف ١٩٨٩ - ١٩٩٨** - محمود عثمان
- **تواطؤ ضد بابل** - جون كولي
- **العلاقات اللبنانية - السورية** - د. غسان عيسى
- **سوكلين وأخواتها** - غادة عيد
- **. . .؟! أساس الملك** - غادة عيد
- **الخلوي أكبر الصفقات** - غادة عيد
- **ما وراء البيت الأبيض** - جيمي كارتر
- **السلام ممكن في الأراضي المقدسة** - جيمي كارتر
- **المصالحة - الإسلام والديموقراطية والغرب** - بنازير بوتو
- **قضيّة سامة** - يوست ر. هيلترمان
- **لبنان بين ردَّة وريادة** - ألبير منصور
- **الأمن الوطني الداخلي لدولة الإمارات العربية المتحدة** - عائشة محمد المحياس
- **سجن غوانتانامو - شهادات حيّة بألسنة المعتقلين** - مايفيتش رخسانا خان
- **في قلب المملكة - حياتي في السعودية** - كارمن بن لادن
- **هكذا.. وقع التوطين**- ناديا شريم الحاج
- **إرث من الرماد - تاريخ «السي.آي.أيه.»** - تيم واينر
- **لبنان: أزمات الداخل وتدخّلات الخارج** - مركز عصام فارس للشؤون اللبنانية
- **أميركا من الداخل** - د. سمير التنير
- **سوريا ومفاوضات السلام في الشرق الأوسط** - جمال واكيم
- **إنّه بن لادن** - بقلم جين ساسون
- **ضريبة الدم** - ت. كريستيان ميلر



الجية، طلعة زاروط،
مبنى **International Press**، لبنان
هاتف: +٩٦١ ٧ ٩٩٦٢٠٠/٣٠٠
البريد الإلكتروني: **Interpress@int-press.com**
الموقع الإلكتروني: **www.int-press.com**



هذا الكتاب

لحقائق الشرق الأوسط مع روبرت فيسك طعم آخر بالنظر إلى جرأته وخبرته الواسعة في العمل الصحفي ومتابعته ميدانيّاً، ولأنه يجيد العربية ويعرف المنطقة العربية أكثر من أصحابها، ولأن له علاقات متشعِّبة مع كبار المسؤولين والقادة، فضلاً عن كونه موضوعيّاً مستقلاً لا يخضع لسلطة أو نفوذ..

- طرح أكثر الموضوعات سخونة وإثارة للجدل والخلاف مثل الحرب على العراق، الحرب على لبنان، المحرقة اليهودية، مذبحة الأرمن، التمييز العرقي في فلسطين.
- قابل أهم الشخصيات السياسية والقيادية في المنطقة والعالم.
- قدّم شهادات حيّة من مواقع الأحداث.
- أبرز نفاق حكومات الغرب، وفشل الحكومات العربية إلا في أن تكون فاسدة.
- حذّر من خطر الأفلام الوثائقية وأجهزة الإعلام اللتين تحوّران الأحداث وتلفّقان الأخبار وفق إرادات معيّنة.
- تطرّق لأول مرّة إلى حياته الشخصية وآرائه في السينما والثقافة عموماً.

مئة مقال ومقال نشرت في الأندبندنت، تشكّل مرجعاً أساسيّاً لأحداث الشرق الأوسط حتى اللحظة.





ISBN 978-9953-88-583-4



شارع جان دارك - بناية الوهاد
ص.ب: ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان
تلفون: ٠٠٩٦١١٣٥٠٧٢٢ - ٧٥٠٨٧٢
تلفون+فاكس: ٣٤١٩٠٧ - ٣٤٢٠٠٥ - ٠٠٩٦١١٧٥٢٥٤٧

tradebooks@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر